

الدكتور موسى عبد الله حامد

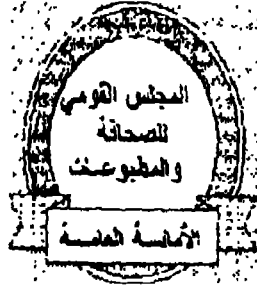
# صدى السنين - ٢

( ذكريات حبيبة )

أم درمان الأميرية ... سراديب الصدى

الطبعة الثانية

١٩٩٨



التاريخ / ٢٨ / ١٤٠٤ هـ  
الموافق / ٤ / ٢٠٢٣ م

التمره : م د ي من م / ٣٩٦ / ٥

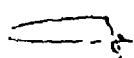
السيد / د. موسى عبد الله حامد

لله  
السلام عليكم ورحمة

**الموضوع:** تحذير طباعة كتاب ذكيات حبيبة

- أشرفاً لطلب المتكلم منكم نهذه نهذه الأمانة والخاص بتموضوع أعلاه ، به  
أن كفل لكم مرلفتنا على طباعة هذا الكتاب ووفقه للضوابط والشروط التالية :-
- ١/ كلفة اسم المطبوع في مكان بارز .
  - ٢/ كلفة رقم الإيداع ( ١٧/٣١٠ ) في اخر صفحة من المطبوع .
  - ٣/ إيداع خمس نسخ من الكتاب لدى الأمانة العامة للمجلس .
  - ٤/ من حق الأمانة العامة للمجلس إتخاذ أي توزيع لأي كتاب لا يستوفي الشرفاء  
أعلاه .
  - ٥/ يسرى مفعول هذا التصديق لمدة عام .

والله ولي التوفيق ...

  
عشوان أبو زيد عثمان

الأمين العام للمجلس القومي للصحافة  
والمطبوعات

## أهداء

إلى رفقة تلك الأيام النجب المراح ..  
تزامنة واساتذة وعاملين .. أهدى هذه  
الصفحات . وفاء للذكرى ، وحنينا للوداد ،  
وادكارا للمحبة .

المؤلف

هَذِي الرُّبَا كَمْ ضَاقَ فِي فِضَاؤِهَا  
مَالِي عَلَى جَنَابَاتِهَا أَتَعَثَّرُ!

شَبَّ الحَصَى فِيهَا وَدُونَ زِحَامِهِ  
دَرَبٌ يَغِيبُ وَأَخْرٌ يَتَكَسَّرُ

وَمَلَاعِيبِي وَمَجْرٌ أُذِيَالِي بِهَا  
بُعْدَتْ ، فَمَا تَرْقَى إِلَيْهَا الأَنْسُرُ

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهَا تَتَغَيَّرُ!

**عمر أبوريشة**

## الاخ الصديق موسى

تحية طيبة مباركة وبعد

كتاب « صدى السنين » اعارنى له الاخ العزيز الدكتور احمد حسب الرسول مصراً على ان أرجعه له بعد اطلاقى عليه ووعده بذلك . وتصفحت هذا السفر اثناء وجودى مع أحمد ورجعت بى الذاكرة الى تلك الأيام الزاخرة والى ذلك الجمع المخلص الأمين من الاخوة والرفاق الاعزاء الافاضل . والذي يعرف الصديق العزيز موسى عبدالله حامد لا يستغرب البتة لهذا الانجاز الضخم الذى يحوى ويصور حياة الاخوة العظماء الذين عايشوا تلك الحقبة وانى اذكركم ويضئنى الاسى لمن فارق منهم الحياة عليهم رحمة الله واتشوق لملاقاة من هم على قيد الحياة مشتتين داخل البلاد وخارجها فقد حرك هذا الكتاب فى الصدور عوامل التقاء الأحبة والصفاء والطيبة .

وموسى وشخصى التقيا فى اول عام ١٩٤٦ - بمدرسة ام درمان الاميرية - الثوانى ( كان الثوانى فى ذلك العام ببيت المال - والوائل بود نويوى ) وقدم موسى من بحر ابيض ومن الكوة على وجه التحديد وقدمت انا من السروراب - ريفى شمال العاصمة وكان القادم من بحر ابيض مبهوراً فى بدء حياته بام درمان رغم انه كان احسن حالاً ممن قدم من ام غنيم الاخ الفاضل عبد الرحمن كنتبائى ( الدكتور حالياً نسأل الله له العافية ) وكانت الطفرة الحضارية الشديدة للقادمين من بحر ابيض تشجيعهما العنيف لفريق الهلال .

وقضينا بمدرسة ام درمان الاميرية اياماً طيبة ولم تمح مسحة المدنية اصالة القرية وطيبتها وان انس لا انسى اساتذتنا الاجلاء بمدرسة ام درمان الاميرية - وكان ان بدأنا جهداً قبل سنوات لنعمر مدرسة ام درمان الاميرية ونجدد حيويتها ونحى تراثها ولم يشأ الله لنا ان نواصل المشوار واسأله تعالى ان يوفقنا للقيام بتلك المهمة السامية لتمجيد ام درمان الاميرييه وتخليد ذكراها وفاءً وعرفانا ليس لجيلنا فحسب ولكن لاجيال آبائنا السابقين وقد تخرج منها ابى رحمه الله عام ١٩١٣ .

وانذكر اساتذتنا الاجلاء بمدرسة ام درمان الاميرية شاكرأ ومقدراً لهم انهم قبل تعليمهم لنا الدرس وهذا بالطبع واجبههم الاساسى فانهم علمونا الحياة وعلمونا علاقة الطالب باستاذه وملأوا قلوبنا بالاستبشار لمستقبل هذه الأمة .

أعود الى كلمات موسى فى صدى السنين وكما يقال فان الكلمة احياناً قد تمنع رصاصة لانها بالطبع اقوى وبالقطع ابقى - فموسى الاديب قبل ان يكون موسى الطبيب وانكر كيف كان يتجلى والاخ ابو الدفاع ( الاستاذ دفع الله الحاج يوسف ) كيف كانا يصلوان ويجولان فى ليالى القبة بمدرسة ام درمان الاميرية حينما يفرض عليك ان تاخذ وريقة من القبة مكتوباً عليها موضوعاً لا سابق معرفة لك به ،ويطلب منك ان تتحدث فى ذلك الموضوع لمدة خمس دقائق على اقلها - وكان ذلك بالطبع اسلوباً ممتازاً فى تعليم الطالب على الخطابة منذ صغره ولم يكن ذلك تنقيصاً لقدر اللغة الانجليزية وقتها بقدر ما كان دعماً وتدريباً على اجادة لغة البلاد - واين نحن من ذلك الزمن عندما كان يفرض علينا استاذنا محمود على الياس قراءة كتاب بالانجليزية وتلخيصه للفصل كل يوم اربعاء اسبوعياً .

انتقل عدد كبير من تلامذة ام درمان الاميرية الى خور طقت الثانوية فى اول عام ١٩٥٠ ورغم ان هنالك من قدم من الاهلية وحى العرب لكن مجموعة ام درمان الاميرية كانت مؤثرة مع اعتذارى للأخوين صديق احمد اسماعيل ومختار التوم ( الاهلية ) وقد قدما لخور طقت منضمين للسنة الثانية - والاخوان عمرابى وابو العايلة والشفيع واحمد المامون حى العرب - وغيرهم من الاهلية وحى العرب .

وبالطبع كون القادمون من مدارس العاصمة ما سمي باولاد العاصمة والتقوا بمجموعة اولاد الغرب والقادمين من مناطق السودان المختلفة وربطت بين المجموعتين وشائج حميمة .

وقد تعمدت ان اصل ام درمان الاميرية بخور طقت لفاعلية تلك الثقة فى مجتمع الخور الجديد رغم قلة عدديتها مقارنة بالكل - وكثرتهم بالنسبة للمدرسة الوسطى القادمين

منها وكونوا حلقة مترابطة كان اثرها واضحاً في مجتمع مدرسة خور طقت الثانوية .  
ومن هذه الحلقة - ولا اود ان اسميها النواة ( رغم ان النواة هي اصل النخلة  
السامقة ) امتدت بل انشرت العلاقات الواسعة والصلات الطيبة الى بقية اسرة  
المدرسة من ابناء الغرب وابناء الشمال وكان ان امتزجت الثقافات المختلفة ( العادات  
والتقاليد ) ونشأت صداقات حميمة في شلليات لطيفة - ابو الحسوس مع الحاج الكبتل  
وانور عبد الحليم ويوسف المبارك عليه رحمة الله مع الرشيد ابو الزين ومختار وابو  
العايلة والاغيش وأبو الزبير وغيرهم وغيرهم .

الاخ الصديق لقد جاءت كلماتي هذه عفوية ومستعجلة كما كانت كلمات خطابك من قبل  
« عفوية متتابعة تتواكب من افكار الذاكرة ومسارب الوجدان »

ورغم ان الكلام عن ام درمان الأميركية قد ورد عرضاً في ثنايا الحديث فرجائي ان  
يشمل « صدى السنين » سنوات ام درمان الوسطى فقد كانت ايامنا بها زاخرة ايضاً  
وربط الحقبين يكمل صورة مجتمعنا الحقيقية في ذلك الزمان والعتبي للقادمين الى  
خور طقت من مدارس غير ام درمان الأميركية .

اني انا شددك وانت صاحب فكر ثاقب ونكاه حاد وذا كرة قوية واسلوب ممتع اخاذ  
اريدك ان تتحدث عن الاساتذة - احمد محمد صالح ( رحمه الله ) ويوسف زمراوى  
( رحمه الله ) وفرح اطال الله عمره والشيخ ابوبكر ( رحمه الله ) وبقيتهم اذكر منهم .  
محمد المامون الريح - ابراهيم الياس . السبكي الجزولى - كمال البكرى كيلانى -  
محمود الضرير - احمد اسماعيل النضيف - عوض طلحة - عبد الوهاب الشيخ -  
خليفة خوجلى - محمد الطيب - احمد زين العابدين - محمد عبد الماجد احمد -  
محمود على الياس ثابت احمد ثابت - غزالي السراج - عثمان على ابراهيم - ابراهيم  
على ( التجارة الثانوية الصغرى ) - حسن رابع - محجوب على - الهادى احمد  
محمد صالح - حسن محمد الأمين - حسين الغول - مالك محمد مالك - يوسف  
الخليفة - شيخ الخاتم . ومن مدرسة التجارة الثانوية الصغرى ايضاً هاشم ضيف الله

وعلك تذكره جيداً يا موسى وانت واله بحب الهلال كيف كان يدرب كابتن صديق منزول  
منفرداً على تسديد ركلة الجزاء بميادين جامع الخليفة . كما لا يفوتنى ان اذكرك بالعم  
مبارك وعبد العزيز بكوسه وشيخ ادريس وجادين وغيرهم من اسرة المدرسة لهم  
التحية والتقدير والاجلال .  
رحم الله من اختاره منهم الى جواره رحمة واسعة وأمد الله فى ايام الاحياء صحة  
وعافية .

وختاماً اخالك انت فاعلاً ذلك يا موسى ونحن من  
ورائك مساعدون وفقك الله وهو المستعان ولك منى  
أجزل الشكر .

أخوكم  
مصباح الصالحق  
( السرورابى )



بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

كنت قد تلقيت منذ بضع سنين خطاباً رقيقاً من الاخ الحبيب مصباح الصادق زميل الدراسة والحداثة والصبيا ، يعبر فيه عن مشاعر صادقة وفية أثارها في نفسه كتيب « صدى السنين » الذى ما كان فى أصله سوى خطاب بعثت به إلى الاخ الحبيب كمال حمزة رداً على رسالة كريمة منه تساند بالقول والفعل جهودنا لتطوير وتحديث مستشفى ام درمان التعليمى . فكان الفضل فى صدور كتيب « صدى السنين » فى هذه الطبعة الانيقة عائداً الى كمال فهو شريكى فى السنوات الخضر التى خلفت ذلك الصدى . وها هو ذا خطاب مصباح مثبت فى هذه الصفحات التى سلفت ، يتغنى بأصداء سنوات اخرى سبقت ذلك الصدى ثم اندغمت فيه اذلولاً ذاك لما كان هذا . لقد قرأت خطاب مصباح ساعة استلامه وسعدت به ، ولكنى كنت فى شغل شاغل عن الكتابة التى رأيتة يستحثنى عليها ويغرينى بها ، وذلك بعد أن فرغت لتوى من كتابة سفر عن راتب الامام المهدي مازال يتعثّر فى الطباعة . شغلتنى هموم الحياة ومشقاتها التى تفاقمت فى السنوات الأخيرة ، حتى صار اليوم لا يساوى فى حساب الزمن إلا ما يساويه الجنيه فى أتون السوق . فطويت خطاب مصباح واودعته مع شتات أوراقى فى ركن قصى من أركان مكتبتى ، ثم أنسيته تماماً . ولكنى كنت التقى مصباحاً من وقت لآخر - وأن كان ذلك فى فترات متباعدة - فيدور الحديث فيما بيننا حول أيام ام درمان الأميرية وخور طقت . فاذا كان ذلك استشعرت نوعاً من الخجل والتقصير فى ما نذب إلى خطابه أن أشرع فيه . وأكدت له مازحاً ذات مرة أنى اعرف خطه منذ أيام الدراسة وهو ليس أوضح أو « أشيك » من خطى ، وأن هذا الخط الذى رأيتة فى الخطاب ينم عن مقدرة عالية وموهبة أصيلة ومعرفة محيطية بفنون خط « الرقعة » ما كان لرجل من قرية السروراب بعيداً عن أسباب الحضارة وبواعى المدنية أن تتاح له أو يجد اليها سبيلاً . فكان مصباح يضحك طويلاً ويقول : بالله شوف بتاع الكوة

والجزيرة أبا دا كمانعاوز يكلمنا عن الحضارة والمدنية ! ولكنه اعترف لى في نهاية الأمر بأن نص الخطاب وروحه من بنات وجدانه وخواطره ، غير أن الخط ورسم الأحرف والكلمات انما أبدعته يد الاستاذ الخالد هاشم ضيف الله . فأوحى إلى هذا « الاعتراف » فيما اوحى بأن مصباحاً كان شديد الاهتمام بهذا الخطاب وما اشتمل عليه ، وأن عدم استجابتي لرغبته الوفية الصادقة فى هذه الرسالة ربما ثقل على نفسه فمنعه الحياء من إظهار ذلك . ومصباح أخ أثير حبيب إلى النفس ، ليس بمقدورى أن أتغافل عن بغيته أو أعده بأمر ثم أدفع بالمطل والتسويق . ولذلك عدت إلى دارى اقلب أوراقى بحثاً عن ذلك الخطاب ، فظلمت ابحت عنه بين أكوام الكتب والأوراق طوال أسابيع حتى أعثرنى الله عليه بما يشبه المعجزة . فحمدت ربى على ذلك وتلوته مراراً ، ثم أمسكت بقلمى أحاول أن أتذكر أولاد فصلنا « التوانى » فى ام درمان الاميرية . وعجبت كيف تواردت على الأسماء والوجوه تبعاً حتى رصدت جميع اولاد الفصل والاساتذة فى وقت قصير . وكأنى اقرأ الاسماء من صفحات دفاتر الغيب وهى مثبتة منقوشة امام ناظرى ، وكأنى أتفرس الوجوه وهى تطالعنى جلية واضحة من وراء ستور الحقب والدهور .

ثم عدت أقرأ خطاب مصباح علي رسلى بشئ من التفكير والتدبر فتحركت فى نفسى وطافت بمخيلتى أسراب أحاسيس قديمة وتصاوير أحداث بعيدة طفقت تمر بخاطرى متهادية وثيدة الخطى وتخاطبنى أصداؤها من وراء الاماد جهرة دون خفاء . فعرفت كما يعرف الجسم بعضه وأنست بها كما يأنس بالغريب غريب مثله .

خليلى انا غريبان هاهنا . . . وكل غريب للغريب نسيب

انها صور جليات تبينتها من خلال أحرف الخطاب ، تتدافع تلقائى تبعاً وأنا ارقب سيرها شطر خواطرى يكتب فى صفحات الغيب المشاهد بنور الذاكرة ويصر البصيرة كلمات رقيقات تومض بأضواء أحلام تفرقت بين هضاب السنين ووديان المدى وقرت أصداؤها فى رحاب الأثير وأجواف الغيوب . كلمات رقائق نواطق دون السنة أو شفاه منتقشات سواطع بلا طرس ولا قلم . أشبه شئ بالهمس أو الرفيف أو اهتران

الغصون تراقص سكرى نسيما السحر . خضلات مفعمات بنطاف الندى ٥ افئفات  
كدموع شوق وذكرى وحنين ، ناثرات على رياض الخواطر وأكامها - كما الوسمى -  
أشباه الدرر . سمعتها جميع مشاعري وهى تنشد :

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكاً .  
وقد فتقَّ النيروز فى غسق الدجى .  
من الحسن حتى كاد أن يتكلما  
أواشل ورد كنُ بالامس نُوماً

لقد جاءت كلمات هذا الخطاب كما يجئ الربيع الطلق يخال ضاحكاً ، أو كما  
تجىء لمةُ الملك يتغشأك على أثرها الرضا والأمان . فأنست بها بعد وحشة ،  
وانفرجت لها جوانح القلب بعد انقباض . وذلك أنها تقرر أبواب الذاكرة فى الحاح  
فتُسرج فيها مشاعل أوشكت أن تخبو أو تتركن إلى الذبول ، وتبعث من طياتها أطيافاً  
وتصاوير من مرأى الطفولة والحدائث ظلت غوافى ساكنات من وراء جحافل السنين  
حتى كادت أن تطفئ مصابيحها رياح الزمن . فتتقد السرج فى عرصات الذاكرة  
بضياء غمر وهاج ينضوعنها ظلمات الغفلة والنسيان . فاذا الأحداث كما لو وقعت منذ  
هنيهة ، وإذا الناس كما لو أيقظهم من بعد الهجعة فى قاع الماضى أنغام الذكرى  
تحتشد بها الأفاق ، يمثلون بذواتهم التى عرفت منذ « أيام زمان » وتدعوهم اليك  
بأسمائهم وكنياتهم وألقابهم ، فاذا هم قيام ينظرون . فنحن - كما قلت لك من قبل فى  
غير هذا السياق - أمة ذكريات لأن الذكريات حبيبة إلى انفسنا أثيرة عندنا . نحن أمة  
البكاء على الماضى ، نوأحون على مافات ولن يعود نحسن الأسى ونستعذب من الزاد  
الحنين . تدركننا أيام الغيوث والخصب والرخاء نزرع سبع سنين دأباً فما حصدناه لا  
نذره فى سنبله الا قليلا مما نأكل حتى اذا المت بنا الأزمنة القحط الترابية الكالحة  
المغبرة استبد بنا الحنين وها جنا الشوق إلى عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون .  
ولهذا حبيت إلى نفوسنا الذكريات لأنها بعض أحلام غوال فيها كثير من السلوان . فلا  
غرو أنى تلوت مشوقاً خطاب مصباح ونعمت به لان وراء كلماته البيئات صحائف  
ذكريات حبيبة خفيت أحرفها عن نظر العين خفاء فاطلعت عليها الذاكرة ببصر الفؤاد  
ونور الوفاء . قرأتها على انبهام حروفها ، وسمعتها على خفوت رنينها ، وأبصرتها على

بعد الشقة واتساع المدى ، فاذا هي ظاهرة من وراء ستر من الغيب سميك . واذا هذه الذكريات منبعثة من مرقدتها شديدة التمسك بالبقاء ، تأبى إلا أن تترامى فى رحاب هذه الأسطر والصفحات ، والا ان تسيل من قنن الماضى الأهل البعيد الى وديان الغربية الجديدة التى يعيشها جيلنا البكاء . فهى مثله غريبة تمشى فى شعاب لا تعرف دروبها ، ويعيها السير على ارض الصخور والحصباء والرمضاء والأشواك ، فتشعر جناحيها لتسبح فى فضاء رحب ينقلها من إسار الضيق الى آفاق السعة ، لأنها تستوحش فى ملا ينكرها ويكبلها بالأغلال ، وتأنس بالوحدة فى دنيا لاتعرف معنى الأصفاد . وذلك لان الاسر فى الضيق ولان السعة فى الطلاقة

كل افق تضيق به أسيراً . . . سعة الأفق أن تكون طليقا

غير ان الذى ادعوك لمطالعتة علي هذه الصفحات ليس من التوثيق فى شئ بل هو شتات انطباعات متفرقة . ولولا خطاب مصباح لربما تأخر او تعذر اجتماعها على هذه الطروس وربما لم يجد كاتبها من الهمة والوقت مايهون عليه مؤونة التصدى لها استكتاباً للذاكرة ورسداً لبعض ما علق بها منذ تلك الأزمان . فاذا قرأت هذا الحديث وقدر له ان يقع من نفسك موقعاً ترضاه فعد بشكرك على مصباح الصادق لأنه صاحب الفكرة التى أتت به ورائد هذه السياحات التى نود ان تصحبنا على دروبها . واذا كانت الاخرى فلا تلومن مصباحاً ولننى ، لانه اراد خيراً وجانبنى التوفيق . فهو قد ائتمنى على كتابة هذه الذكريات ، ولو انه توفر على سردها لجاعت ابلغ وأتم ، لانى رايته يختزن دقائقها فى ذاكرته اوفى اختزان . فاذا رأيت - وانت تقرأ حديثى هذا - أنى قد تعديت على سلامة نوبك بطرح مايمكن ان ينعت بالغتائث او بالفساد امام ناظريك فانى أمل ان توطئ لى عند نفسك العذر والصفح والمسامحة . فانى لو خرجت من هذا الذى اكتب كفافاً لالى ولا على لكنت رابحاً موفور الحمد لربى . وذلك لان الذى يكتب غير الذى يُقال . فاذا كان الكلام مظنة التعرض لزلات اللسان فان سلطان النسيان كفيل بمحوه وان طيات الاثير قمينة بابتلاعه حتى لايبقى منه شئ . ولكن الكتابة هى مظنة الوقوع فى الخطأ وهى تبقى شاهداً عليه ليس الي رد شهادته من سبيل . وكتابة

الذكريات بطريقة ترضى كل الناس هي أقرب شئ للمستحيل ، لان العقل عاجز عن الاحاطة بصحاح الأمور ، وقاصر عن الافتاء المعافى فى عصيات القضايا . وذلك هو الذى أشعر أبا العلاء المعرى بالبؤس وشئ من القنوط ، فصار يصور حالته هذا التصوير الهادئ المؤثر اللطيف الذى ينزل على النفس هيناً ترضاه إذ يقول :

عيون العالمين الى اغتماضٍ . . . وأبصار النجوم سيغتمضنه  
وقد سرُّ المعاشر باقيات . . . من الأنباء سررنٌ ليستفضنه  
أرى الأزمان أوعية لذكر . . . إذا بسط الأوان له نفضنه  
قد انقرضت ممالك آل كسرى . . . سوى سير لهن سينقرضنه  
فطر ان كنت يو مأ ذا جناح . . . فان قوادم البازى يهضنه  
وكم طير قصصن لغير نذب . . . والزمن السجون فمانهضنه

ومادام الانسان حياً فهو معين ذكريات لاينتضب ، الا ان يكون فاقد الاحساس فليس ذلك من الحياة فى شئ . فالحى لايزهد فى اجتلاء ما حُببَ الى نفسه من ذكريات لأنها غذاء لروحه وزاد لوجدانه خلال الأزمنة القاسية . وماذ بقى لنا فى هذه الأزمنة الكوالح سوى أن ننبش ركام الماضى ونأوى إليه نتداوى به من الشرق بالأسى والغصة بعلاقم العصر الذى نعيش فيه . لو شهد ابوالعلاء هذا الزمان الذى نحن فيه لحق له ان ينشد مرة أخرى نون تثريب عليه من أحد :

يدل على فضل الممات وكونه . . . إراحة جسم أن مسلكه صعبُ  
ألم تر أن المجد تلقاك دونه . . . شدائد من أمثالها وجب الرعب ؟  
إذا افترقت أجزاؤناحط ثقلنا . . . ونحمل عبئاً حين يلتئم الشَّعب  
وأمسِ نوى راعيك وهو مودع . . . ولو كان حياً قام فى يده قعب

فهذا زمان الخيارات الصعبة والبدائل المستحيلة وليس بالمستنكر أن يقال فى مثله : باطن الأرض خير من ظاهرها . ولو أدركه ابوالعلاء لحمد الكمه ولوضع هذا الزمان النكد مكان العمى ثالثاً لسجونه التى أنشد فى حقها :

أرانى فى الثلاثة من سجونى . . . فلا تسأل عن الخبر النسبث

لفقدى ناظرى ولزوم بيتسى . . . وكون النفس فى الجسم الخبيث

ولكن ، لنعد الي حديث الذكريات ، فلعله يعيننا على استشراف آفاق السلوان . فقد كانت ام درمان الاميرية الوسطى عالماً من عوالم النور . ولما بين ام درمان الاميرية وخطقت الثانوية من صلة وثيقة تشمل الاساتذة والتلاميذ علي السواء فان هذه الذكريات تتارجع بين صخب كشة الكلية وهدوء اودية العمارة . فليعذرني من تختلط عليه الامور وتعييه وعشاء التنقل والترحال بين هذين الربيعين الأثيريين الحبيين الي النفس فكلاهما قد شهد ألواناً من مسرات ذلك الجيل، وكلاهما أصبح اليوم فى حقيقة الأمر أترأ بعد عين . وذلك أنى لا اكتب مؤرخاً ، وانما انثر على هذه الصفحات لوافت اشتاتاً من ذكريات أجد نفسى مشدوداً اليها مستهماً بها دون ارادة منى او اختيار . فك العتبي يا من تضيق نفسه بهذا السرد المضطرب المتداعى بغير نظام حتى يبلغ منك الرضا والصفح عنا مبلغاً تلتمس لنا معه العذر والعمو وحسن الظن بالدوافع التى أملت فجاء بهذه الصورة التى لاتخلو من كثير من العيوب . ان شفغ لنا عندك شئ فليكن سلامة النية ، فما قصدنا الا إيناسك بالعود الأحمد الي ما انطوى بين أجواف الأيام والسنين التى تقضت سراعاً ولن تعود . ولو أنى اوتيت بيان شوقى رحمه الله وملكته القادرة علي تخليد ايام الحداثة بخرائد الشعر النظيم لما أثقلت عليك بكثرة الكلام . ولكنى لست من ذلك فى شئ ، ولم يبق أمامى الا ان اطليل عليك فى الحديث حتى يبلغك منى طرف مما ابتغى وأريد . ولتتظر معى - لترى صدق قولى - الي ما نظمه أمير الشعراء وهويتغنى بذكرىات الحداثة يصورها اروع تصوير إذ يقول :

ألا يا حبيذا صحبة المكتب	وأحبيب بأيامه أحبيب
ويا حبيذا صبية يمرحون	عنان الحياة عليهم صبي
كانهم بسمات الحياة	وأنفاس ريحانها الطيب
يُراح ويُغدى بهم كالقطيع	على مشرق الشمس والمغرب

وراع غريب العصا أجنبى	إلى مرتع ألفوا غيره
شديد على النفس مستصعب	ومستقبل من قيود الحياة
يروض الجناح ، ومن أزغب	فراخ نأك فمن ناهض
مهارة عرابيد فى اللعب	عصافير عند تهجى الدروس
على الأم يلقونها والأب	خليون من نبعات الحياة
تضيق به سعة المذهب	جنون الحداثة من حولهم
وأعدى المؤذب حتى صبى	عدا فاستبد بعقل الصبى
وليس اذا جسد بالطرب	لهم جرس مطرب فى السراح
حقائب فيها الغد المختبى	وتلك الأواعى بأيمانهم
وفيهما المقدم فى الموكب	وفيهما المؤخر خلف الزحام
ومالم يجمل ولم يقشب	جميل عليهم قشيب الثياب
أعز من المخمل المذهب	كساهم بنان الصباحلة
اذا رف فى فرعاه الأهدب	وأبهى من الورد تحت الندى
من الناس ماشٍ ، ولم يسحب	وأطهر من ذيلها لم يلم

وانظر الى هذه الروعة فى تصوير هذا القطيع بين اصبعى الدهر يزجيه كيف  
كانت المشيئة والقضاء ، وذلك قول الشاعر فى الأقدار المحيطة والارادة النافذة .

ليس بلسين ولا صُلْبٍ	قطيع يزجيه راع من الدهر
ونادت على الحُيْدِ الهُرْبِ	أهابت هراواته بالرفساق
ولم يخش شيئاً ولم يرهب	وصرّف قطعانه فاستبد
وأنزل من شاء بالمخضب	أراد لمن شاء رعى الجديد
ورد الظّماء فلم تشرب	وروى على ربهما الناهلات
وضنّ بأخرى فلم تُضرب	والقى رقاباً الى الضارين
ولا ضجر الناقم المتعب	وليس بيالى رضا المستريح
وليس بساكٍ على الفُيْبِ	وليس بمبقرٍ على الحاضرين

ثم انظر اليه كيف ابداع فى وصف التحول من الحدائة الى النضوج ، وكيف  
بكى نواعم الأيام التى تقضت وأفضت بأهلها الى شقاء العقل بالعلم ، وكيف أثمر  
الطموح منارات شواهدق ، فذلك قوله :

فيا ويحهم ! هل أحسُّوا الحياة	لقد لعبوا وهى لم تلعب
ودار الزمان فidal الصبا	وشبَّ الصغار عن المكتب
وجَدَّ الطَّلابُ وكَدَّ الشباب	وأوغل فى الصعب فالأصعب
وعادات نواعم أيامه	سنينَ من الدَّأبِ المُنْصِبِ
وعُذِّبَ بالعلم طلابه	وَعَصَّوا بمنهله الأعذب
رمتهم به شهوات الحياة	وحبَّ النباهة والمكسب
وزهو الأبوة من منجب	يفأخر من ليس بالمنجب
وعقل بعيد مرامى الطماح	كبير اللبانة والمأرب
ولوعُ الرجاء بما لم تنل	عقول الأوالى ولم تطلب
تنقل كالنجم من غيب	يجوب العصور الى غيب
قديم الشعاع كشمس النهار	جديد كمصباحها الملهب
أبو قراط مثل ابن سينا	وهومير مثلُ أبى الطيب
وكلهمُ حَجَرٌ فى البناء	وغرس من المثمر المعقب

وانظر الى عبقرية الشاعر كيف أكملت دورة الزمان بما عودَّ عليه الناس منذ  
القدم ، وكيف تحرى آثارها بهذه الدقة الفائقة ، وكيف أبداع فى وصف تصاريف  
الأقدار واختلاف الدروب وتباين المصائر بعد أن كبر الصغار وشابوا وتفرقت بهم  
السبل . فذلك قوله :

وحدَّش ظفر الزمان الوجوه	وغَيَّضَ من بشرها المعجب
وغال الحدائة شرخ الشباب	ولوشيت المرء فى الشيب
سرى الشيب متنداً فى الرؤوس	سرى النار فى الموضع المعشب
حريق أحاط بخيط الحياة	تعجبت كيف عليهم غبى
ومن تظهر النار فى داره	وفى زرعهم منهمو يرعب



قد انصرفوا بعد علم الكتاب	لسباب من العلم لم يُكتب
حياة يغامر فيها امرؤ	تسلح بالناب والمخلب
وصار الى الفاقة ابن الغنى	ولاقي الغنى ولد المتسرب
وقد ذهب الممتلى صحة	وصح السقيم فلم يذهب
وكم منجب فى تلقى الدروس	تلقى الحياة فلم ينجب
وغاب الرفاق كأن لم يكن	بهم لك عهد ولم تصحب
الى أن فنوا ثلثة ثلثة	فناء السراب على السبب

فهذا قول رائع وهو من أحسن الكلام . وانى لأذكر قصيدة كتبتها وأنا طالب  
آنذاك فى كلية الطب بجامعة الخرطوم جاء فيها هذا البيت :

كبرنا والزمان فتى وشبنا والمنى مرْدُ

فماذ ترانى قائلاً اليوم بعد ان اشتعل الرأس شيباً بالفعل وصارت المنى الى  
ريب المحاق ؟ ولكن بعض أهل الشعر الذين هم أهله حقيقة استوفى المعنى أحسن  
استيفاء حين قال :

أتى الزمان بنوه فى شببته فسرهم ، وأتيناها على الهرم

أفتعجب من بعد كل هذا اذا دعوتك كى نجتلى معاً لطائف كثيراً تقضت ولم يبق  
منها غير الذكريات ؟ أتعجب من طوافى حولها وادكارى مراتعها وأنت تزعم ان الوفاء  
خلق كريم وأن الحنين رديف الوفاء ؟ أتعجب أنى هُرعت الى الماضى اجتليه وأنى  
زهدت فيما هو مائل أمامى من حاضر يورث السقام ؟ أتعجب أنى لا أحدثك عن  
مستقبل مجهول التوقيت معلوم الملامح وأنت تقرأ قول الحق تعالى (ان الله لا يغير  
مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) ؟ فمتى نغير ما بأنفسنا ياترى ؟ والى ان نحدث  
بأنفسنا هذا التغيير الذى هو شرط التغيير الالهى الموعود فانى ادعوك الى ردهات  
الماضى لأنى اشفق عليك من حاضرك البئيس الذى تلتقى فيه احلامك المواضى وأنت  
مذهب نفسك عليها حسرات ، بأمانيك المستقبلية وانت باخع نفسك على اثارها ، ثم  
تبقى هاتيك الأحلام والأمانى أسارى زمانك هذا الذى أنت فيه لاتعدوه ولاتريم . وانى

لأعلم ان هذا الذى اخطه بيمينى قد لا يجد طريقه اليك ولا يبلغك . او قد يتأخر كثيراً فى الوصول اليك . وذلك لان الذى بيننا وبين الطباعة والنشر والتوزيع انما هو عقبات جسمام كأداء . لغلاء الاسعار ، وقلة اليسار ، وشدة الاعسار ، وغيبة الايثار ، وأثرة الصغار ، وصغر الكبار ، وتفشى البوار . انعكست الاية ، واستشككت الغاية ، وكثرت الغواية ، وانطوت الراية عند نقطة البداية ، لغيبة الدراية ، واقتربت النهاية ، فماهى الحكاية ؟ أعذرني على هذا السجع فانى لا أحسنه لكنه لا يدعني ! لقد طلب منى بعض الاخوة ان أعيد كتابة «صدى السنين» بتفصيل ادق ، لانهم مشدودون - مثلى إلى ذلك الصدى ، مدنفون بذكرى تلك الاويقات . وما كان كتيب «صدى السنين» فى حقيقته الا رسالة عجلى بعثت بها الى الاخ الحبيب كمال حمزة فألبسها من وفائه الصادق تلك الحلة الزاهية . وطلب منى اخوة آخرون أن أكتب عن ايام الجامعة ، فتلك ايام ملأى بأحداث شتى وأقوام ميامين . فلئن قدر لهذه الصحائف التى اقدم لها بهذه الكلمات ان تجد قبولاً او بعض استحسان او مايشبه ذلك فلعله يعزز من همى إذا يسر الله ومن بالقدرة والعافية . وليت هؤلاء واولئك يعيوني بما يختزنون فى الذاكرة من صور الناس والأحداث والمكان والزمان ، فان ذلك يجعل مهمتى أيسر قضاءً واوفى بلاغاً . واذا كان ذلك الكتيب الصغير قد حمل اسماً كبيراً فكيف لى بتسمية هذا الحديث الطويل ؟ هذا يشق على كما شق غيره على غيرى فقال :

كأنى مريغ فى الديار طريدة . . . أراها أمامى تارة وورائى

ولكن لماذا ندور حول الاشياء وحول أنفسنا ؟ اليست هذه الذكريات قديمة ؟ فلماذا لا نسمى الاشياء بأسمائها ؟ غير ان العجلة من الشيطان . فهذه الذكريات لاتخلو من محتوى عبثى صرف ، ولكن نسبتها اليه مظنة اتهامنا بفساد الذوق . فمنذا الذى يجمع عبثاً خالصاً فى كتاب ؟ لقد دوختنى التعاريف اللغوية التى تطلق على تلك الأعمار الغضة الحافلة بالعبث ، وأعيتنى محاولة التفريق بين الحداثة والطفولة واليفاعة (اواليقوعة) والصبأ . فان نسبت هذه الذكريات لأى من هاتيك فانى لا أمن مكر أهل

اللغة ونعيمهم على جهلى وقلة إلمامى بحقيقة الفروق بين هذه الألفاظ اللفظية . ويخيل الى  
أنى واجد فى القدم متكأ مريحاً أسند اليه ظهري وأنسب اليه هذه الذكريات . ولكنى  
أخشى ايضاً من علماء التاريخ ، لان القديم عندهم قد يكون قريباً من بداية الخليفة .  
فهم اذا حدثوك عن تاريخ السودان الحديث فاعلم انك ربما تكون على موعد مع أحداث  
وقعت في مطلع هذا القرن الذى توشك شمسها ان تغيب وتتوارى عن الوجود . وانا  
لست ادري بعد كل هذا ان كانت كلمة الحديث هذه صفة للسودان او التاريخ في هذه  
العبارة . وقد يكون من الأسلم ان نختار نعتاً فضفاضاً بعض الشئ لهذه الذكريات ،  
كقولك متباينة او متنوعة او متفرقة او ما شابه ذلك . غير اننا لانظفر من ذلك بغناء ،  
ولا نعود بطائل ، لانها لا بد ان تكون كذلك سواء أطلقنا عليها هذا الوصف او لم نطلقه .  
غاية الامر اننا - كما اوضحت لك من قبل - امة مولعة بالذكريات كلفة بها عاشقة  
لها . وليس من شروط هذا العشق ان نكون قد عشناها بالفعل . واية ذلك اننا كثيراً ما  
نقرأ ذكريات غيرنا فتعجبنا أشد العجب ، ربما لاننا نرى فيها أنفسنا ونلمس فيها  
شبهاً بالظروف التى كانت تحيط بنا . وعلى الرغم من ان الاحباب الذين نذكرهم على  
متن هذه الصفحات أناس حقيقيون وان الأحداث التى نرويها لك قد وقعت بالفعل الا ان  
ما وراء ذلك من تصاوير وتفسيرات وتأملات انما هى قراءة صادقة في الوجوه ونظر  
متمهل او غير متمهل في الحدث والزمان والمكان ، واجتلاء حر طليق لما دق وانبهم من  
معانٍ وإشارات كانت كامنة كمون الدر في بطون الأصداف . تلك أيام زاهيات ضواحك  
مضت سراعاً وكأنها لم تكن . يلذ لنا ان نعود اليها ونتمرغ في سراب نعيمها لاننا  
نعلم انها كانت عجلى وانها تقضت ولن تعود، ونعلم ان نعيمها لم يبق منه الا هذا  
السراب الذى نراه بعيون الذاكرة والخيال ، ولا تلامس حواسنا منه الا مثل ما لامست  
ثياب ابي الطيب عند الشعب ( دنانيراً تفر من البنان ) . هل ترانا نعدو الحقيقة اذا  
وصفنا هذه الذكريات بانها ( حبيبة ) ؟ وأى شئ احق بالتذكر والمحبة والحزن من ايام  
(الجهل) الغر وساعات ربيع العمر ؟ الم تر الى العباسى - يرحمه الله - كيف حنَّ إلى

صباها وتمنى على أحبائه الأمانى حين سألت روجه وجداً فى كلمات ؟ فانظر الى هذه الروعة فى قوله :

يا من وجدت بحبهم ما أشتهى .٠. هل من شباب لى يباع ويشترى ؟  
ولو انهم ملكوا لما بخلوا به .٠. ولأرجعونى والزمان القهقرى  
لأظل أرفل فى نعيم فاتتى .٠. زمن الشباب وفته متحسرا

وإذا كان الزمان كنوداً وعنيداً لايلين ولايرق فيرجع القهقرى فان الذاكرة وفيه طيعة قادرة على مثل هذا العود الأحمد حيناً بعد حين فدع الزمان وشأنه ، (ذلك ما كنا نبعث) ، ولتعد بهامعاً ، نرتد على آثارنا قصصا . وعلى ما يغلب على هذه الصفحات من أخبار عيب الطفولة وطرائق التعبير عنه فى تلك الايام فانها ايضا تتأمل بعض قسّمات من اوجه تلك الحياة التى انقضت ، وتنقل اليك أطرافاً من ملامح جيل من بين طلائعه اساتذة أجلاء نذروا أخصب ايام العمر لتربية الناشئة وتبصيرهم بسبل الفلاح . ولو ان ابناء تلك الحقب يكتبون لوفانا منهم ما هو أهدى من هذا الذى نكتب ، ولظفرنا منهم بخير عميم . ولست أزعّم أن فى هذا الكتاب فإنده تذكر من قبيل الموعظة أو التجربة . غير أنى أمل أن يطلع عليه الناس ، وان يثير فيهم الرغبة فى تدوين ونشر ما هو اجدى وأنفع واحق ان يتلى للتسلية والمتعة الذهنية على أقل تقدير . فان هو أوحى بمثل هذا الى من لايزالون عازقين عن امتشاق القلم وهم كنوز علوم ومعارف وخزائن تجارب وطرائف ، فان ذلك هو اقصى ما ابتغيه ، وهو مغنى الحقيقى من وراء هذا السفر الذى بين يديك . أسال الله ان يوطئ له القبول ، وان يلهم قارئه الصبر عليه والدعاء لكاتبه بالخير . وأساله سبحانه وتعالى لي ولك المغفرة والعافية والمعافاة التامة الدائمة في الدين والدنيا والاخرة ، انه سميع مجيب .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

**دكتور موسى عبد الله حامد**

غرة شعبان ١٤١٧هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٩٩٦م  
ام درمان - البقعة المباركة

# الباب الأول



## مقبل مدبرٍ معاً :

فى أول يوم لنا فى السنة الاولى دخل علينا فى فصلنا «الثوانى» بحى بيت المال الشيخ ابوبكر عبد الله استاذ الدين والقرآن . وكان التلميذ محمد عثمان ابراهيم - «الكبتل» فيما بعد - قد تم تعيينه «ألفة» للفصل . وقد أهله لهذا الموقع القيادى الخطير طول قامته وكمال جسمه وشئى من البسطة فى السن . . وان كان من بين اولاد الفصل من يضارعه فى تلك المؤهلات . الا انه لسبب او آخر قد اختير لتلك المهمة وظل متلبساً بها حريصاً عليها حتى آخر يوم لنا فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى . فاعجب لولاية بالتعيين دامت أربع سنوات دون ان يحدث عليها احتجاج من أحد ، ودون ان يصيب اميرها الضجر والملال !

دخل الشيخ ابوبكر الفصل لأول مرة فوقفنا جميعاً لتحيته . وعندما أمرنا بالجلوس أخذ كل منا يتفرس فى وجه اول استاذ فى حياتنا الدراسية الجديدة . فاذا بنا امام شيخ يرتدى الجبة والقفطان ويضع على رأسه عمامة قصيرة تلتف فى نظام وعناية بادية حول غطاء للرأس أحمر اللون يشبه الطربوش ويختلف عنه ، وهو ما علمنا فيما بعد انه يتخذ مع «الككولا» الذى هو تقليد أزهرى . وكان الشيخ قواماً بين الطول والقصر وبين البدانة والنحافة ، غير انه ابان منذ اللحظة الاولى انه على قدر هائل من الحيوية والمكر والدهاء ، وكان من ابناء الموردة فى فصلنا التلميذ محمد على مقبل وهو تلميذ مرح نكى يمتاز بخفة روح حببت فيه زملاءه . وهو وان كان يدين بولاء خاص ومقدم لمجموعة اولاد الموردة فى الفصل الا انه اوتى مرونة فى علاقاته بالناس وكان احد الاسباب الهامة للوصل بين تلك المجموعة الصارمة وبقية اولاد الفصل . . تماماً كما كان بعض أصدقائنا فى مدرسة خور طقت من بعد سبباً للاتصال الحميم الذى أثمر مودات باقية بين اولاد كردفان ودارفور من جهة واولاد البحر من جهة اخرى . قال الشيخ ابوبكر : من منكم يقرأ لى سورة من القرآن ؟ فرفع محمد على مقبل يده وهو يشير بسبابته ويقول : فندى فندى . . انا . فقال له الشيخ . ما اسمك ؟ قال :

محمد على مقبل . فقال الشيخ بارتياح ظاهر وهو يبتسم ابتسامة لم تترك لى ربية فى  
مكره . ما شاء الله . . مقبل اسم جميل . . الولد مرآة البيت . . الاقبال صفة الناس  
الطيبين . . لعله اسم على مسمى . . « أقرأ لنا » يا مقبل . فبدأ مقبل بالاستعاذة ، ثم  
البسمة . . ثم ارتج عليه وتلعثم ، وطارت وضاعت منه الايات ، وضاق ذرعاً بما ادخل  
فيه نفسه من مأزق . . وكادت نظرات الشيخ المنكرة تخترق جسده اختراقاً وتوشك ان  
تسحيل الي كلمات تصب على راسه الحمم والحميم . . ومن خَبِرَ مثل هذه المواقف  
يعلم جيداً ان مثل هذه النظرات الساخرة التي كان شررها يتطاير من عين الشيخ  
كالنبال من قوس السهام لاتورث كل من تستهدف الا مزيداً من الحيرة والارتباك . ولو  
ان مقبلاً قرأ سورة الفاتحة او سورة الاخلاص او احدى المعوذتين لنجا بجلده من ذلك  
اللسان القارص الذى كتب علينا ان نصبر على لسعاته المتتابعة طوال بضعة أعوام !  
ولكن مقبلاً لم يبلغ من أمره مبلغاً بعد الاستعاذة والبسمة واحاط به عجز لم يسعه معه  
الا ان يعلن فى يأس حزين : يافندى ما حافظ ! فصاح به الشيخ ابوبكر هازئاً مردداً  
مقولته بلهجة ساخرة مؤذية : يافندى ما حافظ . . يافندى ما حافظ . . ثم اردف  
متندراً : انت مقبل ؟ انت ماك مقبل . انت مدبر . . وظل يناديه مدبراً فيما بعد حتى  
كره ذلك وكرهناه . ثم قال مخاطباً الألفة : ألفة . . ألو صفر من اطناشر واكتب قدامه  
- يعنى امام اسمه - هؤلاء قليلو الأدب ! والتفت الشيخ من بعد ذلك الي بقية اولاد  
الفصل طالباً من يقرأ . وكنت احفظ شيئاً من القرآن فرفعت يدي مشيراً بسبابتي  
واذن لى الشيخ فتلوت سورة النبأ - عم يتساءلون - حتى آخرها . فسعد الشيخ  
ابوبكر ايما سعادة ولقبني بالشريف قائلاً الشريف ولد مهذب يحفظ القرآن . ثم قال  
للألفة : يا ألفة ، الشريف ابو اطناشر من اطناشر واكتب قدامه : فتح الله عليك وعلى  
والديك . ولقد سرنى هذا الظفر الذى أصبته ، ولم أكن أدري ان الايام تخبئ لى سقطة  
في نظر هذا الشيخ نفسه تهوى بى الى مكان سحيق . . ولو كان مقبل يدري ذلك او  
يتوقعه لصبر وتذرع بالأناة والتغافل حتى أصير الى ما صار اليه فى نظر الشيخ ، فما



اسرع ما كان الشيخ يغير رأيه في الناس ! ولكن الذي حدث أعضب مقبلاً أشد الغضب فأسر في نفسه مالم يبد امام الشيخ . وعندما خرجنا للفسحة اتى الى وعيناه تشعان بشر مستطير . وخاطبني قائلاً : يعنى انت أرجل منى ؟ قلت له : نعم انا أرجل منك . قال لى : طيب طالعى الخلا . قلت : مرحباً . وذهبنا الى ركن قصى من فناء المدرسة نشتجر ولكن على مرأى من بقية التلاميذ ، ودار بيننا عراك مشهود . ورغم أن مقبلاً كان أوفر منى بنية في الجسد فقد تمكنت من طرحه ارضاً وجلست علي صدره . فخف الينا بعض الزملاء وخاصة الكبار منهم وفضوا النزاع وباعدوا بينى وبينه ، رغم ان الكثيرين كانوا يرقبون تلك المعركة من بعد ويشيرون بأصابعهم فى شئ من الاعجاب والارتياح لا يخفى . ومهما يكن من امر فقد كانت تلك المعركة التي لم تدم طويلاً ولم يكتب فيها النصر الكامل لأى منا بداية صداقة حميمة ربطت بينى وبين الاخ مقبل طوال سنى ام درمان الاميرية الوسطى وخور طقت الثانوية وما بعدهما من مراحل الحياة . وقد سار علي مقبل اسم مدبر الذى اطلقه عليه الشيخ فكنا ندعوه به مداعبين فلا يغضب ، ولم يكن هذا بشئ ، انما المصيبة انه منذ تلك اللحظة التي قرر فيها الشيخ انه مدبر ظل نصيبه عند الألفة صفرأ من اطناشر مهما اجتهد وحفظ سور القرآن . وذلك ان الشيخ ابابكر كان كذلك . . اذا قصرت قامتك فى نظره فانها لا ترتفع بعد ذلك ابدأ . . حتى لو بلغت الجبال طولاً ! ولعل من حسناته انه يبدوك بحسن الظن . فان ألك أهلاً لحسن ظنه كان نصيبك اطناشر من اطناشر حتى ولو لم تحفظ شيئاً من القرآن وان كانت الاخرى فانت صاحب صفر من اطناشر حتى ولو كنت من حملة القرآن وعلماء التفسير وأسباب النزول ! ليس ذلك فحسب ، ولكن على الالفة ان يكتب امام اسمك : هؤلاء قليلو الادب . وصيغة الجمع هذه تعنى بوضوح ان هذه القائمة فيها متسع رحب لغيرك من الناس . وهى قد بدأت بمحمد علي مقبل كما راينا ، ولكن حكمة الشيخ وفراسته هى التي هدته الي استخدام صيغة الجمع ، اذ كان يبصر من وراء الغيب ان الذين ستشملهم هذه العبارة كثيرون . فانظر الي هذا

الاستعداد الواصل لسلك التلاميذ في هذه السلسلة التي كان الشيخ يطلق على كل مرتاد جديد لها قوله : انت ماك نافع ! ولقد صدقت نبوعته ايما صدق - او قل تحققت مقاصده ايما تحقيق - لان عدد الحاصلين علي صفر من اطناشر ، ومن بعد ذلك بالضرورة هؤلاء قليلو الادب قد اخذ يتنامى في اضطراد حتى شمل أحب التلاميذ اليه ، وهم - بجانب الألفة - الدريدي وعكود والحبيب . فقد كان يناديهم بهذه الاسماء ، وهم الاخوة الأصدقاء : عبد الرحمن الدريدي - عليه رحمة الله - وقاسم عبد القادر ابو عكر واحمد الحبيب حسين . اما الشريف - وهو كاتب هذه السطور - فقد ظل ينال اطناشر من اطناشر ووسام : فتح الله عليك وعلى والديك حتى كان ذلك اليوم الكالج البئيس الذي طلب مني الشيخ فيه ان اقرأ سورة « ويل للمطففين » فكان مني ومن هاشم محمود ما سنزويه في هذا الحديث . ودخلت - او قل ادخلت - دائرة غضب الشيخ من اوسع ابوابها ولحقت بصديقي مقبل على جمل اصهب وحتلت معه ومع غيره من ضحايا الشيخ الى مستنقع الصفر الذي لايهوى الى دركه الاسفل احد الا اخذ اليه وبقي فيه لايرفع منه راساً لان الشيخ يعجبه ذلك ويستهو به . ولقد حدث لي ذلك في السنة الثالثة . وعندما بلغنا السنة الرابعة - والشيخ هو مدرس الدين خلال السنوات الاربع - لم يكن قد نجا من خزي الـ «صفر من اطناشر» وميسم هؤلاء قليلو الادب الا هؤلاء الرهط الاربعة . . الكبتل الالفه واضلاع المثث . وكان الشيخ قد ادرك او يقن ان ذلك ليس من العدل في شئ . واية ذلك انه جاعنا في ذات صباح عاصف وهو في حالة اقرب للهياج منها لهدوئه المعهود . وطلب التسميع دون سابق انذار ، ودون ان يرتل علي اسماعنا شيئاً من آيات الله كعادته في ابتداء الدرس ، فكان اول ما انهار هو اضلاع المثث كما كان يسميه . . مثث الدريدي وعكود والحبيب . ويبدو ان كلاً منهم كان يعتقد انه قد اصبح في مأمن من غضب الشيخ وبأسه ، وكان الأحوط الا يركن احد منهم الى هذا الامان الزائف . . فقد انتهوا تباعاً بعد ذلك اليوم الى القائمة المعلومة - قائمة صفر من اطناشر وهؤلاء قليلو الادب . ثم لم يبق امام الشيخ الا

الالفة نفسه ، وكأنه اراد ان يورده موارد السوء ذاتها . . ولاول مرة منذ ازمان طويلة يطلب الى الكبتل ان « يُسَمَّعَ » سورة من السور . وكان الكبتل كغيره قد انس بثقة الشيخ وقر بها عيناً ، وفاتت عليه حكمة من قال :

اذا تم امر بدا نقصه . . . . . ترقب زوالاً اذا قيل تم

فهو لم يدر ان الشيخ لا امان له ولا عاصم من غضبه . وان كان هناك عاصم فهو القرآن كلام الله لا عاصم سواه . ولكن أنى له في تلك السنوات مثل هذا الإدراك ! وهو قد ركن الى السلطة - سلطة الالفوية ، واخذ الي تكليف الامانة - امانة الاحتفاظ بدرجات زملائه وقد تكاملت كلها صفرأ ، وامانة الاحتفاظ بنياشينهم - وقد تناهت كلها الى نيشان «هؤلاء قليلو الادب» فهل يعقل ان يبقى هو فى مأمن مما صار اليه زملاؤه كلهم ؟ عندما طلب اليه الشيخ ان يقرأ كانت المفاجأة عظيمة بالنسبة له ، فاذا به « يتنحج » مراراً ثم يبدأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فلم يمهلته الشيخ حتى يأتى بالبسملة وانما صاح به مستنكراً فى تساؤل ساخر : أعوذ ؟ (بكسر الذال) ؟ . . . لا اعوذ بالضم . سبحان الله ، حتى القواعد مابتعرفوها ؟ ثم لم ينفعه شئ بعد ذلك فرغم ما أتى به من آيات خلطها بشئ من الهزيمة فى محاولته اليائسة للنجاة الا ان الشيخ كان قد اصدر حكمه عليه ، وماهى الالخطات حتى قال له : والالفة كمان سجمان . . الفة أدى نفسك صفر من اطناشر واكتب قدام اسمك هؤلاء قليلو الادب ! وهكذا انتهى بنا الامر جميعاً مع الشيخ ابى بكر الى هذا الدرك الاسفل . ولقد كان سرور محمد على مقبل بالفاً ، فهو الذى ظل في قائمة الالفة على ذلك المنوال منذ السنة الاولى ، رغم تكاثر اللاحقين به تباعاً بين الفينة والآخرى . ولكنه كان شديد الموجهة على الكبتل والثالوث المقرب ، فلما شهد مصارعهم في ذلك اليوم والايام التى تلت استبشر خيراً لانه كان جازم الاعتقاد بان « موت الكثيرة عيد » وان عموم البلاء رحمة . . . . . اوقل مدعاة للرحمة . وحقاً هكذا كان الامر ، اذ ان شدة الشيخ على التلاميذ وحملهم الي تلك المهاوى شكل حافزاً قوياً لهم على اجتماع الهمم وانبعاث

العزائم ، اذ العبرة الحقيقية هي بما يؤول اليه امرهم في نهاية السنة الرابعة . وليس سرّاً ان اغلبيتهم العظمى قد حققت نجاحاً مرموقاً بدخول الثانويات : وادى سيدنا وخور طقت وحننوب . وحتى القلة التي لم توفق فقد دخلت المدارس الثانوية الاهلية ، فنال جميعهم حظاً من التعليم عالياً في تلك الازمنة . ورغم ان سخرية الشيخ ابي بكر كانت كاوية وحارقة الا انها اثمرت دفعاً قوياً للهمم ، فكان محمد على مقبل بعد تخرجه من خور طقت مقبلاً بحق إذ أنه صار فيما بعد ضابطاً في القوات المسلحة عند تخرجه بتفوق من الكلية الحربية ، حيث يحمد الاقبال ويعاب الادبار . . (الا متحرفاً لقتال او متحيزاً الى فئة) . الانفال ١٦ . لقد كان محمد على مقبل محبوباً بين زملائه طوال سنوات ام درمان الاميرية وفي خور طقت الثانوية لمع نجمه بين اقرانه وبرز بمقدراته الفائقة على استحداث الملح والطرائف ، وصار من اساطين « الكديت » ومن أحب جنوده للمدرب العم الصول يوسف . واشتهر مقبل باستهانته بالمتاعب واستهزائه بالخطوب وافتعاله للدعابات لتخفيف وقعها على النفوس . فلما صار امتحان الشهادة الثانوية « كيمبردج » على الابواب في برد شهر ديسمبر القارص كان مقبل قد بلغ من هزله مبلغاً استطاع معه ان يستقطب الي فلكه احسد الطلاب الذين اشتهروا « بمصاقرة » الكتب وإكثار الحملقة في معمياتها . ذلك هو محمد عبد العزيز الذي اطلق عليه احمد وادى كنية « أب لاطومة » . ولست ادري ان كان ذلك لحسن بلائه في الثولى بول ام في الصفرة (غرفة الطعام) فقد شهد له الجميع بحسن البلاء في كليهما ! واما مقبل فقد كان بلاؤه في الثانية اكثر وضوحاً ، وهو واحد من قلائل اذا رايتهم خارج الفصل او خارج الداخلية فاعلم ان جرس خالد وشيك القرع ايذاناً بموعد الشاي او الوجبة ، وان العالم پاقلوڤ لو عثر عليهم في تلك البقاع لما احتاج الى اجراء كل التجارب المضنية ولايقن ان توقيت الفطرة اصدق انباء من صلصلة الاجراس !

ومن عاصر محمد على مقبل في امدرمان الاميرية يذكر كيف كان يكاد « بيوخ »

من محاولة تفهم الخرائط . ففي بدايات دروس الجغرافيا كان الاستاذ يعلمنا طريقى من مكانى الي مكتب المدرس ويطلب منا ان نوضح ذلك رسماً على الاوراق ثم نهتدى بهذا الرسم للوصول الى الهدف المطلوب . وهو مازال بناعلى ذلك حتى عرفنا طريقنا الى صهريج المياه وتوابعه على شاطئ النيل . وانى لاذكر كيف كان مقبل يجد صعوبة في رسم طريقه الى مختلف الفجاج والنواحي وكيف كان يلقى فى سبيل ذلك العنت من قبل الاستاذ . ولكنه فى خور طقت لم يكن فى حوجة لخرائط او رسومات ليستبين طريقه فقد اغناه اكمال حاسته السادسة من كل ذلك واثبت فى خاطره ساعة مثل بق بن تنبئه في الوقت المناسب ان جرس خالد وشيك الصليل ، وان هجو ورفاقه يمسون بمقايض الابواب ايذاناً بترحاب الصفرة بالقادمين . فليس من عجب ان يكون مقبل فى طليعة هؤلاء وهو يردد نشيد الاميرية القديم الذى كان يحفظه عن ظهر قلب ويتلوه وهو فرح ضاحك :

we walk a mile . and rest a while we are five miles form home .

والاميال الخمس تصير اربعاً ثم ثلاثاً الى ان تنمحي ويتم الوصول . ولكنها صارت عند مقبل ثوان خمساً لاتزيد . فهو اول من يدخل غرفة الطعام . هذا امر أعرفه . وقد أكد لى محمد العوض انه آخر من يغادرها . ومحمد يضحك من ذلك ، ولكنه فى حضرة مقبل يبدى اعجابه بهذا الانضباط ويمتدحه ويطريه حتى اذا تهلتت اسارير مقبل وفهم ما اراد له محمد ان يفهم كاد محمد ان ينشده : ان وردن بجيك فى اول الواردات ، مرناً مونشيط ان قبلن شاردات ، ولكنه كان يخشى ان ينفجر هو نفسه ضاحكاً فينكشف المستور !

ولقد كان مقبل علي ايام ام درمان الاميرية من التلاميذ المعجبين برهان « الكرتلة » . فقد اتانا بها مراراً وعرضها علينا مؤكداً ان الراجح الذى يكسب النمرة الرابعة - سيتلقى قلم حبر ، واحياناً صندوق بسكويت ، وطوراً ثالثاً علبة حلوة . وقد كان بعض الطامعين يشرون اكثر من نمرة واحدة وخاصة هاشم الأطرش ، فانمرة الواحدة تكلف قرشاً واحداً وأحياناً تعريفة لا تزيد . ويبقى كل منا أياماً يتطلع للجائزة

الثمينة التي يحضرها مقبل بالفعل ليراها الجميع . بل ان بعض التلاميذ يبتاعون نمراً  
أخرى جديدة اختصاراً للزمن لأن الكرتلة لا تفتح ليعرف الريح - او النمرة الراحبة  
- حتى تبتاع كل النمر . على كل فقد كان مقبل يخبرنا في كل مرة ان الكرتلة قد  
كسبها احد اولاد الحلة ، وهو دائماً شخص لا نعرفه ! ولما لم يكن فريق أوحى المورد  
قريباً من خور طقت فقد ادار مقبل ظهره لرهان الكرتلة نهائياً عندما بلغنا تلك الديار .  
وقد فعل ذلك في الوقت المناسب . واسلوبه هذا الذي كان يتبعه معنا في رهان الكرتلة  
يذكرني باحدى طرائف موسى ودينفاش في تعامله مع حمار هريدى الشهير . فقد قيل  
ان ودينفاش اصبح ذات يوم في حالة فلس شديد . واثناء سيره وجد حمار هريدى وهو  
مسرح وعلى سرجه قروة ريف آخر صيحة ، وعليه لجام محكم حسن الهيئة . فراودته  
فكرة لم يتردد في انفاذها لحظة واحدة . فما كان منه الا ان اطلق الحمار من عقاله  
واقتراده على تلك الهيئة البهية حتى بلغ به سوق الشجرة حيث ابتاع « كرتلة » وذهب  
مسرعاً بها وبالحمار إلى بعض أصدقائه ومعارفه هناك وأعلن لهم أنه « أخرج حماره  
في الكرتلة » . فلما باع اغلب نمراها وتسلم أثمانها عاد بالحمار واعاد ربطه في ذات  
مكانه الذي اخذه منه . وبعد ايام سأله اصدقائه عن نتيجة رهان الكرتلة ومن الذي  
كسب الحمار . فقال لهم : كسبه هريدى ! هكذا عاد حمار هريدى لصاحبه وقد افاد  
من ورائه ودينفاش خيراً كثيراً . ويقينى الجازم ان كرتلات مقبل المتعاقبة والتي لم نعلم  
على وجه اليقين من كان الفائزون برهانها لم تكن الا شيئاً شديداً الشبه بكرتلة حمار  
هريدى . فقد سبق مقبل ودينفاش في هذا المضمار مراراً دون ان يدري .

نعم هذا هو محمد على مقبل الذي سماه الشيخ ابويكر مدبراً . فهو تلميذ ذكي  
شديد الهزل . واني لاذكر أنى التقيته مرة في مطار الخرطوم بعد ان أعفى من الخدمة  
في القوات المسلحة وكان ذلك على عهد النميرى . وقلت له : البعض يتهمونك بالضلوع  
في محاولة انقلاب . فواتته حاسته السادسة وقال لى بصوت عالٍ وهو يضحك ليسمع  
من حولنا ممن ظنهم من رجال الأمن : « يا أخى انقلاب شنو؟ والله الواحد فينا لما يرقد

ما يكون عارف الجنبو دى كراعو هو ولاكراع ولدو . . لقد فهمت ما كان يريدهم ان يفهموا وأمل ان تكون قد فهمت انت ايضاً قارئى العزيز . كان مقبل ايضاً دنيا من المكر والدهاء !

## **محمد العوض مصطفى . . . الدرّة الغالية :**

ثم ، كيف لى ان أنسى صديق الصبا ورفيق تلك الايام الزاهية النواضر ، الاخ الحبيب محمد العوض مصطفى عليه رحمة الله ؟ كان محمد العوض تلميذاً فريداً أثيراً بين زملائه وشخصية مرحة الى أبعد الحدود . ورغم انه ينتمى الى المورداب موطناً ومذهباً كروياً الا انه اختلط بكل زملائه اختلاط الهواء النقى بخلايا الجسم ، وذاب فيهم ذوبان السكر فى الماء . . وصار - فى وقت قصير - محط اعجاب زملائه ومحبتهم . ولقد أوتى - على خفة روحه وحلاوة معشره - مقدرة فائقة على السخرية من كل شئ . . من الدروس ، ومن الأساتذة وزملاء الفصل ، ومن اداء الكثيرين من التلاميذ فى مباريات كرة القدم والليالى الثقافية التى كانت تتلى فيها الأشعار والنوادر والملح . وهو تلميذ ذكى متفتح الذهن خصب الخيال ، كثير الضحك حتى على نفسه فى بعض الاحايين . ولقد استطاع ان يؤاخى بين ابناء الموردة وغيرهم من تلاميذ الفصل ، وأبلى فى ذلك اعظم بلاء . ذلك ان ابناء الموردة - وعلى رأسهم محمد الحسن الشايقى وهاشم مصطفى - كانوا يستعينون على غيرهم باخوان لهم من الموردة لم يكونوا تلاميذاً فى ام درمان الاميرية ، ولعلمهم لم يكونوا تلاميذاً على الاطلاق ، لانا كنا نلتقيهم فى ساحة المولد فنبصر عمالقة نوى سحنات داكنة وأوجه تنطق بالوعيد والثبور . فكنا نتحاشاهم ، وربما خطب بعضهم ودهم وهش فى اوجههم تقية ورجاء للسلامة والعافية . فانك ان امننت جانب هؤلاء غشيتك السكينة من سائر جوانبك الأخرى وصرت فى حرز امين . غير انهم لايتركونك وشأنك وان اكرمت وفادتهم وبيذات فى سبيل استمالتهم اليك ماتستطيع ، لانهم لايبغون لفرض السيادة على غيرهم بديلاً ، ولا يألون جهداً فى التذكير بشدة بأسهم وصعوبة مراسهم . وفى ذات مرة

التقت ثلة من اولاد فصلنا في خيمة الانصار فى المولد ، وكان صلف المورداب واستهانتهم بنا قد بلغ من انفسنا مبلغاً عظيماً اثار فيها قدراً كبيراً من عدم الرضا واحساساً بالضعف والهوان كبير على إباننا ضيماً ان يتقبله ويذعن لما يمكن ان يترتب عليه من « ملطشة » وصغار . فخلصنا نجياً نتفاكر في هذا الامر وتتدبر مخرجاً يحفظ علينا كرامتنا بين الناس . وكان بين ظهرانينا الصديق الحاج محمد عثمان ابراهيم (الكبتل) ، وهو الفة الفصل ، وكان طويلاً تليعاً يكبر زملاءه ببضعة سنوات دون ريب ، ولذلك انعقد له لواء الزعامة ، وبإيعه حتى الصقور على القيادة والريادة . قال لى الكبتل في ذلك المساء بصوت مرعد واثق وروح مقدامة غير مبالية : الى متى نحن ندهن هؤلاء القوم وهم يمعنون فى الصلف والكبرياء ؟ والى متى نسكت لهم على هذه الحقارة وهذا الاستخفاف بنا ؟ ! ألسنا رجالاً مثلهم ؟ قلت له : وما العمل ، وواحدهم يستطيع ان يصرع ثلاثة أو أربعة منا دون عناء يذكر ؟ قال لى : فلنذهب اليهم ذات امسية فى عقر دارهم وتتحرش بهم لننزل بهم هزيمة لن ينسوها ابداً تكون لنا عيداً ومفخرة ، وتضعنا فى مكاننا اللائق . فلما رايت حماسته وصادق استعداده للنزال وافقت على الخطة ، ووافق الآخرون . وحددنا الموعد فاجتمع ستة نفر منا كلهم عتاة ماعدا شخصى فقد كنت اقلهم شأنأ فى هذا المضمار الذى تؤهل له بسطة الجسم دون غيرها . وفى المساء المحدد حملنا بعض العصى الخفيفة وذهبنا الى الموردة . فاذا بجمهرة من غرماننا منبطحين على الخور غير بعيد من نادى الموردة الذى كان قريباً من حى الهاشماب في تلك العهود . ولما بلغناهم بدأناهم بالتحية فلم يحفلوا برد السلام وكأنهم علموا بأمرنا ومايبنتنا عليه النية . وبعد قليل صاح أحدهم بنا وهو منبطح على حافة الخور مثل الورل قائلاً : ماذا تريدون هنا ؟ فرد عليه الكبتل فى ثبات اضىف علينا روحاً من الجرأة والاستبشار بالنصر : نريد رقابكم وأنفاسكم . وكانت كل خلجات نفسه تنشد فى ارادة وتصميم :

ألا ليست الحاجات إلا نفوسكم . . . وليس لنا إلا السيوف وسائل



ثم هجم عليه بعصاه الصغيرة ، وفعل ذلك بقيتنا على من كانوا معه . ودارت بيننا معركة حامية ، وثار النقع وارتفعت العجائر بالسباب . ويان لنا بعد قليل أننا نجالد عمالقة وعتاة لا قبل لنا بهم ، فسرعان ما طارت هراواتنا من ايدينا ، وضيق علينا القوم الخناق ، حتى صاح الكبتل قائلاً : الهرب والنجاة ! وبدأ سباق « الماراثون » اذ اطلقنا سيقاننا للريح وفي مقدمتنا الكبتل قائد الحملة وصاحب فكرة الهجوم المباغت ، ومن ورائنا اولئك العتاة الضخام المتمرسون ، يشيعوننا حصباً بالحجارة ورشقاً بالثباتم وتعبيراً بسبة الفرار ، يكادون يمسكون بتلابيبنا من فرط قربهم منا ، ونحن نعدو عدواً ننتهب الخطي انتهاباً ونطوى الارض طياً . وماهى الا لحظات حتى بلغنا جامع الخليفة ، وهم من ورائنا حذو النعل بالنعل توشك ايديهم ان تمسك برقابنا فتفصل الرؤوس عن الاجساد . وما ان بلغنا ساحة المولد التي كانت تعج بالناس حتى انخس بعضنا وانزوى فى حلقات الطار وصفوف الذاكرين ، وبلغت أنا خيمة الانصار بعد جهد جهيد لاجد صديقى الكبتل هناك وانفاسه كأنها مرجل يغلى . وفى ذلك الجنب الأمن تراجع عنا من بلغ منهم فى مطاردتنا تلك التخوم ، فقد علموا يقيناً ان من بلغ تلك العرصات واحتمى بها فهو آمن ، وأنبأهم احساسهم الصادق انهم ان اوغلو اكثر من ذلك فستكون عاقبتهم خسراناً ميبئاً . اما الكبتل فقد كان فى حالة من الهلع لم يشعر معها انه اصيب بفكك فى قدمه اليمنى جعلت خاله عم محمد بن يحمله الى ودبتي فى اليوم التالى . وظلت خطاه تتعثر من ذلك الفكك - رغم تطبيب ودبتي - اياماً وأسابيع ، حتى شفاه من ذلك الشافى .

ويبلغ امرنا محمد العوض كما بلغ غيره . ورغم ان محمد العوض - صاحب الخيال الخصب والروح المرحة - قد نسج حول هذا الحدث الاقاصيص التي بهدلت سمعتنا فى نظر التلاميذ ، الا انه فى نهاية الامر ، وبعد تدخل بعض الصقور فى فصلنا لصالحنا ، قاد مجهوداً جباراً انتهى بمصالحة بيننا وبين المورداً ما وسعنا الا ان نتقبل شروطها المجحفة فى حقنا مذعنين واهمها ان نعلن تعهدنا بالامتناع عن الذهاب الى حى الموردة

لأى سبب من الاسباب ، وان فعلنا ذلك حنتاً بالعهد فلا نلومنّ الا انفسنا . قبلنا هذا الشرط على مضض منا ، وسلمنا لهم بالنصر ونحن نلحق جراح الهزيمة . ولكى اعبر عن حنقى قلت للكبتل امام الجميع رغم انه كان عزيزاً علىّ ان اؤذيه :

ويعجبك الطرير فتبتليه ، ، فيخلف ظنك الرجل الطرير

ولست ادري ان كان قد فهم مقصدى ام لم يفهمه ، لانه لم يزد على ان ضحك ضحكة قصيرة ، ثم اعتدل النقرابى الذى كان على خده ، فصارت تعابير وجهه لا تثير في نفسك او توحى لك بأى معنى من المعانى ! ولقد اسر لى محمد العوض فيما بعد ان الكبتل قد فهم مقصدى ولكنه تصنع العىّ « والتلامة » حتى لا تتوالى عليه العبارات مذكرة بمرارة الانهزام .

ورغم ان محمد العوض كان يجلس فى الصفوف الامامية فى الفصل الا انه كان حليفاً مأموناً لجماعة الربع الخراب - عبدالكريم وشيعته . وهؤلاء كانوا أساطين الهرجلة الحازمة فى الفصل ، بأصواتهم المتباينة العمق والنبرات ، وموسيقاهم التى برعوا فى اخفاء منبعها وآلاتها عن اسماع وانظار المدرسين ، التى كانت تتقاطر من كل مكان فتبلغ أذانهم فى صخب مثير . واما محمد العوض فقد كانت « هرجلته » الهازلة تدعم هذه الفوضى وتثبت اركانها وتثريها بالحيوية والتنوع . ولكنه كان حذراً فطناً . وكانت اسارير وجهه المشرقة علي الدوام - رغم سواد سحنته الذى يصله بالمورداب وصلاً لا انفصام له - تدفع عنه ظنون الاساتذة وحنقهم ، وتزكيه فى اعينهم ، فلا يناله منهم اذى فى كثير من احيانه ، رغم انه كان فى حقيقة امره وراء كل صخب وضجيج أو همس وفحيح يقاطع سيل فكر الاستاذ واسترساله فى الشرح والتبيين . ولقد ظل محمد العوض أمناً من بطش الأساتذة يحتمى وراء ابتسامته الأسيرة رديحاً من الزمان ، حتى كان ذلك اليوم الرهيب . الذى كتب له ان يلقي فيه من العنت والشقاء ما لم يكن يدور بخلده انه ملاقيه . لقد كانت الشيطنة والجنوح الى احداث الفوضى والهرجلة صفات كامنة فى كل النفوس ، وانما تفاوتت التعبير عنها والاتيان

بها بين التلاميذ تبعاً لامرين : بنية جسم التلميذ ومدى جسارته ، وربما كان الامر الثاني وليد الاول . فاذا كان التلميذ صغير الجسم واهى البنية فان ذلك يقلل من جسارته . ونقيض ذلك موقظ لصفات الاقدام . ولقد كان محمد العوض (عواناً بين ذلك) . وفى ذلك اليوم « الرهيب » دخل علينا ائشيخ ابوبكر عبد الله فى حصة الدين . وطفىق يصب سخريته وتعابيره الحارقة على مجموعة فى الفصل بعينها يسميهم بأسمائهم . ويدأت الموسيقى المعهودة تصدح ويتداعى رنينها وتتصاعد موجاتها ويتعالى صخبها ، دون ان تنبئ بوضوح قاطع عن مصدرها الحقيقى ومبعثها اليقبنى . ثم تصمت دون ان تفضى آخر أنغامها بسر منبعها المكتوم . ولا عجزت حواس الشيخ الست عن تحديد مكنن الازعاج ومركزه - او هكذا خيل لنا - تغافل عن هذا الأمر ويان وكأنه لم يعبأ به . ثم قال شيئاً وتساعل بصوت لايحمل كلمة وانما ينداح فى نبرة أفقية معروفة . . . وران صمت خرق سكونه أحد التلاميذ وهو يقول : . . . فذوت هذه الكلمة الغربية ذوباً لاتخطئه اذن . . . وأحدثت موجات اعقيتها أصداء متتابعة . . . ثم ران صمت مطبق خلال دقائق بانن وكانها دهور . . . اما الشيخ فقد عجب لهذه الكلمة أشد العجب ، وغضب غضباً انتفخت من فرطه اوداجه ، وتحركت من أثره يداه حركات عفوية جمعت بين معانى الحيرة والرغبة الصادقة فى الانتقام على ما اعتبره جرماً لايفتقر . ثم رفع عمامته عن راسه ووضعها على المنضدة ، وقال بلهجة هى خليط من الشايقية والرباطابية والمصرية ، وبصوت ظاهره الهدوء والسكينة وباطنه الوعيد والنكير : اللى قال أررر . . . يوقف . . . أى من قال هذه الكلمة الغربية فليقف . فلم يقف احد بل ظل جميع التلاميذ جلوساً صامتين . وردد الشيخ اوامره ، فلم يقف أحد . ثم صار يمشى بين صفوف الادرارج ليفاجئ بعض التلاميذ : أنت اللى قلت ؟ فكنت تسمع : لا والله يافندى دا ما أنا ! وبالطبع مضى بخطواته الوئيدة حتى بلغ الربع الخراب - آخر الصفوف فى الفصل . وصرف قلماً او قلمين لعبد الكريم احمد حميدة بوصفه قائد عصابة الهرجلة والفوضى فى نظره ، وبوصفه المسئول والمجرم حتى تثبت

براعته . فتحمل عبد الكريم هذه الصفعات بشجاعته المعهودة وصبره المألوف على مثل هذا الاذى دون ان يزيد على قوله : لا ، داما أنا ! وكان التلاميذ كلما اوغلوا في الصمت والنكران زاد غضب الشيخ وحمى مرجله وغلى ، فنسى الدين والتدريس ، وصار همه الاوحد هو العثور على هذا المجرم الاثم . وعندما باعت كل محاولاته بالفشل وقف امام محمد العوض مصطفى ، فطالعت منه ابتسامته المعهودة رغم الهلع الذى كان قد سيطر عليه وعلى غيره من تلاميذ الفصل . ولعل الشيخ قد استنكر ان يطالع وجهاً مبتسماً في ذلك الجو الحزين المملوء بالفرق وتوقع الشر . ولست ارتاب فى ان كل احد من التلاميذ كان مثلى في تلك اللحظات المفزعة يقرأ في سره كل ما واثته به ذاكرته من كلام الله ويدعو بكل ما تواتب اليها من صالح الدعاء عساه ينجو بجلده من تلك الورطة . ولما طال وقوف الشيخ امام محمد العوض أخذت الابتسامة التى كانت تضوى وجه محمد تذبذب شيئاً فشيئاً حتى استحالت فى نهاية أمرها الى شحوب واجف وامتقاع بنيس . وصاح الشيخ وقد أوشكت سبابه يده اليمنى ان تقفأ عين محمد اليسرى : اوقف يا كلب . . مين غيرك انت المجرم ؟ انت الذى قلتها ! ثم لم ينفع محمداً انكاره للتهمة ولم تسعفه براعته الحقيقية ، ولم يشفع له عند الشيخ انه متهم وان المتهم برئ حتى تثبت ادانته . بل سبقت ادانته جزافاً وانهاى عليه الشيخ صفعاً ولطماً حتى اشتفى منه اشتفاءً ثم انفتأ حنقه وثاب الى بعض رشده . ورغم ان اولاد الفصل كلهم كانوا يحبون محمداً ويغلوونه الا انهم حمدوا الله فى تلك اللحظات القاسية على النجاة من غضبة الشيخ المضرية ومن عقابه الماحق . اما القائل الحقيقى لتلك الكلمة التى أحنقت الشيخ وجلبت كل ذلك الهول والفرع فقد كانوا جميعاً يعلمونه ، ولكنهم أثروا الا يبوحوا بما علموا . ولست ادري ان كان ذلك شفقة منهم عليه ، او حمداً لله على ان الشيخ اكتفى بفريسة واحدة صب عليها جام غضبه - رغم ان محمد العوض الفريسة كان أثيراً عندهم جميعاً - ، او خوفاً مما يمكن ان يترتب عليه مثل هذا البوح ان هم اقدموا عليه ، او اعجاباً بذلك القول ورضاً به واشتفاءً ثم ضناً بقائله (ان يسجن

او عذاب اليم)، او هو طلب للسلامة والعافية وتصميم على الابتعاد عن امر لاينفعهم الدخول فيه بشئ. ولكن الحقيقة انهم قد علموا من القائل. وان القائل لم يكن محمد العوض، وانهم سكتوا على ذلك ولم يذيعوا به. ولاشك ان سكوتهم كان فى نظر القائل الحقيقى محمدا لهم وهى قد ضاعفت من احترامه لهم واشعرته بمزيد من الانتماء اليهم والقرب منهم. واما محمد العوض الضحية، البرئ مما الصقه به الشيخ واقتص منه بسببه، فان ذلك العقاب القاسى الذى تعرض له لم يقلل من مرجه وصفاء روحه وسخريته اللاذمة... ولكنه القى فى نفسه ظللاً داكناً تجاه الشيخ ابى بكر حتى صار الشيخ مادة دائمة من مواد سخريته وتندرته، فكان يسميه «الشايقى التغيان» ويحكى عنه من المثالب ما لا عين رأت ولا اذن سمعت فى ذلك الزمان... باسلوبه الفذ وعباراته الدقيقة وخياله المبدع ومرجه الأخاذ. فكنا نلتف من حوله فى «الفسحة» بعد تناول الفطور لنسمع الاعاجيب ونقضى وقتاً طيباً على الانفس الواجدة يضحك فيه الصبية ملء الاشداق والقلوب. وماكان الشيخ «تغياناً» ولا شايقياً ولاذا مثلبة، ولكنه عبث الطفولة!

على ان محمد العوض لم يكن يضمير سوءاً ابداً وانما كان يثار لنفسه بما اوتى من مقدرات عجيبة على تشفيق المعانى وتفتيق الكلام واثارة الضحك لانه كان ميالاً الى الهزل والسخرية فى غير ماسوء طوية، فهو هزل من اجل الهزل، وضحك من اجل الضحك ومرح من اجل ان يسود جو المرح. ولقد كان لمحمد العوض شأن مع كل احد من زملائه تقريباً، فى امدرمان الاميرية وخور طقت الثانوية على السواء وسنشير الى بعض ذلك فى محله ان شاء الله.

غير ان محمد العوض لم يكن هازلاً فى كل احيانه وان ميزته هذه الموهبة كثيرا بين اقرانه... لقد كان تلميذاً ذكياً مجداً يأخذ بالاسباب ولايدع الامور تمضى فى عفوية. ولذلك اختاره اساتذته للقيام بتمثيل الادوار الصارمة فى بعض الروايات التى كان التلاميذ يقومون بعرضها على خشبة المسرح فى امدرمان الاميرية الوسطى. وهى روايات من نظم امير الشعراء احمد شوقى وغيره من الشعراء تحتوى على حوار

نظيم بالغ الجودة . وانى لأكاد اسمع باذننى الان ومن وراء ما يقارب نصف قرن من الزمان صوت محمد العوض مصطفى وهو على المسرح يردد شعراً بعض وصية امير المؤمنين عمر بن الخطاب لقائد جنده يحثه على الاستمسك بمكارم الاخلاق حتى في مواطن قتال الاعداء :

ولاتمدوا يداً بالسوء لامرأة . . . . . ولاتذيقوا طعام الموت صبيانا  
واكاد اسمعه وهو يتمثل قيساً ولم ينسه هيامه بليلى وجنونه بحبها ان يسأل فتاة  
الحى بلهاء : كيف الحى كيف أميا .. فهو يذكر الحى الذى ترعرع فيه ، ويذكر امه التى  
احاطته بحبها وحنانها . . ويعلم انها تسر لسروره . . . . . ولذلك طلب من صديقه زياد ان  
يبلغها فرحته وامتنانه للأمير . . . . .

..... . . . . . زياد طر نحو الحمى بجناحي المشتاق  
اذهب وسل امى اعزّـمـلابسى . . . . . من كل شامى وكل عراقى  
واذكر لها نعم الأمير ولم تزل . . . . . نعم الامير قسلا ند الأءــــناق  
وعندما يتحول محمد العوض الى القيام بدور عنتره العبسى يضى على صوته  
نبرة الوعيد وهو يجادل غريمه في حب عبلة ابنة عمه فيجئ فصله في الامر قاطعاً في  
حسم الصراع العاطفى بمنطق ذلك الزمان :

الرأى عندى ان نصير معاً . . . . . الى جمال تضحية او فضل إيثار  
رأسى ورأسك في الميزان قد وضعا . . . . . وحكم سيفك او سيفى هو الجارى  
من مات منا قضى حق الهوى كرمأ . . . . . وليس بالموت دون الحب من عار  
فاذا غريمه ينكل عن المواجهة ويبحث عن كلمات يبتاع بها موقفاً يقربه من مواطن  
السلامة :

رأيت عنتره رأياً لست اتبعه . . . . . ياباه حبى واعجابى وإكبارى  
فيقاطعه الفارس العبسى : . . . . . لم لا ؟ الحرب تجمع مغواراً بمغوار . . . . .  
وعندما يقوم محمد العوض بدور قيصر يشدد حواراه مع خادمه اوروس وقد بلغ منه

اليأس أقصى مبلغ فزهد في الحياة وطلب من اوروس ان يريحه منها « بضربة سيف او بطعنة خنجر » قائلاً بلسان محمد العوض وصوته ونهني جلوس امام المسرح.

فانك حر ان فعلت وفائز .٠٠ بسيفى ودرعى وأثوابى ومغفرى

ولكن اوروس المولى المخلص يمتلكه ألم ممض ليأس سيده من الحياة ويؤذيه أذى بالغاً ان يطلب منه سيده قيصر هذا الطلب ، وتتحرك فى نفسه بواعث الالف والوفاء والعرفان فتخرج الكلمات من فمه مضمخة بالاسى معبرة أصدق تعبير عما يجيش بخاطره :

معاذ خلال البر مولاي فاعفنى .٠٠ فليس يدى تقوى ولا السيف يجترى

وأنت الذى لوبيع بالروح وده .٠٠ ومالى سوى روى تقدمت اشترى

ثم تتداعى فى نفسه معانى اليأس لهول ما سمع من طلب سيده ويتصاعد انفعاله وزهده فى البقاء حتى يفضى به الامر الى إغماذ خنجره فى صدره مفضلاً الموت على ان تمتد يده لسيده بسوء ، فتجئ آخر كلماته نهاية لمأساة عامرة بالوفاء والفداء :

لقد جاد لى بالسيف والدرع قيصر .٠٠ وجدت بأيام الحياة لقيصر

وأمام هذا المشهد الرائع يصاب قيصر بصدمة ماحقة اذ يفاجأ بعبدده وقد ذبح نفسه على مرأى منه ومسمع فيكبر فيه هذا الوفاء الصادق الذى جعله يعصى امره لأول مرة ، فيبكي قيصر هذا الوفاء شعراً يرفع به عجيرته قبل ان يمضى على ذات السبيل ، ناسباً الى نفسه التخاذل والتقاعس والجبن وشاهداً لمولاه اوروس بالوفاء والنبل والاقدام ، مكباً عليه وهو مضرج بالدماء وقد فارق الحياة :

اوروس عفواً قد ذهبت ضحية .٠٠ وجنى عليك ترددى الممقوت

فعلمت منى كيف يجبن قيصر .٠٠ وعلمت منك العبد كيف يموت

وكاد محمد العوض ان يموت بالفعل امام اعيننا من فرط اتقانه للدور الذى كان يقوم بتمثيله ويستغرق في ادائه استغراقاً ، لولا ان صيحات الاستحسان والتصفيق الداوى تعالت بها الاصوات والأكف لتذكره ان الامر لا يتجاوز التمثيل وان كان التمثيل

متقناً كل الانتقان !

هذه الابيات والمقاطع التى تقدمت ما تزال منقوشة في ذاكرتى بصوت محمد العوض مصطفى منذ تلك الايام البعيدة النائية وتلك العهود الماضية السحيقة ، واقسم انى لم اطلع عليها فى كتاب ولم ارها فى أى سفر من الاسفار او صحيفة من الصحف او دفتر سوى دفتر الذاكرة .. وها هى ذى تسيل من منعرجات الذاكرة مع هذه الكلمات ، شاهدة على نضارة تلك الازمنة الحبيبة وصفاء ايامها وجلّى انتقاشها فى اغوار النفس وانطباعها فى مسارب الوجدان . وهى ايضاً شاهدة على مقدرات محمد العوض التى تركت ذلك الانطباع باقياً لا يريم .

ذلك هو محمد العوض الذى تجدد لقائى به فى خور طقت الثانوية فاتصلت بيننا عرى المودة اتصالاً وتمتنت فيما بيننا اواصر الود تمثيناً حتى صرنا لانفترق . ولقد كان محمد العوض فى خور طقت - كما كان فى امدرمان الاميرية - قارورة عطر نوم وقمر تم منير . كان الكل يحبونه ويهرعون الى مجالسته . وكان كلما كبر وتكاملت معارفه ازداد مرحاً وانتشراح صدر وطيبة نفس ، له فى كل مرتع من تلك المراتع الحبيبة فى خور طقت مسرح ومقيل . واستطاع بروحه الحية الجدلانة المحببة ان ينشر الفرح والسرور بين زملائه وان ينفذ الى اعماقهم ويحتل من انفسهم موقعاً مرموقاً من الاحترام والتبجيل . لم يدخل فى جدال مع احد منهم الا وواتته موهبته الساحرة ومقدراته الهائلة على تحويله الى هزل وسخرية والى صفاء لا كدر فيه ولا شائبة ، فلم يغادر الا وهو محل احترام وتقدير . ما عادى أحداً وما عاداه أحد ، وانما احبه الجميع لانه كان أهلاً لحبهم . وانى لاذكر كيف كان محمد يروى قصة مفاهمته مع ادريس سالم فى اوائل مراحل خور طقت ، وكيف كاد ادريس ان يقضى عليه لولا ان تداركه الله برحمته وعنايته فحف لنجدته الشريف احمد حسب الرسول الكوكلى وفض النزاع الذى كان قد احتدم بينهما . كان محمد العوض يروى تلك القصة بأسلوبه الساحر المبدع يحليها برتوش تكسبها نكهة لاتنسى ، ويعزوز تلك الورطة التى وقع فيها الى



شخصى قائلاً فى كلمات مازال يرددنا ويفتتح بها رواية القصة كلما بدأ سردنا حتى صارت هذه الكلمات مدخلاً معروفاً لرواية هذه الحادثة : والله ياخى موسى دا مرة كان عاوز يودينا فى دهية ! والحق أننى لم اكن انا الذى كنت اريد ان اوديه فى دهية ولكنها سلاطة لسانه ومواهبه المواتية فى ابتداء الالقاب والاسماء واطلاقها على من يريد ، ثم استشعاره الأمن والأمان فى كل أحيائه . ولاعجب فى ذلك ، فهى سجيته التى جبل عليها ، ومقدرته الوافرة على الالمام من كل فن بطرف ثم اتقان ذلك ، وطبيعته العابثة التى تبحث عن المتاعب فى عقر دارها . ولو انه استمع لتصبحته لاكتفى بالتعميم بدلاً عن التخصيص ، ولأسر بالارقام عوضاً عن الاذاعة بها ، ولغطى سخريته اللاذعة بغشاء واقٍ من التقية والمصانعة . والذين كانوا فى خور طقت يعلمون جلية الأمر ، وفى مقدمتهم الاخ الصديق دفع الله الحاج يوسف والاخ الصديق الكوكلى والاخ الصديق ادريس سالم ورهطه الكرام . ألا رحم الله الاخ الكريم محمد العوض فقد كان والله درة غالية . لقد فاجأته فى داره فى ابوظبى زائراً ومعى الاخ الصديق بارودى - ذلك الفنان المرح الضاحك الطروب المولع بالشعر والأدب وسائر الفنون - فقضينا معه واسرته ساعات طيبة لاتنسى . فرح محمد بمقدمنا إليه أيما فرح وسررنا أيما سرور ، وكان عهدى به دوماً كريماً مضيافاً مرحاً ضاحكاً مستبشراً ، وكانت زوجته وام اولاده السيدة الفضلى عواطف الشيخ تجسيدا رائعاً لاصالة بنات البلد وكرمهن . علمت أنى صديق قديم لزوجها فأسعدها حضورى لزيارته وراحت تحملنا فى حدق عينيها . ومن عجب أنى التقيت محمداً ثانية بعد طول فراق وكان ذلك فى شهر سبتمبر من العام ١٩٩٥م ، فجلسنا نطوف بواحات الماضى هنيهة نستعيد ذكرياتنا عندها وكاننا نعيشها فى تلك اللحظات . ومحمد هو محمد . الضحك والسخرية والذاكرة المتقدة والوجدان الشفيف والقصص الذى لاينتهى ولا يُمل . رجعنا القهقرى سوياً نتصفح سوائف العهود حتى اذا بلغنا احداثاً بعينها فى سنوات ام درمان الاميرية وخور طقت انخنا مطينا عندها وأقمنا بين ظهرانيها طويلاً نجتز أقايصم تلك

الازمنة ونقرأ فصولاً من حكاياتها وطرائفها التي لم تزل عالقة بالأذهان . ثم التقينا من بعد ذلك في دار الاخ العزيز والصديق القديم الاستاذ دفع الله الحاج يوسف فاشتملت علينا أمسية لاتنسى جمعت في رحاب تلك الدار المضيافة ثللاً متباينة المهن والمشارب وحد بينها وفاء جامع لماضٍ مشترك بعيد . قلت لمحمد : متى القاك في دارى أجمع لك بعض الاخوة نتسامر ونقضى وقتاً طيباً ؟ قال لى : سأتصل بك قبل عودتى للخليج بوقت كافٍ لأحدد لك الامسية التي تناسبنى . وبقيت منتظراً لأفرح به فى دارى وافرح باخوتى الآخرين . . . ثم ماهى الا أيام قلائل حتى فجعنى نبأ وفاته المفجأة ، فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله . اللهم ارحمه واجعل الجنة مثواه .  
 فليت نفوسنا والحق أت . . . . . ذهبن كما أتين وما أحسنه  
 قدمنا والقوابل ضاحكات . . . . . وسرنا والمدامع ينبجسونه

### سورة المطففين .... وهاشم الأطرش :

لست أنسى ذلك الصديق القديم هاشم محمود الذى أطلق عليه محمد العوض اسم ( الأطرش ) فصار يعرف به بين زملائه . ولم تكن ندرى ان كان المقصود من اطلاق هذا الاسم على هاشم هو المدح أو الذم ، أو هو تأكيد المدح بما يشبه الذم لأن هاشماً لم يكن أطرشاً بالمعنى المعروف لهذه الكلمة وان كان « يتطارش » أو يدعى الطرش عندما لا يعجبه ما يقال . فقد كنت لا أتمالك نفسى من الضحك كلما لقيتيه ، وذلك أنه هو نفسه يضحك من كل شئ ، وله طريقة فى الكلام يصعب وصفها بأى درجة من الدقة ، فهى خليط من اللعثة « والتمتمة » واختزال الحروف اختزالاً وأكلها فى كثير من الأحيان « أكلاً » يستعصى معه عليك اجتلاء المعنى الذى يريد . وهو يخلط بين الجدية والهزل ، بين المرح والأسى ، وبين الحياء والجسارة ، خلطاً ينم عن نكاء موفور ومكر ساذج . غير أنه يتخير « أصحابه » تخيراً محسوباً فلا يغامر فى ذلك ولا يطلق لعواطفه العنان ، وذلك لأنه موقن بأن أولاد ام درمان « شياطين » وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى حى الموردة وهو لم يتعلم « الشيطنة » « والشفتنة » بعد - أو قل لم يتقنهما

وان شرع بنية صادقة في استلهاهما وتوطين النفس على تعلمهما . أبوه تاجر في الجبلين ، وربما كان هو الولد الأثير بين ذرية يغلب عليها الاناث . ويبدو أنه نشأ طفلاً مدللاً بعض الشيء ، وذلك واضح من طريقتة في التعامل مع الحياة الجديدة التي كان يعتبر كثيراً من جوانبها صعباً تحتاج إلى شدة مراس وعظيم جلد . وهو كذلك واضح من اعتناؤه الفائت بمظهره عموماً وهندامه على وجه الخصوص . فجلابيته نظيفة دائماً وناصعة البياض بل هي يوماً « مكوية سيف » . ورغم أن غالبيتنا - بعد أن نتناول طعام الافطار عند عم محمدين - تصبح خالية الوفاض إذ نصير « معلمين الله من الفرطاقة » في أكثر الاوقات ، إلا أن هاشم لم يكن كذلك . فقد رأيتة بعيني رأسي وهو يحمل في جيبه شلناً كاملاً حتى بعد انفاقه قرش الفطور . ولقد تكرم ودعاني لتناول الباسطة أكثر من مرة ، الأمر الذي أحتق على بعض الزملاء ممن غبطوني على احتلال هذه المكانة العظيمة من نفس هاشم ، ولكنهم تذكروا أنني كنت جاره في الفصل وفي هذا بعض ما يبرر ما نشأ وتطور بيني وبينه من صداقة حميمة . وكنت في بعض الأوقات أرد له هذا الجميل فاكرمه بقطعة باسطة ولكنها نادراً ما تكون ركنية (كورنر) لأن الركنية تكلف قرشاً ونصف قرش بينما لا تكلف القطعة العادية سوى قرش واحد وهذا فرق هائل بحق ! وفوق ذلك كنت أبره ببعض الشروح لما يستعصى عليه فهمه من الدروس ، خاصة في اللغة العربية واللغة الانجليزية وفي التاريخ والدين ، وأحياناً كثيرة في الحساب « فراق الحباب » . فكان هاشم يحمل لي تقديراً خاصاً لذلك ولم يكن هاشم لينقصه الذكاء بحال ، ولكنه كان لسبب لم أتبينه تماماً يهاب الاساتذة ويخشى أن يخطئ امامهم في شيء وربما كان ذلك لشدة حيائه . لست أدري . فاذا سئل عن امر من امور الدروس انتابه فزع واضح وعلت وجهه مسحة حزن وكأبة لا تخطئها العين ، وجاءت اجابته اشد عسراً على الفهم من السؤال ذاته ! فاذا وفق لاصابة الاجابة الصحيحة تهلل وجهه بالبشر وضحك ضحكته المميزة الخافتة حتى اذا اتسع مداها وياتت لثته الحمراء من وراء اسنانه الناصعة البياض سعل سعلات خفيفة متتابعة ربما

ختمها بعطسة أو عطستين ثم رفع يديه إلى رأسه وكأنه يود أن يتأكد أن عمامته مازالت ثابتة عليه لم تبرح مكانها .

وفي مرة من المرات كنت أجلس إلى جانبه في الفصل عندما دخل علينا الشيخ ابوبكر استاذ القرآن فالفى ضجيجاً وصخباً وهرجاً في الفصل كنت جزءاً منه أصيلاً . فقرر الشيخ في نفسه أن يبلونى أثبت لحسن ظنه ام أتهاوى . فقد كان يناديني « الشريف » وكثيراً ما كان يقول : الشريف ولد ممتاز .. الشريف يحفظ القرآن . يالأفة : الشريف أتو اطناشر من اطناشر واكتب قدام اسمه فتح الله عليك وعلي والديك . فطلت أنعم برضاء الشيخ ربحاً من الزمان . حتي اذا كان ذلك اليوم الكالح ودخل علينا الشيخ في ذلك الصباح النكد ورأني بعيني رأسه واستمع الي بأذنيه الارنبيتين وانا في حالة من الهرج والمرج لم يعدها في من قبل لأني كنت حذراً فيما مضى - ساء امرى وأغضبه حالي أشد الغضب . وقد رأيت ذلك وقراته في عينيه وأحسست احساساً صادقاً يقيناً أنه أضمر حياالي أمراً جلاً وأنه قرر في نفسه بون أي مقدمات تذكر اننى لم أكن أهلاً لثقته الغالية التي خصنى بها زمناً طويلاً . ورغم انى كنت اعلم أن الشيخ متقلب المزاج ولا يؤمن جانبه بحال إلا أنى أخذت على حين غرة هذه المرة . وكان هاشم (الأطرش) واحداً من الذين دفعونى للهرجلة والصخب ، وهم كوكبة « رمتنى بدائها وانسلت» . ويعد دخول الشيخ بقليل ران على الجميع الخرس وسيطر على الفصل صمت ثقيل . و ادركت خلال تلك الدقائق القرون أن الشيخ كان يقلب في ذهنه أمراً وأيقنت انه كان يبحث عن مبرر مناسب لينزع عنى ما كان يخلعه على من ثقة ورضاً وتوقير خلال عامين أو تزيد. فقد ظل يسدد الي نظرات ذات معانٍ راکزة لا تريم .. ثم قال بعد هنيهة : مين المهرجل ؟ فاذا بأحد الخبثاء - وهو عبد الرحيم قلى عليه رحمة الله - يقول : فندى دا الشريف ! فقال الشيخ - بلهجة جمعت بين المكر والحنق والارتياح للعثور علي الضالة - : لا . الشريف لا يهرجل . الشريف ولد مهذب يحفظ القرآن . الشريف .. اقرا لنا ويل للمطففين . فانخلع قلبى

وزادت دقاته بشكل ملحوظ حتى ظننت انه سيخرج من صدرى . ولكنى استجمعت شجاعتي وقواى ، وبحركة سريعة لم يلاحظها الشيخ لانه كان يقف بعيداً - اخرجت المصحف من درجى ووضعتة على حجر هاشم الأطرش جارى وصديقى وأشرت اليه بيدي أن يفتح السورة . ولكن هاشماً طفق يرتعد فرقاً ويتصبب عرقاً .. فحاولت تثبيته وقلت له فى همس : افتح سورة ويل للمطففين فان الشيخ يجلس على كرسية بعيداً عنا ولن ينالك سوء . وقد كان الشيخ يراخى عمامته من امام يكاد يغطى بها وجهه حتى نحجب عن عينيه ونظراتهما الفاحصة المدققة مما أفاء على وعلى هاشم قدراً قليلاً من الاطمئنان ، رغم أن يدى هاشم ظللتا ترتعشان وهما تحاولان عبثاً العثور فى المصحف الشريف على صفحة السورة المطلوبة . واخيراً ابرز لى هاشم سورة النازعات فتلوتها وأنا استرق النظر الى المصحف الذى كان يهتز اهتزازاً على حجر هاشم . ولما فرغت من تلاوتها قال الشيخ ابوبكر وهو يجلس مكانه وعمامته تكاد تغطى وجهه تماماً : ياسلام ! ما قلت ليكم الشريف ولد مؤدب ويحفظ القرآن ؟ الشريف ، كدى أقرالنا ويل للمطففين ! وكزت هاشماً فحاول ولم يعثر عليها فى المصحف . ولكن وقع بصرى علي سورة الرسائل ، والمصحف كله يهتز علي حجر هاشم حتى خشيت أن يسقط منه على الأرض فيحدث صوتاً يفضح أمرنا . فساعدته بيدي اليمنى على تثبيت الصفحة ثم تلوت سورة الرسائل وعينائى تجولان بين المصحف والشيخ فى تعاقب سريع وتتابع لاينى ، حتى أحسست باعياء مقيت . وفرغت من التلاوة وأنا أظن أن الشيخ ابابكر قد استسلم إلى إغفاءة وهو على كرسية فقد كاد رأسه أن يرتطم بالمنضدة التى أمامه . ولكن ، ما اسرع ما خاب أملى ! فبعد انتهائى من التلاوة بقليل رفع الشيخ رأسه وأصلح من وضع عمامته علي رأسه وسأل وكأنه لا يعلم : الشريف : انتهيت ؟ قلت : نعم يافندى .. فقال بلهجة موقرة بال غضب والمكر والدهاء : ماشاء الله ، الشريف ولد مهذب يحفظ القرآن . الشريف كدى اقرا لنا ويل للمطففين ثانى أنا باقى شالتنى غمدة ! وعندها أدركت عظم مكر الشيخ واستيقنت نفسى ماسيتبع ذلك من هول ، وألممت

المصحف الشريف بسرعة فائقة وودعته درجى ، لأنى رأيت أن ارتعاد هاشم قد تفاقم وتناهى ، وتعاطم توقعه للشر المستطير وبلغ منه الرهق والعناء مبلغاً فخشيت أن يفضح أمرى ويكشف المستور فأجد نفسى مضطراً لأن أبوء بذنبي : عدم الحفظ واستراق النظر إلى المصحف . ورأيت من الحكمة ان ابوء باثم واحد ، وهو على كل حال اثم يشاركنى فيه اكثر تلاميذ الفصل ان لم يكن كلهم مقترباً له متلبساً به . فاستجمعت ماتبقى لى من جرأة وتوكلت على الحى الذى لا يموت وقلت بنبرة جمعت كل معانى الجسارة واليأس : يافندى ما حافظها ! فردد الشيخ مقولتى بلهجته الساخرة وقال - وقد عثر على ما كان يرمى اليه . أى قول كدى . الشريف واطى ، الشريف كلب ، الشريف لا يحفظ القرآن ، الشريف ولد ما نافع ، الى آخر مفردات سبابه التى لا يجاريه فيها أحد . . الى ان قال مخاطباً الكبتل : ألفة ، الشريف أذو صفر من اطناشر واكتب قدامه هؤلاء قليلو الادب . ومنذ ذلك الحين الذى دفع الشيخ بى فيه الى الهاوية السحيقة صارت درجتى في القرآن عنده صفراً من اطناشر ودخلت عالم هؤلاء قليلو الادب من اوسع ابوابه . ولسان حالى يقول :

أيذهب يوم واحد ان أسأته .° . بصالح أيامى وحسن بلائيا

واذا كان الشيخ ابوبكر هو استاذ القرآن فقد كان هناك شيخ آخر - الشيخ محمد الطيب - هو استاذ الدين . واذا كانت الدرجة القصوى في القرآن بالنسبة للتلاميذ هي اثنا عشر فان الدرجة القصوى في الدين هي ايضاً اثنا عشر ، والمجموع اربع وعشرون درجة . وكان استاذ الدين - الشيخ محمد - شاباً وسيماً هادئاً يرتدى القفطان او الككولا ولعله كان فى الثلاثينات من عمره . وهو رجل نحيف البنية اقرب للطول منه للقصر قحى لون البشرة ، دائم الابتسام لم اره يوماً واحداً يعاقب تلميذاً . وهو قد أجبر التلاميذ على احترامه فهم فى حصته سكوت نواكس الانقان . ورغم ارتدائه للزى التقليدى لمعلمى العلوم الدينية فهو حليق اللحية يرتدى شارباً خفيفاً

مشذباً ويمشى فى هدوء وسكينة . ورغم ان بقاءه معنا لم يطل كثيراً فقد سعدنا به حقاً وذلك ان وجوده قد استنقذ اكثرنا من الدائرة الحمراء التى كانت ربما تحيط بمرتك فى شهادة النقل من سنة دراسية الي السنة التى تليها . ولو ظل أمرنا رهيناً بالشيخ ابى بكر وحده لما نجا احد منا من هذه الدائرة الحمراء البغيضة حول نمرة العلوم الدينية ، وهى - على ما فيها من المثبة الواضحة - ربما كانت مدعاة لعقوبة أخرى اذا اطلع عليها والدك او ولى أمرك . وقد كنت من الذين يبلغون عند الاستاذ الشيخ محمد فى بقية علوم الدين الاخرى «اطناشر من اطناشر» ليصبح متوسط الحصيلة «اطناشر من اربعة وعشرين» . ورغم ان ذلك « مرور على الحركك » فان الذى يبلغه هو من الخيار القلة ، لان اغلب تلاميذ الفصل - بل جميعهم فى نهاية الأمر - كان قد انتهى مع الشيخ ابى بكر الى درك صفر من اطناشر فى القرآن ، ثم هم بعد ذلك كلهم من زمرة هؤلاء قليلو الادب .

والله يعلم اننا لم نكن كذلك ، بل كان جميع التلاميذ فى عموم مسلكتهم يقطرون أدباً وحياءً وطيبة . ولكن الشيخ ابابكر كان رجلاً من طراز فريد ، ولعله كان يعتقد ان خير وسيلة لدفع التلاميذ لمزيد من الجهد والتحصيل هى تناولهم بهذه السخرية اللاذعة التى كانت تشتمل على ألفاظ مسيئة فى مظهرها على أقل تقدير . ولكن من عجب اننا لم نكن نكثر لها كثيراً بل كنا نضحك منها أشد الضحك ، ويكثر بيننا روايتها فى ملا غير ملا الفصل الدراسى ، فما تثير فى أنفسنا الا المرح والتشويق ، بل هى لم تكن تقلل من مكانة الشيخ فى أنظارنا . وربما كان هذا الاحساس نابعاً من النظرة العامة للمعلم فى تلك الأزمان الغابرة ، وهى أزمان شهدت شيوع مقولة أمير الشعراء أحمد شوقى بين الناس :

قم للمعلم وفه التبجيلا ، . كاد المعلم ان يكون رسولا

فالمعلم وان لم يكن رسولاً سماوياً فى نظرنا فهو صاحب رسالة أرضية مضمونها تربية النشء على مكارم الأخلاق ومن بينها استيفاء جميع الحقوق التى على الرقاب ،

سواء كانت تلك الحقوق دروساً يتعين على التلميذ اتقان معرفتها والوفاء بما تلقىه عليه من التزامات ، أو كانت تلك الحقوق معاملات مع الاقران والاساتذة يتوجب ابتدارها بالحزم المطلوب والامانة المبتغاة . فكانت نظرتنا للاستاذ عموماً هي عين نظرة الحيران للفكى في الخلوة ، وهي نفس نظرة الابن لابييه الرحيم . ولست امارى في انه كانت هنالك بعض استثناءات لهذه القاعدة ، ولكنها بعض استثناءات على كل حال ، انما الأصل هو تبجيل المعلم وحمل أقواله وتعليقاته وحتى صرامته في انزال العقوبة بالتلاميذ محملاً طيباً يعترف له بحسن النوايا ونبل المقاصد .

لقد كان هاشم محمود (الاطرش) يحسب ألف حساب للشيخ ابي بكر ، ويخشى بأسه ولذلك يجهد نفسه لكي يخرج من حصته معافى من شر يده ولسانه . ورغم انه قليلاً ما كان ينجح في ذلك ، تماماً كالأخرين ، الا انه كان يجلس للشيخ ، ويكاد يجهد بالبكاء اذا تلا الشيخ على مسامعنا شيئاً من أى الذكر الحكيم ، لان الشيخ كان قد أوتى صوتاً من مزامير داؤود فاذا استمعت اليه تداعى قلبك وسائر اعضاء جسدك بالخشوع والاحبات . ولقد بلغت بهاشم الحيرة في أمر الشيخ حتى وصفه لى مرة بأنه ملك في صورة شيء آخر في محاولة جاهدة للتفريق بين الشيخ ابي بكر الذى يتلو القرآن فيأخذ بمجامع القلوب ، والشيخ ابي بكر الذى يمكن ان يطلق عليك اعيرة نارية من لسانه الذى بين فكيه ! وعندما سألنا محمد العوض عن السر وراء اطلاقه لاسم «الاطرش» علي هاشم مازاد على ان ضحك طويلاً وطلب منا أن نخمن السبب . فقالت طائفة منا : هو فريد الاطرش لان هاشماً كان يترنم في بعض احايينه بنغمات لم تكن نتينها بوضوح ، وربما أطلق عليه محمد العوض هذا الاسم من باب الهزء والسخرية . وظننت طائفة أخرى منا ان المقصود هو : الأطرش في الزفة لان الزفة هي كانت ذلك الضجيج الذى يحدثه عبد الكريم في الفصل ويعاونه عليه قوم آخرون ، وذلك ان هاشماً كان - في اغلب أحيانه - يقف من هذه الزفة موقف المتفرج لايزيد في المشاركة فيها على ابتساماة عريضة تنبئ عن ارتياح صادق لما يحدث ولكنه مشسوبٌ بشئ من



القلق والخوف مما يمكن ان يترتب عليه خاصة اذا كان ذلك قبل دخول الشيخ ابي بكر للفصل بقليل . وظننت طائفة ثالثة ان مبعث هذا الاسم - الاطرش - هو ان هاشماً كان يدعى الطرش احسن ادعاء ويتقن تمثيله ايما اتقان ، واية ذلك انك تحدته وهو ينظر اليك دون أي استجابة وكأن حديثك لا يعنيه فهو يسمع ما يود ان يسمعه واما ما لا يريد ان يسمعه فان باذنيه منه وقرأ . وقد ساعده علي ذلك طريقته التي هو مجبول عليها في الكلام فهي أقرب الى طريقة الطرش منها الى طريقة الذين يسمعون ، يأكل حروف حديثه أكلاً ، ويمضغ تعابيره مضغاً فلا يبلغ اذنيك منها الا مقاطع هي أشبه بالفحيح والا كلمات مبهمات هي أقرب للهمس لولا ان قهقهاته المقتضبة قد تعلقى من نبراتها وتقترب بها من اسس الكلام الذى بعد كل ذلك يصعب على الفهم أيما صعوبة . على ان محمد العوض قد سرته حيرتنا هذه وصار في بعض احيائه ينكر أنه هو الذى ابتدع لهاشم هذا الاسم ، وربما كان التفسير الاخير هو اقرب التفاسير للحقيقة وذلك ان هاشماً لم يعترض على تلقيبه «بالاطرش» ولعله سر به في قرارة نفسه لانه كان له في كثير من الاوقات اشبه بطوق النجاة . فهو لا يسمع هرجلة عبد الكريم إذا أراد ذلك ويصعب سلك الأطرش في زمرة المهرجلين ، فهو بمنجاة عما يمكن ان يترتب على هذه الهرجلة من عقوبة ! وهو لا يسمع سؤال الاستاذ ، وقد ينجيه هذا الطرش من الخوض في اجابة قد يتكذب فيها طريق الصواب فيجر على نفسه ما هو في غنى عنه من متاعب . ولكنه رغم ذلك لم يسلم من دفتر عم مبارك كما اسلفنا ، فذلك محشر لامرد لاجد من ولوج اسمه بين صفحاته مهما أوتى من مقدرات على ادعاء الصمم او البكم او العي . حقاً لقد كان هاشم رفيق دراسة لا ينسى فهو عذب الروح خفيف الظل موفور الحياء . ولقد أسفنى كثيراً ان صلتى به قد انقطعت منذ انتهائنا من ام درمان الاميرية ولم اره بعد ذلك ابداً ولا سمعت خبره عند احد. غير انه ترك في نفسى لوافت من مثل هذه الذكريات التى تستقر في الوجدان ولا تزول . الى أين دفعت به ظروف الزمان وتقلبات الحياة يا ترى ؟ ليتنى أعلم ! ومجمل احساسى انه كان ولداً رقيق الحواشى طيب

النفس . واعجب شئ فيه انه كان يتحكم فى حياته ابلغ تحكم يبلغ به الذروة ان اراد ، ويحيله - فى بعض المواقف - الى جسارة لاتقيم وزناً لشيئ . ولكنه كان تلميذاً واسع الحيلة يسمع بأعين اسماعه مايريد ان يسمعه ، ويصاب بالصمم حيال ما لايسره ولايرضيه ، ويرى ببصيرته المدققة جميع الخطوط الحمراء فلا يتعدها بحال . لذلك كان هاشم بعيداً عن المغامرات بعد المشرقين معصوماً عن الدخول فى المآزق والمطبات عصمة من ايقن انه ان دخل فيها فلن يخرج سالماً ، حذراً بالغ الحذر ، مسالماً محباً للسلامة والنجاة . فان كان قد شب على ذلك فما أفدح ما وأجهته به صعاب الحياة وصروف الزمان وما أقسى ما طالبت به احداث الايام وتصاريف الدهور . ذلك ان الاوقات التى قضيناها سوياً فى ام درمان الاميرية كانت عهداً رغدة العيش لينة الأعطاف هينة المتون ، فكيف له بمواجهة ماتلتها بأزمان من أوقات العسرة والضيق وطوارق الأحداث ؟ !

### **مكى . . . يرعى . . . وسقوط العمامة :**

ورغم أنى استعرض زملاء الفصل فى ام درمان الاميرية من وراء قرابة نصف قرن من الزمان فانى أنظر اليهم بوضوح . . غير انى لا انكرهم فى هذا السياق وضمن هذا الاطار وفق ترتيب معين او تصنيف يستند الي السن او نتائج التحصيل او أى شئ من هذا القبيل وانما اعتماداً على سبق أى منهم الى الذاكرة أثناء الكتابة . وكيف تخفى على ذاكرة أحد من تلامذة تلك الايام الوضيئة صورة الصديق الأثير مكى برعى؟ لقد كان مكى « شاباً » هادئاً وقوراً ، وهو دائماً يفضل الجلوس اما فى قلب الربع الخراب وأقاصيه - وهو الصف الاخير من الفصل - او ضمن مجموعة العقد التى تنتظم الصف الذى يليه اماماً . وحيثما كان مقعده فى الفصل ، فان مكى يبدو هادئاً مبتسماً فى اغلب الاحيان . ولكنك اذا دقت النظر اليه ألفتته ساهماً مستغرقاً فى عالم غير الذى يجلس بين ظهرانيه . وقد كان مكى طويلاً فارح الطول بالنسبة لأغلب زملائه فى الفصل لايكاد يضاويه فى ذلك إلا أحاد تقفز الي الذاكرة منهم صور الكبتل

ومحجوب وعباس وكرم - شقيق الزعيم الطيب الذي صار في خور طقت «باك القيامة» . ولفرط طول قامته مكى - ولربما لأسباب اخرى يعلمها الله وقد أطلع سبحانه عليها الشيخ أبابكر دون سواه - كان الشيخ ابوبكر يناديه : مكى يرعى . . . اوقف يا مكى يرعى . . . بيا بنقطتين في اسمه الثانى (اسم أبيه) بدل باء بنقطة واحدة . وهذا الاسم الذى اطلقه عليه الشيخ تصحيف مقصود يحرف الاسم ويجعله فعلاً مضارعاً بفتح الياء وسكون الراء وفتح العين ! ولا اذكر ان مكى ابدى اعتراضاً على هذا التصحيف بل انه تقبله بروح سمحة وكانت ابتسامته التى تكاد لا تفارق وجهه تتزايد ويتسع مداها كلما دعاه الشيخ بهذا الاسم وطلب اليه ان ينتصب واقفاً ، حتى يفضى به الامر الى الضحك الصراح . ومن عجب ان هذا الضحك الذى يجد مكى نفسه مدفوعاً اليه دعماً كان مما يثير عليه حفيظة الشيخ ، وكأنه عمد الى ايلامه بهذا الاسم المبتدع فلم يبلغ من مبتغاه شيئاً . ورغم سخريته اللاذمة واحياناً صفعاته المباغثة فان مكى كان يتحمل كل ذلك في صبر وجلد وبدون ادنى احتجاج ، بينما كان البعض ممن هم فى طول قامته لا يكفون عن الاحتجاج على بعض تجاوزات الشيخ وغيره ، ويكادون يبطشون بالذى هو عدو لهم فى نظرهم من الاساتذة . . . ويقينى ان مكى كان راضى النفس بما يصيبه من لسان الشيخ ويده ، ولو شاء لابدى صفحة السوء دون اكرثا يذكر ، ولكنه كان وقوراً صبوراً موفوراً الادب والفطنة والكياسة . ولقد امتاز مكى - على أخلاقه العالية الكريمة وسريرته الطيبة - بأناقة ظاهرة في ملبسه ، فجلابيته ناصعة البياض ، وعمامته مثبة على رأسه في انتظام ونسق يبعث على الاحترام والتوقير ، وتكمل صورة حسنه وبهائه ابتسامته الهادئة المشرقة التى لا تكاد تفارق وجهه الا فى بعض ساعات الضيق والحلك عندما يلم بنا الشيخ ابوبكر وهو سقيم المزاج . ولقد كنت أعجب كثيراً لعمامة مكى وكيف كانت تلتف حول رأسه وكأنها قطعة واحدة ذات فصوص ثابتة . فكل العمائم كانت تنحسر عن الرؤوس منسدلة على غير انتظام خاصة في ساعات النشاط المتزايد والركض واللعب الذى يستغرق فيه

التلاميذ في الفسحة الكبيرة وغيرها من الفترات التي تفصل بين الحصص ، الا عمامة مكي فانها كانت اشد ثباتاً واطول بقاء علي راسه من برنيطة الخواجة . واليوم الوحيد الذي رأيت فيه عمامة مكي تسقط عن رأسه - من بين عمائم كثر سقطن من رؤوس اصحابهن إثر صفعات قاسية - كان ذلك اليوم الذي جاء فيه الى فصلنا ، ولاول مرة استاذ يدعى الشيخ الباقر . وهو شيخ يبدو انه كان في اواخر الاربعينات او مطلع الخمسينات من عمره ، يرتدى الزي الأزهرى المعروف : الجبة والقفطان او الككولا وذات الطاقية الطربوشية الحمراء ، ويتحدث بلهجة فيها شئ من الغلظة والتعسير ، يعتصر الكلمات اعتصاراً فتندفع من فيه على هيئة فرقعات متتالية كأنها قذائف البارود غير انها قد تدمى المشاعر دون ان تصيب الاجساد . والشيخ الباقر يختلف عن الشيخ ابي بكر من وجوه : فهو سريع الحركة بادى العصبية دائم الهياج ، بينما الشيخ ابوبكر بطئ الحركة ثعلبي الخطى قططى التحفز والانقضاض . والشيخ الباقر لا يود ان يستمع اليك ، بينما الشيخ ابوبكر يمد لك حبال الصبر مدأ وينصب لك الشراك نصباً ، حتى اذا أحاطت بك خطيئتك واحتوشتك شباكه التي برع في نسجها من حولك فلن تغلت من قبضته وان اوتيت مكرأ (لتزول منه الجبال) . وان ينفك ومن معك انكم حينئذ في العذاب مشتركون . ونحن قد تعودنا على الشيخ ابي بكر وألفناه - وقد يؤلف الشئ الذي ليس بالحسن - بل ان نوادره كانت تشكل بالنسبة لنا مادة غزيرة للحديث والانس والضحك في اوقات فراغنا . وقد اكبرنا فيه على أقل تقدير انه كان يرتل القرآن على مسامعنا فنهتز طرباً ونحلق في آفاق ملائكية بعيدة . ولكن الشيخ الباقر لم يكن من كل ذلك في شئ . فهو قادم جديد ، لم نعرفه من قبل ولم يعرفنا . وبدل ان يبدأ من حيث انتهى غيره كان الاخلق به ان يصدر حكمه بناء على تجربة متمهلة . ولكنه أثر ان يدعن لانطباع لم يكن اصيلاً في نفسه لانه لم يكن نتيجة تجربة ذاتية بالنسبة له . كان الشيخ ابوبكر قد مهد له السبيل لهذا الانطباع الخاطئ بحمله جميع تلاميذ الفصل على قاعدة صفر من اطناشر دون استثناء ، وربما وقر في

صدره أيضاً اننا جميعاً «هؤلاء قليلو الادب» . فجاءنا في ذلك اليوم البئيس - ونحن نراه لأول مرة - في حالة هياج ظاهر لا تخطئه عين . وكنا من قبل قد أحسنا بشئ غير قليل من الضيق والبرم . فقد ايقن التلاميذ ان لاشئ يجدى مع الشيخ ابى بكر . فلما استيأسوا خلصوا نجياً ثم عقدوا العزم واتفقت كلمتهم وقالوا : لا نحفظ القرآن ، لاننا لن نفلت من صفر الشيخ ابى بكر مهما فعلنا ، سواء علينا أجزعنا ام صبرنا . وكانت قيادة ذلك التمرد الامتناعى قد انعقد لواؤها لكرم - عبد الكريم احمد حميدة - ومساعدية من فرسان الربع الخراب . ويقينى ان مكى برعى لم يكن بمنأى عن ذلك القرار الحاسم ، بل انى أميل الى الاعتقاد بأنه كان من ابرز القادة ، وان كان وجهه المشرق لا يوحى بمكر ولا تأمر وانما توحى ابتسامته الهادئة بالرضا والمسائلة وتشى ببراءة ربما كان فى حقيقة امره بريئاً منها ! ولعل الغرض من اتخاذ ذلك القرار الامتناعى - الذى انبعث اساساً من حظيرة الصقور في الفصل - كان إظهار شئ من الاحتجاج الايجابى للشيخ ابى بكر لعله يرعوى هوناً ويخفف من غلوائه . ولكننا فوجئنا فى ذلك الصباح بأن الداخل علينا لم يكن هو الشيخ ابوبكر وانما شيخ آخر هو الشيخ الباقر ، الذى ما ان وطئت قدماه عرصات فصلنا حتى قرأنا على وجهه المتجهم علامات الصرامة وآيات النذير . فلم يخالج احداً مذا ريب في انه جاء يحمل فى طى خاطره احكاماً مسبقة عن اولاد الفصل جميعهم . ولقد صدق حدسنا اذا بدأ الشيخ بيوسف خضر وقال له : اقرأ سورة كذا . فشرع يوسف في القراءة مفترعاً تلاوته بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، وكأنه يستعيز في سره وعلايته ممن هو في نظره لا يقل فى تلك اللحظة خطراً عليه من الشيطان الرجيم ! ثم تلا البسمة ، ولم يقدم نحو السورة خطوة واحدة . ولكنه تسمر فى مكانه وقد تفلتت الايات من صدره تفلت الماء من خلال فروج الاصابع . وطال صمته ، فانتهره الشيخ بفضاظة بادية . اذا ما حافظ قول ما حافظ . ثم أشار الى عبد الرحيم سعيد ، فعباس صالح ، فمحمد العوض ، فمحمد على مقبل ، وآخرين (من خلفهم لما يلحقوا بهم ) فلم يظفر من احد منهم بطائل . واغتاط الشيخ

اغتيالاً شديداً وتملكه هياج عارم وصار يذرع رحاب الفصل بين ادراج التلاميذ جيئة وذهوباً وهو يصيح : يا ناس ، ما حافظين سور الصلاة ؟ انتو مسلمين كيف ؟ وطق يصفع يمناً ويسرة ، والتلاميذ منهم من يرتعد ارتعاداً ، ومنهم من يدعى ويحاول اظهار الثبات وان كانت دقات قلبه قد جاوزت المائة في الدقيقة بكثير دون ريب ، ومنهم من يحاول أن يدندن بشئ من القرآن دون ان يبلغ من ذلك شأناً يذكر . فتطايرت العمائم وفي مقدمتها عمامة كاتب هذه السطور . ولكن الشئ الذى أحرزنى حقاً هو سقوط عمامة مكى برعى فقد خيل الى ان سقوطها فى تلك اللحظة - وبالصورة التى تهاوت بها - قد سلب مكى قدراً ليس بالقليل من كبريائه ووقاره ، وذلك هو ما أسفنى لان مكى كان يمثل - فى نظرى - عنصر ثبات وهيبة بالنسبة لتلاميذ الفصل ، فهو وان كان هازلأ مثل كثير من زملائه الا ان هزله كان قواماً قسطاً قد برئ من المغالاة والابتذال لاينقص من اتزانه الذى تميز به ولاينال من اعتداله الذى كان يدينه من قلوب أقرانه .

اما بقية سكان الربع الخراب فانهم قد تعودوا على مثل هذه الصفعات فكان كل منهم ثابتاً كالطود لايتزعزع . بل انك لم تكن تسمع الا هدير الشيخ الباقر وصدى صفعاته . اللهم الا صيحتين خافتين منشوئهما الفرق وتوقع المصيبة ، تيقنت ان احدهما من عباس صالح والثانية من اسماعيل عبد الصادق ، وقد كانتا أشبه بالانين المشوب برنة احتجاج يائس حزين . ثم اراد الله ان يصنع بنا خيراً وينجيننا بفضل من العذاب الاليم ففتح سبحانه من فيض رحمته على عبد الحميد عباس الذى استطاع اخيراً ان يقرأ علي الشيخ سورة من سور المفصل القصار ولعلها كانت سورة تبت يدا ابي لهب او ما يماثلها في القصر ، فقد كنا فى شغل شاغل عن تبين أى شئ من الاشياء . لقد قرأ عبد الحميد السورة من الذاكرة دون ان يخطئ ، فانفتحت حق الشيخ وتراخى انفعاله وتطامن غضبه لانه قد وجد اخيراً - على حد قوله - من يحفظ سورة من سور الصلاة ! وكان ذلك يوماً مشهوداً . ورغم ان مدة الحصاة لم تتجاوز فى حقيقة

الامر خمساً وأربعين دقيقة الا انها بدت لنا بعض يوم مقداره ألف سنة . ومن عجب ان المنقذ من تلك المحنة لم يكن غير جرس عم مبارك الذي اعلن نهاية الحصاة بصلصلة كانت احلى لنا من التغريد والألحان وهبت علينا مثل نفحة باردة هانئة مريئة كأنها ريح الصبا جاءت برياً القرنفل ! فاعجب لمنقذ من العذاب هو نفسه نذير بالعذاب . . واعجب لنجاة من التلف بموعد مع التلف ! ولعله من حسن الطالع ان الشيخ الباقر لم يكن قد تعرف بعد على النظام الصارم الذي كان سارياً ، وهو ان التلميذ يجب ان يصفى حسابه مع عم مبارك قبل مغادرته لرحاب المدرسة بعد انتهاء الحصص . ولو علم ذلك لتكاثرت الظباء علي عم مبارك في ذلك اليوم الكالج تكاثرها على حراش . . فما يدرى حراش ما يصيد ! ومن احسن حسن الطالع ان تلك الحصاة التي شهدت تطاير العمائم وهدير الشيخ وأصدقاء الصفعات وازدياد وجيب القلوب كانت هي حصته الاولى والاخيرة معنا . . فانظر كيف يمكن لحدث واحد ان يبقى في الذاكرة جلياً واضح المعالم رغم مضى ما يقارب نصف قرن من الزمان على وقوعه ! ولو علم الشيخ الباقر اننا لن نذكره بعد نصف قرن من الزمان الا مقروناً بهذا الحدث المرعب لكان منه عندئذ غير الذي كان . فما يورد التطرف صاحبه الا موارد الخسران ، ولا يترك الغلو والتشدد في الانفس الامثل هذا الانطباع الاسيان ، ولذلك جاء في التنزيل : (وكان بين ذلك قواما) في معرض المدح للذين (اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) لان الاسراف في انفاق المال مذمة في عمومها الا في حالات مستثناة ، وهو في انزال الرعب بالأمين ابلغ في الظلم وتجاوز حدود الاعتدال . وجاء ايضاً في التنزيل : (وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس) . وحتى البقرة التي أمر قوم موسى عليه السلام بذبحها فان وصفها الذي بينه القرآن يحمده الاعتدال وتشتمل معانيه على امتداح الوسطية : (قالوا ادع لنا ربك يبين ماهى ، قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون) . والفارض هي المسنة والبكر هي الصغيرة ، والعوان نصف بين ذلك ، أى المذكور من السنين .

ويقيني ان مكى برعى لن ينسى الشيخ الباقر ابداً مابقى لا لانه اطار عمامته  
الثابتة الوقورة عن رأسه في ذلك اليوم البئس فحسب ، ولكن لانه اشاع بين التلاميذ  
وفى يومه الاول معهم جواً من الرعب جعلهم ينسون حتى قصار السور . ولو انه  
تعامل معهم بشئ من الهدوء لما وجد من بينهم صدرأ خالياً من القرآن ولدفعهم - ان  
هو احسن توجيه الخطاب لهم - الى مزيد من الحفظ والاستظهار . اما الامر مع  
الشيخ ابى بكر فقد كان شائناً آخر . لقد تحمل مكى برعى من الشيخ ابى بكر ماكنت  
احسبه لايتحملة من غيره . فبجانب انه مكى يرعى - في اشارة واضحة الى الجملية  
ومايكنم فى غضون هذه الاشارة من المعانى الاستخفافية - فان مكى لم يكن بدءاً من  
التلاميذ ولم تشفع له ابتسامته الوادعة ولا اناقة ملبسه الظاهرة من ان يهوى الى درجة  
صفر من اطناشر ويستقر نهائياً في قائمة هؤلاء قليلو الادب . ولكن ، رغم كل ذلك ،  
فان مكى كغيره من التلاميذ كان قد الف الشيخ ابابكر وتقبل تجاوزاته عن طيب خاطر  
وصفاء نفس ، فقد كان فى الشيخ نوع من السحر يجذب اليه التلاميذ ويحببهم فيه  
وينسيهم - او قل يهون عليهم - متون الشطط التى يركبها في كثير من حالاته ركوباً  
ويحمل التلاميذ على سفائنها حملاً . فهى كلها - كما قلنا - تشكل مادة غزيرة  
للتلاميذ يبعث فيهم اجترارهم لها في مجالس انسهم حيوية ملأى بالطرائف ومتاع  
الحديث . ومن يدرى ، ربما كان الشيخ الباقر يتمتع بملكات خفيت علينا فقد ابى سوء  
حظه الا ان تكون تلك الحصة التى لاتنسى هى كل تجربته معنا ، او قل تجربتنا معه .  
ومع ذلك فان الامر الذى لا مشاحة فيه ولا ريب هو ان الشيخ الباقر كان من اولئك  
الرهط من الاساتذة الذين يحرصون على ابلاغ تلامذتهم مستويات عالية من المعرفة  
ويرون ان التشدد معهم كفيلا بأن يفتق من عقولهم ما غفا منها وأخذ الى نوم الغفلة .  
ولكن ربما فات عليه ان من هؤلاء الفتية الصغار - بل ان الغالبية العظمى منهم - من  
لا تستجيب انفسهم للاستكراه ولايسلس قيادهم للترهيب ، وانما تأسره الملاطفة  
ويتألف قلوبهم اللين ، لان الشدة جفاء يستجلب جفاءً وعزوفاً ، واللطف معروف



يستدر الطاعة والعرفان .

ولم أر كالمعروف أما مذاقه . . . فحلوا وأما وجهه فجميل

## الكابوى المسالم :

وأما الصديق العزيز محبوب حسن سعيد فقد كان جزءاً لا يتجزأ من سكان الربع الخراب فى الفصل وركيزة أصيلة من ركائزه فهو يجلس فى المؤخرة بالقرب من عبد الكريم احمد حميدة ، وفى قليل من احيائه يتحول الى الصف الذى امامه ، ولكنه لا يتعدى تلك الحدود ابداً ربما لانه ألى على نفسه ان يجعل بينه وبين الاستاذ مساحة كافية تتيح له حرية شبه كاملة فى ما قد يحلو له أن يأتي به من حركات او تصرفات قد تثير عليه حفيظة الاستاذ ان كان قريباً من بصره او سمعه . ورغم حرصه على هذا البعد ومهما كانت الاسباب الحقيقية لا يثاره لهذا البعد فان محجوباً كان تلميذاً هادئاً جداً ووقوراً مكتمل الوقار . وهو حسن الهندام بهى المظهر مهذب ذو خلق عالٍ كريم . ولكنه قليل الكلام ، لا يدخل فيما لا يعنيه ، ولا يطيل الدخول حتى فى ما يعنيه . يجيب على قدر السؤال وأحياناً بأقل مما يتطلب السؤال . يفعل ذلك مع التلاميذ والاساتذة على السواء . اذا أشكل عليه أمر صمت ولاذ بصمته لا يبغي عنه حولاً فلم ينبس ببنت شفة ، ودون ان تبين علي وجهه علامات اضطراب او خوف او محاذرة من سوء عاقبة . حتى ان وجهه - على صباحته وحسن سمته - لا يوحى بتعبير معين ولا ينطق بمعنى معلوم . وكان ذلك مما يغضب بعض الاساتذة عليه ويثير حنقهم ويوقظ فضولهم فيظنون به الظنون ، ويحسبون انه متهاون بأمر أسئلتهم غير موقر لهم . والحق ان محجوباً كان يوقر اساتذته أشد توقير ويكبرهم أعظم إكبار ، بل هو يحترم زملاءه احتراماً صادقاً ويعاملهم برقة حانية ولطف محبب وأدب جم مطبوع . اما مع الاساتذة فقد كان محجوب موفور الأدب والحياء ، لدرجة أضرت بقضيته وشأنه عند بعضهم ممن حسبوه غير عابئ بهم زاهداً فى التعلّم منهم . ومن منا لا يذكر ذلك الموقف الذى تعرض له محجوب مع الاستاذ احمد عبد الله سامى استاذ اللغة العربية ؟ لقد كان الاستاذ

سامى متميزاً بحيوية دافقة ، فهو أثناء شرحه للدروس يجوب عرصات الفصل مراراً ، يكاد يقف امام كل تلميذ فيه حيث يجلس ، يلقي بأسئلته على هذا ويجذب انتباه ذاك بما بيديه له من ملاحظات ، ويثير اهتمام غيره بما يخصه به من شرح يسمعه الجميع . وكان كغيره من الاساتذة شديد الريية فى أمر جماعة الربع الخراب ، وهو محق فى ذلك ، لان جميع التعليقات التى تسخر من الاساتذة ولايعلم على وجه الدقة مصدرها الحقيقى إنما هى نابعة من تلك البقاع دون ريب ، ولكن يصعب ضبط الأمر والحاق الجرم بشخص معين . فقد برع اولئك النفر الاشقياء فى اخفاء المصدر الحقيقى وان لم يكن فى وسعهم إصاق التهمة بغيرهم ممن يتقدمونهم فى صفوف الفصل ويصغرونهم فى السن ، على الرغم مما حاك فى صدورهم من امانى مبتغاها ان يقترفوا الاثم ويرموا به غيرهم من الابرياء ، وذاك هو الخبث الطفولى الذى يتبدى من وراء براءة جامعة ! وقف الاستاذ سامى اثناء تجواله الدؤوب امام محجوب فى ذلك الصباح ، وكان قد وقر فى صدره أن محجوباً هو مصدر تلك الاصوات العجيبة الخافتة التى تشوش على الاستاذ وتقاطع سيل افكاره وهو يشرح الدرس ويشقق المعانى ويخاطب العقول . وحقيقة الأمر ان محجوباً كان بريئاً من احداث ذلك الازعاج الذى اغضب الاستاذ سامى وكدر صفوه . فمحجوب - كما قلنا - تلميذ مهذب غاية التهذيب ، وانما يدل مظهره المسن نسبياً بالمقارنة الى كثير من زملائه على انه - على أقل تقدير - أحد صانعى الفوضى واساطين الازعاج ، ان لم يكن القائد المسلم له بالريادة فى هذا المضمار . ولما كان الاستاذ احمد سامى واجداً على محجوب ظاناً به السوء متهماً له باجتراح هذه المعصية فقد فاجأه بسؤال صعب لم يحر له محجوب إجابة شافية . فظل واقفاً امام الاستاذ والاستاذ يوبخه وينحى عليه باللائمة ويتهمه بالاهمال وعدم استنكار الدروس ، ومحجوب صامت فى ادب ووقار ، يكاد يماثل الاستاذ طولاً وارتفاع قامته او يفوقه اذا انحنى الاستاذ قليلاً ليعيره أننيه . وقد كان محجوب حياً جم الحياء كما قلنا ، وهو ايضاً صبور طويل البال ، فى جفنية الأعلين ثقل ظاهر لاتخطئه عين خاصة

عندما يحاول ان ينظر الى أعلى ، اما اذا خفض بصره فان عيناه تبدوان كالمغمضتين لولا ان جفن عينه اليسرى الاعلى يبطن عن نظيره فيطالعك من هذه العين - على غير وضوح - ما يشبه سواد العين وبياضها . ولست ادري ان كان ينام بعين مغمضة واخرى ناظرة . وقد قرأت فيما بعد في وصف الذئب انه حيوان ينام باحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تمل فيغمضها ويفتح الأخرى ، ولذلك قيل فيه :

ينام باحدى مقلتيه ويتقى . . . بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

وليس هناك من شبه بين محجوب والذئب ، بل ان محجوباً كان اشد براءة من الحمل الوديع . لقد ظل محجوب ينظر الى الاستاذ حتى اذاغلبه حياؤه غض طرفه واسبل جفنيه وكأنه حوار يطلب من شيخه العفو والمسامحة . ولكن فات على الاستاذ ان الصبر له حدود وان احتمال الاذى ورؤية جانيه غداء تضوى به الاجسام . لقد صبر محجوب طويلاً ، فلما طال عليه التقريع والوعيد والزجر ضاق ذرعاً بذلك فقال للاستاذ فى نبرة لم تخل من الحدة ولم تتجاوز حدود الادب : يا فندى قلت ليك ما عارف . فما كان من الاستاذ سامى الا ان انهال عليه بمزيد من التعنيف وتصاعد غضبه فراغ عليه ضرباً باليمين . وظل محجوب رغم ذلك هادئاً متماسكاً يتلقى صفعات الاستاذ فى بسالة ورباطة جأش وصبر على الاذى واحتمال للمكروه . وانخلعت عمامته عن راسه وكاد هو فى مرة او مرتين ان يسقط على الارض على اثر تلك الضربات المبرحة ولكنه تماك نفسه واستعاد اتزانه وصد امامها . ولقد طال الامر حتى خشينا ان يتطور الى مالا تحمد عقباه ، فقد رأينا كيف ان محجوباً - وقد اوشك صبره ان ينفذ - قد كور قبضته اليمنى وكاد ان يهوى بها على وجه الاستاذ لولا ان الاخير تدارك الموقف فى اللحظة المناسبة وتركه لشأنه . فبان محجوب كأسد جريح ولاحت على محياه تعابير لم نألفها من قبل ، ووشت كل تقاطيع وجهه وبعض حركات جسمه بأنه كان على وشك ان يثار لنفسه . ولكن غلب عليه حياؤه وادبه ، وساعده على ذلك تراجع الاستاذ فى الوقت المناسب . فجلس على كرسيه واتقط عمامته من الارض ، ووضع طاقيته على رأسه

بحركة عصبية أفشت عن مقصده الذى اخفاه فى نفسه ، ثم طرح العمامة عليها دون ان يحسن لفها كما هى عادته . . فقد كان محجوب انيقاً فى ملبسه عموماً وفى اتقان لف عمامته بوجه خاص . ولكنه من شدة حنقه وعظم سخطه تركها هذه المرة تتراعى اطرافها على كتفيه وهو يحرك قبضتيه اليمنى واليسرى تبعاً على ظهر درجه فى عصبية ظاهرة . ولقد حمدنا الله على السلامة التى انتهى اليها الامر لاننا كنا نعلم جيداً ان محجوباً كاوبوى من الطراز الاول ، وانه اذا قدر له ان يوجه اللكمة التى كاد ان يأتى بها الى وجه الاستاذ سامى لفقاً او خلع احدى عينيه على أقل تقدير ، ولربما ادخل انفه بضعة سنتمترات الى داخل تجاويف جمجمته ، او أصاب احد فكيه او كليهما بكسر قد يصاحبه انخلاع الأضراس والاسنان على نطاق واسع ! ولكن الله سلم والههم الاستاذ احمد سامى الحكمة والسداد وترك محجوباً وشأته . لقد كان محجوب تلميذاً عاتياً رغم هدوئه البادى ورقته ودماثة خلقه فهو اسد صغير ولكنه ذو مرة وبأس ، فلا يغرنك فيه سمت الوداعة . اذا أحس شيئاً من العدوارة من أحد تجمعت قدراته الكامنة كلها فى قبضة يده فصارت تنشد النزال . لا يطيق الغبن ولا المذلة ويحرص ان ينام على الرضا والظفر . لا يأبه بالضعاف وان تجاسروا عليه ولا يقبل من يحسبهم أكفاه وان نكلوا عن منازاته . يعف عن اىذاء من دونه فى البأس وتتقد عيناه فى وجه أهل الضراوة :

هزبر مشى يبغى هزبراً وأغلب . . من القوم يبغى باسل القوم أغلباً  
فقد كان فى عينيه احمرار دائم يخفف من وطأته ثقل جفنيه المتراخين هوناً ويسطع  
منها بريق يحسبه المستهين به سلاماً وما هو بسلام . كان محجوب قوى البنية ، وهو  
مولع برياضة الملاكمة منذ تلك العهود حتى انه اصبح بعد انتهاء سني الدراسة علماً  
من اعلام الملاكمة وصار رئيساً لنادى العاب القوى فى البلاد ! بل هو صار فيما بعد  
احد أبطال السودان البارزين فى هذا المضمار . ولو علم الاستاذ احمد سامى ان  
تلميذه محجوب حسن سعيد سيصبح فى يوم من الايام احد ابرز ابطال رياضة

الملاكمة ورياضة حمل الاثقال لما حام حول حماه ، ولما وجه اليه تلك الصفعات المتتابعة والتي كان يمكن ان تجر عليه من المتاعب ما لا قبل له به ، ولما انتهره بتلك الكلمات الجوارح التي صمد في وجهها محجوب بلا نطق ولا حراك ، والتي كان يمكن ان يتلقى الاستاذ رداً عليها بنية او بنيتين من محجوب لا يعرف بعدها سبيلاً الي العافية . فقد قلت لك ان محجوباً كان قليل الكلام لا يستخدمه الا لدى الضرورة القصوى . وهو لم يكن يعتدى على احد ، ولكنه يرد الاعتداء عليه بأكثر من مثله فعلاً لا قولاً . ففي مرة من المرات القليلة التي بلغ فيها صبره اقصاه فلم يعد يسعه لكم تلميذاً في السنة الرابعة لكلمة - وكنا وقتها في السنة الثانية - كادت تكون كوكزة موسى عليه السلام اذ لولا فضل الله لقضى عليه . والحق ان محجوباً لم يكن يريد ان يكون جباراً في الارض وانما كان يريد ان يكون من المصلحين - ولكن ، ما العمل ازاء الاعتداء الصريح سوى ان يكون ما ليس له بد ؟ اجتمع التلاميذ حول ذلك التلميذ الذي سقط على الارض اثر كلمة - او قل بنية - محجوب ، وصاروا الى هرج ومرج وصيحات فزع واستنكار لم يحفل بها محجوب وانما وقف بعيداً « يكفكف » كمي جلابيته في اشارة واضحة لاستعداده للنزال ودعوة واضحة لمن اراد ان تتكلم امه ان يقترب ! ولكن قل من كان يريد ذلك . وأفاق التلميذ الملكوز ووقف على قدميه وهو لا يكاد يصدق وقد تعفر وجهه وهندامه بالتراب ، ويادل محجوباً نظرات لها معاني ، ولكنها لم تتعد ذلك بحال ، ثم اختفى من اعيننا في خضم جمهرة التلاميذ ، وهم بين حاث له على الاقدام والأخذ بالثأر ومحذر من مغبة الدنو مرة اخرى من تلك القبضة الماحقة . وماهى الا دقائق حتي أعلن صليل جرس العم مبارك بداية الحصاة التالية ، فذهب كل منا لشأته . تلك واقعة لم يعلم أمرها الاستاذ احمد سامى لانها سبقت مجيئه للمدرسة بأيام ، ولوعلمه لما كان منه ما كان في حق محجوب ، وللزم حدود التقية والحذر .

ذلك هو محجوب حسن سعيد . . التلميذ المهذب الصامت الوقور ، الذي يعامل زملاءه بلطف ووداد ويمشي بين الناس برأس مرفوع بشكل ملحوظ ، ونصف ابتسامه

ترتسم على وجهه الناظر ، هي قابلة للتوسع والاستكمال ان اعجبه حديثك وتعاملك معه ، وهي قريبة من المحو والزوال ان أسأت معه الادب . فعند ذلك يصمت فمه كما هي عادته ويغان على وجهه ، وانما تتحدث يمناه . . والويل لك ان تحدث اليك بيميناه ! فهو لا يكون الا حديثاً موجعاً مر المذاق . وهكذا عرف كثير من القنادف محجوباً فتحاشوه في ذكاء وفطنة ، واكبر ذلك محجوب منهم فلم يتعرض لهم بمكروه . لقد كان محجوب في حقيقة امره مسالماً وذا روح سمحة ونفس متواضعة ولكنه لم يكن ليحتمل المسخرة وتعدى حدود اللياقة . ولعله كان مشغولاً برياضته المحببة من حمل الاثقال والملاكمة فما كان شديد الاكتراث باستذكار الدروس ولاشديد الحرص على التفوق فيها على ما كان يمتاز به من ذكاء فطري شهد له به اقرانه واساتذته على السواء . وكان من متاعبه التي لم يهتد الى سبيل للتخلص منها تصحيفه الظاهر في نطق بعض الكلمات الانجليزية . . فقد عجز تماماً عن نطق كلمة إيجيب ( EGYPT ) نطقاً صحيحاً اذ كان ينطقها اجيب ( EGEEBIT ) مما أثار حنق كثير من الاساتذة ، ولكنهم ابصروا النذر وكانوا اولى ابصار فاعتبروا ، وتركوه وشأنه ، واثار سخرية بين التلاميذ اقتصرت على همس خافت دون الجهر في كثير من الاحيان ، وضحكات مكبوتة لم تجد من الجرأة ما يجعلها تعبر عن نفسها بوضوح ، في اغلب الحالات . ورغم ذلك فان بعض شياطين الفصل المغامرين اطلقوا على محجوب اسم اجيبست ( EGEEBIT ) ، يسرون به في اول امرهم ولا يعلنون . ومن عجب ان محجوباً لما علم بهذا الاسم لم يغضب ولم يصدر منه ما ينبئ بعدم القبول ، بل هو تحمله منهم راضياً دون ان يلجأ الى استنكار او تعنيف ، وما كان ذلك الا دليلاً ساطعاً على سماحة نفسه وكريم خلقه وواسع حلمه . . فصار يعرف بهذا الاسم وينادى به فلا يلقي ذلك الا بوجه صبور بسلام . ولما رأى زملائه تلك السماحة وأطمأنوا اليها ، اطلقوا عليه اسم جويتر Jupiter فيما بعد ، فقد كان ينطق هذه الكلمة ايضاً بطريقة غريبة ، ولكن غلب عليه الاسم الاول ، لان الكلمة كانت اكثر شيوعاً بين الناس ، ومهما يكن من امر فقد كان

محجوب يعفو ويصفح فى كلا الحالين ، ولم يمسس احدأ من هؤلاء الاشقياء المتعبين بسوء ، وانما كان يخفض لهم جناحه ويتلقاهم بوجده الاصيل ، ولذلك فقد احبه زملاؤه ووقروه . وجعلوا له فى انفسهم مكانة عالية . ولقد لقيت محجوباً بعد سنوات طويلة فاذا هو محجوب بعينه وقد اصاب كمالاً فى الجسم ومزیداً من الوقار ونضوجاً مبكراً فى الفهم والادراك . . يذكر جميع زملائه واساتذته ويحن اليهم ، فى وفاء صادق واجلال مطبوع ، وتواضع جم أصيل .

### **عبد الكريم . . وما ادراك من عبد الكريم :**

واما عبد الكريم احمد حميدة او كرم - كما كان يسميه الشيخ ابوبكر عبدالله استاذ القران - فأمره عجب كله ، وهو يصلح ان يكون موضوعاً لرسالة كاملة لنيل درجة علميه محترمة . فقد كانت له مواقف مع كل المدرسين تقريباً ، وخرج منها جميعاً سميناً معافى لم يمسه سوء ولم يؤثر على روحه المرحة الضاحكة مكروه . كانت له جرأة عجيبة فى احداث كل ما يعكر صفو الاساتذة اثناء الحصة ، وقد أوتى مقدرة هائلة على اخفاء وسائله التى برع فى احداث الضجيج والضوضاء بها . كان لايهتم كثيراً باستعمال آلات علم الهندسة فى مواطنها التى هى مواطنها ، من قياس الزوايا ورسم للمثلثات وابداع للخطوط المتقاطعة التى تطرح على التلميذ سيلاً من الاسئلة والقضايا المعقدة من تعريف لوصاف الزوايا ومقاديرها ومعرفة المتساويات منها والمكملات للمائة والثمانين درجة . والقائمة منها والحادة والمنفرجة . كان عبد الكريم قليل الاهتمام بهذه الغايات التى من اجلها ابتدعت ادوات الهندسة . ولم يكن ذلك لزهده منه فى سبر أغوار العلوم الرياضية والسياحة فى اقطارها الملتوية الدروب ، ولا لجهل منه بأهمية ذلك او بمعرفة قيمته ، ولكن لسخرية منه لاذعة اثبتت الايام صحتها وحكمة انتهاجها ، ولشيطنة مقتدره هو مطبوع عليها اضافت لصفاء تلك الايام الزاهية طعماً خاصاً حلو المذاق ، وعنصراً هاماً من عناصر البهجة التى لاتنسى ، فعبد الكريم يستعمل تلك الادوات الهندسية لأغراض هي نقيض ماصنعت من أجله فكان يلائم بينها

في نسق لم يخطر علي بال مبتدعيها ولا من سار على دريهم من اساتذة العلوم الرياضية ، ويشحذها بأنامله فيحدث بها انغاماً شجية تجتذب اليها اسماع واهتمام التلاميذ ولكنها تشوش على الاستاذ وتعيل صبره وتملاً نفسه حقناً وغيظاً ورغبة عارمة في الانتقام . . . وهي بهذا تفي بالمقصود منها اعظم وفاء ، فهل وراء ذلك من متعة لعبد الكريم ؟ ! نعم كان كثيراً مايلقى العنت اثر ذلك ، فلا ينجو من صفعات الاستاذ اثناء الحصص ، وان هو نجا منها بمعجزة او مواتاة حسن حظ ، او لمقدرة منه على انكار ضلوعه في الشوشرة - كما كان بعض الاساتذة يسمي تلك الانغام الكريمة الحاملة - فانه غالباً لاينجو من كراسه عم مبارك ، فيذهب اليه في نهاية اليوم الدراسي راغماً لينبطح علي الكنبه المجاورة لمكتب ضابط المدرسة غير بعيد من مكتب الناظر يتلقى ما كتب الله له على أقلام الاساتذة من جلدات ينفذ حكمها العم مبارك بصرامته الظاهرة وعطفه المستتر .

كان عبد الكريم احمد حميدة دنيا من البهجة وطاقة هائلة لاثارة الضحك والسخرية من كل ما يتصل بالجد او يقترب منه او يشير اليه ، ولسان حاله يقول في قدرية واضحة . لن يكون الا ما سطر قدراً ان يكون ! ولن يبلغ الانسان الا ماقدر له ان يبلغ . ومع صدق هذه القدرية الا انها تتجاوز أصل الحكمة من الوجود ، وهو السعى من أجل تحقيق الأمانى وان كانت تبدو أنجماً صغيرة في السماء ليس في المقدر والمنظور ان تبتغي لها سلماً فتصعد تلقاعها ، او ذهباً خالصاً دفيناً في اغوار الارض السحيقة، ليس من الميسور المواثي أن تشق له نفقاً فتغوص اليه . ولكن عبد الكريم لم يكن يحفل بهذا ولم يكن له كبير اهتمام بالتصدى للقضايا المعقدة ، لانه كان على يقين من ان حلوة الحياة في يسرها ، وان ما شق عليك نيله فالحكمة ان تزهد فيه ، وان ضحكة واحدة ملء الاشداق جالبة للسرور خير من حمل النفس على ما يورثها العناء والرهق ، ثم هي لاتدرى من بعد ذلك ابلغة من ذلك مبلغاً ام مخترمة دون الظفر منه بطائل . . .

ومن ظن ان الرزق يأتي بحيلة . . . لقد كذبت نفسه وهو آثم



يفوت الغنى من لاينام عن السرى . . . وأخر يأتيه رزقه وهو نائمُ

ففى حصص الجغرافيا كانت لعبد الكريم مواقف مشهودة مع الاستاذ الحاج هاشم ، فلطالما اعتاد على بأس هذا الاستاذ ويطشه وتعليقاته الجهورية الرعدية المرعبة . ولكن عبد الكريم يبحث يوماً عن كل ما يسلى ويثير الضحك وأفانين السخرية . . لايفى وراء ذلك الا المتعة وتمضية الوقت وسيادة المراح وخفة الروح على أجواء تشوبها الجدية الصارمة وتكتنفها التوترات الذهنية من جميع اقطارها واطرافها . فالاستاذ الحاج هاشم كان حكماً من حكام كرة القدم وكنا نشاهد تحكيمه فى دار الرياضة با مدرمان . وفى احدى المباريات بين فريقى الموردة والهلال اعتدى عليه نفر من جمهور المورداب وذلك لاحتسابه ضربة جزاء على فريقهم خرج الفريق على أثرها منهزماً امام فريق الهلال باصابتين لواحدة ، رغم وجود ترنة ودرار « البشتنوا المريخ والهلال » ، ورغم وجود الصافى والجاك مدافعى فريق الموردة الذين كانا كسد ذى القرنين . . كثيراً ما تكسرت امامه وعلى سفوحه هجمات المغيرين ، (فما استطاعوا ان يظهره وما استطاعوا له نقباً) . وفى اليوم التالى شاع نبأ العلقه التى تلقاها الاستاذ الحاج هاشم فى دار الرياضة وذاع خبرها وعم جميع التلاميذ ، فكانوا يضحكون ويقهقهون كلما وقعت أنظارهم على الاستاذ الحاج ، وكأنهم راوا فى ذلك ثأراً لهم ورد اعتبار ، اذ ان الاستاذ الحاج هاشم كان - بجسمه الضخم وتعليقاته اللاذعة ، وصوته المدوى المرعب وصفعاته الحارقة - قوة ارها بية كبرى بالنسبة للتلاميذ . ينال منهم وهو فى مأمن لانه استاذ ، والاستاذ له حصانة معنوية عظيمة فى ذلك الزمان ، قلُ أن يجرأ أحد من تلامذته على مواجهته بمكروه . وجميع تصرفاته تقريباً محمولة على حسن النية ونبل المقصد والمعنى الحسن . ولذلك لجأ عبد الكريم الى الحيل ، والى احداث الاصوات المزعجة فى حصته ليشفى بعض غليله ويرفع راية المرح التى ألى على نفسه ان يحمى حماها ويعليها دائماً خفاقة كلما ران على الانفس انقباض مبعثه صرامة الدروس . ولكن عبد الكريم كان بريئاً من تهمة إقشاء سر العلقه التى تعرض

لها الاستاذ الحاج هاشم في دار الرياضة فذاك أمر ما كان له ان يستتر عن اعين الناس ، ثم هو من الطرافة بحيث لم يكن يحتاج لوقت حتى يشيع بين الناس . ولقد كان سرور عبد الكريم بهذه العلة عظيماً ولكنه لم يكن في مقدمة المروجين لخبرها بحال ، بل ان حكيمته الراسخة اوحى اليه ان يلتزم الصمت ازاء تداول الناس لقصصها وملابسات وقوعها ، فقد كان يعلم جيداً ان اصعب الاتهام بافشاء اسرارها بين العالمين ستشير اليه دون ريب . وقد صدق حدسه رغم صمته الماكر وابتعاده القطن عن الخوض في موضوعها والارجاف بخبرها لان الاستاذ الحاج هاشم لم يكن حسن الظن بعبد الكريم فيما يتعلق بمثل هذه الامور وقد استدل على صحة سوء ظنه بالقرائن ورأى في « تحدى » عبد الكريم له في الحصاة باثارة الشغب اللحني البرجلي المنقلي برهاناً لا يقبل الشك علي أن عبد الكريم هو الذي اذاع بخبر تعرضه للاعتداء في دار الرياضة بين التلاميذ ، رغم ان ذلك الاعتداء كان قد تم على مرأى ومسمع من آلاف الناس لم يكن من بينهم الا نفر قليل من تلاميذ ام درمان الاميرية ، فلا غرو ان تفشى وذاع الخبر ، وعم القرى والحضر . والمعذرة للصديق القديم الشاعر المبدع الحسين الحسن في استعمال هذه الكلمات هنا ، فان خبره غير هذا الخبر ، وشيوعه غير هذا الشيع ، وشتان ما بين خبر علة اشتملت على الحصب بالطوب والحجارة واكتملت بضربات الأيدي والأخذ بالتلابيب والخناق ، وبين خبر ينزل على النفس ويستقر فيها برداً وسلاماً ، مداره حول رقة العواطف وحلاوات العشق واستعذاب مرارات الصبر والهجران بين المحبين ! ومهما يكن من أمر فقد رست في خلد الاستاذ الحاج هاشم قناعة لامبرر لها ان عبد الكريم هو المسئول الاول عن افتضاح أمره بين الناس . . ولعلّ مما ضاعف شعوره بالحنق ان الأذى الذي أصابه في دار الرياضة كان من باب ظلم ذوى القربى لانها ان لم تكن قريبي دم وسلالة فانها قريبي جوار لم تراع ولم ترع حرمة ، فالاستاذ الحاج هاشم هاشمابي يقطن ديار الهاشماب . ومعلوم ان الموردة ونادى الموردة وأصلب مؤيدى فريق الموردة تجمعهم مع الهاشماب

بقعة واحدة تتقارب فيها الديار ولا تعدو المسافات امتاراً معدودة قليلة العدد ، وتؤلف بينهم وبين الهاشماب اواصر مودة وجيرة يفترض أن تعصمهم من أن يذيق بعضهم بأس بعض. فاعجب لرجل يحصبه جيرانه بالحجارة ويمزقون ثيابه امام الناس جزاء له وفاقاً على احتسابه ضربة جزاء اكبر الظن انه كان محقاً في احتسابها ، ثم ينشر خبر مأساته - على حد اعتقاده - تلميذ خبيث من اولاد بيت المال التي تفصل بينها وبين المورد والهاشماب مسافات ومسافات ! فكان الاستاذ الحاج هاشم قاسياً مع عبد الكريم ، وان كانت تلك القسوة لاتفت فى عضد عبد الكريم ولا تلجم اندفاعه فى صاحب الى نفسه من هزل وسخرية ، فتلقى بأس استاذه ونقمته بجنان ثابت ورباطه جأش محيرة ، ووضع على وجهه ظلال ابتسامه لاهى تريد ان تكتمل ولا ترغب فى ان تزول . وكان الاستاذ الحاج هاشم احياناً يصيح بالانجليزية : عبد الكريم احمد حميدة وشركاؤه ( ... and company ) قفوا ، ورددوا معى . . ثم يقول كلاماً يقصد به تجربهم واتهامهم بالغباء - تماماً كما يفعل مع مجموعة بعينها في فصل الاوائل . ولكن عبد الكريم كان يردد ما أمر ان يصدع به مسروراً ، فيزيد ذلك من حنق الاستاذ عليه . ويصبر عبد الكريم على لآواء الامر حتى يقضى الله امرأ كان مفعولاً . . فيذهب الاستاذ الحاج هاشم ، ويبقى عبد الكريم ، رافعاً راية السخرية من كل شئ ، وفى هذا من الظفر بالنسبة له ما لا يخفى .

وأما شأن عبد الكريم مع الشيخ أبى بكر فقد كان هو العجب العجاب . عبد الكريم لا يابه كثيراً حتى لصوت الشيخ الرخيم وهو يرتل القرآن فى الحصه ترتيباً ينفذ الى أغوار الوجدان ، وانما يضع عبد الكريم بعض الشفريات على شقوق بظهر درجه لا أرتاب فى انها من صنعه ، ويستخدم المنقلة والبرجل والمثلث والمسطرة - أى كافة معدات الهندسة - ليحدث مع الشفريات اصواتاً منغمة ينزعج لها الشيخ ابوبكر ايما انزعاج ، ويهتاج ايما احتياج .. فيباعد بين يديه ويخنس برقبته ورأسه حتى يكاد كتفاه ان يبتلعاهما لولا ان عمامته وقلنوسته الطربوشيه - التي تتخذ عادة مع الككولا

الأزهرية - تذكر الناظر اليه بوجود رأس آدمى فوق المنكبين . ثم يبدو وكأنه يتحفز للوثوب على فريسة غافلة ، او كأنه يجمع أطرافه استعداداً للطيران من وجه الارض ! فتتخلع قلوب التلاميذ لفرط مايتوقعون من شر وسوء ، ويرين صمت ماحق على الفصل قرابة الدقيقتين او الثلاث . ثم ينبس الشيخ قائلاً فى هدوء ظاهر ووعيد خفى : « اللي بيدق الرمبة لى كرم وكرم يرقص يوقف على حيلو » ! فلا يجيب احد ، ولا يقف احد . وذلك لعدة امور : منها ان معنى كلمة الرمبة - وان كان الشيخ وهو مدرس القرآن والدين يعرفه - لم يكن شيئاً معروفاً لكثير منا . فأنى لهاشم الاطرش وهو من الجبلين ان يعرفه ؟ وانى لعربى من الضهارى مثل مصباح الصادق ابن السروراب ان يسمع به ، وهو ليس من ارث الجموعية ولا من طارف فنونهم او تليدها ؟ وانى لعبد الرحمن كنتبائى - والعالم فى نظره من تأدب بقيم قرية ام غانيم ومأثوراتها - ان يلم به ؟ والامر الثانى انه لم يكن أحد ليجراً على دق الرمبة لعبد الكريم - حتى وان عرفها وعلم امرها - لان عبد الكريم قد ألى على نفسه ان يكون قائداً فرداً فى هذا المضمار التشويشى لايدانيه فى موقع الريادة فيه أحد ، وما كان من الآخرين فانما يتم تحت قيادته ووفق توجيهاته واتساقاً مع قوافيه الصوتية وبحور شعره الموزونة بميزان أدوات الهندسة وقطع الشفرات . فحقيقة الأمر انه لم يكن هنالك احد يدق الرمبة لى كرم . والامر الثالث هو ان رقص كرم الذى أشار اليه الشيخ لم يكن رقصاً بالهيئة التى تلفت الانتظار ، وانما كان اهتزازاً طروباً وتمائلاً موقعاً مع انغام لايتقن التجاوب معها الا من احدثها وابتدع موجاتها وحدد نصيب كل منها فى الطول والقصر ، وفى الارتفاع والانخفاض . وان دل طلب الشيخ الذى اعلن عنه عن شئ ، فانما يدل على حنقه ومكره فهو قد ضمن فريسة حنيذة فى عبد الكريم ، وانما طمع فى ان يضيف الى صيده فرائس آخر فهو يعلم ان عبد الكريم هو صاحب الأهازيج وهو المتجاوب معها فى ارتياح ظاهر وان حاول ان يخفيه . لا خوفاً من عقاب ولكن استحياءً من ان يتهم بفساد الطبع . والامر الرابع والأهم هو ان الذين تجابوا مع انغام عبد الكريم ورمبته

تجاوباً لم يغادر سرائرهم ودخائل نفوسهم ولم يبلغ حد الاعلان عن نفسه بأى صورة من الصور ، لم يكن يسهل عليهم ان يلقوا بأيديهم الى التهلكة بالوقوف على اثر طلب الشيخ ، وانما كان مهمهم ومبلغ جهدهم ان يتبرؤوا من أى علاقة تربطهم بعمائل عبد الكريم ، وان كانوا يضمرون له فى قرارة انفسهم اعظم آيات الاعجاب والاكبار . ويكرر الشيخ ابوبكر قوله بعد مضى دقيقتين او ثلاث على طلبه الاول . . . والصمت كأنه ظلة نتق الله جبلها فوقهم ، وكأنه فوهة بركان يوشك ان ينفجر فيتطاير منها الحمم والشظايا والبروق : « يا اولاد . . . الى بيدق الرمبة لى كرم وكرم يرقص يوقف على حيلو » . فلا يقف أحد ، ولا يجرؤ تلميذ على الكلام . ثم يكرر الشيخ طلبه ثالثاً . . . وبعدها يستل رقبتة من بين كتفيه ، ويصلح من تثبيت العمامة على رأسه ، ويجمع طرفى قفطانه حتى يكاد يخفى الحزام الذى يشد وسطه ، ثم يمضى بين الادارج صوب الربع الخراب فى هدوء يشبه الزحف والديب ، لانكاد تسمع لوقع اقدامه صوتاً . . . حتى يبلغ عبد الكريم فى آخر الفصل . وعبد الكريم جالس فى سكينه ووقار بعد ان اخفى بأساليبه الشيطانية الماكرة البالغة الحصافة جميع « معدات الشغل » وبان درجه بريئاً الا من الشقوق التى تميزه عن بقية الادارج ، ليس على ظهره مايشير الى أى علاقة بينه وبين ما كان يوجع أذنى الشيخ ويقلق خواطره . ويقف الشيخ امامه ثم يأمره بالوقوف ، فتنصب قامة عبد الكريم تكاد تبلغ قامة الشيخ ارتفاعاً أو تعلوها ، خاصة عندما يخنس الشيخ برقبته بين كتفيه كما كان يفعل كلما جمع همته ليهوى بكفه على خد أحد ضحاياه . ثم تتوالى صفعاته على عبد الكريم ، تسبقها وتلوها وتتخللها عبارات الشتم والتقريع التى برع الشيخ فى تنويعها ورضها وإهانتها . . . وعبد الكريم ثابت راکز كالطود لا تحركه هذه اللطمات والكفوف الا بمقدار ما يحمى وجهه وعينييه بيديه من شرها . ثم يغادره الشيخ وقد اشتفى وقضى وطراً من الصفع واللکم والاهانة ، ليجلس على كرسية امام الفصل ، وقد أخذ منه الغضب والحنق كل مأخذ ، فيهوى بعبارات الشتم والتقريع على بقية التلاميذ دون سبب معروف . وقد

يستمر الحال على ما هو عليه والآمال كلها معلقة بجرس عم مبارك الذي طال انتظار الصبية الصغار لصلصلته ورنينه ، ليحى معه الفرج وانقضاء الكرب بانتهاء زمن الحصة . وقد يتغير مزاج الشيخ بعد قليل ، ودون مقدمات ، فيقول : ماشاء الله ، الحبيب والدريديرى وعكود اولاد مهذبين . . الولد مرآة البيت . كرم ولد قليل أدب . . انتو صعاليك « . . الى غير ذلك . فقد كانت له مقدرة عجيبة على الانتقال من حال الى حال ، وعلى رفع اقوام ثم خفضهم في لمح البصر ودون مبرر ظاهر الا ان يكون احساساً غامضاً في دخيلته بحدوث شئ هو لم يحدث في حقيقة الامر . وآية ذلك ان الحبيب وعكود والدريديرى لم يدم لهم صفو وداد الشيخ طويلاً وانما صاورا جميعاً - الواحد تلو الآخر - الى ما صار اليه غيرهم واحتل كل منهم مكانه الذى يليق به في نظر الشيخ ضمن كوكبة هؤلاء قليلو الادب ، والتي ارغم حتى اللفة - الكبتل محمد عثمان ابراهيم - على ادراج اسمه في مؤخرتها ايذاناً بتأكيد الحكمة القائلة بأن دوام الحال من المحال ، وبرهاناً ساطعاً على صحة مقولة عبد الكريم الخالدة وهو يصف الشيخ ابا بكر : دازى الدنيا ، ما تملا بيهو ايدك !

نعم هذا هو عبد الكريم احمد حميدة ، الشقيق الاصغر للزعيم الطيب . . احدث فى ام درمان الاميرية الأعاجيب وأتى بما لم يسبقه اليه الاوائل ، واحبه زملاؤه حباً جماً ، لانه كان طيب القلب عامر الوجدان ، يعالج صرامة الدروس والأواء الحصص بما اوتى من موهبة على تحويل الضجر الى سلوة ومراح ، وبما يأتى من حركات وهمهمات ونغمات بريئة ومسلية ، تجبرك على الضحك وان كان في نفسك شئ من حزن وأسى ، وتثير البهجة وتشيعها بين الناس وان ران على مشاعرهم من قبلها سلطان الملل والانقباض ، فيتزود التلاميذ بمواضيع حية ومثيرة يتجاذبون اطرافها فى اوقات فراغهم بحبور بالغ وسرور مقيم . وليس هناك من ريب فى ان منهج عبد الكريم فى السخرية كان يشكل مدرسة فكرية قائمة بذاتها ، وان كثيراً من افكاره قد برهنت تقليات الحياة على صحتها وعدالة منطقتها ، وان ذكائه وحكمته ومرونته وصدق نبوغته

- كانت أموراً فوق الشبهات .

## الراعى واعى :

كان من اولاد فصلنا الثوانى الفاضل شريف ، وهو من اولاد ود نويوى ولذلك كانت لى به صلة خاصة . وقد كان - على ضالة حجمه وضعف بنية جسمه - علماً بارزاً بين زملائه . وذلك لسرعة بديهته ، ولقدرته على السخرية من كل شئ . وهى تختلف عن سخرية عبد الكريم فى انها سخرية بلا هدف ، لا ترعى حكمة معينة ، ولا تلتزم بحدود مرقومة وانما تسيل على سجيته دون أن يحفل صاحبها بأى ضوابط اجتماعية او مواقيت زمانية ، حتى انك لتكاد تجزم ان الفاضل لا يدري ما يقول احياناً ، او انه لا يملك القدرة على حبس لسانه بين فكاهه لانه يجهل تماماً ما يمكن ان يصير اليه الناس حصائد ألسنتهم . تراه وقد جلس فى الفصل فى وداعة الفأر او القط او ام قيردون ، ولكن مظهره لا ينم عن محتواه . فهو فى حقيقته مجموعة مقدرات هائلة على الهرجلة واحداث الفوضى فى الفصل . وتظهر مقدراته هذه بجلاء ووضوح وبشكل خاص فى خلال الدقائق الخمس التى تفصل بين حصاة وأخرى . . وتبلغ دروتها عند فسحة الفطور ، و احياناً بعد الحصاة الاخيرة وخاصة عندما يكون الفاضل من القلائل الذين لايتوجب عليهم مراجعة عم مبارك قبل مغادرة فناء المدرسة . وهذا بالطبع أمر نادر ، لان كمال الانتساب الى ام درمان الاميرية فى تلك الايام الخالية يكاد لا يبلغ مداه الا بمراجعة عم مبارك فى نهاية اليوم الدراسى فى كل ايام الاسبوع تقريباً . ولذلك فان أعلى مراحل هرجلة الفاضل شريف تكون بعد تناول قول عم محمد بن وطعميته . فهو ينطلق فى فناء المدرسة راكضاً يجذب هذا ويلكز ذاك ويضاحك آخرين وكأنه فرس فك من عقاله وقد اختلطت عليه الجهات فما يدري أى سبيل يسلك . ثم هو يروى اقاصيصه وطرائفه التى لاتنتهى ، على أى تلميذ يلقاه ، عرفه ام لم يعرفه ، لايبالى بما يترتب على ذلك من استحسان - وهو أمر قليل الحدوث - او انكار واستياء قد تترتب عليه صفة على قفاه ، وهو ماعود عليه الفاضل وصار بالنسبة له امراً متوقفاً فى كل حين ! ولكنه

بالرغم من ذلك لا يكف عما هو سادر فيه من غي . بيدوك وعلامات الجد تظلل وجهه الصغير وتبرق من عينيه المعمشتين قائلاً : انت عارف . . فى واحد كان ماشى يقعد فى القهوة . . . وبعدين . . . قعد فى الشاي ! ثم ينفجر ضاحكاً وينطلق راكضاً فى فناء المدرسة . واذا زجرته بقولك : يا الفاضل ، بالله دعك من هذه النكات السخيفة البايخة فانه لاينزجر ولايرعوى وانما يرد الصاع صاعين فيقول لك متسانلاً وكأنه يصفحك : الـ . . .نى كات . . . ولا الركبة ماوس ؟ ثم يفهقه مسروراً ويجرى من امامك لانك توشك ان تصفعه او تحثو على فمه التراب . اما فى الفصل ، فبالرغم من هدوئه الظاهر - وذلك خشية بأس الاستاذ - فقد اكتشفنا بأخرة انه كان من مجموعة كومبارس عبد الكريم ، وهو كما يبدو - قد تتلمذ على عبد الكريم طويلاً حتى برع فى اجادة استعمال ادوات الهندسة وأوتي ملكة مقتدرة علي اخفاء نشاطه الهرجلى عن اعين الاساتذة ، ولذلك احبه عبد الكريم وقربه منه واحتفل بأمره اشد الاحتفال . ولكن قل فى تلك الازمان من يقترف جرمًا ثم ينجو من يد العدالة وان دق شخصه وصغر حجمه وخفيت وسائله لان العيون شهود تشير بشئ ضد ما أضمر الحشا . وكما هى حال الدنيا - تستر عنك شيئاً وتفضح عنك اشياء - فقد ضبط الفاضل شريف مرة والبرجل فى يده ، ولكنه لم « يتبرجل » بل ثبت للتجربة وانكر تلبسه باحداث الشغب وحلف يميناً مغلظة ان البرجل كان ساقطاً علي الارض فرفعه ليدخله فى جوف درجه . غير ان عين الاستاذ الفاحصة وقعت عليه قبل ان يفعل ذلك . ورغم انه تلقى صفتين او ثلاثاً جزاءً وفاقاً له على الجرم وانكاره ، الا انه ترك فى نفس الاستاذ شعوراً بالأسى وإحساساً مقبياً بأنه ربما يكون قد ظلمه من حيث ظن به التواطؤ على الشغب ، وانه قد يكون بريئاً مما رمى به من ممالأة لعبد الكريم . وهو فى الحق برئ من تلك البراءة التى غلبت على ظن الاستاذ حياله . وبالرغم من ان الشيخ ابابكر لم يتمكن ابدأ من ضبط الفاضل متلبساً بجريمة الهرجلة والشغب الا انه رجح ان يكون الفاضل واحداً من المشاغبيين على اقل تقدير ان لم يكن احد أهم الاركان . . . فكان الفاضل من اوائل الذين انتهى بهم الامر الى صفر



من اطناشر وهؤلاء قليلو الادب ، وذلك ان مجرد الاتهام في نظر الشيخ كان يعنى الادانة الكاملة وان حاك في صدره شعور خفى تنبئ عنه درجة رد الفعل عنده بان اركان الجريمة لم تكتمل ، وان البيئات والقرائن لاترقى في مجموعها الي ثوابت تسمو عن النقض والوهن . ويمكن القول بأن الشيخ ابابكر لم يكن قد تيقن بعد من تحديد دور الفاضل في الهرجلة بصورة قاطعة لان الفاضل - كما قدمنا - كان بارعاً فى اخفاء امره . ولو انه استوعب الدرس الذى تلقاه لما خانتته مقدراته . . ولكنها سخريته المرسله التى لاهدف لها سوى السخرية ذاتها . . هى التى اوقعته في شر اعماله . فهو قد نجا من ذلك الاستاذ والبرجل في يده . . علامة ظاهرة لاتقبل الشك . دالة على الشروع فى الهرجلة او انتواء الدخول فيها على أقل تقدير . وكان عليه ان يحمد الله على نجاته وعلى ان اسمه لم يبلغ دفتر عم مبارك فى ذلك اليوم ، ولكننا لم نسمعه يفعل ولم توح لنا تصرفاته التى أعقبت ذلك بأنه قد فعل . ولذلك ، لما اراد الله ان يفضح امره وان يأخذه من حيث لا يحتسب - فالحذر يؤتى من مأمته - تهيأت لذلك الاسباب بفعل القدرة . (واذا اراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وماله من دونه من وال ) . الرعد ١١ .

ففى ذات يوم افلح عبد الكريم فى نقل معداته الشغيبية بسرعة فائقة وخاطفة الى ظهر درج الفاضل الذى كان يجلس امامه ، وذلك عندما قرأ عبد الكريم بذكائه اللماح وفطنته الوقادة شراً مستطيراً فى وجه الشيخ ابى بكر على اثر الموسيقى التى عزف مقطوعاتها عبد الكريم نفسه والتى تعودت اذاننا على انغامها الشجية ، وهى ذات الموسيقى على وجه التحديد التى تثير حفيظة الشيخ ويجن لها جنونه . ومن عجب ان الفاضل شريف كان غافلاً عن فعلة عبد الكريم ، ولم يتبين الهول الذى احاط به الا حينما وقف الشيخ امامه وقد انخنس اعلاه فى وسطه وتقوس اسفله وانحقت يداه على مؤخرته وصار كالتنفذ يوشك ان ينقض عليك بكل اشواكه . فاجأ الفاضل صوت الشيخ هو يعلنه فى ثقة هادئة - كما يعلن قاضى المحكمة أحكامه فى وجه المتهم : انت الى بيدق الرمبة لى كرم وكرم يرقص ؟ قال الفاضل : لا والله يافندى دا ما انا .

فأشار الشيخ الى مجموعة الادوات الهندسية التي كانت تتبع على ظهر درجه وقال . وماهذه الأشياء ولماذا هي هنا في حصة الدين ؟ فاسقط في يد الفاضل تماماً ، وصار يتمم بكلمات لاتحمل معني سوي الاعتراف وطلب الرحمة . ولكن الشيخ كان قد ظفر بمراده ، وقد اعيا كفه وصبره صمود عبد الكريم فطلق ببحث عن فريسة جديدة . فصاح بالفاضل : حتى انت يا أعمش ؟ انت اسمك منو ؟ قال الفاضل : اسمي الفاضل شريف يافندي . قال الشيخ : انت ماك الفاضل وماك شريف . . انت العاقل الماكر الكضاب . . ثم انهالت عليه الكفوف والنعوت التي اتقن الشيخ صياغتها وبرع في ارسالها تباعاً كالقذائف الحارقة . . ثم مازال به يصفعه تارة ويعيره اخرى ويجره من اذنه يكاد يقتلعها من اصلها حتى ظننا ان احدهما - او كليهما - الفاضل والشيخ - سيفقد وعيه تماماً بعد لحظات . ثم تراخت غضبة الشيخ بعض الشيء ، ولعله احس بأنه يتعامل بأسلوبه المبرح ذاك مع شخص غير عبد الكريم . ولقد أسينا نحن كثيراً للفاضل ، رغم شعورنا الخفي اللواعي بشئ من السرور والغبطة . وذلك ان الفاضل كان عفريئاً صغيراً لايدع احداً منا ينعم بهدوء . ولقد افلحت تلك العلقة الساخنة التي تلقاها الفاضل علي يدي الشيخ ولسانه في خفض معنوياته لايام طوال تلت ، ولكنه سرعان ما عاود نشاطه من جديد فتكاثر نكاته البايخة التي كان يرسلها تباعاً ويضحك لها ، ويضحك منها زملاؤه ضحكاً كالبيكاء !

واما الفاضل شريف الذي كنت القاه في ود نوباوي عندما نجتمع لنلعب بكرة الشراب ، فقد كان شخصاً آخر . . يتمتع بهدوء عجيب ، ولايجرؤ على المعافسة الكروية اتقاءً لشرورها علي بنية جسمه الضعيفة الواهنة . ولكنه كان يعوض ذلك بتمتين علاقته الودية بأولاد الحي ، ويكف عن النكات البايخة خوفاً مما قد تجره عليه من احوال . فاذا كان في المدرسة يستطيع ان يشكو من يعتدى عليه للناظر او ضابط المدرسة او من هو ابو الفصل من الاساتذة ، فلمن يشكو من يتهدده او يناله بأذى في الحي ؟ فهو لايعرف العمدة ، ناهيك عن مفتش المركز او من ينوب عنه . ولذلك أثر

الفاضل ان يكون مسلكه في الحى مسلماً متزناً يخطب ود الناس ولا يغامر بينهم بهذه النكات التى قد يترتب عليها او ينجم عنها ما لا يرضيه . فكان فى بعض أحيائه يدعو طائفة منا الى داره القريبة من ميدان الدافورى وذلك لتناول شربات الليمون . . فاستطاع بذلك ان يقيم حلقاً مع مجموعة لا بأس بها من اولاد الحى كان بعضهم من بين زملائه في ام درمان الاميرية . فاذا اشتمل عليه عراك مع واحد او ثلثة من القنادف في المدرسة خف من كان من حلفائه هناك لنجدته فصار بهم اكثر جنداً واعز نفراً ، وخرج في أغلب احيائه ظافراً يضحك ملء شذقيه ويرسل ملحه وطرائفه ونكاته دون اكتراث ، وان كان كثير منها هو مما ألفه زملاؤه واعتادوا على بياخته ، فهم يتضحكون أسى له ورتاءً لحاله . ثم هو من بعد ذلك يروى ما حدث - او ما يوهم انه قد حدث - فى تلك المعارك بأسلوبه الفريد فيضفي على الامر كله من البطولات والخوارق ما لم يكن فيه بحال ، وينسب الى نفسه من القوة وشدة البأس ما يكذبه قوام جسمه الضاوى وساعديه الواهين . وعندما نلعب كرة الشراب فى حوش الجمال بحى ود نوباوى كان الفاضل شريف يفضل حراسة المرمى على أي موقع متقدم في الميدان . وهو شديد الاعجاب بالخواجة وليم حارس مرمى فريق الهلال ، وكثيراً ما كان يحاول ان يقلده فى كل حركاته . ولكن ما أكثر ما كانت الكرة تنفذ من بين يديه او رجليه لتتهادى طليقة مطمئنة الى داخل مرماه . وما اكثر ما يخطئ ظنه الرمية فينبطح على الارض فى زاوية يسابق الكرة ، فاذا بها تلج مرماه من الزاوية الاخرى ، وهو خزيان ينظر . . . فكنا نضحك من هذا اكثر مما نضحك من نكاته التى حفظناها عن ظهر قلب . وما كان يحميه من غضب فريقه المهزوم على أثر غفلاته المميتة فى حراسة المرمى الا انه كان هلالياً صاحب عقيدة لاتترجح ، فهى التى كانت تشفع له فى احيان كثيرة . والا فهو دقيق الجرم لا يعجز خصمه عن ان يصرعه فى وقت يسير . كما كانت تشفع له خفة روحه ودمائه خلقه التى تبلغ فى ساعات الصفاء مدى بعيداً . ورغم انه كان عفريتاً فى المدرسة وحزراً مديراً لأمر نفسه في الحى إلا أن مرحة لم يكن ليفارقه

أبدأ ، وإن كان يكثر منه في المدرسة ويقل منه في الحي ، خاصة في جلسات المساء على كبرى ود نوباوى عندما كنا نستمتع الى انجليزية ابي الوفاع في إعجاب وانبهار ، والى حكايات شمشون وهو يروى لنا عن عالم المسرح الاعاجيب . وشمشون هو اسم اطلقناه على احد قنادف ود نوباوى ، واما المسرح - بفتح الميم والسين والراء المشددة والمرققة في نفس الوقت - فهو ذلك المكان الخالي شمالي ودنوباوى الذى كانت ترتاده الناقلات الكبيرة لنقل التراب . وكلمة المسرح تعنى انك تستطيع ان تحصل على التراب من ذلك المكان بموجب تصريح رسمى ، وهكذا يتضح لك أصل التصحيف في هذه الكلمة . كنا نستمتع الى ابي الدفاع وشمشون وطلب وارلاد ود التويم وعبد التام وغيرهم وهم يروون على مسامعنا اساطير الاولين واعاجيب الاخرين من قصص الجن والسحرة والبعاعيت، ورغم ان ابا الدفاع وشمشون والآخرين كانوا يكبروننا كثيراً في السن الا اننا كنا نهرع الى هذا الندى لتتزوج بالقصص الذى يلهب الخيال ويدعو الى اطالة التأمل والتفكير . وكان من بين شخصيات المنتدى التى لاتنسى خالد الشفيق ، الذى كان تلميذاً فى مدرسة حى العرب وهو يتقدمنا بسنوات . واذا كانت قصص شمشون عن المسرح وشياطينه وعفاريته وبعاعيته التى أكد شمشون انه صافحها جميعاً بيده وخرج منها سالماً لم يمسه سوء واذا كانت احاديث ابي الدفاع عن الحرب العالمية الثانية والقنابل التى كانت تقع وتنفجر عن يمينه ويساره ومن بين يديه ومن خلفه ومن تحته ومن فوقه دون ان تصاب بدلته العسكرية - ناهيك عن جسده - منها بشظية واحدة، واذا كانت حكايات طلب - وهو فتى قصير القامة عظيم الراس مقوس الساقين شثن الكفين والقدمين - عن صرعه للبعاتى فى ليلة مقمرة امام مسجد الهجرة فى ود نوباوى ، ثم اختفاء البعاتى من بين يديه دون ان يدري لذلك سبباً مقنعاً . . اذا كانت كل هذه الاقاصيص تروى وتؤكد بالايمان المغلظ ، فان خالداً لم يكن ليترك هؤلاء القنادف يطلعون بنا الجو وحدهم ، ولذلك فهو يروى فى هدوء وأخاذ وبنبرة تتم عما حسبناه صدقاً لايتطرق اليه الشك عن مغامراته البطولية الخارقة مع « قطيفة» .

وهي بعاتية او عفريتة او شيطانة مرعبة حقاً . ولقد اوتى خالد مقدرة فريدة على تصوير قطيفة هذه ووصفها بدقة لا تترك في نفسك أى أثر للشك فى انك ستلاقيها فى اول خطوة تخطوها نحو دارك بعد ان ينفض سامر الكبرى . وكان الفاضل شريف يضحك بكل جسده ومشاعره وهو يستمع الى كل هذه الروايات حتى تستحيل عيناه الى شقين على جلد ما حول ارنبة أنفه ، وضوء القمر اللجيني يكشف حتى عن اعماق ذلك الخور العتيق الذى يشق حى ود نوباوى حتى يبلغ مشارف الهجرة ، فيخيل الينا ونحن نجلس على ذلك الكبرى ونطل منه على بعض الضفادع والهوام والحشرات فى قاع المصرف اننا ربما فوجئنا فى أى لحظة من اللحظات بمجموعة من البعاعيت او الشياطين المردة ، او قطيفة نفسها دون سواها ، وهى خارجة من تلك الاعماق متوجهة تلقائياً شاهرة فى اوجها اعياناً حمراً مثل الجمر واللهب ومخالب تنهش لحوم البشر وانياباً واضراساً تمزقها مزقاً وتقضمها قضمأ . . ورغم ضحكات الفاضل شريف الرنانة فقد كان فى حقيقة امره يمتلئ رعباً - وان لم تكن نحن نقل عنه فزعاً ورعباً . واية ذلك انه كان يلح علينا بعد ان ينفض السامر ويعلن القمر عن انتصاف الليلة ، ان نصحبه حتى نبلغ به داره ، وهى على مرمى حجر من مكان ذلك المنتدى . فكنا اذا ابلغناه مأمناه عدنا ادراجنا راكضين مفزوعين حتى يبلغ كل منا داره ، ودقات قلبه قائلة له - من فرط ما سيطر عليه من فزع وتوقع جازم لمقابلة البعاتى او الشيطان الرجيم - ان الحياة دقائق وثوانى !

ومما كان يحيرنى ان محمد العوض اطلق على الفاضل شريف اسم « الراعي » - براء مرققة - وقد سار عليه هذا الاسم وعرف به حتى فى الحي . ولم اكن أدري لماذا أطلق عليه محمد العوض هذا الاسم ، ولكنى أحسست بأنه يناسب الفاضل تماماً . فبالرغم من ان الفاضل من اولاد ام درمان ومن أحد احيائها الشهيرة الا انه كان فى طبعه سمات قروية واضحة . فهو يبدو مندهشاً من كل شئ تقريباً ، ويكره الطرماج ولايقربه ابداً ، وقد رايت فى داره بعينى رأسى مجموعة من الاغنام لعل خيرها قد بلغ

محمد العوض فساعده على ابتداء هذه التسمية العبقريّة واطلاقها على الفاضل ، ومهما يكن من امر فان الفاضل تقبل هذا الاسم بنفس راضية ، وهو قد شاع بين الناس الى درجة ان الشيخ ابا بكر كان يناديه به وقد نسي اسمه الحقيقي تماماً . وكان محمد العوض اذا اراد ان يشاغله وهما في حالة خصام يكثر من ترديد قوله : الراعى واعى ثم يضحك ملء روجه وهو جذلان ظافر ، ويضحك معه الحاضرون وقد تبينوا مرماه ، ويضحك الفاضل شريف نفسه لضحك الآخرين دون ان تبدو عليه أثارة من استياء . ذلك هو الفاضل شريف الذى لم ألقه منذ تلك الأزمنة ومنذ ان رمى بيننا البين المشت المراميا . لقد كان والله كنزاً من كنوز الحيوية والمرح وزنبقة من زنبقات أصائل ايامنا المترعة بالضياء والعبير والسنا . اوتى مقدرة على الالتفاف من حول اخرج المواقف وتحويلها الى مواطن امنة تنضح بالمرح والمسرات ، والى لحظات من البهجة خصيبة الاديم تفتشى الوداد وتجلو عن النفوس الملل . اوتى مواهب كثيرة وجزيلة وتفرد بخلل من بعضها الأصالة والصدق والايثار ، وامتاز فى حديثه بمنهاج تألف به قلوب الناس ويفكاهة مرسلّة لاتصنع فيها ، ويكلف بالدعابة والبساطة نسيج وحده . فهو لا يستعير نوادره من احد وانما يبدعها ابداعاً وتصدر عنه فى تلقائية معافاة صادقة ، وكأنه مثل الاعشى يعيب من ينتحل شعر غيره اذ يقول :

ولا أغير على الاشعار اسرقها . . . عنها غنيتُ ، وشر الناس من سرقا

وان أحسن بيت أنت قائله . . . بيت يقال ، اذا أنشدته ، صدقا

## الرجل . . وتمباك الدمار :

من الغرائب ان الفاضل شريف - على ضالة حجمه كان مقعده فى الفصل بالقرب من الربع الخراب الذى هو عرين العمالقة . وكان عثمان محمد الحسن جاراً له . وعثمان هو احد العماليق فى الفصل - ان كان لهذه الكلمة صلة بالعملاقة غير صلتها بالمجموعة البشرية التاريخية المعروفة . لقد اتى عثمان الى فصلنا من شندى فادركنا ونحن فى السنة الثانية وهو رجل قد بلغ الحلم وتخطاه دون ريب . ولذلك اطلق عليه

محمد العوض اسم الرجل تمييزاً له عن الصبى الذى هو يوسف خضر . ولم يكن عثمان ينكر ذلك ، بل ربما كان ذلك سبباً فى اعتداده الظاهر بنفسه ، وهو امر يؤكد ارتفاع قامته وافتتال ساعديه ، وينبئ عنه فى وجهه شارب نام لا تخطئه عين وحبوب ودامل على خديه ، وطول ما حق يتقزم حياله حتى بعض الاساتذة ، وصوت رعودى يتفرقع اذا تحدث عثمان فرقة ليست من الحداثة فى شئ . ولقد كنا فى بعض الاوقات نتعلق حول عثمان الرجل وهو يروى لنا عن شندى والقرى المجاورة لها ما هو فى مرتبة المعجزات . فهو قد عرف جميع الربابيط الذين كانوا يقطعون الطريق وكلهم اصداقوه ، ورغم البطولات الخارقة التى كانوا يبدونها ويمتازون بها إلا أنهم - على حد قول عثمان - لا يتعرضون «للمساكين» من المسافرين الضارين فى الفيافى بسوء ، بل كثيراً ما كانوا يعينونهم على امرهم ويجزلون لهم فى العطاء . وكان عثمان يهمس باسماء بعضهم همساً وهو يتلفت يمنة ويسرة وكأنه يخشى من اعلان شئ خطير ربما وقعته - او وقعهم - فى سوء ان علمت به السلطة الحاكمة فى البلاد !

وكان عثمان يجيد الترنم بالدوبيت ، لا يتفوق عليه فى ذلك الا الامين عبيد الذى كان فى السنة الرابعة عندما كنا نحن فى السنة الاولى . ويقيني ان عثمان الرجل ما كان ليجرؤ على التغننى بالدوبيت امام الامين عبيد لو التقاه ، رغم ان الامين ربما كان اصغر منه سناً ! وذلك لان عثمان كان اقل موهبة من الامين فى هذا المضمار . ولكن الامين كان قد غادر المدرسة وعلمنا من بعد انه التحق بخدمة الحكومة فى مشروع الجزيرة ، فخلا بذلك الجو لعثمان ، فغدا يسحرنا بكلماته وصوته ولحنه عندما يدوبى ، فنعجب لذلك اشد العجب . ولست انسى اهازيجه الدوبيتية فهى مطبوعة فى الذاكرة بمفرداتها وطريقته فى الاداء : الليل بوبا وطلق النسام والنوم قسموه وايضاً على ما حام . .

من ليم أب فلج طولت لى ايام . . وتمباك الدمار فوق سدري تورشام  
انظر الى « ايضاً » هذه كيف حشرت حشراً ! الم تكن كلمة « لكن » اجمل منها

هنا ؟

ومنها قوله : واحد واربعين بت اللبيب عثمان (بكسر حرف العين تليها تاء بنقطتين)

لاحامت فريق لاجالست صبيان

نهدك برتكان حاجيك هلال رمضان

شوفتك تسند الراقد بالسنين رمضان

ومنها : واحد واربعين بت اللبيب عبد الله

لاحامت فريق لاجالست خلق الله

نهدك برتكان حاجيك هلالاً هلاً

وشوفتك ترفع القلب الشهادة وولى .

هذه مجموعة من أبيات الدوبيت التي كان ينشدها الامين عبّيد في اجتماعات كبيرة ضمن الليالى الثقافية في ام درمان الاميرية ، وسط استحسان الطلاب والاساتذة على السواء وتصفيقهم الحاد وصيحاتهم « عَقَبٌ .. عَقَبٌ » طلباً لاعادة الانشاد واستكمالاً للمتعة والطرب ولذة التأمل في المعانى . . ثم جاء عثمان الرجل من بعده وهو يستظهرها ويتحفنا بها ونحن من حوله نستمع في التذاذ وانتشاء واعجاب . . وان كنا لاندرى من هو - اوهى - اب فلج ، وماهو تمباك الدمار هذا ، ولماذاينبت الشام على الصدر . . وأعترف انى لم افلح فى إدراك معانى بعض هذه المفردات ادراكاً تاماً الى يومى هذا وان كان زميل الصبا ومراتع الطفولة - احمد محمد طاهر عبد الجليل - هو الآخر يترنم بها على اسماعنا فى ابا وفى خورطقت من: بعد ذلك ، ونحن جلوس على الارض فى ضوء القمر فى تلك الليالى الحاملة التى لا تنسى ولاتغيب عن الذاكرة ، وتلك الثل البريئة الممتلئة النفوس والصدور بأورق الامانى واعذب المنى . . ونحن نستمع فى انبهار واعجاب الى احمد وهو ينشد ذات الكلمات والمقاطع بصوته الدافئ الحنون ، فتنقلها نسائم الليل الباردة هوناً الى اقاصى المدى . . ولكننا كنا نفهم قول عثمان الرجل : لاحامت فريق لاجالست صبيان ، فهى كانت بعضاً من القيم الرفيعة فى تلك



الازمنة ، ورغم اننا لم نكن ندرى من هو اللبيب عثمان ومن هو اللبيب عبد الله ، ولماذا هما ليبيان . ورغم اننا لم نكن ندرى لماذا هذا الرقم واحد واربعين ولماذا ليس هو اكثر من ذلك ولا اقل ، الا ان غير ذلك من المعانى لم يكن عنا بخاف او غريب ولا يكتنفه غموض ، ففى قوله : لا حامت فريق لاجالست خلق الله تنويه ايضاً بتلك الخلائق المشتتة على معانى العفة والطهر والنقاء مما كان يعتبر فى تلك الازمنة الخوالى - وحق له ان يبقى على ذلك الاعتبار فى اعتدال مبرى من التزمت والابتدال - تجسيدا لارفع القيم .

ولقد كان عثمان الرجل شخصاً لاينسى . فهو فتى معجب بنفسه ايما اعجاب ، يمشى برأس مرفوع يكاد يميل به الى الورا من فرط مغالته فى اثبات ذاته وجذب اهتمام الناس اليها ، ثم اذا مال به الي امام فهو ينظر نظر الصقر فى أعطافه . . بل هو يتحدث بطريقة فسرهما زملاؤه بالتعالى والعجب والكبر ، ولكنى كنت أعزو ذلك إلي إحساس عثمان بالنضوج وزيادة المعرفة اذا قورن بكثير من زملائه الآخرين ، والا فهو شخص متواضع ومهذب . على ان ذلك المظهر الذى كان يحيط بعثمان فى ام درمان الاميرية ، والذى حسبه كثير من زملائه وبعض اساتذته تعالياً منه واستكباراً فى الارض ، قد جلب اليه من المتاعب ما لم يكن فى حسبانته . فاذا هو أخطأ فى حصة الحساب - وكثيراً ما كان يفعل كسائر خلق الله - تلقاه الاستاذ غزالى السراج بسخرية مريرة ، واذا تلعثم فى تلاوة القران كان له من الشيخ ابى بكر صفعات موجعات من اليد واللسان . . وكان موضع تندر الاستاذ محمود الضيرير الذى يستطيع ان يحدث فيك بكلمة هى أقرب للهمس من الجهر ما لا يحدثه فيك سوط عم مبارك ولا توييخ الاستاذ احمد سامى ولا لكلمات الاستاذ الحاج هاشم ولسعات لسانه التى تقرضك بالمقاريض . كان عثمان ضحية لهذا المظهر الذى يوحى بانه « متقرضم » على حد تعبير البعض . وما كان عثمان فى حقيقة امره « متقرضما » وانما كان شخصاً مباشراً لا يعرف الالتواء ولا المصانعة ولا المماراة ، يعبر عما حاك فى صدره بما يظن

انه الحق ، ثم لايعول من بعد ذلك الا على صدق نواياه وسلامة مقاصده . وفى مرة من  
المرات اجتمع على الغدر به كوكبة من اولاد سنة رابعة ، وكنا وقتها في السنة الثانية ،  
وقد التأم امرهم فى الايقاع به والاعتداء عليه مع آخرين من خارج المدرسة . .  
فاستدرجوه الي خارج البوابة الشرقية ، ونحن لاندرى لم كان ذلك . وكل الذى انكره  
اننا افتقدناه فى فسحة الفطور ، ثم وجدناه فى الزقاق الشرقى خارج بوابة المدرسة  
طريحاً على الارض وقد تضافر عليه نفر من الاشقياء ، فهرعنا الى نجدته ونحن عصابة  
من اولاد سنة ثانية ، فاستنفذناه من برائتهم ، وصبرنا على لكماهم وضرباتهم حتى  
ازحناهم عنه ، وحتى استوى عثمان واقفاً . . وكنا لما حمى علينا وطيس العراك  
استجدنا بمحجوب حسن سعيد ومكى برعى وعبد الكريم احمد حميدة ، وما ان جاء  
هؤلاء العتاة حتى تشتت شمل المعتدين فى دقائق معدودة ولانوا بالفرار . وعدنا الى  
فناء المدرسة ظافرين بعد ان اطلقت ثلة المعتدين سيقانها للريح . . وسار امامنا عثمان  
يحمل عمامته على كتفه ويضع طاقيته على رأسه بحيث تكاد تغطى حاجبيه ، وقد  
«تكدت» جلابيته بالتراب وتعفر به وجهه ويده . . فمضى يخطر امامنا برأسه  
المرفوع ومشيته المتحدية الطالبة لمزيد من النزال ، ومن حوله الفتية الاشواوس الصبر  
عند اللقاء : عبد الكريم ومكى ، ومحجوب متوعدين من لانوا بالهرب معلنين للملأ ان  
عثمان في حماية الصقور ، وان من اراد ان يمسه بسوء فلن يفلت من هذا الجبروت ،،  
(وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب سينقلبون) . وسار من ورائنا بعض الخبثاء ، وفى  
طليعتهم الفاضل شريف «الراعى» وهاشم مصطفى «القرء» . . يضحكون بأصوات  
خافتة ، ويتغامزون بحركات حذرة خشية ان يستثيروا عثمان الذى تمرغ وجهه وجسده  
وهندامه فى التراب فكاد يذكر الفاضل بمراي البعاعيت وعمالقة الجن ، لولا ان المكان  
كان غير المسرح فى ودنوباوى ، والذى يخطر امامه ليس هو قطيفة بل هو عثمان  
الرجل بلحمه ودمه ورأسه الذى يكاد ان يستلقى على قفاه !  
واحسب ان عثمان كان يحس فى قرارة نفسه انه لم يحسن صنعاً بوفسوده الى

ام درمان الاميرية حيث وجد نفسه فى محيط احس فيه بالغبرة والوحشة والهوان . .  
وانه كان الاجدر به ان يمضى الى وسط آمن يناسبه اكثر من هذا الوسط الغريب الذى  
وجد نفسه فى احشائه . ولو انه خير فى امره لنجا بجلده من بطش بعض الاساتذة  
ودفتر عم مبارك وتناول صغار التلاميذ الذين رموه بالقرضمة ظلماً وعدواناً وهو  
الوادع المتواضع . . ولكنها المقادير التى لايمك لها دعفاً ولايعلم لها رداً . . ومن حكم  
القرية ان الصبر على ما تجرى به المقادير فضيلة من اعظم الفضائل ، ولعل ذلك كان  
عزاء عثمان فى محنته .

ولقد انتقل عثمان بعد تلك العذابات التى صبر عليها اجمل صبر ، والتى انما جلبها  
عليه اعتداده بنفسه ، الى مدرسة خور طقت فى نهاية امره ، فالتقيته هناك ايضاً ،  
ونحن قد اصبنا شيئاً من الوعى وقليلاً من التجربة ، فالفيتته تلميذاً هادئاً وقوراً  
متمسكاً بأخلاق القرية التى من بينها المروءة والنجدة والكرم . وهو قد ألفى فى خور  
طقت مرتعاً خصيباً ومسرحاً هانئاً ومقيلاً . ولقى فيها ترحيباً من فتية يماثلونه فى  
النضوح ويشاركونه فى التمسك بفضيلة الانتماء الى القرية والوفاء لمعانى ذلك الانتماء  
وصدق المباهاة به والولاء له . . والتشبث بكل قيمة السمحة التى بعضها ارسال النفس  
على سجيتها والبوح بما فى قراراتها دون تحفظ او مواراة او مخافة عدل او حرج .  
وهناك شعت محاسنه على طبيعتها وأضاعت الارعاء بما فيها من نور . . فطفق عثمان  
«يدوبى» مع الفراشين وهم جلوس او وقوف على رمال ميادين الكرة ، ويتغنى بهوى بت  
اللبيب عبد الله وبنت اللبيب عثمان ويبتهم نجواه وشكواه من فقده ليم اب فليج ومن  
تمباك الدمار الذى «فوق سدرى تور شام» . . رافعاً بكل ذلك عجيرته غير هياب ولا  
وجل . . يطارحه التغنى بمثل هذه المعانى الدوبيتية كل من على وهجو وسرور . . والليل  
المقمر قد «بويا» وطلق النسام بالفعل فاشتمل عليهم بهدونه ورقائق نسامته واوقد فى  
خواطرم نيران الصبايات واشعل حرائق الهجران . وكان عثمان فى خور طقت  
مسالماً ألوفاً محبوباً بين اقارنه ، وقد تراخى عنه ذلك المظهر الذى أخذ عليه فى ام

درمان الاميرية والذى كان يدل على اعتداد بالنفس والقدرات الذاتية . وربما جال فى خاطره . اذا قدرت فتذكر قدرة الله عليك . . فان قدرة الله قد جعلت من بين اترابه فى خور طقت الفاتح بشارة وابراهيم بلل ، وحسن الفكى والتاج حمد وعلى سالم وحمدنا الله طه طويل وعبد الوهاب ريس والطيب احمد حميدة باك القيامة وحسن ابو العايلة والتجاني الصاموتى ، وكمر وحسن الاسطى وكمان دقو وابو الحسوس . وغيرهم من الصناديد . فخذ عثمان الى كثير من التواضع ونكران الذات ، هما فى الحقيقة بعض من طباعه وشيمه الاصيله وان كانا قد خفيا - فى سالف عهده - على الناس .

حقاً لقد تغير عثمان ام درمان الاميرية فى خور طقت ، ولكنه تغيير كان يتماشى مع سنة التطور وتبدل الظروف والمناخ . فهو لم يمسس اساسيات اخلاقه الطيبة بسوء وانما صقلها وهذبها وارتفع بها الى آفاق ارحب ومدارج أعلى . فقد التقت فى خور طقت « ثقافات » متباينة وعادات وتقاليد تمثل تنوع المنابت واختلاف الاصول ، الا انها كانت فى مجملها وأهم اركانها متقاربة تكثر فيها اوجه الشبه . ولذلك سرعان ما ذاب التمايز فى اغلب اشكاله بين التلاميذ وسرعان ما اتحدت مشارب الحياة بينهم فى محيط جامع هادئ الا من بعض الفورات الطفيفة التى لاتدوم طويلاً حتى تهدأ وتصب امواجها فى ذات المجرى وتختلط فى ذات الخضم . فكان لقاء اولاد البحر باولاد كردفان ودارفور هادئاً مباركاً كما يلتقى النيلان فى الخرطوم يمكن للناظر ان يميز بين مياه كل منهما وهما يجريان جنباً الى جنب ، حتى اذا ألقا بعضهما البعض وتلامسا فى شئ من النفور فى اول امرهما أحس كل منهما بشدة الانتماء الى رفيقه فلم يسعهما الا ان يختلطا فيما بينهما اختلاطاً وان يندغما سوياً فى تيار واحد يركض هادئاً حيناً وصاخباً فى حين آخر وهو يولى وجهه شطر الشمال حاملاً فى احشائه اسباب الحياة والخير والنماء . هكذا اختلط عثمان ببقيه رفاقه من اولاد البحر والغرب والشرق اختلاط هذين النهرين ببعضهما البعض ، وصار دوبيت عثمان الموقر بمعانى القيم الرفيعة رافداً ثراً من روافد الغذاء الفكرى والروحي الذى يعب منه رفاقه من

اولاد كردفان ودارفور وهم جلوس على بسط الرمال الهشة الندية يستمعون الى نبراته  
الواثقة فى انبهار واجلال .

كذلك تغير مظهر عثمان . فقد كان على ايام الاميرية يرتدى الجلابية والعمامة  
يخطر بين اقاربه فى مشية لاتخلو من عجب وخيلاء أضفت عليه صفة شيخ العرب عن  
جدارة واستحقاق . اما فى خور طقت فان الزى الرسمى للتلاميذ هو «الشورط» ، أى  
القميص الابيض والردي الكاكي . فكان مظهر عثمان فى هذا الزى مضحكاً فى  
مراحله الاولى . وذلك ان الردي الكاكي عنده كان يبلغ إلى ماتحت الركبة قليلاً ،  
والأصل فيه أن يكون فوقها . ثم إن عثمان لم يكن قد تعود تماماً على حلق شعر رأسه  
على هيئة «الكوريه» التى كانت سائدة آنذاك وما تزال . ولعله كان فى بادئ امره  
يستنكر هذه المظاهر ويرى انها لاتليق بمظهر «شاب» حمش مثله ما زال عهده بالقرية  
نصب عينيه وما زال يكن لذلك العهد كل الوفاء . ولكنه لم يكن بمقدوره مخالفة  
ماتفرضه سنن التطور والتغيير ، فسرعان ما ارتفع الردي الكاكي الى ما فوق الركبتين  
وتحول الرأس بعد تعوده على حلاقة «الكوريه» الى شئ أشبه بسرج العجلة . لقد كان  
عثمان فى اول امره عازفاً عن عادات المدينة ومستحدثات التحضر ، برماً بما كانت  
تفرضه عليه حياته الجديدة حتى كادت نفسه ان تركز الى القلق الذى أخذ يساوره  
ويكدر عليه صفوه . وظلت نفسه مسرحاً لصراع داخلى مُشتّ حتى هداه ربه الى  
اليقين ، وكأنما جال فى خاطره قول ابي الطيب .

وما أربت على العشرين سننى . . . فكيف مللت من البقاء ؟

وساعدته عاطفته الجياشة على الصمود فى وجه البيئة الغريبة فهو رقيق الطبع يكاد  
يجهش بالبكاء عندما ترتفع عجيرته بالدوييت . وقد وجد من استحسان التلاميذ  
والاساتذة لادائه ما زاد من ثقته بنفسه وهون عيه كثيراً مما كان يلقي من الشوق الى  
اهله ولداته فى شندى والقرى المجاورة لها . ومن عجب ان عثمان الذى كان يتغنى  
بنفس أبيات الدوييت التى كان يشدو بها الامين عبيد فى ام درمان الاميرية قد انتهى

به المطاف فى آخر امره الى عين المقر الذى صار اليه الامين عبيد وهو مشروع الجزيرة . . . ولقد انتهى الى مشروع الجزيرة ايضاً نفر واعد من اساتذة الفنون أذكر منهم الاستاذ جمال وريما الاستاذ الجنيد ، فاعجب للوزة القطن ونوارته التى تجذب الى افيائها اهل الفن والشعر تنتقى خيارهم انتقاءً ! ففى كل جمال وملاحة وشبيهه الشئ منجذب اليه . وما اصدق ما قال ابو ماضي :

والذى نفسه بغير جمال . . . لا يرى فى الوجود شيئاً جميلاً

## **مصطفى عابدين . . وإراثُ المحابر والأقلام :**

كان مصطفى عابدين عبد الرؤوف تلميذاً طويل القامة نسبياً تتوسط بنية جسمه بين النحول والامتلاء ولكنه أقرب للنحافة منه للسمن . يرتدى جلابية بيضاء بياقة اكثر بسطة من غيرها من الياقات التى كانت تزدان بها اكثر جلابيب التلاميذ ، ويكور عمامته على راسه بطريقة متميزة تجعلها اشبه بالقبعة الضخمة وان كانت اطرافها متراخية تكاد تغطى اذنيه وتتسدل على ناصيته - او جبهته - يلامس ذيل منها حاجبيه اذا التفت او اهتز ضاحكاً ، فيصلح من وضعها على رأسه بحركة سريعة من يده اليمنى . ومصطفى من التلاميذ الذين ينحون منحى الهزل فى اغلب احيانهم ، بل هو من عشاق الهزل ان صح التعبير . تضايقه حصة الحساب بشكل خاص لان موضوعها لم يكن من مواهبه العديدة ، ولكنه يسعد بحصة اللغة العربية لانه كان من محبيها وفرسانها ، واما فى غير هذين العلمين فقد تتساوى عنده الاشياء . . فلا يأخذها مأخذ الجدان ثقلت عليه واستعصت عن الفهم والاحاطة ، ولا يستخف بها ان انس فى الاساتذة حيوية تجذبه الى شروحهم وملكة مقتدرة على الايضاح والتبيين فى يسر وهدوء . وهو تلميذ ذكى ولكنه يجنح الى تبسيط الامور والتعامل معها بعفوية وسهولة . ولقد كان مصطفى شديد الاعجاب بعبد الكريم وزمرته ، الا ان مقدراته الهرجلية والازعاجية لم تكن ترقى الى مستوى مقدراتهم الرفيع ، ولم تكن محاولاته الاماتيرية العابثة فى هذا المنحنى لترفعه الى مصافهم فى نظر بقية التلاميذ . وبما انه كان

يتحرق شوقاً الى منافسة اولئك الدهاقنة البارعين فقد أثر ان يعرض ما فاته من تلك الامجاد مما لم تسعه حيلته ومواهبه بشيطة ينتهجها خارج الفصل فى اوقات الفسحة الكبيرة والفسحة الصغيرة وبين الحصص . . من هرولة فى فناء المدرسة ، وركض يدعمه ببعض الاناشيد والضحكات يلفت اليه الانظار ، وبعض المشاكسات التي كان يفتعلها مع أناس يختارهم بعناية وفطنة وحذر ، ليس من بينهم احد من العمالقة على أي حال . وذلك ابتغاء لسلوك دروب السلامة وارتياح مناحى الامان ، وخوقاً من ان يوقعه حب المغامرة - ان هو لم يستصحب الحذر الكافى - فيما لا تحمد عقباه . وهو ايضاً شديد السخرية لاذع التعليقات ، ولكنه يتخير من يجعلهم هدفاً لسخريته وسلطة لسانه تخيراً . فيتجنب القنادف لان السخرية منهم مظنة وقوع الانتقام ، طال الزمن ام قصر . . ويتجنب محمد العوض لان لسانه فلغة وهو يرد الصاع صاعين ويجزى السيئة بالسيئة لايدع من حقوقه شيئاً في هذا المجال ، ولسان حاله يقول :

لسانى طويل فاحترس من شداته . . عليك وسيفى من لسانى أطول

والشذاة هى الحدة . . وهل سيف محمد العوض إلا صنايد الموردة ، الذين لا يخفى امرهم على مصطفى عابدين ؟ ولذلك فان مصطفى يوجه سخريته الى نوعين من الناس : الى من يتفهمون مقاصده العبثية البريئة ويبادلونه الوداد ، فلا يحملون مقولاته وتعليقاته اكثر مما تحتمل ، والى من يحسب انه قادر عليهم اذا دعا الداعى وحل الجد محل الهزل ! فكان اذا الم بهاشم مصطفى سماه قرداً على مسمع من الناس لا يخاف بخساً ولا رهقاً . . اولاً لان هاشم مصطفى - وان كان من الموردة ، وهم القوم الذين يخشى بأسهم ويعمل لهم العاقل الف حساب - الا انه صغير الجرم يستطيع مصطفى ان يتغمده فى أى لحظة بكفين قادرتين دون ان يناله منه اذى يذكر . وثانياً لان هذا الاسم الذى سار على هاشم (القرد) - كان من ابداعات محمد العوض ، الامر الذى يكسبه صبغة رسمية ويؤكد ان مجموعة الموردة ، بحمائمتها وصقورها لا تعترض على اطلاق هذا الاسم على هاشم . ولكن مصطفى عابدين كان حقيقياً فى

كل شأنه، فهو يتحاشى هاشم مصطفى اذا الفاه فى وسط قطيعه من ابناء الموردة، فذلك مورد للتهلكة لا يحسن ان يرده عاقل . ولقد ساعد مصطفى عابدين على التمكن من فن السخرية ورسوخ القدم فى علومها وأدابها انه اوتى لساناً فيه « لجنة » خفية الا عن القى السمع وهو شهيد. فهي تضى على نطقة وحديثه لونا من السحر وتنغم كلماته برنة مبهمة حالية وجرس فيه غرابة محببة تلصقها بالاسماع لصقاً وثبيتها فى الاذهان تثبيتاً. وهو يعقب تعليقاته الساخرة بضحكات هي ابلغ فى السخرية، فيبغضها من يبغضها ممن هو من ضحاياها ويلتذ لها ويتعشقها من يلتذ لها ويتعشقها ويرتاح اليها من هو واجد على من وجهت اليه وصار هدفاً لها. وقد حسن عند مصطفى الحذر فقد كان بإحدى عينيه سقم ظاهر ، ولكن زملاءه كانوا كبارا ، فقد منعهم الحياء من ان يعيروه بما لم يكن له ذنب فيه. الا ان الشيخ ابا بكر لم يكن ليقيم لمثل هذه الاعتبارات وزناً اذا اغضبه مسلك التلاميذ. فكان مع مصطفى كما كان مع غيره من زملائه. فاذا ضحك مصطفى ضحكته الخافتة اثناء اداء الشيخ لشروحه التى يستغرق فيها بسلاسة تستوجب الاطراق والانتباه فان رادار الشيخ يلتقط الاشارة فلا تخفى عليه. ولذلك دخل مصطفى عابدين زمرة « هؤلاء قليلو الادب » من اوسع ابوابها ونال من سخرية الشيخ وتعليقاته اللاذعة نصيبه غير منقوص . ولكن مصطفى قابل تلك السخرية بروح عالية ونفس موطنة على الصبر والتسامح، وبحياء جم منعه من قص تباريحه واوجاعه على اقرب الناس اليه. ولقد احسن مصطفى صنعاً بتقطيعه لهذا الكمد فى « حشاه » كما يقولون. اذ لو قص كل منا ما كان يلقاه من اميرة الشيخ اللفظية على ذويه لما احتفلوا بامرهم. ولذلك فان الصبية كانوا يتحملون مقولات الشيخ فى صبر واناة وجلد بعضهم يجعلون من اصداء هسولاته العارمة احاديث يمزقونه بها فى ناديهم كل ممزق، والبعض الاخر كان يغفر له تماماً ولا يحمل تلقاءه ضغناً ولا موجدة، بل يحيل الامر برمته الى هزل كوميدى، فيحكى ماكان يأتية الشـيخ من حركات واصوات وتعابير بطريقة مسلية، يتمثل كل ذلك ويمثله امام الاخرين



وهم من حوله يضحكون ويمرحون . وقد برع مصطفى عابدين فى ذلك براعة واضحة ، فكنت اذا اردت ان تستعيد شريط ذكريات مع الشيخ لم يمض عليها الا حين قصير عمدت الى مجموعة مصطفى وهم جلوس فى ركن قصى من اركان المدرسة فى اوقات الفراغ . فاذا انت بمصطفى يدب ويتقاصر ويتطاول ويتكور ويعتدل ، ويعلى من صوته ويخفض منه ويحرك يديه وعضلات وجهه . . يقلد بذلك الشيخ . والصبية من حوله يضحكون ويعجبون .

ولم يكن دور مصطفى عابدين ليقف من الشيخ عند هذا الحد ، وان كان هذا التقليد وهذه المحاكاة التي يأتى بها بدقة تشفى بعض غيظه ، وذلك ان نفسه لم تكن تخلو من دخل وحفيظة على الشيخ ، وبراعته الظاهرة لم تكن تخلو من خبث وجنوح فطرى الى الانتقام . ولذلك فكر مصطفى ثم قدر . انه لايستطع ان يناطح الشيخ كما كان يناطحه عبد الكريم وجماعته . فاذا كان عبد الكريم قد أوتى «جلداً تخيناً» يتحمل الأذى الجسدى واحساساً مغلفاً بغشاء سميك من اللامبالاة يتحمل الأذى المعنوى ، فان مصطفى لم يؤت من هاتين الموهبتين نصيباً يعتد به ، فلا بد له من ابتداع وسيلة أكثر مباشرة من التمثيل والمحاكاة من وراء ظهر الشيخ يشفى بها غليله للثأر والانتقام . فرأى مصطفى ان الشيخ اذا تملكته احدى سوروات الغضب التي لاتفتأ تلازمه فانه يمشى بين الصفوف والادراج مرعداً مرزماً تارة ، هامساً «موسوساً» تارة اخرى ، مطلقاً لسانه فى الحالين بأنكى مفردات الوعيد وتعابير الثبور على التلاميذ . فتفتتح ضفتا فرجيته عن قفطان داخلى ابيض ناصع يجمع شقيه على جسمه حزام يشد وسطه شداً . وهنا طرأت لمصطفى فكرته الجهنمية والتي جند لها قلة احسن تدريبهم . . فصار ينثر على ملابس الشيخ من محبرته رذاذاً متصلاً فيتبعه الآخرون بما هو أكتف منه وأشقى للغيل . ولقد كان الشيخ فى شغل شاغل عما يحدثه مصطفى وزمرته فى ملابسهم . . فهو يغادر الفصل بعد انتهاء الحصة نون ان تقع عيناه على البقع الظاهرة فى قفطانه ، ململاً أطراف فرجيته مغطياً بذلك - دون علم

او شعور منه - تلك الاثار التي احدثها كيد الكائدين علي ملابسه النظيفة . ومن عجب ان الشيخ لم يحفل بذلك ابداً ولم يذكره في يوم من الايام . ولعل أهله في البيت كانوا يخفون عنه ذلك حياء منهم وظناً منهم ان رجفة كانت تعتريه فيندلق الحبر من جرائها على ملابسه دون أن يملك لذلك دفعاً . او لعله علم ولكنه خشى ان هو اعلن علمه ان يتحول ميسم الانتقام الى ماهو أنكى وأكثر أيداءً ، لان هؤلاء « الشواطين » المردة الصغار يمكن ان يجعلوا منه العوبة في ايديهم ان هو ضيق عليهم اكثر مما كان يفعل . فالله وحده يعلم حقيقة الامر . ولكن الذي كان يعلمه الجميع هو ان مصطفى عابدين انما اراد ان يثأر لنفسه ولرفاقه بهذا الاسلوب الموغل في الخبث والخفاء . ودون ان تضمخ اصابعه نقطة واحدة من الحبر . فهي الوسيلة الشافية الوحيدة التي يحسن استخدامها لاخذ الثأر من الشيخ . ولقد تمرس عليها مصطفى وصار يتقنها بدقة عجيبة . وهو قد وطن نفسه على ان ينكرها جملة وتفصيلاً اذا حدث ان وجهت اليه أصابع الاتهام ، لأنه كان يخرج منها نظيف اليدين لم يعلق بهما سوء ، وإن كان اختضاب الاصابع بالحبر بالنسبة للتلاميذ امراً عادياً ولا يصلح ان يقوم دليلاً على سوء الظن بهم ورميهم بارتكاب مثل هذه الفعلة . فالتلاميذ يكتبون فهم بالضرورة يلامسون الدواة ، ولا يعقل ان يكون ما لحق بأصابعهم منها صك ادانة بأى حال من الأحوال . ورغم ذلك ، فان مصطفى قد أعد حتى للمستحيل عدته وذلك باتقان «عمله» اتقاناً سلمت معه اصابعه تماماً من أى أثر قد يثير شكوك الشيخ التي لاتحتاج اثارها الا لأخف الدلالات وابعدها عن مواطن الاحتمال . . فبرئ مصطفى من مجرد احتمال ان يرمى بهذا الاتهام براءة الذئب من دم ابن يعقوب . . وشفى بذلك صدور قوم موتورين . ولم يكن من بين التلاميذ من يمكن ان يشي بمصطفى في هذا الصدد ، وذلك لانهم في المكان الاول كانوا يسرون ارتياحاً بالغاً لما كان يضطلع به مصطفى نيابة عن مشاعرهم واحاسيسهم الراغبة في اخذ الثأر ، وثانياً لعجابهم بأسلوبه البارع الذي اخفى به فعلته عن دقة ملاحظة الشيخ ، علماً بأن الشيخ كان شديد التوجس لايثق

بأحد ولا يطمئن لشيء . وثالثاً لانهم كانوا يعلمون ان مصطفى عابدين لم يكن وحده في هذا المضمار وان كان ابرع من غيره وادق اداءً وابلغ اثرأ . . واذا انكشف امر مصطفى فلا بد ان يقود ذلك الى انكشاف أمر الاخرين ، وان تم ذلك فان بقية اولاد الفصل لابد واقعون تحت طائلة سوء الظن والتجريم ، لان الشيخ قد تعود على أن يأخذ التلميذ بجريرة جاره . فكان اذا فرغ من عقاب تلميذ لم يهدأ له بال حتى ينال ممن يجلس بقربه اذا تبسم او قطب او ابدى أى نوع من الحراك ، اللهم الا اذا تحجر او تخشب او استطاع بمعجزة أن يضفى على وجهه مسحة من الجمود لا تشى بأى نوع من الاحساس . ومن ذا الذى يمكن ان يتأتى له ذلك ؟ وعلى كل فقد نال مصطفى عابدين اعجاب زملائه واحبوه حباً جماً لعديد صفاته الطيبة وفى طليعتها مرحة الدافق وروحه السمحة وذلك المكر العايب البرئ .

لقد ترك مصطفى عابدين في ذاكرتى أثراً باقياً لا ينسى . فقد كان فيه شئ من ملكة إعلامية ، ولو انه وجد الفرص المواتية وتلقى التدريب المطلوب لصار من ابرز رجال الاعلام . فهو مشغوف بالأدب والشعر عموماً وبالأخبار خصوصاً . ليس ذلك فحسب بل هو من المجددين فى طريقة تملك الأخبار لعامة التلاميذ . فهو لم يكن يكتفى بما يسطره قلمه فى الصحف الحائطية ولكنه يتابع ما يكتب غيره ويدعو الآخرين لقراءته ، وعندما يفيق من هزله يعقد لقاءات بينه وبين رفاقه لمناقشة الموضوعات التى تنشرها جرائد الحائط وبعض الموضوعات التى كانت مثار جدل فى بعض ليالى القبة التى كانت تقليداً اصيلاً من تقاليد جمعية الثقافة عموماً والجمعية الادبية على وجه الخصوص . وكان مصطفى عابدين كثيراً ما يرى وهو يكتب وان لم اكن ادرى على وجه التحديد ما يكتبه . ولعل كلفه بالكتابة ومن ثم ارتباطه بالقلم والدواة هى من بعض الامور التى فتقت عبقريته العابثة عن اتخاذه الحبر وسيلة ماضية لشفاء الصدر والثأر من الشيخ ابي بكر . ولقد كانت براعته حتى فى هذا العبث البرئ واتقانه لما يأتى من اضرار بقفاطين الشيخ دون ان تعلق بأصابعه أثارة من مداد إحدى

الدلائل القاطعة على ان علاقة مصطفى بالمحابر والاقلام علاقة روحية عميقة . ولذلك فاني كنت أرى في مصطفى منذ تلك السنوات الغضة الباكرة مقدرات جمة على الالمام بالمعارف الثقافية عموماً اذا ألقى قبالبته الظروف المواتية ، وعزمات صادقة على تسنُّم هذه المراقى اذا اوتى الادوات المناسبة لهذا الصعود وانفتحت امام عينيه آفاقها الفساح . ورغم انى لا اعلم اين هو مصطفى عابدين الان الا انى لا ارتاب فى انه يختزن بين اعطافه كنوزاً من المعارف والثقافة . وانى لأسأل الله ان يكون نصيبه موفوراً من الخير الموعود في الحديث الشريف الذى يشير معناه الى ان من كان ورثته المحابر والاقلام دخل الجنة . وليس يخفى مايعنيه هذا القول العظيم في معناه الواسع المحيط . غير اننا اليوم نعيش فى عصر غير الذى نتحدث عنه فى هذه الصفحات ، وهو غير ما كان يراود فتيان تلك الحقب من احلام وآمال ، ومناخه سوى ما كان يتراعى لأولئك الفتية من أمانى ، فهو عصر الاسى والتفوق والاستعداد للرحيل والفرار ، فهل تراه يكتنف مصطفى عابدين ويجبره على الاستسلام ؟ ام تراه ينتصر على الاسى ويوجد بمكوناته التى لا ارتاب في انها صارت كنوزاً من وراء قضبان ؟ ولعله بين هذا وذاك يتأسى بمقولة سيد الشعراء :

إلف هذا الهواء أوقع فى الأ      نفس أن الحمام مر المذاق  
والأسى قبل فرقة الروح عجز      والأسى لا يكون بعد الفراق

لقد كان مصطفى عابدين جاداً حتى فى هزله ودعاباته . وهو لم يكن يدعى أى نوع من البطولات والاتيان بالاعاجيب . ورغم ولعه بموسيقى عبد الكريم وتقديره الوافى للملكات رجال الربيع الخراب الذين كان يحب الجلوس على مقربة منهم فى الفصل ، الا انه كان عالماً بحدود امكاناته يضع قدمه حيث يحسن عنده الموضع ويحفظ لسانه حيث يحسن حفظ اللسان . وكان لسان حاله يردد مقولة العالم الذى احسن فهم اهمية مركز الثقل فقال لمن القوا عليه القبض بقصد محاكمته على هذا الجرم الذى اعتبر خروجاً على الكنيسة وعلى المؤلف : أعطنى مكاناً أقف عليه وسأرفع الارض ! Give me a

place to stand , and I will raise the world !

وعندى ان مصطفى عابدين واشباهه مازالوا يبحثون عن هذا المكان الذى يقفون عليه . . ولو انهم عثروا عليه لافادت بلادنا منهم خيراً عظيماً .

ولما كان مصطفى عابدين لا يحسن الشعبة فى الطرمج ولا طلوع حيطه دار الرياضة ولا مجالسة بلة الاحمرانى واللَّبَّخ فانه لم يكتر من مجادلة اقرانه في هذه الامور وانما سلم الامر لهم راضياً ، ولكنه أثر ان يتشعبط في اسوار المعارف والثقافة ، ولو انه ضمن السلامة من خيول السوارى الجامحة وسياطهم اللاهبة لبلغ قمة المانع الذى ظل يتشعبط عليه منذ تلك العهود وخرج علينا من تلك الاعالى بغناء عظيم .

ولكن الغيوث اذا توالى . . بأرض مسافر كره الغماما

والغيوث قد تكون نقمة والغمام مقدماتها ولذلك جاء في أثر الاستسقاء : اللهم

حوالينا لا علينا ا

## عكود . . ثالث الثلاثة الذين خلفوا :

اول تلميذ يلقاك حين تدخل فصلنا «الثوانى» وهو يجلس في اول الصف الامامى في اقصى اليمين هو قاسم عبد القادر أبو بكر . . وهو عكود بعينه . . الذى كان ثالث ثلاثة نالوا اعجاب الشيخ ابى بكر فخصهم بدرجة عالية من التقدير والاهتمام . ورغم ان قاسماً كان تلميذاً فاتح لون البشرة حسن السمات والسحنة هادئ الطبع - في الفصل على اقل تقدير - الا انه كان من الموردة . . مورداً قحاً موطن سكن ومبدأ عقيدة كروية ، ولكنه من الحمائم . فرغم انتمائه الى مجموعة اولاد الموردة عموماً الا انه كان ذا افق واسع وذهن مفتوح فيما يختص باقامة العلائق الطيبة مع الاخرين وتدعيمها بالاشترار معهم فى اغلب وجوه ومناحى الانشطة التى يشتغلون بها . على ان اعجاب الشيخ ابى بكر بقاسم وافراده له ضمن قلة من اولاد الفصل بالاهتمام الزائد كان مثيراً لفضول زملائه وحفيظتهم على السواء . ليس ذلك لانهم كانوا يغبطون هؤلاء الرهط على المكانة التى احتلوها من نفس الشيخ ، فتلك مكانة لا يتطلع اليها الا

من حيث انها مؤدية في احسن الاحوال الى امتياز اطناشر من اطناشر وفتح الله عليك وعلى والديك فى دفتر الالفه ، وهو امتياز برهنت الاحداث المتعاقبة برهاناً قاطعاً على انه مؤقت لايدوم ، وككل اعمال ومراتب التلاميذ التى يتحكم الشيخ ابوبكر فى خواتيمها تكون عاقبته الخسران المبين . فلطالما سعد قاسم وصنواه - الحبيب والدرديرى - بهذا المقام الرفيع عند الشيخ ، ولكن دوام الحال من المحال والدينا فرندقس ، ومن اسمه ابوعكر كيف يدوم له الصفاء ؟ وحكمة الشعر تقول على لسان ابن الرومى :

وما احدث العصران شيئاً كرهته . . . هما السالبان الواهبان هماهما  
والمطلوب هو هذا الرضا الذى يعبر عنه صدر البيت ولكن ما أقل من يدين به  
ويصبر على السلب بعد الوهب ، فقد أفضت الايام بهؤلاء الثلاثة (الذين خُلفوا) عن  
السقوط الجماعى - وفى طبيعتهم قاسم ابو عكر - الى حتمية غضب الشيخ الذى لا  
مهرب منه ، فصاروا الى ما صار اليه غيرهم من زملائهم ، وحلت عليهم لعنة البرامكة  
فانتهى أمرهم جميعاً الى مذلة صفر من اطناشر وميسم هؤلاء قليلو الادب . ولعله من  
الغريب ان سقوط الجميع من عين الشيخ وترديهم جميعاً بلا استثناء فى نهاية المطاف  
الى صفر المذلة وهوان قلة الادب قد اسقط عنهم أى اثر لمشاعر الضغينة او الموجدة  
تلقاء بعضهم البعض ، وجعل منهم شرقاً واحداً فى الهم والمصير ، وساوى بينهم فى  
المكانة من نفس ذلك الشيخ الاستاذ ، فوطد ذلك من رباط التعاضد بينهم ، وأحال  
آحاسسهم تجاه بعضهم البعض الى صفاء صادق ومودات حميمة متبادلة . ولعل فى  
هذا بعض سر ديمومة تلك العلائق الوثيقة العرى التى كانت وما تزال تربط بين تلاميذ  
تلك الازمنة السحيقة ، فهى علائق ماتنكف باقية متينة بين من بقى منهم الى هذا الحين.  
كان قاسم ابوعكر تلميذاً نبياً لين العريكة محبوباً بين أقرانه . . مبرزاً فى دروسه  
حسن السمات والمظهر وجهاً وملبساً وخلقاً وحرصاً صادقاً على اقامة اطيب العلائق  
والصلات مع زملائه . وكان اصراره على الجلوس فى مقدمة الصف الاول وميمنته

دليلاً واضحاً على صدق عزمه وشدة رغبته فى متابعة شروح الاساتذة والامام بها وتحصيل اكبر قدر ممكن من المعارف والعلوم . ولكنه لم يكن بمنجاة من خبث الآخرين وأثار « عفرتهم » ، وخاصة عندما تقرر اسماعهم إشادة الشيخ ابى بكر به عند دخوله الفصل وهو يقول : ما شاء الله . . عكود والحبيب والدرديرى . . مثلث الاخلاق العالية . . الولد مرآة البيت . . الى آخر موداته التى لاتدوم ، واطراءه التى يمكن ان تتقلب الى نقيضها فى لحظة واحدة من لحظات هياجه . كان محمد العوض يستثير قاسماً من جانبه الايسر (فجانب قاسم الايمن الى حائط الفصل وبذلك آمن من ان ياتيه الشيطان عن يمينه ايضاً على اقل تقدير ! ) واما من خلفه فقد كان يجلس هاشم محمود (هاشم الاطرش) . وهاشم كان يخشى الشيخ ابابكر كما تخشى الفئران القطط ، بل هو يخشى كل الاساتذة ، ولكن بدرجة أقل ، ولذلك فهو يكون هادئاً ساكناً فى اثناء الحصة معظم الوقت ، الا انه كانت تعتريه فى بعض الاحايين لسبب لاندرية تماماً - نوبات من الشيطنة والعفرتة تعوضه مافاته منها وقت هدوئه وتزيد . واغلب الظن انه كان يستلهم الشجاعة للامتثال لهذه النوبات والسدور فى غيها من جسارة محمد العوض مصطفى الذى كان يسخر من طرف خفى من كل كلمة يقولها الشيخ فى مدح قاسم . ثم يبدأ هاشم فى مشاغلة قاسم من خلفه يشجعه على ذلك محمد العوض . . ولا يزالان بقاسم يناوشانه ويخنسان حتى ينفد صبره فتحمله محاولة الرد عليهما وياقافهما عند حدهما الى احداث ما اصطلاح على تسميته بالهرجلة ، فيفضى به ذلك - فى احسن حالاته - الى دفتر عم مبارك ، ولاينتهى يومه الدراسى الا وهو منبطح على تلك الكنبة الملتصقة بحائط مكتب الضابط لينال جزاء ما دفعه الى اقترافه خبث محمد العوض وهاشم الاطرش ... وهما قد خرجا سليمين كما تخرج شعرتان من عجين دقيق الفينو ! ولعله مما كان يثير قاسماً أشد الاثارة تلك الضحكات الهازئة الخافتة المكتومة التى مصدرها هاشم الاطرش دون ريب ولايسمعها ولايدرك مبعثها الا من كان على مقربة منه ، وان وشى وجهه بها ويمدى المكر والخبث الذى كانت تنطوى عليه . وذلك ان

هاشماً لم يكن ليخشى من بطش قاسم فما كان قاسم ليتفوق عليه بسطة في الجسم ولا في المال . ولكن اخشى ما كان يخشاه هو ان يؤلب عليه قاسم مجموعة اولاد الموردة وهم رهط متين الرباط ولا طاقة لهاشم بواحد من عتاتهم ناهيك عما فوق ذلك . وهاشم كذلك لا يأمن مكر محمد العوض لان محمداً - وان شاركه والح عليه في التنغيص على قاسم - ينتمى ، على الرغم من عمرابيته ، الى مجموعة الموردة قدراً وموطناً وعقيدة كروية . وهاشم هلالابى ، وهو من الجبلين التي تبعد عن ام درمان بمئات الكيلو مترات . فهو يخشى على نفسه من حلف اولاد ام درمان عموماً ومن تطرف المورداب بصفة خاصة . وهما امران ان اجتمعا فى خصم لك فالأجدر بك ان تجتنب منازلته وان تخطب وده بكل الوسائل الممكنة.ربما كان هذا هو السبب فى أننى قد ضببطت هاشماً فى غير ما مرة وهو متلبس بدعوة قاسم ومحمد العوض واكرامهما بالباسطة الكورنر ، الامر الذى كان يكلفه ثلاثة قروش بالتمام والكمال . وكنت كلما لقيته على هذه الحال تزايدت تمتته وهمته واسفر وجهه عن خليط عجيب من الضحك والعبوس والطلاقة والارتباك فى محاولات جهيدة لاصطناع المبررات واختلاق المعاذير . ولكنى لم أله على تصرفه بل حمدته له وأثنيت عليه لانى كنت متفهماً لمشاعره مدركاً لمقاصده وحكمته من وراء ذلك - فهو وان كان صادقاً فى مودته واقباله عليهما الا انه كان ينظر ايضاً من مواقع الحيطة والحذر الى ما يمكن ان يحدث بعد نهاية اليوم الدراسى ، فقد كانت الحسابات المعلقة بين التلاميذ تصفى عندئذٍ حيث لارقيب ولاحسيب من سلطات المدرسة ، وحيث الغلبة للعصبة الاقوى او من هو أكثر جنداً وأعز نفراً . . . ولان هاشماً كان حريصاً على ان يصل داره فى نهاية اليوم وثيابه على نظافتها او - قل على أقل تقدير - فى هيئة مقبولة ومعقولة دون ان تعفر بالثرى إثر شكلة او عراك يعلم هاشم تماماً انه لن يكتب له النصر والفوز فيه . وكان قاسم ابو عكر ايضاً متفهماً لهذا ، واشهد انه لم يؤلب على هاشم عصبة اولاد الموردة فى يوم من الايام رغم ان ذلك كان فى متناول يده ان اراد . وهو فى ذات الوقت يحمل بين جنبيه



قلباً حانياً على هاشم ويعطف عليه بصدق واخلاص ، ولست اعلم لذلك سبباً حقيقياً الا ان هاشماً كان جاراً خلقياً له فى الفصل ، وهو تلميذ طيب مسالم اذا استثنينا هذه المرات التى تنتابه فيها نويات الشيطنة فتدفعه الى هذه المشاغبات التى ذكرنا . ثم توطد الشعور بينهما بالاخوة كثيراً إثر السقطة التى منى بها قاسم فى نظر الشيخ ابي بكر فواساه هاشم بسيل من العواطف الرقيقة التى لم يتسع لها نطق لسانه فجاءت واضحة جلية وصادقة فى تقلصات عضلات وجهه وتتابع ضيق واتساع عينيه وارتجاف حاجبيه واشارات يديه واهتزاز سائر جسده وهو يرسل ضحكاته المقتضية بين حين وحين كلما أعوزه التعبير وغلب عليه الحياء .

ومن عجب ان قاسم ابا بكر كان فى بداية امره من التلاميذ الذين يتمتعون باحترام الاستاذ الحاج هاشم وهذه منقبة كبرى وهامة لان الفوز باحترام الاستاذ الحاج هاشم كان امراً عصياً بعيد المنال . ولربما كان الاستاذ يعرف عائلة ابي بكر بجامع القرب بين حيه وحيهم ، ولربما كان السبب غير ذلك . ولكن الشئ المؤكد هو ان قاسم ابا بكر قد استحق هذا الاحترام عن جدارة ، فهو كما قلنا تلميذ نبيه كل حاله منظم ، وهو كثير الاصابة فى اجاباته على اسئلة الاساتذة ، يأتى الى الفصل وقد استنكر دروس اليوم السالف جيداً ، فلا يؤوده ان يجيب على سؤال ، اللهم الا بعض العصيات الغوامض من الاسئلة . ولكن حال السرور لا يدوم كما هو معلوم ، وكما قال سيد الشعراء : من سره زمن ساعته أزمان . ففى ذلك اليوم الذى أتى فيه الاستاذ الحاج هاشم مقطباً فاسد المزاج ، وهو اليوم الذى تلا تلك العلقة الشهيرة التى تعرض لها فى دار الرياضة بام درمان ، كان قد خيل اليه ان جميع اولاد الفصل قد شهدوا ذلك الحدث واطلعوا عن قرب مباشر على ذلك المشهد الذى عده مخزياً فى حقه ، وانه ربما شارك بعضهم فى حصبه بالحجارة او الامسك بتلابيبه وتمزيق ملابسه ، وهو - وان كانت أصابع اتهامه الحقيقى تشير الى عبد الكريم ومحجوب ومكى والكبتل وهم عتاة اولاد الفصل - لم يستبعد غيرهم من الضلوع فى المؤامرة ومعاقرة ذلك الجرم الفادح .

ورغم انه قد صب جام غضبه فى ذلك الصباح على عبد الكريم بوجه خاص دون ان ندرى لذلك سبباً مقنعاً ، الا ان قاسم ابا عكر لم يفلت من آثار تلك السورة الغضبية الماحقة ، فلم يشفع له حسن بلائه فى علم الجغرافيا ولا كراساتة الانيقة المنمقة ، ولقى من الضرب والشتيم والتقريع وغير ذلك ما لم يكن قد تعود عليه من قبل . وقد تركت هذه الزلزلة اثرأ باقياً فى نفس قاسم لست ارتاب فى انه لا يزال يذكره بشئ غير قليل من الضغن او عدم الرضا . وذلك ان الاستاذ الحاج هاشم قد نسى فى ذلك الصباح الكالغ - او لعله تناسى - من فرط تأثره بما تعرض له فى عصر اليوم السابق فى دار الرياضة - ان قاسماً كان من انجب التلاميذ ومن انبغهم فى علم الجغرافيا الذى يقوم بتدريسه الاستاذ الحاج هاشم ، وان كراساتة كانت مثلاً لاناقة الخط والنظام والتبويب والتسطير ، فلم يقم لذلك وزناً ولم يأبه به فى ذلك الصباح ، بل كان فى شغل شاغل عنه لان نفسه كانت ممتلئة غيظاً على من اعتدوا عليه وقد دفعه سوء ظنه بالتلاميذ - او قل رغبته فى الانتقام عموماً - الى اتهامهم بالتواطؤ على الاذى الذى أصابه من قوم آخرين ، فان لم يكونوا مشاركين فيه بأيديهم وحجارتهم فهم مشاركون دون ريب - فيما يظن - بعواطفهم على اقل تقدير ، وهم عليه من الشامتين .

هكذا كان جزاء قاسم ابي عكر الذى لقيه من استاذة الحاج هاشم رغم قرب الديار واتصال المودات . وهكذا انقلب عليه استاذة الذى كان يكبره ويصطفيه . غير ان قاسماً كان سمح الطباع ، فسرعان مانسى تلك الاساءة التى كان امضها على نفسه واقساها ما دفعه الى غسل وجهه وتنظيفه من الدموع وآثار الصعوط التى نثرها استاذة عليه . . . فقد بقى قاسم اياماً لا يحدثنا ولانحدثه وقد غابت عن وجهه ابتسامته الوضيئة وخيمت عليه سحائب حزن بئيس . ولكنه استطاع بعد قليل ان ينضو عن نفسه ثياب الاسى فعاوده مرحة الذى اسعدنا وارضانا . ولم يجرؤ احد منا ان يتعرض امامه لهذه الحادثة التى اشقته كثيراً . ومن العجيب ان محمد العوض الذى كان لا يفوت مثل هذه الاشياء ابدأ قد وجد من نفسه وازعاً وحياء جعله يتحاشى ذكر هذه الواقعة سواء كان

قاسم حاضراً أو لم يكن . وذلك امر ساعد على نسيانها - او تناسيها - تماماً ، وهو ان دل على شئ فانما يدل على اكبار زملاء قاسم لقاسم ، وعلى مكانته فى نفوسهم وحتى هاشم الاطرش الذى كان يتحين الفرص والمناسبات للتندر على قاسم عفً عن الخوض فى هذا الامر واكتفى بضحكاته الخافتة المقتضبة التى ما ان تدركه عيون الصقور وقد شرع فيها حتى ينهيا سريعاً بتلك السعلات المصطنعة الثلاث ثم العطسات الخواتم المعتادة ، ثم يرفع يمينه يثبت بها عمامته على رأسه فى خليط عجيب من العصبية والاحساس بالحرج والرغبة فى الاعتذار . واما محمد على مقبل الذى كان مولعاً بالضحك على الناس وتعقب زلاتهم وافشاء أمرها لا رغبة فى الايذاء ولكن محبة فى الضحك فانه فى هذه المره أثر الصمت ولم يشنع على قاسم . وقد اعجزتني معرفة السر الذى اخرس لسان مقبل فى مثل هذه المواقف اذ عهدى به انه لا يتورع . ولكنى وجدت الاجابة الشافية عند محمد الحسن الشايقى .

لقد علمت لأول مرة ان والد محمد على مقبل كان صاحب متجر فى سوق الموردة وانه كان يدير محلاً لايجار العجلات . وان قاسم اباعكر وشقيقه مصطفى الذى كان يتقدمنا فى الدفعة كانا من اهم زبائن المحل . وان الطريفى شقيق محمد على مقبل الاكبر كان صديقاً لمصطفى ابى عكر . ولو ان مقبلاً اغضب قاسماً لفقد المحل بعض زبائنه الذين ربما كان آل ابى عكر واصدقاؤهم وجيرانهم يشكلون جزءاً هاماً منهم . وعندها علمت ان المصالح الاقتصادية - او قل المادية - هى فوق المسرات المعنوية ، وان مقبلاً انما كان يراعى هذه القاعدة ويحافظ على هذا التوازن .

وبما ان قاسم اباعكر كان بارعاً فى ركوب العجلات ، يستطع ان يرفع يديه عن الميزان وهو جالس على السرج يحرك بقدميه البدال دون ان ينحرف به البسكليت لمسافات طويلة ، فان ذلك كان مما يثير دهشة كل من مصباح الصادق وعبد الرحمن كتنباي . اما مصباح فقد كان يعتبر ذلك جنوناً ما بعده جنون ، وان والد مقبل الذى افتتح دكاناً لايجار العجلات انما هو رجل يبيع الموت للناس بدريهمات ، وان

قاسم ابا عكر ومن سار على دربه انما يشترون الردى من منابعه بحر مالهم ، فكيف  
يأسى على قوم مخالطين ؟ واما عبد الرحمن كنتباى فقد كان ينظر لهذا الامر من  
زاوية اخرى . فمع يقينه ان العجلة نفسها دابة مستحدثة فانه لايرى فى ركوبها أى  
نوع من البطولة . كيف وهو سليل امير البحرين الذى حاصر الخرطوم مع صحبه  
الاماجد فافتتحوها عنوة وهم على ظهور الجياد . .

اصحاب الامام راكبين عواتى الخيل

قول المهدي فوق مصممين بالحيل

اين هذا من ذاك ؟ اذا كان قاسم ابوعكر حمشاً او فارساً فليركب حصاناً يقلب به  
فى شوارع ام درمان ليملاً أفاقها بالصهيل ويثير غبارها بنقر الحوافر ، بدلاً من هذا  
البسكليت البئيس الذى يرقعونه بالسلسيون ويهبونه القدرة على السير بالمنفاخ ! وهكذا  
التقى كل من مصباح وعبد الرحمن فى موقفهما من هذه الدابة الحديدية المستحدثة ،  
وان تباينت بينهما اسباب النفور منها ! هذا يرى انها الموت بعينه ولذلك فهو يمقتها ،  
وذاك يرى ان بعض المنايا اشرف من بعض ، ولذلك فهو يزديريها ! والتقى كل من مقبل  
وقاسم فى تثمين البسكليت وان اختلفت الاسباب ، فعند مقبل الذى ينظر الى متجر  
ابيه فان العجلة احد ابواب الرزق وان كانت الرقع والبلوف وبعض التأخير فى ارجاع  
العجلة تأكل من هذا الرزق . وعند قاسم انها جالبة للمتعة وان كانت تنتهب الجيب  
وتفقر . فانظر الى تباين هذه المواقف وقل ماذا ترى فى هذا البيت الذى صاغه ابو  
العلاء المعرى :

ولم أعرض عن اللذات الا . . . لان خيارها عنى خسنه !

وهل بين هؤلاء الفتية من كانت تجول بخاطره اشباه هذه المعانى يا ترى ؟

## الصبى . . . وجمل العصارة :

غير بعيد من قاسم ولكن فى الصف الثاى كان يجلس يوسف خضر ، وهو من  
مجموعة الموردة ايضاً . وهو تلميذ نابه نبض الفؤاد . ورغم قصر قامته الظاهر للعيان

فقد كان زملاؤه عموماً وشيعته من اولاد الموردة على وجه الخصوص ، يرون انه يكبر كثيراً منهم فى السن . واية ذلك ان صوته بدأ يتغير منذ نهاية السنة الثانية ، وفى السنة الثالثة كان قد اوتى صوت فتى بالغ الحلم . وكان يوسف يضحك لتعليقاتهم وقفشاتهم لا يغضب لقولهم ولا ينهاتهم عما يخوضون فيه من امره . فهو تلميذ وديع سهل الطباع كريم الخلق . ينحاز الى عصابة اولاد الموردة عموماً عند وقوع الشدائد ، وهو فى الوقت ذاته يحرص على أطيب العلائق بالجميع لانه من فصيلة الحمائم لا الصقور . وهو تلميذ ذكى يحسن دروسه ويمتاز فى التحصيل ، ويكبر فيه اساتذته مستواه الرفيع واستعداده الوافى للتلقى والفهم . ولقد اطلق عليه محمد العوض اسم «الصبى» فصار معروفاً به بين اولاد الفصل بشكل خاص . ولقب «الصبى» فى نظر التلاميذ هو كناية مهذبة عن كبر السن النسبى بالمقارنة لهم . . وهى كنية لم تغضب يوسف بل ربما سر بها فى قرارة نفسه لان فيها اعترافاً بالسابقة ، واقراراً خفياً منهم له بمقدرات ليست فى متناول غيره ، ثم هى جنة له من الاستهانة بشأنه لان الاستهانة مدعاة الى اندلاع الخصومات واجتلاء مواطن الغلبة وذيوع الصيت بشدة البأس والاشتهار بالقوة والتفوق . وقد كان يوسف بهذه الكنية فى منجاة من كثير من المهالك . ولكنها مثل كل صفات البشر لم تكن لتنجى من ايذاء بعض الاساتذة . بل كانت هى فى الواقع مدعاة ومجلبة لهذا الايذاء . فقد كان بعضهم يخاطبه «ياعجوز» ! ورغم ان يوسف لم يكن يبدي اعتراضاً على ذلك او امتعاضاً منه ، وذلك لحرصه على السلامة وتجنب ما يمكن ان يكون اكثر ايذاءً ، الا ان نفسه لم تطب به ، ولم تتقبله تماماً . فكان يوسف الساكت على هذا الضيم اثناء الحصة يشارك زملاءه فى فسحة الفطور فى التندر على الاساتذة ومحاكاتهم والنيل منهم على البعد ، أخذاً بالثأر لنفسه وتعبيراً مشروعاً عن عظيم استنكاره لاتهاماتهم الجائرة فى نظره . فكنية «الصبى» التى أطلقتها عبقرية محمد العوض على يوسف خضر هى فى الواقع سلاح ذو حدين : جانب باطنه فيه الرحمة - وهو الجانب الذى يضعه فى مرتبة متقدمة على زملائه

فيخشون بأسه لانه «صبي» اسن منهم ولذا فهو اقدر منهم على الفوز بالنصر فى أى عراك قد يدور بينه وبين أى احد منهم ، وجانب ظاهره من قبله العذاب ، لانه يعرضه احياناً لسخرية بعض التلاميذ وان كانت سخرية خفية غائبة عنه فى اكثر احيانها لانهم يباشرونها مع بعضهم البعض ويتغامزون بها عليه من وراء ستار . وكذلك للسخرية المباشرة الصريحة المؤذية من بعض الاساتذة الذين ينادونه كفاحاً دون موارد «ياعجوز» ، فتلك سخرية لايمك لها دفعاً ولا هولها من المقرنين ! ومن منا يمكن ان ينسى ذلك اليوم الذي دخل فيه على فصلنا ولاول مرة الشيخ الباقر استاذ الدين ؟ فهو قد جاءنا فى ذلك الصباح كما تأتى ريح فيها صر او تهب عاصفة هوجاء تسحق النجم وتقتلع اعجاز الاشجار . . . يرغى ويزيد دون ان ندرى لذلك سبباً . ربما كان قد بلغه ان تلاميذ هذا الفصل خالية صدورهم من القران وذلك بشهادة الشيخ ابى بكر المدعومة بقائمة الكبتل الالفة التى انتهى فيها الجميع الى المساواة التامة فى مقام صفر من اطناشر ومنزلة هؤلاء قليلو الادب . فلا بد ان الشيخ قد جاء وفى نفسه من هذا الخبر اصداء واسعة فكان اول ما طلبه ان نقرأ عليه القران استظهاراً من الذاكرة . فطفق يتحدث بعصبية ظاهرة ويشير بيد اوحت بالتهديد وغلظ الوعيد : ...أنت ياولد

. اقرأ سورة لم يكن . . . انت اقرأ سورة لا اقسام بهذا البلد . . . انت اقرأ سورة الماعون . . . انت . . . وذلك فى تتابع ماحق ، وعجلة لا تنتظر حتى تقيق من هول المفاجأة وتستجمع قواك المعنوية والذهنية . وكان أغلب التلاميذ قد تصالحوا مع الواقع الذى اوقعهم فيه الشيخ ابوبكر ورضوا به لما استيأسوا من جدوى الملاوة التى ليس من ورائها طائل والتى لا تجدى مع انفعالاته فتيلاً . . . ولذلك فهم قد تقاعسوا عن استذكار هذه الدروس وعن متابعة الحفظ وترسيخ أى التنزيل فى الذاكرة لانهم يعلمون علم اليقين ان الاحكام فى حقهم تصدر جزافياً قبل الاستماع اليهم والاحتكام الى تحسس مقدراتهم « الحفظية » فلما طلع عليهم الشيخ الباقر فى ذلك الصباح طالباً منهم تسميع السور وهو يغلى غيظاً كما تغلى القدر الراسيات على الأثافى وقد احاطت بها

السنة اللهب الفاهم سكوتاً مطرقين واقئدتهم هواء . فكان بعضهم اذا من الله عليه فخرج من صمته يبدأ متلعثماً وقد أحاط به جو خانق من غضب الشيخ وصراخه ووعيده . . فلا يبلغ من أمر التسميع شيئاً . ثم انتهى الامر ببعضهم وخاصة اهل الربع الخراب الى ان يقولوا تباعاً وفي رباطه جأش تنطق باليأس والقنوط . وبدون أى محاولة للقراءة من الذاكرة : يافندى ما حافظ . فركب الشيخ مزيد من الهياج وطفق يذرع ارجاء الغرفة جيئة وذهوباً يكاد قفطانه يطير لولا انه يمسك بأطرافه بيد ويتوعد بالآخرى ويصيح فى استنكار واستنكاف بالغ : سور الصلاة . . يا ناس ما حافظين سور الصلاة ؟ انتو جاين من وين ؟ الى آخر تعليقاته الماحقة . وكأن الصلاة لها سور معينة وما عداها فهو ليس للصلاة ! وكان يوسف خضر فى مقدمة من اصبحوا هدفاً قريباً لتندرته وسخريته ، فهو يقول له : حتى انت يا عجوز ما حافظ سور الصلاة ؟ كيف تصلى ؟ ويوسف ترتسم على وجهه ابتسامته الهادئة الصافية المعهودة دون أن ينبس بكلمة وان كان فى دخيلته يغلى ويكاد صبره ان يتبخر كما تبخرت عن ذاكرته وصدوره الايات . ولكنه لا يملك دفع ذلك الضر عن نفسه بفعل او قول فليصمت اذا وليحن راسه لهذه العاصفة حتى تمر وتجتازه بسلام . ويقيني انه كان يتمنى فى قرارة اغوار نفسه ان لو لم يكن صبيياً فحسب ولا «عجوزاً» كما كان يعيره الشيخ فحسب ، بل ان لو كان رجلاً ناضجاً كامل الفتوة ضخم الجسم مقتول السواعد . . . اذا لتأثر من الشيخ لنفسه ولزملائه ولاورده المهالك ولرد عليه الصاعين اربعاً او تزيد وللقنه درساً لن ينساه ما بقى حياً يدرس التلاميذ . ولكن ما الحيلة ويوسف «الصبى» لايعود ان يكون صبيياً على احسن الفروض ، والشيخ يرغى ويزيد مثل جمل العصاراة كما قال احد التلاميذ فيما بعد يصف سورة غضبه ؟ وهل الى خروج من سبيل ؟ ولقد حق ليوسف ان يتضاعف غضبه وقد ناله الاذى من الشيخ ضعفين . فبقية زملائه نالهم اذى الاتهام بالجهل لانهم لايحفظون سور الصلاة . واما هو فقد ناله ما نالهم من هذا الخزى ثم ضوعف له الاذى بوصفه بالعجوز . . (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) وذلك لان

الذي لا يحفظ سور الصلاة وهو صغير يرجي له أن يلم بها عندما يكبر ، وأما « العجوز » الذي لا يحفظ سور الصلاة ويستظهرها فأمره أجل وأخطر وعاقبته لا محالة خسران مبین . ولم يخطر ببال يوسف انه قد فات على الشيخ الباقر الذي يحفظ سور الصلاة وربما غيرها من الطوال انه هو نفسه ليس في مأمن من نسيانها اما بفعل تقدم السن ونضوب معين الذاكرة او نتاج مكر الشيطان الذي أنسى يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام حوتها بمجمع البحرين (فاتخذ سبيله في البحر سرية) . . فقال الفتى : ( وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره ) ، ولو علم يوسف لانشد الشيخ حكمة القائل .

الم تر ان الفقر يُرجي له الغنى . . وان الغنى بخشى عليه من الفقر ؟  
لقد ادرك يوسف عظم الاذى المضاعف الذي انزله به الشيخ ووقر ذلك في صدره غيظاً مكتوماً يتحين الفرص المواتية للتعبير عنه بصورة تجلو عنه الاسى وتشفى نار الحرور . فصار الشيخ الباقر موضوع سخريته وانتقاده لفترة طويلة ، غير انه كان يتخير المجالس الآمنة بحذر مشوب بالخوف وابتغاء العافية حتى يطلق السانن العنان في الشيخ ناشراً له بين الناس من المثالب ما لم يخطر لنا على بال وما لم يكن في حقيقته الا نسيجاً متقن الطلقات من محض صنع الخيال . ولقد كان يوسف حكيماً محاذراً لا يلقى بنفسه الى التهلكة ، وقد ميزته هذه الحكمة وهذه الأناة المتدبرة لعواقب الامور بين زملائه . على ان تلك الحصاة العاصفة قد انقضت بسلام وان تركت في الانفس والخواطر جراحات واوراماً وكدمات . . ليس لها من برء وشفاء الا بتعاقب الايام . ومن عجب ان تلك الحصاة لم تنته بأى منا الى دفتر عم مبارك ، وربما كان ذلك لان الشيخ الباقر استاذ جديد على المدرسة لم يعلم بعد بأمر ذلك الدفتر الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة على التلاميذ الا احصاها (ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك احداً) اذ من المستبعد ان يكون قد علم بذلك الدفتر ولم يبلغ بنا اليه لان الغضب الذي كان مسيطراً عليه في تلك اللحظات يوحى بأنه يود ان لو سقط سقف الحجرة علينا



وسحقنا جميعاً ثم لم ينج ممن كان تحته الا هو بنفسه . ولكن الشئ الذى خفف من غضبة الشيخ قليلا هو ان تلميذاً رفع يده مشيراً بسبابته وهو يقول بعد ان رانت على الناس لحظات مميتة من الفرع والرهق والعناء الذى احده هياج الشيخ وتعليقاته الكاوية : يافندى انا حافظ . فقال له الشيخ وقد انفثا حنقه شيئاً قليلاً : اذاً اقرأ اذا كنت حافظاً . . . فقرأ ذلك التلميذ سورة من قصار المفصل دون ان يخطئ ، او يتلثم . فسكن غيظ الشيخ وتطامنت سورة غضبه وهدأت عواصف رياحه . . . وكانت الحصة قد شارفت نهايتها . . . وعندما صلصل الجرس معلناً نهايتها بالفعل كان ذلك بالنسبة لنا كنفخة الصور الثانية التى توذن بحياة الاموات وبعث من فى القبور (فاذا هم قيام ينظرون) وقد انجابت عنهم آثار الصعقة (واشرقت الارض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون) .

كان ذلك التلميذ الذى انقذ الموقف وافندى الارواح من ما كان يمكن ان تنزله بها غضبة الشيخ هو عبد الحميد عباس . . . فقد قرأ إحدى قصار السور قراءة صحيحة من الذاكرة وفاز برضا الشيخ المهتاج . ولكن عبد الحميد حظى في الوقت ذاته بحقنق التلاميذ واصبح عرضة لتعليقاتهم الساخرة . . «خلاص ياسيدنا» . . « خلاص يا مولانا » . . «يعنى الود فكى» . . «يعنى الود شيخ الاسلام» . . الى آخر القائمة التى صاغ مفرداتها رجال الربع الخراب وسرت بين التلاميذ سريان النار فى الهشيم . ولكن من حق عبد الحميد علينا ان نقر له بكمال ملكة الهدوء ومزية السيطرة على النفس والاعصاب وبالشجاعة ورباطه الجأش فى ذلك الموقف الصعب وتلك اللحظات المشحونة بالوعيد . فالسورة التى قرأها كانت فى متناول ذاكرة كل واحد من اولاد الفصل ، ولم تكن قراءته الصائبة لها تسميماً بمعجزة او امر مستحيل . ولكن الجو الإرهابى الذى اشاعه الشيخ فى الفصل بين التلاميذ قد أطار من الرؤوس كل مقدرة على التركيز وازهدب عنها كل تدبير يهدى الى الصواب . وحتى يوسف خضر «الصبى» الهادئ الوقور صاحب السكينة والفطنة والذكاء ، الذى كان في مصاف المتقدمين من اولاد الفصل فى الدروس ، والذى كان

مبرزاً في كل المواد ، طارت من رأسه السور القصار وتفلتت من صدره الآيات البيئات وذلك من فرط التشويش والضجيج الذي أحدثه الشيخ الباقر ثم من فرط مخاطبته له بقوله الحارق : حتى انت يا عجوز ! تلك القولة التي محت من ذاكرة يوسف ما كان قد بقى فيها من كلام الله ، فباء بما بآء به غيره ونطق بما نطق به سواه : يا فندى ما حافظ ، ونفسي ممتلئة حفيظة وحنقاً وغيظاً على هذا الشيخ الذي كأنما جئ به إلينا - في نظر يوسف - من وادي سقر ليسلكنا في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً من سوء العذاب المهين . واما عبد الحميد عباس فقد امتاز بهذا الحضور الذهني الوافر وهذا الهدوء والثبات المحمود الذي أورثه يقيناً وصفاءً ومكناً من تسميع سورة قصيرة ما كانت لتستعصى على غيره من اولاد الفصل لولا ذلك المناخ التوعدي المرعب الذي بسط الشيخ سلطانه علينا وأشاع مخاوفه بين ظهرانينا . وعلى كل فقد كان يوسف خضر اول من حمد لعبد الحميد بسالته واقدامه وصموده في وجه ذلك التحدى الجارف . فعبد الحميد كان يجلس الى جواره ، وهو الذي برهن للشيخ في نهاية المطاف ان من بين التلاميذ من يحفظ سور الصلاة ، وان من بينهم من بمقدوره الا يلقي بالأل للوعيد والدعاء بالثبور ، فعاد ذلك على يوسف وغيره بما يشبه حلوة الظفر من خلال مرارة طعم الهزيمة ، وبما يشبه شفاء الصدر في اوج حالات غيظ القلوب .

ولقد تعرض يوسف خضر كغيره من التلاميذ لبطش الشيخ ابي بكر والاستاذ الحاج هاشم والساعات لسان الاستاذ محمود الضرير الذي كان كثيراً ما يتخذنا هزواً ولكن يوسف كان صابراً موفوراً الاناة ، لاتفارق وجهه البسمة ولاتبو عليه الا علامات الرضا . . . وكان متزناً وقوراً لا يغالى في الضحك ولا يسرف في الثرثرة . . . وقليلاً ما كان الكبتل الالفة يضع اسمه بين ثلة المهرجلين في الفصل . فاذا كان منه ذلك سعى يوسف كغيره الى كنبه عم مبارك في نهاية اليوم الدراسي في خطوات ثابتة وجلد ظاهر وتلقى ما كتب عليه في صبر وانضباط . وكان مما نفعه انه «صبي» يطلع على العواقب من وراء ظهر الغيب فيلبس لكل حالة لبوسها . . . فقد كنت تسمع لوقع السوط

على عقبه فرقة تدل على انه ارتدى ما يخفف عنه الاذى . واما فى المعارك التى كانت تدور فى فناء المدرسة بين التلاميذ فلم يكن ليوسف فيها نشاط ظاهر او مبادرة جلية ، وان كان هو فى الحقيقة من وراء بعضها يضرم نيرانها ويحمى من اوارها ويعلى من السنة لهيبتها ، وخاصة عندما يرى بفطنته التى كانت تريبه ما لا يرى غيره ان الغلبة ستكون فيها لابناء الموردة وهو عموماً لا يحب الاعتداء على الاخرين ولا يسعى اليه ولا يتعلق بأسبابه ما امكنه ذلك . . بل هو كثيراً ما يصبر ويغفر ان اعتدى عليه ، لانه نو خلق حسن ولان ذلك من عزم الامور . ولكن اذا كان ذلك الاعتداء على مشهد من شيعته وعصبته المورداب فانه يخشى من المذمة والاثام « بالرمطة » وقبول الذل والخزيان ، فيبين ساعتها عن مقدرات على الردع والانتقام كانت خافية على غريمه من وراء مظهره الهادئ وطبيعته المسالمة . وحتى حينما يحتدم الشجار ويتراخى سلطان المنطق السليم والحوار العقلانى الهادئ ويفضى الامر الى تحكيم الايدى والارجل والرؤوس (البينة والشلوت والهد) فان يوسف كان - بعد ان يفقد الخيار الادنى - يلجأ ايضاً الى استخدام هذه الادوات والوسائل ذاتها فى حربه ، ولكنه لا يتعدها ، فهو لا يطلق لسانه فى الناس كما يفعل غيره ، لانه عفا لا ينطق هجراً « ولا يردح » بالهرطقات . . ذلك هو تعامل يوسف مع زملائه فى اقصى حالات العراك . اما بعض الاساتذة الذين يؤذونه وخاصة اولئك الذين ينادونه عجوزاً فقد كان له معهم شأن آخر . وذلك انه ينالهم من وراء ظهورهم بتعليقات ونعوت تشفى غيظه ولا تخرج فى مجملها عن دائرة السخرية البريئة والتشنيع المعتدل . . عامل قفطانه المشخت دا . . عامل طربوشه الزى الفشفاش دا . . عامل شلوخه العجيبة دى . . وهو قايل نفسه شنو يعنى ؟ . . الى غير ذلك من التعليقات التى لا تؤذى غيره فى كثير او قليل ، ولكنها تفرج عن نفسه الكروب وتعود عليه بقدر من السلوان وراحة البال !

ذلك هو يوسف خضر «الصبى» الذى كان درة من درر الثوانى فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى . لم تنته صلتى به حتى بعد ان افترقنا . فقد ولج هو ابواب

مدرسة وادى سيدنا الثانوية وذهبت انا فى طائفة من زملائى الاخرين الى مدرسة خور طقت الثانوية . ثم التقينا كثيراً فيما بعد فى الحياة ، فكنا ننعم باجتراح تلك الذكريات الخوالد والعود القهقرى الى سيرة تلك الازمان الغر والايام النواضر . ونحن لا نزال على وفائنا لتلك العهود الميمونة كلما التقينا او حمل التحايا من احدنا الى الاخر رسول .

## **عبد الحميد الدكشبرى :**

واما عبد الحميد عباس الذى كان يجلس جاراً ليوسف خضر فى الفصل فقد كان بعيد الموطن والمزاج عن عصابة الموردة . فهو من حى سوق الشجرة بام درمان وهو حى قريب من حى ابى روف الشهير ولا يفصل بينه وبين حى بيت المال الاكثر شهرة الا ذلك « الطريق الشاقى الترام » . لحق بنا عبد الحميد فى ام درمان الاميرية بأخرة بعد ان استقر والده القاضى الشرعى باسرته فى ام درمان. ولقد ربطتنى بعبد الحميد صداقة حميمة منذ ان صار من اولاد فصلنا واستمرت هذه الصداقة حميمة رغم افتراقنا بعد ام درمان الاميرية وكأنها على موعد مع وثوق العرى الذى لا انفصام له ، لانها قد توجت ورسخت وتأصلت بعد ازمان عندما اصهر شقيقى الاستاذ الصادق لهذه الاسرة الكريمة فتزوج شقيقة عبد الحميد واخوته الذين كان اكبرهم الاستاذ حسن عباس زميلاً لآخى الصادق . وبيننا وبينهم اليوم روضة غناء خضراء زاهية بالأزهار اليانعة التى يضوع منها بالعبير والشذى كل من الصديق ولينا ووليد ووائل وعبد الله والهادى . (ثم ريحانات لينا الثلاث الناضرات : دعد وسحر وريان ) هم ابناء شقيقى الصادق الذين يمت لهم عبد الحميد واخوته بالخؤولة وأمت لهم انا واخوتى بالعمومة . امهم سيدة فضلى من كرائم نساء البلاد واهلها قوم اخيار من اطيب منبت . . حفظهم الله جميعاً وتولاهم . عندما التقيت عبد الحميد فى ذلك الزمان لم أكن ادرى بالطبع ان صلتى به ستتوثق الى هذا الحد . ولكن من الدهش ان الصداقة بيننا نشأت منذ اول لقاء ، وكاننا على موعد مع هذا الذى كان . ولقد كان عبد الحميد تلميذاً مجداً يغلب عليه الحزم والصرامة ، بخلاف ما كان يميز اخاه عبد الحليم الذى كان يلينا فى الدفعة

فى ام درمان الاميرية . فعبد الحليم كان عفريتاً مشاغباً كثير الضحك والهزاء بالآخرين وهو اليوم مهندس مرموق وعالم محيط بمعارف مادته وفنونها ، ولكنه هو عبد الحليم الضاحك الساخر من كل شىء ، الذى يستطيع بروحه السمحة واستهائته بالصعاب ان يحول اخرج المواقف واشقها على النفس الى هزل معافى ينبت الضحك على ارض المساة ويزرع الامل فى قفار الأسى . تلك ملكة من ملكات عبد الحليم كانت تنبئ عنها حيويته الدافقة على ايام ام درمان الاميرية وصارت تنطق بها وتصدقها مناحيه فى الحياة وفلسفته فى مواجهة صعابها حتى بعد ان اصبح مهندساً « درس الموقف » وجمع علوم هذا الفن من اطرافها ، وصاحب مصنع تبعد آلاته ماهو جنة واقية من نيران الحر والهجير . واما عبد الحميد فقد سلك طريقاً غير هذا فصار فى اول أمره ضابط مطار ثم تدرج فى مراقبي هذا الفن حتى صار خبيراً متمكناً فاستعانت به دولة الامارات العربية الشقيقة فى اخص شؤونها سنين طوالاً . ولست ارتاب فى ان انضباط عبد الحميد المبكر كان ذا علاقة وطيدة بما صار اليه امره من بعد .

وانى لاذكر بوضوح اننا كنا فى مرة من المرات تلعب كرة القدم فى جامع الخليفة ، وكان معنا فى الميدان التلميذ عبد الله عبيد حسن الذى كان فى الدفعة التى تلتنا فى سننى الدراسة . وكنت قد اكتسبت خبرة لا بأس بها من اللعب بكرة الشراب . فراوغته كثيراً وافلت منه بالكرة وهو منبطح على الارض . فأغضبه ذلك وأثار حفيظته خاصة عندما ضج بعض المتفرجين من التلاميذ وغيرهم بالضحك ، وصاح بعضهم : امك . . . وقع . . . و هتف بعضهم : ابوك . . . حوتو . . . دس منو الكورة . . . بهدلو . . . الى غير ذلك . وعندما انتهت المباراة بفوزنا عليهم كان الحنق قد بلغ من صدر عبد الله عبيد حسن مبلغاً هائلاً واخذ منه مأخذاً عظيماً . . . ودفعه للانتقام . . . فتحرش بى داعياً الى المنازلة ، وهو قد كان يكن لى شيئاً من الدخن والضغينة من قبل وانا اعلم ذلك ، واعلم ان مبعثه هو أنى انصارى وهو ختمى . فما كنا لنتلقى إلتار بيننا جدل . وفى ذلك اليوم جعل عبد الله من « بهدلتى » له فى الكرة مدخلاً الى شجار طال شوقه

اليه وطال تطلعه لاجتلاب اسباب قوية له . وما كنت لألقى تحرشه بالنكوص ولا تعديه الا بمثله . فالتقطت القفاز واحتدم بيننا العراك وثار النقع والغبار ، وتجمع التلاميذ من حولنا منهم من يود فض النزاع وخاصة من كانوا فى الفصول المتقدمة ، ومنهم من كان شعاره « المدينة حرقتنى » واغنيته للشر وهو بعيد عنه : « حرب الديك سك الديك » وخاصة من كان منهم فى دفعة عبد الله عبيد حسن . وكان عبد الحميد معنا فى ذلك اليوم فتدخل فى ذلك الصراع الى جانبى فحملنا على عبد الله عبيد حملة رجل واحد وطرحناه ارضاً حتى كادت انفاسه ان تختنق . . لولا ان شبيبية وخليل أبو زيد واخرين من اساطين كرة القدم من اولاد السنة النهائية تدخلوا وفضوا ذلك النزاع . فأكبرت فى عبد الحميد شهامته ونجدته وانحيازه للحق ، وحفظت له ذلك الموقف وتلك المكرمة ، وزاد من تقديري له واكبارى لنصرته اياى انه من اصول ختمية وهو يعلم انى انصارى وان عيد الله عبيد ختمى . ولكنه رأى ان عبد الله عبيد كان معتدياً وان ذلك الاعتداء الظالم قد وقع على احد زملائه فى الفصل فأسرع لنجدته وفاءً لزمالة الفصل وانصافاً ونصرة لمظلوم لم يجترح فى حق ظالمه ذنباً سوى انه اعجزه فى كرة القدم وهلهله هلهله ويهدله بهدلة امام اعين الناس . ولقد كان بعض زملاء فصل عبد الله عبيد يتأهبون لمساندته ويتحفزون للانضمام له ولنصرته . فلما راوا اننى لم اكن وحدى وإن عبد الحميد عباس قد تصدى لهذا الحيف الذى احاق بى وهب لمواجهة مقترفه والبادئ به ، وان عبد الرحمن كنتبائى وهو صديق وفى لم يكن بعيداً عن موقع الشجار بل هو اخذ « يكفكف » أكمام جلابيته ايداناً بارتياحه الوشيك للحلبة واقفاً الى جانبى - لما رأوا ذلك قنعوا بعض الأنامل وماتوا بغيظهم وارتدعوا امام حزم عبد الحميد وكلماته القاطعة ، ونبراته المتوعدة التى كانت توحى بالبسالة والصمود . ومن عجب ان ذلك الشجار انتهى بى الى صداقة حميمة مع عبد الله عبيد حسن نفسه ، تواصلت وتمتنت اوامرنا الى هذا اليوم ، وان ذلك الصراع العقائدى او المذهبى بيننا قد أفضى بنا الى وفاق وطنى كبير . . . فالتقينا فى عام ١٩٧٦ فى سجن كوبر طوال اشهر عديدة ،

وكلنا فى الهم شرق . وهناك استعدنا ذكريات الماضى الحبيب فصولاً وغايات بعيدة المدى واحداثاً خالدة لاتنسى من بينها الشجارات البريئة واللقاءات الطوة العامرة على دروب الادب والشعر والتمثيل فى رحاب جمعية الثقافة . وما زال عبد الله عبيد صديقاً عزيزاً بالنسبة لى وان بعدت فيما بيننا الشقة وتباينت الديار . اما عبد الحميد فقد كان موقفه الشهم ذاك امراً بالغ الاثر فى نفسى فتوطدت بيننا وشائج الود والصداقه ، ونحن لا نزال نجتز هذه الذكريات الحبيبة كلما التقينا عرضاً أو اشتمل علينا مجلس انس او مناسبة اجتماعية من المناسبات .

كان عبد الحميد تلميذاً جاداً صادق العزم حسن المظهر أنيق الهيئة معتزلاً بنفسه فى غير ما لجاجة او سرف او ادعاء . يغلب عليه الحزم والجد ، وهو لا يطبق نكات الفاضل شريف لانها فى نظره سلسلة من السخافات والسذاجات التى لاتنتهى . ولذلك كان الفاضل يتجنبه ويقول لى عندما نفترق فى نهاية اليوم الدراسى : طبعاً الليلة ماشى مع صاحبك الثقيل دا بى درب الصور ! والصور هو السور . . وقد نفخت فيه ارادة المولى فاذا هو هذه العمائر الهائلة على امتداد البصر التى تشكل اليوم حى الملازمين المعروف فى امدرمان وقد فارق اهلها نوم الغفلة عن امتياز هذا الموقع فاذا هم قيام ينظرون . واما عبد الحميد فلم يكن ثقيلاً كما زعم الفاضل ، فقد فات عليه انه كان تلميذاً مرحاً ولكن فى اقتصاد ووقار ، ولعل هذا راجع الى نشأته ، او قل هو بعض خلائق ابيه . وفى الحقيقة لم يكن فى فصلنا ثقلاء على الاطلاق بل هم اخفه التلاميذ ظللاً وأنفساً وارواحا . ولقد اطلعت من ضمن ما اطلعت عليه فى ادب الثقلاء على هذه الابيات التى تقول :

سقط الثقيل من السفينة فى الدجى . . . فبكى عليه رفاقه وترحموا

حتى اذا طلع الصباح أتت به . . . نحو السفينة موجة تتقدم

قالت خنوه كما أتانى سالماً . . . لم ابتلعه لأنه لا يهضم

والابيات اصلا من شعر امير الشعراء احمد شوقى وقد استبدل احد الظرفاء كلمة

الحمار وهى الاصل فى النص الشعرى بكلمة الثقيل .

فهل من العدل ان يظن بعبد الحميد مجرد الاقتراب من هذا الوصف ؟ فهذه احدى تجاوزات الفاضل التي كثيراً ما « يلحسها » اذا حملت عليه او راي منك جفاء قد يعنى رفضك لما يقول . . ومن الانصاف لعبد الحميد انه لم يكن يصف نكات الفاضل شريف بالبياحة وان كانت تقاطيع وجهه تنطق باعتقاده الجازم ببياحتها الا ان الحياء يعقد لسانه فلا يقول هذه القناعة فى كلمات ، ثم هو لم يصف الفاضل ابدأ بالثقل عموماً او بثقل الدم خصوصاً او بثقل النكات على اخص الخصوص . وفى هذا من عفة اللسان ما فيه ، الا ان التعابير التي ترتسم على الوجه قد لا يكون للانسان تحكم كامل فيها . ويقيني ان الفاضل كان يتفهم ذلك ويكبر عبد الحميد من اجله وان كانت الممارسة مانعة له من قول الحق الصراح .

واهم ما كان يميز عبد الحميد هو الانضباط فى كل شئ . . فى اللبس والمواعيد والدروس واداء كل ما يطلب منه اداؤه على وجه الدقة . واية ذلك ان زملاءه انتخبوه رئيساً لجمعية الصحة فى المدرسة ، فكننت ترى عبد الحميد فى الصباح الباكر وهو يقود افراد جمعيته يجوب بهم فناء المدرسة المترامى الاطراف ، يأمرهم فيطيعون ممثلين فى نظام بديع . يلتقطون الاوراق ويميطون عن وجه الساحة ما تنثر عليها من اوشاب ، فلا ندخل الفصول الا وفناء المدرسة على قدر من النظافة والنسق عظيم . ولقد كان انتخاب عبد الحميد انتخاباً حراً مباشراً لرئاسة جمعية الصحة هو احد مظاهر الحرية والحياة الديمقراطية فى المدرسة ، فهو لم يكن بالتعيين ولا بالترهيب ولا بالترغيب ، وانما كان بالاقتراع السرى الحر . لقد عرفت الحياة الطلابية فى تلك العهود السحيقة - وحتى فى المدارس الوسطى - مذاق الحرية ونعمة امتلاك حق الاختيار دون تدخل من سلطات الادارة المدرسية او غيرها . ولقد انتخب كاتب هذه السطور فى تلك الايام رئيساً لجمعية الثقافة الطلابية - ومن ثم رئيساً أيضاً للجمعية الادبية التى هى بعض قوام جمعية الثقافة - وكان ذلك فى غيبته ! وستعرض لهذا



الامر في مكانه ان شاء الله . اما عبد الحميد عباس فقد تمتع بثقة زملائه فيما ولوه من شؤونهم عن جدارة واستحقاق ، فاجاد فن قيادة جمعية الصحة وابان عن مقدرات عملية هائلة ، مما رفع من شأنه بين زملائه واساتذته وصار به علماً من اعلام التلاميذ . وقد بدأ عبد الحميد مع الشيخ ابي بكر كما بدأ غيره . . ولداً مهذباً ، ومرآة للبيت ، ولداً مؤدباً . . يحفظ القرآن الى آخر مفردات قاموس الشيخ الاشادية الاطرائية . . ثم انتهى الى ما انتهى اليه زملاؤه : ولد ما نافع . . لا يحفظ القرآن . . ماعندوا اخلاق . . ايضاً الى آخر النقائص التي حفل بها قاموس الشيخ من وجهه الآخر ، فدخل عبد الحميد زمرة « صفر من اطناشر » واحتل مكانه اللائق المرموق بين « هؤلاء قليلو الادب » . فقد كان الشيخ مثل الدنيا تماماً لا تشرق عليك شمسها بصحو ووهج الا وهي أخذة بشحوب وامتقاع ثم زوال . ولكننا كنا نحمد لعبد الحميد انه اخرجنا من ورطتنا مع الشيخ الباقر رغم ان بعضنا قد شق عليهم ان يعترفوا له بهذا الفضل المبين . وذلك لان السورة القصيرة التي تلاها من ذاكرته عندما « تبكم » غيره وارتج عليهم لم تكن بخافية على الناس ولم تكن بالامر المستحيل او العصي ، وانما اخرجته من ذلك الموقف العصيب المرعب رباطة جأشه ومقدرته على التركيز في اوقات الهلع والهرج واطباق الغيوم وخرس الالسنه ، فمن نافلة القول ومن باب الانصاف ان يحمد له ذلك ، ويقر له به ، ويعتبر حسنة ظاهرة من حسناته لا سبيل الى انكارها او التقليل من شأنها . ولو ان الشيخ الباقر لم يعثر اخيراً في عبد الحميد على ما هداً كثيراً من هياجه وشدة انفعاله لا وصلت اعقا بنا سياط حارقة ولفرت ظهورنا لبعات مميتة من فصيلة ام دلنوم . فحق لعبد الحميد ان يباهى بثباته الذي اخرجنا جميعاً من ذلك الضيق الخائق ، وتوجب علينا ان ندين له بذلك المعروف .

وأما الاستاذ فرح الذي كان يعلمنا اللغة الانجليزية في السنة الثالثة وبعض الرابعة فلم يكن يرضي منا إلا بالكمال وهو امر عصي صعب المنال . وفي ذات مرة فاجأنا كعادته بامتحان استهزاء للكلمات الانجليزية (سبلنق - Spelling) وعندما عاد بعد

يومين بنتائج الاختبار كان من ورائه عم محمود وعم عبد العزيز ، وكنا ندعوها «منكر ونكير » كل منهما فى بزته الكاكي وطاقيّة او طربوش عليه عمامة كأنها خلقت مع رأسه او كأنه نبت من تحتها. ومهمتهما حمل التلميذ احدهما من اليدين والاخر من القدمين ليسبح جسده فى الهواء ، بصره ينظر الى الارض وعقبه الى اعلى وذلك لإ نزال عقوبة الجلد عليه بسوط كأنما انتشرت على طوله مخالب ونوائب وأسنان. ولست انسى ذلك اليوم بحال . فقد كان التلميذ الوحيد الذى نال مائة درجة من مائة هو عبد الحميد عباس دون سواه ، وهو الوحيد الذى نجا من العقوبة فى ذلك اليوم . وكان الاستاذ فرح قد قال لنا من قبل ان كل غلطة بجلدة ، ولكنه فى ذلك اليوم وحد العقوبة فصارت عشر جلدات لكل من قلت حصيلته عن النمرة الكاملة . وانى لاذكركم كنت حانقاً عليه ، فقد نلت الدرجة الثانية وهى تسع وتسعون من مائة ولكن جزائى كان مثل غيرى ممن ترواح ما نالوا من درجات بين التسعين والصفراء ولشدة حنقى طلبت الا يحملنى عم محمود وعم عبد العزيز واستقليت على الكنبه لالتقى عشر جلدات دون ان احرك ساكناً او انبس بكلمة . حتى قال لى الاستاذ فرح بعد الجلدة العاشرة قوم . . انت اصلك حجر ؟ وما كنت حجراً كما قال ، ولكنى استشعرت ظلماً وضيماً سافرت معه مشاعرى واحاسيسى بعيداً عما كان ينهال على جسدى من بلاء :

وما زلت طوداً لا تزول مناكبي . . الى ان بدت للضيم فى زلازل

مقلقت بالهم الذى قلقل الحشا . . قلاقل عيس كلهن قلاقل

وما كانت هذه العيس الا من بنات الخواطر وابتداعات الخيال ! كانت الجلدات مؤلمة حقاً ولم اكن ارتدى لها لبوس الوقاية كما كان يفعل غيرى ، ولكن حنقى على الاستاذ وشعورى بمرارة الظلم جعلانى اتحمل السياط وكأنى فتى فى حلقة « بطان » يضرم أوراه ثلة من الحسنات على « السباته » وقد احطن بالعروس وهى كعرجون لدن فى مهب ريح رخاء طيبة تتقن رقص الحمامة ، والنسوة قد انطلقت السننهن بالأهازيج والزغاريد والذى المنى هو اننى عوملت كما عومل نفر من تلاميذ

فصلنا هم عمرو وزيد وعبيد وبعض اهل الحزم والعزم وغيرهم ممن كانت درجاتي لا تقارن بما نالوا من درجات بأى حال من الاحوال . وكلهم حمله العمان محمود وعبد العزيز ، واكثرهم بلغ منه الجزع ابعد مبلغ . « يا فندى عليك الله . » . يا فندى بالراحة ، « الى اخر تلك الرجاءات والاستغاثات التي لم تكن تجدي فتيلاً . وبالطبع خرج عبد الحميد من تلك المحنة الجماعية ظافراً منتصراً ، ولكنه باء بغضب من كثير من زملائه ، مبعثه ضغن يفتقر الى المنطق والعدالة والانصاف . غير ان ذلك لم يقده فيما كان يربطنى بعبد الحميد من علائق المودة ، خاصة عندما ابدى تعاطفه معى فى رقة صادقة ومجاملة سمحة وحقيقية . وقد سمعت بأذنى بعض الخبثاء وهم يتوعدون عبد الحميد ، وقد تنادوا بالفعل من بعد وازمعو ان « يربطوا الدرب » عليه بغية الايقاع به وتأديبه على حد قولهم . ولكن عبد الكريم زجرهم ونهاهم عن ذلك وتوعدهم ان هم اقدموا على هذه الفعلة بالثبور وعظام الامور . ولعله قد فعل ذلك وفاءً لعلاقته السكنية الجغرافية بعبد الحميد ، فلا يفصل بين بيت المال حيث دار عبد الكريم وبين سوق الشجرة حيث تقطن اسرة عبد الحميد الا الشارع الذى تشقه جيئةً وذهوياً مركبات الترام ! ولما راي اولئك الخبثاء موقف عبد الكريم وتصميمه وايقنوا بمساندتى واخرين لا يستهان بهم لهذا الموقف ، انكروا ما كانوا قد تهامسوا به وصرفوا النظر عما كانوا قد بيتوا عليه النية . وربما ساعد على ذلك انى - وقد كنت اكثرهم تعرضاً للظلم - قد انتصرت لعبد الحميد واعلنت ان ما نعم به من نجاة وسلامة كان ظفراً مستحقاً قد ناله عبد الحميد بجدارة تدعو الى تهنئته والاشادة به بدلاً من الضيق به والتأمر عليه . لقد كانوا يؤملون استدراجى الى جانبهم مراهنين على انى - بدافع من الحنق والغیظ والاحساس بالحيف والضميم - سأشاركهم خبث نواياهم وسوء طواياهم . . فلما راوا ذلك منى كفوا عنه شرورهم واكتفوا بتعليقات هامسة : يعنى الود خواجة . . يعنى الود دكشبرى . . يعنى الود حافظ الكمبانيون ! الى غير ذلك من أفانين السخرية التى لا تغنى من الحق شيئاً ولا تزيد نيران الغیظ إلا اشتعالاً . وهكذا

خرج عبد الحميد من تلك الممعة سالماً معافى متنعماً بظفره ، فلم يكدر صفوه الا بعض كلمات معادية متوعدة جهريها فتحى ابراهيم وصفى والتجاني الطاهر ، وسرعان ما افترق التلاميذ كل صوب داره . ورغم ان عبد الحميد لم يكن يخشى بأس احد منهم الا انه كان من الممكن ان يتعرض الى علقه ساخنة دون ذنب جناه لولا حزم عبد الكريم ووقوفى بجانبه معضداً ، فقد كانت مساندة عبد الكريم تعنى ايضاً مساندة الكبتل ومكى برعى ومحجوب ، واما وقوفى انا لجانب عبد الحميد فقد كان يعنى انحياز عبد الرحمن كنتبائى والنفراوى واوولاد ود نوبواوى الذين هم رهطى ، فاذا اتحد هاتان القوتان وانتصرتا لعبد الحميد فقد اصبح فى ظل حماية قادرة لا قبل لمجموعة الموردة او غيرها بها .

لقد كان عبد الحميد عباس تلميذاً حصيماً لا يملكه الغرور ان اصاب نصراً ولا تفتت فى عضده الهزيمة اذا قارف اخفاقاً . وهو يضحك لحركات الشيخ أبى بكر ويحبه مثل بقية زملائه ، ولكنه لا يركن الى رخاء رياح السلام ولا يغتر بطلاوة نسائم الفجر حينما تكون السماء مسفرة عن بهاء وشفاء على انجلاء الغيوم . بل يجهد كى يعد نفسه للمكاره وطوارقها التى قد تأتى من دون مقدمات فيدرك بذلك كثيراً مما فات على بعض اقرانه ، رغم انه يرزأ احياناً بما لم يكن فى حسابانه وقد يؤخذ على غرة منه فلا يسعه ما بذل من جهد ولا يستنقذه ما يدل دلالة واضحة على هذا الجهد المبذول من محاولات فيها من الصواب ما يستحق ان يوضع له فى كفة ميزانه عندما تطفف الموازين الاخرى او تخف فيها كفة الحسنات . ولقد رايتته وهو يكاد يبكى يوم ان سقط احمد الحبيب من عين الشيخ ابى بكر تلك السقطة المدوية ولسان حاله يقول :

لما رايت السيف جندل جعفرأ . . . ونادى مناد للخليفة فى يحيى

بكيت على الدنيا وزاد تأسفى . . . عليهم وقلت الآن لاتنفع الدنيا

واذا كان جعفر هذا هو احمد الحبيب فلقد استيقن عبد الحميد ان يحيى لن يكون سوى الكبتل نفسه إذ لم يبق بعد احمد فى نظر الشيخ الا اياه . وقد صدق ظن

عبد الحميد فسرعان ما تهاوى الكبتل أيضاً الى ذات القرار ، فما فائدة البكاء على الدنيا وزيادة التأسف وقد بان لك صدق قول الشاعر «الآن لاتنفع الدنيا» رغم انه جاء متأخراً؟ وكان غيره اكثر لطفاً حين قال : « انا الغريق فما خوفى من البلل » ؟ ولكن عبد الحميد كان فتى ذا عزيمة صادقة لايركن الى مثل هذا التسليم ولايرضى بما دون بلوغ المعالى . واية ذلك انه كان يحتفظ بروح عالية فى جميع الظروف ، ولو واتته معارفه فى تلك المراحل المبكرة لعزى كلاً من الكبتل واحمد الحبيب بقول الى الطيب :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا . . . فلما دهنتى لم تزدنى بها علما

ورغم ان احمد الحبيب قد حسم موقفه بعد تلك الواقعة حسماً فغادر المدرسة غير أسف على فراقها متحملاً فى سبيل كرامته الم مفارقة الاتراب والاقران واللذات الا ان الكبتل « ابتلع المرمطة » التى تعرض لها وصبر على السوء الذى حاق به ووضع كبرياء نفسه فى جيب جلابينه وكاد ان ينشد على عبد الحميد الذى اساه بعواطفه الصادقة ، وعلى مسامع الاخرين من زملائه هذا البيت اليائس من شعر الاعور الشنى :

لقد أصبحت لا أحتاج فيما . . . يكون من الأمور الى السؤال !

## الحبيب . . ونكبة البرامكة :

كان احمد الحبيب حسين ملاكاً من الملائكة . . فهو تلميذ يسيل رقة ووداعة وعذوبة . وهو من بيت المال ، ولذا فهو اقليمياً فى حماية عبد الكريم . انه تلميذ هادئ مترن حسن الصورة والهندام ، كثير الصمت مهتم بدروسه اعظم اهتمام . وهو ركن هام - ولعله اهم ركن - من اركان المثلث الذى نال اعجاب الشيخ ابي بكر . فالشيخ يبدأ الحصاة بالثناء العاطر على الحبيب وعكود والدرديرى . . ويختم الحصاة ايضاً بالاشادة بهم والثناء عليهم وبعنتهم بأكرم النعوت . وكلهم كان - من قبل ان تدور عليهم الدوائر - من اهل « اطناشر من اطناشر وفتح الله عليك وعلى والديك . الحبيب لا يقرأ - الحبيب يحفظ القران . . الحبيب ولد ممتاز . . ولد مهذب . . مرآة البيت . . يا سلام على الحبيب . . » تلك هى بعض مقولات الشيخ فى حقه وبعض دلائل اعجابه به . وفى

الحقيقة كان احمد الحبيب كذلك . فهو تلميذ مهذب بالفعل وهو نابِه ومجد ، لا يميل الى العبث والثرثرة وانما يجد في الامور ويبدى من صادق العزم والاجتهاد ما يرفع من شأنه بين الناس . وقد حق لاساتذته ان يفخروا به ويعجبوا . . وقد كان من القلة النادرة الذين لا ينالهم الاستاذ الحاج هاشم بسوء من يده او لسانه ، وكفى بذلك تزكية للتلميذ في ذلك الزمان ! لان الذين نجوا من لسان الاستاذ الحاج هاشم ومن يده كانوا هم السعداء ، وقليل ما هم ، وكان في طليعتهم احمد الحبيب عن جدارة واستحقاق . وكان احمد الحبيب كريماً مع زملائه يدعو بعضهم في احيان كثيرة الى طبلية عم محمدين ، ثم تحول بينه وبين دعوتهم الى التولية كثرتهم . وحتى الكبتل الذي ألى على نفسه ان يورد كل احد موارد المهرجلين في الفصل لم يسعه الا ان يحترم احمد الحبيب ويكف عنه شروره ، فلست اذكر انه ضم اسمه الى قائمة اسماء هؤلاء المشاغبين مرة واحدة . وهكذا ظل احمد ينعم باحترام اقرانه واساتذته . غير ان السعادة لاتدوم ، ورغد العيش كثيراً ما يغر الانسان ، وماهى الا اوقات قصار حتى تقلب له الدنيا ظهر المجن وتبدى له ما كان قد خفى عليه من صفحة السوء ، ويأتيه بالانبياء من لم يزود . فلقد تعرض احمد الحبيب الى حدثين نغصا عليه الحياة واشقياها كثيراً . . اولهما تلقيه خطاباً مسيئاً من أحد التلاميذ دون توقيع ، وما تبع ذلك من أحداث اهتزت لها اركان ام درمان الاميرية اهتزازاً . . وثانيهما سقوطه المفاجئ من نظر الشيخ ابي بكر دون مقدمات تذكر في مأساة كانت اشبه بنكبة البرامكة .

اما ذلك الخطاب الاثم الذي تلقاه احمد فقد ساءه كثيراً واحزنه اشد الحزن ، وظل احمد محتاراً في امره حتى هداه تفكيره الى اطلاع الاستاذ عثمان على عليه . وذلك ان الاستاذ عثمان كان يدرسنا اللغة العربية وهو ابو الفصل وكنا ساعتها في السنة الثانية . وكان الاستاذ عثمان يعامل تلاميذه معاملة كريمة جعلتهم يجلونه ويحترمونه ويحبونه ويتشوقون الى حصته . لقد كان الاستاذ عثمان شاباً رقيق المشاعر كريم الخلق طيب النفس ، لا يؤذى احداً ولا يقسو ولا ينطق هجراً من القول ولا فحشاً . بل

كان يحرص على تعليمنا - ونحن في تلك المرحلة المبكرة - قواعد الشعر وابتداع القوافي وفنون تذوق حلوات البيان . فأحبه تلاميذه ووقروه وارتضوه قدوة لهم وإماماً في المعارف والعلوم . وعندما اطلعه احمد الحبيب على ذلك الخطاب المنكر حزن الاستاذ عثمان حزناً شديداً وود لو انه يعرف كاتب الخطاب ليثأر لتلميذه احمد منه ويقتص له ويرضيه . ثم كان من الامر ما كان مما قد روينا احداثه في غير هذا السياق ، تلك الاحداث التي صار بطلها المقدم الاستاذ محمود بلال رزق ناظر المدرسة في ذلك الحين . ولقد خرج الاستاذ عثمان من هذه الواقعة - بعد ان عرف الجاني - حزناً باكياً شقى الخواطر والنفس والوجدان . فكان يأتى الى الفصل فيجلس على كرسية واثار الآسى بادية على وجهه ظاهرة جليلة ، فلا يجد من نفسه رغبة في القاء الدرس ولا يستشعر من نفسه نزوعاً الي الحديث . يجلس كئيباً يحدق في المدى البعيد يخترق نوافذ الغرفة بعينين ساهمتين تحمقان في افاق المدى من وراء نظارة داكنة يخفى خلفها الواناً من الشجون واطيافاً من الآسى . وظل على تلك الحال اسابيع طوالاً لا ينبس بكلمة ولا يبوح بحديث . . حتى اذا تعاقبت الايام رواكض سراعاً مغدمات بأحداث واحداث ، طوت في ثناياها بقايا ذلك الآسى ، وجرفت في خضمها تلك التباريح ، وعادت الى استاذنا حيويته الدافقة بعد ان ظننا انها لن تعود ، وطالعتنا من وجهه الصبوح ابتسامته الحانية بعد ان حسبنا انها قد فارقت الى غير رجعة . فأنشأ بعد حين يجوب بنا رياض البيان ويمخر بنا عباب القوافي والنثر والرجز والقصيد ، يحملنا على متن سفائن من كرائم فلك الشروح والتبيين ويحط بنا على قمم باسقات من دوحات المعاني طلعتها نضيد . اما احمد الحبيب فقد لقت تلك المحنة على وجهه البسام ظلالاً غائمة من الكابة والآسى والشروود . فهو وان كان قسطاً في مرجه لا يجاوز حدود الوقار ، الا انه كان قبل تلك الواقعة يخالط زملاءه بوجه مشرق وضاح ويجاريهم في عبثهم البرئ بروح سمحة موفورة الحياء ... فلما كان ذلك الذي كان صار احمد ساهماً يحدق فيما لا نرى ويبصر ما لا نبصر . اذا تحدثت اليه أجابك في اقتضاب

يقتضيه الواجب ثم أشاح بوجهه عنك فى حياء وأدب . لا يزجرك لسانه ولا ترتفع نحوك يده ، ولكن تباعد بينك وبينه نفرة رانت على سمته وحببت اليه العزلة واجتتاب الناس . غير انه كان واجداً شيئاً من السلوى فيما خصه به الشيخ ابوبكر من تقريب وثناء وما افرده به من مدح واطراء كاد ان يؤلب عليه اقرانه لولا انهم احسوا نحوه بعطف حقيقى لما مسه من اذى وما لحق بكبيرائه من جرح اليم . فغضوا الطرف عما كان يمكن ان يثير حفيظتهم عليه . فهم يغبطونه لحظوته عند الشيخ ، ولكنهم لا يحملون له بين جوانحهم اصراً ولا ضغناً ولا قلى ، يحبونه لانه جدير بحبهم ويكبرونه لانه مستحق لاكبار اساتذته وثناءهم عليه . ولقد علم جميع الاساتذة بما تعرض له احمد وهو المسالم الذى لا يؤذى احداً ، فاحسنوا مواساته بما حفوه به من احترام . فكان الاستاذ غزالى السراج لا ينتهره ان هو جانب الصواب كما ينتهر الاخرين . ولا يعنفه كما يعنفهم ولا يتوعده بالنكير والثبور كما يفعل مع غيره من التلاميذ . غير ان احمد لم يسلم من دفتر عم مبارك تماماً فان كنبته مثل نار جهنم ما من احد من التلاميذ الا هو واردها وصادر عنها ، وان تباعدت مواقيت الورد واختلفت هيئات الصدور ، وان قلّ تعاقب الورد او كثر . غير ان احمد الحبيب لم يقم وزناً كبيراً لذلك ، فهى بالنسبة له زورات متباعدة ، وعدد جلداتها لا يتعدى الثلاث او الاربع فى كل مرة وهو كغيره قد اعد لمثل هذه الحال لبوسها مما يثقل الاعجاز ويحدث عند وقوع السوط عليها فرقة تنبئ عن حقيقة وسائل الحيلة والاحترار وتشى بسر اللبد المستأزرة على الاعقاب . ولقد كان أحمد فى مأمن من مكر الشيخ ابى بكر ، اذ كيف يخشى من بأس الشيخ من يردد الشيخ اسمه فى اعجاب ومدح وتقريظ كلما دخل الفصل وانس بطلعة الحبيب؟ وكيف يظن غير الظن الحسن ولا يرجو وينتظر غير الخير من كان الشيخ يدعوه تلميذاً مثالياً؟ ولو أمعن احمد النظر فى امره ونفذ بنور بصيرته الى دخيلة نفس الشيخ لايقن ان الحذر قد يؤتى من مأمنه ، وان اطراء الشيخ لا يعتد به ، وان رضاه لا يركن اليه الاغافل غارق فى نوم الغفلة ، ولا يسعد به الا من ذهل عن حقيقة أمر الشيخ وسرعة



تقلب مزاجه، علم ذلك من علمه وغاب ذلك عن غاب عنه. وكان الاجدر  
باحمد ان يتعظ بسقطة كل من قاسم ابوعكر وعبدالرحمن الدرديري فقد  
كان كلاهما مكان اعجاب الشيخ فيما يبدو ولكنهما سرعان ما سقطا من  
نظره دون جريرة منهما تذكر سوى انه فاجأهما وقد بيت النية على ذلك  
- كلاً في ميقات معين - وطلب اليهما قراءة سور بعينها من الذاكرة  
دون انذار سابق يحملهما على الإستعداد. وكان كل منهما قد ركن الى  
اطراء الشيخ الذي كان ينشره عليه ويكلله به من قبل. فغرهما ذلك  
واغراهما بالتفريط في المداومة على الحفظ. ولو ان احمد الحبيب وعي  
الدرس الذي طرحه امامه سقوطهما في نظر الشيخ - او قل اسقاط  
الشيخ لهما من شاق عـل - ثم بطشه بهما وتندرته عليهما واصداره  
وامره الناجزة للالفة الكبتل ليضعها ضمن القائمة المعروفة التي كانت  
اكثر يتناقد انتهت اليها في ذلك الوقت - لو انه وعي ذلك الدرس لاعد  
لكل شيء عدته. ولكنها الغفلة المرديّة. وهي في ذات الوقت الخطأ  
والنسيان اللذان رفعا عن امة محمد صلى الله عليه وسلم وابى الشيخ  
الا ان يظلا - في مثل هذه المواقف - اثماً يستحق عليه مقترفهما  
العقوبة التي تشتمل على الجلد والتعزير. اما الجلد فهو في عرف  
الشيخ طائفة من "كفوف" ختامها "ام دلدوم" ... وربما بعض جلدات عند  
عم مبارك آخر النهار. واما التعزير فقد كان في قانون عقوباته سخرية  
ثم الحاقاً في آخر الامر بقائمة "هؤلاء قليلو الادب" وهي عقوبات  
تطهيرية يبتغى الشيخ من وراثتها هدايتك وحملك على الجادة. والفرق  
ان الحدود تدرأ بالشبهات ولا يصح تطبيقها على اساس الظنة  
وحدها! وهكذا جاء الحدث الثاني الذي نغمس على احمد الحبيب حياته  
واشقاها. فقد كان ذلك اليوم الذي دخل فيه الشيخ ابوبكر الفصل  
وهو ينوى التحرش بأحمد الحبيب يوماً عبوساً قمطريراً  
بالنسبة لاحمد. بدأه الشيخ بكلماته المألوفة المعروفة: الحبيب  
ولد مؤدب، ولد مهذب، الولد مرأة البيت... الى آخر سلسلة  
تعابيره الاطرائية. ولعل من سوء حظ احمد في ذاك الصباح انه كان قد  
غير مكان جلوسه مرتداً الى تخوم الصنفوف الخلفية، مقترباً  
بصورة واضحة من مواطن الربع الخراب، تلك المرايض التي كان

الشيخ يحسب - وهو مصيب في كثير من توجهاته - انها مصدر الفوضى ومنابت الشوشرة والازعاج . وزاد من شكوك الشيخ ان احمد الحبيب كان وجهه في ذلك الصباح يشرق بمشروع ابتسامة كبرى لست أرتاب في أن الشيخ قد ظن أنها استجابة صريحة لهمس نابح من الربيع الخراب قصد منه النيل من الشيخ أو الاستهانة بحصته على أقل تقدير . وعلى كل فبعد المقدمات المألوفة طلب الشيخ من احمد الحبيب جهرة وعياناً بياناً أن « يسمع » سورة التكوير . فتكورت الغصة في حلق أحمد وطار لبه وارتج عليه . وذلك لأنه كان من قبل في مأمن من مغبة التسميع لأنه كلما أراد أن يقرأ صاح بنا الشيخ : لا ... الحبيب لا يقرأ ... الحبيب ولد يحفظ القران . . الحبيب ولد مهذب . . . الفة . . الحبيب ادو اطناشر من اطناشر واكتب عليه فتح الله عليك وعلى والديك . . لقد ألف احمد هذا التجاوز والاعفاء كما الفه من قبله كثيرون فأرداهم الفهم الذي الفوا ولم ينقذهم من مغبة غفلتهم شئ ولم ينفعهم ما كان الشيخ يهيل عليهم من مدح واطراء وما كان يمنيهم به من أمان . ويقيني ان الشيخ قد سر سروراً بالغاً لما رأى من ارتباك احمد الحبيب وحيرته فقد اتت مفاجأته التي فاجأه بها اكلها الذي يريد . وما هو ذا الحبيب الذي ظن انه ناجٍ يقع في ذات الشراك التي طالما اهاضت أجنحة غيره وكسرت قوادمهم ، فما الذي هو فاعل يا ترى ؟ والشيخ صاحب مزاج غريب فهو يلتذ ايما التذاذ عندما يطرح عليك سؤالاً تعييك الاجابة عليه وان كنت أحب احبائه وانجب تلامذته فيدفن رقبتة بين كتفيه ويبسط يديه ويباعد بينهما وكأنه يريد ان يسبح في الهواء قبل ان ينقض عليك . . . ولقد تلعنم احمد الحبيب طويلاً ولم يأت بشئ مما طلب منه ، ولكنه في نهاية الامر وطن نفسه على مجابهة ما لا بد ان يكون ، وايقن الا ملجأ من الله الا اليه وان « الكاتل الله والحايبى الله » فتوكل على ربه وقال للشيخ في نبرة يأسه ملأى بالبرم والقنوط : يا فندى ما حافظها !وتلك كانت هي غاية الشيخ ، وذلك كان هو مرماه ومبتغاه.فصمت هنيهة يستلهم قاموسه الماحق ليتزود بالكلمات المناسبة وصار يدب نحو احمد الحبيب بذات خطاه الوثيدة المفزعة وهو يتجمع

وينفرط ، ويتكور ويعتدل ويتقاصر ويتناول حتى اذا بلغ احمد حيث يجلس اخذ يردد مقولاته فى سخرية بالغة وهمس ملئ بالوعيد : يافندى ما حافظها .. يافندى ما حافظها .. ثم أخذ صوته يعلو شيئاً فشيئاً متناغماً مع تنامى سورة غضبه وتزايد درجة انفعاله .. حتى قال لأحمد بصوت لم يدع مكاناً لريبة فيما سيحدث بعد قليل : اوقف على حيلك . فوقف أحمد وقد رانت على قسماط وجهه دهشة هادئة ووشى مظهره بتماسك واتزان ، واقترب منه الشيخ قرباً مقبلاً فأسرع بعد أن كان يدب دبيب الحية الرقطاء ، واستطالت رقبتة بعد أن كانت قد اندغمت فى مدخل قفصه الصدرى وانصبت على مسامع احمد من فمه ألسنه لهب حامية من السخرية والشتم والسباب : يافندى ما حافظ .. أى قول كدى .. أى قول ما حافظ يا كلب .. الحبيب ولد ما نافع .. الحبيب لا يحفظ القرآن ... الحبيب ولد مشاغب .. الحبيب ولد تربيتو ناقصة .. الولد مرأة البيت ( وهذا التعبير الأخير من الأضداد ، فهو يصلح عند الشيخ للاستعمال فى حالتى المدح والذم والفيصل هو السياق ، ولكن التعبير واحد ، فاعجب للبيت والمرأة على السواء وكيف فعل بهما الشيخ الافاعيل ! ) وانهاالت يماناه على أحمد بصفحة كاد أن يسقط على أثرها على الأرض ، غير أنه تماك نفسه واستجمع ما بقى له من شجاعة وقوى ، وانتصب واقفاً بعد ترنح . فتعاقبت عليه صفعات الشيخ وتوالت عليه مفردات سبابه واكفة تتعالى وتتصاعد فى نسق مع « الكفوف » حارق ومميت ، حتى خشينا على سلامة أحمد وانتابنا فزع لم نتعرض لمثلثه من قبل . ولكن أحمد كان صامداً فى وجه الشيخ ولم يفه بكلمة .. فقد رأى أن الاستسلام لعقاب الاستاذ واجب تقتضيه تعاليم العصر وأداب التلمذة . ذلك كان مبلغ علمنا على تلك العهود . لايجوز الاعتراض على الاستاذ مهما أنزل بك من عقوبة ومهما سامك من اهانة واذلال وخسف فقد كنا جيل خلائق الخلوة والمسجد حيث يؤتى بالطفل إلى الفكى ووالد الطفل يقول : « ياسيدنا ليك اللحم ولينا العضم » . ورغم أن الشيخ ابابكر قد أكل لحم أحمد أكلاً بلسانه وقطعهُ تقطيعاً بيديه إلا أنه كاد أن يهشم منه « العضم » أيضاً ويسحقه سحقاً .

غير أن أحمد الحبيب لم يجرق على مجرد الاحتجاج ، وإنما طفق يحرك يديه من موضع إلى موضع حذر أن تصاب مقاتله . يا الهى ! هل كانت هذه الطاعة وذلك الاستسلام ظلاً من ظلال التأثر بتقاليد صوفية ؟ وهل ذنب الحوار دائماً أكبر من تجاوزات الشيخ ؟ اليس للشيخ حدود يجب أن تراعى فى حالة عظم نقمته وتمثيله بالحوار ؟ فقد كان أحمد أشبه بالحوار المطيع الذى يغض الطرف عن كل ما يأتى به الشيخ وإن كان هجراً من القول والفعل ونكراً .. بل هو كان أشبه بالميت بين يدي الغاسل . غير أن الميت لا حراك له ، أما الحى فهو يتنفس على اقل تقدير ويعتريه بعض حراك وإن لم تكن له فيه مشيئة ولا ارادة .

كان ذلك اليوم العبوس آخر يوم لأحمد الحبيب معنا فى المدرسة ، فلم نره فيها بعد ذلك اليوم أبداً . وعندما لقيه محمد العوض بعد ذلك بأيام سأله عن سبب غيابه . فقال له أحمد الحبيب : لقد تركت المدرسة لهذا الشايقى اللسن ( يعنى الشيخ ابابكر ) . هكذا سمعت محمد العوض يروى عن أحمد . وبالفعل ترك أحمد المدرسة وفارقها وفارق الشيخ « فراق الطريفى لى جملو » .. ولم تفلح مساعينا لا عادته اليها أبداً فقد كان أحمد ذا ارادة وتصميم . ولكن ربما كان هنالك عامل آخر فقد علمنا أن والده كان مريضاً بداء عضال وأحمد أكبر أبنائه ، ولعله رأى أن يتفرغ لأعمال أبيه فى ذلك الوقت المبكر من حياته ، والله أعلم بحقيقة الأمر . ومن العجيب أنى التقيت أحمد بعد سنوات فى « صوف الخلا » كما يقولون وهو يجلس على المقعد الامامى لناقلة كبيرة ( لورى ) تحمل بضاعة ، وكنت وقتها مسافراً اقطع فيافى منطقة النيل الأبيض وأنا جالس على « تنده » « اللورى » ، فقد كان الجلوس على « التنده » فى تلك الأيام الزاهية والعربة إذ تخوض الرمال تنن أنيناً ، هو غاية مبتغانا وأطيب لحظاتنا . فتحدثنا طويلاً فعلمت منه أنه اشتغل بالتجارة والترحيل بعد وفاة أبيه ، وأنه بحمد الله فى سعة من الحال وحسن المال . وكنت وقتها تلميذاً فى خور طقت وأحمد الحبيب رجل أعمال وهو دون العشرين بسنوات ! وقد علمت من أحمد أنه كان كثير السفر والترحال . ولم

تخف عنى ابتسامته الوضيئه ووجهه المشرق ما كان يكمن فى قرارة نفسه من أسى  
دفين . فلعل الذى حمله على ترك المدرسة فى ذلك الوقت المبكر كان خليطاً من أمور  
واسباب لم يجد بدأ من الرضوخ لها . وذلك أنه كان من التلاميذ المبشرين بنبوغ  
وحسن بلاء . ولو أنه لم يتعرض لهذه الظروف لكان له شأن آخر . ولكنها ظروف الحياة  
المعقدة دفعت به إلى هذا الترحال الدؤوب وهو فى ميعة صباه . وعندما أعود الآن  
بذاكرتى إلى تلك اللحظة التى التقيت فيها احمد فى ذلك العراء الموحش والى ذلك  
الحديث الذى دار بيننا طويلاً فانى أحسُّ أنه كان - على غير وعى منه - يتأسى بأبى  
الطيب اذ يقول :

أشد الغم عندى ســـــرور . . . تيقن عنه صاحبه ارتحالا  
ألفتُ ترحلى وجعلت أَرْضى . . . قستودى والغريرى الجُلالا  
فما حاولت فى أرض مقاماً . . . ولا أزمعت عن أرض زوالا  
على قلق كأن السريح تحتى . . . أوجهها يميناً أو شمالا

ومن عجب أن اكثر التلاميذ كانوا يعتبرون الشيخ ابا بكر شايقياً وهو ليس  
كذلك فقد بلغنا أنه رباطابى . وقد سكت الحاج عبد الرحيم عن هذه الحقيقة لأسباب لا  
ندريها وقال بعض علماء الأنساب من أولاد فصلنا ان الشيخ رباطابى ولكنه تربى فى  
بيئة شايقية فنشأ على لهجتها . وربما كانت اللهجتان متقاربتين . وأما القبيلتان فهما  
فى طليعة القبائل السودانية التى لها تاريخ يروى وأمجاد تذكر . والشيخ ابو بكر فى  
حقيقة الأمر من خيرة الاساتذة السودانين الذين تربت على ايديهم اجيال والذين أعطوا  
عطاء ليس إلى إنكار قدره العظيم من سبيل . ولكن عبث الطفولة لايفادر شيئاً إلا  
وتجنى عليه بصورة من الصور . فلايظن أحد أننا نقلل من شأن فرد أو جماعة . . فهى  
انطباعات ننقلها كما استقرت فى الذاكرة حين تبدت لها بوهى تعليقات وملاحظات  
وردت حول الشيخ ربما كان بعضها ظالماً فى حقه . ويقينى أن احمد الحبيب نفسه  
يعلم كم نحن كلنا مدينون للشيخ ابى بكر على ما بذل من جهد لتبصيرنا بعلوم الدين  
والقرآن وما أجهد نفسه لينثسنا عليه من عزة النفس وكرائم الأخلاق . ورغم كل هذا

الذى نرويه عنه - وهو أحداث وانطباعات حقيقية - فقد كان الشيخ أقرب الاساتذة إلى وجداننا وآية ذلك أن الكل كانوا يحرصون على شهود حصصه ويسعدون بها سعادة حقيقية وأن صفعاته وكلماته التى كان ينزلها بهم لم تزدهم الا محبة فيه واعجاباً باسلوبه الفريد الذى كان يشكل اهم مادة لهم فى حلقات الونسة والمرح خارج الفصول . فهو شيخ خالد فى اذهان ذلك الجيل بلا ريب لا تكاد تذكر اسمه فى محفل من محافل عجائز اليوم من فتية تلك الأيام النواضر الخوالى إلا انفجرت أساريهم عن بسمات راضية وأسفرت وجوههم عن ضحكات مرحة صافية وروى كل منهم من طرائف الشيخ ما أشاع بينهم الفرح والسرور وحملهم على أجنحة الذكرى والحنين إلى أجمل الأيام وأهنا الأوقات .

### المسكين .. ضقل :

زين العادين الشفيح تلميذ هادئ جداً ، نحيف الجسم ، يرتدى جلابية بياقة ، اذناه بارزتان بشكل ملحوظ وعيناه ساهمتان فيهما حيرة وقلق . على وجهه سمة حزن غامض واسى دفين . وهو من اسرة تسكن فى حى وداورو . لا يشارك التلاميذ فى لعبهم الا قليلاً . فهو ميال الى الصمت والعزلة . ولكنك ان عرفته عن قرب وجدته كنزاً من المودة صافياً لا شوب فيه ولا كدر . وهو رغم تحفظه وعزوفه عن مخالطة الناس لايعب كرة ماهر بارع فى كرة الشراپ . فقد رايتة فى وداورو احياناً يلعب مع سرى وحجازى ولطفى وفتحى ابراهيم وصفى وغيرهم ، وعندما نذهب لجامع الخليفة كان يفضل الا ينزل الى الملعب ، وكنت اشجعه على اللعب فيستجيب وهو غير مقتنع تماماً ، فلا يلبث فى الميدان الا ريثما ينتهى الشوط الاول يغادر بعده الملعب . وكنت احياناً اسير معه بعد انتهاء اليوم الدراسى ونحن زمرة من التلاميذ نشق فيافى الصور - وهو السور او « الملازمين » . . الحى المعروف الذى وصل ماضى مدينة ام درمان يحاضرها وصللاً جلياً واضحاً عجزت عن محوه الدهور والدثور . نجد السير اذا بلغنا تلك القفار ونحن نستعيد من شياطين الجن والانس والبعاعيت وودام بعلو ، حتى

إذا انفلتتا من تلك الوهاد وادرنا ظهورنا لشرورها وخرجنا منها سالمين اسرعنا الخطى حتى نبلغ حى وداورو . وهناك - وقبل ان نبلغ محطة الطرماج بقليل يدلف عنى زين العابدين الى جهة اليسار ، يكاد يغيبه عن ناظرى زقاق صغير وانا ارقبه من بعد . . وهو يمضى مسرعاً لا يلوى على شئ حتى يبتلعه زقاق آخر أصغر من ذلك الذى سار فيه بدءاً ، فيغيب عن ناظرى بعد حين ليبلغ داره فى تلك المناهى ، فلا أراه الا فى اليوم التالى فى المدرسة . ثم امضى انا سيراً على قدمى مخترقاً قضيب الطرماج متلفاً يمنة ويسرة اتقى شر هذه المركبة الملعونة ، واعبر شارع الاسفلت الذى يربط بين السوق وابى روف ، حتى اذا جعلت حى الخنادقة عن يمينى ومقابر الشهداء عن يسارى شعرت بالامن والسكينة ومشيت مشية هادئة مطمئنة هابطاً من زقاق الشفايعة حتى كبرى ود نوباوى منتدى سمرنا فى الليالى المقمرة وكنز معارفنا من القصص الأسطورى الذى تنزود بأعاجيبه لننازل بها فى اليوم التالى دهاقنة الرواة فى المدرسة .

كان زين العابدين صديقاً اثيراً بالنسبة لى ، ولقد كان كل زملائى فى الفصل اصدقاء اعزاء . ولكنى كنت اشعر نحو زين العابدين بعطف خاص لانى كنت اقرأ فى تعابير وجهه حروف اسى ولوعة واتبين فى مقاطع حديثه رنة حزن وانة شكوى ، ولكنه لايفصح عما يجول فى خاطره ولا يطلعك على ما يحتدم فى اغوار نفسه . ورغم ان زين العابدين كان يحدثنى احياناً عن بعض مغامراته وكيف أنه يجيد الشعبة فى الطرماج ، ويتقن فنون الزوغان من الكمسارى والمفتش على السواء ، بل ويجيد النزول من الطرماج فى أى كشة من كشاته ، الا انه لم يدع المقدرة على النزول عكس فى هذه الكشات ولو قال بذلك لما صدقته ، فما كان لهذين الساقين الرقيقتين وهاتين الجريدتين الضاويتين ان تخرج سالمة من مثل هذه المغامرة التى يعد أبطالها المقتدرون على الاتيان بها على رؤوس الاصابع ! ولست انت بسالك زين العابدين فى زمرتهم ان كنت من المنصفين .

ولقد دعوته مراراً للذهاب معى الى ود نوبوى ولم افلح فى اقناعه ، ولعله كان يرتاب فى دخيلة نفسه واعماق خاطره فيشكرنى ويعد ولايفى . ورغم ان ذلك كان يحزننى بل ويحقتنى عليه احياناً الا انى كنت التمس له الاعذار . فالقصص التى كنا نرويها عن منتدى كبرى ود نوبوى والتى تشتمل على كل بطولات المسرح الخارقة حيث الجن والعفاريت وكل انواع المردة والبعاعيت ، والفضائع التى كان يرويها على اسماعنا الصغيرة ابو الدفاع عن قنابل الحرب وشظايا الاذان والارجل والايدي والاعين والانوف وسائر قطع البشر التى تتطاير فى الهواء والتى كنا ننقلها الى زملائنا فى المدرسة بعد ان نضفى عليها حلاً مريعة من ألبسة التشويق ، كانت تفزعه كثيراً وتزيد من ارتياحه فى سلامة المنقلب ان هو تخطى حى وداوروا الى تلك البقاع النائية الحافلة بكل مايلخع القلوب ويصعق الالباب . فهو يسألنى احياناً يبغى اجابة شافية حتى لا يؤخذ على حين غرة : وهل رأى ابو الدفاع كل ذلك وهو لايزال حياً وهل ذهبت انت الى المسرح لترى ذلك العالم الجنى المسحور الذى يربض على مشارف ام ردمان ؟ وهل رأيت البعائى بعينيك ؟ وماذايفعل الانسان اذا التقاه فى ذات مساء ، هل يمكنك أن تسبقه اذا أطلقت ساقيك للريح ؟ واذا كان الانسان يمكن أن يقوم « بعائياً » بعد أن يموت وقبل أن يتفخ فى الصور فما هى الحكمة من وراء الموت ؟ ولماذا يموت الناس على أي حال حتى يضطر بعضهم إلى أن يعود للحياة مرة أخرى ولكن على هيئة « بعائى » يثير الفزع والهلع بين الأحياء ؟ وهل يموت « البعائى » أبداً بعد قيامه ؟ واذا كان ذلك ممكناً فهل بمقدوره أن يقوم « بعائياً » مرة أخرى بعد موته الثانية واذا كان ذلك بمقدوره فما الذى يمكن أن يفعله الناس أولاد الناس حتى يتجنبوا شـرور « البعاعيت » ويخلصوا أنفسهم من هذا الهاجس المرعب ؟ وهل البعائى هو « ودام بعلو » نفسه ام أن هذا الأخير مصيبة أخرى تضيف الى حياتنا مزيداً من بواعث الرعب والفزع ؟ الا يكفى « البعائى » وحده حتى نرزا بما قد يكون أنكى منه واشد خطراً وهو « ودام بعلو » ؟ إن حرف العين هنا فى كل من الاسمين يوحى بالرعب ويثير الهلع . وخاصة



حينما يكون حرف العين مشدداً بهذه الصورة و قد سبقه حرف الباء . اما اذا اصبح حرف العين فى الاسم الثانى مرفوعاً وقد أحاطت به من جانبيه باء مرفوعة ولام مشددة ومرفوعة للدرجة التى يتولد من بعدها حرف الواو فان مجرد التفكير فى معناها يذهب العقل ويورث البكم والصمم وعدم القدرة على الحراك ! الا توافقنى على ذلك ؟ الا ترى ما ارى وتحار كما احار ؟ إلى غير ذلك من الاسئلة الفاحصة الدقيقة التى يترجى من وراء الاجابة عليها ما يساعده على اتخاذ التدابير المناسبة واعداد العدة للافلات من قبضة هذه الاهوال اذا قدر له ان يقترب منها او تقترب هي منه . وذلك لأنه آمن فى حى ود اوو الا من بعض شياطين الانس . والنجاة من مثل هؤلاء ان اعترضوا سبيك ليست مستحيلة على كل حال ، لان زين العابدين يعلم - ويسعده انه يعلم - انه قد اوتى ساقين رقيقتين خفيفتين مثل الفلكاب يمكنه ان يطلقهما للريح فى اى وقت يشاء وقدمين طبيعتين اشد معرفة بدروب الارض من حوافر فرس الرهان ، يمكنهما ان تحملاه فى سرعة البرق الخاطف الى بر الامان فى حدود حى وداور . ولكن هذه المواهب العضوية التى اوتيتها زين العابدين ربما لا تقوى على اجتياز الفيافى من ود نوبوى اذا الم به هنالك مكروه . ولذلك صار زين العابدين يستمع الى اخبار ود نوبوى عموماً وما يدور فى جلسة كبرى الخور على وجه الخصوص باهتمام بالغ وشوق وتطلع . اما الاهتمام البالغ فمبعثه التدبر واعمال الفكر فى اتخاذ التدابير المناسبة والتحوط المبتغى لتجنب الوقوع فى هذه المصيدة والابتعاد عن ما يمكن ان يقود الى الاقتراب منها بقدر الامكان . واما الشوق و التطلع فهما شوق وتطلع لمعرفة الحقائق على ما هى عليه بغية التأكد من معرفة مواقع السلامة والنجاة بصورة قاطعة لا تبقى للشك اى مجال او احتمال ، فالشوق ليس هو بالشوق لارتداد تلك المجاهل بحال من الاحوال ، و التطلع ليس هو بالتطلع الى الوقوف على اسرارها وعجائبها .. اللهم الا عن طريق الرواية والسماع ولكن دون الرؤية والمشاهدة .

لقد تكاثرت الهموم على زين العابدين لشدة مسكنته وزاد من معاناته انه ربما لم

يكن يحب المدرسة حقيقة ، وبدا وكأنه مساق إليها راغم الانف . فهو ولد ذكى نابه اذا تحدثت اليه ولكنه ضائق ذرعاً بالدروس وسخافاتهما . فلا هو ناج من استاذ الحساب ولا هو بمأمن من استاذ اللغة الانجليزية ، ولا هو ظان خيراً بغيرهما من الاساتذة ، فكلهم فى نظره رسل شقاء كتب علينا ان نصيخ الى رغباتهم التى لاترضى للكمال بديلا ، وأن نمتثل الى ما يروونه صواباً دون ان نتجرأ على مجرد الشك فى صحته . وما فائدة حفظ هذه الكلمات الانجليزية التى لانهاية لكثرتها ، ثم استعمالها فى جمل يسمونها مفيدة وهى عديمة الفائدة . هذامع أننا نتحدث إلى جميع الناس فى ودا ورو رجالاً ونساء وأقراناً وأتراباً لنا بما يفهمونه من الكلام الذى لا علاقه له بهذا السخف الذى نكره على التعرف عليه بحد السوط ؟ ومافائدة هذه الزوايا والخطوط والدرجات التى هى مرة ستون وأخرى تسعون وثالثة مائة وثمانون ورابعة ثلاثمائة وستون درجة ، وما بين هذه من الأرقام ما لا يحصيه عد ؟ وماذا نحن صانعون بالمثلث والمربع والمستطيل والدائرة ومتوازى الاضلاع فى مقتبل حياتنا ؟ ألم يقم أهلنا من قديم الزمان بتشبيد هذه المنازل التى نسكنها الان ونجد فيها الامان والطمأنينة دون أى المام سابق لهم بهذه المعميات والرموز التى تحتشد بها السبورة أمام انظارنا كل صباح فلا ينتقل منها إلى أدمغتنا إلا ما يصيبها بمزيد من الحيرة والارتباك ؟ تم ماذا ترانا نجنى من معرفة قمم الهملايا والالب والسهول والوديان والصحارى فى كولارادو وكلاهاى والنقب وما إلى ذلك مما يصر استاذ الجغرافيا على حشو رؤوسنا به ؟ فمن منا سوف يذهب إلى تلك الأقاليم فى يوم من الأيام ان كانت هى موجودة بالفعل ولم تكن من صنع الخيال ؟ ومن الذى فرض علينا أن نرفع المبتدأ والخبر ونؤخر أولهما ونقدم الثانى كما نشاء ، وننصب اسم إن وخبر كان ثم نكسر أى كلمة ( غير ممنوعة من الصرف ) يسبقها ما يسمى بحرف الجر وان كان هو نفسه كلمة كاملة وليس حرفاً واحداً ؟ ولكى تتضاعف علينا الحيرة وتتعمد الامور ونبوء بمزيد من الارتباك فقد جعلوا للقاعدة استثناءات وطلعوا علينا بما يسمى « الممنوع من الصرف » حماية له من

الخفض الذى تحدثه فيه « حروف » الجر وتجرحه عليه الاضافة . وقالوا إن المنوع من الصرف أو التنوين هو اسم لا يلحقه تنوين ولا كسرة . فهو يجر بالفتحة عوضاً عن الكسرة ولا ينون . وليتهم اكتفوا بعلامات الاعراب الظاهرة التى لا تكلفنا معرفتها شططاً يذكر مثل الضمة والفتحة والكسرة ، ولكنهم أحدثوا بدعة أخرى وهى قولهم الضمة ( أو الفتحة أو الكسرة ) المقدرة على آخره منع من ظهورها التعذر أو الثقل ! وأى شئ « أثقل » من هذه السخافات ومعرفة التعامل بها فى الحديث والتقيد بها تقيداً يعيا ويعطب به اللسان ويعوج ويضوى به الفكر وينخبل ؟

وأما إذا تخطيت المفرد للمثنى والجمع فالحيرة أعظم والبلاء أفدح لأن علامة الاعراب تصبح حرفاً كاملاً بقدرة قادر ، فيرفع جمع المذكر السالم والملحق به بالواو وينصب ويجر بالياء ، والنون فيه بدل التنوين فى الاسم المفرد وتحذف هذه النون عند الاضافة . ولذلك فهم يقولون : وعلامة رفعه الواو فى الجمع أو الأف فى المثنى ، وعلامة نصبه أو جره الياء فى كل من الجمع والمثنى . وأما حرف النون فأمره عجب . فهو تارة نون الجمع وتارة بدل التنوين وتارة أخرى هو حرف زائد ، وحيناً آخر هو نون النسوة ، وكأن النسوة فى حوجة إلى هذا النون لارهاب الرجال وردعهم والاستيلاء على جميع مايملكون ! و الجمع قد يسمونه جمع مذكر سالم وهذا ما قد علمت ، وقد يسمونه جمع مؤنث سالم وهذا يرفعونه بالضمة غير أنهم ينصبونه ويجرونه فى ذات الوقت بالكسرة يحرمون عليه الفتحة تحريماً ! وذلك فى اشارة منهم غير معلنة إلى خفض مقام التأنيث بالنسبة إلى مقام التذكير وكأنهم لم يسمعوا مقولة أبى الطيب :

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ، ولا التذكير فخر للهلال

وانما اعتمدوا البيت الذى سبقه وجاء فيه :

ولو كان النساء كمن فقدنا ، لفضلت النساء على الرجال

وذلك لأن النساء فى نظرهم لسن « كمن فقدنا » !

وحتى يبلغوا غايتهم من تكسير رؤوسنا بهذه السخافات فقد زعموا أن هنالك جمعاً

غير هذين لا يتصف بالذكورة ولا بالانوثة . ولذلك سموه جمع تكسير بعد أن أحالوه إلى شظايا ثم للموها وصاروا يعاملونها معاملة المفرد . ولم يمنعمهم من التمثيل بهذا « اللوم » من الشتات الذي جعلوه مفرداً ومن وضع علامات الاعراب على آخره الاتحاليهم بما صاروا يدعونه بالثقل تارة أو التعذر وظهور حرف العلة تارة أخرى .

ثم هم بعد ذلك يقسمون هذا الجمع إلى جمع قلة وجمع كثرة وبيتدعون منه ما يطلقون عليه « صيغة منتهى الجموع » وهو كل جمع تكسير فى وسطه الف ساكنة بعدها حرفان أو ثلاثة أحرف ، وله تسعة عشر وزناً قياسياً كما يزعمون ! وأما الأفعال الخمسة فهى عندهم كل فعل مضارع اتصلت به ألف الاثنين أو واو الجماعة أو ياء المؤنث المخاطبة كما فى قولك : ( تعلمان ، تعلمون ، تعلمين ) . فعلمة الرفع هنا ثبوت النون ، وعلامة النصب والجر هى حذف النون . ونحن نعلم أن النون هى حرف وليست علامة ، وأن المحذوف غائب ولا يرى فكيف يكون علامة ؟ وإذا كتب الله لك الراحة التامة وكفاك شر هذا مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة و هذا منصوب أو مجرور وعلامة نصبه أو جره الفتحة الظاهرة أو الكسرة الظاهرة ... إذا أنجاك الله من هذه الرموز والعلامات لتقرأ « على كيفك » فانهم لا يتركونك وشأنك لأن الاعراب عندهم لا ينتهى باختفاء هذه العلامات وعدم ظهورها انما يعقده ذلك تعقيداً لأنهم يلحون فى أن الجار والمجرور « فى محل رفع » أو « فى محل نصب » ، بل ان جملة بأكملها يمكن أن تكون فى هذا « المحل » . وهم يحذفون حرفاً بأكمله إذا دخل على الكلمة ما يسمونه أداة الجزم ويجعلون هذا الحذف هو عين علامة الجزم . فاعجب لعلامة هى نفسها غائبة غير مثبتة ! وليتهم وقفوا عند هذا الحد وأراحونا من المزيد من التعقيدات . ولكنهم فرقوا حتى بين الجمل ، فجعلوا لجمل بعينها محلاً من الاعراب وحرّموا غيرها من هذا « المحل » ، فانظر إلى هذا الظلم فى حق بعض الجمل !

ولقد ابتدعوا فوق ذلك ما أسموه « حرف نداء » مع أنك تستطيع أن تنادى من تريد وما تريد دون استعمال أى حرف من الحروف . وحتى اذا استعملت الحرف فانك لا

تريد أن تتقيد بضبط المنادى - غير أنهم تفتنوا فى هذا المجال ؛ فالمنادى عندهم منصوب إذا كان مضافاً أو شبيهاً بالمضاف ، أو جامداً موصوفاً أو نكرة غير مقصودة . وهو مبنى على الضم فى محل نصب اذا كان نكرة مقصودة أو مفرداً علماً ؛ ولكى يبرروا هذا الزعم وهذه الفعلة المنكرة فانهم يقولون إن المنادى فى أصله مفعول به لحرف النداء «يا» لأنها تقوم مقام «أنادى» وهكذا حرمونا من الوقوف المريح على السكون المريح الذى يسكن الأنفاس ويقى اللسان من الوقوع فى اللحن والتصحيف . وكل ذلك لم يكفهم بل انهم خلقوا لنا خلقاً طائفة أخرى من الألفاظ نصبوها نصباً وسموا بعضها تمييزاً والبعض الآخر حالاً ، وكأن الحال لا يميز صاحبه ؛ وقد تكون جملة باكملها «فى محل» هذا «النصب» . ولم يكفهم نصب المفعول به بعد رفع الفاعل وانما نصبوا أيضاً ما اسموه بالمفعول المطلق والمفعول معه والمفعول لأجله والمفعول فيه وجعلوا للمفعول نائباً والفاعل أيضاً نائباً ؛ ولم يبق لهم إلا أن يصدروا مرسوماً بتعيين نائب ثان لكل منهما ؛

وأعجب من كل هذا كلمة «لاسيما» إن كانت هى كلمة واحدة كما يزعمون ، إذ الواضح أنهما كلمتان ، ولكنهم يفعلون ما يشاؤون . فقد قالوا إن «لاسيما» تفيد أن ما بعدها وما قبلها مشتركان فى أمر واحد ولكن نصيب ما بعدها أكثر وأوفر من نصيب ما قبلها ، ولذلك جوزوا فى الاسم بعد «لاسيما» كلاً من الرفع والنصب والجر سواء كان نكرة أو معرفة ؛ وأنت لن تبلغ أى مبلغ اذا تابعت هذه الألفاظ وانفتحت امامك عوالم كان وليس وكادواخواتهن ، وأدوات الشرط الجازمة وغير الجازمة ، والضمائر الظاهرة والمستترة ، وافعال الذم والمدح ، والمركبات ، واسماء أو ظروف الزمان والمكان ، وغير ذلك مما يحيل اللغة إلى طلاسمة بيتغى من ورائها الفصاحة والبيان وهى إلى العجمة والاستعصاء أقرب « وأهدى » سبيلا . وهكذا ليس لهذه الغرائب من منتهى . وهذا بعض ما كان يحير زين العابدين ويحيرنى أيضاً ؛ ولا يظن أحد من علماء اللغة العربية وأسائذتها الاجلاء أننى أسخر من لغة العرب . معاذ الله أن أفعل ذلك . ولكنها

كانت قراءاتي فى خواطر زين العابدين وربما غيره من التلاميذ «الموحسين» وأنا واحد منهم . فنحن نعلم أن أقواماً كثيراً يكتبون العربية صحيحة وينطقونها فى خطبهم واشعارهم وأحاديثهم فى فصاحة معافاة من اللحن والتصحيف وذلك لكثرة الاطلاع وطول المراس ، غير انى لا أرتاب فى أن اكثرهم يجدون صعوبة بالغة فى ارجاع كل كلمة أو جملة الى قالب اعرابها الصحيح ، يقيمهم على الصواب حسن المران ويعصمهم من الخطأ والزلل عاصم الذوق السليم .

هذه لو افقت كنت أقرأها فى ملامح الحيرة التى كانت تتغشى زين العابدين . وهى حيرة حببت إليه العزلة وأورثته شعوراً غامضاً بالريبة فى نوايا بعض أقرانه حبسه فى داخل نفسه حبساً عن الالمام بحلقاتهم وتجمعاتهم ، وفاقم من عدم اطمئنانه إلى كثير منهم وإلى الاساتذة بشكل خاص . ولست ادرى كيف كان يتعامل مع أهله فى البيت فهو لا يذكر عنهم شيئاً . ورغم أنى كنت وثيق الصلة به وأحمل له عطفاً ومحبة واحتراماً إلا أنه كان شحيحاً فى الإخبار عن خفايا داره واسرته وحياته الخاصة . بل هو كان قليل الضحك نزر الكلام . وعندما يلم به الفاضل شريف فى «الفسحة» ويوسعه نكاتاً بايخة لم يكن زين العابدين يجرؤ على ايقافه عند حده كما يفعل الآخرون بل هو يفتعل الابتسام والضحك فى وجهه ، وهو فى حقيقة نفسه يود لو أن بينه وبين الفاضل مدى بعيداً . ولذلك وجد فيه الفاضل ضالته «وتختته» - كما يقول بعض اخواننا العسكريين - فطفقت أحياناً أهب لنجدته واستنقذه من براثن نكات الفاضل شريف ، وهى نكات «بايخة» أغلب الأحيان ( وصاحبها يعلم ذلك ويعترف به ويسعد به ) . لاذعة فى بعضها ، محتملة فى جملتها ، يسيرة على النفس إن أوتيت الصبر عليها وحباك الله بشئ من الجسارة والحزم « ونشاف الوش » الذى يمكنك من قول «كفى» . وهذه الجسارة ان صحت منك فلا قبل للفاضل شريف بها ، لأنها تزجره فى حينها ، إلا اذا كانت آتية من زين العابدين فهو يستهين بها وهى قل ما كانت تأتى من زين العابدين .

وكغيره من التلاميذ كان زين العابدين فريسة سهلة للشيخ ابي بكر . فرغم أنه لم يكن مهرجلاً مرموقاً فى الفصل ، ورغم أن الكبتل كان يعطف عليه فلا يكتب اسمه ضمن قائمة المهرجلين فى الفصل ، إلا أنه لم يكن مفتوناً بحصّة الدين ولم يكن من عشاقها الحريصين عليها . وكانما قرأ الشيخ أفكاره ونفوره الخفى - أو قل ضيقه بحصته ومقته لها وعلامات نفاذ صبره فيها - فصار منذ وقت مبكر من مشاهير أهل « صفر من اطناشر » وما يتلو ذلك عادة من نعت معروف . ولم تقم له قائمة بعد ذلك ابداً حتى كان من أمر بقية أولاد الفصل ما كان . فارتاحت نفسه إلى ذلك المصير الجامع أيما ارتياح ! ولقد لقي زين العابدين الأمرين من الاستاذ فرح والاستاذ السبكي فى حصص اللغة الانجليزية ، وبلغ حد النكد من الشيخ يوسف الخليفة فى حصص اللغة العربية . والعجيب فى الأمر أن زين العابدين رغم كل سوء الطالع الذى لازمه مع بعض الاساتذة كان يحفظ كثيراً من الأناشيد ويترنم بها بصوت عذب حنون . بل كان فى بعض الأحيان - عندما يكون الملأ من حوله قليلاً - يكاد يرفع عجيرته ببعض الأغاني فيؤديها فى براعة ورقة تتناسب مع مظهره النحيف ودقة تقاطيعه . فهو وان كان محاذراً شديداً المحاذرة قليل الثقة بنوايا البعض إلا أنه لم يكن يبالي بالغناء والترنم على مسامح كوكبة قليلة من الذين يحسن الظن بهم وينسبهم إلى الخير . وبما أنى كنت عنده فى طبيعة هؤلاء فقد نعمت بومضاته واشراقاته وعرفته عن قرب وأحسست نحوه بعطف وحنان ومودة . وذلك أنى كنت اعتبره مظلوماً من قبل الاساتذة والتلاميذ على السواء إذ ليس من بينهم من اهتم بأمره كبير اهتمام أو حاول أن ينفذ إلى خفايا نفسه ليجتلى ما فيها بعض اجتلاء . وبالرغم من أنى حاولت ذلك ولم أظفر بطائل يذكر ، إلا أن شيئاً غامضاً فيه هو أقرب للبراءة من الخبث كان يجتذبنى إليه اجتذاباً ، فأوليه شيئاً غير قليل من الاهتمام . ولست أرتاب فى أنه كان واثقاً من حسن نواياى تلقائه ، إلا أنه كان مقتصداً فى ابداء مشاعره أشد الاقتصار . وربما كان السبب فى ذلك هو شعور منه خفى بالاعتزاز ، أو هو احساس غائر بأن البوح بما فى

نفسه قد يعرضه لشئ من الصغار أو الهوان أو الزرابة . وقد نفعه صمته وبعده وعزلته عن الناس أيما نفع .. وذلك في صبيحة «العلقة» التي تعرض لها الاستاذ الحاج هاشم في دار الرياضة . فقد كان زين العابدين واحداً من القلائل الذين سلموا في ذلك اليوم من لسان الاستاذ الحاج هاشم ويده ، لأن مظهره « المسكين » أقنع الاستاذ بأنه برئ مما نسب للأخرين من شهود المثبة التي حلت به أو الفرح بها ، ولأن تقاطيع وجهه لم تكن تنبئ عن شئ من ذلك ، فكان هذا سبب نجاته ، رغم أن الاستاذ الحاج كان في بعض الأحيان يعتبر « المسكنة » وخلو صفحة الوجه من أي معنى من المعاني جريمة في حد ذاته يستحق مرتكبها أشد العذاب ، وسنرى أن ذلك كذلك حينما نذكر بالخير ان شاء الله الصديق محمد عبدالله الشيخ . وقد صرح الاستاذ الحاج في احدي حالات هدوئه النادرة أن زين العابدين ولد «مسكين» بالفعل ، وإن كنا لم نتبين بوضوح ان كان ذلك مدحاً أو ذماً في حقه . ولكن محمد العوض - الذي تعود الأ يترك احداً وشأنه ينعم بنعمة أو يأسى لنقمة - أطلق على زين العابدين تعبير «المسكين ضقل» . ومعلوم أن هذا المثل الشعبي - وهو جملة مفيدة من اسم وخبر لا يعترف الناس عامة في نطقهم لها بالضممة وانما يقفون على كل من الكلمتين على السكون المريح - إنما يقال في معرض اللوم على عدم الاهتمام ، لأنك لا تعرف «الضقل» ولا تراه إلا إذا «عترت» عليه وارتطمت به قدمك فادماها . ولكنى على يقين من أن محمد العوض لم يكن يرمي الى هذا المعنى الاول وانما كان يعنى الاثر الذي تحدثه هذه « العترة » ، وهو الايذاء ! ولكنه كعادته ولحدة ذكائه وخبثه يطلق القول الذي يمكن أن يحمل أكثر من معنى ، ويريد به المعنى الذي يريده .

لقد افترقتنا بعد انقضاء ايام ام درمان الاميرية الحافلات بالمباهج والمنى ، ولم أر زين العابدين منذ ذلك الوقت فقد ذهب كل منا إلى شأنه . وقد سألت عنه الصديق القديم مكى برعى منذ أشهر قلائل فلم ألق من خبره عنده شيئاً . ولقد كنت تنبأت لزين العابدين أن يصبح فناناً وموسيقياراً أو لاعباً بارزاً في مجال كرة القدم أو معلماً شديداً



العناية والاهتمام بتلامذته .. غير انى لم أسمع عنه شيئاً ، وأنا أمل أن يكون بخير وعلى خير ، فقد كان صديقاً عزيزاً بحق .

## الفنان الموهوب :

ذلك هو محمد عبدالله الشيخ . ومحمد هذا تلميذ وديع سمح الخلال ، لا يدخل أنفه فيما لا يعنيه ابداً ولا يؤذى أحداً ولا يغتاب الناس ولا يطلق لسانه فيهم كما كان يفعل كثير من التلاميذ العفاريت الذين أوتوا السنة حداداً يسلقون بها أقرانهم واساتذتهم على السواء . غير أنها لم تكن «غيبية» تهدف إلى الايذاء بقدر ما كانت عبث طفولة مرسل ينبئ عن البرءاة والرغبة فى تمضية الوقت بما يسلى ويضحك إذهاباً للضجر وابقاء على المرح «وتفريقاً» للهموم عن النفوس وهى قد تلم بها إماماً أو فى تتابع . حتى عن مثل هذه « الغيبة » البرئية فقد عف لسان محمد عبدالله الشيخ ، فحفظه بين فكيه لا ينبس هجراً ولا ينطق فحشاً ولا ينال به من أحد ولا يتندر عليه . فهو تلميذ مهذب بحق أحسب أنه لم يكن يعرف غير المدرسة وحى ود البنا الذى يقطنه ، والذى يأتي منه فى كل ضباح إلى المدرسة سائراً فى أغلب أحيائه على قدميه ، عاطفاً عند بلوغه محطة ود اورو إلى جهة اليسار ، يجتاز مراض القبانية وآل وصى ، سالكاً بعد ذلك تخوم « الصور» حتى يفضى به سيره المسرع الحثيث إلى ما وراء مستشفى ام درمان ، فيغيب مع غيره فى تلك المنعطقات والسبل التى تتلوى من خلف المستشفى ، لينفذ إلى الباب الشرقى لمدرسة ام درمان الاميرية فيلجها حامداً لربه شاكراً نعمه . ثم يعود القهقرى فى نهاية يومه الدراسى فيذرع تلك المفاوز مرة أخرى حتى يصل إلى داره ويبلغ مأمنه فى حى ود البنا . وفى بعض الأحيان عندما يفتئ الله برزق معلوم فانه يتمتع نفسه بركوب الترام . وذلك أن محطة ود البنا معلم بارز فى ام درمان غير أن الترام أحياناً يتهادى عندها تهادياً ويبطئ ابطاءً ، دون أن يقف تماماً .. وذلك عندما تكون رحابه وجنباة وسلاله غاصة بالركاب ملأى « بالمتشعبطين » ، فينتهز محمد فرصة ابطاء المركبة السحرية ليقفز إلى داخل « عربة » الدرجة الثانية ويده فى

جيبه تفصل فى شىء من الاضطراب والعصبية بين تعريفه الطرماج وقرش الفطور إذا أُحدق به الكمسارى أو اذا أبصر هو « المفتش » ذا البردلوية الكاكي والبرنيطة التى تجسد السلطان والجبروت . وقد يقف الطرماج فى المحطة قليلاً ولذلك سموها « سنده » تمييزاً لها عن « المحطة » التى عادة ما يكون المنتظرون على رصيفها أمة من الناس وعادة ما يحترمها سائق الطرماج بإيقاف المركبة عندها تماماً ولدقائق معدودة حتى ينزل منه من بلغ بغيته من ركابه ويصعد إلى داخله ويقر فى كنباته من كان له فضل السبق فى الانتظار . وكمسارى الطرماج لا يعرف محمد عبدالله الشيخ بالطبع ، ولا يعرف غيره من التلاميذ ، لأن دفتر التذاكر الذى يتدلى من عنقه يعلن للملأ أن السفر على هذه المركبات يحتاج إلى تذكرة ، والتذكرة تحتاج إلى تعريفه ، والحصول على التعريفه بجانب قرش الفطور يحتاج أحياناً إلى اقناع الأب أو الام بجدوى مثل هذا الانفاق ومبررات مثل هذا السرف فى وجه البديل المنطقى الذى لا يكلف شططا ولا ينتهب الجيب ولا « المحفضة » .. وهو السير على القدمين جيئةً وذهوباً . نعم فى بعض الأحيان يتهرب التلاميذ وغيرهم من دفع التعريفه الاجرة ، رغم أن مظهر الكمسارى بسترتة وسراويله الكاكي يذكر بوجود السلطان واحداً بك من كل جانب ، فلا يسعك إلا أن تهرب من عربة إلى أخرى فى داخل سلسلة المركبات التى تشكل هيئة الترام . وربما غص الكمسارى عنك النظر اذا رأى علامات الضيق والحيرة والفرق بادية عليك وخاصة اذا كان هو عم خضر أو شخصاً آخر من اولئك النفر الطيبين الذين يشى مظهرهم بالرحمة وتنطق وجوههم بالعطف . أما إذا كان من النوع الصارم الذى لا يجامل فى مثل هذه « المقدسات » فاعلم أنه قد أحيط بك ، لأنه لا يدعك تغلت من قبضته وان أوتيت أعظم فنون المرواغة ورزقت موهبة اصطناع ابرع أنواع الحيل ، وخاصة إذا حملك حظك التعس إلى داخل « طرماج » صعد إليه المفتش ؛ لأن المفتش - وهو أيضا يرتدى السترة والسراويل الكاكي ويفضل الكمسارى بارتداء البرنيطة على رأسه دائماً - يصبح هو السلطة المطلقة العليا فى دنيا تلك المركبات . والكمسارى

يحرص عند وجود المفتش علي ظهر المركبة أن يبرهن له عن أقصى درجات الكفاءة وأعلى مراقى الانضباط . لذلك تجرى ملاحقتك من عربة إلى أخرى . فان كنت من الضعفاء الذين لا يرون حيلة ولا يجدون ما ينفقون سألت الله أن تهدأ مسيرة الترام حتى يمكنك النزول على الارض بسلام قبل أن تبلغ المحطة القادمة ، نجاه بنفسك من الكمسارى والمفتش الذين يكادان أن يمسكا بتلابيبك ليخمدوا أنفاسك . وان كنت من القنادف الواقعين من السماء مائة مرة أو تزيد فلن يعجزك أن تهبط إلى الأرض والترام يسير بأقصى سرعته . فان فعلت فلا بد لك - مهما كنت «مدرحاً» وخبيراً بهذه الامور - من أن تعثر « وتتمتع » « وتترتع » حتى يثبتك الله على الأرض أو تسقط عليها ثم تنهض مرة أخرى وقد تشتتت كراساتك وكتبك وجميع محتويات شنطة المدرسة واتسخت ملابسك وطارت عمامتك ، وكاد أن يطأك حصان « الكارو » بحوافره الصلبة وهو يدعو على شارع الظلوط وقد الهبت ظهره السياط . فاذا سلمك الله واستويت قائماً جمعت أشتاتك ونفضت عن وجهك ويديك وملابسك الغبار « والعفار » واكملت المشوار سيراً على قدميك وأنت تلعن في سريرتك - وربما في علانية - كل من أفسدوا على الناس حياتهم بتعيين مفتش للتذاكر في الطرامج . ألم يكن في الكمسارى وحده ارهاب كاف للناس ؟ فما بالهم يضاعفون الفرع على خلق الله باضافة مفتش يحصى عليهم أنفاسهم حينما يطلب من الركاب ابراز التذاكر ، فيتضح أمر من لا يحمل تذكرة ويضطر للنزول في أخرج الأوقات ؟ ورغم أن بعض « القنادف » قد برعوا في فنون النزول « عكس » في كل الكشاشات ، بما في ذلك كشاة العصاصير وكشاة السوق وكشاة الكلية ، بل وكشاة « الظبطية » وسبيل سلاطين أيضاً إلا أن محمد عبدالله الشيخ لم يكن واحداً من هؤلاء القنادف بحال من الأحوال ، بل كان فتىً وديعاً مسالماً لا يدخل نفسه في مثل هذه المأزق و« المطبات » ، واذا حدث أن أدخله فيها بعض زملائه ثم أحاط به الكمسارى والمفتش فانه - ان لم يكن يصطحب معه التعريفية الاضافية مع قرش الفطور وقليلاً ما يكون ذلك - يدفع من قرش الفطور ثم يقنع نفسه بنصف

«عيش» من عم محمدين فى المدرسة بالتعريفه المتبقية ، « يقرضه » دون فول أو طعمية ويتبع ذلك بكوز ماء من احد أزيار المدرسة ، ولله الحمد والمنة فقد كان نصف الرغبة المستديرة كافياً مع ماء التيبار لسد الرمق ودفع غائلة الطوى . ومحمد عبدالله الشيخ تلميذ متواضع جداً كثير الابتسام ميال إلى الصمت والهدوء ، فى فناء المدرسة وسط زملائه عموماً وفى الفصل أثناء الدرس على وجه الخصوص . لم يكن متطلعاً لنيل الدرجات العلاء فى العلوم الشتى ، ولا تواقاً للظهور بمظهره الشطارة « والحدافة » والعبقرية ، ناهيك عن « التفصيل » ، وهو من مفردات لغة تلاميذ اليوم ويعنى عندهم الحصول على « النمرة الكاملة » فى المادة المعينة . ومثل هذا الحصول لم يكن متاحاً على أيامنا بحال وإن أثبت بمالم يستطعه الاوائل ، ولذلك لم تجد هذه الكلمة بهذا المعنى مكاناً لها فى قاموس مفردات تلك الأيام الخالية ، كان محمد عبدالله الشيخ تلميذاً قنوعاً عارفاً بحدود ما يمكن ومتهات ما لا يمكن ، متواضعاً جم التواضع حياً موفور الادب والحياء ، وهو لم يكن يدعى شيئاً مما ليست تبلغه ملكاته ومقدراته ، بل هو قانع طيب النفس بما يرزقه الله به من نتيجة . ولكن ، من يقنع الديك بأنك لست حبة قمح ؟ ولذلك تعرض محمد الهادئ المهذب المؤدب لعذابات شتى وشقاءات ضروباً . فهو لم يكن ينجو من بطش الاستاذ الحاج هاشم على وجه الخصوص، وهو قد تحمل فى هدوء وسكينة ورضا فورات الاستاذ السراج ، وساعات لسان الشيخ يوسف الخليفة وصفعات الشيخ ابي بكر الماحقة التى لا يجدى معها أدب وتهذيب ولا يراخى من شدتها حياء ولا يعصم من لأوائها وخشونتها حسن سمت ولا كرم خلأق . وهى لا تقف عند الايذاء الجسدى لتكف عنك بانزاله عليك بعض شرورها ... فانها ان فعلت لصح قول من قال : حنانيك بعض الشراهمون من بعض . ولكنها تتجاوز ذلك إلى ما هو أنكى منه وأبلغ من الايذاء المعنوى ، فينتهى المطاف بالتلميذ محمد عبدالله الشيخ - مثل كثير من زملائه - إلى « صفر من اطناشر » « وهؤلاء قليلو الأدب » . والله يعلم أن محمد عبدالله الشيخ كان من القلائل الذين يسيلون رقة وأدباً. ثم هو أيضاً ينتهى

- كغيره - فى نهاية يومه الدراسى إلى دفتر عم مبارك وكنبة عم مبارك وسوط عم مبارك .. الذى لا يفرق بين مهذب وغير مهذب ، ولا بين مؤدب وعفريت ، ولا بين ملاك وشيطان رجيم . على أن محمداً كان يمتاز على جميع أقرانه بموهبة فنية عالية ، فهو رسام ممتاز ومصور مبدع يجيد رسم مختلف الأشكال والهيئات على الورق بقلم الرصاص أروع إجابة ، ولم يكن أحد منا يضاهيه فى هذا المضمار أبداً . له قلم فنان وأنامل فنان وأحاسيس فنان ووجدان فنان . كراساتة انيقة « مجلة » ورسوماته دقيقة معبرة ملأى بالحياة والمعانى ، وخطوطه وظلاله ثابتة راكزة وقوية موحية باقتدار مبكر ومواهب كثر زاخرات . ومن سوء حظه كان الفن عموماً والرسم على وجه الخصوص أموراً لا يحفل بها كثيراً فى تلك الايام . وآية ذلك أن الاستاذ الحاج هاشم جاء إلى فصلنا فى يوم من الايام وطلب منا أن نرسم أى اشكال نريد . وقد كنت واحداً من الذين اسقط فى ايديهم . فلا معرفة لى بالرسم ولا موهبة لى فى هذه العوالم . ولذلك بلغ منى الفزع مبلغاً عظيماً وايقتت - مثل كثيرين غيرى ممن لم يرزقهم الله شيئاً من هذه الملكة العظيمة الأسرة - أنى على موعد مع عم مبارك فى نهاية اليوم الدراسى على احسن الفروض . ومر الاستاذ بعد قليل على كل تلميذ ورغم أن كلاً منا كانت دقات قلبه قد تجاوزت كل الحدود التى تؤذن بالبقاء على قيد الحياة إلا أنا عجبنا كثيراً كيف تخطانا الاستاذ دون أن يعلق مجرد تعليق على الرسم « العواليق » الذى سودنا به نواصع الصفحات . ولكنه وقف امام محمد عبدالله الشيخ وسأله : ما هذا الذى رسمت ؟ وكان محمد قد رسم فانوساً لو اشعلت قبالاته عود ثقاب لا تُقد وأفاض بالنور والضياء . ولكن الاستاذ قال له ألم تعلم أنى قلت فى سريرتى : الويل لمن يرسم فانوساً اليوم ؟ ثم انهال عليه ضرباً وشتماً وتقريعاً حتى أوسعه كرب العذاب . ولم نعلم لذلك أى سبب مقنع أو حتى غير مقنع غير رغبته الجامحة فى انزال عقوبة غير مستحقة على هذا التلميذ الهادئ المهذب الذى أبدع فى الرسم وأجاد . ورغم أننا اسفنا اشد الأسف لما صار إليه امر محمد عبدالله الشيخ على يد الاستاذ الحاج هاشم ، وتعاطفنا معه

أصدق تعاطف ، إلا أننا - فى تلك اللحظة الحرجة - قد حمد كل منا ربه على سلامته ، وشكر ربه فى سريرته على النجاة ، مع علمنا اليقيني أن محمد عبدالله الشيخ كان فى الحقيقة هو التلميذ الوحيد الذى يستحق النجاة ، بل يستحق الاشادة على روعة ما صور قلمه ودقة مارسمت أنامله . وظلت الحيرة من هذا الحدث ملازمة لنا لم تفارقنا حتى فارقنا ام درمان الاميرية . وحتى الصقور من اولاد فصلنا قد بلغ منهم الغضب على الاستاذ مبلغاً عظيماً ، وتوافدوا على محمد عبدالله الشيخ فى الفسحة يواسونه ويرقعون من معنوياته وقد هالهم ما حل به من ظلم فادح وأذى بليغ وهو الفنان الذى يبدع بريشته وانامله ورقة حواشيه ورفيع ذوقه أبهى صور الجمال . ولكن ، من منا يستطيع أن يقول للاستاذ الحاج هاشم : البغلة فى الابريق وان كانت هذه البغلة فى الابريق بالفعل ؟ ومن من التلاميذ يستطيع أن يطلع على الغيوب وسرائر الناس حتى يلم بسريرة الاستاذ الحاج هاشم ويعلم أنها انطوت على الوعيد والعذاب والثبور لكل من تسول له نفسه ان يرسم فانوساً حتى وان كان المطلوب المعلن هو رسم اي شكل من الأشكال ؟ وهكذا حيف على محمد عبدالله الشيخ حتى فى المادة التى كان يجيدها أيما اجادة يشهد له بالنبوغ فيها كل أحد.

والظلم من شيم النفوس فان تجد . ، ذا عفة فلعللة لا يظلم

واذا كان هذا هو شأن الرسم فى تلك الايام ، لا يؤذيه به ولا يلقى الناخبون فيه جليل اهتمام ، فان الانجليزى والحساب والعربى والجغرافيا وغيرها من العلوم كانت هى الخيول الراححة التى عليها الرهان وفى مداها ترتسم ابعاد أشواط السباق . ولسبب مالم يؤت محمد عبدالله الشيخ سعة ولا بسطة فى مثل هذه الامور . أو لعله - وعندى هذا هو الأصح - لم يحفل بها احتفاله بالرسم والفنون ، ولم يعن بها عنايته بهما ، لأن محمداً كان تلميذاً رقيقاً سمحاً عذب الروح حلو المعشر ذكى الفؤاد . فماذا يفعل من كان فى رفته وعبق روحه بالكسور العشرية وتحويلها إلى كسور عادية ؟ وبالزوايا القائمة وغير القائمة المنفرجة منها والحادة ؟ وبمحيط الدائرة وأهمية مربع نصف

قطرها وعلاقته بنسبة « پای » ومحل الاثني عشرين من كل ذلك السخف الحسابي الممل ؟ ماذا يفعل بمعرفة مناطق السافنا وقمم الجبال التي تغطيها الثلوج ؟ وماذا يفيد من معرفته لأنهار العالم وطول كل منها ، ومدى اعماق المحيطات وما هو كامن في اعماقها مما يعلم الأوسيلة له ولا رغبة له في الوصول إليه والوقوف على حقيقة أمره ؟ وما هو الخير الذي يمكن أن يجنيه من معرفة القطب الشمالي والاسكيمو والدب الذي يتهادى بين تلك الثلوج والنمر أو الاسد أو المرفعين الذي يتخذ من الغابات الاستوائية ملاذاً ومرتعاً ومقيلاً ؟ وماذا يفيد من معرفة صحارى العالم وقطن جباله وقيعان وديانته ؟ وهو الذي لم يعرف في حياته غير حى ود البنا ومدرسة امدرمان الاميرية الوسطى ، وشذرات من التاريخ الذى يروى فتلتقطه اذناه ، والذى انطبقت آثاره على اسماء الأحياء المختلفة فى مدينة ام درمان حتى صارت تجسيدا حياً لهذا التاريخ ، مما يروى غلة المعرفة بعض الشئ وينفض عن الفكر والذاكرة غبار الجهالات وينجى من الحرج إذا دعا الداعى واجبر الانسان على الخوض فى مثل هذه الامور . أما الرسم ، أما الابداع فهو وليد الروح الطليقة المحلقة فى أجواء الحرية ، المتأمل فى عظمة القدرة الالهية وجلالها وإعجازها ... إنه وليد الوجدان الصافى والاحساس المرفه والشفافية التى تميظ الحجب وتهدى إلى ما وراء الغيوب . ولو أن محمداً الفنان الرسام قد وجد فى ذلك الزمان من يعنى بملكته الفريدة ومقدراته الخلاقة وموهبته النادرة الباهرة لأصبح له شأن اخر . ولست أدرى اليوم أين انتهى به المطاف ، فقد افترقنا منذ مغادرتنا لمدرسة ام درمان الاميرية الوسطى ولم ألقه بعد ذلك أبداً . ولكنى كلما ذكرت تلك الأيام غشيتنى نسائم تحمل أنفاساً من رفته وصوراً حسناً من ابداعه ، وحزنت كثيراً لأنه لم يجد فرصة مواتية لتطوير تلك المقدرات التى خصه بها الله وهباً خالصاً والتي كانت تنم عن ذكاء وقاد وتبشر بنبوغ واعد بعباء جليل فى هذا المضمار . لقد كان محمد عبدالله الشيخ - على اقل تقدير- فناناً موهوباً .

## عباس صالح .. والانتعاق :

ينتمى التلميذ عباس صالح موسى إلى مجموعة أولاد الموردة فى الفصل خاصة وفى المدرسة عموماً وهو انتماء سكنى وجهوى وعقائدى ، وان لم يقال عباس فى تشييعه لفريق الموردة بما يخرجهم عن حدود الاعتدال كثيراً. وذلك لأن عباساً كان حريصاً على تحسين صلته بالآخرين من ذوى المشارب الكروية الأخرى . فعندما يتغلب فريق الموردة على فريق الهلال مثلاً فان عباساً لا يشارك فى « زفة » أولاد الموردة الذين يتجمعون فى فناء المدرسة يهتفون بحياة فريق الموردة ونجومه اللألاء : ترنة ودرار والصافى والجاك وغيرهم ، ويسخرون من فريق الهلال . وهذا أمر يؤدى فى كثير من الاحيان إلى احتكاكات بين التلاميذ وقد تنتج عنه صدامات بن طائفتى مشجعى الفريقين منهم . وفى مثل هذه الحالات التى تضع الغرماء والفرقاء على حافة الشجار أو تتخطاها إلى العراك الصريح يكون عباس صالح حذراً شديد الحيطه لا يغمس نفسه فى النزاع ليدفع بالموقف إلى حافة الخطورة وما بعدها ، ولا هو يحاول أن يتداركه بنوع من التدخل قد يخفف حدة الصراع أو يقضى على اسبابه ، ولكنه يرقب الموقف من بعد لعله يرى دروب السلامة ويقف على مواطن الغلبة فلا يلقي عنقاً ولا يخالط شططا ولا رهقاً . ولكنه ربما أسر لبعض أقرانه من الهلالاب - تقيه منه ودرءاً للخطوب - أنه معجب بالدرديرى باك الهلال وعثمان البنا وشقيقه النور ( كبرى ) وحامد منزل وكذلك الشاويش جمعة ! فهو يضع سيفه مع معاوية ويبقى احاسيسه ومشاعره مع على ! وما ذلك إلا لصفاء ذهنه الذى ينبئ بحقيقة العواقب وصحة أقوى الاحتمالات ، وما يمكن أن يسفر عنه التشيع الصريح المغالى لفريق الموردة ويحمله عليه من تصرفات يمكن أن توغر عليه صدور الصقور فى الفصل - عبد الكريم ومكى ومحجوب والكبتل . ولا قبل لعباس صالح ببأس هؤلاء ان اجتمعت كلمتهم على الثأر منه ، خاصة وهو لا يثق كثيراً بسرعة نجدة المورداب ان زلت به قدمه وأحاطت به خطيئته فى نظر هؤلاء الصقور . وذلك لأن المورداب لم يكونوا راضين أصلاً عن مواقفه الرخوة المتهاونة فى مثل هذه القضايا العقائدية . ولقد أنفق عباس صالح دهرأ يشتري



ود هؤلاء بالكلمة الطيبة ويتحاشى بأس أولئك بالفطنة والتغافل والتماس الأعدار والمبررات .

وعباس صالح تلميذ فارع الطول بالنسبة لكثير من أقرانه ، ولكنه ناحل الجسم لا تؤهله بنية جسده لخوض غمار الشدائد . وهو تلميذ لين العريكة خفيف الروح ميال إلى الهزل يعجبه الضحك وتستبيبه الدعابة ، ولكنه محاذر لا يغامر ولا يدخل معتركاً إن وجد إلى اجتنابه سبيلاً . وهو يفضل الجلوس فى المقاعد الخلفية من الفصل ، غير بعيد من مرابض الصقور ، وغالباً ما يكون قريباً من مكى ومحجوب . وقد يكون ذلك رغبة منه صادقة وذكية فى الاقتراب من أولى البأس وابتياح مودتهم بالمجاورة واقامة أطيب العلائق ، وقد يكون ذلك فى الوقت ذاته ابتعاداً عن أعين الأساتذة الفاحصة حتى لا يشقى منهم بكثرة الأسئلة التى تصعب الاجابة عليها وربما تستحيل .. فينتج عن ذلك عذاب جسدى ومعنوى يخشى عباس على جسمه الناحل وروحه الطليقة المراحة من مغبة اثاره وعواقبه . وفى مقدمة هؤلاء الاساتذة الذين يكادون يخترقونك بنظراتهم النافذة الاستاذ غزالى السراج والاستاذ السبكي الجزولى والاستاذ فرح . فقد كان من مواهبهم اسئلة الفجاءة والأخذ على حين غرة ، وهى أمور لايفلح معها إلا من وضعها فى الحسبان واستعد لها أحسن استعداد . ومن عجب أن عباس صالح لم يكن تلميذاً مهملأ وإنما كان مجداً يحاول أن يعد لكل شئ عدته ولكنه ليس بثبت الجنان عند المباغتة ولا بحصين اللب عند المفاجأة ، وإنما تطير نفسه شعاعاً اذا ألمَّ به وأدركه حال لم يكن فى حسبانته . وهو يجلس بالقرب من نافذة الفصل التى تطل على الجهة الشمالية من فناء المدرسة . ولعله كان يمنى نفسه فى أعماق أغوارها بأن الجلوس بقرب النافذة ليس هو لمجرد الالتذان بالهواء النقى المتجدد فحسب ، وإنما هو يشكل ايضاً نوعاً من انواع طوق النجاة إذا ادلهم بالتلاميذ خطب واحاطت بهم نذر مكروه - كما كان يحدث ابان فورات الشيخ ابى بكر العاصفة - وعزت عليهم منافذ الهرب . على أن عباساً بالرغم من اختياره لهذا الموقع لجلوسه فى الفصل لم يكن ليجرأ يوماً على

استخدام ذلك المنفذ « الاضطرارى » نجاة بجلده ، لأنه يعلم علم اليقين الأ مهرب من عقاب الاستاذ اذا حل به سخطه ، وأن يد المدرسة طويلة ، وهى قادرة على اعادته حتى وان أطلق ساقيه للريح وبلغ داره وهو آمن . فقد كان أولياء الامور متعاونين مع سلطات المدرسة أشد تعاون ، وليس من سبيل للافلات من شقى الرحى حتى ولو أوتيت حوافر فرس امرئ القيس وكان لك أيطلا ظبى وساقا نعاما وارخاء سرحان وتقريب تتفل ، ولذلك قنع عباس صالح بالخلود إلى الجلوس فى هدوء هش مصطنع ، ينبئ عن حقيقته ارتجاف لاتخطئه عين ، يتحول إلى استعطاف علنى إذا أوشكت صفعات الاستاذ أن تنهال عليه ، وساعتها تختلط الاستغاثة بالجزع .. يافندى عليك الله ، يافندى خلىنى ، وليس ذلك بمصرخ لعباس او غيره من التلاميذ ، لأن « الباقي باقى » « والزارعو الله فى شارع الظلظ يقوم » كما يقول عبد الكريم .

كان عباس صالح تلميذاً مجتهداً حسن الفهم موفور العقل . ولكن ، من منا لا تخونه ذاكرته ، خاصة إذا ووجه بأستاذ يبدؤه بالسخرية والتقريع والاستهانة ، ويفاجئه بما لم يجل فى خاطره أو يكن فى حساباته ، ثم يستنجزه الاجابة الصحيحة دون إبطاء ؟ فى مثل هذه المباغثات يطير القول الصواب من خلايا الدماغ وان كان مخالطاً لها قبل هنيهة ، وتنمحي الحكمة من صفحات الذاكرة وان كانت منقوشة عليها قبل لحظة ، وتجتعض المفاجئة ما فى أرحام الخواطر وان كانت حبلى به منذ حين . فيفغان على القلب ، ويسود سلطان النسيان ، وتتعثر فى خضمه المباغث الكلمات ، ويستحيل النطق إلى سلسلة مبهمه المقاطع من التلعثم والتكؤ والهذمة ، فتخرج الاجابة - على أحسن أحوالها - مبتورة منقوصة مقصرة عما يتطلبه الموقف وبيتغيه السائل ... ثم تحل اللعنة الاستاذية الغاشمة على التلميذ « المسكين » فيتلقى من استاذة ما كان يخشاه من قادح الكلام وقارح اللطم ، حتى إذا قضى من تلك العقوبة وطراً أثبت اسم التلميذ فى دفتر المعلوم فلم يكن له بد من تصفية حسابه مع عم مبارك فى نهاية ذلك اليوم الحزين ! على أن جزع عباس كان له ما يبرره ، فهو تلميذ وديع أصلاً مسالم

بطبعه ، وهو مجد يبذل جهده من أجل اجادة التحصيل وفى سبيل ارضاء الاساتذة . يحاول ملاحقة المستعصيات من الدروس والعلوم بكل ما أوتى من صبر وقوة ارادة ومقدرة على الاستذكار والحفظ والاستظهار ، ثم هو يواجه بسؤال لم يخطر له على بال يلبس عليه أمره « ويتعتعه » تتعتة لا ينفك منها . فمن أين له بالصواب ليدفع به غائلة ما يمكن أن يترتب على مجانبته ؟ ولكن هذه « الورطات » لم تكن تفت فى عضد عباس وهى لم تفقده الثقة فى مقدراته الذهنية ولا فى سلامة مقاصد أساتذته . وذلك لأنه أدرك بتجربته الذاتية وبالبرهان القاطع أن الاجابات الصحيحة على كل الاسئلة المضنية لا تكون إلا ثمرة جنية لمزيد من الاجتهاد والتحصيل واعادة الكرة مراراً بغية الالمام بالمعارف المبتغاة . ورغم أن مثل هذه الاسئلة الصعبة كانت تعتبر فى نظرنا السطحية لها تجسيداُ ظاهراً لجور الاساتذة وظلمهم ، إلا أنها كانت تشتمل فى حقيقتها وصدق مراميها على حكمة بالغة أدركها ذلك الجيل فيما تعاقب عليه من أزمان ، إذ كان المقصود منها الأ يقتصر جهد التلميذ على استذكار ما يلقي على مسامعه من دروس فى الفصل ، وانما يجب أن يتعداه إلى آفاق أرحب ، فيتعود على القراءة والاطلاع ويتعشقهما ، ليوسع ذلك من مداركه ويثرى معارفه وينمى فيه قوة الخيال المستبصر واتساع رقعته ، ويغرس فى نفسه حب التعلم والاستزادة من الثقافة والعلوم والنزوع الواعى إلى اجتلاء حقائق الأشياء . وليس أدل على ذلك من مطالبة الاساتذة لنا بحفظ كثير من القصائد الشعرية التى لم تكن تتلى فى الفصل والقيام بتمثيل كثير من الروايات التى لم يكن يجرى تدريس نصوصها بين الجدران ، و تحرير صحف الحائط بما يمكن أن يفينه الله على التلميذ الصغير من المعارف وادوات التعبير . فكان المطلوب من بعد اتقان الدروس التى تدرس فى الفصل والاحاطة بها هو الإلمام أيضاً بكنوز المعرفة التى تستحق أن تجتلى والتى يمكن أن تستوعبها مقدرات التلميذ . وكان اكثر ما يُزعج عباساً إذا رأى عم عبدالعزيز وعم محمود أو عم جادين وعم شيخ ادريس وكل منهم يرتدى البردلوبية والبنطلون الكاكي ويضع على رأسه عمامة

احكم ربطها وكأئنه استدعى من توه لجهاد الأعداء ! فاذا دخل عم محمود وعم عبد العزيز - أو احدهما مع عم جادين - إلى عرصات الفصل من وراء الاستاذ ، فذلك يومئذ يوم عسير من أيام الشؤم التى يطول مداها فلا تكاد تنتهى إلا « بخراج الروح » . فدخولهما للفصل هو واحد من أهم العوامل التى تطيح بالثبات وتخلخل العزائم وتضوى العقول والاجسام . فاذا كان الداخل قبلهما هو الاستاذ محمود بلال رزق ناظر المدرسة فذلك هو الطوفان بعينه ، ولا سبيل معه إلى ولو سفينه النجاة وركوبها إلا لمن رضى عنه الاستاذ ، ومارضى إلا عن قليل ، وحتى القليل الذين ربما رضى عنهم الاستاذ هم فى دخيلة انفسهم نهب للفرع وافئدتهم هواء ، تراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون ، وتحسبهم متماسكين وهم فى حقيقتهم شظايا متفرقات وشتات متناثر ... حتى يجمعه الله القادر على تسوية البنان حينما تستنقذهم من الخطر المحقق صلصلة الجرس وهى تعلن نهاية الحصاة ومعها انتهاء العذاب . ولعله من المفارقات العجيبة أن يكون الجرس الذى يججل فى يد عم مبارك هو المنقذ من العذاب فى الوقت الذى يعلن فيه دفتر عم مبارك الذى يحمله فى يده الأخرى فى صمته الكئيب : وما نؤخره إلا لوقت معلوم ! فاعجب لرجل جمع سلطانه بين الإنجاء والتطويق ... جرسه الذى يقرعه بين الحصص فيه نجاة من عذابات بعض تلك الحصص . وجرسه الذى يقرعه فى نهاية الحصاة الأخيرة انما هو نداء لا يرضى بما دون الاستجابة الفورية ، وهو دعوة صريحة للمثول أمامه فى نهاية المطاف .. مالك من ذلك من محيص . وما أندر ما كان مثل هذا المثول ينتهى بسلام ! وفى الحقيقة لم يكن ظهور عم عبد العزيز وعم محمود ( أو عم جادين ) فى الفصل أمراً كثيراً الحدوث ، وإن كان حتى الالتقاء بهما فى صحن المدرسة مثيراً للربح داعياً للريبة باعثاً على استصحاب الحذر وتقادى الاقتراب . فاذا أبصرهما عباس فى الفصل ارتج عليه من كل جانب وأخذ منه الفرع كل مأخذ وبلغ به الجزع مبلغاً . وغالباً ما ينتهى به الامر إلى عين ما يخشى ويحاذر .. فاذا هو محمول بعد قليل بينهما ، عم محمود يمسه من يديه

وعم عبد العزيز يحكم قبضته على قدميه ليصير جسمه عائماً فى الهواء ، و السوط ( و احياناً البشمة ) يهوى على عقبه فى لسعات حرار متتابة ، فلا يفيد الصراخ ولا يجدى العويل ولا ينفع الجزع .. حتى يبلغ الكتاب أجله . ولست أرتاب فى أن عباس صالح - تماماً كغيره من زملائه التلاميذ - قد أذى كثيراً من مثل هذه « البطحات » على الهواء ، ولكنه كان أذى مؤقتاً ، وقد جنى ثمار مقاصد الاساتذة مزيداً من الجد والاجتهاد ومضاعفة العزيمة ، فحقق بذلك نصراً مؤزراً ونجاحاً مرموقاً ، ودخل مدرسة خور طقت الثانوية من اوسع ابوابها متفوقاً على كثير من زملائه ، وتأهل فيها وانشجذت همته وفطانتته حتى صعد إلى مدارج جامعة الخرطوم وهو راض عن نفسه سعيد بأنه من أجل ذلك أشقاها . ولو أنه أنس تراخيا من أساتذته فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى لتراخى فى استذكار دروسه ، ولما بلغ من أمره ما بلغ . ونحن نذكر تلك الوقفات الصعبة وذلك التشديد الحازم من قبل الاساتذة بجلاء ووضوح ، ونسميه عذاباً وشقاءً من باب تسمية الأشياء بمسميات تلك العقول الصغيرة فى تلك الازمنة الغابرة . ولكنه كان فى الواقع اشقاءً قصير الأجل قصد من ورائه اسعاد طويل الامد ، وكان « عذاباً » يستصحب فى متونه ومراميه اسباب الراحة والفوز ، إن كان فى هذه الدنيا ما يصح أن يسمى فوزاً أو راحة ، وكانت تلك السياسة المتشددة فى حقيقة أمرها ومقصدتها سياسة حكيمة نافعة جنينا ثمارها كاملة فيما بعد وأفدنا منها خيراً عميماً . فقد وهبت مراحل التعليم الاولية فى تلك الازمنة بلادنا اعلاماً خالدين فى مجال الادب والسياسة والتربية وشتى حقول النشاط المهنى . فان ذكرناها فى هذه الصفحات وغيرها بأسلوب تغلب عليه أحياناً روح السخرية ويصورها وكأنها كانت شراً مستطيراً وقدرأ نكيراً ، فما ذلك إلا محاولة منا لتقليب ما كان ينطبع على الأذهان فى ذلك الوقت على غير هيئة مقاصده الحقيقية وربما دون تبين واع لراميه المرادة .

ولقد قدر لصلتى بعباس صالح أن تستمر وتطول .. وأن تثمر على مر الايام مودة متبادلة باقية ، فالتقينا مرة أخرى فى رحاب مدرسة خور طقت الخالدة ، وعباس صالح

قد زاد طولاً وارتفاعاً قامته فبان جسمه أكثر نحافة مما كان عليه . وفارقه ذلك الجزع وفارقه هواجسه بعد أن أفاد من اسبابها وبواعثها انكباباً على التحصيل وثقة بالنفس وسعة فى المدارك أثمرت نجاحاً مظرفاً صعده به إلى مراقى خور طقت الثانوية عن جدارة واستحقاق وفى يسر وطمأنينة . وبذلك فارق عم عبد العزيز وعم محمود وعم جادين والاستاذ محمود بلال رزق وغيرهم من « مهددات الأمن » النفسى إلى الأبد . واكتسب عقله وجسمه نمواً متزايداً وشعت على وجهه وحديثه ومسلكه مطالع النضوج وبواكير الرشد والسداد . لقد انعتق عباس من ربة « الحدائث » التى كانت تغرى بعض اساتذته - وربما بعض « عواجيز » التلاميذ بالاستخفاف بشأته والتعدى على حريته وإحصاء أنفاسه عليه . وحق له أن يفرح بهذا الانعتاق ، وحق لمحمد العوض الساخر أن يقول كلما أبصر عباس صالح وهو يلهو ويرتع فى تلك البقاع الخضر الحسبية . « هذا هو الانعتاق .. لقد انعتق عباس صالح » ! ولقد صدق محمد العوض ، وان كنا لا ندرى من فرط ما ألفنا سخريته وتحويره للكلام أكان يعنى ما قال حقاً أم كان يرمى من وراء ذلك إلى التندر على عباس . وذلك أن محمد العوض ربما كان يعنى بهذا القول : « غاب ابو شنب ولعب أبو ضنب » ! وان عنى ذلك فهو حق أيضاً لأن الحرية التى أظلتنا فى خور طقت لم تكن لتتسع لأشنان وما كان التنعم برحابة أفاقها يحتاج إلى أذنان . فهى حرية حقيقية وجامعة فى إطارضوابط ترضاها النفس ولا يضيق بها الصدر ، وافت فنتية أعلوا قيمها وأكبروا معانيها وجعلوا من مناخها المعافى غذاء طيباً للروح عذب المذاق ومشرباً هائناً للفكر صافى الأديم . فكان عباس صالح من تلاميذ خور طقت البارزين . وله من مجموعة أولاد الموردة وزملاء أم درمان الاميرية السابقين عصابة لا بأس بها ، من بينهم محمد العوض مصطفى ومختار التوم وابراهيم محمد ابراهيم ( ظعوط - الخواجة ) والكبتل محمد عثمان ابراهيم ومحمد على مقبل ومصباح الصادق وعباس مدنى وطائفة أخرى من الفتية الميامين يضيق الحيز عن احصائهم فرداً فرداً . لقد لقي عباس صالح الأمان فى خور طقت ، وزال عنه الضنك ،

وعاودته خفة روحه ولطائف دعاياته التي كانت قد رانت عليها أحزانه السالفة واجتاحتها - أو غطت عليها وغمرتها - صرامة الاساتذة فى المدرسة الوسطى ونزاعات الانتماءات السكنية والعقائد الكروية .. وما أن هبت على روحه نسيمات الحرية الندية فى تلك الربوع الكردفانية الحاملة ، وما أن ولج ذلك المجتمع الطلابى الجديد الذى كان تجسيداُ رائعاً للتنوع والائتلاف ، ومثالاً حياً نابضاً للوحدة فى اطار التباين ، حتى تفتقت عن أفوافها موهبته الساخرة وتفجرت مقدراته على ابتداع الطرائف والملح واتخاذ المواقف الباعثة للمرح والضحك والتسلية والعبث البرئ . فكان عباس صالح ومحمد على مقبل وعباس مدنى أبطالاً مرموقين من صنايد « الصفرة » فى خور طقت والصاد فى كلمة « الصفرة » تصحيف لحرف السين ، فالأصل هو « السفرة » وهى التى يؤكل عليها ، وسميت « سفرة » لأنها تبسط إذا أكل عليها . والتعبير يشمل المنضدة التى يوضع عليها الطعام ، وصار يشمل غرفة الطعام نفسها فتسمى « سفرة » ونقول فى العامية السودانية « سفرة » . كان عباس صالح وبرفقتة أولئك الفتية الميامين صنايد « الصفرة » بحق ، يدركهم اخر قرع للجرس وهم بداخلها ، لايسبقهم - فى بعض الأحيان - إلى عرضاتها الامنة إلا أبطال آخرون صبر عند اللقاء وفى مقدمتهم الزعيم الطيب أحمد حميدة ومحمد عبد العزيز ( أبو لاطومة ) وحسين عبدالله ( أبو الحسوس ) وكوكبة اخرى من الجنود المجهولين ممن حسن بلاؤهم فى هذه المواقف وشهد لهم بالسابقة فيها كل من حكم بعين الانصاف وبصر العدالة . ولقد استمر افتتاح عباس « بالصفرة » ومداومته على احراز قصب السبق إلى « ميسها » حتى دخولنا جامعة الخرطوم . وقد كان ذلك مدعاة للتساؤل المشروع الذى طرحه عليه عبد الحفيظ الرفاعى قائلاً : يا عباس ، ترى ماذا كتبت أنت فى استمارة التقديم إلى الجامعة؟ هل قدمت إلى كلية الاداب ام إلى « الصفرة » ؟ فما زاد عباس على أن ضحك ملء شذقيه ، ولم يجب بشئ . ولم يدر بخلد أحد منا أن يتصفح استمارات التقديم فى تلك الايام ، ولو أننا فعلنا ذلك لطرحننا أشياء هذه الاسئلة على

رهنط كرىم من زملائنا كان لبعضهم حضور دائم فى قهوة عم خوجلى صالحين ، ولغيرهم مثله فى دار الاتحاد ، ولآخرين أبلغ منه فى « خباز » « وشناكة » وأمثالها ! غير أن شأن الجامعة شأن آخر وربما تناولناه فى غير هذا الملف ان كان فى العمر بقية ، والله هو المستعان والموفق لاسواه .

ومن دلائل الانعتاق الذى اصابه عباس وحظى به فى خور طقت ولعه بالتصوير الفوتوغرافى . فقد كانت الكاميرا (Pinhole) فى تلك الأيام الرخية لا تكلف اكثر من مائة وخمسين قرشاً . وكانت رحلات التلاميذ مع مستر ودول (Woodall) استاذ الجغرافيا أحداثاً تستحق التسجيل . وقد برع عباس صالح فى هذه الفنون واحتفظ بلقطات نادرة هى اليوم عنده وعند بعض زملائه كتاب يتلى واجنحة خضر تمخر بك عباب المدى وفضاء السنين عوداً الى أيام الصبا الحاملة المراحة ومراتع اللهو البهية النضيرة . فاذا تأملتها أعادت إلى مخیلتك جميع الأحداث التى عشتها وانت فى مية الصبا وغمرتك بحنان طالما افتقدته وضل سعيك أن تأتى له بمثل . فذكرت ذلك الإلف الذى جمع بينك وبين لداك فأحكم الرباط ووثق العرى حتى عجزت غوائل الحقب الطوال أن تفرق أو تباعد بين القلوب . فهذه حسنة واحدة من حسنات عباس الكثر وموهبة واحدة من مواهبه العديدة لا يدانيه فى ذلك إلا بضعة افراد اذكر منهم زميل الصبا ذا الاحساس المرهف والوفاء الأصيل أحمد الأمين عبد الرحمن ، وصديق الكل وأمير الدعابة والملح والطرائف احمد صالح الذى كان يدير « كنتين » العمارة ويحسن الادارة والوداد . ولقد حفظ ثلاثتهم شمس تلك الأيام وأقمارها ونجومها فى حرز من اللقطات الخوالد أمين . ومن عجب أنك لا تطالع وجه عباس صالح فى اى من هذه اللقطات الرائعة إلا وهو ضاحك جذلان . فاذا ذكرت عباس ام درمان الاميرية فائك واجد فى صحائف خور طقت عباساً غير الذى خبرت هناك ، وملامس صواب ما ذهب اليه محمد العوض كلما أبصر عباس صالح وهو يركض ويلهو على أديم تلك الرمال الندية العطرة الحبيبة ، فقد كان محمد يشير ضاحكاً إلى عباس ويقول : هذا هو



الانعتاق ، وكاد عباس الذى عشق الخضرة وهام بالرمال أن يصدع بالأشعار  
والنشيد . ولو فعل لما تعاضمه أن يغنى بلسان شاعر النيل اذ يقول :  
أيها الوسمى زربت الربى . . . . . واسبق الفجر إلى روض الزهر  
حيه وأثر على أكمامه . . . . . من نطاف الماء أشباه الدرر

## الشايقى .. ما عندو أمان :

كان من شيعة عباس صالح فى فصلنا تلميذ مورداىى اخر اسمه محمد الحسن  
وهو ينتمى إلى فرسان الربع الخراب فى الفصل بقلبه وجسده وعواطفه ، يجلس مثلهم  
فى موخرة الفصل ويتحدث لغتهم ويتبعهم حذو النعل بالنعل فيما يأتون من صخب  
وضجة وازعاج . وهو فى ارتفاع قاماتهم إلا قليلاً وفى مثل « ربيع » أعمارهم إلا  
أسابيع أو أياماً ، وفى درجة جسارتهم إلا من بعض مظاهر الحيطة والحذر . ولقد  
كانت هذه المظاهر من بعض الاسباب التى جعلت محمد العوض يسر الى فى مرات  
عديدة وهو يشير إلى محمد الحسن : « الشايقى ما عندو أمان » .. ورغم أنى لم أقف  
على مقصد محمد العوض من هذه المقولة فى أول الأمر ، إلا أن الأيام قد برهنت على  
أنه كان حكيماً بعيد النظر . فقد توفرت لى مع مرور الزمن أسباب للاعتقاد - وإن لم  
يكن جازماً ولم اتحقق على وجه الدقة من صحته بعد - أن محمد الحسن كان من  
طرف خفى وراء العلقه التى تعرضنا لها بالقرب من نادى الموردة فى تلك الليلة الحالكة  
التي قادنا فيها الكبتل إلى غزوة منينا فيها بهزيمة ماحقة . ولقد سألت محمد الحسن  
مراراً عن جلية ذلك الأمر ولكنه أنكر ضلوعه فيه جملة وتفصيلاً ، غير أن تلك البسمة  
الساخرة الماكرة التى كنت أطالعها فى وجهه كلما طرقت معه هذا الموضوع وهو له  
منكر ، تركت فى نفسى ظلالاً من الشكوك لم تغلح فى محوها وازالتها كل محاولاته  
اللاحقة من الدنو من مجموعتنا « الود نوبابوية » والتقرب اليها .

كان محمد الحسن مورداياً حتى النخاع ، لا يجامل فى ذلك ولا يصانع ولا يرائى ،  
ويعتبر تهاون عباس صالح فى العقيدة المورداية وتسامحه فى أمرها خوراً وتنكراً

للمقدسات ؛ ولذلك لم يكن يحفل بعباس كثيراً فى مثل هذه القضايا وان كان عباس يشاركه الانتماء الجغرافى السكنى وبعضاً من التشبث العقائدى الكروى . غير أن محمد الحسن كان صادقاً فى تشييعه وانحيازه لفريق الموردة ومجاهراً بذلك حتى أمام الصقور الهلالية . فقد كان بينه وبينها اتفاق غير مكتوب على الاجتماع على أحداث الهرجلة فى الفصل بكل الوسائل المتاحة والأدوات الفاعلة وخاصة فى حصة الشيخ أبى بكر ، وعلى احتفاظ كل منهم بحرية الانتماء والتشييع إلى ما يريد ويختار من الأندية الرياضية الكروية . وهو انتماء وجدانى صرف إذ لم يكن من بين أولئك التلاميذ الصغار من بلغ مرتبة العضوية فى ناد من الأندية الرياضية . ورغم أن المعارك كانت تحتدم أحياناً بين مشجعى هذا الفريق وذاك إلا أن بقية مجموعة الصقور كانت تحترم بنود ذلك الاتفاق المضمّر بين الطرفين ، وتراعى عواطف محمد الحسن الكروية وتصطنع له المعاذير ان مال إلى الشطط بعد أن ترده عنه بالتى هى أحسن ، بل ربما خفت إلى نجدته ان هو تعارك مع المريخاب أو ناله منهم سوء . وربما لم يكن ذلك حماية له كحليف فحسب وانما محافظة على هيبة الصقور من أن تصبح « ملطشة » فى نظر الناس واصراراً منهم على الاحتفاظ بدرجة التفوق فى ميزان القوى ومقدرات الردع والمنعة . أما عندما تشب المعارك على أساس الأحياء السكنية فانى رأيت بقية المناطق تتضافر جهودها على مجموعة الموردة ، ولم أدر لذلك التضافر سبباً مقنعاً إلا أن يكون ضيقاً بما يبدوه أحياناً من صلف وما يؤخذ عليهم من جنوح إلى الغرور . ولم يكن لفظ « القراقير » قد تبلور وشاع وعرف طريقه إلى قواميس تلك العهود بعد ، وقد اشتملت مجموعة الموردة على محمد الحسن وهو شايقى ، وعلى محمد العوض وصلاح سليمان وهما عمرا بيان ، وعلى غيرهم ممن كاوا يعتبرون غرباء فى تلك الديار .

ولم يكن محمد الحسن يبدي كثير اهتمام بالدروس ، رغم أنه كان من أكثر المتعرضين لبطش بعض الاساتذة وأليم عقابهم . ولكنه كان مولعاً بالدعابة مفتوناً بالنكتة سخاباً بالمراح . وكان فى ذلك خير كثير ، لأن محمد الحسن زعيم مرموق بين

فتية الموردة وفي تقبله للدعابة وحرصه عليها وولعه بالنكات وأسباب المرح مدخل  
للآخرين إلى صميم تلك المجموعة الصارمة ومدعاة لاقامة وترسيخ علائق الود والمسالمة  
معهم . وربما كان الشيء الوحيد الذي يحفظ محمد الحسن على الآخرين - سوى  
تشجيعهم لغير فريق الموردة - هو أن الكبتل الألفة كثيراً ما كان يفتتح باسمه قائمة  
المهرجلين في الفصل ، لايهابه ولا يخشاه ، وأن الباقيين قد سكتوا عن هذه الفعلة  
راضين بها لا ريب .. والكبتل كما قدمنا هو الذي حرصنا على غزو المورداً في عقر  
دارهم من قبل ، وعرضنا بذلك التحريض المتعجل الذي كانت تنقصه أبسط قواعد  
الحيطة والاستعداد « لعلقة » لا تنسى وعار لا يمحي وانكسار مشين كنا في غنى عن  
تقحم أسبابه . ومثلما كان الكبتل إمامنا في الاقتحام كان امامنا في الهرب ومحاولة  
النجاة من بطش اولئك العتاة الذين تضافر على أجسامنا الصغيرة منهم نفر لا قبل لنا  
ببأسهم ولا بهراواتهم الغليظة « المضيبة » . لم يكن محمد الحسن من بينهم يوم ذاك ،  
ولكنه ربما أبلغهم بأمر مخططنا وهياهم بذلك لاتخاذ الوسائل الدفاعية الكفيلة  
بدحرنا واحراز النصر علينا ، فهذا هو ما تهامس به الناس من بعد ولم نقف على  
صحته بصورة قاطعة فقد انكره محمد الحسن جملة وتفصيلاً وتبرأ من التهمة به

أمام الملأ . وزعم أنه علم جلية الامر في الصباح وقد حمد قومه السرى . ولكنه لم  
يبد أسفاً للذي حدث ، وانما جاء إلى المدرسة في الصباح التالي يشيع بين الناس خبر  
الهزيمة الماحقة التي منينا بها ويضحك ملء شذقيه من سذاجتنا التي أوردتنا المهالك ،  
ويتندر على الكبتل - من وراء ظهره - بكل ما أوتى من كلمات جارحة . وبلغ ذلك  
الكبتل فأسرهما في نفسه ولم يبدها له . ورأى أن خير وسيلة للثأر منه هي اعتماد  
اسمه مفتاحاً دائماً لقائمة المهرجلين في الفصل ، وهو يعلم أن لأولئك جزاء ين : جزاء  
عاجلاً يوقعه بهم الاستاذ الذي يدخل الفصل عند بداية الحصّة ويطلع على القائمة إن  
أراد أن يعاقبهم ، وجزاء أجلاً أو مؤجلاً ولكنه مؤكد عند عم مبارك في نهاية اليوم  
الدراسي عندما تتحول قائمة السبورة إلى دفتره الجامع بأمر الاستاذ . وبذلك أصبح محمد

الحسن أقربنا إلى سوط عم مبارك ، وأصبح حنقه على الكبتل يتزايد يوماً بعد يوم . وهو ربما أسر في نفسه تدبيراً للإيقاع بالكبتل ولكنه كان يخشى من عاقبتين ان فعل ذلك : أولهما اجتماع كلمة الصقور عليه وهم حلفاء طبيعيين دائمون للكبتل . والثانية أن عم محمد بن صاحب الطبلية التي تمدنا بالقوت الضروري - الفول والطعمية - هو خال الكبتل وولى أمره . ولا حرية في التصرف المطلق لمن يعتمد في غذائه على الآخرين ! وأنى لمحمد الحسن الاعتماد على نفسه في أمر حيوى كهذا ؟! وهكذا شكلت هاتان المعضلتان رادعاً لمحمد الحسن ، ولم يجد بدأ من بسط يده للكبتل مصالحاً معتزلاً منيباً ، ومن الكف عما كان يشيع ويذيع به من مثبته الهرب والفرار من الزحف التي تولى كبرها فعاتت علينا فعلتنا الفطيرة بشماتة أقل فصولها زراية بنا وأكثرها رحمة لنا أن يقال عنا : « ابوزيد لا غزا ولا شاف الغزوة » ، رغم أننا « شفنا » الغزوة « وشفنا » على أثرها أهوالاً نجانا منها الله المستعان . وعلى كل فقد انتهى الامر بمحمد الحسن إلى مصانعة الكبتل رغم ان اسمه ظل في مقدمة المهرجلين أياماً إلى أن توسطنا في الامر ، وساعد على هذا أن الجميع « سقطوا » عند الشيخ أبى بكر وكان آخرهم سقوطاً الكبتل نفسه ، فلم يعد يحفل بعد تلك السقطة بشئى ... فقد صرنا كلنا فى الهم شرقاً .

كان محمد الحسن تلميذاً مديد القامة بالنسبة لاكثر اقرانه ، مع امتلاء فى الجسم يقارب السمنة يجعله أقرب هيئة إلى عبد الكريم منه إلى مكى أو محجوب . له عينان نكيتان لماحتان يعلوهما حاجبان كثان يكادان يقتربان إلا قليلاً ، ينبت من تحت ركنيهما الداخليان أنف يعلو شيئاً فشيئاً حتى يبلغ قمة ارتقاعه فينحدر جانبا على هيئة قوسين متساويين يحيطان بمنخرين تبدو منهما شعيرات صغيرة لا تخطئها عين من يقف قبالته اذا هو تبسم اوضحك أو نفخ فيهما بحركة لا شعورية .. فهو انف حسن الصورة ، لا هو بالمقوس ولا هو بالافطس ولكنه قوام بين ذلك . وهو يشرف على « مشروع » شارب بدأت بوادره تبشر - أو تنذر - بنمو متعاضم ... يؤهل محمداً

لينسلك فى عقد الصقور . ورغم أن محمد الحسن كان يجلس على مقربة منهم وتجمع بينه وبينهم تطلعات مشتركة للزعامة والريادة والرغبة فى الهيمنة ويسط السلطان على الآخرين ، إلا أن عوالمهفة الحقيقية كانت مع مجموعة الموردا ب ، فلاشئ يعدل الوطن ! ولذلك تعرضت صلته بالصقور لشيء من المد والجزر وتخللتها اشتباكات لم يكن محمد الحسن يقوى على متابعتها والصمود فيها إلى نهاية الشوط دون سند موردا بى حقيقى . ولما كان من ضمن مجموعة الموردا ب رهط مسالم ومؤثر يتكون من محمد العوض ويوسف خضر وقاسم عبد القادر أبى عكر فان محمد الحسن أثر المسالمة فى نهاية المطاف . وعلى كل فهو يعلم أنه شايقى وشتان ما بينه وبين العمارب وغيرهم . وقد كان أمله أن تسعده هذه « الشايقية » عند الشيخ أبى بكر الرباطا بى ، ولكنه رغم هذا « التقارب » القبلى لقى من الشيخ الأمرين ، فما كان الشيخ ليقم وزناً لمثل هذه الامور . ولذلك لم تعد هذه الشايقية على محمد الحسن إلا بالشقوة والنكير ، وظل الشيخ ابوبكر متوجساً فى أمره على الدوام ، وهو محق فى أكثر حالات توجسه . فعندما يضع عبد الكريم شفرته على الشق الذى احتقره على ظهر درجه ويعزف عليها بالبرجل والمنقلة والمثلث ليحدث تلك الانغام التى يبدو الشيخ عند سماعها وكأنه قد خولط أو اعتراه مس من مارد من نار فان محمد الحسن كان يتمايل طرباً مع تلك الأهازيج ، وترتسم على وجهه علامات الرضا والسرور فلا تخطئها عين الشيخ . ثم يبوء محمد الحسن فى نهاية الامر باثم غيره ويلقى من الجزاء ما هو ليس بأولى به من عبدالكريم . وذلك أن الشيخ يقول : « اللى بيدق الرمبة لى كرم وكرم يرقص يوقف على حيلو » . والواقع أن كرم هو الذى « يدق الرمبة » فى أغلب الأحيان ، وان كان الذين يرقصون على انغامها كثيراً لم يكن محمد الحسن بأجلهم شأنأ ولا أبلغهم مهارة غير أنه لا يحسن اخفاء سروره ورضاه فيلمح الشيخ فى وجهه واهتزاز جسمه هذه العلامات ظاهرة جلية . ولم يكن حفظ قصار السور من الامور المستعصية على محمد الحسن إن هو وطن نفسه على ذلك وصح عزمه عليه ، ولكنه يئس كما يئس غيره من

إرضاء الشيخ لانك لا يمكن أن تتنبأ بما يريدك منك الشيخ فى أى لحظة من اللحظات . فهو قد يفاجئك فى أى وقت طالباً منك « تسميع » سورة لا قبل لك بها وهى لم تخطرلك على بال فاذا تلعثمت أو أقررت وأعترفت بأنك لا تحفظها انهال عليك الشيخ ضرباً وشتماً واتخذك هزواً وأشعرك بالصغار والذل ، وختم ثورته عليك باصدار أوامره للالفة ليضع اسمك ضمن قائمة « هؤلاء قليلو الادب » وأنت « صفر » اليدين من أى درجة من الدرجات . ولذلك كان محمد الحسن من المعجبين بمصطفى عابدين وأساليبه الماكرة التى يلوث بها ملابس الشيخ بحبر الدواة باقتدار بالغ دون أن يشعر الشيخ بذلك . وكم كان محمد الحسن يود لو تواتيه مقدراته فيقفو أثر مصطفى عابدين . ولكن الهلع والرعب الذى كان يملكه كلما دب الشيخ بين الصفوف مثل ديبه لسهرة يبيحث عن من « يدق الرمبة لى كرم » لم يترك له ملكة - أو قل جرأة - للاقدام على مثل هذه الفعلة . ولما وقعت عينا الشيخ ذات مرة على محمد الحسن وهو يرقص طرباً على أنغام « رمبة » عبد الكريم أوسعه ضرباً وزراية وصغاراً . فلم يجد محمد الحسن وسيلة للانتقام من الشيخ سوى أن يعجب - على البعد - بما كان يفعله مصطفى عابدين وبعض الأشقياء الذين برعوا فى مثل هذه الفنون وأمطروا قفاطين الشيخ بوابل من رذاذ حبر الدواة .

لقد انتهى عهدى بالصديق محمد الحسن الشايقى عند مغادرتنا لمدرسة امدرمان الاميرية الوسطى ولم أراه بعد ذلك أبداً . وانى لا نذكر له رفته و دعابته وحيويته الدافقة ومحاولاته الصادقة الدؤوية لد حبال المودة وجسور الوصال بينه وبين زملائه على اختلاف انتماءاتهم السكنية والكروية، رغم موردابيته التى كان وفيماً لها كل الوفاء ، فخوراً بها كل الفخر . ولم أكن أعلم ما كان يفعله محمد الحسن بعد انتهاء اليوم الدراسى وذهابه إلى داره ، ولكنى كنت أشعر أنه لم يكن يولى دروسه كبير اهتمام ، ولعله كان من أولئك الرهط الذين « استطالوا » اعوام الدراسة واستبطأوا موعد التخرج ، وربما تعلقت آمالهم بامتحان السى إس (C.S) أو الالتحاق ببخت

الرضا اختزالاً للوقت وتعجلاً للانخراط فى سلك الوظيفة أو ما كنا نسميه « بالحياة العملية » عوناً للأسرة وانعتاقاً من عذابات الدرس والتحصيل . فقد جالت مثل هذه الأفكار فى خواطر الكثيرين منا طويلاً وكدنا نركن اليها شيئاً قليلاً ، ولكن الله يفعل ما يريد .

## هاشم مصطفى ... ومكر القردة :

إذا ذكرت مجموعة المورداً فى فصلنا « التوانى » فان اسم هاشم مصطفى يأتى فى المقدمة . وليس ذلك لأن هاشماً كان من القادة البارزين لهذه المجموعة ، ولكن لميزات أخرى . كان هاشم مصطفى تلميذاً صغير الحجم طويلاً وعرضاً ، ذا عينين دقيقتين يشع منهما مكر ظاهر وذكاء خفى ، له أنف صغير يعلو فماً قليل الابتسام قليل الكلام . يضع على رأسه الصغير عمامة قصيرة هى دائماً أقل نصوعاً وبياضاً من جلابيته ذات الياقة القصيرة التى تحيط بأسفل عنقه احاطة السوار بالمعصم . عمامته لا تفارق رأسه أبداً ، ويقتنى أن أحداً لم ير ذلك الرأس بلا عمامة ، لأن هاشم مصطفى لم يكن مولعاً بالداפורى الذى يرتاده التلاميذ ويخفون إلى ميادينهم وهم حاسرو الرؤوس وجلهم عارى الصدر والبطن حافى القدمين . لقد كان هاشم يفضل الوقوف على البعد والنظر دون الاشتراك . ورغم أنه ينتمى إلى « منزل » الموردة إلا أنه لم يكن يؤذيه فى كثير أو قليل أن يتغلب على هذا « المنزل » أى من المنازل الأخرى - مثل « منزل السوق » أو « منزل ابى روف » . ففى « منزل ابى روف » كان يلعب مرزوق قلباً للهجوم وهو ثعلب الكرة الماكر وكابتن فريق المدرسة ( التيم الأول ) وكان هاشم معجباً به أيما اعجاب ، وخاصة عندما يكون من ضمن « المنتخب » كل من « شبيلية » « وخليلى ابوزيد » .

ورغم أن هاشم مصطفى لم يكن يشارك كثيراً فى الأنشطة الرياضية على وجه العموم إلا أنه كان مصيبة من المصائب ومارداً من المردة وشيطاناً رجيماً ، رغم صغر حجمه وقلة حيلته . له حضور دائم فى دفتر عم مبارك لا ينفك عنه أبداً ، وإن تطلع

قائمة من قوائم المهرجلين فى الفصل إلا واسمه فى وسطها دون ريب ، ان لم يكن فى طليعتها . وذلك أن شيطنته الحركية - وهى تعبير صادق عن مدى حيويته الدافقة - انما كانت تبلغ قمته فى الدقائق القليلة التى تفصل بين حصة وأخرى . وكان الكبتل الالفة لا يتعاطف معه ابداً ، ويقدمه دوماً فريسة للعقاب ، ولم تفلح محاولتنا لاثنائه عن التنكيل بهاشم رغم أننا توسطنا لديه كثيراً فى ذلك . ولم ندرك سر حفيظته على هاشم إلا بعد أعوام . فقد اكتشفنا - ولا ريب فى أن الكبتل قد علم قبلنا - أن هاشماً كان « يحاكيه » ويتندر عليه فى غيابه ومن وراء ظهره . فلما علم الكبتل ذلك أطلق على هاشم اسم أوصفة او لقب « القرد الأعمش » قليلاً لشأنه وتزهيده له فى « المحاكاة » . ومن عجب أن هذا الاسم الذى اطلقه عليه أصلاً محمد العوض لصق بهاشم لصوقاً ولازمه ملازمة وصار يعرف به إلى النهاية . ولعل زملاء هاشم وجدوا فى هذا الاسم وصفاً ملائماً له إذ دلت على ذلك اعماله وحركاته اكثر من دلالة تقاطيع وجهه ، ودل عليه مكره الذى عرف به بين أقرانه . وعلم الشيخ أبوبكر بهذا الاسم فارتاح له ابلغ ارتياح وصار يناديه به فى بعض هجائه الذى لايتوقف . وبالطبع لم يكن هاشم أحسن حالاً من زملائه فى نظر الشيخ ، فهو هاشم القرد ، وهو الذى لا يحفظ القرآن ، وهو من فصيلة « هؤلاء قليلو الأدب » و « الولد امرأة البيت » من الجانب الآخر لهذا التعبير الذى افتتن به الشيخ ابو بكر أيما افتتان فانظر إلى قدر هذا « البيت » وحاله فى نظر الشيخ ! أما هاشم فقد كرهه الشيخ وود لو أنه لا يراه . وهو كثيراً ما كان يجلس تحت الشمس ليصيب شيئاً من حرارة الجسم تؤهله لدقتر المستشفى . غير أنه كان يعود فى أغلب أحيانه وقد كتبت قبالة اسمه فى الدقتر كلمة « متصنع » فيلقى جزاءه ضعفين ، بعضاً فى الفصل على يد الاستاذ - وهو الشيخ ابوبكر فى الغالب الاعم - والبعض الآخر عند عم مبارك فى نهاية اليوم . لذلك تعلم هاشم أساليب مصطفى عابدين وأتقنها ، يرش ملابس الشيخ بجبر الدواة فى براعة وخفة يد ، ثم لا تنبئ تقاطيع وجهه بأى معنى من المعانى . وربما كان الشيخ ابوبكر يشعر فى دخيلة نفسه أن هاشماً



يمقته ولا يرحب بحصته ولا يعبأ بشروحه ، فكان شديد الفتك بهاشم .. حتى عندما لا يكون هناك سبب ظاهر .

وفى مرة من المرات التى لا تنسى كان ذلك اليوم الرهيب الذى سلفت الاشارة إليه .. ذلك اليوم الذى انفق فيه بعض غلاة الماكريين طناً من الفحم على تسويد جدران المدرسة بتعايير حفلت بمختلف آيات الشتم والهزاء والسخرية والتفريع على الناظر - الاستاذ محمود بلال رزق . وكان الاستاذ محمد الدريوى « متجلباً » فى ذلك الصباح بادى الحيوية والسعادة ، غير انه لم يكن ليعلن أو يبدي عن صفحة سوء ظاهرة للناظر الذى فعلت به الأفاعيل ، وانما اكتفى بقوله : « والله غايىتو دى كتابة عاوزه ليها شوال فحم » ! .. يردد ذلك وهو يضحك ضحكات مقتضبة ، ويهتز معها اهتزازاً يجعل ميل كتفه أشد ظهوراً وأوضح منظراً ، تكاد كفه من فرطه تلامس التراب . كان ذلك اليوم رهيباً بحق ، فهو يوم حزين بالنسبة للناظر لأنه قد أسئ إليه فيه أبلغ اساءة ومثل به فيه اشنع تمثيل . وهو يوم مجموع له الناس لأن الناظر آلى على نفسه أن يعثر على « المجرمين » ويقتص منهم أشد قصاص . كان التلاميذ والاساتذة والعاملون فى المدرسة فى حالة من التوتر والقلق يصعب وصفها . كانت دخائل النفوس شتى وحقائق المشاعر ضروباً وخلجات الخواطر الواناً .. فمن حانق على الاستاذ محمود بلال رزق يشمت عليه فى قرارة نفسه ، ومن حريص على الانضباط وسيادة النظام وحسن السلوك يستنكر أن تغدو المدرسة مسرحاً لمثل هذا الفحش والخروج على حدود اللياقة والأدب ، ومن حادب على القيم والأخلاق يوذيه أن يزوج بذلك الوسط المهذب فى وحل التنازع بالالقباب ومستنقع الاثم والفسوق والعصيان ، ومن واجد على الاستاذ الناظر محمود بلال رزق سعيد بالذي حدث ولكنه يخشى أن يصبح هو نفسه هدفاً لمثل هذا النيل المنكر البشع .. لقد خلف هذا الحدث انطباعاً فى نفوس التلاميذ الصغار لا يمحي .. وسرت فيهم قناعة أيقنوا معها أن الاستاذ محمود - على الرغم من جبروته وصولجانه - لا يكاد يجد فى ذلك اليوم من يتعاطف معه حقاً وحقيقة . تباينت المشاعر

فى اءلب ما ذهب ءلله ولكنها التقت فى شئء واحد وهو حالة الرعب والفزع والهلع والءوف الذى لفس علىه من مزفء . لقف سىطر على التلامفء صمت مرفع قاتل ، وما كان من الهمس الءافت وتءرك الشفاء الفاءسة لم فءءء محاولة الاسرار بالءعاء طلباً للنءاءة من هول ذلك الموقف العصفب . وفى السابعة من صباء ذلك الفوم البفس قرع عم مباءر الجرء مراراً وطولياً على فر عاءءه ، فإءاناً ببءء طابور الصباء . كان الطابور ففما مضى للءاكء من ءسن هفئة التلامفء ونظافة ملابسهم واءراء « التمام » . ولكنه فى ذلك الصباء المشنوم كان لشفء آءر .. فالتلامفء فى نظر الاسءاء محمود هم المءهمون والمجرمون بفن ظهرانفهم « منهم وففهم » ولذلك فهم فوزعون .. وفصطفون قسراً ءون اءنى رءبة منهم فى الاصطفاف . لقف اءء الاسءاء محمود بلال رزق العءة ، ووقف فى وسط الطابور الذى اشءمل على ءمفع تلامفء المدرسة ، والى ءواره بعض الاساءةة وهو فحمل « البشمة » فى فمفه فلوح بها فى الءواء ، وءقء عفناه المءمرءان بشر مسءطفر وءنءر تقاطع وءهه وءءاعفء ءبفنه المقطب الءزفن بالبلاء والشور والنكفر . وقفنا وكل منا فرءءف من قلة رأسه إلى آءمص قءمفه وكأن الأرض من ءء آءامنا ءهءز اهءزازاً وءمفء مفءاً وءمور موراً ، وءوشك أن ءبءلءنا ابتلاءاً . لم فءفل الاساءةة فى ذلك الصباء بءقففء العمانم والزرائر وفاقاء ءلالفب واكمامها كما كانوا ففعلون . لقف ءبءل ءال ، ولم ءءء النظافة وءسن السمء والهءءام أموراً ءاء بال ءءى فعبأها . كان الءاءس واءءاً لا ءانى له ولا ءالء .. من الذى فعل ءلك الفعلة الشنفعة ، أو من هم الذى فءلوهها ؟ والءرفب فى الأمر أن أصابع الاءءام أشارء منذ وقت مبكر إلى ءلامفء المدرسة ءون سواهم . فلم ءءء المدرسة فى ذلك الصباء إلا قفص اءءام بالفسة للءلامفء فرسفنون فى الأغلال من وراء قضبانه . ولم فءء ذلك الطابور الصباءى إلا اسءعراضاً عاماً وءقفقاً لكافة المءهمفن واءءقالاً لهم فى صءن المدرسة منذ صباء الرءمن . وفقفنى أن ءلامفء إذا علموا قبل مءفئهم انهم سفواءهون مءل هذا العذاب فى صباءهم ءاك لما وطئء قءم اءء منهم رءاب أرض المدرسة ، رءم علمهم بأن

التغيب عن الدراسة جريمة يعاقب عليها بالجلد والتعزير ، إلا أن يتغمدك الله برحمته فيحضر معك ولى أمرك ليشفع أمام ادارة المدرسة بأنك كنت مريضاً أو على سفر ضرورى أو بك أذى من رأسك ! لو علموا بأمر ذلك اليوم العصيب لتغيبوا عن المدرسة دون ريب ، لأن جلدات عم مبارك - وان كانت مؤلمة فى كثير من الاحيان - أرحم بكثير من عذاب ذلك اليوم المشهود .

لقد اصطف التلاميذ فى طوابير طويلة كل فصل على حدة ، ولكنهم كانوا فى شغل شاغل عما تعودوا عليه من قبل فقد كانت الأعصاب متوترة والطقق يابسة والأرجل والاقدام راجفة من فرط الخوف والفرزع والقلوب تكاد تتفطر وتندفع إلى خارج الصدور من شدة الخفقان وسرعة الوجيب . ما أسعد من تغيب عن المدرسة فى ذلك اليوم وان كان مريضاً حقاً ! وما أشقى من كان حاضراً وهو شارداً اللب منصعد الكيان متهدم الأعضاء والوجدان ! لقد خيم السكون على المكان وران الصمت وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وزلزل التلاميذ زلزالاً شديداً . لقد توسط الناظر الاستاذ محمد بلال رزق فناء المدرسة وقد أحاطت به طوابير التلاميذ وتحلق حوله لفيف من الاساتذة لا تكاد تقرأ فى وجوههم معنىً بعينه. وفجأة دوى صوت الاستاذ محمود الناظر ليجتث أى أثر للسكون الذى كان سائداً باسطاً سلطانه على الجميع . « يا أولاد .. أحسن تطلعوا المجرم » .. فارتجت لمقولته ارجاء المدرسة . وارتجت معها أدمغة التلاميذ وساخت اقدامهم فى الارض وغارت القلوب فى الاجواف .. وما أن اطبق الصمت من بعد ذلك الدوى وأوشكت نسائم العافية أن تغشى الناس حتى صاح الاستاذ محمود مرة اخرى صيحة سرت فيهم سريان الصعقة : « نحن عارفين المجرمين ، أحسن يطلعوا قبل ما نطلعهم » فلم يبق أحد منا إلا وقد تيقن أنه هو المجرم المعنى دون ريب ! كاد كل منا رغم براعته التى يعلمها أن يدل على نفسه نجاة من كرب الانتظار ، واهتداء غير مستبصر بالحكمة القائلة : إذا هبت أمراً فقع فيه ، فان شدة توقيه أعظم مما تخاف منه . غير أن سلطان الصمت ساد من جديد ولم يقدم أحد منا على شئ .. ولما لم يبد

احد حراكاً ولم يحرك احد ساكناً اذا بنا نبصر التلميذ «عموش» وهو يتهدى عن ميسرة الناظر... يخطو فى حذر وتؤدة مثل ثعلب ماكر يهم بافتراس زغب من الحمامم وامهاتها لاهيات غوافل.

و«عموش» تلميذ فى السنة الاولى قصير القامة اعمش العينين يرتدى جلابية قصيرة مربدة اللون وعمامة كأنها التقطت لتوها من التراب لتستدير على رأسه «المقودس» دون انتظام، وجزمة باتا ذات شقوق وثقوب ظاهرة يلمحها من يبصر. تقدم «عموش» وطفق «يشمشم» التلاميذ واحداً واحداً. فتصاعدت حرارة الانفاس وبلغ الرعب منا مبلغاً عظيماً لا يماثله ولا يدانيه فى الاثر الاعظم الحيرة وفاجعة المفاجأة. ذلك انه قد وضع لنا بجلاء لاريب فى حقيقته ان «عموش» لم يكن الا «غواصة» بين التلاميذ، ولم يكن الا مخبراً مندساً بين الصفوف. لابد انه ادعى المقدره على التعرف على من سودوا جدران المدرسة بعبارات الايذاء، وخاصة الاجزاء الحجرية من هذه الجدران وفى مقدمتها الناحية الشمالية من المدرسة حيث مكتب الناظر نفسه فى الطابق الارضى، مستخدمين لهذا الغرض الاسود البشع ارباباً كاملاً من فحم حالك السواد! كان «عموش» كلما اطال الوقوف امام احد التلاميذ المصطفين صاح به الاستاذ محمود بلال رزق مثل ارخميدس: «هو ذا المجرم»؟ فيكاد التلميذ المعنى ان يغمى عليه من فرط الرعب والهلع... حتى اذا تخطاه صامتاً افاق المسكين من الصعق وعادت اليه نصف حياة! اما «عموش» فقد ارتدى وجهه الكالنج هدوءاً غريباً، فهو لا يرد بل يعضى الى التلميذ الذى يليه فيفادره وهو للموت اقرب منه للحياة. ورغم انه عندما مر بى لم يقف امامى طويلاً الا اننى حسبت انه لبث تلقائى من عمره سنين، وذلك من شدة الهول ودوام الكرب العظيم. وهكذا سار «عموش» يتفحص التلاميذ واحداً واحداً بعينين كأنهما ثقبان فى جلد معزة ذبحت لتوها ولم يحسن سلخها بحد السكين... استغفر الله.. بل هما اشبه مايكونان بعينى جرو ولد لتوه يحاول

ان يفتحهما على دنيا لم يألّفها من قبل .  
بعد طواف طويل وتدقيق متأن قاتل اشار «عموش» الى تلميذين:  
احدهما كان فى الفصول المتقدمة اسمه خليفة، وثانيهما - وباللهول -  
كان هو هاشم مصطفى زميلنا فى الفصل. وتنفس بقية التلاميذ  
الصعداء وارتفعت عن صدورهم الصخور وامثال الجبال، وانجلت عن  
نواظرهم الغشاوات... وعادت الى بعض الوجوه بواكير الطلاقة، حباً  
للسلامة وايتثار للعافية وفرحاً بالنجاة. ثم جاء عم عبدالعزيز وعم  
محمود فحملا التلميذ الاول وسط تلك الصفوف المترامية لينهال عليه  
الاستاذ محمود الناظر ضرباً مبرحاً بالبشمة، والتلميذ يتلوى وينكر فى  
ضراعة - لم تكن تجدى - اية صلة له بتلك الجريمة. ودام الجلد طوال  
ماحسبناه دهوراً.. ثم القى التلميذ على الارض وهو يصرخ ويتلوى.  
وحمل من بعده هاشم مصطفى المسكين على ذات الايدي وانهالت على  
ظهره وعقبه السياط. وصاح هاشم فى بداية الامر ولكنه بعد قليل سكن  
الى الالم والفه واعتاده وصبر عليه. فكف عن الصياح وزهد فى  
«المرصعة» وتلقى سائر عقابه فى ثبات وامتثال لم تكن ندرى اكان ذلك  
شجاعة منه بحق ام مظهراً من مظاهر الصدمة التى تقوض وتميت  
مراكز تلقى الاحساس بالالم فى جسم الانسان. ثم القى به على الارض  
وهو يئن بعض انين. وانتهى الامر بفصل هذين التلميذين من المدرسة  
دون ابطاء. ونحن لم تكن ابدأ على يقين من انهما هما القاعــــــــــــلان  
لما جلب عليهما هذا العقاب. فكيف لهاشم مصطفى وهو  
القصير الناحل الجسم ان يرقى الى جدران الطابق الاول (فوق الارضى)  
ليخط بالفحم الاسود عبارات يعير بها الناظر؟ ولقد زعم بعض الخبراء  
فى فصلنا ان «عموش» هو «ازيرق» حفيد اســــــــــــتاذنا المحبوب  
الشيخ ابى بكر، فكنا - ومانزال - من هذا الزعم فى شك مريب.

وهكذا انتهت المأساة واسدل عليها الستار، ولكنها بقيت فى الذاكرة جلية فصولها ودقائق مشاهدتها لاتريم. ودخلنا الفصول من بعد ذلك كما يقتاد السجناء الى زنانات الحبس الانفرادى. فلم يكن هنالك درس يذكر فى ذلك اليوم الحزين.

واذا كان هاشم مصطفى - صديقنا وزميلنا فى التوانى - قد اوقعه مكر «عموش» فى ذلك المأزق الضنك الخائق فقاسى ما قاسى من احوال الجلد والشتم على رؤوس الاشهاد ثم الفصل من المدرسة، فلاشك انه نال - بجانب ذلك البلاء - عطف جميع زملائه الذين اسفوا لما حاق به اشد الاسف وحزنوا له اشد الحزن. ولقد شكلت تلك المحنة هاجساً مرعباً لكل تلميذ، وصرنا نقص تفاصيل هذه الواقعة الدرامية المرعبة فى كبرى ودنوباوى فى الامسيات: ونسأل الله الا يرينا مثلها مرة اخرى وان يهدى ناظرنا الى الطيب من القول. ولعل تلك الاقاصيص كانت تروى فى كل حى من احياء ام درمان طوال فترة لم تكن قصيرة. فكان يضاف اليها ما لم يكن منها بغية التشويق والاثارة. ورغم كل شئ فقد كان حزم الاستاذ محمود بلال رزق عاملاً مهماً من عوامل الانضباط فى المدرسة. وعندما تم نقله الى موقع آخر افتقد فيه تلامذته احد اساتذة اللغة الانجليزية البارزين. ولكن حل محله الاستاذ يوسف زمرابى الذى اعيد هاشم مصطفى فى عهده الى المدرسة مرة اخرى. وظل معنا الى نهاية السنة الرابعة. ولست ادري ماذا حدث للتلميذ الضحية الاخر خليفة سوى اننا سمعنا بانه ربما التحق بمدرسة حى العرب او المدرسة الاهلية الوسطى دون ان نقف على جلية الامر بصورة قاطعة. ولقد سعدنا بعودة هاشم مصطفى الينا سعادة بالغة، واية ذلك ان الكبتل كف عن اطلاق اسم «القرد الاعمش» عليه، تعبيراً صادقاً عن غفرانه له كل ما كان يأخذه عليه من قبل، وطلب الينا مراراً ان نحذو حذوه فى رفع هذا الاسم عن هاشم. ولكن محمد العوض كان يقول مستلهماً حكيمه التى لاتنتهى ورغم تعاطفه مع هاشم وفرحه بعودته وتعدد اسباب ذلك التعاطف وبواعثه - كان يقول: «اللى راجيك تركب تلبسو فركة»... وقد لبس هاشم هذا الاسم ولازمه ملازمة لم ينفك عنها ... ذلك كان هو قدر الصديق هاشم

مصطفى ابن المورد... ذى القامة القصيرة والجسد الناحل والعينين الدقيقتين. ولقد اختفى «عموش» الغواصة بعد تلك الواقعة رغم ان قريبه الذى كان احد اساتذتنا ظل باقيا حتى مغادرتنا للمدرسة. ولعل بقاء هذا الاستاذ كان هو الوازع الاهم فى تثبيط همم من كادت كلمتهم منا ان تجتمع على تدبير ابرع الخطط واستحداث اسلم الوسائل لاخذ الثأر من «عموش» والانتصاف لهاشم. وقد كان هاشم بالطبع اكثرنا توقاً لاخذ الثأر بنفسه غير ان الظروف لم تكن مواتية لذلك. ولو علم هاشم لتغنى بمقولة عنتره حين توعدده النعمان ولقال بلسان الحال:

**فإن كنت تعلم يا نعمان ان يدهى**

**قصيرة عنك فالايام تنقلب**

### **احسان عبدالقلوس والامير ابو قرجة**

كان عبدالرحمن كنتباى ابو قرجة من اقرب الاصدقاء لى فى الفصل ان لم يكن اقربهم جميعا على الإطلاق ، فقد جمعت بيننا عرى مودة مردها الى آماذ بعيدة قديمة ضاربة الجذور فى ارض الوطن، ليس هنا مجال سردها باى نوع من التفصيل. ولقد كان عبدالرحمن كنتباى فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى تلميذا جاداً مجداً تغلب عليه الصرامة ويتميز بالانضباط والحزم. ورغم انه انه كان يجلس قريباً من مرايض الصقور وتخوم الربع الخراب فى الفصل الا انه لم يكن فى اول امره يجتج الى الهزل كثيراً. وقد خبر الصقور فيه هذه الخصلة فتعاملوا معه باحترام مشوب بالحدز، وبخاصة لان عبدالرحمن كان انصارياً متشدهداً ينظر الى الامور بهذا المنظار ويزن صداقاته بهذا الميزان ويقترب من الناس بمقدار اقترابهم او ابتعادهم من هذه المعانى وتقييمهم لها. وحق له ذلك، فهو امير ابن امير وهو حفيد امير البحرين الحاج محمد عثمان «ابو قرجة» القائد الفارس الشهير فى تاريخ السودان الناصع الحافل بالبطولات وامثلة الفداء النادرة. ورغم ان عهدنا تلك الخالية لم تشهد صرعاً بين التلاميذ على اسس مثل هذا الانتماء العقائدى، الا ان عبدالرحمن لم يكن ليتهاون فى معتقدات وتراث آبائه. وأية ذلك انه كثيراً ما كان «يناكف» مدرس التاريخ

الاستاذ عمر مصطفى ان هو أتى يقول فى تاريخ المهديـة يخالف ما شب عليه عبد الرحمن وأشربه فى نفسه من أحداث هذا التاريخ المجيد . ولما كنت أشرب من ذات المنهل واقتات من ذات الثمار فقد توطلت علاقتى به توطيداً وتأصلت صلتى به تأصيلاً ، وجمعت بيننا منذ تلك العهود صداقة حميمة ماتزال على غضارتها ومانزال على عهدنا فى الوفاء لها كلما التقينا حتى يومنا هذا . وكانت أحلى ليالينا فى تلك الأزمنة هى لىالى المولد النبوى الشريف حيث كنا نلتقى فى ظل خيمة الأنصار نستمتع المدائح والأناشيد الدينية ، فنتمايل معها وعلى انغامها طرباً ، وتتجاوب كل حواسنا وجوارحنا مع مايتخللها من التهليل والتكبير والتحميد وأشعار الحماسة التى كانت تدوى فى الأفاق فتبعث الهمم وتشحذ العزائم .

ومن عجب أن عبد الرحمن كنتبأى لم يكن ضمن كتيبتنا التى حاولت غزو الموردا ب فى عقر دارهم تحت قيادة الكبتل ، فهو لم يكن حاضراً يوم أن اجتمعت كلمتنا على ذلك وغدونا نبوءاً بعضنا بعضاً مقاعد للقتال نعد العدة لقهر الطائفة غير ذات الشوكة من الموردا ب . ولما علم عبد الرحمن كنتبأى فيما بعد بانكسارنا أمام « القراقير » ويلغه أنا ولينا مدبرين ، عاب ذلك علينا كثيراً وتمنى لو أنه كان معنا ، إذأ لقاتل قتال الأبطال ولتغيرت نتيجة المعركة وعدنا ظافرين . غير أنى أوضحت له أن الحرب كر وفر ، وأننا سنعاود الغزو مرة أخرى ان شاء الله محوياً لهذا العار ووضعاً للامور فى نصابها الصحيح . وهو قد لام الكبتل بصورة خاصة على هذا التفريط وعنفه على ما أسماه بسوء القيادة وحمله مسئولية الانكسار التى لطلخت سمعة فصلنا « التوانى » عموماً ووسمت بمثلية الفرار احد صقوره على وجه الخصوص . ولما تكاثر لومه وبرم به الكبتل وضجر منه صاح فى وجه عبد الرحمن : « اللى علي البر عوام ... لو كنت معنا لسبقتنا إلى خيمة الأنصار ! فغضب عبد الرحمن ولكنه تمالك نفسه ، ولم يزد على أن قال : « إسمعن البنات ! ورغم أنى « عزيت » عبد الرحمن بأننا لن نترك هذا العار يلصق بنا إلى الأبد وأننا سنعاود الكرة فى ظروف أفضل ، فانه لم يأخذ حديثى مأخذ الجد



وانما قال فى شىء من الاستخفاف حسبته موجهاً للكبتل فى المكان الأول : « طيب ، نشوف » . ولما لم تجر المشيئة بذلك ولم تنتهياً لمخططنا الاسباب فاننا لم نفعل ولم نتصد للغزو مرة اخرى ، وانما اكتفينا بافتعال بعض المعارك الخاطفة الطفيفة مع بعض أحاد المورداى ثأراً لأنفسنا ومحواً لعار الفرار الذى ألحقه بنا الكبتل . فكان أن « علقنا » محمد الحسن الشايقى «المورداى» مرة فى جامع الخليفة علقه لن ينساها ، أسهم فيها عبد الرحمن ككتباى إسهاماً بارزاً . وبالرغم من أننا لم نكن نعرف المعارك العقائدية فى تلك الأيام إلا أن المعتقدات الكروية - أو قل الانتماءات العاطفية لمختلف الأندية الرياضية الكروية وفي طليعتها الهلال والمريخ والموردة - كانت تشكل أساس الصراعات بين التلاميذ . ولم تكن الأنصارية وحدها هى التى تجمع بينى وبين عبد الرحمن ككتباى وان كانت هى أهم الروابط وأقواها ، بل كانت تجمع بيننا أيضاً العقيدة الهلالية . فعندما ينتصر فريق الهلال يأتى عبد الرحمن ككتباى فى اليوم التالى إلى المدرسة وهو فى روح عالية وابتهاج . أما إذا كان النصر حليفاً لفريق الموردة على فريق الهلال فان المورداى يتجنبون عبد الرحمن ككتباى لأن كلمة استفزازية واحدة منهم تبلغ سمعه كانت كفيلة بتفجير المعارك واثارة النقع . وهنا يخف الصقور لنجدتنا ، يدفعهم لذلك الوفاء الهلالي والرغبة الجامحة فى الأبتعدى المورداى حجمهم الطبيعى . فاذا بدأ العراك كانت النتيجة دائماً واحدة ... هزيمة منكرة للمورداى . فمن ذا الذى يستطيع أن يناطح الصقور اذا خفوا لنصرة عبد الرحمن ككتباى ؟ ولقد أدركت مجموعة الحمايم المورداية حقائق الامور - وهى مجموعة على رأسها محمد العوض وقاسم ابو عكر ويوسف خضر - فأثرت أن تقيم مع عبد الرحمن ككتباى علائق الود والصفاء ، وخاصة فى اعقاب تلك « العلقة » التى تعرض لها محمد الحسن الشايقى والتى أبلى فيها عبد الرحمن ككتباى بلاء الأبطال .

غير أن عبد الرحمن ككتباى - على الرغم من صرامته وجديته واهتمامه بالدروس عموماً وحصص الدين والقرآن على وجه الخصوص - لم يكن بماً من من غوائل الشيخ

أبى بكر وتجاوزات الاستاذ الحاج هاشم ، فقد نال منهما وعلى أيديهما ما ناله بقية رفاقه التلاميذ . أما الاستاذ الحاج هاشم فقد بطش بعبد الرحمن كنتبائى فيمن بطش بهم فى ذلك الصباح الذى أعقب ما تعرض له من اعتداء « غاشم » فى دارالرياضة بام درمان . وأما الشيخ ابوبكر فلم يكن عبد الرحمن كنتبائى بالنسبة له بدعاً من التلاميذ . وقد أفلح عبد الكريم وشركاؤه فى استقطاب عبد الرحمن لتلك الليلة التى كانت تبدع الأهازيج فى الفصل فيسر لها التلاميذ سروراً بالغاً ويخافون فى الوقت نفسه ويخشون عواقبها ... وهى تملأ نفس الشيخ أبى بكر غيظاً وحنقاً ، ويزيد من غيظه وحنقه أنه لا يعلم مصدرها بصورة قاطعة ولا المضطلعين بها والضالعين فيها كلهم على وجه التحديد والدقة . فيبلغ منه الغضب مبلغاً وتشتت به الحيرة اشتطاطاً .. فيأخذ المحسن بالمسيئ والمقيم بالظاعن ، وهذا بجريرة ذاك .. حتى انه ليصح أن يقال ان ضحاياه من الأبرياء كانوا اكثر من الفعله الحقيقيين . فالبراءة لا تجدى شيئاً مع الشيخ ان غشيتك ظلال شكه ورييته . أدرك عبد الرحمن كنتبائى ذلك ، وأحسبه قرر فى دخيلة نفسه أن الشيخ ابابكر لا يفرق بين المسئ والبرئ وانما ينزل عقوبته على الجميع لأنه لا يثق بأحد ولأنه لا يود أن يفلت من سوط عذابه « مجرم » . ولذلك انحاز عبد الرحمن فى نهاية الامر إلى مجموعة عبد الكريم بكليته ، وصار ينقر معهم على الشفقات بالمنقلة والبرجل والمثلث فيحدث تلك النغمات التى يطيش لها صواب الشيخ وترزم لها رعوده وتبرق لها بروقه ، وينفذ معها صبره - إن بقى فى معينه شئ من الصبر يذكر . ولقد اكتسب عبد الرحمن بهذا الميل النشط للهزل البرئ كثيراً من القبول فى نظر زملائه الذين ربما كانوا ينفرون من صرامته الزائدة وتشدده الذى لم يجدوا له مبرراً ولم يستسيغوه . فمازال به عبد الكريم ويطانته يستميلونه إلى « دنياواتهم » الهازلة المستخفة بكل شئ حتى لانت لهم قناته وصغى لتعاليمهم فؤاده وصار بعد قليل واحداً من فرقتهم .. ففر به ذلك من زملائه كلهم ، فأحبوه وأنسوا له وتزايد اتصالهم به وكان ذلك دافعاً لهم للاسراع لنصرته كلما المُّ به خطب أو تضافرت عليه أيد و جهود .

وكان الاستاذ السبكي يدرسننا فى السنة الثالثة. وهو استاذ قصير القامة نحيف بنية الجسم، لست ارتاب فى ان مكى وعبدالكريم ومحجوب والكبتل وربما عبدالرحمن كنتباى نفسه كانوا يفوقونه طولاً وبعضهم يفوقه ضخامة جسم. والاستاذ السبكي كان شاباً معجباً بنفسه شديد العناية بمظهره بالغ الاهتمام باستكمال عناصر «القيافة» كلها، حتى انه كان «يشق» شعر رأسه عند نصفه الايسر ويعتنى «بتسريحه» عناية فائقة، ينبئ انتظامه ونسقه ووجهه عن قدر الجهد المبذول، ويشى لمعانه الذى لاتخطئه عين ورائحته الزكية التى لاتخطئها حاسة شم «متحضرة» عن عظم شأن الدهن والطيب الذى خالطه ونداه واستقر فيه. ولعل ذلك مما كان يثير فضول قوم وحيرة آخرين، لم يكن اقلهم اندهاشاً مصباح الصادق والكبتل وهاشم الاطرش. واذا كان عزالدين عباس راضياً عن ذلك تمام الرضا فان عبدالرحمن كنتباى كان يتعجب من هذا المظهر تعجب البدوى الذى قد تستهوى فضوله رقائق التحضر وتنفر منها غرائزه. وعلى كل فهو ابن امير وحفيد امير مقاتل جسور ما كان له ان يتصالح مع مظاهر الدعة وخفض العيش ونعم التأنق والملاحة والوان الالق والترف والعمور. ولكن الاستاذ السبكي كان شاباً مقتدراً وذكياً ومهذباً. فهو قد لمس فى تلميذه نفوراً لم يرله مبرراً ولم يدرك له مبعثاً ولم يقف له على سبب - فأراد ان «يروض» عبدالرحمن عما تراءى له انه ضرب من ضروب الجلافة والابتعاد عن حقائق العصر، او قصور عن استيعاب (خصائص) الحضارة والمدنية، فطفق يستدرجه بكثرة الاسئلة ويدعوه «احسان عبدالقدوس»! فغضب عبدالرحمن كنتباى لهذا الاسم أشد الغضب وقرر فى أول أمره ان يستجير بالصمت والأ يجيب بكلمة. فلما كرر عليه الاستاذ السبكي مراراً قوله: يا احسان، او يا إحسان عبدالقدوس، صاح عبيد الرحمن فى استنكار ظاهر واستهجان ملفوم: «ياقندى أنا اسمى عبدالرحمن كنتباى، تانى ماتسمينى باسم النسوان... انا مرة عشان تقول لى إحسان؟ وضحك

الاستاذ السبكي طويلاً وتساعل في استغراب : « ألا تعرف اسم احسان عبد القدوس ؟ هذا اسم رجل وليس هو اسم امرأة » . ولعل عبد الرحمن لم يعلم ذلك ، وبالقطف كان جلنا يجهل احسان عبد القدوس الصحفى والكاتب القصصى فى ذلك الزمان . فتعاطفنا مع عبدالرحمن ككتباى أشد التعاطف ، ولم تجد ضحكات الاستاذ السبكي أيّ تجاوب منا . وأصر عبد الرحمن على موقفه وتشدد فى ذلك ولم يثنه شئ مما حاول الاستاذ توضيحه ، وظل يرفض هذا الاسم ويستنكر اطلاقه عليه حتى تنازل السبكي معترراً وعاد يناديه باسمه المعروف .

وفى فسحة الفطور ناقشنا هذا الموضوع مناقشة ضافية من كل جوانبه ، فازدادت قناعتنا بأن الاستاذ السبكي انما قصد الاستهانة ، فبرزت على اثر المناقشة اقتراحات عديدة أبانت عن اجتماع كلمة أولاد الفصل وأصالة رفضهم « للحقارة » أيا كان المقصود بها ، وأظهرت أصالة مساندتهم لعبد الرحمن فى هذه القضية الخطيرة وهذه « المهانة » التى تعرض لها من قبل الاستاذ وهو أحد « رجال » الفصل الاشاوس . ومن الاقتراحات التى تبلورت فى ذلك الاجتماع التداولى الحاسم الجامع قول بعض المتطرفين بضرورة تنظيم « علقه » للاستاذ السبكي - نى يعرف « رب الله » واضحاً . ورغم أن الفكرة قد راقى لأغلب تلاميذ الفصل وأعجبت عبد الرحمن ككتباى وسر لها سروراً بالغاً ، إلا أن بعض العقلاء وفى مقدمتهم الصقور الذين كان عليهم « الرك » فى إحداث مثل هذا الحدث ، أشاروا بوعى وحصافة إلى المخاطر التى تكتنف تنفيذ هذا « العمل » والصعاب التى يمكن أن تصحب أو تنجم عن الاقدام عليه والشروع فيه ، وأبانوا أن العواقب قد تكون وخيمة ، مؤكدين أن « علقه » الاستاذ أمر سهل التنفيذ . حد ذاته على الأقل من الناحية العملية ، ولكن ما يستتبعه قد يكون وبالاً على الجميع . واقترح الكبىل أن « تلبد » له عصابة منا فى أحد الأزقة قرب المستشفى لتفعل به الأفاعيل وتلقنه درساً لا ينساه ، وسمى نفسه قائداً لهذه العصابة المقترحة . ولكنى عارضت هذا التوجه أشد معارضة لمعرفةى بمدى ثبات الكبىل فى مثل هذه المعارك

التي قد يخف لمساندة الاستاذ السبكي فيها من لا نعرفهم ولا نعرف شدة بأسهم وما حادثة الخور في الموردة بغائبة عن الأذهان . وهي حادثة رويت تفاصيلها من قبل على عبد الرحمن فكان موقفه منها ما علمت في سياق هذا الحديث . فلما رأى عبد الرحمن اعتراضى على هذا النهج بصورته التي افصح عنها الكبتل تفهمه عن دراية ووقف إلى جانبى وأيد اعتراضى ، رغم أنه كان أحرصنا على الثأر من الاستاذ السبكي وأشوقنا إلى النيل منه ووضعه في مواعيه ! ولما رأى التلاميذ أن صاحب القضية الأول وطالب الثأر الأصلي لم يكن متحمساً لهذه المغامرة - ربما لعدم ثقته في القيادة الكبتلية المتصدية للأمر - صرفوا عنها النظر ، وفضلوا الانتظار والتفكر والتفاكر في انجع الوسائل بدلاً من الدخول في مثل هذه اللجج المغرقة . وكان اقتراح عبد الرحمن ككتباى الاول أكثر طرافة واسهل تنفيذاً ، ولكنه أشد خطراً وأدعى للوقوع الجماعى في شراك الغفلة وأحابيل السذاجة ... وهو قوله بأن نقفل باب الفصل بمجرد دخول الاستاذ السبكي للحصة ، ثم تنهال عليه مجموعة منا متباينة من الأيدي حتى يتفرق « أذاه » بين الاولاد ، فلا يدرى حراش - وهو هنا سلطة الادارة فى المدرسة - ما يصيد ، ولا يعرف أحد على وجه التحديد من هم الذين « علقوا » الاستاذ . ولقد رفض هذا الاقتراح بالطبع لانه صك ادانة لجميع اولاد الفصل ، حتي اولئك الذين ربما تقاعسوا عن المشاركة فى تنفيذ الخطة وأخذ الثأر فى اللحظة المحددة . وانتهى الامر بنا إلى تحريض عبد الرحمن ككتباى علي « ملاوة » الاستاذ السبكي فى كل حصة ، فان ناله منه أذى وقفنا إلى جانبه محتجين بالصوت العالى أو متجمهرين امام مكتب الناظر نبلغه ما حاق بنا وبزميلنا من ظلامه علنا نثير بذلك الخواطر ونستعدى السلطة الرسمية والرأى العام الشعبى على هذا الاستاذ الذى بلغت به استهانتته بنا وجسارته على حقوقنا « النوعية » أنه صار يطلق على أحدنا اسم امرأة جهاراً نهاراً ثم يحاول أن يوهمنا ان اسم « احسان » هو اسم رجل ! ولكن الله سلم وألهم الاستاذ السبكي السداد ، فترك عبد الرحمن ككتباى وشأته رغم « الملاوة » التي اخذ عبد الرحمن

ينتهجها معه ، ولم يعد عليه باسم احسان أبداً بعد ذلك . ومن الطريف أننا التقينا الاستاذ السبكي بعد أعوام في جامعة الخرطوم حيث كان يعمل بها في وظيفة ادارية رفيعة ، فذكرته بما كان بينه وبين عبد الرحمن ككتباى في ام درمان الاميرية الوسطى ، وقصصبت عليه كيف أننا شرعنا في التأمير عليه اقتصاصاً لعبد الرحمن إلا أن الله نجاه منا . فضحك الاستاذ السبكي طويلاً وقال لى - وكان قد اصبح صديقاً لنا حميماً - وهو يكاد « يموت » من الضحك . « لسع الله ينجيني منكم » ! ولقد ادرك عبد الرحمن ككتباى وادرك غيره أن الاستاذ السبكي كان من اكثر الاساتذة اهتماماً بتلاميذه ومحبة لهم ومن اشداهم حرصاً على بلوغ تلامذته أعلى المستويات فقد كان لا يسمح بالتحدث فى حصته إلا باللغة الانجليزية . ورغم أن ذلك كان دأب الاساتذة الآخرين إلا أن الاستاذ السبكي تفرد فى هذا الشأن بحزم شديد ، وقد كان من فضائل هذا الحزم أن عبد الرحمن ككتباى صار فى طليعة الذين يحسنون هذه الرطانة منذ وقت مبكر . ولوصبر على اسم احسان الذى خلعه عليه الاستاذ السبكي لربما اصبح كاتباً قصصياً او روائياً يطالع الناس رواثعه على « شاشات » السينما والتلفزيون !

### **المسكنة ليها حوية :**

واذا ذكر عبد الرحمن ككتباى فلا بد ان يذكر النفاوى . وهو تلميذ لحق بنا فى مدرسة ام درمان الاميرية بأخرة . ورغم انه كان تلميذاً يحسن الصمت ولايميل الى كثرة الكلام ، ويجيد التزين بالسكينة ولاينزع الى اللجاجة والمماراة ، الا انه من ناحية اخرى كان انصارياً متشدداً يطر به الحديث عن تاريخ الانصار ويستهو به . وهو قد صار بالطبع صديقاً أثيراً لى ولعبد الرحمن ككتباى . وهو ايضاً من المتشيعين لفريق الهلال ، يمتلكه حزن عميق اذا انهزم فريق الهلال ، وتنتابه موجة فرح بالغ تخرجه احياناً عن وقاره المعهود اذا انتصر فريق الهلال . وهو رباطاى شديد الاعتزاز برباطايته ، ولكنه كان يتناساها اذا التقى بى او بعبد عبد الرحمن ككتباى ، فكلانا لم

يكن ليقيم وزناً للقبيلة بقدر ما كان يثمن الانتماء الى الانصارية وما صنعت للسودان من خوالد السير والامجاد.. فكان النفراوى يتيه بمجده القبلى على غيرنا ويفاخرهم بذلك ، فاذا اشتمل عليه اللقاء بنا تجرد من عصبية القبيلة وشرع يعدد امجاد اهل السودان الذين التفوا حول الامام المهدي وامنوا بدعوته وافتدوها بدمائهم ومهجم وارواحهم واصبحوا بها بفضل الله امة واحدة بعد ان كانوا طرائق قدا .

كان النفراوى على وجه العموم تلميذاً هادئاً جداً فى اغلب احيائه ، نزر الكلام قليل المشاركة فى منتديات التلاميذ وتجمعاتهم ، فهو لا يثق كثيراً باولاد ام درمان ولا يهرع الى مجالستهم الا مضطراً او مدفوعاً بسبب من الاسباب ، يؤثر العزلة ويميل الى التفكير والتأمل الانفرادى بعيداً عن محيط التلاميذ . وكان يبدو وكأن به شيئاً من البداوة يباعد بينه وبين كثير من زملائه ، ولكنه مع ذلك كان تلميذاً حسن الهيئة نظيف الثياب موفور الاناقة . ورغم محبته لفريق الهلال فهو لا يعبر عن عواطفه وحقيقة لعه بهذا الفريق الا فى حدود مرسومة لا يتعداها ، وينظر للمعارك التى تنشب بين التلاميذ فى هذا الخصوص من بعيد ، لا يشارك فيها الا قليلاً والا ان يكون مدفوعاً للمشاركة فيها دفعاً لا يجد سبيلاً الى النكوص عنه والتغافل عن ندائه . ومع ذلك فقد كان كريماً مجاملاً طلق الوجه واليد والمشاعر ، قال عنه بعض الخبثاء من زملائه انه ابن تجار واتهموه من وراء ظهره بالبخل وبأنه مقبوض اليدين . ولكنه ابان عن نقيض ذلك . ولقد دعانى وعبد الرحمن كنتبائى اكثر من مرة لتناول الباسطة الكورنر - أى الركنية - وذلك غاية فى الكرم . ومنذ مجيئه الى المدرسة اجلسه الاستاذ فى الصفوف المتاخمة للربع الخراب ، فنشأت بينه وبين الصقور صلوات ، ولكنه - فى اول امره - لم يكن يبدى حرصاً عليها ولا اهتماماً بها رغم نصحننا له بأن يحترم هذه الصلوات ويعمل على تمتينها وتطويرها . وما ذلك الا انه لم يكن قد الم بعد بحقائق الاشياء وموازين القوى ، ولم يكن بعد قد اطلع على مواقع الغلبة والهيمنة وعلى اهمية الاحلاف والمعاهدات غير المكتوبة فى مجتمع لا يرى فى العزلة والابتعاد عن الجهود الجماعية الا ضعفاً وهواناً

على الناس . ولقد وصفه عبد الكريم مرة بأنه مسكين وحاولنا - عبدالرحمن ككتباى وشخصى - ان ننفي عنه هذا الاتهام ونباعد بينه وبين هذه الصفة باعتبارها مقللة من شأنه . ولكننا فوجئنا بأنه لم يكن يعترض عليها ، وربما كان ذلك لتبينه للامور وتفهمه لها ورغبة منه في ان يكتب - بفضل هذه الصفة ، صفة المسكينة - مسالماً في دفاتر عبد الكريم ، لان من كتب غير ذلك فلا بد ان ينتهى به الامر الى شجار مع عبد الكريم فى يوم من الايام . ومثل هذا الشجار امر معروف النتائج ملغوم العواقب ، لان حلفاء عبد الكريم - وهم بقية الصقور فى الفصل - لن يتركوه وحيداً . ومن تضافرت عليه مخالبا الصقور لا أمل له فى النصر إلا أن تهب لنجدته ونصرته قوات خارجية من أولاد الحى . وكان مثل هذا يحدث أحياناً فى ساحة المولاد أو فى سوق الزلعة خارج السور الشمالى لجامع الخليفة . غير أن النفراوى لم يكن من مرتادى سوق الزلعة مداومين ، بل ان ارتياده لجامع الخليفة نفسه لا يتعدى فى أغلب أحيانه دخول خيمة الأنصار ، الأمر الذى يحدث بضعة مرات فى طول العام كله . وبالفعل - ولدهشتنا الكبيرة - أفاد النفراوى كثيراً من وصف عبد الكريم له بأنه مسكين إذ كفاه ذلك الوصف شر عبد الكريم نفسه فى المكان الاول ، وكفاه شر الصقور عموماً . وفى الأدب الشعبى السودانى وسيره ان الربابيط - وهم قطاع الطريق - يتمتعون بقيم عالية ويتخلقون بأخلاق رفيعة فيها من معانى المروءة والنجدة ما تحتار فيه العقول ولكن ترتاح له النفوس . فهم اذا عثروا فى مرابضهم على قافلة اغنياء جردوها مما تملك واستحوذوا على متاعها وخزائنها قسراً وحنوة واقتداراً ، دون ان تطرف لهم عين او تخالجهم شفقة . واما اذا لاقوا فقيراً او مسكيناً فانهم يعطفون عليه ويغمرونه بحنانهم ويبلغونه مأمناً سالماً معافى ، وربما تكرموا عليه بشئ مما عندهم . ورغم ان الصقور فى فصلنا لم يكونوا «ربابيطاً» او قطاع طريق - حاشاهم ذلك وحاشى قيمهم العالية - الا انهم كانوا عناصر ردع مهمة لكل من تسول له نفسه العبث بكبريائهم او كبرياء من يكون فى حمايتهم . ولا يكون فى حمايتهم الا من هو حليفهم او من ينعونونه



بالمسكنة . وهم كذلك عناصر ردة لكل من يعترض على هزلهم البرئ أو يقلل من أهميته ومن شأنهم من التلاميذ . وذلك ان الهزل الذي كانوا يبشرونه في الفصل وخارجه من هرجلة او موسيقى «برجالية» ومن ركض ورفس وأناشيد انما كان في اعتقادهم امراً ضرورياً لاشاعة الحيوية بين الناس ولاجتثاث أسباب السأم والضجر من وجه الارض . ولقد كانوا بالفعل اركاناً هامة لبعث هذه الحيوية والمحافظة عليها من غوائل البرم والرتابة . وكنا نحترمهم كثيراً ، لا لبأسهم ومقدراتهم البدنية - وان كانت هذه ايضاً اموراً تجبر على الاحترام الناتج عن الخشية - ولكن لهذا الهزل الذي يحدثونه ببراعة وتشويق ، فيميط عنا أذى الملل ويرفع عن صدورنا أثقال السأم ، خاصة في بعض الحصص ذات المواضيع الجافة الصارمة ، وعند بعض الاساتذة الذين يلحون على اجتذاب اهتمامنا وانتباهنا طيلة خمس واربعين دقيقة متتابعة ! واني لأذكر الآن كيف سألتني استاذي بروفيسور تيلر استاذ الجراحة في كلية الطب وقد كان صديقا لي - سألتني وهو يشير باصبعه الى مبنى جامعة الخرطوم ونحن على مقربة منه قائلاً : أتدرى ما هذا المبنى ؟ قلت نعم . هو جامعة الخرطوم . فقال : لا . انما اعنى ذلك المبنى ، انه المبنى الذي يجتمع فيه مجلس الجامعة . أتدرى ما معنى مجلس الجامعة ؟ قلت : نعم انه مجلس لكذا وكذا . قال : كلا . ان معنى مجلس الجامعة هو : ساعتان من الملل القاتل مرة في كل اسبوع ! ولو كان في مجلس الجامعة عبد الكريم وزمرته بشفراهم ومناقلهم وبراجلهم ومثلثاتهم لما شكوا هذا العالم المرموق من الضجر ولا برم بانعقاد المجلس وان دام ذلك الانعقاد ساعتين بالتمام والكمال !

وربما لم يكن التفراوى شديد الاهتمام بدروسه بالرغم من هذا الهدوء الذي يسيطر على كل جوارحه في اكثر الاوقات . غير ان ذلك لا يقدره في ذكائه ولا مقدرته على الاستيعاب . فهو تلميذ ذكي ولكنه لا يستذكر دروسه ولا يعبأ كثيراً بما يمكن أن يجره ذلك عليه . ومن آيات ذكائه ويعد نظره وفطنته انه لم يعترض على وصف عبد الكريم له بأنه مسكين بل فرح بهذا النعت وسعد به وجهد في أن يؤكد ويتلبس به بين الناس .

وهو قد أفاد منه بالفعل . ففي عصر يوم من الايام كنا نلعب كرة القدم فى أحد الميادين بجامع الخليفة وكان النفراوى ضمن ثثة من المتفرجين ، فهو لم يكن كلفاً بلعب الكرة وان كان يجد متعة فى مشاهدة المباريات ومتابعتها . وفجأة حدث اشتباك وجد النفراوى نفسه فى لبه . وتناولته بعض الايدى وألقى به على الارض ففارقت العمامة رأسه واغبرت ملابسه وغفر وجهه التراب ، وصار يدافع عن نفسه بكل ما أوتى من قوة . ولما هرعنا الى نجدته كان من بيننا عبد الرحمن كنتبائى وعبد الكريم ، فما هى الا بعض بنيات ولبعات وشلاليت متتابعة حتى انقشع مثار النقع وهذأت العاصفة وتفرق الجمع وهرب المعتدون وكانوا من خارج المدرسة . وقد وشت سحناتهم بأنهم ربما كانوا من اولاد الموردة ، وأكد ذلك وقوف الكبتل بعيداً عن ميدان المعركة ، فهو العليم بما يعنيه التعارك مع اولاد الموردة ! غير ان عبد الكريم وعبد الرحمن وجدا فرصتهما واستشعرا ما كنت قصصته عليهما من انباء تلك الواقعة التى لاتنسى والتى كان قد زجنا فيها الكبتل ثم فر من الزحف فراراً ونحن من ورائه نجر جر أذيال الخيبة والاندحار . ولذلك خف كل من عبد الكريم وعبد الرحمن كنتبائى الى نصرة النفراوى « المسكين » رغبة فى استنقاذه من براثن اولئك المردة المعتدين ، ومحبة فى اصدار اعلان عملى صريح للجميع ان فصل الثوانى - وهو فصلنا - لايمكن ان يكون « ملطشة » بحال من الاحوال . ورغم انى قد تلقيت فى تلك المعركة لطمتين أو ثلاثاً على أرنبة أنفى مما أصاب وجهى بورم دام أياماً قبل أن « ينفش » ويزول إلا أننى كنت سعيداً غاية السعادة ، فقد تمكنت من تسديد بعض الضربات الموجهة لاكثر من واحد من المعتدين ، ولويت ذراع « القندف » الذى كان يجثو على صدر النفراوى يحبس انفاسه حتى صرخ القندف من فرط الألم ، وما ان تخلص من يدي حتى ركب ساقيه المغربتين وأوغل فى عار الفرار . وهو يتعثر من أثر شلوت اخير اصابه من قدم عبد الكريم الفولاذية . ولو تمكن منه ذلك « الشلوت » تماماً لطرحة على الارض مغشياً عليه . ولكنها جاءت « سلاخية » فأقلت من كامل أثرها ومما كان سيتبعها من شلاليت أشد .

وأقوى ، وهو يترنح ويتصايح من فرط الألم . وعندما ساعدنا النفراوى حتى استوى قائماً من الارض ينفذ عن وجهه وملابسه التراب سألناه عن سبب العراك فقال : كنت اشاهد المباراة وفى اثناء ذلك تفوهت بكلمة واحدة استاء لها من كانوا يقفون من حولى وانا لا اعرفهم ، فانها لولا على ضرباً ثم كان ما كان . وقال عبد الكريم : الم اقل لكم ، ان النفراوى مسكين ؟ وعندها ادركنا فطنة النفراوى فى تقبله لهذا النعت من عبد الكريم ، وادرك النفراوى القيمة الحقيقية لوصف عبد الكريم له بالمسكنة ، وظل النفراوى «مسكيناً» - وذلك يعنى انه فى حماية الصقور - حتى غادرنا المدرسة الاميرية . ولو انه كان غير ذلك فى نظر عبد الكريم لما سعد بانتصاره له فى ذلك المشهد المريع ، وربما كان انتصارى وانتصار عبد الرحمن كنتبائى له غير كافيين ، وقد رأى بعينى رأسه كيف وقف الكبتل بعيداً عن الشر وهو يكاد ان يغنى له فرحاً به وهو آمن منه بعيد .

وفى اليوم التالى كانت تفاصيل هذا العراك قد بلغت الجميع فحمدوا لنا نجدتنا للنفراوى وان كان جل الحمد موجهاً الى عبد الكريم لانه فى اعتقادهم هو العنصر الحاسم فى تحقيق النصر وانزال الهزيمة بالمعتدين . ولقد اثنوا ايضاً على عبد الرحمن كنتبائى ، ولكنهم حاولوا الاستخفاف بشأنى فى ذلك التصدى وذلك الصمود ، ولم يشفع لى عندهم ورم أنفى الذى كنت أبصره ناتئاً كالجبل أمام وجهى لايام طويلة ، وكنت بسببه موضع تندر الفاضل شريف ومحمد العوض ، فصبرت على ذلك حتى شفانى الله . اما الكبتل فقد لقى من بقية الصقور لوماً شديداً على تناقله عن خوض العراك . . وهو قد ادعى انه «زعلان» من النفراوى فلم يصدقه أحد . وقال بعض الخبثاء : المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، فأخرجنى بذلك من الايمان وابقوا فيه الكبتل . وتحاشى محمد العوض مثل هذه التعليقات «اللزجة» واكتفى بقوله : امانة المسكنة ما ليها حوبة !

لقد كان فى تعابير وجه النفراوى احياناً بعض غموض . فحيناً تلقاه ساهماً مثقل

الخواطر بالهموم وكأنه موكل بوضع حلول ناجزة لمشاكل جميع ابناء البشر فى الارض . فاذا الفيته على هذه الحال فانك تقرأ على وجهه شيئاً من الكآبة والضيق . فاذا دنوت منه نقر عنك نفوراً واشاح بوجهه عنك فى ادب وحياء . ولكنه كان يأنس بحاج حنفى عندما تعتريه مثل هذه الحالات ، ويجد فى حكمه ومواعظه كثيراً من الراحة والسلوى ، وذلك ان الحاج حنفى هادئ مثله وانما يباينه فى قدريته التى حاول النفراوى ان يقتنع بها دون ان تواتيه الطمأنينة التامة لها او الركون المستقر اليها . وقد كان حاج حنفى بارعاً فى ضرب الامثال والاستشهاد بالأقوال التى تعلل النفس بالآمال وتهون عليها ما تظن انه من مصائب الدنيا . فكنت تراه يحدث النفراوى بنغمة حزينة ولكنها مطمئنة ، وترى النفراوى يستمع اليه بروح قلقة بعض الشئ فيها تطلع الى بشرى غامضة خفية ، كأنها تأمل ان تستشرفها من وراء ذلك الحديث ، وكان من حسن حظى اننى احظى بالقبول عند كليهما . فاذا الممت بهما وهما فى غضون تلك المناجاة الهادئة فانهما يبسمان فى وجهى ولاينفران منى ويشركانى فى موضوع حديثهما ويبديان رغبة فى تحسس ارائى حول ما يتطرحان فيه من بثوث . غير انى - فيما كنت أظن - لا اسعفهما بطائل ، فقد كنت بعيداً عن تلك العوالم القلقة التى يحلق فى اجوائها النفراوى عندما تلم به ساعات الكدر ، رغم أنا كنا نلتقى فى كثير من الامور وفى طليعتها أمور العقيدة والتاريخ . وكنت على قرب مناسب من حكم الحاج حنفى ومواعظه ومعانيه التفويضية ، رغم ما كان يباعد بيننا من تباين فى النظر الى حقائق التاريخ ودور جذور كل منا فيه . واذا قدر لى ان أصف ما كان يجمعها فى تلك اللحظات الهادئة وما كان يسودها من تفكر وتدبر فى امور الدنيا والخلائق فانى أحسب - وانا أقرب لليقين عما سواه - أنها كانت تدور حول المعانى التى جسدها المعرى فى بعض شعره الذى يقول فيه :

صنوف هذه الحياة يجمعها .٠. طول انتباه ورقدة وسنة  
دياك لسو حاورتك ناطقةً .٠. خاطبت منها بليغة لسنة

ليفعل الدهر ما يهيم به .١٠. إن ظنوني بخالقي حسنه

لا تياس النفس من تفضله .١٠. ولو أقامت في النار ألف سنه

ولو علما لوجد كل منهما ابلغ عزاء في معاني التفويض التي تنطق بعجز البشر  
وتقصير الفهوم عن ادراك ماخفى واستتر في طيات الغيوب ، وهو الذي عبر عنه المعرى  
ايضاً بقوله الرائع المحيط :

وروم الفتى ما قد طوى الله علمه .١٠. يُعد جنوناً أو شبيه جنون

على ان النفراوى كان سرعان ما يتماثل من تلك الوهدات الفكرية التأملية فينطلق  
جبينه ويعود من أسفار الغيوب ، ولكنه قلما يطلق لنفسه العنان وقلما يخرج بها من  
ضيق التماسك والانضباط الى سعة المرح والعبث الصريح . وذلك انه مجبول على  
المحافظة ، مفطور على مراعاة خلائق وحدود بعينها . ولقد ودت لو انه انطلق وتوسع  
وارخى لنفسه العنان وخاض في بعض ما كان يخوض فيه غيره من استحداث  
للطرائف واختلاق للملح والمواقف المسلية ليزيح عن خاطره ما كان يحتشد فيه من  
هموم لم نقف على اصلها ودواعيها ولم نفلح في تفريغ كروبيها عنه تماماً . ولقد حمدت  
للحاج حنفي اهتمامه بالنفراوى وعطفه الصادق عليه ، لان النفراوى كان طيب الخلائق  
والأعراق . وكنت احسب ان عبد الرحمن ككتباى سيوليه مزيداً من الاهتمام خاصة بعد  
ان اصبح عبد الرحمن نجماً لامعاً من نجوم الفصل خاصة والمدرسة عموماً . ولكنى  
ادركت ان عبد الرحمن كان في بعض احيانه يضيق بصمت النفراوى وشدة هدوئه  
ولكنه لا يتوانى عن الانتصار له ان هو تعرض لسوء او عدوان . فالذى يجمع بينهما امر  
عظيم . وقد ظل النفراوى راغباً اشد الرغبة في الانعتاق من اسار هذه التأملات التي  
تشقيه من حين لآخر بون ان يجد لجوارحه استجابة لهذه الرغائب . فهو الاسير  
الطليق ، وهو الأبق المملوك . وما المالك الا رب العرش الكريم

وهل يابق الانسان من ملك ربه .١٠. فيخرج من أرض له وسماء ٩

## دوز . . . ومد البوز:

من اولاد المورد في فصلنا صلاح سليمان ابو صالح . فهو ينتمي الي المورد سكتناً وموطناً وعقيدة كروية ، ولكنه عمرايي الاصل والعصبية ، وهو قليل الحجم متوسط الطول وقد تردد موقفه بين الصقور والحمام من اولاد المورد . فتارة هو مع محمد الحسن الشايقي وأخري هو مع محمد العوض وقاسم ابو عكر . وذلك من ذكاء صلاح ودهائه . فهو يتخذ الموقف الذي يناسبه ويرتاد المناخ الذي تنتعش روحه فيه ، من غير تفريط في عقيدته الكروية . ولقد كان صلاح من اوائل التلاميذ الذين وضعهم الشيخ ابو بكر في قائمته المعروفة ولكنه لم يأبه كثيرا بمثل هذه الامور ، واتخذ من تكتيكاته الخاصة ملاذاً ينجيه من كثير من الورطات والمأزق ، ورغم انه كان مرتبطا مع محمد الحسن في حلف غير مكتوب ولكنه ملزم إذ تقضي بذلك الأعراف والسنن الا انه تباطأ في نجدته له عندما ادلهم الخطب بمحمد الحسن ، وأثر التحليق في الأفاق مع حمام المورد بعيداً عن المخاطر وموارد الشقاء . فكان له في ابتعاد الحمام عن مثل هذه المضائق اسوة حسنة ، ولكن محمد الحسن لم يغفرها له الا بعد جهد جهيد ومخاصمة طويلة الامد . وقد شق ذلك على صلاح وأيقن بسوء مايمكن ان يترتب على هذه القطيعة لانه - كما كان يقول - لا يأمن مكر الشايقية وان كانوا رفاق موطن موردى واخوان عقيدة كروية . . ولكن الله سلم ، فقد سعى بعض الخيرين من اولاد الفصل بينهما حتى تم الصلح وعادت المياه الى مجاريها . فعادت الى صلاح حيويته بعد ذبول ، وأضحت سماء وجهه بعد ان كانت قد تلبدت بالغيوم وانذرت بقصف الرعود . وعاد الصفاء ونسى محمد الحسن ما كان من تخاذل صلاح عن نجدته تماماً .

ولقد امتاز صلاح سليمان برقة في طبعه ودمائة في خلقه حببت فيه زملاءه فكانوا يعطفون عليه كثيراً ويدركون ان الذي يقعد به عن التصدى للمعارك والأهوال ليس هو الجبن ولا الفرق وانما هو قلة الحيلة وضعف البنية وربما جنوحه بطبعه الى المسالمة وبغضه للشحناء والعداوة . وعندما تعرض صلاح لنكير الشيخ ابي بكر كان تعاطف زملائه معه بالغا ، وذلك لسببين : اولهما ان صلاحاً كان بالفعل يحفظ بعض سور

القران ولكن الشيخ الملحاح لا يمهل حتى يقدح ذاكرته لتنتال على لسانه آيات الله  
البيئات تباعاً ، بل ينتهره ويفلظ عليه في القول فتتفلكت السور والآيات من صدره كما  
يتفلكت الماء من بين فروج الأصابع لايبقى منه شئ . وثانيهما ان صلاحاً كان تلميذاً  
مؤدباً طيب الاخلاق والأعراق . ورغم ذلك فقد أمر الشيخ ان يدرج اسمه في سلك  
هؤلاء قليلو الادب ثم اتبع ذلك بتعاييره القارصة القارضة الكاوية التي تدور كلها حول  
البيت ومراته . والبيت هو البيت ، والمرأة عند الشيخ تعكس ما يريده الشيخ وتنطبع  
عليها الصورة التي تروقه وترضيه . . وكثيراً ما يكون ذلك خيالاً صرفاً من خيالات  
الشيخ المسرعة الوثابة ، لايمت الى حقيقة البيت بصلة . وقد بلغ من تعاطف التلاميذ  
مع صلاح ان أوحى اليه بعض العفاريث الخبثاء منهم - رغم علمهم بمقدرات صلاح  
ومدى استعداده النفسى - ان ينهج في انتقامه لنفسه من الشيخ منهج مصطفى  
عابدين وجماعته ، الا ان صلاحاً لم تطب نفسه بهذا الاقتراح ولم يستهوى مجرد  
التفكر في الدخول في مثل هذه المغامرة المفعمة بالأخطار والمحاذير . وذلك ايضاً  
لسببين : الاول ان طبيعة صلاح تختلف عن طبيعة مصطفى عابدين وشيعته ، ومزاجه  
السلوكى يغاير امزجتهم . . فهو تلميذ منضبط في أغلب تصرفاته لا يجنح للتفريط الا  
سهواً ولا ينجمس في أحجج التسبب الا ناسياً غافلاً يكاد يدركه الغرق ، وهو مع ذلك  
سريع العودة الى الصواب والرشاد شديد الاسف والاسى على ماقات وفرط منه تحت  
سلطان الغفلة والشرود فهو بطبعه اكثر ميلاً للجد من الهزل وللاستقامة من الاعوجاج .  
والثانى ان دقة مصطفى عابدين في احداث ما يحدث من عبث تحتاج الى قدر غير  
قليل من التدريب والتمكين في اجادة هذا الفن ، لأن العبرة ليست في الاتيان بهذا  
العمل علي أي وجه من الوجوه لتلطخ ملابس الشيخ بحبر الدواة فذلك امر قد يكون  
في متناول أيدي الجميع ، وإنما هي في اتقانه واجادته بحيث لاتقع نقطة واحدة من  
الحبر المرشوش إلاحيث أريد لها أن تقع ، ثم الخروج بعد ذلك كله من اي احتمال  
للاتهام أوالتجريم كما تخرج الشعرة من العجين لايعلق منه شيء بها . وذلك لم يكن

في مقدور صلاح لأنه لم يؤت مكر مصطفى عابدين ودهاءه وثلعبيته ، ولم يؤت ملكته في إدعاء البراءة والظهور بمظهرها ظهوراً لايرقي اليه معه شك ولايدنو منه معه أصبع اتهام . ولو أن صلاحا حاول ذلك لافتضح أمره في لحظات لأن تقاطيع وجهه كانت تنم عما في دخيلته بوضوح ، وتنطبع أحاسيسه وان دقت وتناهت في الدقة علي عينيه بل وسائر جوارحه ، يكاد يقول خذوني . ولما كان ذلك كذلك فقد ادرك صلاح أن اي محاولة منه للتأثر لنفسه علي غرار هذا المنهج المتفرد لامحالة ستورده مهالك أخر هو في غني عنها وستدفع به الي كرب لا قبل له بها .لذلك قنع صلاح بما قسمه الله له من حنق الشيخ وفجاءاته التي لا تمهلك حتي تستجمع اشتات ما في ذاكرتك فتبوء بما عندك ، ورضى بما يستتبعه ذلك الحنق ، وطأطأ رأسه للعاصفة عساها تَمْضى بِسَلام . وعندما نلتقي في فناء المدرسة في فسحة الفطور أوغيرها من لحظات الفراغ الغالية لم يكن صلاح يزيد في تعليقه علي الشيخ بأكثر من قوله «ياخي دا شايقى» ! وماهو بشايقى . ولكنه كان يتردد كثيراً ويتلفت كثيراً قبل أن ينبس بهذه المقولة حتي يطمئن على أن محمد الحسن الشايقي ليس بمقربة منا ، لأن محمد الحسن شايقى حقاً وصدقاً وهو بعد ذلك - ولعل الأصح أن يقال أنه قبل ذلك - موردايي موطننا وعقيدة كروية ، وتلك وشائج كبرى وأواصر وثقي تجمععه بصلاح . وهو وان كان من صقور المورداب فان من يصادق الحمائم لابد أنه يحتاج الي مصادقة الصقور أومصانعتهم علي اقل تقدير ، فهو محتاج الي عونهم ان احتوشته المكاره أوالمت به الفتن أوداهمته الخطوب . ومن تمام العقل وكمال المعرفة أن تبقي حبال الود بينك وبين مختلف القطاعات علي قدر طيب من المتانة والثبات . وهكذا تأرجحت استراتيجية صلاح سليمان بين هؤلاء واولئك لايزيده اقترابه من هذا المحور اي بعد من ذلك المحور الاخر . وهو قد نجح تماما في اكتساب عطف المحورين وقارب بين الفلسفتين وانتهج سبيلا وسطا حبيب فيه الجناحين علي ما بينهما من تباين في النظر الي الاشياء وترتيب الامورعلي أساس الأولويات . ولكن حقيقة الامر وسر النجاح هي أن صلاحاً كان



تلميذاً حلو المعشر طيب النوايا حسن السريرة ، لا يضر سوءاً ولا شراً لأحد . وإذا أحرق به مكروه فهو يبتغي أيسر السبل لاجتنابه وربما تحايل علي ذلك بفطنة وحسن تدبير ، لأنه ينشد السلامة وينفر من دواعي الوقوع في المأزق .

وصلاح تلميذ مجتهد مافي ذلك من شك ، وقد شهد له بذلك اساتذته وزملاؤه ، وهو يرسل نفسه علي سجيتها في اغلب الاوقات وقد ميزته هذه التلقائية وأكدت للناس براعته ونقاء جبلته ، ولكنه كثيراً ما يبدي بعض الحذر اذا رأي بعيني بصيرته سحياً من الشر تتجمع في الافق البعيد وتنذر بوقوع ما لا يرتضيه . فهو بطبعه يتجنب الممارك التي كثيراً ما كانت تنشب بين التلاميذ «وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم»..... ولم يكن ذلك لخور في نفسه أو مخافة إقدام ولكنه جزء من طبيعته التي فطر عليها ومزاجه الذي نشأ عليه ، فهو مسالم سجيته المميّزة المسالمة ، لا يجنح إلى المغامرات ولا يغشي دروب الأهوال . يعرف مقدراته معرفة تامة فلا يضعها في موضع اختبار يجهل عاقبته ، ويحترم نفسه احتراماً واعياً فلا يمزج بها في ما يصعب عليه الخروج منه . واية ذلك أنه كان معتدلاً في تشييعه لفريق الموردة ، لاحتمله في خضمها موجات التطرف التي قد تنتظم الاخرين ، وقد كنا نشهداها خاصة عندما يخرج فريق الموردة منتصراً علي فريق الهلال ، لأن الهلال لم يكونوا يحتملون تطرف المورداب وتماديهم في الشماتة عليهم ، فتتشب علي أثر ذلك الممارك الضارية بين الشيعتين ، ويعود صانعوها من « متلقين الحجج» إلي منازلهم في نهاية اليوم وكأنهم « بعاعيت » خرجت لتوها من مقابر حمد النيل من فرط « العفار » والتراب العالق بالوجوه والأيدي والارجل والثياب .

ولكن صلاحاً كانت تغلب عليه هذه التلقائية التي اشرنا اليها من قبل ، وهي تنبئ عن البراءة وسلامة النية ، الا انها قد تجر علي صاحبها ما لا يكون في حسبانها من المتاعب وما لا يدور بخلد من المثالب . ولأنه يرسل نفسه علي سجيتها في أغلب أحيانه فان بعض الامور التي تحتاج الي شئ من التدبر قد تفلت من القبضة فيجري علي اللسان دون وعي حقيقي ما يستحيل تداركه بعد فوات الاوان فيعود علي صاحبه

بخسران ولات ساعة مندم . ففي ذات مرة كان استاذ اللغة الانجليزية يلقي علينا درسه ونحن في السنة الاولى . فكان يقول إن الفعل المضارع «قو» (بمعنى يذهب) عندما يسند مثلا للشخص المفرد الثالث أو الغائب يصير «قوز» (He goes) وهكذا ... ثم طفق الاستاذ يسأل . كيف يصير نطق الفعل «دو» ( بمعنى يفعل ) عندما يسند هذا الاسناد ؟ فصاح صلاح بحماس بالغ : فندى ... فندى ... فندى ... وهو يرفع يده ويشير بسبابته . وعندما أشار عليه الاستاذ بأن يتكلم قال بالصوت العالي : « دوز » ونطقها هكذا ( DooZ ) فانفجر الاستاذ ضاحكا مقهقها .. وضحك بقية التلاميذ ايضا ، وربما حمل بعضهم علي ذلك ضحك الاستاذ دون سواه ، وربما أدركت قلة منهم سبب الضحك . وأحس صلاح بخجل شديد خاصة بعد أن أبان الاستاذ أن الاجابة الصحيحة هي « دظ » ( DOES ) وليست «دوز» كما قال صلاح . وزاد من خجله أن الاستاذ أخذ يردد مقولته الخاطئة مراراً في تعجب وزراية بينة وهو يضحك ضحكات تحمل كل معاني الهزء والسخرية . وظل خبثاء التلاميذ يتندرون علي صلاح وينادونه صلاح دوز . فكان صلاح يغضب من ذلك غضباً شديداً يظهر علي ملامح وجهه كلها ، فتنفخ أوداجه وتجحظ عيناه وتحمران وتبتلان بدموع الحرقه والاسي ، ويضطرب أنفه في تقلصات متتالية تنطق بالوعيد ، وترتعش شفثاه وقد تراختا وتمدبتا في انتحاب صامت . ورغم أن محمد العوض كان يبدو وكأنه أكثرنا تعاطفاً مع صلاح وذلك لشستي الوشائج التي تربط بينهما إلا انه لم يكن ليفوت علي نفسه فرصة كهذه .. فاذا كان صلاح حاضرا فهو يعزيه ويهون عليه وقع المصيبة قائلاً : ياأخي سيبك بلا دوز بلازفت ، يعني إيه ؟ الواحد ما بتعلم . ما كلنا كنا حنقول كده ! أصلو نحن خواجات ولا شنو ؟ . أما اذا كان صلاح بعيدا أوغائباً فان محمداً «يموت » بالضحك ويقول : صلاح قال دوز ... ومد البوز . ولعله أمر ملاحظ أن غضب صلاح من اطلاق اسم « دوز » عليه كان مدعاة لاكثر التلاميذ من ترديده علي مسامعه رغبة عبثية منهم في اثارته . ولو أن صلاحاً أحنى رأسه لهذه العاصفة أيضا لمضت وسكنت دون أن

تترك اثاراً تذكر . ورغم أنه قد أبان لزملائه واساتذته عملياً عن مقدراته في الالمام المعافي بلغة بني السكسون إلا أن ذلك الاسم الذي جره علي نفسه بتسرع وارساله لنفسه علي سجيتها لم يفارقه أبداً حتي نهاية فترة بقائنا في امدرمان الاميرية . فكان التلاميذ ينادونه ويشيرون اليه باسم « صلاح دوز » مغالاة منهم في « المكاواة » وتأديباً له علي استنكاره لهذا اللقب الذي جناه هو علي نفسه ولم يجنه عليه أحد . والواقع أن كثيرين من اولاد الفصل قد لحنوا مراراً في نطق الكلمات الانجليزية ونودوا بأسماء من جنس لحنهم هذا ولكنهم بددوا هذه الاسماء وأزاحوا هذه الالقاب عن أنفسهم بالضحك واصطناع عدم المبالاة . ومنهم من كان التلاميذ أصلاً لايجرأون علي مناداتهم بها ان أحسوا منهم بواذر امتعاض او نذر ضيق أو عدم قبول . ومثال ذلك محبوب حسن سعيد الذي كان ينطق كلمة « ايجبت » (Egypt) بالتركيز علي حرف « الواي » فيقول « أجيبت » فيمد الجيم ويكسر الباء ويجعلها باء عربية وهي ليست بباء ! ورغم أن محبوباً قد عرف بين التلاميذ بهذا الاسم إلا أن أحداً منهم لم يكن ليتجاسر بالجهر به في حضرته دون أن يتأكد من اعتدال مزاجه ، وانما كانوا يشيرون به اليه من وراء ظهره في غالب أحيانهم . وبالطبع لم تكن هذه الخشية لأن محبوباً كان له ذهب المعز ولكن لأنهم تهيّبوا كفه الرادع وزنده الواري . وأما صلاح فإنه لم يؤت بسطة في الجسم ولاسعة في المال ، فمنذا الذي يهابه ؟ غير أن تلك التسمية - أو ذلك اللقب - لم تكن لتنال من مكانة صلاح أو تخفض أو تقلل من قيمته الحقيقية في نظر زملائه ، فكلهم كان يحبه ويفليه ، ولكنها شيطنة الأولاد المطبوعة قل من ينجو من نزقها وخبيثها وعفرتها !

### **أهمراني ياكل ... ازرقاني جلي :**

من أبرز شياطين فصلنا التجاني الطاهر . والتجاني تلميذ شديد الذكاء جلي النبوغ . ولكنه واقع من السماء مائة مرة . وهو كثير الضحك شديد التندر علي زملائه ، يجيد هذا التندر اجادة لا يكاد يضارعه فيها أحد ، وله فيه نهج متفرد من

الفكاهة لا يغضب أحداً وإنما يحب فيه الناس . والتجاني ليس من الموردة ولا من بيت المال ، ولكنه كان يجلس على مقربة من عبد الكريم وهو معجب به ويجيد الأعيبه أتم وأكمل اجادة . ورغم أنه كان من التلاميذ « الشطار » إلا أنه كان ميالاً إلي العبث والفوضى بشكل ملحوظ . فلا تكاد قائمة للمهرجلين فى الفصل تخلو من اسمه . وقد تعود على عم مبارك لدرجة الإلف الذى يكاد يبلغ به مشارف الحنين . وهو من أقدر التلاميذ الذين يتخذون اللبد فوق سراويلهم ، فلا يغادر كنبه عم مبارك إلا وهو ضاحك جذلان يسخر من الآخرين . والتجاني من حي العرب وهو حي من أحياء امدرمان الشهيرة ، يقع جنوبي السوق الرئيسي للمدينة ، ويمتاز عندنا نحن تلاميذ تلك الازمان بشيئين هما فى غاية الاهمية بالنسبة لنا . أولهما أنه كان الحي الذى أنشئت فيه مدرسة حي العرب الوسطي الشهيرة والتي تخرج منها من دفعتنا برعى أحمد البشير وحسن ابو العائلة وعبد الملك عبد الله حامد وبشرى عمر أحمد والشفيع ابراهيم سعيد وخالد بابكر سعيد وغيرهم . وثانيهما تلك الأقاصيص الأعاجيب التي تشبه الاساطير يرويها علي مسامعنا التجاني الطاهر عن حرافيش حي العرب « والقنادف » العتاة الذين كانوا - علي حد رواياته الساحرة الأخاذة - يصلون ويجولون وينشرون الواناً من الرعب والفرع بين خلق الله وهم فى مأمن من يد السلطان وكف القانون . وفي طليعة هؤلاء القنادف « بلة الاحمراني » . فاذا روي لك التجاني شيئاً عن « بلة الاحمراني » وكنت تسمع ذلك لأول مرة وقف شعر رأسك وامتعق لون وجهك وشحب سائرک وتبيست شفتاك واعتراك محاق يأكل كيانك أكلاً . . وذلك من شدة الهول الذى تجسده هذه الأقاصيص حيالك وامام ناظريك . ولكن مع مرور الأيام ألفنا هذه المشاهد فى ساحات أخيلتنا وسكنالها وأحببناها . ولقد كنت أنا مولعاً بقصص التجاني عن « بلة الاحمراني » وبطولاته الخارقة لأنى كنت أجد فيها مصداقاً لما كان يروي علينا فى كبرى ودنوباوي من أعاجيب . والفرق أن حي العرب لم يكن فيه « المسرح » وهو مسرح العفاريت والبعاعيت وأصناف الجن التي لاتحصى ، ولكن يبدو أنه كان لهم

جنهم الذي لا يختلف إلا قليلاً عما يأتي به جن « المسرح » مما كان يرويه علي مسامعنا شمشون ودعبد الله وطلب وعبد التام وود التويم وأبوزعانف وسلسيون وغيرهم من كوكبة منتدي كبري ودنوباوي . والتجاني - كما قلنا - تلميذ حاد الذكاء ، وهو يغلف رواياته بملح وطرائف لم أكن أرتاب في أنه يبتدع أغلبها ابتداعاً ويختلق جلها اختلاقاً ، ولكنها كانت تتسق احسن اتساق مع مناخ أقاليمه العام ولا تنبئ عنه نبواً ظاهراً إلا فيما ندر . وتلك مقدرة وموهبة امتاز بها التجاني واستطاع أن يسحر بها عبد الكريم احمد حميدة وبقية الصقور ، فصار من المقربين اليهم ونعم بحمايتهم دهرأ طويلاً . بل هو استطاع أن يدخل في هذه الحماية ابن عمته فتسي ابراهيم وصفي . كان عبد الكريم وزمرته يعجبون بأقاصيص التجاني أيما أعجاب . وهي وان كانت تروي وتجسد بطولات « بلة الاحمراني » التي يزعم التجاني انه كان شاهد عيان لها - رغم أنني كنت اشك في ذلك كثيراً - إلا أنها كانت تثير اعجاب الصقور ، وخاصة أجزاءها الحافلة بالبنية والشلوت وأم دلوم والصراع الذي ينتهي دائماً وأبداً بانتصار « بلة الاحمراني » علي جميع « قنادف » الحلة المحليين والوافدين ولو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وكونوا جيشاً جراراً . ولو سمع ابو زيد الهلالي بهذه القصص التي يرويها التجاني لجاء الي حي العرب يبايع « بلة الاحمراني » علي السمع والطاعة وتنفيذ الاوامر ولو كان من بينها الحصول علي لبن الطير وعرق الحجر الازرق ومخ الضب الأعزب وبول قنفذ الدويم واحضارها له جميعاً علي وجه السرعة ودون ابطاء ! والعجيب في « بلة الاحمراني » أنه يلبس في ذراعه الأيسر سكيناً في طول السيف ، ولكنها لا تسل من غمدها أبداً حتى في أخرج الأوقات ، لأن « بلة الأحمراني » يعتمد في إنزال الهزيمة الماحقة بأعدائه علي قبضة يده اليمنى الحديدية المدمرة وقوة رجله اليسرى الفولاذية القاتلة . فهو « يلبع » باليمن ويركل « باللفت » . وقد كان التجاني يشبه يديه ورجليه بمروق العناقيرب وأحياناً بقضيب الطرمج . واذا كان « بلة الأحمراني » دائماً في غنى عن استعمال السكين التي يزين بها ذراعه

الايسر فهذا من علامات الفروسية التي يندر ان تتوفر لمخلوق . وهو يذكرنى بقصص المدرسة الأولية وفي مقدمتها قصة ملك الفرس الذي كبرت سنه وعجز عن عمله ، و اراد ان يسند الملك من بعده لأشجع اولاده ، فجمعهم وانبأهم بذلك . فقال أكبرهم : انا يا ابي قتلت الأسد وهزمت العدو بيدي فقط . وقال الثانى : انا يا أبى قد قتلت الأسد وهزمت العدو بسوطى فقط . وقال الثالث وهو أصغرهم : أما أنا يا أبى فقد قتلت الأسد وهزمت العدو ولكن كان ذلك بالسلاح . فقال له أبوه الملك : أنت أشجع اولادى ، والملك لك من بعدى ! وأنا لست ادرى ان كان «بله الاحمرانى» بهزيمته للاعداء وتشثيت شملهم بون استخدام السكين يريد ان يرث ملكاً من ابيه ، لان التجانى لم يذكر لنا من هو الاحمرانى هذا ، ولم يبين لنا ان كانت الكلمة صفة لبلة او هى اسم لابييه ، ولقد تعرفت بعد سنين طوال على حقيقة «بله الاحمرانى» وبعض افراد اسرته ، وهم من أحسن الناس خلقاً واكثرهم مسالة ، تربطهم صلات قوية وطيبة باسرة صديقى التجانى الطاهر عليه رحمة الله . ولكن الصورة التي ارتسمت فى اذهاننا عنهم - وبخاصة عن «بله الاحمرانى» خلال تلك الايام السحيقة - كانت صورة فتوات يقطعون الطريق ويرهبون الخلائق وهم من فزع أمنون ، لأنهم يفلتون من حساب القانون ويشكلون هاجساً مربعاً حتى بالنسبة للسلطان والقانون ! ومع ان عبد الكريم والكبتل وبقية الصقور كانوا يستمعون الى اقاصيص التجانى عن قنادف فريق العرب او حى العرب وفى طليعتهم «بله الاحمرانى» بانبهار واعجاب الا ان احداً منهم لم يجرؤ ابدأ على مجرد الموافقة او الوعد بالذهاب فى صحبة التجانى الى حى العرب فى يوم من الايام رغم دعوته الكريمة لهم فى اكثر من مناسبة والحاحه فى ذلك . فهم يعلمون

علم اليقين انهم مهما اوتوا من قوة وجبروت فلا قبل لهم بمواجهة «بله الاحمرانى» الذى أكد لنا التجانى مراراً بأسلوبه الساحر والأخاذ ان اقل واحد من عصبته التابعة له يستطيع ان يصرع اربعة اشخاص كبار ضخام فى اقصر وقت دون ان يناله رهنق او اثر من اعياء او اثاره من غبار ! فراع ذلك عبد الكريم وصحابه وافزعهم ، رغم ان بعضهم حاول ان يروى عن حيه اقاصيص مشابهة اقل مافيهما انها تشير الى المقولة الرائجة فى مثل هذه المواقف : "كان ما متنا غايتمو المقابر شقيناهما " ! وهذا أضعف الايمان ! ولكن الصقور على أى حال - رغم هذه المحاولات الرامية الى اظهار شئ من النديه والمائله - لم ينالوا من نفوسنا واخيلتنا ما ناله التجانى لانهم لم يؤتوا ما أوتى التجانى من موهبة وقدرة على تشقيق الحديث وحشوه وتحليته بالفستق والعسل وطرحه فى قالب من السرد شيق واخاذ . ولما دعاهم التجانى لاصطحابه لى العرب ليروا بأعين رؤوسهم «بله الاحمرانى» وبعضاً من بطانته نكلوا جميعاً «وتماحكوا» ولم يسعف احداً منهم مجرد الوعد مع ايقاف التنفيذ . ولذلك كان محمد العوض يهمس فى اذنى وهو يكاد يموت من الضحك : سيد امى بى سيدو ! .

ان بطولات «بله الاحمرانى» لاتقف عند هذا الحد لانها متنوعة ولكنها واحده من حيث انتهائها دائماً بالنصر المبين فى أى نزاع مهما كان نوعه وفى أى مجال كيفما اختلفت اوجهه وأنماطه . ففى قهوة الزبيق كان هناك بعض العتاة يلعبون الملوص منهم من يغنم ومنهم يؤوب بالخسران . والخاسر منهم لايمك الا ان يلحق جراحه فى صمت ويستقبل الهزيمة برضا وتسليم ، وذلك لان صاحب لعبة الملوص الذى يدير دفتها ويتحكم فى نتائج الرهان المنوط بها هو عملاق لا قبل لهؤلاء العتاة « اللاعبين » به ، وفوق ذلك فمن ورائه عصبه من العمالقة الضخام يشدون من ازره ويضمنون له الظفر فى كل الحالات . ولكن عندما يأتى الى هذه الحلبه «بله الاحمرانى» فان الامر يصبح مختلفاً جداً . وذلك لان «بله الاحمرانى» جيش وحده ، والعتاة والعمالقة من مرتادى الملوص كلهم يعلمون ذلك جيداً . ولما كان صاحب اللعبة ومديرها

اعلمهم قاطبة بقوة بأس الرجل فانه يصيح عند مقدمه : احمرانى ياكل . . . ازرقانى ما يأكل . وهو قول حق لأن « بلة الأحمرانى » لا يضارع فى « الشفتة » المتعلقة بهذه اللعبة ، وهو يكسب فى جميع محاولاته ، زوراً او نوراً ، ولا احد يستطيع ان يقول « بغم » . هكذا أكد لنا التجانى ، ولم يكن لنا بد من تصديقه ، لان مضاء بلة الذى لاينكسر ولاينحسر كان قد وقرت معانيه فى صدورنا ، وتغلغل حقائقه فى أغوار خواطرنا . فهو لم يعرف فى حياته الهزيمة ابدًا ولم يذق طعمها وانما دان له الجميع بمن فى ذلك مدير لعبة الملوص نفسه الذى كان صدره مثل باب السنط ورأسه اكبر من رأس الثور وذراعه اليمنى مثل عمود القندك ورجله اليسرى كأنها أحد أعمدة الكهرباء . هكذا وصفه لنا التجانى ! .

واما امام سينما قديس او سينما « برمبل » ، وحياناً امام السينما الوطنية ، فقد كانت بطولة « بلة الأحمرانى » وعصبته تظهر للقاصى والدانى جلية واضحة ، وكثيراً ما كانت تفوق بطولة من يتدافس الناس ويتعافسون لمشاهدتهم على شاشة السينما ذاتها ! وبله وجماعته يدخلون السينما بدون تذاكر ، وعلى عينك يا تاجر . . هكذا حدثنا التجانى ، ولذلك فان اعجابنا بهم بلغ اقصى الدرجات ، فما اسعد من يستطيع دخول أي فيلم من الافلام دون ان يقطع تذكرة ، ودون ان يعترضه أحد ! ففى هذا من البطولة ما فيه . ولكن « بلة الاحمرانى » وجماعته لم يكونوا يكتفون بذلك بل هم احياناً يصعدون على اكتاف الناس ليبلغوا شباك التذاكر ، ويشترون التذاكر - وربما تحصلوا عليها دون مقابل ، والله أعلم ، وهذا هو الأمر الوحيد من امورهم الذى كان يتحفظ فيه التجانى ويسند العلم فيه لله - ثم هم يبيعون هذه التذاكر للناس فى ما يعرف فى أيامنا هذه باسم السوق السوداء . ولم تكن فى أيامنا النواضر تلك سوق سوداء ، فالسوق كله أبيض والقرش نفسه ابيض . ولو علم « بلة الاحمرانى » ورهطه الابرار ان فى طى الازمنة المقبلة يوم أسود او اعوام سود لعملوا بمقتضى الحكمة المعروفة وكان شأنهم اليوم غير شأنهم بالأمس . فحسب رواية التجانى كان هؤلاء النفر مقرشين



دائماً ولكنهم مبسوطو الايدى ينفقون يمناً ويسرة . وعندما سألناه هل هم ربايط ؟  
نفى عنهم هذه التهمة وقال انهم أبطال وفتوات . . يأخذون ما يريدون عنوة واقتساراً ثم  
هم يجودون بما في ايديهم على المساكين . وقد رأهم التجانى بعينيه وهم امام سينما  
قديس كل منهم « يغرف » من ريكة صاحب « الجرم » ملء يديه من التسالى دون استئذان  
، ويجلسون فى أى مكان داخل السينما يفرقعون حبات « الجرم » « يقزقزون » بها  
ويلفظون القشور فى أى اتجاه وعلى ملابس أى أحد او وجهه او يديه ، فلا يرتفع  
صوت بشكوى ولا تتحرك حاسة تنبئ عن أى لون من ألوان الاعتراض او الاستنكار .  
لقد كان «بلة الاحمرانى» وفتيته الاشواش ابطلاً لا يشق لهم غبار ولا تصمد امامهم  
قوة ولا يعجزهم امر من الامور . ولوكان الخواجة « برمبل » نفسه موجوداً لما استطاع  
ان يحول بينهم وبين ما يريدون . هكذا نفث التجانى فى روعنا بمقدراته الرائعة على  
السرد والاقناع ، وهكذا استقر فى أنفسنا ان اللبخ نفسه لا يساوى شيئاً بالمقارنة مع  
هؤلاء الجبارين ! .

ولقد أقسم التجانى ان الفرد العادى من ثلة «بلة الاحمرانى» كان خليقاً بالدخول  
فى أى هول من الأهوال ومصادمة أى خطر من الأخطار ، وهو يستطيع أن يركب أى  
طرماج - بما فى ذلك طرماج «السمع» المكشوف - نون أن يضطر لابتياح تذكرة لأنه  
لا يخاف بخساً ولا يخشى رهقاً ولا يفزعه ولا يرهبه أى كمسارى او مفتش ، فكلهم  
يعلمون حقيقة الاشياء وواقع ميزان القوى الحقيقى فلا يباشرونه الا بالابتسام  
والتبجيل والترحيب . ويستطيع ان اراد ان ينزل «عديل» او «عكس» فى أى كشة من  
الكشآت لاسيما كشة الكلية والطلبية وسبيل سلاطين وكشة الاسكلا فى الخرطوم ،  
دون ان « يتترتع » أو يختل توازنه . وهذه « النزلات » العديلة والعكسية اذا حدثت فهى  
تكون من قبيل الحركات العبثية او بقصد التسلى وتمضية الوقت ، وليست خوفاً من  
الكمسارى او المفتش او الحاكم العام ! والتجانى عندما يروى لنا هذه الخوارق التى  
تميز بها أفراد ثلة «بلة الاحمرانى» فى مجال الفروسيات الطرماجية انما يعلم علم

اليقين ان أى أحد من الصقور فى فصلنا يستطيع ان ينزل «عكس» فى بعض الكشآت على الاقل ، ولكنه «يتترتع» ويفقد توازنه ، وربما انخبط على الارض وامتلأ وانشحن فمه ومنخرأه بالتراب . . . غير أننا لانجرؤ على اذاعة نبأ الواقعة بين الناس وان كنا من شهود العيان . وهم ايضاً يستطيعون ركوب الطرماج بدون تذكرة ، ولكنهم ان صمدوا فى وجه الكمسارى فلا قبل لهم بالصمود فى حضرة المفتش ، ولذلك كان بعضهم يلجأ الي النزول وهو غالباً مايكون نزولاً عديلاً غير « عكس » ويحدث عندما يقترب الطرماج من المحطة « ويهدن » فتقل سرعته كثيراً . فهم ينشدون السلامة فى الطرماج - وان كانوا فى المدرسة مرده اشداء - لانهم شاهدوا نفرأ غير قليل من خلق الله وقد قطع الطرماج ايديهم وارجلهم واوصالهم ، فشتان ما بين هؤلاء واولئك ، شتان ما بين صقور التوانى وجماعة «بله الأحمرانى» والامر لا يحتاج الى مزيد من التوضيح . . لقد استطاع التجانى بهذه الروايات التى صور بها ضراوة «بله الأحمرانى» وثقلته الميمونة ان يضع صقور فصلنا فى « مواعينهم » وان يقول لكل واحد منهم أنه - على احسن الفروض - قد ادرك شيئاً وغابت عنه اشياء ! .

على ان التجانى الطاهر كان من اكثر الاولاد «شطارة» فى الفصل . فهو رغم احاديثه الشيقة التى يتحفنا بها كل يوم تقريباً فانه ياتى الى المدرسة وقد استذكر دروسه جيداً واستوعبها . ورغم ان خطه فى العربية والانجليزية علي السواء كان اقرب الى الخربشة ودرّب النمل منه الى الكتابة المنتظمة الواضحة المعالم الا انه موفق فى اصابة الأجوبة الصحيحة ، وينال علي ذلك درجات ممتازة . ولكنه كغيره من التلاميذ كثيراً ما صار فريسة من فرائس الشيخ ابى بكر والاستاذ الحاج هاشم . فهذان استاذان لا اعتقد ان تلميذاً واحداً نجا منهما او افلت من بأسهما وان قضى الساعات يحاول إرضاءهما بما يبدي من المام وادراك او ما ينتهج من مسلك وسبيل . فقد كان الاستاذ الحاج هاشم يعاقبه على مالم يرتكب من اثم ومالم يقترف من معاصى ، اما الشيخ ابوبكر فقد شك - وكان علي حق - فى ان التجانى جزء لايتجزأ من كومبارس

عبد الكريم ، فلقى منه العنت والنكال من اجل ذلك . ولقد ظللنا نعجب الى ان غادرنا مدرسة امدرمان الاميرية لماذا لم يتمكن التجاني من الاستعانة بواحد على الاقل من ثلة «بله الاحمراني» على هذا الشيخ الذي صار بعبعاً « يطرطش » رؤوس الجميع !

ولقد ذهبت مرات مع شقيقى عبد الملك الي مدرسة حى العرب الوسطى - وهو تلميذ بها - وهناك لقيت اناساً عاديين فى فريق او حى العرب ، لا يختلفون عن بقية الخلائق فى كثير او قليل ، وتعرفت فى المدرسة على بعض التلاميذ من زملاء شقيقى عبد الملك وصار بعضهم من خلص اصدقائى فيما بعد . ولكنى لم اقف على خبر «بله الاحمراني» ومجموعته لافى المدرسة ولافى الحى . وعندما ذكرت ذلك للتجاني سخر منى طويلاً وزعم ان الذهاب الى تلك المجالى فى وضح النهار هو غير بلوغها فى اويقات الظلمة أو الغلس ، وكأن المردة وشياطين الجن والانس تصفد فى تلك المناحي بالنهار وتطلق من عقالها بعد الغروب ، وقد تحداني التجاني على مسامح جمهرة من اولاد الفصل ان الم بديار حى العرب فى المساء بعد حلول العتمة . ولقد وجدت من ثقتى بنفسى ما يجعلنى أقبل تحديه واعلن قبولى فى اول الامر على الملأ ، ولكنى بعد تقليب الرأى وتمحيص الامر مع الكبتل وعبد الرحمن ككتباى أصخت لنصيحتهما ، ونفضت يدى عن هذه المغامرة جملة وتفصيلاً . وسر التجاني لنكوصى ولكنه حفظ لسانه عنى بين فكيه لانه كان يعلم حقيقة الاشياء ، وحزنت انا عن تراجعى وكففت عن مغالطة التجاني لانى كنت اجهل حقائق الامور !

هذا هو التجاني الطاهر ، الصديق الحميم ، فارقتة بمفارقتى لمدرسة امدرمان الاميريه ولم نلتق بعد ذلك الا ونحن اطباء نعمل فى مؤسسة علاجية واحدة . فكان التجاني هو تجاني الاميرية بذاته وصفاته . . ذكى الفؤاد ، عبق الروح ، دمث الخلق ، مرحاً طروباً وفيماً ألباً متقانياً فى خدمة الناس .

## فتحى وسرعة الرضا:

واذا ذكر التجاني الطاهر فانه يذكرك بقريبه وأظنه ابن عمته فتحى ابراهيم وصفى

. وقد كان فتحى تلميذاً ذكياً ايضاً . وهو لايسكن حى العرب مثل التجانى بل يسكن حى ود اورو . ولكنه لما رأى التجانى يقص علينا من انباء فريق العرب ما يحير الألباب ويقف له شعر الرأس غبط قريبه التجانى على هذا الاهتمام الواسع الذى لقيه بين التلاميذ فصار هو الآخر يحكى لنا اطرافاً من انباء حيه ود اورو يحاول تنميقها والنفخ فى اوصال غرائبها بما تيسر له من ضروب المبالغات والرتوش المضافة والمضافة حتى كنا احياناً ننسى هل نحن فى حى العرب ام فى ود اورو . ولكننا سرعان ما نعود الى رشدنا ونلم بحقائق الاشياء فنوقفه عند حده ، لاننا لم نكن نريد ان ندعه يطلع بنا الجو ، الأمر الذى ربما كان يفعله التجانى ونحن عاجزون عن رده عليه ، وذلك لسببين : الاول هو «سلاطة» لسان التجانى ومقدرته الفائقة على الاقتناع والخروج من مواقف الحرج - ان هو وقع فيها - بلباقة ويسر . والثانى هو ان التجانى من حى العرب وذلك الحى بالنسبة لأغلب التلاميذ هو جزائر واق الواق بعينها ، والأعاجيب التى كان يرويهنا لنا عنه هى وحدها كفيلة بصدنا عن مجرد التفكير فى ارتياد مجاهله . اما حى ود اورو فلم يكن مشتهراً بمثل هؤلاء المردة والقنادف ، وهو على كل حال حى نعرفه ونمر به كل يوم جيئةً وذهباً من ود نوباوى . بل نحن نعرف بعض أولاده من خارج ام درمان الأميرية . نعرف سرى شقيق لآب المريخ « قرعم » الذى سطع نجمه فيما بعد ، ونعرف لطفى الأشول ونعرف شقيقه حجازى الذى صار صديقاً لنا فى خور طقت فيما تلا تلك الازمنة من عهود ، ونعرف أهلهم القبانية وغيرهم فى ذلك الحى ، فلم يكن فيه ما يخيفنا . بل ان الذى يجتاز « السور » كل يوم - وكنا نسميه « الصور » - يستطيع ان « يقدل » فى حى ود اورو على راحته غير عابئ بشئ . فالسور مسكون ومرعب ، وحى ود اورو مأهول وأمن . وحتى أولاده الذين كانوا يتقدموننا ببضع سنوات - صلاح مازرى وعمر محمد سعيد وغيرهما - لم يكونوا يدعون لحي ود اورو - فيما علمنا - بطولات تذكر ولا خوارق تستجلب الفزع . ولكن فتحى ابراهيم وصفى لما رأى تحلقنا والتفافنا حول التجانى الطاهر واستماعنا لاقاصيصه بكل احاسيسنا واعجابنا

بها حاول ان يجاريه فقصرت به عن ذلك مادة الرواية ورشاقة الاسلوب ، فلا هو اوتى غزارة وتنوعاً من مادة الرواية ، ولا هو اوتى فصاحة وتشويقاً فى سرده القصصى . ولذلك لم يبلغ من امره الذى اراد شيئاً . ولقد كان اولاد بيت المال وود البننا وابى روف وود نوباوى كلهم يقطعون مفاوز الطريق سيراً علي الاقدام فى اكثر احوالهم ، فيجتازون فيما يجتازون هذا الحى الامن ولايلاقون ما يكدر صفوهم او يثير مخاوفهم . وفتحى يحاول ان يصور لنا حى ود اورو وكائه حى العرب ويكاد - لولا بقية من حياء او من خوف من لسان التجانى الطاهر ومحمد العوض والفاضل شريف - ان يزعم ان «بله الاحمرانى» نفسه من حى ود اورو أصلاً . ولكن رواياته كانت تدخل من هذه الاذن لتخرج من الاخرى ، وما كانت لتنتطلى علينا بحال . ولقد أحقن ذلك علينا أشد الحق . وربما كان من سوء حظه ان التلاميذ من حى ود اورو كانوا كثيراً ، ورغم ذلك - ورغم اعجابهم وانبهارهم بقصص التجانى - لم يكن أحد منهم يباهى بهذا الحى كما كان يفعل فتحى . وقد كان شقيقه فوزى اكثر تواضعاً منه ومسالمة ، ولكنه كان من الحياء بحيث لا يجرؤ على نقص كلام فتحى فى ملا من الناس ، وان كانت تعابير وجهه تنطق بالكذب ! ولقد لقيت فوزى فيما بعد فى خور طقت الثانوية ثم فى الجامعة - مثلما لقيت فتحى - وقامت بيننا صداقات وطيدة هى بعض نبات ام درمان الاميرية الوسطى . اما التجانى فقد كان هو التلميذ الوحيد فى فصلنا من حى العرب ، ولذلك خلا له الجو تماماً وصار يصعد بنا الى اقصى اعالى المدى ، ونحن بين معجب وغابط نجتمع على تصديقه - الا نادراً - فى ما يروى من اعاجيب لانه اوتى ملكة فى الرواية لم يرزقها فتحى ولم يفتح الله عليه بما هو قريب منها .

وعلى النقيض من هدوء التجانى فى الرواية وسلاسة حديثه كان فتحى يعتمد فى احداث التأثير الذى يبتغيه على ارتفاع العجيرة فى ما كان يسميه بعضنا «بالكواريك» وعلى مفاجآت تخرج حديثه عن لباقة التسلسل الموضوعى ، وذلك ما كنا نسميه «النطيط» ، وعلى زجر كل معترض او مستفسر بعنف يسلب حديثه سمة السلاسة

وينبويه عن محاسن النسق . لعلّ هذه العيوب - وربما اضيف اليها غيرها - هي التي حملت محمد العوض على ان يعتبر فتحي ابراهيم وصفى «هراشاً» ولا يصدقه في ما يرويهِ علينا من حكايات . وفي مرة من المرات نعتَه جهرة بالحلبى الهراش ، فثارت ثائرة فتحي واشتد به الغضب وسمى محمد العوض «عبداً» وهو يعلم انه عمر ابي حر وان الكل عبيد الله . وكاد ان يحدث بينهما عراك لا تحمد عقباه لولا ان بعض العقلاء تدخلوا فى الامر وفضوا النزاع فانفض السامر في سلام . ولقد ساعد علي تهدئة الخواطر روح محمد العوض السمحة المراحة - واغراقه في الضحك حتي في ساعات الجد والحرص . ولما كان التجانى الطاهر على قدر عظيم ايضاً من المرح وخفة الروح والنزوع الى الدعابة والكلف بالفكاهة والطرائف فقد كان تعاطفه مع محمد العوض شديداً ، ولم يمنعه من ذلك التعاطف ان فتحي يمت له بصلة القربى وانه هو وفتحي ابيضان - او احمرانيان كما كنا نقول - وان محمد العوض اسود او شديد السمرة - او ازرق اللون - كما كنا نقول ايضاً . ولم يفره او يبطره انه وفتحي اثنان ومحمد العوض واحد ، بل وقف لجانب محمد العوض يشجب تحرش فتحي به ويعيبه عليه ، ويتغاضى - فى موافقة ظاهرة - عن معرة كلمة «الهراش» التي أطلقها محمد العوض على فتحي ويتغافل عمداً عن تداعيات كلمة «الحلبى» التي يصيبه هو نفسه بعض رشاشها ويبلغه هو نفسه من اطلاقها «رأس السوط» .

ولكن رغم اتهام بعضنا لفتحي بقدر غير قليل من حماقة والنزق وركوب الرأس الا ان فتحي قد برهن فى ذلك الموقف وغيره من مواقف تلت على خلق سام بحق . اما فى ذلك الموقف فقد رضى دون لجاثة تذكر بتدخل المتدخلين لفض النزاع وصافح محمد العوض نزولاً على رغبتهم ، فانتهى الصلح بينهما على شروط أهمها أن يكف محمد العوض عن تسمية فتحي حلبياً او هراشاً وان يمتنع فتحي عن مناداة محمد العوض «بالعب» رغم علمنا بأن محمد العوض لم يكن يبالي ابدأ بهذا ، ولم تكن «ابوالعبيد» التي تعود عليها منا كثيراً فيما بعد لتقع من نفسه موقع كرهه او استنكار ، فاذا قيل له

فى ذلك اجاب وهو يهتز ضاحكاً مرحاً طلق الوجه والمشاعر : «ياخى العارف عزو مستريح» !

وعلى الرغم من ان فتحى ابراهيم وصفى لم يكن لاعب كرة متميزاً الا انه استطاع ان يفرض نفسه علينا ، فهو دائماً يتشدد بانة لعب الدافورى مع سرى ولطفى الاشول وصلاح ميزرى واشباههم ، وانه لعب مباريات هامة فى ود اورو مع فتية يكبرونه بسنوات وكانت المباريات تختم فى اواخر شوطها الثانى بأن اللعبة « كسر مدور » « وطفى » « ولز » و « دفر » ، وان العنف احياناً يتعدى الرجل ليصير « من النخرة ولى فوق » . ورغم كل ذلك فان فريقه يخرج ظافراً منتصراً فى كل الاوقات وربما سجل فتحى هدفاً او هدفين علي اقل تقدير في مثل هذه المباريات البطولية . غير اننا لم نكن مقتنعين بأن فتحى قد بلغ من اتقان لعب الكرة أي مدى ، فما كان اسهل مرور الكرة من بين قدميه وانبطاحه علي الارض حين ترواغه وتقلت منه في يسر وسلام . ولكنه كان « شضلياً » يمسك بتلابيبك ان فعلت به مثل هذه الافاعيل ، فلا تنجينا من مشاكسته وتعديه الا « نهرات » عبد الحميد عباس الذى عرف كيف يروع بارتفاع العجيرة فوق ما كان يفعل هو نفسه ، ثم بالتلويح فى الهواء بما يشبه البنية او اللكمة او اللطمة . فتتضاعل «هرشات» فتحى ايثاراً للسلامة على المغامرة وتغليياً للحكمة على الطيش وتفويتاً للفرصة على عبد الحميد ان يظهر من البطولات ما يلحق العار بأولاد ود اورو وسمعتهم الطيبة . ولكننا نعلم ان تراجع فتحى لم يكن وليد جبن او خور انما كان من صفاته الملازمة له . فهو سريع الغضب سريع الرضا وتلك الثانية منقبة من مناقبه العديدة . والحق يقال ان فتحى رغم «هرشاته» الموسمية وجنوحه فى بعض الأحيان إلى ركوب الرأس وكفكفة الاكمام ايداناً بالاستعداد لخوض النزال إلا أنه فى حقيقة طبعه وجبلته تلميذ وود وافر الوفاء لاصدقائه وزملائه ، قادر على التخلق بالصفاء والوداعة ، يصعد الى قمم الشطط فى لحظة ويهبط راغباً الى سفوح المسالمة والوثام فى اللحظة التى تليها دون ان يجبره أحد . يعرف فيه ذلك من خبره عن قرب ومن اطلع

على أمره وحقيقة نواياه عن دنو منه واتصال به وثيق . وذلك بخلاف ما توحى به - الى من لم يألفه ويبتلى خلائقه الفاضلة الحقيقية - عنترياته التي يستحوذ عليه شيطانها فى بعض الاحايين ، وتكشيرات وجهه التي تضيف الى وعيدها ثبوراً مضاعفاً أسنان بيض فى فكه الأعلى واضحة البروز .

لقد كان فتحى من التلاميذ القلائل الذين لهم شأن حسن وذكر طيب عند الاستاذ غزالى السراج . وهذا دليل على انه كان راضياً عنه بعض الرضا ، وتلك نعمة من نعم الله ، لان رضا الاستاذ غزالى السراج لم يكن بالامر الميسور بحال من الاحوال . فان رضى عنك فاعلم انك عبقرى فى الرياضيات وان كنت - فى حقيقة امرك - لاتحسن استخراج الجزر التربيعى للكسور العشرية ولاتجيد قراءة جدول اللوغريثمات . واذا غضب عليك فاستيقن ان ليس لك من حسابه من محيص وان ليس لك من دفتر عم مبارك من منج غير الله ولا واق . ولن تفلت من الاحصار او الحصر بين هذين القوسين الا ان يتغمدك الله بِحُمَى ربما ترقق قلبه عليك وترفع عنك البلاء حتى حين . ولقد نعم فتحى برضاء الاستاذ غزالى السراج دهرأ وان كنا لاندرى لذلك الرضا المسعد سبباً مقنعاً وشافياً سوى انه اصاب فى مرتين متتابعتين - حيث أخطأ غيره - ففرق بين محيط الدائرة ومساحتها وبين محيط المربع ومساحة متوازي الاضلاع ! ولقد عزا بعض الناس ذلك التوفيق لجرأته على التصدى للاجابة وتلكؤ الاخرين حتى يؤذن لهم فى الكلام . وقال بعضهم ان السبب هو ان فتحى ابراهيم وصفى كان يلقى الاستاذ غزالى كل صباح فى طريق « الصور » فيحييه بينما لا يحييه الاخرون حياء منهم وتواضعاً وتجنباً لما حسبه استطالة وخروجاً على المالكوف . وهم قد اخذوا ذلك علي فتحى واتهموه عليه بالجرأة التي لا يرون لها مبرراً ، غير عالين بان تلك الجرأة على إسداء التحية والمبادرة بها قد وقعت من نفس الاستاذ غزالى موقعاً طيباً . غير ان فتحى وقد نال هذا الرضا ونعم به لم يسلم من نقيضه عند بعض الاساتيد الاخرين ومن الاشياء التي كانت تثير حفيظته احتفال الشيخ ابى بكر بعبد الرحمن الدرديرى



ذلك الاحتفال الذي فرّق فيه الشيخ بين اولاد الحى الواحد تفريقاً لم يجد له فتحى ما يجعله مستساغاً او يبرره تبريراً كافياً . وذلك لان عبد الرحمن الدريدى من اولاد حلة فتحى - ود اورو - وهو لا يفضل في الدين والقرآن اذا تكافأت بينهما الفرص لاطهار المقدرات في هذا المجال ، فكيف يميزه عليه الشيخ ابوبكر ؟ وبالرغم من ان فتحى كان يجلس في الصفوف الامامية للفصل وكان بينه وبين عبد الكريم ومرابض الصقور في الربع الخراب بعد المشرقين الا ان الشيخ لم يكن يوليه أى نوع من الاهتمام بل كثيراً ما كان يشيح بوجهه عنه ان هو بادر ورفع اصبعه فى جراعه المعهودة صائحاً : فندى . . . فندى . . . حتى اذا استيأس فتحى تماماً من عناية الشيخ اقلع عن محاولاته الرامية الى تسميع سور من القرآن وأخذ الي الحيرة ولان بالصمت أسيان لا يلقى على شئ . حتى اذا تعاقبت الايام تباعاً ونسى فتحى ما علق بذاكرته من شؤون الدين فاجأه الشيخ فى ذات مرة علي حين غرة منه - تماماً كما كان يفعل بالآخرين - طالباً منه ان يتلو شيئاً من الذكر الحكيم . فانفتح رأس فتحى شطرين - او قل انقلب فرقين - فاذا به خالى الوفاض لايقدر على الاتيان بشئ . ربما كان ذلك « التبكم » وليد هول المفاجأة التى تبدل الاحساس وتلبد سماء الذاكرة بالغيوم . ولكن فتحياً لم يكتف باعلان عجزه عن التسميع وانما اغرق في الضحك والقهقهة استجابة منه لهمسات خفية ضاحكة كانت تصدر من بعض الخبثاء . ففضحته امام الشيخ اسنانه البارزة وتقدم نحوه الشيخ يدب دبيبه المعهود عندما يود الانقضاض على قريسته . . وصار يردد بنبرته الساخرة الكاوية بعض ما كان فتحى يقول . . وانت قد علمت كيف برع الشيخ في مثل هذه السخرية وهذا الايذاء . . ثم لما دنا منه دنواً ماحقاً سأله بنبره حادة كأنها سكين شحذت لتوها على حجر صلد احرش الواجحة : انت اسمك منو ؟ فقال فتحى وهو يحاول ان يبعد وجهه عن الصفعات المرتقبة : اسمى فتحى يا فندى . فطفق الشيخ يردد ، وهو يأتى بحركات بهلوانية غريبة : فتحى . . فتحى . . فتحى ؟ لا انت ماك فتحى . . انت قفلى . . لافتح الله عليك . . الى اخر كلمات

قاموسه الهجاء البديع . ثم اذاقه وبال امره صفعات متتابعات ثم انتهى فتحى الى ما انتهينا اليه جميعاً . . وهو الصفر من اطناشر وقائمة هؤلاء قليلو الادب . . ثم كان ختام ذلك بمزيد من الصفعات « واللغات » واللغات وعبارات الاستهزاء والتعريض . ولقد طارت عمامة فتحى وتجهم وجهه وبرز فمه وهو يحاول احتواء أسنانه بشفتيه الياستين ، وانقلب وجهه فشفاشاً لا تخطئه عين . ومنذ ذلك الحين لم يتوقف هجوم فتحى علي الشايقية قاطبة أخذاً سائر القبيلة المعروفة ذات الامجاد بجريرة ذلك الشيخ الذى أثبت علماء الاجناس من التلاميذ انه رباطى وليس بشايقي !

مهما قلنا عن فتحى فالحق انه كان يمتاز بمجموعة خلائق حددت معالم شخصيته بوضوح . فعلى الرغم من انطوائه على سريرة طيبة محبة للخير الا ان فيه روحاً من النزوع الي التحدى واثبات الذات ظاهرة جلية تلمسها حتى في المناقشات الهادئة بينه وبين اقرانه التلاميذ ، وعنده إحساس بالتفوق الجسماني - ولا اقول العرقى - لم نقف له على سبب واحد مقنع سوى حب المغامرة . ولكنه فى كثير من الاحيان يجد فى نفسه وازعاً رادعاً عن الانحشار فى مضائق المغامرات وذلك عندما يدلهم الخطب وتتعالى امام ناظره وحصافة ادراكه مقدرات غيره ، خصوصاً اذا كانوا جماعة وهو وحيد منفرد . فقد اوتى فتحى مقدرة علي التنازل فى ساعات الحرج بطريقة تحفظ عليه كثيراً من كبريائه وان نالت من صلفه فى اعين الناس . ولقد كان فتحى ايضاً تلميذاً مجتهداً فى دروسه وقد اكسبه حسن ادائه الدراسى قدراً كبيراً من احترام زملائه فغضوا الطرف عن بعض تجاوزاته واشتطاطاته تحدهم قناعة تامة بأن اطلاق محمد العوض عليه نعت « الهراش » لم يكن يجانب الصواب كثيراً . ولقد التقيت فتحى بعد امدرمان الاميرية فى خوطقت الثانوية بعض الوقت ثم فى جامعة الخرطوم طيلة اربع سنوات تخرج بعدها فى كلية الاداب وبقيت انا فى السنوات النهائية بكلية الطب ، فتوثقت عرى الصداقة والمودة بيننا امتن توثيق ونحن ما نزال علي ذلك الالف القديم . ومازال فتحى هو فتحى باقى علي الوفاء لرفقته من زملاء الحدائه والصبا يذكرهم جميعاً

بالخير ، يضحك ملء أعطافه وجوانحه عند ذكر أى منهم فقد كان كل واحد منهم دنيا من المرح والبهجة وطيب الخلائق ، ويكاد يفطس من الضحك او تتقطع مصارينه ان انت ذكرته بالشيخ ابى بكر . ولقد كان فى فتحى منذ صغره حزم مشوب برقة ولطف فاجتمع له من خلال ما أهله ليتسنم مراقى مصلحة الضرائب فى ما اسند اليه من مسؤوليات صرف شؤونها تصريف العارف المقتدر .

## الحمرة المفترى عليها :

لقد كان التلاميذ « الحمرة » فى فصلنا كوكبة لا يستهان بها ولا بعددها ، منهم قوم عقلاء يدركون حقائق الاشياء كما هى فلا يتعدون الحدود . ومن هؤلاء عوض حنفى ، وهو من بيت المال ولذلك له صلة قوية - ربما كانت سكنية فقط - بعبد الكريم احمد حميدة . وذلك على الرغم من أن عبد الكريم لم يكن بطبعه ميالاً الى « الحمرة » ولا مفتوناً بها بل ربما استشعر فى قرارة نفسه نفوراً وتباعداً عنها وضيقاً وربما بها . وهو احياناً يقول . «الحمرة دى اللباها المهدى» ولكنى لست مستيقناً من ذلك ، ومبلغ علمى ان الامام المهدى - وهو الذى وحد هذه القبائل والاعراق المتباينة وجعل منها امة واحدة على طريق العقيدة السليمة ووحدة استقلال تراب الوطن - لم يكن ليابى «الحمرة» او يفرق ويميز بينها وبين الوان الطيف العرقى واصولها المتنوعة المتباينة . ولذلك فان «الحمرة» بهذا المفهوم لاتنقص من قدر الانسان ولا تزيده من نفسها تماماً كما ان «الزرقة» لاتخفف بذاتها من مكانته ولا ترفع . انما هى اعمال تحصى على الناس ويحاسب عليها هذا وذاك .

كان عوض حنفى تلميذاً عاقلاً وافر العقل بكل المقاييس ، فهو لا يغامر ولا يمارى ولا يركب سفائن الفتن وبحار التيه ، بل يحاول جهده ان يبتعد عن الشرور وألأ يدخل فيما لا يعينه . ولكن شؤون تلك الايام الغابرة كانت تعنى الجميع وليس من سبيل إلى تحرى الحيدة والبعد عنها الا فيما ندر . فالاساتذة يطالبون التلاميذ بمستويات عالية . وكل تلميذ تحيط به وتكتنفه ظروف خاصة به هي فى كثير من وجوهها مغايرة

لظروف غيره . ولهذا ، ولاعتبارات اخر شتى - يجئ الاداء متبايناً . فالانجليزى عند  
 الاستاذ فرح تتطلب معرفته والتباهة فيه حفظ الكلمات المفردة جيداً ومعرفة كتابتها  
 كتابة صحيحة ثم نطقها بطريقة سليمة تقارب نطق الخواجات انفسهم . ولقد كان  
 عوض حنفى يجد صعوبة فى ذلك ويشتكى من ازدحام «الكمبانيون» Companion  
 المصاحب لكتاب الريدر « Reader » بالكلمات المستعصية الموغلة في العجمة  
 والانبهاهم . فاذا كان امتحان « السبلتق » « Spelling » الذى كثيراً مايفاجئنا به  
 الاستاذ فرح تملك عوض حنفى شئ من الرعب والفرق ، فجاء اداؤه مخالفاً لحسبان  
 الاستاذ مقصراً عما يرجوه ويرتضيه مخيباً لاماله . وليس ذلك لان عوض حنفى لم يكن  
 تلميذاً شاطرأ فقد كان ، ولكن لان المستويات التى يتطلع اليها الاستاذ فرح وترتضيه  
 عن أي تلميذ لم تكن تنقص عن درجة الكمال . فاذا حصلت على تسعة وتسعين من  
 مائة فانك تعاقب علي هذا الواحد الذى قصرت فيه وقعد بك «اهمالك» عن الحصول  
 عليه ! ولقد عانينا نحن جميعاً من نشدان هذا الاستاذ للكمال وتمسكه بهذا المبدأ  
 الصارم في تقييم الاداء . ولكن عوض حنفى تحمل من هذه المعاناة عبئاً ثقيلاً بعض  
 الشئ . ولم يخفف عنه من ذلك الشقاء ان جيرانه مثل عباس صالح موسى ومحمود  
 احمد مهدى وغيرهما كانوا يشاركونه العناء الذى يلقاه والرهق الذى يشقيه ويكدر عليه  
 صفو الحياة . فاذا دخل الاستاذ فرح الفصل وجاء من ورائه عم محمود  
 وعم عبد العزيز يدبان فى هون وتؤدة وهما يبسمان في مكر ظاهر يرتجف من فرطه  
 شارباهما الكئان ، ايقن عوض حنفى بوقوع الواقعة ونفاذ القدر ، فصار - على  
 الرغم مما عرف به من هدوء وسكينة - يرتعد ارتعاداً تكاد تسمع من جرائه أزيزاً في  
 العضلات وفرقعة في العظام . فاذا حمله هذان الماردان وأقضى به الامر الى لسعات  
 سوط الاستاذ طفق يترجاه فى استغاثة هادئة خلّت من مثل « زوبعة » محمود وعباس ،  
 الا يعرضه للآلم اكثر مما فعل ، ورغم ذلك فقد كان عوض حنفى يعد للأمر عدتها  
 ويضع على مؤخرته لبدأ يفضح وجودها وقع السوط عليها مما يحدث اصواتاً «طرورية»

معينة تدل دلالة واضحة على بعد نظره واكتمال تحوطه واتخاذ  
التدابير المناسبة للحدث المناسب فى الوقت المناسب! ولكنه مع ذلك  
يتلوى « ويفرر » ويثن ويسترجع ليوهم ان الالم قد بلغ مداه. اما الاستاذ  
فرح فربما لفتت نظره او بلغت سمعه هذه الفرقة « الطرورية » كلما  
اهوى بسوطه على العقب المكتنز بحاميات اللبد، ولكنه كان يتجاهل  
ذلك ولا يحفل به ولا يسأل عنه. وقد يكون ذلك رحمة منه او رقة او شفقة  
وقد لا يكون، اذ المهم عنده ان يتلقى التلميذ ما فرض عليه من عقاب: ان  
عشرة جلدات فعشر، لاتنقص وان علا صراخه وتلوى واستغاث باقطاب  
الارض والاو تاد.... ولاتزيد وان صدر منه فى تلك اللحظة من سوء الادب  
ما يوجب الزيادة. وذلك لان الاستاذ فرح منضبط فى كل شئ اذا توعد  
« انجز » وعيده واذا سكنت عن شئ لم يعد اليه. ولقد سقط حاج حنفى  
ايضاً من عين الشيخ ابي بكر كما سقط غيره. وكان فى اول امره يغبط  
احمد الحبيب على تقريب الشيخ له واحلاله تلك المكانة السامية  
الرفيعة، ويود لو تيسر له مثل هذا التقريب والقرب ولو اتيح له تبوء  
تلك المكانة من نفس الشيخ. ولكنه ادرك بعد طول تجربة ومراس ان  
الشيخ لا يؤمن جانبه ولا يغنى لينة الذى يبديه فترتاح له النفوس عن  
ضراوته التى تكمن فى ذات ذلك اللين فيشعل نارها هزل الهازلين من  
التلاميذ وشغب البراجل والمناقل والمثلثات. وادرك عوض حنفى  
ببصيرته الصادقة ان الشيخ لابد فاعل به الافاعيل وان تأخر ذلك وابطاً  
عليه، وانه لن يكون فى منجاة مما صار اليه غيره من محاق. كان حاج  
حنفى فى اول امره يحب الشيخ كثيراً ويعجب بصوته الرخيم ويستمع  
الى تلاوته الرائعة باذن صاغية وجوارح خاشعة وقلب منيب. وبالفعل  
كان الشيخ ابوبكر يمتاز بصوت أسر فى التلاوة يبهج الارواح ويشجى  
الانفس ويحرك فى وجدان التلاميذ انبل الاحاسيس وارفع المشاعر  
فكنا نصغى اليه بكل وجداننا وحواسنا، ولو انه كان يكتفى بهذه التلاوة  
فى تدريسه ويكف عن سخريته اللاذعة وتعابيره الحارقة الماحقة لصار  
اعظم الاساتذة فائدة لتلاميذه ولكن ذلك لم يكن فى مقدوره ولا بعضاً من  
خلاله وطباطعه، فهو قد جبل

علي السخرية من التلاميذ واشرب حبها في نفسه وتمكنت منه اعظم تمكين ، فاصبح الفصل كله ضحية لهذه السخرية التي لا تقيم وزناً لشيء ولا تفرق بين غافل ويقظان ، ولا بين لاه ومجد ، ولا بين عابث وباحع نفسه علي اثار العلوم والتحصيل . ومن عجب ان التلاميذ بالرغم من ذلك كانوا يحبونه فلا يغيب احد عن حصته ابداً ، بل يشهدا الجميع بلا استثناء ، وهم يمنون انفسهم بوقت طيب - رغم ما يتخلله من اذى يصيبهم ولا يخطئهم - يشحن وجدانهم بذكريات لا تنسى . ولقد كان سقوط احمد الحبيب من شاهق عناية الشيخ الي مكان سحيق امرأ مثيراً لعوض حنفي . فهو لا يكاد يصدقه رغم شهوده له ووقوفه علي كل فصوله وحلقات تسلسله المأساوي ، لانه كان يعلم ان احمد الحبيب بالنسبة الي الشيخ كان بمثابة سواد العين من بياضها وبمكانة القلب من الشاة التي عجب قيس كيف يداوونه بها عندما حاول نطس الاعراب ذلك . وفجأة ، وبلا مقدمات تذكر او اسباب يعبأ بها او تصلح ان تكون تكئه او مدخلاً . . . فجأة تهاوى احمد الحبيب من عليائه التي لبث فيها طويلاً الي القاع واودية النسيان . . . «فكأنما خَرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » ! وكان له من الشيخ ابي بكر ما كان . . . مما حير حاج حنفي - كما حير الاخرين - وجعله يسترجع ويصفق بيديه ويقلبهما ويهز راسه عجباً واستغراباً للذي حدث قبل حين . ولما انهي جرس عم مبارك تلك الحصة التي حسبناها دهرأ وانا لبثنا فيها من عمرنا سنين اذا بعوض حنفي في فسحة الفطور وغيرها يسرد علينا الحكم التي كان يلتقطها من احاديث عجائز الاسرة كما يقول ، وكلها تدور حول ان دوام الحال من المحال ، وان العاقل من اتعظ بغيره ، وان الذي يركن إلى إطرء الاستاذ مغرور مخدوع ، وان السترة والفضيحة متباريات ، وان الدنيا عموماً لا امان لها . . . ثم تنتهي مواعظه لنا بما هو اهم معنى وادق تحديداً من ذلك في نظره ، وهو قوله ان من يطمئن الي الرباطاب أو الشايقية لا يجنى سوى الخيبة والخسران . فما هو ذا يخصص بعد تعميم ويمس صميم القضية بعد ان حام حولها طويلاً مثل شاعر عربي يبكي على الاطلال ثم ينسب

ويتشعب ويتغنى برويق الطبيعة وحلاوة الأصائل وهنوء الليل وانسكاب ضوء القمر قبل ان يبلغ مايسمونه ببيت القصيد ، وهو لب الامر الذي من اجله انشئت عقود الخريدة وتداعت من أجل بلوغه أمهات المعانى ومنتقيات القوافى . ولقد وجد عوض حنفى في قوله هذا الذى يعرض فيه بالشايقية والرباطاب تاييداً صريحاً من احمد الحبيب بعد تلك الواقعة الشهيرة التى منى فيها بما لم يكن يدور له بخلد ولا حسبان ، وقبيل مغادرته النهائية للمدرسة على اثر تلك المحنة المقيتة التى هزت كيانه هزاً ، وبيدت ثقته فى المدرسة تبديداً وقلبت وجدانه واحاسيسه الرقيقة رأساً على عقب . ولقد كانت المقولات التى تنال من الشايقية والرباطاب عموماً بجزيرة الشيخ ابي بكر تفرع اسماعنا قرعاً متواصلأ لا تحجب بعض تعابيرها القارصة المشتطة عنا الاضحكات محمد العوص وعباس صالح والفاضل شريف وكلهم عرف الشيخ وخبر بأسه وتلقى من يديه الحارقتين ما إن صفعاته « ودلايمه » لتنوء بالعصبة اولى القوة . ولكنهم كانوا يستمتعون بسرده هذه الوقائع وينشرونها بين الناس ويستزيدون من امثالها لانها مادة هامة من المواد التى تلهب الخيال وتواكب روح النزوع الى الهزل البرئ واصطناع الدعايات والطرائف والملح . ورغم ان عوض حنفى لم يكن بمنزلة هؤلاء الفتية من حب الهزل والاغراق فيه ، الا انه اخذ يجاريهم الي حدود بعيدة فهو لم يكن أقل موجدة على الشيخ من احمد الحبيب وان اختلف الشائتان وتباين المصيران وان جهل كلاهما قبيلة الشيخ على الحقيقة .

لقد كان عوض او حاج حنفى - والحق يقال - تلميذاً مهذباً قلما يشترج مع الناس او ييبدأ احداً بخصام ، وهو على درجة من النضوج النسبى وقدر مرموق من الحكمة والتباعد عن المواطن التى يمكن أن تقضى الى النزاع . وربما أهله لذلك نشأته فى بيته او تربيته ، وربما كان ذلك اجتهاداً منه فى الحذر وابتغاء دروب السلامة . ورغم ان بعض الخبثاء كان يتهمه بقلة الاقدام فانى ارجح ان تجنبه للصدامات التى لاتجدى ولاتنتفع والتى لم تكن لها أسباب مقنعة لم يكن وليد خوف او نقص فى منقبة الاقدام ،

وانما كان ناتجاً من ادراك سليم وربما عن فطرة مسالمة اصلاً ، لا ترى فى المشاحنات بين التلاميذ وافتعال المواقف المدوية والبطولات الزائفة الاضاعة للوقت وتلطياً للثياب بالطين والتراب واجتلاباً للخدوش والجروح بالطوب والحصى ، ثم افساداً وتفثيتاً لروح الزمالة الاخوية التى يجب ان تجمع بين الناس وتؤلف بين قلوبهم . واية ذلك ان عوض حنفى كان اذا راي تلميذين يتشاجران اسرع اليهما وهو يقول بصوته الذى ينم عن الصدق ومحبة الخير والصفاء : يا اخوانا عيب ، الكلام دا ما معقول ، الشكل مافى ليه لزوم ! هذا فى الوقت الذى كان فيه بعض الخبثاء لا يكتفون عن قولهم : المديدة حرقتنى . . حرب الديك سك الديك . . حتى اذا اشتبك الخصمان وبان جلياً ان الاذى يقرع الابواب ويوشك ان يعم فيدرك البعيد والقريب ويلحق بالاجساد هرعوا يستجدون بالكبار - او الصقور - لقبض النزاع واعلاء قيم « الحجازة » ومحاولة احلال الصلح والوصول بدل الحرب والقطيعة . لقد كان الحاج عوض حنفى رسول سلام بهذه الصفة ونذر الشر لائحة فى الافق ، فيما كان غيره من الخبثاء يضربون الدفوف ابتهاجاً بهذه النذر واستدعاءً لها ، حتى اذا احاطت بهم من كل جانب (تذكروا فاذا هم مبصرون) . ولذلك حظى عوض حنفى باكبار زملائه وتتمينهم لطبيعته المفعمة بالوداد ونفسه المشغوفة بالسلم والأمان .

لقد فارقت عوض حنفى منذ تلك العهود بعد ان تخرجنا من مدرسة ام درمان الاميرية ، وما لقيته بعد ذلك إلا اماماً وللحظات قصار ، وكان آخر لقاء لى به - على ما اذكر - فى اواخر عام ١٩٩٤ فى حى الشهداء بامدرمان . وهناك وقفت معه طويلاً نستعيد ذكريات الماضى فى ربوع تلك المدرسة الحبيبة . فكان اول ما ذكره لى عن مدرسة امدرمان الاميرية الوسطى هو الشيخ ابوبكر عبد الله ، فأخذنا نجتز من سيرته المسلية مع التلاميذ ما جعلنا نضحك وكأنا فى ربوع تلك الديار وقد عدنا اليها عبر تضاريس الحقب والأزمان . وقد سررنى ان حاج حنفى كان على صلة ببعض اولاد الفصل ، وهالنى وادهشنى انه نسى بعضهم تماماً وكأن لم يكن لهم فى طيات ذاكرته



وجود . فصرت كلما ذكرت له اسماً من اسمائهم قرأت على وجهه الحيرة وايات النسيان فأجهدت نفسى محاولاً تذكيره به دون جدوى . ولكنه فى نهاية الامر تذكر أغلبهم وطفق يسائلنى عنهم فى شوق واهتمام ، فوافيته بأخبار من علمت اخبارهم منهم وانباته بما شهدته او تناهى الى من شأنهم .

لقد كان عوض حنفى من التلاميذ العقلاء فى الفصل وكنا نطلق عليه اسم «حاج حنفى» وفى ذلك نوع من الاجلال لا يخفى . لقد حملته شدة حذره على نوع من القدرية فكان إذا اعجزته الحيل قصَّ علينا من حكم اهله ما يؤكد هذه القدرية وهو يتسلى عن الامه التى يتعرض لها بأمثال هذه الحكم . وكان يغضب اذا رددت عليه مثل هذه المقولات او احس منك شيئاً من « المناكفة » حولها فهى عنده قيم رازكة يصوغها فى تعابير مقتضبة كقوله : الدنيا ما بتدوم او كل اول ليهو آخر واشباه ذلك من الحديث . وهو لا يكتفى بظاهر القول وانما يفترض انك تدرك وتنفذ الى ما وراء الكلمات من مكنونات العبر فلا يسرف فى الحديث ، وكأنه ينظر الى ابي العلاء اذ يقول

لا تقيد على لفظى فانى . . . مثل غيرى تكلمى بالمجاز

فقد كان حاج حنفى يكثر من التكلم بالمجاز وذلك لانه يعتقد ان كثرة الكلام توقع صاحبها فى الخطأ والزلل لا محالة . وهو بطبعه لا يطيق الشجارات ولا يبدى أى نوع من الاستعداد للدخول فيها وانما ينفر منها نفوراً ويتباعد عنها تباعداً . ولما كان ابراهيم السيد يدين بمثل هذه المفاهيم فقد كان حاج حنفى الصق اولاد فصلنا به وأقربنا منه . ولكنه اقل انفتاحاً على الناس من ابراهيم . فهو كثير الشكوك والريب . شديد الرغبة فى المسالمة والموادة ولكنه قليل الثقة فى نوايا التلاميذ لانهم لم يكونوا يأخذون الحكم التى يلقيها على مسامعهم مأخذ الجد ، بل يسخرون منها فى كثير من أحيانهم وربما اتهموه صراحة بمغبة الانكفاء على القديم . ولذلك كان حاج حنفى زاهداً بعض الشيء فى تجمعاتهم لانها مظان المشاحنات فيما بينهم ومنتديات الخوض فى سير المدرسين وهذان أمران يسعى حاج حنفى لتجنبهما ما استطاع . فهو محب للسلامة

نزاع الى ارتياد مشارف الأمن والأمان وهو تلميذ طيب بحق ومثال حي « للحمرة »  
المفتري عليها .

## محمود... وشيخ يوسف ... وحجارة من سجيل :

أما محمود احمد مهدي فقد اختلف عن الحاج حنفي او عوض حنفي ومن كان من  
قبيله في كثير من الواجه ، وان التقى معهم فى بعضها ، فمحمود من التلاميذ الذين  
جبلوا على الشيطنة والاكثار من الهزل والسخرية من الآخرين . ولست أرتاب فى انه  
كان ضمن مجموعة مصطفى عابدين التى اجادت فنون وأنماط نثر الحبر على ملابس  
الشيخ ابي بكر وتجليها ببقع السواد دون ان يحس الشيخ بذلك . وهى فنون برعت  
فيها هذه المجموعة أيما براعة واتقنتها أيما اتقان . وان كان لمصطفى عابدين منازع او  
مدان فى اتقان هذا الفن واخفاء الوسائل المستخدمة فيه فهو محمود احمد مهدي .  
ولكنك اذا واجهت محموداً بمثل هذا الاتهام انكره إنكاراً وتملص منه تملصاً ، وأقسم  
بحياة شيخ حارتهم وشرف عمدة فريقهم أنه برئ من ذلك الاتهام ولا صلة له به على  
الاطلاق . غير أنى كنت أعرف محموداً تمام المعرفة وأدرك مقدار عشقه للهزل والضحك  
وجهدته الذى يبذله لتوفير أسبابهما واختلاق الظروف والمواقف التى تفضى اليهما  
وتفشييهما بين الناس ، رغم حذره البالغ وفرقه الشديد وخوفه الذى ليس عليه مزيد من  
أن يفتضح امره فيلحق به الأذى وتفري ظهره العقوبة . ولو ان محموداً علم او ظن ان  
مجارته لمصطفى عابدين فى هذا الامر الخطير يمكن ان توقعه فى مظان السوء  
ومواطن الريب لما أقدم على هذا الأمر ولاشارك فيه . ولكنه كان يعلم ان مصطفى  
عابدين هو العقل المدبر لكل ذلك العبث الانتقامى البرئ ، وانه قد آلى على نفسه ان  
يحسن التربص ويجيد التوقيت ويبدع فى دقة التنفيذ دون ادنى تفريط ، وانه قد أقسم  
انه - فى حالة انكشاف المستور - سيتولى كبره ولن يسلم احداً ، « وسيموت على  
دينه » ويبوء بذنبه ولن يدفع بغيره الى المقصلة . تلك كانت ثقة محمود بمصطفى وهو  
محق فى ذلك لان مصطفى - على ما به من حب للهزل والقفشات بكل انواعها -

عرف بالصدق اذا وعد وفى واذا ائتمن أدى الامانة . ولقد كان محمود معجباً بالشيخ ابي بكر كل الاعجاب . وهو لا يفعل بالشيخ وملابسه مع مجموعة مصطفى عابدين ما يفعل من مواقع الموجدة ومحبة الانتقام ، وانما يفعل ذلك تمشياً مع طبيعته النازعة الى ما يثير الضحك ويرضى دوافع الشيطنة وحب العبث من أجل العبث . وما كان مبعث اعجاب محمود بالشيخ ابي بكر لان الشيخ يتلو القرآن بصوت رخم مؤثر كأنه مزامير داؤود ، ولا لان الشيخ استاذ ممتاز من اساتذة الدين واللغة العربية ، ولكن لان الشيخ يتحدث بطريقة خاصة يعجب لها محمود أشد العجب ويضحك لها ملء نفسه وجوانحه . ولان الشيخ كان يأتى بحركات غريبة تثير فى محمود خيالاته التمثيلية التى هى بعض مواهبه . فما ان نفرغ من الحصص ويفضى بنا جرس الفسحة الى فناء المدرسة حتى نتحلق حول محمود وهو يحاكي الشيخ فى مشيته وفى كلامه وفى تقاصره وتطاوله - او قل فى انكماشه ثم تمدده - وفى طريقة انقضاضه على من يود أن ينقض عليه من التلاميذ بعد كل تلك المقدمات الدرامية المشحونة بالوعيد ، التى لا يملك التلاميذ حيالها سوى الترقب والانتظار مع توطين النفس على توقع اسوأ الاحتمالات . فيصدق الحدس ويتحقق الظن ويحل الكرب والبلاء . ولقد كان محمود يجيد محاكاة الشيخ بدقة لا يدانيه فيها الا محمد العوض ، وفى بعض الأحيان عباس صالح . غير أن عباس صالح كثيراً ما يفسد براعة محاكاته للشيخ باسراعه فى الاتيان بالحركات المعنية ومغالاته فى ذلك ، والأصل فيها عند الشيخ أنها تأتى فى تودة وسكينة بالغة تتجمع فى طى سكينتها الخادعة رياح النذر وعواصف الهياج قبل مواقيت الانفجار ، لأنها مقدمات للانقضاض تحتوى على إضمار المفاجأة المفاجئة فى ثنايا الهدوء ، وهذا أبلغ وأشد قرباً من الأصل والحقيقة ، وهو عند محمود أصبح وأمتع وألذ . واما محمد العوض فقد كان يجيد هذه المحاكاة ولكنه أيضاً يفسدها بميله الى الضحك اثناء الاداء ، والأصل فيها الحزم «وصرة الوش» ، ولذلك تجئ محاكاته ناقصة جليلة النقصان ينكرها دعاة الاتقان لأن آثارها الاصلية غضة طرية فى الاذهان ماثلة لعيان الخيال وخيال العيان .

أما محمود فقد اوتى المقدرة على ضبط النفس وحبس العواطف والتغلب على دوافع الضحك ريثما يؤدي الدور كاملاً بكل تفاصيله بلا افراط او تفريط ، ثم اذا فرغ من ذلك وابدع فيه اجتمع اليه كل مافاته من الضحك فانغرق فيه اغراقاً . ولقد كنت أعجب لمحمود احمد مهدى ، فهو يقلد الشيخ ببراعة نادرة المثال ، وذلك دليل قاطع على انه ينطوى على مقدرات هائلة على التمثيل ، ولكنه لم يكن يميل الى الاشتراك فى التمثيليات التى تعرض على مسرح المدرسة الا قليلاً ، ولو انه فعل لنال اعجاب الناس ولتمرس على هذا الفن الرفيع . والغريب ان نفوره من التمثيل على خشبة المسرح امام الملأ لم يكن لحياء غالب يمنعه من اداء الادوار ، لان محموداً لم يكن كذلك ، ولكنه ربما كان خشية من اللحن امام الناس او لسبب من هذا القبيل . قيل للخليفة عبد الملك ابن مروان ذات مرة : عجل عليك الشيب يا امير المؤمنين . فقال : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . ورغم ان محموداً لم يكن اميراً للمؤمنين ولا أحسبه يتطلع لذلك ، ورغم انه لم يكن قد شاب بعد ، الا انه كان يتبكم أحياناً وهذا هو ما دفعنى الى القول بأنه ربما كان يخشى ان يخطئ فيثير على نفسه سخرية زملائه ، وفيهم من لا يرحم ولا يقيم وزناً لصعوبة مثل هذه المواقف . وعلى كل فقد باعد محمود بين نفسه وبين التمثيل على المسرح لأمر يعلمه هو دون سواه وأثر ان يقلد بعض الاساتذة - وفى طليعتهم الشيخ ابويكر - بعيداً عن أى مناخ او تجمع رسمى ، فكان يجيد ذلك التقليد أكمل اجادة ، يجتمع من حوله التلاميذ بعيداً عن رسميات المسرح واشراف الاساتذة وهو فى منأى وسلامة من الحرج - او قل مقارفة الجرم - الذى ربما يتعرض له من يحاول تقليد استاذ على مرأى ومسمع منه . ومحمود لم يكن حياً ولاخجولاً حينما يكون فى مأمن من عيون الاساتذة ومسامعهم ، وانما يطلق نفسه على سجيتها ويتحكم فى تقاطيع وجهه ودلالات التعابير التى يود ان يبسطها عليه او يودعها فيه ، وفى اداء الحركات المبتغاة والتفوه بالكلمات التى هى مدار المحاكاة المطلوبة . فيخلص من كسل ذلك الى « متلوج » متكامل الفصول حافل بأروع الاشارات والقفشات المضحكة ، او الى دراما

اسرة أخذة تنقلك من المرح الى الاسى ثم تعيدك بهزلها الي الضحك فى طرفة عين ، او الى اثاره تتملك احاسيسك كلها ثم تحملك الى حيث يريد ، او الى أى لون من المعانى التي تعجب التلاميذ وتسرههم فيضحكون لها ملء أشداقهم ويهنتونه على المهارة والدقة التي يتميز بها ادائه وتتفرد بها مقدرته علي التمثيل والمحاكاة . بل منهم من يغبطه علي هذه المهارات والمقدرات ويحاول مجاراته فى هذا المضمار فلا تسعفه امكاناته ومواهبه ولا يظفر من ذلك بطائل . وتظهر موهبة محمود بصورة رائعة عندما يقلد شيخ يوسف استاذ الدين الذى كان يلمُ بفصلنا على فترات متباعدة وهو شيخ ابيض لون البشرة كأنه «خواجة» ، يبدو انه اسنُ من الشيخ ابى بكر وربما كان ضعف حجمه . يرتدى فرجية رمادية على قفطان أبيض فى أغلب أحيانه ، وعلى رأسه طربوش أحمر صغير «مقرص» تلفت من حوله عمامة قصيرة بيضاء محكمة الاستدارة متداخلة الطبقات ، تلتحم مع قاعدة الطربوش وجنباة التحاماً وثيقاً يكاد يرقى الى اعاليه ، حيث تنحسر عن ذلك « القنبور » الذى يستحيل الى ضغث من نؤابات حمراء تهتز فى رفق كلما سرت نسمة او تلفت الشيخ لسبب من الاسباب .

لقد كان الشيخ يوسف الأصوالى رجلاً مديد القامة تليعاً ضخم الجسم عريض الكتفين شثن الكفين عظيم الأهداب كث شعر الحاجبين . ما ان يجلس علي كرسية يستقبل تلاميذ الفصل استعداداً لالقاء درس الدين حتى يبدأ فى إدخال يميناه فى جيوب قفطانه بصعوبة ظاهرة تنبئ عنها تجاعيد تتجمع طبقات على جبينه فيما يشبه البرم والاحتجاج الصامت . حتى اذا جاست اصابعه خلال الديار الجيوبية ملياً أخرجها ظافرة من تلك المخابئ والأضابير وهي تحمل طعاماً غالباً ما يكون خليطاً من الرغيف واللحم او الطعمية والبيض المسلوق او غير ذلك مما يؤكل ويستطاب . فاذا تم له ذلك وظفر ببغيته تهلّل وجهه بالبشر وفارق جبينه التقطيب وانداحت عنه التجاعيد فأشرقت اساريه وتجلت على قسماته آيات الرضا والارتياح . وهو رجل محبوب بين تلامذته اولاً لانه اذا دخل الفصل جلس على مقعده لا يفارق مكانه حتى انتهاء

الحصّة . وهذا أمر يريح التلاميذ لانه يطلق لهم كامل الحرية ، وخاصة أولئك الذين يجلسون فى الصفوف الخلفية حيث الموسيقى المنبعثة من تلاحم ابوات الهندسة مع الشفرة التي تقف على احد حديها في شق من شقوق درج عبد الكريم . وثانياً لان الشيخ رجل هادئ ومهذب لا يطلب من احد شيئاً ولا يرغم تلميذاً على الانتباه والاصغاء ، ولا تقلقه ولا تزعجه «الهرجلة» مهما علا الضجيج واختلطت الأصوات والمهسات والضحكات . فهو لا يلقى بالأشئ من ذلك ولا يكثرث به ولا يهتم له ، إنما يمضى في شرحه اثناء الفترات التي يكف خلالها عن تناول ما أخرج من جيوب قفاطينه من طعام ، يوزع وقته بالعدل والتساوى بين طعامه وشروحه ، يساوى بينهما في الاهتمام فلا تميل كفة على اخرى حتى يقرع عم مبارك الجرس ايداناً بانتهاء الحصّة ، وعندها يكون الشيخ قد فرغ من القاء درسه الذى يريد ومن تناول طعامه الذى يشتهى . ولسنا نعلم علي وجه اليقين ان كان في الجيوب بقية ، غير أن المدققين منا كانوا يزعمون دائماً أن جيوب قفاطين الشيخ ما تزال مملأ بالطعام تحتقب الواناً من المأكول . والامر الثالث هو ان الشيخ يوسف اذا سألك عن شئ فهو يقبل منك أي إجابة تأتي بها ، لا ينتهرك ولا يزجرك ولا يؤذيك ، وهو يصدع بعد ذلك بالاجابة الصحيحة على سؤاله دون ان يشعر بك بأنك جاهل نو نسب فى الجهالة عريق !

وانى لاذكر جيداً كيف كان الشيخ يوسف يفسر لنا سورة «الفيل» فيقول في بعض تفسيره بعد ان يصف الطير الابابيل وصفاً دقيقاً كأنه رأها بعينى رأسه - يقول ان «حجارة من سجيل» معناها حجارة صغيرة تدخل من الرأس تخرق البويضة ، اهلكهم الله تعالى كل واحد بحجره المكتوب عليه اسمه . هذه هي كلمات الشيخ انكرها بوضوح وجلاء . ولقد قرأت في تفسير الجلالين بعد عقود من الزمان عن هذا الحجر فجاء فيه : « وهو اكبر من العدسة وأصغر من الحمصة يخرق البيضة والرجل والفيل ويصل الي الارض ، وكان هذا عام مولد النبى (ص) » ففهمت شرح الشيخ بعد ان كدت اركن في تلك الايام الي ان البيضة - وقد ضغرها الشيخ تصغيراً انما تحمل

معنى غير الذى لاح للمفسرين !

ولقد كان محمود احمد مهدى اسعدنا بحصة الشيخ يوسف الاصولى ، فهو لا يكف عن الضحك حتى انتهاء الحصة فلا يحفل الشيخ بذلك وانما يشتغل بالاكل والشرح معاً وبالتساوى . فاذا انتهت الحصة وخرجنا الى سعة « الفسحة » أعاد علينا محمود جميع اقوال الشيخ وافعاله بدقة لا تغادر شيئاً . ولو انك البست محموداً قفاطين الشيخ ووضعت تحت منخرية ذلك الشارب الكث الابيض مثل « الروب » ثم حشوت جيوبه بالبيض والرغيف والطعمية وشرائح اللحم المحمر لظفرت من محمود بخلق آخر هو الشيخ يوسف الاصولى بذاته وصفاته . فتبارك الله احسن الخالقين .

هذا هو محمود خارج الفصل وفي مناخ الحرية التامة بعيداً عن الرقابة الرسمية . يملأ الدنيا بهجة وقهقهات ويدخل على النفوس الوائناً من المتع البريئة والمسرات . وهو لا يكتفى بمحاكاة الاساتذة ، بل يجيد ايضاً محاكاة زملائه التلاميذ سواء كان ذلك نطقاً لبعض الكلمات الغريبة او «مرصعة» وعويلاً تحت نير السياط ، ولكنه بالطبع يتحرى غياب من يحاكيه منهم فلا يغامر فى مثل هذه الامور ابداً . اما فى داخل الفصل فان محموداً يصبح شخصاً آخر . فهو يصطنع الهدوء وترتسم على وجهه سكينه لا تشبه انطلاقاته العبيثية فى فناء المدرسة . ورغم ان الكبتل وهو الالفه الامر الناهى فى الفصل فى غياب الاساتذة لم يكن مولعاً بالناس «الحر» عموماً - على حد تعبيره - او «الحماريط» على حد تعبير محمد العوض الساخر ، الا انه وجد فى محمود ما اجتذبه وقربه اليه . ويقتنى ان ذلك راجع الى حصافة محمود ودهائه . فقد استطاع بافتعاله للهدوء واخفاء شيطنته عن عين الكبتل ان يكسب احترامه ووده وتعاطفه . ومن يدرى ، فلعله كان فى بعض احايينه يمكن الكبتل من الاستمتاع بالبساطة بعد الفطور ، او قبل الحصة الاخيرة عندما يكون نصف العيش المدور بقوله او طعميته قد ذهب ادارج الجهاز الهضمى مخلقاً وراءه معدة خاوية تنبئ بوادر تقلصاتهما عن مطالع سلطان الجوع . فمن الامور التى كانت تلفت النظر بعض الشئ

ان محموداً كان يتلقى معاملة شبه خاصة عند عم محمدين صاحب طبلية الفول والطعمية ، وهو خال الكبتل ، وان الكبتل ومحمود كانا فى بعض الاوقات يختفيان عن الانظار ، نلتمسهما امام طبلية عم محمدين فلا نقف لهما على أثر ، ونسائل عنهما التلاميذ فى صحن المدرسة فلا يسعفنا عن مكانهما خبر ، ولا نلقاهما الا بعد ان يقرع عم مبارك الجرس ايذاناً ببداية الحصة بعد فسحة الفطور . ولقد زعم الفاضل شريف اكثر من مرة انه رأى الكبتل بعينى رأسه يتناول الباسطة فى سعادة بادية وحبور موفور ، ومحمود يقف الى جانبه ، وذلك فى الناحية الشرقية من فناء المدرسة حيث تباع هذه الحلوى الجنانية ، بعيداً عن طبلية عم محمد بن التي كان موقعها قرب البوابة الغربية . وان شئت الدقة فى التحديد فهى فى الجانب الجنوبي الغربى من فناء المدرسة ، بينما عالم الباسطة الذى لم يكن يعج بالرواد كما هو الحال مع طبلية عم محمدين لاسباب لاتخفى ، انما يقع على وجه التحديد بالقرب من البوابة الشرقية لفناء المدرسة فى اتجاه الشمال الشرقى . ولكن الفاضل شريف مغرض وهو غير راضٍ عن محمود لانه اخطر منافس له فى صناعة الضحك والهزل ومحاكاة الاساتذة ، بل هو يتفوق عليه كثيراً بشهادة الاجماع الكلامى والسكوتى علي السواء . وماضر الفاضل فى هذا المضممار وقعد به عن اللحاق بمحمود ونيل اعجاب التلاميذ الا النكات البايخة التى كان يصير عليها ويغالى فى ترديدها مما زهد فيه الناس وصددهم عنه صدوداً . وعلى كل اذا صح زعم الفاضل او لم يصح فيما يتعلق بارتياك الكبتل لمعاقل الباسطة فى صحبة محمود فان الامر الذى لم يعد مكان شك هو ان الكبتل كان يحمل تقديراً خاصاً لمحمود . واية ذلك ان اسم محمود لم يكن يظهر بين قائمة « المهرجلين فى الفصل » رغم انه كان وراء كل هرجلة تحدث او شغب يعم ولكن عن طريق التحكم القصى ( Remote Control ) وربما كان الكبتل لايدرى ذلك ، ويقينى انه لو درى وعلم لما هان عليه ان يدرج اسم محمود بين ضحاياه . غير ان ما كان ينجو منه محمود هنا لهذا السبب ، كان يقع فيه هناك لاسباب أخرى . ومجمل القول هو انه كان



ينال نصيبه كاملاً غير منقوص من سوط عم مبارك في نهاية اليوم الدراسي ، بل إن يديه ورجليه قد صافحتا في مرات عديدة - ودون مقاومة تذكر - ايدي عم عبد العزيز وعم محمود وهما يبطحانه علي الهواء تلقاء سباط مختلف الاساتذة علي مرأى ومسمع من بقية اولاد الفصل . ولم يكن محمود عند ذلك باقوى شكيمة او اقل « جرسه » من عباس صالح وهاشم الاطرش ، وان كان اسرع منهما عوداً الي الضحك والفرشة ويتناسى ما حلَّ به من أذى ومكروه .

لقد التقيت محموداً بعد ذلك بسنوات في جامعة الخرطوم فتنامت وترسخت بيننا علائق الود القديم وتمتنت وتوثقت بيننا او اصر الصداقة التي نبتت في سنى الحداثة . وقد تبين لى ان مقدرات محمود علي التمثيل والمحاكاة قد تطورت تطوراً هائلاً ونضجت نضوجاً ظاهراً وتنوعت اساليب الاتيان بها والتعبير عنها عنده بشكل ملحوظ . وظل محمود الي ان تخرج في كلية العلوم في الجامعة طاقة هائلة من الضحك والدعابة والحيوية . وكان مبدع اعاجيب متعددة ومتجددة ومسلية في فنون محاكاة الاساتذة وفي طليعتهم بروفيسور «ماكلاى» وبروفيسور « استبورى » والاستاذ « سدراك » والاستاذ « القصاص » . ويقينى ان محمود احمد مهدي لا يزال كنزاً من المرح وذخراً للطرائف والملح لاتفيضه الايام ولا تنال من غزارة منابعه وصفاء مناهله عجاف السنين .

## عبد الرحيم والْبَخ . . وهى الدباغة ؛

كان عبد الرحيم سعيد من اصديقاء محمود احمد مهدي فهو يشبهه بعض الشيء وهو «احمرانى» مثله ، وهو ايضاً من تلك المناحى الامدرمانية التي تقارب موطن محمود . فعبد الرحيم من حى أبى روف ، او قل بتحديد ادق ، من حى الدباغة او حى الدباغين . ولقد اطلق عليه محمد العوض اسم «القط» ، ولست ادري لماذا . ولكن الذى اعرفه واستيقن منه هو ان محمد العوض كان ذا عبقرية خاصة في اطلاق الاسماء والالقباب والكنيات علي الناس . ولما تكاثرت عليه هذه المهام في خور طقت من بعد - كتكاثر الهموم واللؤام على ابى الطيب - لم يسعفه قاموسه الذى فنيته مفرداته وقد

انفخها علي زملائه القاباً وكنيات واسماء يمئة ويسرة، ونضب المعين ، فلم يبق له من بعد ذلك الا ان يفزع الى الارقام للتعبير عن المعنى الواحد بما يشبه المعنيين وهو في حقيقته جزء من كل او فرع من اصل ، فصار بعضهم عنده نمرة واحد وبعض ثانٍ نمرة اثنين وبعض آخر نمرة ثلاثة . . وهكذا الى نهاية يحددها - اولا يحددها - هو بنفسه دون سواه ، وان كان النوع الذي ميزه محمد العوض بالارقام - وعرف بذلك وسط دوائر واسعة - هو غير نوع عبد الرحيم سعيد ، بل هو نقيضه . فان لم تدرك ما أقول فدع الامر ولا تحفل به لانه بالنسبة الى محمد العوض كان اشبه بما يسمى « كلمة سر » ، والسر لا يجوز افشاؤه ، فانسه وتجاوزه الى ما ينفع . وان كنت تعلمه وتعلم ان محمد العوض كان يضع سره او كلمة السر في اكثر من صندوق واحد لان طبيعته تناقض الكتمان ، فاحرص على هذا السر الذي استودعك ولا تدع به ولا تطلقه من اسار جنبيك بين الناس ، وكن كضمير القائل :

ولها سرائر في الضمير طويتها . . نسي الضمير بانها في طيه

ولاتعاتب محمد العوض علي تعدد وتنوع صناديق سره ، ولا تتعز بقول القائل :

اذا المرء افشى سره بلسانه . . فصدر الذي يستودع السر اضيق

وذلك لان محمداً كان امة من البهجة والمسرات ، اوتى من حضور البديهة وشدة العارضة ماقل نظيره ونذر شبيهه . ذاك فتى كان كوناً جامعاً دنياواته كثر . ولكن : . فلنخرج من هذا الضيق الى رحاب السعة ، لنقول ان عبد الرحيم سعيد ربما كان يستحق هذا الاسم الذي اطلقه عليه محمد العوض وقد لا يكون فالله تعالى وحده عليم بذات الصدور . ولكن بالرغم من وداعته كانت له صولاته في عوالم الفوضى مثل كثير من زملائه ولذلك كان اسمه يظهر بين اسماء « المهرجلين » في الفصل كلما احتوت هذه القائمة اكثر من اربعة اسماء وقليلاً ما كانت دون هذا العدد . وذلك لان الكبتل لم يكن يجد في نفسه تعاطفاً خاصاً مع عبد الرحيم وان لم يكن يبغضه بحال من الأحوال . ولذلك يمكن القول بأن عبد الرحيم سعيد كان كثير الارتياح لكنبة عم مبارك وهو من أبرع من يحكمون اللبد حول أردافهم لاتقاء سياط ما بعد نهاية اليوم الدراسي . ولقد

كان عبد الرحيم تلميذاً نجيباً ولكنه لم يكن من الخطاطين ولا من الرسامين ، فاذا أخذت عليه ذلك سارع بترديد مقولة كانت سائدة فى تلك الأزمنة تزعم أن « كل خطاط ورسام جهول » ! وهى مقولة ليست من الحق فى شئ ، ولست ادرى السر فى شيوعها بين الناس وتداولهم لها وكأنها حكمة لا تحتاج لبرهان . ولو انى لم اسمعها من قبل لظننت ان عبد الرحيم قد ابتدعها ابتداءً واستجمع كلماتها من بنات خياله والى بينها لكثرة ما كان يرددها . ولكنى سمعتها من غيره قبل ان آلف كلفه بها ، وكأنها من الثوابت التى عليها اجماع الامة . ورغم ان عبد الرحيم كان يكثر من ترديد هذه المقولة التى لم نقف لها على أصل تتكىء عليه او اساس يشهد بصحتها الا ان الحقيقة هى أن قصور مقدراته عن اجادة الخط والرسم كانت من الامور التى تشقيه كثيراً وتجعله يتعزى بهذه الحكمة ويستعجبها بصورة دائمة . وهو يغبط محمد عبد الله الشيخ على تفوقه الواضح فى هذا المجال وموهبته التى لا تجارى فى الجمع بين اجادة الرسم والخط على السواء . ويشير بمكر وخبث الى الفارق بين حصيلة محمد فى هذا المضمار وحصيلته فى المجالات الأخرى ويوهم ان فى ذلك مصداقاً لنظريته . وقد فات على عبد الرحيم ان محمد عبد الله الشيخ فنان بطبعه موهوب ، وليس فى ذلك من عجب لان محمداً سليل حى من احياء امدرمان له ارث عريق مجيد فى الفنون جميعها ، الطارف منها والتليد . . رسماً وشعراً وغناءً . وهل اسرة البنا الا جامعة لهذه الامجاد طرا ؟ هل تحتاج لان اذكرك بشاعر السودان الخالد الاستاذ عبد الله عمر البنا ؟ ام باستاذ الفن المبدع المعروف الاستاذ ادريس البنا ؟ ام بغيرهما من ناظمى اجمل خرائد الشعر واحلى مواجيد الغناء من افراد هذه الاسرة الكريمة العريقة ؟ غير أنى - وربما لجهلى - لم اسمع بشاعر او فنان فى تلك الازمنة من الحى الذى ينحدر منه عبد الرحيم ، وذلك باستثناء واحد سأعرض له فيما بعد ان شاء الله . ولكن اذا كانت الوداعة هى التى حملت محمد العوض على تفصيل اسم معين لعبد الرحيم فان الكل كانوا يعلمون ان محمد عبد الله الشيخ كان اكثر وداعة من عبد الرحيم ومع ذلك لم يدر

بخلد محمد العوض ان يطلق عليه اسماً كهذا . فالأمر موضع شك . ومن الواضح ان عبد الرحيم لم يكن بهذه الدرجة العالية من الوداعة ليستحق ان يوصف بها دون غيره ويتفرد بها عن كل من عداه . لقد كان ميالاً الي الهدوء في حضرة الاساتذة تكاد اذا رايته في هذه الحالة وهو يطرق منصتاً تحسب انه لا يعرف الكلام ولا يحسن الحركة . ولكنه عندما يقرع الجرس يستحيل في فناء المدرسة الى شخص آخر غير الذي كان في الفصل ، ولكن دون ان يبلغ درجة الاشتطاط . فهو لم يكن يركض ركض الفاضل شريف وهاشم مصطفى ، ولم يكن يهدأ هدوء محجوب حسن سعيد واحمد الحبيب . وبين هذين البعدين بون شاسع وأفاق رحاب كان عبد الرحيم يظهر فيها مقدراته ببراعة فائقة ويقدر غير قليل من الاتزان والتوسط في الامور . وعبد الرحيم تلميذ ذكي في دروسه لبق في تصرفاته مع زملائه ، يتحدث بصوت منخفض لا يعصمه من الايغال في الثرثرة ولا يحرمه دعوى البراءة منها ، لا يوقعه في تهمة اكل لحوم الناس ، ولا يجنبه من شبهة الدخول فيما لا يعنيه ! وهو اذا تحدث اليك تتتابع كلماته في تؤدة لا تعرف العجلة ويجيئ صوته في نبرة هي اقرب للهمس منها للجهر ، ويتبأج وجهه بسرور جلي ولا يغادر الا وقد انفرجت شفتاه عن بسمة مفعمة بالمكر والدهاء . ينال ما يبتغى بالطرق السلمية ، لا يحبذ الشجار ولا يتعلق بأسبابه ، واذا اجبر عليه تحاماه وخالف قوانين الفعل ورد الفعل واصطنع لنفسه مخرجاً مريحاً من مضائق العنت . وانا لست ادري من هم أجداد عبد الرحيم بالدقة المطلوبة حتى اجزم بوراثته لهذه الخلائق الحكيمة كابرأ عن كابر . ولكني قرأت في بعض الكتب بأخره ان معاوية بن ابي سفيان سأل عمرو بن العاص : يا عمرو ما بلغ من عقلك ؟ فقال عمرو : ما دخلت في امر (يعنى شراً) قط الا وخرجت منه كما تخرج الشعرة من العجين . فقال معاوية : اما انا فما دخلت ابدأ في امر يراد الخروج منه ! وهذا هو الفرق بين ان تحوم حول الحمى توشك ان تقع فيه وبين ان تبقى بعيداً عنه لائذاً بمواطن العافية . ورغم ان عبد الرحيم لم يكن يسلم تماماً من الاولى الا انه كان اكثر ميالاً الى الثانية واشد تشبهاً بها . وذلك

انه يعلم فى قرارة نفسه انه لم يكن يحسن اتخاذ الحلفاء الدائمين ، فتلك مقدرة انفردت بها مجموعة الموردة الحمائية خاصة وتفوق عليهم فى فنونها الصقور . وأولاد حى الدباغين لم يكونوا بالكثرة التى تمكنهم من تشكيل قوة ضاربة . وهم اذا ركنوا الى لون جلدتهم واقاموا حلفاً على هذا الاساس ومن هذا القبيل فلربما ألب عليهم ذلك نقائضهم وهم كثر لا يحصيهم العد . ولذلك اختار عبد الرحيم تلك الوسطية التى تميز بها وتأرجح فى حدودها لا يتعدى دائرتها بحال . وهذا من شدة نكائه وبعد نظره وتقييمه للامور تقييماً واقعياً يأخذ فى الحساب حقائق موازين القوى بالدقة التى تملئها راحة العقل وتفرض تحريها الفطنة والزكائة وحسن الادراك لطبيعة الاشياء .

لقد انتفع عبد الرحيم بهذه الوسطية احسن انتفاع فانى قد رأيت بعضاً من اقرانه واولاد حلتة معفرين بالتراب مراراً ، ولكنى لم اره فى مثل هذا الموقف الا مرة واحدة وعلمت فيما بعد ان ما اصابه لم يكن لتخطيه حدود الوسطية التى طبعت سلوكه وميزت تصرفاته وإنما كان من باب «الحجاز ليه عكاز» وهذا باب يمكن ان يلج منه الغاشى والماشى الا ان يكون عديم المروءة خالى الوفاض من أوليات معانى النجدة . والذى يدخل من هذا الباب فى تلك الأزمنة لايسعه إلا أن يعلم أن الخروج بالسلامة أمر بعيد المثال . أما المرة الثانية التى رايت فيها عبد الرحيم فى حال يشبه هذا الموقف فقد كانت فى خور طقت ايام الاضراب الشهير ، وقد اشرت اليها فى «صدى السنين» .

وذاك موقف ما كان حذره فيه بمصرخه ولا منجيه .

يمكن القول بأن عبد الرحيم كان متزناً فى تصرفاته على وجه العمرم مما يوحى بأنه كان على قدر من النضوج وتمييز الامور غير قليل . وهو قد أسر إلى بأحاديث أيقنت معها انه كان يكبر كثيراً من اقرانه فى السن ، وذلك لانه كان صديقاً عزيزاً بالنسبة لى يستودعنى من اسراره ما لايستودع غيرى وهو يدرك انى بها على الآخرين ضنين . ولقد استمرت صداقتى بعبد عبد الرحيم حقباً طوالاً لم تكدر صفوها فرقة ولا قطيعة وليس فى ذلك من عجب لاننا ظللنا زملاء دراسة طوال ايام امدرمان الاميرية ثم

أيام خور طقت الثانوية ثم أيام الجامعة التي نقضت وكأنا كنا نقطعها وثباً . ورغم انى صرت بعد ذلك لا ألقاه الا لماماً لانه اصبح من صناع الغذاء واصبحت ممن يحاولون صناعة الشفاء الا انى أحمل له فى قلبى الود والاحترام واتطلع الى لقائه واجترار حديث الذكريات معه ان كان فى العمر بقية .

ولقد كان عبد الرحيم من المعجبين بأقاصيص التجانى الطاهر عن فريق حى العرب وله نخيرة طيبة من اقاصيص حى الدباغة ولكنه فى سردها لم يكن يرقى الى سحر روايات التجانى ، بل هى كانت فى نظر التلاميذ الذين يجتمعون للاستماع نقل أهمية حتى عما كنا نرويه نحن عن ابي الدفاع وعبد التام واولاد ود التويم وسلسيون وابو زعانف وشمشون وشياطين المسرح وسائر ما كنا نستمع اليه فى امسيات كبرى وِد نوباوى وننقل اليهم روائعه وغرائب الوانه . ولكن عبد الرحيم استطاع فى آخر الامر ان يعثر على ضالته التى كانت كفيلة بتمكينه من منافسة التجانى واستقطاب الاسماع والافئدة واشراع اجنحة الخيال : فكان يزعم ان اللبخ المشهور انما هو من حى الدباغين وانه شهد كثيراً من بطولاته التى اتى فيها بالمعجزات وخوارق العادات . وهكذا صار عبد الرحيم يطلع علينا كل يوم بجديد حتى اوشكنا ان نحسب بينه وبين اللبخ نسباً وصهراً وقربى وثيقة العرى . . وحتى كدنا ان نسلم له بالسبق والريادة . وحتى بدأنا نلمح علامات الضيق والبرم على وجه التجانى وفى بعض مقاطعاته التشكيكية لحديث عبد الرحيم . غير ان التجانى استجمع جميع قواه الجدالية واستنفر سائر مدخراته البيانية ، وتمكن من الالتفاف من حول عبد الرحيم بما استحدثه على اسماعنا من جولات «بلة الاحمرانى» ومجموعته فى سينما برمبل . وذلك ان الحصول على التذاكر من شباك تلك السينما لدخول فيلم من افلام احمد سالم او انور جدى أو يوسف وهبى كان يحتاج الى مقدرات خارقة . ونحن نعلم - من قصص عبد الرحيم - ان مسرح بطولات اللبخ لم يكن هو سينما قديس او السينما الوطنية بحال من الأحوال وانما كان فى مجالات أخر . ولما عجزنا نحن ايضاً عن الحاق أبطال كوبرى

ود نوبوى بحسن بلاء «بله الاحمرانى» وزمرته فى الحصول على تذاكر السينما عنوة واقتداراً ودون انفاق مليم واحدة فقد سلمنا للتجانى بالريادة فى هذا المجال من سحر الاقاصيص طائعين قانعين . ولم يسع عبد الرحيم فى نهاية الامر الا ان يسلم ايضاً . ولقد حاول عبد الرحيم ان يجعل من اللبخ اسطورة من اساطير تلك البقعة التى عرفت فيما بعد باسم « سوق الموية » الا انه لم يظفر من تلك المحاولة بطائل ، لان التلاميذ لم يقتنعوا بمزاعمه الجديدة حول اللبخ لعلمهم ان هذه « الساحة » لاتحتمل اكثر من فارس واحد وقد استقر فى وجدانهم انه «بله الاحمرانى» . ولذلك اجتمعت كلمتهم على عقد اللواء فى هذا المضمار القصصى للتجانى الطاهر دون غيره . والحق يقال ان التجانى كان بارعاً فى الرواية ودقيقاً فى رسم الفصول والمواقف المحيرة والمذهلة ، وموفقاً فى حمل كل من يستمع اليه على تصديقه فى كل ما يروى فى هذا الصدد . وقد ساعدته على ذلك جرأة راکزة ومقدرة فائقة على ربط الاحداث وتحريك الشخوص فى خضمها تحريكاً متناسقاً يرضاه العقل وتقبله النفس ويستسيغه الذوق ولا تنفر عنه الاحاسيس التى كانت معدة للقبول . ولعل طبيعة التجانى الجريئة المتمرسه على السخرية العلمية بفنون الاثارة هى التى مكنته من ذلك ، بينما قعدت بعبد الرحيم عن التحليق فى رحاب تلك الاجواء البعيدة ويلوغ هاتيك الذرى الشاهقة فطرته المائلة الي الهدوء وطبيعته الوسطية الجانحة الي التحدث بنبرة خافتة وصوت لا يعلو على اصوات الاخرين . ومهما يكن من أمر فقد تحققنا من ان بعض اقاصيص اللبخ التى كان يرويها علي مسامعنا عبد الرحيم سعيد هى حقائق لا سبيل الي دحضها او تكذيبها ، غير ان بعض رواياته - وخاصة عندما تضيق الشقة بينه وبين التجانى فى التنافس وكانهما فرسا رهان - لم تكن الا وليدة خياله المحض ، او قل وليدة رغبته الجامحة فى الاشتتثار دون منافسه بأسماع التلاميذ . ولقد كان عبد الرحيم يكسب مثل هذه الجولات عندما يكون التجانى غائباً عن الرهان لان صوت عبد الرحيم الهادئ له قدرة على استقطاب ثقة مستمعيه ممن هم دون التجانى باعاً فى مثل هذه المعارج ولان عبد

الرحيم حينما يقول لك « يمين بالله » فان تعابير وجهه تدعوك لتصديقه . ولكن وجود التجانى يزعزع سكينته التى يعتمد عليها في احداث السحر المطلوب لان التجانى لاتقوت عليه دقائق الامور كما تقوت على غيره وله موهبة فى تسفيه الرأى الذى لا يرضيه او الدعوى التى تتهدد سبقه المشهود له به في هذا المضمار ، فهو عند اولئك الرهط الاحداث المبهورين كالماء وغيره كالصعيد الطاهر ، فاذا حضر الماء بطل التيمم .

### **ابراهيم السيد ابوسمرة . . والشيخ الضعيف :**

كان ابراهيم السيد ابوسمرة من فصيلة عبد الرحيم سعيد ولكنه يختلف عنه كثيراً . فابراهيم هادئ بطبعه وفطرته داخل الفصل وخارجه . انه لايتصنع الهدوء خشية الأذى من الأستاذة ولا اتقاءً لسخطهم ، ولا يتكلفه امام أقرانه لينجو من التورط فى مثل أفاعليهم ، وانما هى سجيته التى جبل عليها . انه لايتعدى على أحد ، ولا يهرجل فى الفصل حباً فى الهرجلة وانسياقاً وراء موجات الفوضى التى يحدثها عفاريت كأنهم من فرط عفرتتهم مقرنين فى الأصفاذ ، ولكنه يفعل ذلك احياناً اذا تعرض لمناوشة او مناكفة من بعض زملائه ، فاذا ظن انه قد ثأر لنفسه بمافيه الكفاية اورد الصاع صاعين فى غير ما تجاوز للحدود عاد الى هدوئه المعهود واشرق وجهه بابتسامة ملؤها الرضا والثقة بالنفس . وهو تلميذ نظامى منضبط يحسن الاستماع الى ما يلقيه الاستاذ علي مسامع التلاميذ طوال الحصّة دون ان تظهر على وجهه علامات الملل او الضجر او الضيق . ولايود ان يعترض سيل افكاره وعمق تتبعه للاستاذ وتفهمه لما يقول معترض . ولقد ندر ظهور اسمه فى قائمة المهرجلين فى الفصل ، وكان الكبتل يحترمه كثيراً ، الا انه فى بعض الاحيان يضطر لتسجيل اسمه ضمن قائمة المهرجلين وذلك حينما يكون هنالك هياج عام يوقن الكبتل انه تابع من المنطقة التى يجلس فيها ابراهيم فى الفصل . فاذا حدث مثل هذا الهياج فان ابراهيم لاينجو من مغبته ولذلك يدرج الكبتل اسمه ضمن المهرجلين وهو مكره ليس له من سبيل . وذلك لان الكبتل كان يعلم مثل غيره ان ابراهيم السيد يمتاز بالمحافظة علي اطيب العلاقات مع جميع زملائه



وصون ورعاية هذه العلائق من ان يشوبها ما يكدر صفاءها او يقدح فى متانتها ورسوخها ، فكان ابراهيم يتمتع باحترام الصقور لانهم يعتقدون انه على هيئة الصقور وان كان مسلكه عموماً مسلك الحمام ، وهم يأخذون عليه احياناً مبالغته فى الجنوح الى الهدوء وعدم الميل الى مشاركتهم فى الفوضى التى درجوا على احدثائها فى الفصل تحت قيادة عبد الكريم . ومن عجب ان ابراهيم كان يتمتع ايضاً - وبصورة ملحوظة - باحترام مجموعة الموردة بشقيها من الصقور والحمام رغم علمهم انه لم يكن مورداً فى العقيدة الكروية ، ورغم انه « احمرانى » فاتح لون البشرة . ولعل السر وراء ذلك يكمن فى طبيعة ابراهيم المتزنة وفى معاملته لكافة زملائه معاملة رقيقة خلت من أى ميل الى الاستخفاف بهم او السخرية منهم . وساعده على تبوء هذه المكانة من نفوسهم انه يحب كرة القدم ويحب لعبها . ورغم انه يحب فريق الهلال ويتشيع له ويسعد بانتصاراته الا انه لا يغالى فى ذلك مغالاة الآخرين . . . لا يطير فرحاً اذا انتصر فريق الهلال ولا تذهب نفسه حسرات عليهم ان منوا بالهزيمة . . يقابل كلا الامرين باعتدال ووقار . يبتسم فى جميع احواله ، لا يبالغ فى الاحتفال بك ان اقبلت عليه مهنئاً ، ولا يصدك او يغلظ عليك ان اتيتته شامتاً ، بل يلقاك فى الحالين بوجه متهلل ومزاج سليم معافى ينم عن الترحاب . وقد بلغ من رجاحة عقله انه لم يكن يتحزب او ينحاز الى اولاد حيه الا بالمقدار الذى يمليه العرف العام ومراعاة صلات الجوار ، والا بالقدر المناسب الذى لا يزوج به فى مواقف الصرج ولا يدفع به الى حافة المواجهة والمناطحة . بل هو لم يكن على استعداد للانتصار للتلقائى لاولاد ابي سمرة عموماً فى المدرسة ، وهم رهطه الاقربون . وقد كان منهم فى المدرسة بضعة افراد مفرقين بين الفصول يمتئون اليه بصلة القربى ، ووشائج الرحم . وذلك لان شعاره الذى ارتضاه لنفسه وعمل بمقتضاه هو : « كل شاة معلقة بعصبتها » تمثلاً بأصدق الكلام : (ولاتزر وازرة وزر اخرى) . والعصبة المرادة هنا هى العصبة الخاصة بالشاة ، او ما يسمونه بكعب أخيل وليست لها دلالات على العصبية او القبلية او أى شئ من هذه المعانى .

وهذا من تمام عقل ابراهيم . فلو انه حاول الانتصار لهم فى كل شأنهم لجنى من ذلك متاعب جمّة لان بعضهم كان جنأ احمر لا يكاد يرى الا وهو متمرغ فى التراب معفر جسمه وهندامه بأديمه وحصبائه ، نتاجاً لما تعودوا على الدخول فيه من نزاعات وشجارات كان ابراهيم يرى ان جلها يفتقر الى ادنى مبرر معقول . ولذلك عصم نفسه عن الدخول فى نزاعاتهم التي يستحدثونها وينوقون وبال امرهم فيها ، وابتعد عما يكدر صفاءه وينال من هدوئه ، الا ان تجبره الضرورات القصوى وهن نادرates الحدوث . ولكن رغم تمتع ابراهيم بقدر مناسب من المعرفة بالدين والحقوق والواجبات والالتزامات والضرورات الا انه لم يكن بدعاً من تلاميذ الشيخ ابى بكر ولم يكن الشيخ ليكبر فيه سجاياه الطيبة اكباراً يغفر له معه المم ناهيك عما كان يعتبر فى نظر الشيخ من امهات الكبائر . فقد وقع ابراهيم فى قبضة الشيخ مراراً ، ولم ينفعه فى مرة واحدة منها اتزانه ولاكرم خلقه . فالشيخ كما علمت شديد الريية ، وانى لأظن ان رييته كانت تزداد وينمو معها سخطه ويرمه كلما ازداد لون بشرة التلميذ بياضاً أو سواداً ... ولعله كان يمقت تطرف السحنات ، فهو لا يطيق سواداً داكناً ولابياضاً ناصعاً ، يثيره كلا الطرفين ويحفظه كلا النقيضين . فاذا كنت من هؤلاء فأنت «حمريطى» فاسق ، وان كنت من اولئك فأنت عبد سوء أبق ! أما تعامل الشيخ مع عبد الكريم فلم يكن يخضع لمقاييس الالوان وانما ابتدع له الشيخ مقاييس أخر وبناه على أسس مختلفة . على ان ابراهيم السيد قد تحمل صولات الشيخ ولعناته بشئ غير قليل من الصبر على المكروه ورباطة الجأش فى مواطن الابتلاء وأبان بذلك عن ادراك سليم للامور . فما الذى ينفع مع الشيخ سوى الصبر على لأوائه وشدة نكيره؟! وفى ذات مرة كان الشيخ يدرسنا الدين وأتى بحديث شريف فقال له ابراهيم : « يافندى ماقلت لينا مايستنبط من الحديث » . وكلمة يستنبط هذه كانت غريبة بعض الشئ يضحك لها بعض التلاميذ رغم انها عربية فصيحة ومثبتة امام أنظارهم فى كتاب الدين تتكرر بعد نص كل حديث شريف . . فضحك بعض الخبثاء لسؤال ابراهيم ، وأغضب ذلك الشيخ

أبأبكر ولكنه لم يقف على مصدر الضحك الذى ماكنت ارتاب أنه محمد العوض دون غيره . ولما لم يجد الشيخ من يفرغ عليه جام غضبه ، ولما كان ما قاله ابراهيم لا يستحق عليه عقوبة فان الشيخ اكتفى بالرد عليه قائلاً : « يستنبط ابوك يا ابن الكلب » ! وبلعها ابراهيم في لحظتها دون ان ينبس بكلمة ، وهو لا يكاد يصدق انه نجا بالفعل مما كان يمكن ان يكون امر وادهى . فلا احد يرجى له ان يأمن فكراً الشيخ ، ولا احد يستطيع ان يتنبأ بما يمكن ان يصدر من الشيخ . فهو قد أذهل الجميع باسقاط الحبيب ومن قبله عكود والدرديرى من حساباته وأهوى بهم جميعاً فى مكان سحيق . فمئذ الذى يطمع في ان يجد مكانة عند الشيخ بعد ذلك ؟ لقد كان ابراهيم السيد من اوائل الذين ادركوا هذه الحقيقة لانه تلميذ فطن مرتب الذهن يعد العدة لكل الاحتمالات ويتحكم فى عواطفه تحكماً الخبير بالعواقب فلا يغضب ويكشر ويصر وجهه كما يفعل البعض ، ولا يخرج السرور عن اطواره فيمرح ويفرح (ان الله لا يحب الفرحين) . ولكن ترتسم على وجهه ابتسامة مميزة مقتصدة تباعد بينه وبين الإنقباض وتقارب بينه وبين الضحك الصراح ، غير انه تعود ان يبقيها في تلك الحدود لاتتعداها ، سواء عنده السراء والضراء . ولذلك فقد كان ابراهيم هو التلميذ الوحيد الذى يتلقى هياج الشيخ وصفعاته ووعيده بوجه طلق لاتعلوه كآبة ولاتكدر صفوه ظلال من ألم او أسى .

وأعجب ما فى الامر ان الشيخ ابأبكر لم يكن يلقى بالأل للكيفية التى يستقبل بها التلاميذ عقابه وتجاوزاته . ورغم انه كان مدرساً للغة العربية فى الفصول المتقدمة الا انه ظل بالنسبة لنا استاذ الدين ، وحتى فى هذا الشأن فهو استاذ القرآن لان الدين - من فقه وسنة وحديث - كان له استاذ آخر هو الذى اطلق عليه محمد العوض اسم « الشيخ الضعيف » وهو الشيخ محمد الطيب ولم يكن ذلك بقصد الاساءة اليه او التندر عليه وانما كان تمييزاً له عن الشيخ ابى بكر والشيخ يوسف . ولقد كان الشيخ الضعيف على النقيض من الشيخ ابى بكر وهو استاذ فاضل كل الفضل محبوب بين

التلاميذ . وربما كان هذا الشيخ مدركاً لما صار اليه حالنا مع الشيخ ابي بكر لان أغلبنا كان ينال عنده النمرة الكاملة في الدين وهي « اطناشر من اطناشر » . فاذا كان نصيبك عند الشيخ ابي بكر صفراً كما هي العادة ، وصار نصيبك عند الشيخ الضعيف اطناشر فأنت ناجح في علم الدين (الذي يشتمل على القرآن) ولكن « على الحركك » لان نسبته تكون « اطناشر من اربعة وعشرين » . نعم كنا في اول امرنا نحصل علي الدرجة القصوى وهي اربعة وعشرون من اربعة وعشرين ، ولكن بعد سلسلة النكبات التي حلت بنا على يد الشيخ ابي بكر وتخطفتنا تخطف الطير تباعاً الواحد منا في أثر الاخر صرنا نسعد بالحصول علي نصف الدرجة القصوى ونحن نحمد للشيخ الضعيف كرمه واريحيته ونعترف له بفضلته الذي طوق به الاعناق ، لان من وجد الاحسان قيداً « تقيداً » على حد قول ابي الطيب يرحمه الله . ولكن ابراهيم السيد كان قد ادار ظهره لهذه المادة بعد ان استيأس من كل خير يأتيه من قبالة الشيخ ابي بكر ، وركز جهوده علي المواد الاخرى . بل هو ظل ينصحنا بأن نحذو حذوه ونسترشد بقناعاته وننتهج سبيله رغم اننا لم نكن نرى ما يرى ولم نكن ندين بما يدين . وربما كانت هذه النظرة الخاطئة من ابراهيم السيد هي من قبيل المرات القليلة التي يتكذب فيها الطريق ويجانب معها الصواب . ولطالما نصحه الكبار الذين جربوا الامور وخبروها فبينوا له ان مادة الدين - مهما كان حنق الشيخ ابي بكر واشتطاطه - هي في الواقع مادة سهلة غير مستعصية على الافهام ، ومما يشجع علي التعامل معها بجدية ان الشيخ الضعيف رجل طيب القلب سهل الطباع لين العريكة يمكنك ان تبلغ عنده مرتبة الدرجة القصوى في مادة الدين بلا عنت ولا رفق وفي يسر وسلامة . ولكنك اذا اعتمدت على الحساب مثلاً فانك تراهن على فرس لاتضمن ان يبلغ بك نهاية الشوط سليماً وان طار في الجو وسيح في الهواء ونقر بحوافره اديم الفضاء ؛ انك تراهن على مجهول هو كحال الدنيا تماماً ، لا تستطيع ان تطمئن له ابداً ، وخاصة مع الاستاذ غزالي السراج ، وبخصوص اشد مع الاستاذ محمود الضيرير . فان كان الاول

يقطع عليك طريق الطمع في تحصيل الدرجات العلى لقناعته الراكزة بأنك مثلاً لاتصلح اصلاً لتلقى حساب المثلثات (التريقو) فان الثاني يعدك ويُمنِّيك بحديثه الهادئ وسكينته الموفورة ، ولكنك تتلقى منه ورقة اجابتك في الامتحان في اليوم التالى وكأنما ذبح عليها ديك فسال دمه في كل ارجائها . فاذا خرجت من هذا الدم المسفوح بعشرين من اربعين فاحمد السرى واسجد لربك شاكرًا لانعمه لعله يجتبيك . واما في الجغرافيا فان الاستاذ الحاج هاشم قد آلى على نفسه - لامر يستبطنه في نفسه فلا يعلمه الا الله - الا يحصل اغلب التلاميذ على اكثر من خمسة وثلاثين من سبعين في هذه المادة . وهو امر عجب لم اجد شيئاً يماثله او يقاربه الا في جامعة الخرطوم حينما كان استاذ البوتنى (Botany) أو علم النبات الاستاذ « ما كلاى » يقول لنا : اذا كانت درجة النجاح (المرور) هي خمس وثلاثون من مائة - وقد كانت عنده كذلك ! - فلماذا تجهد نفسك لتحصل على ست وثلاثين ؟ ان ذلك يعنى انك تنفق وقتك في استنكار ما لاينفع ولايجدى . والمدهش ان الاستاذ « ما كلاى » يشبه الاستاذ الحاج هاشم في كثير من الوجوه - في ضخامة الجسم ، وفي لون البشرة (بالتقريب) وكذلك في صرامته وكلفه بالاستهانة بالتلاميذ والتلويح لهم بأنه يمكن ان يقبض ارواحهم فى لحظة ان اراد ، ثم في اقناعهم بعد التأكيد لهم بكل الوسائل بأنهم أجهل من يمشی على الارض ! وفوق ذلك فقد كان الاستاذ الحاج هاشم - كحكم فى ميادين كرة القدم - يرتدى الشورط والجوارب الطويلة ويفرس بينها وبين لحم ساقيه مجموعة من الاقلام الرصاص ، تماماً كما كان يفعل الاستاذ « ما كلاى » في جامعة الخرطوم . ولقد كاد « ما كلاى » ان يضع بين شفيته صفارة الحكم لتكتمل اوجه الشبه بينهما اكتمالاً ، ولو انه عثر عليها لاستخدمها كوسيلة فعالة من وسائل الانذار المبكر او الوعيد او الامر الحاسم للتلاميذ بالكف عن الهرجلة والضجيج . الفرق الوحيد بينهما هو ان « ما كلاى » كان يخلق بنا بين ازاهير النبات وسوقه واوراقه ، فاذا اكملنا هذه السياحة وظننا اننا قد صرنا نعرف طوب الارض واسرار الخليفة في هذا المضمار طلع علينا

في الامتحان بزهره لم نسمع بها من قبل ولعله هو نفسه لم يرها ولم يعرفها في سابق عهده - اسألوا محمود احمد مهدي ان كنتم لاتصدقون حديثي هذا تجدوا عنده النبأ اليقين ! - وان الحاج هاشم كان يطوف بنا ارجاء الارض ولجج البحار ، فاذا فرغنا من ذلك التجوال الدؤوب وحسبنا اننا اطلعنا على فجاج الارض ومستودعات مياهها . . فاجأنا بالسؤال عن بحر لا ساحل له ولاشيطان واستتبأنا عن ارض لم تطأ ثراها قدم مخلوق !

وقد بلغ من انضباط ابراهيم السيد انه كان لايعرف الزوجان من الحصص ، ولايصنع المرض والاعياء كما كان يفعل بعض التلاميذ حين يصدق عزمهم على تغييب انفسهم عن حصه من حصص الاساتذة الذين يخشون بأسهم . فمنهم من يزوغ عياناً بياناً ثم ياتي ولى امره يصطنع له المعاذير . ومنهم من يمرض او يتعرض لحرارة الشمس الضاحية حتى اذا أحس دفناً في جسمه عمد الى دفتر المستشفى يلوذ به أملاً ان يحظى براحة تجنبه ما يخاف ويخشى حتى وان كان ثمن هذه الراحة حقن الملاريا التي تقدح الاصلاب قدحاً او محلولها ذا المذاق المر الذي يسليخ اللسان والقم والحلقوم . اما ابراهيم السيد فان الامانة كانت بعض خلائقه . ورغم انه كان يعاني من التهاب الجيوب الانفية المزمن - فانه لم يحاول ابدأ استغلال هذه العلة للتغيب عن الحصص ، ولو شاء لفعل ، ولو فعل لما عنف او حوسب علي ذلك ، فالعلة ظاهرة وعلاماتها بيئة ولن يبخل عليه الطبيب الذي يفحصه بالراحة ليوم او يومين كلما المت به نوبة حادة من الحساسية او الالتهاب . ولكن ابراهيم كان تلميذاً نموذجياً فيما يتعلق بالدوام . ولذلك اكتسب احترام زملائه وتقديرهم . ولذلك كثرت نصائحهم له لانهم احبوه . ولو انه استمع لها وركز على ارضاء الشيخ الضعيف وهو الشيخ محمد الطيب لنجا من الدائرة الحمراء في علوم الدين . ومن الناس من تعطبه امانته ويهلكه اخلاصه .الم تسمع الى قول ابي الطيب .

لولا المشقة ساد الناس كلهم . ، الجود يفتقر والاقدام قتال ؟

مهما يكن من أمر فان ابراهيم السيد لم يحسن الاستماع الى نصائح الخبراء من رجالات الربيع الخراب ، ولم يحفل أو يسترشد بتجاربيهم الثرة النافعة ، فكان من أمره ما كان . ولو أنه أصاح لنصحهم واعتبر بما اعتبروا لصار من اولى الابصار . ولكن ابراهيم امتاز بفضيلتى الصبر والهدوء فأفاد من ذلك كثيراً وجنى منه تقديراً عند الاساتذة رفع من شأنه فى نظره وحماه . ونفعه اداؤه الرائع فى ميادين كرة القدم حتى عدُّ عند الناس قريباً من مراقى مرزوق وشبيلية وخليلى ابى زيد ، واعتبره الاساتذة خليفة مؤهلاً لهذا الرعيل السابق فرفع ذلك ايضاً من مكانته وارضاهم عنه وارضاه . ولم التق بابراهيم بعد ذلك الا لماماً فكان يوماً على وفائه القديم وابتسامته الهادئة ووداده الاصيل ورزاقته المعهودة .





# الباب الثاني

## عبد الرحيم قلى ... ما بتقدر تخلى :

ما أصدق المثل السودانى الذى يقول « المكتولة ما بتسمع الصايحة » « والصايحة » فى فصلنا لم تكن غير عبد الرحيم قلى. و قلى هذه تنطق بكسر القاف الدارجة السودانية وتشديد اللام المكسورة مع التركيز عليها فى النطق لدرجة تجعل الياء التى تأتى بعدها مقتضبة أشد الإقتضاب . ولست أدرى أصل هذا الاسم إلا أن يكون من ابتداعات محمد العوض مصطفى التى كنا نجهل السر وراء بعضها جهلاً لا يميطة عنا إلا محمد نفسه إن أراد . فعبد الرحيم كان من عصابة المورداى رغم لون بشرته « القمحي » كما يقول أهل السودان . ورغم أنه كان مورداى العقيدة الكروية ومورداى السكن والمزاج إلا أن طبيعته برئت من أى أثر من آثار الشراسة والتشدد ، فهو تلميذ متسامح وسهل الطباع ، وهو مقتدر فى ذات الوقت . ولقد كان عبد الرحيم محدودب الظهر مما جعل البعض يضعه فى مصاف يوسف خضر وأمثاله سناً وتجربة . والحق أنه لم يكن كذلك ، بل كانت ملامحه توحى بأنه ربما كان يصغىر « الصبى » قليلاً ، وهو قطعاً يصغىر العتاة بوضوح . ولقد أوتى عبد الرحيم قلى - على قلة تجاربه - شيئاً من الحكمة لا يستهان به ، وقدرأً من ملكة الرؤيَّة والتدبر ليس بالقليل . كان مغرمأً بتصيد الأنباء والتقاطها وبث المثير منها بين التلاميذ بطريقة مسرحية أخاذة وهو عادة يختم ما يفشى من الأسرار ببعض النصائح . وأحياناً تصدق نبوءاته بصورة مذهلة . وله اسلوب خاص فى اشاعة الخبر بين الناس يستخدم فيه نبرته الخافتة الهادئة أبرع استخدام ، ويستعين بسائر أعضاء جسمه المرئية على تهويل الخبر وشحنه بالاثارة ومعانى التشويق ، فيأتى بحركات يقوس على أثرها ظهره ويقلب خلالها أصابع يديه ويباعد ويقارب بين رجليه يتقاصر عليهما ويتطاول كأنه « زمبلك » ، ويكثر من التلفت يمنة ويسرة ، و يبدو أمامك وكأنه يتكور على نفسه «ويتشترنق » وقد غابت رقبته وغطس رأسه - أوكاد - بين كتفيه ، وأومض وجهه بابتسامة ساخرة شحيحة العطاء قل أن تكتمل معالمها وتستبين . فاذا بلغ بك نهاية

النبأ الذي يكاد يسر به إسراراً أنهى تلك الابتسامة الشاحبة الكليّة المبهمة المعالم بضحكتين مقتضبتيّن أو ثلاث ، ثم يكتسى وجهه بصورة تخلو تماماً عن أى تعبير من التعابير أو معنى من المعانى . ولعلّ السرّ فى تقوس ظهره الذى صار ملازماً له هو هذه الحركات التى يأتى بها تبعاً عندما يشرع فى نقل الاخبار وافشائها بين الناس ، وما اكثر ما كان يفعل ذلك . ففى ذلك اليوم المشئوم الذى انتقشت فيه على جدران المدرسة خطوط الفحم الاسود وهى تنهش لحم الناظر محمود بلال رزق نهشاً وتمزق أوصاله تمزيقاً كان عبد الرحيم قلى أول من أبلغنا النبأ . بل كان هو الذى أشار إلى هاشم مصطفى - مستخدماً فى ذلك رادار حاسته السادسة ومهتدياً بضياته - أن يأخذ حذره فى ذلك اليوم ، وأبان له أن الخير كله - بالنسبة له - فى أن يغيب وجهه عن أعين الناس ان استطاع إلى ذلك سبيلاً . ولست ادري لذلك سبباً إلا أن يكون قد وقف على شئٍ وخشى أن يغمس لسانه فيه . وذلك لأنه - فى نفس الوقت - حذرنا من «عموش» أئتمد التحزير وأبلغه ، واعتبره طابوراً خامساً وقال إن هذا « المعمش » يرى ما لاترون ويسمع ما لا تسمعون وسيكون له فى هذا اليوم شان لا ينسى ودور يفصح بالعجب العجاب . قال لنا عبد الرحيم قلى كل هذا قبل طابور الصباح وهو يأتى بحركاته تلك التى عهدناها فيه عندما يحمل بين جوانحه أغرب الأنباء ، ويبرز من تحت رأسه المدفون بين كتفيه إلا قليلاً « سردياً » لا تخطئه عين ، وتبرق فى وجهه نصف ابتسامة سرعان ما تعقبها وتمحوها تماماً قهقهات قصار أشبه ما تكون بملقطة أصابع اليد . وهو عادة لا يفصح عن مصادره ولا يبخل بالتاكيد على حقيقتها وخلوها من أى شك يقدر فى مصداقيتها ، وانما يتصرف كساحر يدعى معرفة احرف الاحداث بظهر الغيب ويجزم بذلك . وحتى لا نرهق أنفسنا بمحاولة ابتداء التفسيرات المعقدة لهذه الظاهرة التى تميز بها عبد الرحيم قلى بيننا تمييزاً جلياً لا ينافسه فيه أحد ولا يدانيه فقد اعتمدنا صحة رواياته ووثقنا بصدق نبوءاته بعد أن جربنا ذلك مراراً وابقنا بمطابقتها لما تنكشف عنه الأيام من أحداث مطابقة حقيقية . ولو أن هاشم

مصطفى أحسن الاصغاء إلى نصائحه فى ذلك الصباح وعمل بمقتضاها فلربما طاشت سهام «عموش» ونجا هاشم من هول ذلك اليوم العصيب . ولكن « المكتولة ما بتسمع الصايحة » كما يقول اهلنا الطيبون فبدل أن يعتبر هاشم بتواتر الصدق فى نبوءات عبد الرحيم أثر أن يركب رأسه وأن يبقى كما بقى غيره ، معتمداً فى ذلك على براعته من أي ذنب يذكر ، ومعتبراً مقولات عبد الرحيم قلى هرطقة لا تستحق أن يحفل بها من كان له فضل من عقل وبصيرة . ولعل هاشماً كان يعتبر عبد الرحيم قلى من أولاد الموردة المتراخين عن رباط العصبية السكنية والعقيدة الكروية ، الجانحين إلى موالة الخصوم الكرويين ومواددتهم خدمة لا غراضهم الخاصة وطموحاتهم الذاتية . ولذلك فهو لم يلق بالاً لنصائحه ولم يبد اهتماماً لتحذيراته . ولكن هذا الظن الذى كان يظنه هاشم هو ظن فاسد ، لأن عبد الرحيم قلى كان فى حقيقة أمره وفيماً لعصبية اولاد الموردة ولكنه كان بطبيعته يبغض التقوقع والركون إلى الضيق ، يحب السعة ويميل إلى اجتلاء الأفاق وارتياها ، بغية التعرف على الجديد واستصحابه ان رآه ملائماً وظن فيه خيراً ، ورغبة فى الانعتاق من القديم والزهد فيه والانفكاك من ربقتة وإساره أن أصبح فى نظره راكداً وأسناً لا إثارة فيه ولا غناء . فقد كان عبد الرحيم يحب الحياة ويحب الاضطراب فى جنباتها ، ولكن بحذر بالغ وتحسس نكى لمواقع القدمين فهو لم يكن متهوراً ولا مندفعاً ولا تواقاً إلى ركوب صهوات المجهول أو خوض معمعة المغامرات ، انما يقف ويتدبر ويطيل الوقوف والتدبر ، لا يكتفى بما يظهر له من معانى الحدث وانما يجتلى الاسرار والخفايا ويحسن قراءة النتائج التى يمكن أن تترتب على التداعيات وتتمخض عن نسيج الخيوط . ولقد اسعفته هذه المقدرات فى كثير من أحواله ، فكانت له صلوات طيبة بجميع تلاميذ المدرسة الذين عرفهم ، وتمكن من اقامة أمتن العلائق مع صقور الفصل وحمائمه على السواء . ومما ساعده على ذلك وزكاه فى نظر الناس تلك الرنة الحنونة التى كانت تنغم نبرات صوته وتميزه وتهين له القبول ، وتلك البسمة التى لا تمكك إبدأ من حملها على المكر أو البراءة لأنه يباغتك بها فى

سرعة خاطفة ثم تجلوها عن وجهه ضحكاته القصار الفرقيعات ليعقبها على قسمات وجهه ذلك التعبير الغامض القصي الذي لا ينقش في ذهنك اى صورة من الصور تعرفها وتركن اليها ولا ينقل إلى خواطرك اى معنى من المعانى تتلمسه أو تستجليه وترضى به !

وأنا لست أزعم أن عبد الرحيم قلى قد سلم تماماً من نكير الشيخ أبى بكر ، فهو - على الرغم من فطنته وحذره وسائر مواهبه - قد عانى بعض ما عانينا من الشيخ ، ونال أيضاً ما قسمه الله له على أيدي الاساتذة الحاج هاشم وفرح والسبكي ، ولم يفلت من سوط عم مبارك ، وأصاب شيئاً غير قليل من لسعات الاستاذ محمود الضرير الساخرة . ولكنه خرج من كل ذلك وهو أقربنا للعافية والمعافة ، لأنه قد امتاز بسعة صدر هونت عليه الصعاب ومكنته من اجتياز جميع المضائق بسلامة موفورة ، بما فى ذلك بعض المعارك التى كانت تنشب بين عصابة وعصابة أوبين أحاد من التلاميذ فتعم الآخرين . لقد خرج عبد الرحيم قلى من كل هذه « الورطات » كما تخرج الابرة من المخيط تثقبه ثقباً فلا يعلق بها شئ من لحمه أو سده . وقد لازمته هذه الملكات الوهية فى مدرسة خور طقت الثانوية من بعد ، ولفتت إليه الأنظار وجذبت اليه اهتمام الناس ولكن عبد الرحيم قلى لم يكن ليفتّر بشئ من ذلك ، فلم يكن حذره ليفارقه . وعندما ثارت « الشكلة » الشهيرة فى منزل العمدة عبدالله عمدة حلة الدونكى كان عبدالرحيم قلى هو الناجى الوحيد من تلك اللكلمات التى اعقبت على الوجوه أوراماً وكدمات ، وكان هو الذى تبنى تبنياً فعلياً وفعالاً ذلك الاقتراح الصائب الذى انتهى بحمل عنقريب من الداخلية المدرسية المقفولة إلى منزل العمدة عبدالله تعويضاً مجزياً له عن عنقريبه الهباب الذى انكسر مرقه إبان الصخب والشجار . وكان ذلك ثمناً غالياً لصمت العمدة عبدالله الذى حلف بأغلط الأيمان ليلبغن ناظر العمارة بكل شئ إذا لم يعوض على تلف عنقريبه الذى كان يحبه من « آخر قلبه » على حد تعبيره . ولقد تفتقت عبقرية عبد الرحيم عن تفهم ذكى لطبيعة الموقف فهدى إلى تطوير الاقتراح الذى جادت به قريحة

سمير دون ان تحدد معالمه بصورة واضحة ، فنقحه عبد الرحيم قلى وأبان طرائق تنفيذه بالسلامة المرتجاة والسرية المطلوبة . وتم الاخراج حسب الخطة التى رسمها ، واسدل ستار الصمت الأبدى على تلك التجاوزات الطلابية التى قادها الكبتل بنفسه وكان بطل النصف الأول منها دون منازع . ولولا نكاه سميير وفطنة عبدالرحيم قلى وسرعة استيعابه للفكرة الداعية إلى نقل عنقريب الفداء فى ما يشبه السرية التامة لآل أمر تلك الفئة من التلاميذ إلى هلاك محقق . ولقد كاد عبدالرحيم قلى بعد تلك الواقعة أن يصبح « معبود الجماهير » على إحدى الروايات التى نسبت إلى الكبتل فيما بعد .

وإذا كانت البصيرة ام حمد - على ذبوع صيتها وتماام شهرتها - قد تسببت فى كسر البرمة وقطع رأس الثور فقد كان لعبد الرحيم قلى من نور البصيرة ما جعله يحول دون ادخال الثور لرأسه فى البرمة أصلاً ، وبذلك نجانا من كارثة محققة .

كان عبد الرحيم قلى تلميذاً ذكياً بحق . وهو لم يوقف نكاهه وحنكته على الدرس والتحصيل وحدهما وانما خرج بهما إلى تدبير جميع شؤونه الأخرى . فبدا على درجة من النضوج المبكر تفوق ما يناسب سنه الصغيرة . ورغم انه كان مولعاً بالتقاط الأخبار المثيرة الا أنه كان يقرب فى ذهنه ما يبلغه من انباء ويصطنع الحذر والدقة فى نشر ما يستوجب النشر وكتمان ما يمكن أن يعود عليه بالعواقب السوء ان هو اذاع به بين الناس . فلا يحب أن يروى عنه إلا ما لاتضره روايته . ولذلك كان عبد الرحيم قلى لا يروى عن اساتذته وزملائه ما يقدر فى سيرهم أو يمس أشخاصهم بسوء . بل هو لم يكن يغمس لسانه فى مثل هذه الامور الامادحاً إذا ألقى مناخاً مناسباً لذلك ، أو متسائلاً ينتظر الاجابة دون أن يعلق عليها بشئ . وهذا من تمام نضوجه وكمال حذره . ولقد احبّه احمد فضل المولى فى خور طقت محبة صادقة . وكان احمد مولعاً بالسجع كثيراً ما يستخدمه فى حديثه الدارج . ومن فرط محبته لعبد الرحيم كان رحمه الله يقول : قلى ما بتقدر تخلى !

## خالد محمد سعيد .. والفول .. ومنكر وكبير :

كان خالد محمد سعيد من أصدقاء عبد الرحيم قلى اللصيقين به فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى . ولكنه كان يختلف عنه كثيراً . فخالد أفتح لونا من عبد الرحيم قلى- ولذلك عرف بلقب « اليمانى » - وأطول منه قامة وهو معتدل الظهر ليس فيه حذب ولا « سردوب » ولكنه كان عظيم الأذنين طويل الرقبة إذا ما قيست رقبته برقبة قلى التى لا أحسب أن أحداً قد رآها أبداً . وأما عبد الرحيم قلى فقد كان حذره فضفاضاً بعض الشيء يتسع فى أحيان نادرة لولوج أبواب بعض المغامرات ابتغاء الحصول على الأنباء المثيرة والوقوف على أسرار الأخبار المهمة التى تُيسر له المادة الحية لاظهار مواهبه ومقدراته على جذب انتباه الآخرين والنفاز بسحر الرواية إلى أدق خلجاتهم . ولكن حذر خالد كان مشوياً بشئ من الخوف من المجهول وبكثير من التردد فى اتخاذ القرار وان كان الجو صحواً والسماء صافية . فخالد أبعدنا عن الدخول فى المغامرات جليلاً ودقيقها حتى يكاد يحسب أن التحدث مع جاره فى فترة الدقائق الخمس التى تفصل بين حصّة وحصّة مغامرة قد تجلب السوء من معانده البعيدة . وحتى فى حضوره إلى المدرسة وعودته منها إلى داره لا يسلك خالد إلا طريقاً واحدة ، لا يغيرها ولا يبدلها حتى ولو فرشت له على غيرها البسط ونثرت له على سواها الأزاهير . وقد كفاه الله شر الطرماج والكمسارى ومطاردة المفتش التى لا يفلت من مغبتها إلا شيطان مدرب يحسن النزول من هذه المركبة الجنونية وان كانت تمضى فى سرعة الأعاصير . فليس حى عبدالله خليل الذى تقرب منه داره ببعيد عن المدرسة ، فهو لذلك يغدو ويروح سيراً على قدميه أمنأ على نفسه لا يلوى على شئ . وهو وان كان من « الجماعة الحمر » لونا فانه لا يحمل أى احساس بعصية ، وقد برئ حتى من التشيع الظاهر للفرق الرياضية ، فنأى بنفسه عن مغبة المشاحنات التى كثيراً ما كانت تتفجر بين التلاميذ نتيجة لمثل هذه العصبية وهذا التشيع ، وكثيراً ما كانت تنتهى بمعارك مدوية . ولكن الحذر له حدود لا يمكن أن يتعداها مهما امعنت فى تضيق نطاق رغائبك ، والحذر يؤتى من مأمنه وان ظن انه ناج بالتمسك بحذره من كل

مكروه . ولذلك لم يمنع هذا الحذر خالداً من سطوة الشيخ ابى بكر وشروها ، ولم يقه من نكير الاساتذة الآخرين . بل إن خالداً كان كثير الوقوع فى هذه الشباك ، شديد القابلية للانزلاق من مواطن الحيطة إلى مهابط الوحل . وهو يهاب الشيخ أبابكر ويخافه ويخيل الي أنه كان يتحصن فى سره من شروره وذلك بما تعلمه من والدته من أدعية منجية . فانى رأيته يحرك شفيته كلما دخل علينا الشيخ دون أن ينطق لسانه ، وقرأت على صفحة وجهه أنماطاً من التعابير الدالة على ما يجول بخاطره من معانى القلق والطيرة ، وكدت أسمع بأذنى دقات قلبه الذى يكاد ينصدع من فرط هول وشيك الوقوع . فاذا دب الشيخ تلقاه بحركاته تلك القططية انخلع قلب خالد وطاش صوابه وتفلتت الآيات القرآنية من صدره تباعاً ولما يبلغ شفثيه منها قدر يسير . ثم تسمر أمام الشيخ لا ينبس بكلمة ، ترتعد فرائصه ويتيبس حلقه من شدة الفرق ، وهو فى كل ذلك معذور ، لأنه لا يتوفر له الأمان ولا الزمان لكى يتملق ذاكرته ويستدعى من أغوار أضابيرها ما أريد منه تسميعه .. ثم يكون ما كتبه الله له وقدره على لسان الشيخ ويديه . وأما فى حصة الاستاذ فرح فقد آلى خالد على نفسه أن يفوض الأمر لله تفويضاً لا منازعة فيه فما فائدة البتبية والفرفرة إذا حم القضاء ، وما الذى يسعفك وينجيك إذا دخل الاستاذ فرح الفصل ومن ورائه عم عبد العزيز وعم محمود ؟ وما فائدة الأحلام الوردية وقولك أنك « اشتغلت كويس » وأنت تعلم أن امتحان « السبلنق » ( Spelling ) لن ينجو من شروره أحد إلا أن ينال مائة درجة من مائة ؟ وهل أنت خواجه من بنى السكسون حتى تنال هذا المقام الرفيع فى لغة بنى السكسون ؟ وهبك تحصلت على اكثر من تسعين بالمائة ، فماذا أنت فاعل مع استاذ لا يرضيه إلا الكمال الذى يعلم خالد تماماً أنه ليس فى مقدوره ولا فى مقدور أحد سواه أن يحوم من حوله ناهيك عن بلوغه والتربيع علي سده ؟ لا فائدة ترجى من الامانى التى لا أساس لها ولا مبنى ، ولا يركن إلى خداعها إلا غافل غر ، وماهى إلا بضائع الموتى . أما الأحياء فانهم واقعيون مدركون لحقائق الاشياء كما تظهر أمامهم ، لأن دخول العمين منكر



ونكير من وراء الاستاذ فرح له معنى واحد لا ثاني له ولا ثالث . ولذلك وجب تفويض الأمر لله وانتظار رحمته بانتهاء ذلك اليوم أو تلك الحصة على وجه الخصوص ، ولن تتم الرحمة وتعم إلا اذا ذهب ثلاثتهم وصار مانالنا منهم جزءاً من الماضى السحيق . فليس فى كنانة خالد الكلامية والتبريرية ما يفيد أو يشفع له لدى الاستاذ فرح . وأما العمان عبد العزيز ومحمود فقد ألفا حمل خالد فى مثل هذه الأحيين لسوط العذاب ، وهو يصيح و يتلوى رغم اللبد التى يحتقبها فى مؤخرته ، وله فى ذلك اسوة حسنة - وربما راها البعض سيئة لست أدرى - فى جاره وصديقه عباس صالح . وبعد كل هذا قليلاً ما كان ينتهى اليوم الدراسى دون أن يختم بسياط عم مبارك وكأن ذلك كان جزءاً من المنهج الدراسى فصار الانتهاء اليه حتماً مقضياً .

ولكن إذا استثنينا هذا الشعور بالفزع الذى كان ملازماً لكثير من التلاميذ والذى كنت تقرؤه بأحرف واضحة جلية على وجه خالد فى أوقات الروع فانه يمكننا القول بأن خالداً كان تلميذاً مسالماً لا بعد الحدود ، هين الطباع كريم النفس ، رقيق العواطف مرهف الأحاسيس ، لا يبادر أحداً بشر أبداً . واذا ووجه بمكروه سارع برقته المعهودة إلى محاولة احتواء الموقف قبل أن يستفحل ويصعب التحكم فيه ، واثر أن يصد عن نفسه السوء التى هى أحسن ، وحصن وجهه ومظهره بابتسامة تجمع بين الشك واليقين ، وتمزج بين الخوف والرجاء ، وتخلط علامات الاستتكار الظاهرة بحب خفى - ولكنه صادق وجارف - للسلامة والنجاة ، وتبرز معانى التقية من وراء مظاهر افتعال الثبات . ينبئ عن كل ذلك بريق غامض فى عينيه ولكنه ذو معنى لا تخطئه بديهته ولا يفوت على ذى نظر ، ويروى واضح فى أننيه من تحت العمامة ، وان كان ذلك خلة لا تعمل له فيها ولا اختيار ، صوره عليها القادر المتعال ( الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ) . ولقد بلغ من حذر خالد أنه لا يغشى مواطن الفتنة ولا يحوم حولها ولا يقترب منها ، فاذا ألم بها على رغبة تحاشاها تحاشياً ، وسلك طريقاً تباعد بينه وبين أهل العراك . وقد فطن زملاؤه لهذه الخصلة فيه ، ولكنهم أبوا على أنفسهم -

كراً منهم ومروءة ، وتقديراً منهم لمزاياه الكثر العديدة - أن يستغلوها فيه . ولو أنهم أرادوا ذلك وفعلوه لَنُغْصُوا عليه حياته ولدفعوا به إلى ما يكره ويتقى . وربما دار بخلد بعض الخبثاء منهم مثل هذا الشعور وراودتهم النية - من قبيل محبتهم للعبث والعفرتة - للزج به في أشباه هذه المتاهات . ولكن الله عصمه منهم وأعلى من قدره في أعينهم فرجحت محامده بالميزان على ما حسبه نقائص ، وبأعوا له باحترام يذكرون نبهه ولين عريكته وأدبه الجم في المخاطبة والتعامل . وحتى أهل الربيع الخراب .. عبد الكريم وبقية الصقور وجيرانهم التابعون من العتاة واصحاب الحل والعقد، وكذلك ناثروا الأحبار على قفاطين الشيخ ابى بكر وفرجياته - مصطفى عابدين وقبيله - كلهم تبنوا براءة خالد وفطرتة النافرة عن التهاون بالنظام والانضباط ، وقدروا ذلك فيه حق قدره . وليس في ذلك من عجب لأنهم لم يصلوا إلى هذه القناعة إلا بعد تفكر وتدبر . فقد حاولوا مراراً أن يستدرجوه إلى أقاصيلهم التي يغيظون بها الاساتيد ويحنقونهم ، وكانوا في اكثر من مرة أن يدفعوا به إلى حافة التلبس بها ولكنه استعصم وأبى ، ولم يكن ذلك مكابرة منه أو بغية معاندتهم ومخالفتهم ، ولكنها سجاياه وقدراته . لقد عجز خالد عن مجاراتهم فيما هم فاعلون ، وأعلنت لهم جميع ملامحه وظواهر وكوامن مقدراته وخلجات نفسه أنه بعيد بطبعه عن تلك المرامي لا يحسن منها شيئاً ، فعلموا أن الخير كل الخير أن يتركوه لشأنه . وهم قد رأوا بأعينهم أنه لا يهب لنصرة أى من « الحماريط » وان ألفاه مخنوقاً تحت قبضة جبار ، ولا يشتغل بنجدة جار من جيرانه فى الفصل و لو تكاثرت عليه الأيدي من أولاد الفصول الأخرى ، شعاره فى ذلك مقولة الامام الشافعى (رض) :

ماحك جلدك مثل ظفرك . . . فتول أنت جميع أمرك  
 واذا قصدت لحاجة . . . فاقصد لمعترف بفضلك

ولكن خالد لم تدفعه حوجة لقصد هذا أو ذاك ، وهو من شدة تواضعه لا يرى له نفساً على الناس ، وان رأى شيئاً من ذلك فهو لا يدرى أهم معترفون له به أم جاحدون . ولذلك فقد أراح نفسه من مطالبة الناس بالوفاء حتى إذا كانت أيديه قد

امتدت إليهم بالاحسان ، فتولى أمر نفسه بنفسه ولم يترك من ذلك شيئاً للآخرين الا أن تهوى اليه أفئدة من الناس بسابق مقدور جرى به قلم الارادة ، وأوقف ظفره علي جلده لا يحك به جلد غيره ولو طرحته « الكاروشة » على الأرض مغشياً عليه . وهو في كل ذلك منطقي مع نفسه ، عملي في النظر إلى الامور بعين تبصر واقع الاشياء على ما هو عليه وعقل يتدبره تدبر استيعاب واحاطة ، لأنه يعلم تماماً أنه عندما يصبح هدفاً لغضب الشيخ أبى بكر أو صفعات الاستاذ احمد عبدالله سامى ، أو أهوال انفجارات الاستاذ الحاج هاشم - وما أكثر ما كان يصبح - فانه يعدم النصير ، ولا يجد بدأ من أن يواجه المشقة والضنى وحيداً ينظر اليه الآخرون ولا يحركون لغوثة ساكناً ، ولربما يشمتون . فكيف يطلبون منه أن يخف إلى نجدتهم فى ساعات ضيقهم وعسرهم وقد انخذلوا عنه جميعاً وهو فى أمس الحاجة إلى نصرتهم ؟ أليس من الحكمة أن يدعهم « يجولون » ببلاياهم ومصائبهم بعيداً عنه وهم قد تركوه من قبل وحيداً يلحق الصاب ويجرع العلقم ؟ ألا تكفيه شقاواته الكثر حتى يتصدى لشقاوات الآخرين ؟ لا بد أن تكون مثل هذه الهواجس قد دارت بخلده فأثمرت فى وجدانه وقرارة نفسه قناعات راکزة كلها تدور حول هذه المفاهيم . ولذلك لم يكن خالد حريصاً على الأعمال الجماعية التى تؤلف بين ثل من التلاميذ وقد تنجم عنها أخطار تعم ولا تخص ولا تستثنى أحداً . وانما كان غالباً ما ينفرد بنفسه بعيداً عن الثلل والأحزاب والعصائب .. وحتى فى وقت الفطور وهو لحظات التحلق الصاخب حول طبلية عم محمدين ، الذى ينتشر تلاميذ المدرسة أثناءه على هيئة مجموعات وفرق تتشارك فيما بينها وجبة الفطور ، فان خالداً كان يفضل أن يظل وحيداً بصحنه الفول ونصف رغيفه المدور . وربما كان يمضى وحيداً أيضاً فى بعض الأحيان إلى ركن الباسطة القصى . غير انى لا أذكر أنى رأيتة هناك مرة واحدة . وليس ذلك بمستغرب ، فهناك على وجه التحديد تحدث المعارك التى آلى خالد على نفسه الا يتعرض لأسبابها ما أمكنه ذلك وما وسعته الحيلة . وهى معارك تبدأ عادة بكلمة : « أدينى معاك » وهذه كلمة تقابل عادة بالرفض الصريح

خصوصاً إذا كان المطلوب هو البساطة . والرفض فى مثل هذه الأمور مدعاة إلى العراك ، ولكن بعد افتعال أنسب الأسباب والحيل وأبعدها عن مظنة الاتهام بالاعتداء الصارخ ومحاولة التغول على حقوق الآخرين . ولست أحسب أن ابتعاد خالد عن مركز البساطة تصرف منشؤه البخل أو الشح أو الأنانية ، لأن خالداً لم يكن كذلك وإنما شهد له الناس بالكرم والسماحة والتواضع وحب الخير للأقران . ولكنى أحسب أن الدافع هو مجانبة طرائق الفتنة والشجار ، وهو ايثار السلامة والنجاة من شرور الآخرين ، وقفل جميع أبواب الاحتمالات التى قد تقود إلى ما لاتحمد عقباه ، وقد يكون من بعض نتائجها التعفر بالتراب « والتسلخ » بالبلاط والطوب والحصى .

ومع انضباطه الذى هو بعض خلائقه التى فطر عليها كان خالد ايضاً تلميذاً مجتهداً ينظم كراسات على أحسن صورة يسعه بلوغها ، ويحاول « تسميع » بعض النصوص « على نفسه » قبل دخول الحصاة اذ يقف منفرداً تتحرك شفقاته وهو ينظر فى المدى البعيد . ولكنه كغيره كان يشكو من « تبخُّر » النص الذى رده فى سريرته ، فاذا به يلقى العنت حينما يجابه بسؤال ، فنتغشاها الرعدة ويتملكه الفزع ويساعد ذلك الحال على « طيران » ما تبقى فى الذاكرة . ولقد أبان خالد عن عزيمة ماضية صادقة لأنه يعاود الكرة مراراً ويجتلى آفاق المعارف لا يكل ولا ينى . غير انه كان يهاب اساتذة بعينهم من بينهم الاستاذ حسين الغول الذى كان يدرسنا اللغة الانجليزية ، فهو فى نظر خالد غول حقيقى يوشك ان عجزت عن اجابة اسئلته أن يبتلعك ابتلاعاً . فكان خالد « يعمل » له الف حساب . ولكن المخ ليس بدفتر كما يقولون ، والكلمات الانجليزية تتشابه ويختلط أمرها على الانسان فلا يأتى بها كما يريد الاستاذ وعند ذاك ينزل العقاب فلا تجدى معه الأعذار والوعود . ولم يكن خالد بأقل حيرة من زين العابدين الشفيق ازاء طلاسـم الاعراب ، ولكنه لا يشتكى إلا لخالفه ، يقطع المرارات « فى حشاه » ، غير انه كان يحفظ الأناشيد والاشعار التى يطلب منا حفظها ويردلا ساتذتها بضاعتهم مزجاة أو غير مزجاة - وحتى عندما تخونه الذاكرة فى بعض

الأحيان فإنه لا يلقى عنتاً يذكر ، وهو عموماً يتأمل مصائب غيره فتهون عليه مصائبه .  
لقد كان خالد محمد سعيد تلميذاً رقيقاً مهذباً وقد عصمه أدبه الجَم من أن يجعل  
لبعض « الخبثاء » من أولاد الفصل مدخلاً إلى نفسه الكريمة ، فظفر بمحبة الجميع  
وتوقيرهم رغم تعليقات التجانى الطاهر ومحمد العوض التى كانت تتناول فيما تتناول  
اذنيه البارزتين فكان خالد يتجاهلها ولا يعبأ بها ، ولو أنه فعل لصار مضغة فى الأفواه  
ولأضاف أعباءً جديدةً إلى أعبائه المدرسية الكثر . وما كان ذلك الا دليلاً على فطنته  
وكرم خلقه .

### **عاكف ياسين ... والدبابة ... والديمقراطية المركزية :**

يذكرنى حذر خالد بعاكف ياسين خاطر . فقد كان عاكف أيضاً على درجة من  
الحذر يعرفها من خاطه عن قرب . ولكنه كان يختلف عن خالد من عدة أوجه ، ولذلك  
اصطبغ حذره بألوان مغايرة لما كان عليه حال خالد . فعاكف من أولاد بيت المال وهم  
عصبة قوية ، انعقد لواء زعامتها لعبد الكريم أحمد حميدة . وعبد الكريم زعيم وابن  
زعيم ، وهو يريد أن تسيّر الامور على هواه وتتداعى الأحداث ونتائجها حسب مبتغاه  
فهو يؤمن بمنطق القوة لأنه وجد أن هذا المنطق يخدم قضيته على أحسن الوجوه ،  
ويعطيه لذاته أكبر قدر من الحرية وأرحب مساحة للتحرك الآمن . فاعجب لمنطق يبدأ  
صاحبه الذى هو صاحبه من إحكام القبضة فيثمر ذلك حرية واسعة الأطراف والأكناف  
له وحده دون سواه ! ونحن نعلم أن عاكف ياسين لم يكن من المؤمنين بمنطق القوة وان  
كان قد انتهى فى آخر أمره إلى رتبة « فريق » فى القوات المسلحة السودانية وذلك فى  
حياته اللاحقة . أما فى تلك الأيام التى نجتز ذكرها ونستعيد شيئاً من سيرتها على  
هذه الطروس فقد كان على عاكف أن يجمع بين تطلعه إلى التمتع بحريته الشخصية  
وحقه المقدس فى التصرف المستقل وبين الانصياع لتعاليم الديمقراطية المركزية التى  
تخضع لها مجموعة اولاد بيت المال ويقف فى طليعة قيادتها وقيادتهم عبد الكريم احمد  
حميده فيجنى جميع ثمارها السلطوية منفرداً دون أن يدع لبقية رهط ما يسمى

بالقيادة الجماعية شيئاً غير حرية التنغني بأمجاده ومحامده ! ولقد كان الخروج على تلك القبضة الحديدية أمراً صعب المنال . ولكن عاكف ياسين كان تلميذاً ذكياً لمأحاً يُحسِنُ الانفلات من ربة ذلك الاسار فى كثير من احيانه إذا أراد ، فيقيم أوثق الصلات وأمتن العلائق بأولاد الأحياء الأخرى ، يحتال على أعين الرقابة الصارمة بأنه انما يستذكر بعض دروسه مع معارفه « الجدد » . وهو تلميذ لبق حلو الحديث ، ينطوى على مقدرات هائلة على الاقناع . ولكنه إذا وجد بعضاً من هؤلاء المعارف « الجدد » فى محنة من محن العراك التى لا تكاد تخلو منها ساحة المدرسة فى يوم من الأيام ، فانه لا يندفع بعواطفه ولا يحرص على التمتع بحريته فى مثل هذه المواقف ، وانما يغلب عليه حذره الذكى المرن ، فيغض الطرف ويسلك غير سبيل المتعاركين ، أو « يعمل مجنون » ، أو يتباعد عن مواطن « الدوشة » بحصافة ولباقة وحسن تدبير ، مدعيماً الاشتغال بما هو أهم ، مؤكداً أنه لو وسعه الوقت لما تأخر عن شد الوثاق والإختان وضرب كل بنان . وما كان ذلك لخور فى نفسه أو جنوح متقاعس نحو المسالمة واجتتاب الكرائه ، فهو من الأولاد « الشياطين » دون ريب ، ولكنه يفعل ذلك مخافة أن يتهم فى دوائر « القيادة الجماعية » المستهدية بالديمقراطية المركزية بممالة الآخرين والقعود عن نصرة اولاد حى بيت المال الميامين ، فكان هذا التصرف الموزون والمنحى الحكيم عاصماً له من العيب والملام إذا هو تراخى عن الانتصار لأولاد الحى وقعد عن نصرتهم ظالمين أو مظلومين . فالغالب هو أن يعتبر تصرفه المحايد فى مثل هذه الأحوال طبعاً من بعض طباعه ، ويعزى إلى كلفه بالمسالمة ومحبته للانصاف وشدة ايمانه بأن الأوفى هو أن تترك الامور تجرى على ماهى عليه دون تدخل سافر أو خفى قد يفسد طبيعة الأشياء ، وقد يزيد النيران اشتعالاً ويعقد المسائل تعقيداً ويفاقم من آثارها ، ويقود إلى التنازع والاحتراب الصريح وإلى غوائل تعرك الناس عرك الرحى بثقالها .

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم . وما هو عنها بالحديث المرجم

ولقد أفلح عاكف بتخلقه بهذا النوع من الحذر الواعى الرشيد فى اقناع عبد الكريم ورهط القيادة الجماعية لحزب حى بيت المال - وقد تركهم عبد الكريم جميعاً بلا

سلطان حقيقى يذكر - بأنه تلميذ معتدل ، وهو على أسوأ الفروض محايد لا يلحق بالمجموعة شراً وان كان خيره قليلاً لا يعتد به ولا يعتمد عليه . وانتفع عاكف من هذا الانطباع الذى خلفه فى ذهن عبد الكريم ، فهو لا يشق عليه فى أمر من الامور ولا يكلفه ما لا تحتمله طاقته وجبلته . فكان من ثمار ذلك أن استفاد عاكف ياسين حرية نسبية وظفها توظيفاً بصيراً وسع من صلاته ببقية اولاد الفصل وغيرهم من اولاد الفصول الأخرى، على اختلاف عصبياتهم وانتماءاتهم تحت سمع عبد الكريم وبصره . ولكن ، رغم كل ذلك لم يسلم عاكف تماماً . فقد كان ولاؤه لحيه السكنى وحرصه على تقادى غضب عبد الكريم ، ثم محبته للشيطنة وولعه بالحركة والعبث ، كلها تدعوه بالحاح لمؤازرة الموسيقى البرجلية الشفوية مؤازرة سخر لها جميع ما أوتى من معدات وما كان يحدث من حركات وأصوات برع فيها أيماً براعة . وهى التى جعلت الشيخ أبابكر يظن ظناً أشبه باليقين أن عاكف ياسين كان ولا يزال وراء كل ضجة تحدث فى الفصل . فان لم يكن هو صاحب المبادرة فيها فلاريب عند الشيخ أنه صاحب القدر المعلى فى انتشارها وشيوعها وتعاضم وقعها واستفحالها . ولكن المدهش أن عاكف ياسين لا يتملص من تبعات هذا الاتهام ولا يخشى نتائجه ، وهى معروفة سلفاً لدى كل تلميذ من تلاميذ الفصل يكاد يجزم بطريقة تتابعها وشمولها المذنب والبرئ . فبدلاً من أن يستولى الفرق والندم على مشاعر عاكف ، وبدلاً من أن يسمر الخوف أعطافه وجوانحه وسائر اعضائه ، كان - على النقيض من ذلك - يستقبل انسياب الشيخ التتدافعى نحوه بكثير من البرود وعدم المبالاة ، بل كان أحياناً يضحك بصوت مسموع إذا أبصر الشيخ وهو يتجمع فى داخل قفاطينه ويتكور فى أحشائها ثم يتقدم داباً تلقاءه ديبياً مفعماً بالوعيد ، حتى ان بلغه انتفض من اغشيته وانتشر فى وجهه وغطاه بصفعات لها رنين وايقاع وصدى . فاذا نال من خده الأيمن بغيته مما أراد الله أدار له عاكف خده الأيسر تلقائياً بغير ما شعور أو ارادة ، ودون تذكر واضح لتعاليم المسيح عليه السلام .

وامتاز عاكف أيضاً بشئٍ آخر وهو كلفه الشديد بالطرفة والملحة والفكاهة . وقد وجد في محمود أحمد مهدي والفاضل شريف خير معين له على ذلك ، فكان يسترق الاجتماع بهما بعيداً عن رقابة عبد الكريم الصارمة فيسعد بذلك الاجتماع وينعم بذلك اللقاء . ولقد أجمع زملاء عاكف على وصفه بالظرف واللباقة وهما خصلتان حبيتا زملاءه فيه . ورغم أنه لم يكن مولعاً بعلم الحساب ولم يكن من فرسان حلبة الرياضيات إلا أنه كان يلقي معاملة كريمة من الاستاذ غزالي السراج والاستاذ محمود الضيرير على السواء ولست أدري لذلك سبباً شافياً إلا أن يكون ذلك البريق الذي يشع من عينيه الضاحتين موحياً بذكاء واعد ومبشراً بانفلاق وهبي قريب . لقد كان وجه عاكف ينبئ عن مثل هذا الذكاء وكانت ملامحه تنطق بمعاني الرقة واللفظ ونقاء السريرة . وربما كان هذا هو السر في انجذاب محمد عبدالله الشيخ اليه وقربه منه ، وربما كانت شفافية محمد ورقة طبعه هي التي اجتذبت عاكفاً إليه . ومهما يكن من أمر فقد امتدت بينهما أواصر الود وعلائق الوثام ، حتى اذا أبصرتهما في فناء المدرسة يتناجيان بمعزل عن الآخرين لا تملك -إذا اخضوضرت في وجدانك أوراق الخيال الغضة الندية، ولامست شغاف قلبك انفاس من روائح الشعر- إلا أن تتغنى مع ابن زيدون :

سرأن في خاطر الظلماء يكتمنا . . حتى يكاد لسان الصبح يفشينا .

غير أن عاكف ياسين كان أبصر بأمور الشيطنة والعفرته من محمد عبدالله الشيخ ، ولكنه ربما كان يستقي من ملائكية محمد ليخفف من غلواء شيطنته ليكسوها بحل الاعتدال وينأى بها عن مزالِق الافراط . ولعله كان معجباً بملكة محمد الفنية في مجال الرسم والخط شديد الشغف بهذه المواهب يأمل في اصابة حظ منها ونصيب . فقد بدا في كل أحواله حريصاً على مودة محمد والالتقاء به كلما سنحت لذلك فرصة ، ولو خير لا ختار أن يكون جاراً له في الفصل لصيقاً به . وكان محمد يكبر في عاكف هذا الشعور الودي ويبادله وفاءً بوفاء . ولما كان محمد مسالماً بطبعه لا يحدث فتنة ولا يقترب - ما أمكنه ذلك - من أي شر فان عاكف ياسين وجد في صحبته وملازمته قدراً



عظيماً من الأمان ، ولقى في مصادقته ومصافاته روحاً هائلاً من الطمأنينة ، فسلم حتى من لسان محمد العوض الذى لم يسلم من حديثه إلا قليل حتى كأن محمد العوض هو القائل :

لسانى طويل فاحترس من شداته . عليك وسيفى من لسانى أطول  
وهل شذاة اللسان الاحدته ، وهل سيف محمد العوض إلا رهطه المورداً ؟ ولذلك كانت صلة عاكف بمحمد عبدالله الشيخ أهم مقومات الاحتراس من شرور محمد العوض اللسانية لأن محمد العوض يجلب ذلك الفتى الفنان الموهوب أعظم إجلال . ولقد عرف الجميع أن محمد عبدالله الشيخ لا يضرر سوءاً لأحد ولا يفضب أحداً ولا يتصور منه ايذاء لأحد . وأدرك عاكف ياسين ذلك منذ وقت مبكر فمال إليه ميلاً واضحاً وترك لخياالات زملائه حرية البحث وتخمين الأسباب .

ولقد كان عاكف ياسين تلميذاً شديد الحيوية يذرع فناء المدرسة فى نشاط دؤوب ولكنه لا يتعرض للفتن والمنازعات ، ولا يتوقف عند مجالس المنازعات الكروية ، لأنها غالباً ما تفضى إلى شغب ولا يسلم مرتادوها من « الكندكة » وأحياناً « سف » التراب . ورغم انه لا يناصر هذا ولا يخاصم ذاك إلا أنه يجد عند زملائه القبول والترحاب ، لأنه مسالم وبسام ضحوك . وإذا جلس يستمع إلى قصص التجانى عن حى العرب « ويلة الأحمرانى » أو إلى حكايات ابناء الموردة عن « كبس الجبة » أو روايات محمد مصطفى بلال وعبد الرحيم سعيد عن « اللبخ » فإنه يستمع باهتمام بالغ ولا يغالط فى شئ كما يفعل الآخرون فيجلبون على انفسهم أذى من السنة حداد . ولكنه يبدي انبهاره واعجابه بما يسمع فى غير ما حديث ثم يلهمه ذكاه الفاحص أن كثيراً مما يروى إنما هو من نسج الخيال . ولذلك فأتت تراه مطمئناً متمسكاً لا تبدو عليه علامات الجزع ولاسمات الفرع التى كانت تبدو على بعض من يستمعون إلى هذه الاقاصيص ويصدقون كل كلمة ترد فيها .

وبالرغم من المسكنه التى تعتريه فى بعض الأحيان ، والمسألة التى تشكل جزءاً

اصيلاً من خلأئقه الا أنه فيما يببو يتمتع بقدر من الشيطنة لا يستهان به . فهو يركب الطرماج ويزوغ من الكمسارى ولكنه لا ينزل « عكس » أبداً . وهو معجب بالشفوت والقنادف ولكنه لا يرد مواردهم ولا ينحو منحاهم . وهو يحب ركوب العجلات ولكنه يكره العجلاتية ، لأنك إذا تجاوزت مدة الايجار فرضوا عليك غرامة . واذا أعدت البسكليت قبل انتهاء المدة فانهم لا يردون اليك ما تستحق ، بل يحاولون العثور على عيب فى البسكليت ينسبون سببه اليك حتى اذا تركوك وشأنك فرحت وكأناك الغانم الظافر . ولم يكن من طبائع عاكف الاقبال على الزحام خاصة عند ما يكون ذلك فى دار الرياضة او جامع الخليفة . فهو لا يحب « المدافسة » ولا يتحمل « الفنجطة » التى تعترى بعض المشاهدين فيعانى منها من يقف قريباً منهم . وذلك أن عاكف ياسين تلميذ انيق « نذك » الهندام ، مهتم بمظهره اعظم اهتمام . ولذلك كان عاكف ايضا من أصدقاء عز الدين عباس المقربين ، ومن أصفياه الخالصين . والفرق الوحيد بينهما هو أن عاكف ياسين كان فيه نزوع إلى الشيطنة ، على أنها لم تكن تزجج عز الدين إلا إذا زادت فى نظره عن الحد المطلوب ، وقليلأ ما كان ذلك يحدث .

ولقد كانت هذه الشيطنة تحمل عاكفأ أحياناً إلى بعض الهرجلة فى الفصل ، فاذا سلم من القائمة التى تقود إلى كنية عم مبارك فانه فى بعض الاحايين لايسلم من اعين الاساتيذ الفاحصة وأذانهم اللاقطه . فكان الاستاذ ثابت احمد ثابت يزجره فى بعض الأوقات وذلك بتعبيره الذى تعارفنا عليه وألفناه : « عاملى لى إن إن زى الضبان » ، فهو ينطق العبارة بتشديد على هذه النونات المتعاقبة وليس ذلك ابتغاء الفصاحة فى التعبير بقدر ما هو اسلوبه فى الكلام وطريقته فى اخراج الحروف . فهو استاذ طويل القامة أقرب للنحافة من امتلاء الجسم ، أشبه ما يكون بضابط او جندى تلقى ارفع تدريب فى فنون كمال الاجسام . ولكن الاستاذ ثابت كان استاذأ محبوباً بين التلاميذ لأنه لا يعاقب أحداً إلا نادراً وإلا اذا كان الجرم فادحاً . ولاشئ يضايقه أكثر من التشويش عليه اثناء القائه للدرس ، ولكنه لا يصفعك بيده إن فعلت ذلك وانما يكفيه

تجريحاً لك وعقوبة على سوء أدبك أن يشبه « شغبك » الذى تحدثه بطنين الذباب !  
فشتان ما بين لسانه ولسان الشيخ ابي بكر ، وشتان ما بين يد هذا المغلولة عن الأذى  
ويد ذاك المبسوطة بألوان « الكفوف » !

وانى عندما اذكر عا كف ياسين لأعجب كيف انتهى به الامر إلى الجيش . فذلك  
تلميذ كان أقرب إلى الفن والموسيقى والشعر منه إلى حمل السلاح وركوب الأهوال وهو  
إلى الدعة والمسألة اقرب منه إلى مواطن القتال والحروب . ولكن عاكفاً كان فيه شئ  
من الانضباط منذ ذلك الوقت المبكر . وأغلب ظنى أن هذه الملكة قد تنامت فيه وتكاملت  
حتى هيأته وأعدته إلى ما صار اليه فى مقتبل أيامه . ومهما كان التقويم فانه يدور  
حول صفات عامة ربما انبنت عليها شخصيته خلال سنوات النضوج وبواكير الشباب .  
وهى صفات من بينها الذكاء والمرونة والصبر والحيوية . وكلها كانت باادية على عاكف  
منذ صباه الباكر على أيام ام درمان الاميرية . واما الشيطنة المقتصدة التى كان يمتاز  
بها عاكف فى تلك الأزمنة فانها لم تخرج عن حدود المألوف ولم تحمله أبداً إلى اندفاع  
أو شطط فى تعامله مع الناس . ورغم أن عاكفاً كان يركب الطرماج والعجلة إلا أنه  
كان يفعل ذلك فى اقتصاد لا إكثار فيه ولا مبالغة . وكان مثل عز الدين عباس تماماً  
يكره الغبار والعفرار والمعافسة ويتحاشى سوق الزلعة وزحمة دار الرياضة و المولد ،  
ويؤذيه أن يلحق بهندامه التنظيف الانيق ذرة من تراب . فالذى يحيرنى هو كيف يتحول  
من هو بهذه الصفة فى صغره إلى شخص آخر بعد سنوات قلائل ربما اقتضى واجبه  
أن « يندفس » فى خندق يكتنفه من جوانبه التراب والحصى ، أو يركب دبابة يحصد  
منها أرواح البشر . لقد عجبت لعاكف ، ولو قدر لعز الدين عباس أن يصير إلى مثل ما  
صار اليه عاكف لما بقى لى شئ فى هذه الدنيا أتعجب منه !

### **عوض اكريم عبد الجليل المخابر ... وحصة الدين :**

من التلاميذ الذين تجمعهم مع عاكف أوجه شبه لبعض الحدود التلميذ عوض الكريم  
عبد الجليل . وهو أيضاً من أولاد بيت المال . ومن الناحية النظرية فهو بهذه « التبعية »

الجغرافية تحت القبضة العبد الكريمة فى المكان الاول ، وسلطان المركزية الديمقراطية فى المكان الثانى . ولكن عوض الكريم كان تلميذاً وقاد الذهن شديد الذكاء ، أسعفته قدراته الذهنية الهائلة وأعانته على تجاوز كثير من الصعاب التى كانت تعتقل آخرين وترتهن قواهم وحريرتهم عن مواصلة المسير . فهو قد كسب احترام اساتذته ونال رضاهم لتوقد ذهنه الذى كان غالباً ما يلهمه الإجابات الصحيحة على كثير من اسئلتهم الصعبة المعقدة ، ولهدوئه وحسن استماعه لما يلقون على التلاميذ من دروس وشروح ومواعظ ، لا يشارك فى الصخب والضجيج إلا لضرورة ، ولا يكون ذلك الا فى احيان قليلة وفى الفترة القصيرة التى تفصل بين حصة وأخرى ، بين مغادرة استاذ ودخول استاذ آخر . ولقد احترم فيه الكبتل هذا الخلق الرفيع وتلك القدرات العلمية الموفورة . فكان يحو إسمه من السبورة التى يثبت عليها قائمة باسماء المهرجلين . ولكن ذلك الاجراء كان يكلفه شططاً لكثرة الاصوات التى ترتفع بالاحتجاج والاستنكار والصيحات التى تعبر عن السخط الصريح فنتجاوب معها أركان الفصل بأسره : ليه يعنى ؟ فى زول أحسن من زول ؟ ليه تمسح اسم عوض الكريم وتخلى اسمى ؟ يعنى نحن ما نتكلم وعوض الكريم يتكلم زى ما عاوز ؟ الحكاية فيها خيار وفقوس ولا شنو ؟ إلى غير ذلك من الاعتراضات التى يبدو بعضها عادلاً ومنطقياً ، ولكن سلطة الالفة مطلقة ، وما بقية اولاد الفصل سوى مجلس بلاسلطان ولا قدرة على التنفيذ أو الحل أو العقد . ويضممر بعضهم المكر لعوض الكريم ويسرون إليه بالمودة . ومن عجب أنهم يحملونه وزر مالم يجترح وينطون على نية الثأر منه والانتقام . فعوض الكريم - وان لم يكن معصوماً من الهرجلة فى بعض الأحيان مدفوعاً إليها دفعاً - لايمسك «البشاورة» بيده ليمحو بها اسمه من قائمة المهرجلين وانما يفعل ذلك الكبتل ، فهو الذى يثبت اسمه ثم يمحوه ، ويفعل بالسبورة ما يريد خلال الدقائق الخمس التى تفصل بين الحصة والتى تليها . ولكنه لا يلام على ذلك ولا يعنف بالوضوح الكافى ، ولا تبلغ اذنيه إلا هذه الاحتجاجات التى تختلط بها أصوات التلاميذ ولا يتولى كبرها

أحد . ومن ذا الذى يستطيع أن يعنف الكبتل ويغلظ عليه فى القول ، ومن ورائه الصقور جميعاً بلا استثناء ، بقبضاتهم الحديدية القادرة على تسديد « البنية » التى قد تدخل الأنف فى جوف الرأس ، وأرجلهم الصلبة المقتدرة على تصويب « الشلاليت » التى تفرى الظهور والأصلاب وقد تبقر البطون ؟ ولكن عوض الكريم شئ آخر بالنسبة لهم غير الكبتل . وقد بلغ الحنق على عوض الكريم ببعضهم ذات يوم مبلغاً عظيماً حتى تآمروا على أمانه وسلامته وكادوا أن يمزقوه امام البوابة الشرقية للمدرسة لولا أن الله لطف به وفضح أمرهم ورد عنه كيدهم . فقد خف إلى « مسرح العمليات » كل من عبد الكريم ومحجوب والكبتل نفسه ، فتفرق المعتدون أيدي سباً ، ولم نقف لهم على أثر . وكنت قد أبصرت أحدهم يتلوى من الألم وهو هارب فى أحد الأزقة الشرقية التى تتخلل الحى الواقع بين المستشفى والمدرسة ، وظننت انه محمد العوض « الخالق الناظر » دون سواه . ولكن محمداً أقسم لى فى اليوم التالى أنه برئ من هذا الظن بعيد عن هذه التهمة ، لأنه يحمل أعظم تقدير واحترام لعوض الكريم وما كان له أن يعتدى عليه أو يتأمر عليه أو يحمل نحوه أى نوع من الضغينة أو الحقد . وشككت أول الأمر فى صحة تبرئته ممارمته به من اتهام كبر عليه أن يخطر على بالى ولكن عوض الكريم برأه وأكد لى أنه لم يكن من بين المعتدين ، وأن كثرتهم الغالبة كانت من خارج الفصل ، إلا أنه أشار إلى الفاضل شريف ورجح أنه كان وراء كل الذى حدث . وقد اسفت لذلك أشد الاسف وكدت اترك الامور تأخذ مجراها دون تدخل . ولكن غلبنى شعور بالعطف على الفاضل شريف مبعثه أن الفاضل من اولاد حارتنا فى ود نوباوى ، وهو جليس مرموق فى مجلسنا بكويرى ود نوباوى خاصة فى الليالى المقمرة الحالية الاعطاف والاكفاف والنسائم ، وعز على نفسى أن يصبح عرضة لنهش مخالب الصقور . ولما كنت على صلوات حميمة طيبة مع عبد الكريم فقد سعيت بينه وبين الفاضل بالخير وذلك بعد أن أقنعت عوض الكريم بجدوى مسعاه وأهميته فى احلال السلام بين الفرقاء . وتمكنت بعد جهد مضمّن من اقناع عبد الكريم وبقية الصقور بأن الفاضل شريف تلميذ هازل

يحب العيب من أجل العيب لاشر في دخيلة نفسه ولا ضغائن ولا أحقاد . وأرضاهم ذلك عنه فأكرموه من أجلى ولم ينالوه بانذي ، ووعى هو الدرس وكف عن الكيد لعوض الكريم . وقد تأكد فيما بعد بشكل قاطع أن الفاضل شريف لم يكن ابداً من بين المعتدين .

ولقد تميز عرض الكريم بخصلتين هما عندى فى غاية الأهمية : الأولى أنه كان لا يستنكف عن تقريع الاساتذة ولا تثنيه عن مراده حتى ملاحظاتهم القاسية وتلويحهم له بسوط العقاب ، بل يجمع همته على أن يفى بما يريدون منه من تحصيل وتجويد وبلوغ صواب ، وكثيراً ما كان ينجح فى ذلك باجتهاده وحسن بلائه ، فينال رضاهم ويظفر باهتمامهم وتشجيعهم ويجد عندهم أحسن القبول . والثانية أنه كان لا يستحيى أن يسأل عن جلية ما حذب عليه من أمر وطبيعة ما استعصى عليه من مسألة . ثم هو لا يبالي بما ينتجه سؤاله عند الاستاذ أحياناً من استهزاء به أو تندر عليه ، ولكنه يلح على أن يتلقى الاجابة الصحيحة على سؤاله ، فاذا ظفر بها بقيت فى ذاكرته مصونة لا تغيب عنه ولا تنسى . وكان فوق ذلك يعتنى بمظهره عناية فائقة - وان كان ذلك شأن أغلب التلاميذ - فيظفر من ذلك بالرضا والقبول عند اساتذته ، ماعدا أولئك الذين يصعب عندهم القبول بل يستحيل أحياناً ، ولا يرضيهم « ولا يعجبهم العجب ولا الصيام فى رجب » ، وفى طبيعتهم الشيخ ابوبكر . فكان عوض الكريم يجلس بهدوئه الماثور عنه واستعداده المتطلع للتلقى والاستيعاب فى جميع الحصص ما عدا حصة الشيخ فقد كان يبدو عليه القلق على امتدادها وبحسبها - وهو محق من زاوية فهمه للمعقول وغير المعقول - أماداً طوالاً من المشقة والعذاب . وذلك أن الشيخ قد درج على مفاجأة أى تلميذ فى اى لحظة بأى سؤال تستك منه المسامح ولا تعرف له اجابة ترضيه وهو قد يباغتك بملاحظة لا تتعلق بالدرس أبداً وانما تكون ذات صلة بجلابيتك أو عمامتك أو أنفك أو أسنانك أو لون بشرتك أو درجك أو البلاط الذى تحت قدميك . فأنك ان استظهرت كتاب الله عن ظهر قلب و أوغلت فى بحار التفسير ولجج المعانى ،

وفرقت بين الناسخ والمنسوخ وبين المكى والمدنى من السور والآيات وتلوت من ذاكرتك ما تيسر من كلام الله دون خطأ أو نسيان ، فاعلم أن هذا لا يكفيك ان أحس الشيخ منك جنوحاً إلى الهرجلة ، ولن تغلت منه أبداً إذا رمقك وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الهازئة الساخرة التي تكاد تنطق بما أطلع الله عليه من دواعى عبئك التي لا تخفى عليه وان كنت أنت فى ركن قصى من أركان الفصل . فانه دقيق الملاحظة مرهف السمع حديد البصر . فاذا ارتاب فى أمرك فانك لن تسلم من سوء ظنه واعتباره أنك ربما تكون رأس الهوس أو أحد الأصابع التي تعبت بالشفرة والمنقلة والبرجل والمثلث لتحديث تلك الأنغام التي لا تطربه ولا تشجيه وانما تحنقه عليك وتشقيه . فيصمت لحظات يستجمع خلالها من قاموس مفرداته كلمات ينتقيها انتقاء ، وتعابير ينسجها نسيجاً حتى اذا ظفر بما يريد ويبتغى شرع يخطر نحوك بخطوه الوئيد وهو لا يزال فى صمته الناطق بالوعيد . فاذا بلغك انحنى عليك بعض انحناء ، وحقب يديه على ظهره يستمهلهما ريثما يفريك أو « يهريك » بالكلام ، وهو ما قد علمت . فان أنس منك الرضا بما يقول أمسك اليد وأطلق اللسان ، وان طالع على وجهك ما يشبه الضيق والبرم فيده تنبئك بما بقى من نوع الحديث . وقد يضحك جارك وأنت تحت القبضة . فاذا فعل ذلك ضمَّ الشيخ إليك وأطلق عبارته المألوفة : « إنلم المدعوس على خايب الرجا » وهو لا يبين من منكما هو « المدعوس » ومن منكما هو « خايب الرجا » . فمن العدل أن يترك لكما حرية الاختيار واقتسام النعتين . ونحن لم نكن نعرف معنى الكلمة الأولى وأصل اشتقاقها ، ولكن عبارة « خايب الرجا » . تجلوما علق بها من غموض . على أنى وقفت على معنى الكلمة من المعجم بأخرة - فجاء فيه أن المدعوس من الطرق أو الدعس منها هو الذى داسته القوائم وذلتته واكثرت فيه الآثار ! ولست اعلم ان كان الشيخ قد أراد هذا المعنى بعينه ولكن براعته فى انتقاء الالفاظ لا تخفى . وهو عندما يفعل ذلك فإنه لا يفرق بين تلميذ شاطر وآخر غير شاطر . ولقد كان عوض الكريم أحد ضحايا ظنون الشيخ على الرغم من شطارته التي

شهد له بها الناس واستقامته التي عرف بها بين ظهرائهم . فقد بلغت سمعيه من الشيخ اشباه هذه الكلمات المنتقاة والعبارات الدقيقة الجامعة وبلغت شدقيه وصفحتي وجهه وكتفيه كف الشيخ تلهيها بما يشبه السياط . وكان ذلك مدعاة لتعاطف زملائه - صقورهم وحمائمهم - معه . فهم يعلمون - وان كان بعضهم لا يرضيه ذلك - أن عوض الكريم لم يكن من أنصار الفوضى والهرجلة والتسيب والتعريض بالاساتيد من وراء ظهورهم ، وانما كان تلميذاً مثابراً مهذباً عف اللسان ، مهتماً بدروسه أعظم اهتمام ، لا يشغله عن ذلك شاغل ولا يلهيه عن جده لهو إلا أن يفتنم لحظات قلائل يُروِّح فيها عن نفسه بهزل مقتصد برئ يطرد عنها السأم ويطرح عنها العناء . وعلى الرغم من أن الشيخ أبابكر كان محط اعجاب التلاميذ في ذات الوقت الذي كان فيه هدفاً لعبثهم وشقاواتهم وافتئات بعضهم عليه فان منهم من وصف حملته على عوض الكريم بالظلم الصريح ومنهم من اعتبر ذلك تجاوزاً مسلياً باعثاً على الضحك اكثر مما هو باعث على الحنق والغيط . ومنهم من اعتبره درساً نافعاً لعوض الكريم يذكره بأن الجد ليس بعاصم من الزلل ، ودعوة ملحة له ليرتاد معهم مواطن الهزل والشقاوة . فانك ان فعلت ذلك وتعرضت على أثره لمثل ما تعرض له عوض الكريم من عقوبة فلن يعتريك احساس بوقوع الظلم عليك وانما تبوء باثمك راضياً مرتاح البال . فالشيخ ليس بدعاً من الناس .

والظلم من شيم النفوس فان تجد . . . ذا عفة فلعله لا يظلم

كان هذا المعنى هو القناعة التي سرت بين أولاد الفصل وان جهلوا هذا الشعر وقائله . ولم يكن ذلك الانتيجة لقاءات ومجالس عقدوها مراراً في اوقات فراغهم يتدارسون خلالها الأسباب والدواعي الحقيقية التي كانت تقضى بالشيخ في بعض الأحيان إلى إساءة الظن بالأبرياء وإلى أخذ التلميذ بما اقتترفه جاره من سوء . ونحن لم نكن نرتاب في أن الشيخ كان عفيفاً في خلائقه صادقاً في تدينه وعبادته لربه بعيداً عما يقدح في اخلاصه لعمله . ولكننا كنا في حيرة من أمره ، نجد صعوبة في تفسير بعض تصرفاته وتمنعنا قيم ذلك الزمان من أن نتجاسر عليه أو نتعدى حدود الأدب



معه . ولقد ظللنا دهرأ نحسب انه انما يفعل ذلك ويغالى فيه أحياناً مع أولاد فصلنا دون سواهم . فلما علمنا شيئاً من سيرته مع الآخرين وتبين لنا من أمره ما كان خافياً علينا استيقنا أن تلك كانت طريقته فى التعامل مع جميع التلاميذ على اختلاف مراحلهم الدراسية وفصولهم ، وأن ذلك هو دأبه وطبعه الذى هو عليه . ولما كانت الطباع ملازمة للإنسان على امتداد حياته إلا أن يلهمه الله ما هو خير منها وأجدى ، أو يوفقه ربه فى كبح بعض جماحها ، فقد ألفنا الشيخ ولم نعد ندهش لما يصدر منه من قول أو فعل . بل نحن أحببناه ، ومن عجب أن الذى حببنا فيه هو عين ما كان بعضنا يصفه بأنه ظلم أو تجاوزات . فالشيخ يستطيع أن يستبيك بحديث ناعم وأن يدغدغ أحاسيسك باطراء جميل وأنت لا تعلم لذلك سبباً كافياً أو استحقاقاً وافياً . ويمكنه فى لحظة صاعقة ودون مقدمات تذكر أن يهيل عليك او على غيرك التراب وأن ينعت من صار هدفاً له فى تلك اللحظة بما يوشك أن يحل دمه ويوجب قتله صبراً ، رغم انه قد يكون بريئاً تماماًحتى من اىذاء ذبابة أو قطع الطريق على نملة تدب على الأرض أو التجنى على جناح بعوضة تطن فى الأذان . فالشيخ صاحب أمزجة متنوعة ومتباينة لن يفلح أحد فى التنبؤ بما يمكن أن تصير اليه بعد حين . فمثل هذه الأمزجة المتقلبة يصعب على صاحبها التحكم فيها فهو يعجز عن رياضتها والسيطرة عليها فى كثير من الأحيان . ولذلك فهو معذور ، علماً بأنه محق فى تصديه لعبث التلاميذ الذى غالباً ما يفوت الحد « ويعكن » المزاج . والخير كل الخير هو فى التغافل عن هذه التقلبات وعدم التفكير فيها . وأحسن من ذلك حملها على غير حملها الذى توحى به وتبدو عليه ، وتفسيرها بغير المعنى الذى قد يتبادر إلى الذهن بصورة تلقائية ، وتحسين الظن بمقاصد صاحبها « واعطائه فائدة الشك » كما يقول أهل القانون ترجمة عن رطانة الانجليز . ولعل ذلك هو السبب الذى جعل التلاميذ يغفرون للشيخ لم إساءاته لهم وكبائرها ويتغاضون عن كلماته التى يجيد انتقاءها فلا يتجاوبون معها بأى نوع من الاستنكار أو التعبير عنه بصورة ايجابية ، بل يتقبلونها بنفوس راضية رغم أن النفوس

لا تقر الظلم ولا ترضى عنه وان كان صا درأ من أحب الناس وأقربهم . وأية ذلك أنهم تعاطفوا مع عبد الرحمن ككتباى أشد التعاطف حينما اطلق الاستاذ السبكي عليه اسم « احسان عبد القدوس » وشرعوا فى تدبير الوسائل للأخذ بالتأثر حتى سادت فيما بينهم حكمة الصقور وارتفعت رايات الحذر فى وجه بنود الانسياق وراء العواطف . ولكنهم لم يفكروا أبداً فى « مشروع » كهذا تجاه الشيخ . فهو عندهم محبوب أثير وان سامهم الخسف وخرق السفينة ( فغشيه من اليم ما غشيه ) . فهم قد ألقوا جميع تجاوزاته على اختلاف درجاتها وتباين اوقات انفجاراتها ، وكل ما يترتب عليها من رفع لادوام له أو خفض لاقيام بعده ، أو ترغيب بالمدح والاطراء ، أو ترهيب بالزجر والوعيد ، أو تلطيش « بالكفين اليمنى واليسرى فى تعاقب وايقاع ورتابة ، أو طرد من رحمة الله لوالد وما ولد « بالمفتشر » والقول الصريح . واذا كانوا قد تعاطفوا مع عوض الكريم فى المحنة التى حلت به وهو فى نظرهم برئ فان ذلك التعاطف انما كان وليد محبتهم لعوض الكريم ، وهو تعاطف مشروع من هذه الزاوية ولكنه لم يتعد حدود المواسة الأخوية ولم يسفر عما أسفر عنه تعاطفهم مع عبد الرحمن ككتباى من نوايا أجهضتها فى مهدها فطنة الصقور . وذلك لأن الشيخ له خصوصية عندهم ، ولذلك فهم قد ألقوه وألقوا طرائقه فى الحديث وغيره من ادوات المحاسبة . وصاروا يبصرون ما كان غائباً عنهم فى حسنات تمحو السيئات وما كان مكتناً فى تعابير الشيخ من كنوز موقرة بأسباب الترفيه وبواعى اجتثاث الضجر والرتابة والملل . فكانوا يرون فى تصرفات الشيخ ونوادره وحركاته المسرحية المرسله نون اصطناع أو عناء معيناً لا ينضب من الطرائف المسلية والغرائب المضحكة التى تصنع المرح وتبدع السرور . ويجدون فى مقولاته الموقرة بفنون السخرية العذبة والتندر الظريف مادة ثرة متنوعة الضروب والألوان . ويقفون عند مفرداتها الغريبة على أفانين من العجائب تملأ رؤوسهم بما هو مستطرف من كل فن مستطرف ، وتشحذ فيهم ملكات الخيال . فيتبادلون حديثها فى مجالسهم الخاصة ، ويضيفون إليها ما لم يكن منها مما تلهمهم بأشباهه

فبيتدعونها ابتداءً وينسبونها للشيخ وهو منها براء . فينطقونه بما لم يقل ويلصقون به ما ليس منه ويتجاسرون عليه من وراء ظهره تجاسر محاكاة وتقليد لا تجاسر ايداء وتجريح ، فيرددون ما كان يلقيه على مسامعهم وينعتهم به من نعوت ، يتراشقون به فيما بينهم وهم يضحكون مرحين فرحين مستأنسين بعيداً عن « أذان الحيطان » وأعين الرقباء . يشبعون بذلك غريزة العبث الطفولى البرئ ، ويتزودون لامسيات الأحياء السكنية بأمثال هذه الأقاويص المسلية التى يتعجب منها رفقاء مجالسهم من فتية الأحياء أشد العجب ويعتبرونها تجديداً رائعاً فى أدب « الونسة » ورواية الطرائف والأعاجيب .

وانا لست ادرى ان كان عوض الكريم يروى على فتية حيه طرفاً من نوادر الشيخ لانى رأيته لا يجارى تلاميذ المدرسة فيما كان يحسبه محاولة للتأثر من الشيخ والانتقام من وراء ظهره بما يخلعون عليه من أوصاف ونعوت ، وما هو فى حقيقته من ذلك بشئ . فقد كان عوض الكريم حريصاً على الأئنان لاساتذته من وراء ظهورهم بمكروه غير أنه كان يصغى إلى حديث زملائه حول الشيخ باهتمام ويرقب محاكاتهم لحركاته المتفردة الغريبة وهو يبسم راضياً قرير العين دون أن يضيف إلى ماياتون به شيئاً من عنده . وهم يعلمون أن ابتسامته الصامته توحى بالموافقة والباركة وربما بمعانى الاستزادة واطالة تمثيل الدور واتقانه حتى تبلغ التسلية مداها وحتى تعم الضحكات المرحة أرجاء المكان . ولكنه لا يشارك فيما يجرى امامه بحركة تؤخذ عليه أو تعليق ربما فشا وأذاع به الناس ، فلا يغمس لسانه فيما كانوا يخوضون فيه من شأن الشيخ أو غيره من الاساتذة حتى يخوضوا فى حديث غيره . وهذا دليل على عفة منلقة التى هى بعض خلانقه السمحة الملازمة . ولكن على الرغم من ذلك فان بعض الخبثاء قد لاحظوا أنه كان فى بعض الأحيان - ربما عن غير وعى منه ولا ارادة - يشير برأسه اشارات واضحة تدل على أنه يؤمن على ما يقال تأميناً ويستملح ما يرى امام عينيه استملاحاً . ولكنه لا يحمل فى قلبه ضغينه على الشيخ ويعف أن يذكره أو يذكر غيره

من الناس بسوء . لا يزكى نفسه ولا ينتقص الآخرين . قال بعضهم :  
وان أخصُّ النقص أن ينفى الفتى .<sup>١٠</sup> قذى النقص عنه بانتقاص الافاضل  
وما عبر الانسان عن فضل نفسه .<sup>١١</sup> بمثل اعتقاد الفضل فى كل فاضل

## الحوذى والهورس .. وجهان لشي واحد

من أصدقاء عوض الكريم الحاج عبد الرحيم . وهو من أبناء الشايقية الذين  
استقروا فى مدينة ام درمان . ولقد اطلق عليه محمد العوض اسم « الهورس » ، وهى  
كلمة انجليزية تعنى الحصان أو الفرس . وكان أحياناً يسميه « الحوذى » . ولست  
ادرى لماذا أطلق عليه محمد العوض هذا الاسم أو ذاك . وربما كان القصد من وراء  
اطلاق الاسمين أن يترك للحاج الحرية فى اختيار واحد منهما . أو ربما أراد محمد  
العوض أن يدع مجالاً لزملاء الحاج لكى ينادوه بالاسم الذى يناسب الظروف ويوافق  
واقع الحال المعين . لقد كان محمد العوض بارعاً فى تصميم الأسماء وابتداع الألقاب  
والكنيات . واسم « الهورس » يلائم الحاج عبد الرحيم ملاعبة تامة . فمن عبقرية محمد  
العوض أنه أطلق على أحد التلاميذ من غير فصلنا اسم بنكل ( Pinkle ) . وأخذ  
بعض التلاميذ يتهامسون من وراء ظهر هذا التلميذ باسمه الجديد حتى التصق به هذا  
الاسم التصاقاً وأصبح بالنسبة له واقعاً معاشاً ، وصار ذلك التلميذ يتأذى منه كثيراً  
ويود لو يدخل « البشارة » فى دماغ كل واحد من زملائه ليسح من سبورة مخه هذا  
الاسم الكريه الذى أشقاه طويلاً . وكانت حجة محمد العوض أن ذلك التلميذ سرق منه  
قطعة من الطعمية ، ودافع التلميذ المسكين عن نفسه قائلاً إنه لم يسرقها وإنما أخذها  
من أمام محمد العوض وتحت نظره وقد كان أمام محمد العوض وفى صحنه سبعة أو  
ثمانية قطع أخرى على حد قوله . ثم اعترف المسكين أنه بالفعل لم يستأنز محمداً  
وكان عليه أن يفعل . وقد لعب الحاج عبد الرحيم دوراً بارزاً فى محاولة الالتفاف من  
حول هذه الأزمة وتهدة الخواطر . وترجى محمد العوض كثيراً لكى ينزع عن التلميذ  
المسكين هذا الاسم القبيح . فكان لمحمد العوض شرطان على الموافقة . أولهما ان

يعوضه التلميذ على فقده . وأحسب أن المسكين تضوّر جوعاً في ذات يوم لبيتاع بقرش الفطور قطعة من الباسطة لحمد العوض تعويضاً مجزياً له وبديلاً عن ما فقد . ولكن ذلك لم يجد فتياً ، وإنما أصراً محمد العوض على شرطه الثاني ، وهو أن يحفظ التلميذ المسكين مقطوعة بنكل (Pinkle) ويطوف رحاب المدرسة وهو ينشدها على اسماع الناس بالصوت العالي . وهي انشودة طويلة في الريدر (Reader) أذكر منها :

Pinkle is a good- for- nothing man  
Pinkle steals every thing he can .  
Flowers from the garden ,  
Apples from the trees,  
Food from the cook house  
Pinkle steals everything he can .

الى اخر المقطوعة أو الأنشودة المخزية . وقد أصاخ المسكين لهذا الشرط وقبل به رجاء أن يخلص نفسه « وكرامته » من ريقة هذا الاسم المذل . وقد سارت من خلف المسكين زفة من العفاريت يرددون من ورائه ما يقول ، ومحمد العوض يضحك في سرور بالغ وقد شفى غيظه واعتاض عن قطعة الطعمية السلية أشتاتاً من المسرات . أما الحاج عبد الرحيم فقد كان رحيماً بحق وحقيق ، وذلك أنه ظل يهرول في اعقاب التلاميذ الذين تشكلت منهم « زفة » بنكل (Pinkle) طالباً منهم أن يغضوا من أصواتهم ويقللوا من الضحكات المؤذية والسخرية المؤلة ، في محاولة منه جادة وصادقة لوضع حد لهذا التشهير الذي ربما فات على التلميذ المسكين أنه هو نفسه كان أبرز الضالعين فيه وامام المتولين كبره وأنه جالب بنفسه على نفسه مرارة مغبته وسوء المنقلب . واخيراً أفلح الحاج بعد أن ترجى محمد العوض طويلاً وحصل على موافقته على انتهاء تلك المسرحية ووضع حد لفصول تلك المهزلة العبثية الملو درامية . وربما كان ذلك المشهد هو الذي أوحى لمحمد العوض باسم « الهورس » الذي أطلقه فيما بعد على

الحاج عبد الرحيم وربما كان الدافع غير ذلك ، وهو ما نرجحه . وعلى كل فقد دفع الحاج عبد الرحيم ثمن رحمته بذلك التلميذ المسكين وعطفه عليه اسماً لصق به هو نفسه وظل معروفاً به إلى أن تقضت عنا تلك الأيام الضاحكة المراحة في ام درمان الاميرية الوسطي .

لقد أجادت عبقرية محمد العوض بابتداعها هذا الاسم واطلاقه على الحاج عبد الرحيم . وعندى أن محمداً لم يقصد من وراء ذلك أى نوع من الكيد للحاج ولم يرم إلى أى نوع من الزيادة به أو الاستهزاء ، وانما كان يمدحه به . وآية ذلك أن الحاج عبد الرحيم تلميذ اسمر اللون سمرته اقرب للبياض منها لأى شئ آخر ، وهو لون بشرة جميل حقاً ، وهو ما تعارف عليه الناس بوصف « اللون الخمرى » تزكية له وتمييزاً له عن غيره بهذا الوصف الشعري . وكان شعر رأسه يبدو - عندما تتحسر عنه العمامة - ناعماً سيببياً فاحم السواد ، وهو دائماً حليق ما فوق الاذنين متناسق الأطراف مسبل فى نظام ورونق . وله عنق عسجدية اللون كأنها ابريق ذهب . وهى كاملة الاتساق مع الرأس والكتفين . وله عينان فيهما نجابة وبراءة وان لم تخلوا من كلف بالمكر دون مقدرة على بلوغ أقاصيه . فهو تلميذ حسن هيئة الجسم متناسق الأعضاء ، ليس به طول ولا قصر وهو أقرب إلى النحافة منه إلى الامتلاء والبدانة . وبكلمة واحدة ، إذا كان لابد للحاج عبد الرحيم أن يكون « هورساً » أو فرساً بارادة محمد العوض فهو من نجائب الأفراس خلقة وخلقاً . ومن عجب أن الحاج لم يبد أى نوع من الاعتراض على هذا الاسم الذى أطلقه عليه محمد العوض ولم يتأذ منه ولم ير فيه منقصة ولا عيباً يؤخذ عليه . وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أن محمد العوض انما اطلق عليه هذا الاسم من باب المدح دون غيره . فسارت به الركبان وعلم بأمره الاساتيد . ورغم أن الاسماء التى كان يبدعها محمد العوض ويلحقها بالتلاميذ تثير الضحك عليهم ويقابلونها بالمتكاري والانتكار ولا يملكون لها رداً ولا يجدون لها دعماً ، إلا أن الأمر كان يختلف اختلافاً كبيراً فى حالة الحاج عبد الرحيم . لم يكن التلاميذ

يتندرون عليه بهذا الاسم وانما صار فى حقه مدحاً وتقريضاً ، لانهم حملوه على معانى التعبير عن كرم خلقه وحسن سمته وخلقته .

غير أن الحاج عبد الرحيم - رغم ملائكيته التى تبو عليه ورغم هدوئه الذى اكسبه محبة الكثيرين وتبجيلهم - لم يكن فى حقيقته مسكيناً ، وإنما كان عفريتاً نشطاً لا تقل مواهبه وطاقاته ومقدراته فى هذا المجال عن أواسط العفاريت على أقل تقدير . فهو مهرجل فى الفصل من الطراز الأول ، إلا أن اسمه لم يكن يظهر فى قائمة المهرجلين كثيراً ، وليس لذلك من سبب سوى تعاطف الكبتل الألفة معه لاشتراكهما فى اسم « الحاج » . فقد رأينا الكبتل يحترمه كثيراً ويعامله برفق ومودة ، ويتدخل أحياناً لصالحه فى بعض الشجارات التى يحدثها أو تشتمل عليه . ولكن اختفاء اسم الحاج من قائمة المهرجلين فى الفصل لم يكن فى حد ذاته عاصماً له من سوط عم مبارك ولا من « طوطحانية » عم محمود وعم عبد العزيز . وذلك أن الحاج ما كان يأبه كثيراً بحفظ الكلمات الانجليزية ولا بالاتيان بها كتابة ونطقاً على وجه الكمال الذى يرضى عنه الاساتيد فكان ذلك سبباً من أسباب شقائه على يدي « منكر ونكير » - وقد علمت من هما - وعلى يدعم مبارك . ولكن الحاج كان يحتمل الأذى بثبات فلا ينفجر صارخاً كما يفعل البعض ، لأنه يعلم جيداً أن العويل لا يجدى وأن ماكتب عليك من السياط فانت ملاقيه لا محالة سواء أجزعت أم صبرت ، وأن ما نقص من « رزقك » هنا فتمامه عند عم مبارك ان كنت من الموقنين . وقد كان للحاج - كما كان لغيره - قناعات كروية ولكنه لم يكن مشتتاً فيها ولم يكن مكابراً فيها بل هو يلزم فى التعبير عنها والاحتفال بها حدود الروية ويصطنع فى التلبس بها مناقب المرونة وحكمة التغافل .. وقد نفعه هذا التروى وهذا الاتزان فى تعامله مع الجميع ، وبخاصة فى علاقاته مع الصقور . فهو لا يهتف بمشاعره الهلالية هتاف الغر الأخرق وانما يضمها إضماراً هو أقرب للبوح والاظهار الهادئ ، ويعلن عن تعاطفه مع المورداً اعلاناً هو أشبه بالهمس منه بالجهر الجهير ، ويوثر الأيخوض فى أمر المريخ بزم ولا تقريض . وتلك فلسفة أفاعها عليه

نكاؤه المميز للملاح وحسه الامنى الواعى . وذلك أنه محاذر فطن بصير بالعواقب ،  
وتقع داره فى حى يظلمه نفوذ الهلالاب والمورداب على السواء . ولكن ذلك الأمر لا يعنيه  
كثيراً من زاوية المعنى الجغرافي وتدايعيات تبعاته ، إنما الذى يعنيه ويرقى عنده إلى  
مرتبة الأهمية هو أن يتعايش فى المدرسة مع صقور الشيعتين بميزان دقيق . فان  
ضمن السلامة وأقلت من بين هذين الفكين معافى دون أن يطبق عليه أى منهما فقد فاز  
وربحت تجارته ، فهو لا يعبأ كثيراً بمجموعة الفاضل شريف وعز الدين عباس وعلى  
محمود طه ومن لف لفهم . وربما كان ذلك التحسب والتحرز من نعمى نكاء الشايقية  
عموماً ، ولكن الحاج عبد الرحيم أبان عن نكاء فطرى أصيل خاص به لمواجهة مثل هذه  
المواقف الحرجة والخروج من منعطفاتها ومضائقها المعقدة بسلام وأمن وطمأنينة .  
ولعله ألى على نفسه أن يوظف نكاه الفطرى توظيفاً كاملاً مرناً للتعامل مع هذه  
الامور الصعبة واختيار أقرب السبل وأمهدها وأيسرها إلى النجاة من عقابيل  
تعقيداتها ، ثم ترك لنفسه حرية التعامل بما تراه مناسباً فى اللحظة المعينة مع الدروس  
والأساتيد . فكان يصيب حيناً فى هذا المضمار وتنويه هذه الحرية أحياناً . وفى هذا  
المنهج شئ من الحكمة لا يخفى . لأن الجلد على الأخطاء فى الدروس أو خرق تعاليم  
النظام السائد - سواء كان ذلك على « طوطحانية » عم محمود وعم عبد العزيز وعم  
جادين أو على يد عم مبارك - إنما هو عقاب نظامى محتمل ، ويمكن درء مخاطر الآمه  
بنبوءة صادقة لا يتعذر أمرها على الحاج ، وينجم عنها اتخاذ اللبد الواقية التى  
لايلحظها الاستاذ ولا قارع الأجراس ، وهى تنبئ عن حقيقتها بتلك « الفرطقة » أو  
الفرقة أو سمها ماشئت التى تترتب على إنزال السوط على العقب ، وقد تعودت عليها  
الأذان حتى حسب البعض من منفذى العقاب أن الأصل فى تلميز ذلك الفصل وتلك  
الحقب هو لبس سراويل من « الطرور » ! وعلى كل فالأمر محتمل ويزول أثره بزوال  
الأسباب ، وليست له نتائج جسدية متأخرة . أما « البنية » « والشلوت » « وام  
لدوم » التى يمكن أن تصاب منها بشئ كثير فى أى شجار مبعثه المنازعات العقائدية



الكروية فانها تباريح قد تمتد أثارها إلى وقت طويل ، وربما أحدثت خدوشاً وأوراماً وكسوراً يشقى بها الانسان طويلاً ولا يبرأ من عقابيلها تماماً إلا بمشقة وعناء » وكشف حال « ، ولقد رأى الحاج عبد الرحيم بعيني رأسه كيف تلقى أحد تلاميذ فصل من الفصول الأخرى سلسلة من « اللبعات » « والشلايت » على أثر شجار تافه الأسباب ، فانتهى به الأمر إلى المستشفى وقد كسرت ترقوته اليسرى . وقد كنا نحسب أن كسر الترقوة هو أقرب شئ للاعدام شنعاً حتى الموت ، وذلك لقرب الترقوة من الرقبة ويوشك كسر الأولى أن يفضى الى كسر الثانية ! ولكن الكبتل - فى تحليله لمضاعفات مأساة ذلك التلميذ - أفتى بسفه هذا الزعم الذى صرنا إليه ، وأكدنا أن الترقوة اليسرى أقرب للقلب من الرقبة ، وأن من انكسرت ترقوته اليسرى - وفى رواية اليمنى أيضاً - ربما توقف قلبه أو عطب عطباً لن يزال به حتى يهلكه ! فزاد ذلك من ثقة الحاج عبد الرحيم بفلسفته التى أوحاها اليه نكاؤه الفطرى ، فركن اليها تماماً وتشبث بها - لا يغادرها - هادياً ومرشداً . فكان يرى فى كل « شكلة » من « الشكلات » التى تنشب بين التلاميذ نذيراً بكسر الترقوة ومن ثم بعطب القلب إن لم يكن بتوقفه فى الحال ومفارقة صاحبه للحياة . فهل يلام الحاج بعد ذلك على تمسكه بأنجى الخيارات وأمن السبل ؟ إن لم تصدقونى فليقل لى من يحسن التذكر ماذا كان مذهب الحاج الكروى حقيقة ؟ أما أنا فانى أذكر أنه كان متمذهباً بالمذاهب الكروية الثلاث كلها فى وقت واحد . فهو هللابى سرراً وعلناً ، وموردابى علناً وسراً ومريخابى فوق السر ودون العلن .. من قناعاته الراكزة التسليم بديالكتيك الأشياء وبأن التغير والتبدل سمة الحياة وأن لكل مقام حال . وللسر والعلن عند الحاج مواصفات خاصة وهى درجات ، وقد يتقدم السر على العلن فى بعض الأوقات وقد يتأخر عنه فى بعضها الآخر ، وتختلف درجة كل منهما باختلاف الظروف وطبيعة جمهور المستمعين ، وقد يغيب كلاهما تماماً ان دعا داعى الحيطة ، فيصعب التصنيف ويتعذر فهم حقيقة الانتساب والهوية ! وتلك مقدرة أوتيتها الحاج عبد الرحيم ولم يؤتها غيره ، فقد كانت ثمرة لذكائه الفطرى المتفرد

وأما صديقه الذى أعجب بفلسفته الراححة هذه فهو عوض الكريم عبد الجليل . وقد حام عوض الكريم حول هذه الفلسفة الصائبة كثيراً ، ولكنه - رغم نبوغه فى ميدان الدروس والتحصيل - لم يأت بها ولا بمثلها ، والله أعلم .

لقد عرف الحاج بالهورس لأنه وسيم رائع المظهر بسأم نشط ملئ بالحيوية وقد سار عليه هذا الاسم أكثر من سواء وناسبه واتصل به اتصالاً . وسمى بالحوذى لأنه ذكى خبير برياضه العصيات من الامور ، وهو التلميذ الوحيد الذى حير محمد العوض فاختر له اسمين أو لقبين حتى صار هذان الاسمان وجهين « لشيء » واحد . وهذا من دقة محمد العوض ان قد اتى بأحدهما وهو لفظ أعجمى معرفاً بالالف واللام ، وأرسل الثانى - وهو لفظ عربى فصيح - دون تحوير أو تبديل . ولو أنه عرب الأول ، لما خفى عليك هذا التناقض بين معنى الكلمتين فان فى هذا الخفاء جمالاً يدعو الى التأمل واستشفاف المقاصد الكامنة فيه . وقد كان فى الحاج عبد الرحيم جمال متنوع الأسباب والسماط .

## دَمْشَقُ نَمْرَةَ اَنْبِيَنِ :

كان على محمود طه محمد طه من التلاميذ القلائل الذين لحقوا بنا فى فصل التوانى بأخرة . وكانت داره قريبة من المدرسة ، فهى فى « الحى الامامى ، جوار الاسبثالية » . وهو تلميذ انيق المظهر يميل إلى الطول والنحافة . يأتى إلى المدرسة سيراً على قدميه فى كل صباح ويعود إلى أهله بعد انتهاء اليوم الدراسى مشياً على القدمين أيضاً . وما كان ذلك لتعسر الأسباب وانما لقرب داره من المدرسة . وهو يختلف كثيراً عن شقيقه الأكبر « دمشق » - بفتح حرف الدال وسكون حرف الميم وفتح حرف الشين ثم سكون حرف القاف . وهى الطريقة التى كان ينطق بها شقيقه الأكبر اسم العاصمة السورية . ولعله لم يسمع بها من قبل وانما قرأها فلحن وصحف ، فأسماه زملاؤه بهذا الاسم جزاء وفاقاً له على هذا اللحن المشين ، وقد كان هو فى فصل متقدم علينا . وذاع هذا الاسم بين الناس ذيوماً ، وانتشر خبره انتشاراً ، وكان أول من حمل إلينا نبأه وأفشاه

بين أولاد فصلنا هو محمد العوض مصطفى دون غيره ، ثم هو أطلقه على علي محمود طه وميزه باضافة « نمره اثنين » ، هو يعلم أن علياً كان بريئاً من هذا التحريف أو التصحيف الذى أحدثه أخوه الأكبر على اسم العاصمة السورية . ولكن محمد العوض كان مولعاً بالهزل وابتكار الاسماء أو تحوير ما ابتكره غيره منها حتى يلائم به مسماه ، وهو يضحك حتى على نفسه ان لم يجد أحداً يضحك عليه . ولما ضاق على ذرعاً بهذا الاسم الذى الحق به « لا ايدو ولا كراعو » كما كان يقول عز الدين عباس من فرط عطفه عليه ، سألتى عن لقب محمد العوض ان كان له لقب حتى يعرفه ويردعه به . فقلت له - بعد أن اقسم لى أنه لن يخبر محمداً بأمرى أو بالمصدر - إن لقب محمد العوض هو « أبو العبيد » . فصار يدعوه به علناً بين الناس ، يريد بذلك أن يرد الصاع صاعين . ولكن خاب فآله لأن محمد العوض استقبل ذلك اللقب أو الاسم أو الكنية ضاحكاً « مقررراً » وكأنه نودى بالسيادة على الناس ، وقابله بكل علامات ومعانى الرضا والسماحة . وبهذه المناسبة فان « القرقره » هنا هى مرحلة من مراحل الضحك ، ولاصلة لها بأصل كلمة « قرقرور » التى تم ابتداعها فى عصور تلت عصورنا تلك بأزمان . ومهما يكن من أمر فان محمد العوض عمرابى معروف الأرومة ، ولون بشرته هو الذى يطلق عليه أهل السودان كلمة « الزرقة » وهم يزعمون أن العرب كانوا يطلقونها على الفحول من أبنائهم ، وهى توحى لهم بطائفة من القيم والخصال المحموده . ولعل محمد العوض كان يدرك ذلك ويفقه أسراره وأصوله ، ولعله كان بطبعه لا يستجيب لأى نوع من الاستفزاز « والمطاعنة » ، وأية ذلك أنه لم يرتدع وإنما تهادى وأوغل فى الضحك كلما دعاه على بهذا اللقب . ومجمل القول ان علياً لم يفلح فى استثارة غضب محمد العوض ، بل إن محمداً كان إذا أراد أن يوهمه بأنه قد ألق عن مكابده ابترده سائلاً : « يا على ياخى وبين أخونا دَمَشَقُ نمره واحد » ؟ وهو يعنى بالطبع أن هناك « دَمَشَقاً » « نمره اثنين » ، ولن يكون هذا غير عليّ نفسه ! ولما رأيت أن علياً قد شقى كثيراً بمكابدات محمد العوض وهزئه الذى لا ينقطع ولا يفتر ،

واسيته أطيّب مواساة ثم نصحته بأن يصبر ويحتسب ، وأن الخير فى أن يرضى بما قسمه الله له من شرور لسان محمد ، وأن « أبا العبيد » قادر على تبديد المخاطر عن نفسه بموهبته البصيرة باصطناع الهزل ومقدرته الفائقة على اشاعة هذا الهزل والضحك بين الناس . فذلك ينسيهم أن له اسماً غير اسمه الذى سماه به أبواه وعرف به بين الملأ ، وانه صاحب قدرات خارقة على الصاق اى اسم أو نعت أو كنية أو لقب بأى واحدنا . وكلما تصاعد استنكارنا لهذه التسمية المبتدعة كلما أوغل محمد فى غيه وكلما ازداد الاسم الجديد رسوخاً فى أذهان التلاميذ ، فنسوا أو تناسوا . عن عمد أو غير عمد - اسمك الحقيقى الذى خلعه عليك والداك يوم أن قدمت إلى هذه الحياة من وراء ظلمات ثلاث . ولما أصاخ على لنصحى « وسدّ هذه بطينة وهذه بعجينة » فى وجه هذا البلاء « الدّمثقى » ، تراخى اصرار التلاميذ على مغامرته بهذا لاسم الذى طالما أكرهه التصاقه به ، وتراخى حتى محمد العوض نفسه عن مناداته به والتعكير به عليه ، وان كان قد اكتفى بترقيمه دون زيادات ، فصار يصيح ضاحكاً فى وجهه كلما لقيه : « أهلاً يا نمرّة اثنين ! وحتى هذه عندما صبر عليها على محمود طه وادعى الاستهانة بأمرها ادعاءً وأظهر عدم المبالاة بها تجملاً واصطباراً فانها أخذت تتباعد عنه وقل من يراشقه بها ، حتى نسيناها وكدنا ننسى معها أن له أخا يسبقنا فى أعوام العمر والدراسة يبلغ حجم جسمه ضعف حجم علىّ ويزيد لا يحسن ينطق اسم العاصمة السورية وانما يحرفه تحريفاً ويبدله تبديلاً .

ولقد فات على على محمود طه - وما كنت لأذكره وان كنت متذكراً وذلك خشية على نفسى من مغبة مثل هذا التذكير - أن مثل هذا التحريف أو التصحيف فى نطق أسماء البلدان والعواصم والأقطار لم يكن وقفاً على شقيقه الاكبر ، وإنما اشتهر به فى فصلنا من قبل محجوب حسن سعيد الذى جعل لمصر اسماً باللغة الانجليزية لم يسمع به أو يقف عليه إبن بطوطة ، ولن تجد له شبيهاً يقاربه فى معجم البلدان حتى ولو قرأت المسعودى والبلاذرى والمقرئزى وابن خلدون . ولكن من منا يستطيع الاقتراب من عرين

الاسد إلا أن يقول له : ياسيد الغابة ما أعظم سلطانك وما أصحّ نطقك وبيانك ! وما أذكى جناك وأفصح لسانك ! ولعل هذه هي قاعدة السلوك المرتضاة عند البشر منذ بدء الخليقة ، الامن عصم الله واجتنبى ، وقليل ما هم . فعامة الناس ينصاعون للقوة وشدة البأس وان لم يكنوا لها احتراماً فى اعماقهم . وتستهوهم وتشوقهم وتأسرهم مواقع الغنى واليسار ورغد العيش ، وان انكروا فى دخالهم مصادرها ومقتوا فى سرائرهم أصولها ومنابعها واستقبحوا واسترذلوها فى قرارة أنفسهم نذالة الطرائق والوسائل التى ربما اتخذت لبلوغها والتعلق بأسبابها وأهدافها . فهم يحرصون على التقرب من هذه المواقع وان لم يصبهم من نعيمها قطرة ويتدافعون الى التمسح بهذه الأعتاب وأن تنلهم من أى دهقان بها نظرة . فهم ييغون مالا ينالون ويؤملون مالا يدركون ، ويزهقون فى سبيل ذلك أعز ما يملكون . هذه هى طبائع البشر ، وهى بالقطع وليدة الجهل ، وأن بلغ المتطبع بهال أقصى غايات التعليم النظامى . ألم تسمع قول الله تعالى و هو أصدق القائلين : ( ولكن اكثر الناس لا يعلمون ) ؟ وكيف أن هذا القول يتكرر لفظاً ومعنى فى القرآن الكريم فى شتى المواضع والآى ؟

ولكن مالنا ولكل هذا ؟ فلا ندعه يحرقنا عما نحن فيه . محجوب حسن سعيد تلميذ مسكين وطيب القلب . ولكن قبضته الفولاذية « وينيته » التى لا تخطئ الفك وان سلمت منها العينان والأنف والبطن ، أبعدت عنه كثيراً من الشرور التى حاقت بغيره ممن لم يرزقهم الله مثل هذه البسطة . ومن هؤلاء على محمود طه . غير أن الله لا يظلم الناس ( ولكن الناس انفسهم يظلمون ) فان كان على لم يؤت بسطة فى الجسم فقد أوتى سعة فى البال ، وربما فى المال . فكان تلميذاً رضيعاً دائم الابتسام ، كريماً جواداً لا يعرف الشح ولا يآلف الخصام ، ولذلك أحبه زملاؤه وأعزوه ووقروه . ولعل ذلك هو السر فى تغاضى محمد العوض عن محاولات على اللئار لنفسه ، وفى تراخيه عن التشدد فى « الدمشقة » التى ألحقها به ظلماً وعدواناً ، وان كان محمد العوض من الحصافة والفتنة بحيث احتفظ له بلقبه الترقيمى « نمره اثنين » لفترة ليست بالقصيرة

لاحباً في اي نوع من أنواع الابتزاز - ولكن ابقاء له تحت سلطان الاسار الفضفاض الذي يتيسر معه احكام القبضه في اي وقت إن دعا الداعي أو أحدث علي «فرنبه» يخشي منها محمد علي وقوع اضطراب في ميزان الامور ! وذلك لأن ميزان الامور في نظر محمد دقيق وحساس لأن لسان محمد لم يدع أحداً الا ونال منه ، وهو لا يأمن أن ينقلب عليه ضحاياه في يوم من الأيام وعندها ربما يعدم النصير ويصبح عرضة لسهام الانتقام . وهو قد انتهج هذه التحولات مع جميع الذين مسهم بميسمه الساخر «وشال حسهم» بين الملأ ، فهو عراف المدرسة ونجم ابتداع الاسماء والالاقاب والكنيات ، ولكنه عليم بأسرار المرونة وصحائح الامور فيما يتعلق باستخدام هذه المرونة في الأويقات التي تصبح فيها سلاحا ماضيا موفورالمضاء . ولقد عجز علي محمود طه محمد طه عن استثارته واخراجه عن مكين لباقتة التي هو مستعصم بها لا تفارقه كما عجز عن الافلات من قبضته التي كان يحسن احكامها عندما يريد وبراخي منها هونا ان هي اشتدت وأحدثت ما لا يريد ولكنه لا يدعك تنجو منها ابداً فيصبح حالك مثل حال ابي الطيب اذ يقول عن نفسه :

فأمسك لايطال له فيرعي \*\* ولا هو في العليق ولا اللجام

ولكن عليا استسلم في النهاية لما لا منجاة منه ورضي بلقب «نمرة اتنين» وان قل لجوء محمد لمناداته به . وذلك لأنه صاحب روح سمحة ، وهو قد حزن لما لحق بشقيقه الأكبر ولعله نصحه بالتفاضي عن تعليقات التلاميذ وتناسيها. غير ان دمشق نمرة واحد لم يكن في حوجة لهذه النصائح فله من بسطة جسمه خير رادع لكل من تسول له نفسه الافراط في مغامرته واستدراجه لأن يكون اضحوكة بين الناس . ولما كان علي يفتقر الي بسطة الجسم التي يتمتع بها شقيقه ، فإن الله الذي لا يضيع احداً من خلقه قد حباه بسطة في رقة المشاعر ودواعي القبول عند الناس فهو صديق عزيز لكل من عزالدين عباس وعاكف ياسين لصيق بهما . وهو مثلهما انيق الملبس والمظهر والحديث ولكنه أشد منهما مراحاً وأكثر منهما جرأة وأوسع صلوات بالناس .

ورغم أن الصقور عموماً وصقور فصلنا على وجه الخصوص قد انتبهوا بأخرة إلى بأس شقيقه الأكبر وأيقنوا بقدراته الجسمانية الهائلة . إلا أنهم من قبل ذلك لم يجدوا فى على ما يصددهم عنه ولا ما يزهدهم فيه بل اعجبهم فيه جميع حاله ولذلك فهو عندهم من المقبولين لأكثر من سبب ، وعند بعضهم من الاصفياء لمجموعة اعتبارات . فيجانب الاسباب السالفة الذكر فان علياً هلالياً وهو أكثر تشيعاً لفريق الهلال من عز الدين وربما كان أشد ولعاً بالهلال من عاكف ياسين ومن هم أشد عاطفة فى هذا المضمار . وهو كذلك جارٍ لمحجوب حسن سعيد لا تبعد داره عن دار محجوب فى حى الاستبالية إلا خطوات قليلة . ومن كان جاراً لمحجوب فهو آمن . ومن كان آمناً عند محجوب فهو آمن عند كافة الصقور على نطاق المؤسسة التعليمية بأسرها ، وقد كان الصقور من قبل أن تتوفر لهم هذه المعلومات الهامة عن على فى حيرة من أمرهم تجاهه . منهم من يشك فى حقيقة تشييعه لفريق الهلال وصدق ذلك ، ومنهم من يرى أنه ضعيف البنية لا يؤييه بأمره ، ومنهم من يرى أنه يغالى فى أناقة المظهر وأن مثله لا يحسن الضراب ، ومنهم من ظن فيه تحفظاً تجاه الموسيقى البرجلية ، وأن من كانت هذه شيمته فلن يؤمن جانبه ، إلى غير ذلك من الظنون التى لم تكن تنبنى على اساس متين يمكن من اتخاذ الموقف المناسب . لكن حيرتهم لم تطل كثيراً ، فقد تبين لهم أن علياً صاحب مزايا عديدة ، ولذلك تغيرت نظرتهم إليه تغيراً جذرياً وصار عبد الكريم يهتم بأمره ابلغ اهتمام ، الأمر الذى ربما كان من آثاره الواضحة تلك « الصحبة » التى نمت بين دمشق نمرة واحد شقيق على والطيب الزعيم شقيق عبد الكريم الذين كانا فى دفعة واحدة . فانظر كيف يتداعى اسباب الإلفة والرضا بين الناس وكيف تمتد آثارها بين ظهرا نيهم ! .

لقد كان على محمود تلميذاً يمتاز بالظرف والشفافية وكان فيه تواضع أسر ، ونجدة ومروءة . لم أسمع مرة واحدة يباهى بأى بطولات طرماجية . وهو لم يدع لحيه أى قندف من القنادف رغم استماعه الدؤوب لقصص « بلة الأحمرانى » وكبس الجبة «

« واللبخ » و« شمشون » وكافة أبطال البنية والشلاليت والروسية التي تهمد ضحاياها في لحظات وجيزة . ولعله اكتفى من امثال هذه القنفذة واشباه هذه البطولات بشقيقه الاكبر دمشق نمرة واحد وجاره المشهود له بشدة الباس محجوب حسن سعيد . فهما لبخان وكبسان وشمشونان في طور التكوين . ولعل ظرف على محمود وشفافية روحه وتواضعه الأصيل هي التي حببت فيه زملاءه واكسبته احترامهم وهي الصفات التي كان يغليها فيه عز الدين عباس وعاكف ياسين ومحمد عبدالله الشيخ بشكل خاص . وأما نجدته ومروءته وشهامته فقد كانت صفات كامنة فيه قل أن يطلع على حقيقتها إلا من كان لصيقاً به . وقد رأيت فيه مايدل على هذه المزايا اكثر من مرة ولم اجد لها اصداء واسعة بين الناس . ولكنى بعد اعوام طوال تحققت يقيناً مما كان يلوح لي من هذه السجايا في تعامله مع الناس . فقد حدث أن تعطلت سيارتي - كما كانت تفعل دائماً - وأنا رئيس لاقسام الجراحة في مستشفى ام درمان التعليمي . فخف إلى نجدتي بعض المارة حتى عادت الى سيارتي الحياة بعد « دفرة » حاسمة من أيدي بعض ذوى المروءات . وعندما نزلت عنها لأشكرهم على كرمهم ونجدتهم كان آخر من مددت يدي له شاكراً منهم هو على محمود بعينه ، فصافحني وهو يبتسم في تواضعه الذي عرفته فيه منذ أزمان طوال . ولم اجد صعوبة في التعرف عليه ولم يجد هو صعوبة في التعرف على . وطال بيننا العناق والحديث واللبث في احداث الماضي السعيد البعيد ، كلانا مشوق ينشد في دخيلته :

أبنى أبيننا نحن أهل منازل ، . . أبدأ غراب البين فيها ينقع

نبكى على الدنيا وما من معشر . . جمعتهم الدنيا ولم ينفروا

### **ابراهيم الأمين وزير الحديد :**

كان ابراهيم الامين تلميذاً ربعة متميزاً بقوة جسم ظاهرة ينبئ عنها ساعدان مفتولان ورجلان ممثلتان بأسهما شديد . ولكنه لم يكن في طول قامته بحيث يمكن أن ينسب إلى فصيل العمالقة ، وان كان يبدو أن بعضاً من طوله جسمه قد ذهب واستنفذ في صياغة وبناء عرضه ، فاتسع وقارب الطول . ويدا ابراهيم للناظر اليه وهو أقرب



إلى الاستدارة منه إلى ما سواها . ولم تكن تقاطيع وجه ابراهيم توحى بمثل جبروت العمالقة ، ولكنها كانت توحى ببعض صرامة هونت من أمرها علينا وداعة طبعه ودمائة خلقه ورقة مزاجه السمع المسالم . فهو لم يكن مولعاً بأحداث الشجارات وابقاد نيرانها ، ولكنه كان قليل النكوص عنها إن هي داهمته على حين غرة منه أو باغته وهو لاه عنها ومعرض . فاذا كان ذلك فانه يتصدى لها بجنان ثابت وساعدين مدربين مقتدرين وقدمين قصيرتين ولكنهما ما حقتان إن صوبتا أصابت كل منها مقتلاً لا تخطئ ولا تنبو . لقد اثبتت قوة جسمه جنواها في مثل هذه الظروف إثباتاً شهد له به الناس فآثروا التعامل معه بالأحاسيس والعواطف ، بعيداً عن هذه الجوارح التي خيروا معنى التعامل معها من مواقع الخصام . فان جنحوا للسلم جنح لها ابراهيم راضياً سعيداً بها لأن ربه الذى وهبه امضى أدوات الردع ووسائله متمثلة في زندين واريين وقبضتين هامصرتين ورأساً مصفحاً ورجلين من زبر الحديد ، هو الذى وهبه أيضاً قلباً حانياً وروحاً مسالمة ونفساً مترعة بأرق العواطف و أنبل الأحاسيس . عرف زملاؤه فيه كل هذه المواهب الخلقية والخلقية ، فهدتهم الحكمة وقادهم الفكر الراشد إلى اختيار التعامل مع أيسرها وأقربها إلى مواطن السلامة والعافية . ولذلك كان لجوء ابراهيم إلى استثمار مواهبه الخلقية البدنية نادراً لأن تجاوز الخطوط الحمراء فى التعامل معه من قبل التلاميذ كان أمراً نادر الحدوث . وعندما تأمر المتآمرون فى ذات مرة على الايقاع بالاستاذ السبكي لاطلاقه اسم احسان عبد القدوس على عبد الرحمن ككتباى ، كان تعويلهم الاساسى الذى بنوا عليه نجاح خطتهم على قوات الردع الجسدية المتميزة التى وضعت كلاً من ابراهيم الأمين ومحجوب حسن سعيد فى مقدمة من أنيط بهم تنفيذ هذه المهمة على أكمل الوجوه وأسرعها وأشفاها للغيظ والموجدة. ولم يبد ابراهيم ساعتها ما يلحق به تهمة الخروج على الاجماع . ولكن عندما أبان الصقور حقيقة المخاطر وارودوا الحجج المقنعة وانتهى الأمر بصرف النظر عن هذه المغامرة الواعدة بأوخم العواقب أرضى ذلك ابراهيم كل الرضا وأتلى صدره ورفع عن

كاهله الهموم ، لأنه كان تلميذاً وديعاً مسالماً فى الأصل وان أوتى فى جسده مقدرات نى القرنين حتى إذا دفع للشر دفعاً لم يتهيبه وانما استعد له استعداداً وأتبع سبباً ثم أتبع سبباً .

ولعلّ بلاء ابراهيم الأكبر فيما يتعلق باستخدام المواهب الجسدية كان مع كمسارى الطرماج وخاصة عندما يكون مع الكمسارى مفتش يحصى على الناس انقاسهم ويلح على ابراز التذاكر لا يستثنى من ذلك أحداً من الركاب . ففى مثل هذه الحالات تسعف ابراهيم قواه العضلية ، لا على مواجهة الكمسارى والمفتش والاقتيال معهما فذلك أمر لا يفكر فيه عاقل ، ولكن على إتقان فنون الزوعان والافلات من سطوة القبضة الطرماجية ، التى قد تعنى مصيراً بالغ الخطورة . لقد كان ابراهيم يأتى إلى المدرسة مع عبد الرحمن اللدر - الذى كان يتقدمنا بسنة دراسية - من جهات « علايل اب روف والمزالق » ، أو بتعبير أدق من ود اللدر . ولقد علمنا من قصص إبراهيم الذى كان يسرده علينا أن مغازيه فى الطرماج كانت أفانين وضروباً وأن بطولاته فى الزوغان من الكمسارى ومن مطاردة مفتش التذاكر من مركبة إلى مركبة إنما كان الفضل فيها يرجع إلى قوة ساعديه وصلابة رجليه ومتانة قدميه وشدتها ومقدرتها على التحرك السريع الذى يجعل دائماً بينه وبين المطاردين بوناً شاسعاً من الأمان ، فهو ينتقل من موقع إلى موقع بسرعة القردة وثبات النمر ! فان ضاق عليه مجال التحرك وأوشك الكمسارى او المفتش ، أو أى شخص آخر من « متلقين الحجج » أن يمسك بطرف جلبابه قفز ابراهيم إلى الأرض كباذ يضم جناحيه ليهبط سليماً من شواهِق الأجواء إلى قمة صخرة أو سفح جبل أو مجاهل وادٍ سحيق . وذلك أن الكمسارى وخاصة إذا كان من ورائه مفتش التذاكر - إذا طاردك من مركبة إلى مركبة أخرى من مراكب الطرماج ثم ضيق عليك الخناق فان امامك خيارين لاثالث لهما ، لأن مجال الحركة محدود ، ولأن جسمك كتلميذ صغير لا يواتيك بالمقدرات المطلوبة ولا يسعفك بالثبات على هذه الحركات البهلوانية الاكروباتيه ومتابعتها طويلاً . فخيارك الأول هو أن تدفع

ثمن التذكرة ، وربما حرمك هذا الاجراء من فطور عم محمدين أو على الأقل من تناول البساطة . ولما كان الكمسارى والمفتش لا يطلعان كثيراً علي الصحاح وامهات كتب الفقه والحديث فانهما لا يعرفان فضل الظهر ، ولا يدينان بفضيلة حمل من لا يجدون ما ينفقون على ظهر هذه الدابة المعلونة التي ابتدعوا لركوبها تذاكر تجبى بها دريهمات الناس وقروشهم ، ويطارد من يعجز عن الوفاء بحقوق هذه الجباية حتى لا يجد مخرجاً ولا يسعه إلا أن « يتلب » والمركبة المجنونة تعوى كالريح العاصفة تطحن القضبان طحناً . ولذلك فان الخيار الثاني هو أن تهبط إلى الأرض ليس لك غيره من محيص . وغالباً ما يضطرك الكمسارى أو المفتش - أوهما معاً - لهذه المخاطرة ، وقد يحرضان على دفعك اليها والطرماج يلهب من فرط سرعته قضبان الحديد وتقذح « بكاراته » الحمم من أسلاك الكهرباء الممتدة بين اعمدة تطل اعاليها على سقوف المنازل . وتلك سرعة يعنى الهبوط الى الأرض خلالها ارتطاما مؤلماً « بالحصاحص » أو شارع الظلظ وقد يقود - فى أحسن الحالات وأسلمها وأنجاها - إلى « سف التراب » واحتشاد المنخرين باديمه وحصاه . وربما صار الأمر إلى « بهدلة » أدناها تناثر محتويات الشنطة من كتب وكراسات وأقلام ، وأوسطها كدمات وخربشات وظلطات وجراحات تورث الألم وتفرخ الأنين ، والى اتساخ الملابس وتعفر الجبهة والوجه والأيدى بالتراب والأوضار والأوشاب . ثم إذا أنت جئت إلى طاير الصباح فى المدرسة على تلك الهيئة المزرية فان أقل ما ينتهى إليه امرك هو تصفية الحساب مع عم مبارك فى نهاية اليوم الدراسى . هذا هو الشأن عموماً فيما يختص بالتلاميذ العاديين واواسط الناس . أما ابراهيم الأمين فانه كان - فيما يروى لنا من هذا القصص الطرماجى - حصيفاً كامل الحصافة فى كل أمره . فهو قادر على تمكين قدميه من الثبات المؤقت فى أى موضع حتى ولو كان ذلك الموضع هو حافة السلم أو مؤخرة ظهر الطرماج ! ثم إذا احيط به من كل جانب وضافت عليه المركبات والسلاالم والمؤخرة التى تشبه « باكم » القطار ، فانه قد تدرب على الهبوط الى الأرض سالماً كما يهبط رجال المظلات . ولقد وجد ابراهيم

منا تصديقاً لهذه المزاعم لأننا كنا على علم بأنه من القلائل الذين يجيدون النزول عكس حتى فى « كشة الكلية » والكلية هذه لم تكن سوى مدرستنا ذاتها - ام درمان الاميرية الوسطى - مضافاً اليها مدرسة التجارة وهى مدرسة ثانوية صغرى .

وأنا لست أدرى ان كان عبد الرحمن اللدر - وهو رفيق درب ابراهيم الامين وأخوه الأكبر - يحسن مثل هذا النزول العكس من الطرماج أثناء هذه « الكشات » التى تصيب رأس الانسان بالدوار وتمضه بالغثيان والصمم . ولكنى أرجح أنه لم يكن يحسن ذلك ، لأنه لم يؤت متانة جسم ابراهيم وافتتال ساعديه وصلابة قدميه ، وان تشابهها فى الوداعة وحسن الخلق . ورغم بلاء ابراهيم الامين المظفر فى العوالم الطرماجية وتأكيدده لنا أنه من القلة الذين لايشق لهم غبار فى أشباه هذه الملاحم والمطاردات الا أننا لم نقف على أثر لهذه المواهب حينما يتعلق الأمر بمجالدة الكروب التى تأتينا أحياناً من قبل المدرسين . فهو لم ينج ولم تغن عنه مواهبه الكثر التى « فلق » رؤوسنا بها روايات وحكايا من نكير بعض الاساتذة ، وفى مقدمتهم الشيخ ابو بكر عبدالله بالطبع . فلقد عانى منه ابراهيم الأمرين . ولو علم الشيخ صلة ابراهيم الامين بعبد الرحمن اللدر لَرَقَّ له قلبه ورحمه ، لأن الشيخ كما علمنا كان معجباً بعبد الرحمن اللدر حتى أنه كان يسمى الدرجة القصوى التى وجود بها على النايفين من تلامذته « نمره لدرية » امتداحاً لها وتمييزاً لها عما سواها . ولست أدرى إن كان قد حل باللدر ما حل بأمثاله من الفطاحل على يد الشيخ التى كانت تعطى باصبعين وتسلب وتسترد ما تعطى بالأصابع الثلاث المتبقية ، أو على لسانه « الفلغة » الذى يقطع بما هو أمضى من حد السكين السنينة ، ولا يتأذى أن يساقط عليك من جمرات الكلم ما يحرق الحشا قبل الجلود ! ولكنه كما قلنا وبيننا من قبل حريق مستطاب ، أو هكذا خيل الينا ونفت فى روعنا . فمن عجب أن الشيخ كان - رغم « سلاطة » لسانه « الفلغة » وبشاعة يده الكرياح - استاذاً محبوباً بين تلامذته . وربما كان ذلك لادراكهم أنه يرى فى ما كان يحملهم عليه من الشدة حسن تربية لهم وتقويم . وربما كان ذلك

لطرفة ما كان يأتي به من حركات ولغرابة ما كان ينثر في وجوههم من تعابير  
وكلمات . وليس أدلّ على ذلك من أننا ظللنا إلى هذا اليوم - كلما التقت منا طائفة من  
تلاميذ تلك الأزمنة الغابرة السحيقة - نجتر ذكريات وحكايات ام درمان الاميرية  
الوسطى في تلك الايام الزاهية وفي مقدمتها الأقاصيص التي تدور حول الشيخ ابي  
بكر وحركاته وكلماته التي انتقشت في ذاكرة كل احد منا انتقاشاً لا تمحوه ولا تزيله  
الاماد . ومن المؤسف أنه قد فاتنا أنبل واكرم ما كان في الشيخ وهو روعة تلاوته  
وترتيله للقرآن الكريم بذلك الصوت الرخيم الصافي الذي كان يهز منا أوتار القلوب  
وينفذ بطلاوته وسحره ونغمه الاسر الأخاذ إلى ادق خلجات النفس وأرق مواطن القبول  
. ولكنه - وبالتعسنا - كان منشغلاً عن الاكثار من تلك التلاوة المحببة لأنه كان يتأذى  
من حركات عبد الكريم ومجموعته أشد التأذى فاذا به ينفق جل وقته في محاولة تأدينا  
. وما أراه كان محقاً في ذلك لأن شيطنة التلاميذ وتجاوزاتهم - أو ما خيل اليه أنها  
تجاوزات - في مسار عبثهم الطفولي ، لم تكن تستدعي كل ذلك الاهتمام والتوفر على  
استئصال شأفتها . ولو أنه ترك الامور تجرى على طبيعتها وتوفر على تلاوة القرآن  
على مسامعنا كما كان يتلوه بصوته الرخيم المؤثر وأكثر من ذلك لأصاب مثوية لنفسه  
عند الله ولأصبنا منه نحن خيراً عميماً وهداية كانت وحدها كفيلاً بتحجيم ما حسبه  
الشيخ تجاوزات لحدود الأدب ، وما هو في حقيقته إلا بعض ملامح الشيطنة والعفرتة  
التي عادة ما تنتظم اغلب التلاميذ في تلك الأعمار ، فلا ينجو من الخوض فيها والتلبس  
بها إلا قليل. وربما صح القول بأن هذه الشيطنة العابثة - على الرغم من براعتها وقصر  
لبثها - قد أوغرت صدر الشيخ وضاق بها ذرعاً ، فوضع سيفه حيث كان يكفيه  
لسانه ، وأطلق لسانه الذي هو لسانه حيث كانت تكفيه التلاوة وتربى ، وخانتة فطنته  
فاختار للتأديب والترشيد الفاظاً وتعابير كان خيراً منها وأرعى كلمات الله التي لونزلت  
( على جبل لرأيتة خاشعاً متصدعاً من خشية الله ) . ولذلك كان ابراهيم الامين واحداً  
من اهداف الشيخ فنال من سخريته اللاذعة وكفه الصافعة ما شاء له الله . كان

ابراهيم يتأذى مما يصيبه من عقاب فى حينه ، ولكنه سرعان ما ينسى تباريحه فيغرق فى الضحك بعد انجلاء العاصفة ، ولا يحمل فى نفسه حقداً على الشيخ ولا على غيره . ولو اراد أبو خليل أن يثأر لنفسه لو اتته مقدراته العديدة - هكذا زعم محمد العوض وهو يعدد هذه المقدرات ويضحك فى تحريض ظاهر - ولكن ابراهيم الامين كان تلميذاً وافر الحياء والادب والانضباط . ورغم أننا قد تفرقت بنا سبل الحياة فانى ألقى ابراهيم الصديق القديم من حين لآخر فتنمحنى عنا ومن بيننا مسافات الازمان الطوال ونعود القهقرى الى تلك الحقب الهائلة ويطول بيننا الحديث والضحك وكاننا نعيش تلك اللحظات الخالدة من جديد .

### **عز الدين .. وأناقة المظهر والمحتوى :**

أما عز الدين عباس حلفاوى فقد كان تلميذاً رقيقاً أنيقاً متميزاً بهذه الرقة وهذه الأناقة تميزاً ملفتاً للأنظار . وإذا كانت الرقة شأنها معروفاً بين من رزقهم الله نوقاً رفيعاً فلربما سأل سائل كيف جاز لنا أن نصف مظهره بالاناقة فى حين أن كل التلاميذ يرتدون زياً واحداً هو الجلابية والعمامة ؟ ولكن جلابية عز الدين وعمامته كانتا دوماً ناصعتي البياض ، على درجة عالية من النظافة والنقاء . وأنت لا تملك إلا أن تحس بعنايته الفائقة بمظهره فى كل دقيقة وجليلة ، وهو أمر محمود دون ريب . ولكنه رغم ذلك لم يسلم من الفاضل شريف الذى تعود أن يمد لسانه لكل أحد ولكل شئ ، وهو غالباً ما يفعل ذلك اذا أدت له ظهره وظفر بقفاك وبمسافة بينك وبينه تشعره بأمان البعد من رد الفعل ويجد فيها حرية القرب ليؤكد بها الهدف من مد لسانه . فهو يخشى أن تراه أنت وهو متلبس بهذه الفعلة يعنك بها دون غيرك ، ويود أن يراه غيرك ويدرك مراده وهو يشير اليك وأنت لا تدري . فهذا يفرحه ويسره ويشعره بالنصر والظفر خاصة إذا كان المقصود شخصاً ينكر عليه نكاته ولا يتردد فى أن ينعتها أمامه بالباخاة والقدم ، فكان أكثر ما يؤذيه أن تقول له « قديمة » ، فاذا قلت له ذلك امطرك بوابل من أمثالها حتى ينفذ صبرك وتهم بصفحة تنزلها على قفاه فيركض من امامك

وهو يضحك كالطفل الغرير . ومد اللسان كان يعتبر فى تلك الأزمنة أوضح تعبير عن السخرية والزراية وقد كان عز الدين يعلم ذلك جيداً ويعلم أن الفاضل شريف يشير اليه من وراء ظهره بذلك اللسان الذى ربما كان فى نظره - وقد روى عنه ذلك رواية لم تثبت صحتها - أشبه بلسان « السحلية » . ولكنه لم يكن يعاتبه على ذلك . ولم يكن يعاتب غيره من القلائل الذين يحذون حذوه ويتمذهبون بمذهبه ، وانما يصمت إزاء مثل هذه الحركات فى وقار وشمم . واذا قيل له فى ذلك أجاب : « ياخى المابتلحقو جدعو » . فيرسم بذلك على خارطة فهم من يخاطب ابعاد البون الشاسع الذى يفصل بينه وبين غيره فى مضممار الأناقة . على أن أناقة عز الدين عباس لم تكن تعلن عن نفسها فى ملبسه فحسب ، وانما كانت طبيعة ملازمة له فى كل شأنه ، لأنه كان أنيقاً أيضاً فى تصرفاته وفى تعامله مع زملائه واساتذته وفى اقباله على دروسه واعتناؤه بها واحتفاله بكل ما يتعلق بها ، ونحن نسمى كل ذلك أناقة لأنه ينقل إلى ناظريك وإلى أحاسيسك صوراً من الجمال . ويمكن القول إن عز الدين كان أنيقاً حتى فى حديثه واختياره للكلمات التى يخاطبك بها والطريقة التى يستقبل بها ملاحظات الاساتذة سواء كانت هذه الملاحظات مدحاً فى حقه أو قدحاً . فهر لا يخوض فيما لا يعنيه أبداً وكثيراً ما يتسامى عن الخوض فى بعض ما يعنيه إذا أحس من فرط رفته أن فى ذلك ما قد يؤذى أحداً من الناس ، وهو فى حقيقة الأمر لا يعرف كيف يؤذى حتى وان قدر له أن يريد . والتلاميذ عندما يصيبهم بعض عقاب من استاذ أوينالهم منه تجريح أو شئ من السخرية على مرأى ومسمع من زملائهم تتوقد فى صدورهم نيران الغيظ ويجنحون إلى الانتقام لانفسهم بذكر طائفة من المساوئ ينسبونها للاستاذ فى ناديهم خارج أروقة الدراسة ، فيتناجون فى حقه بالاثم والعدوان . ومنهم من يروى غرائب القصص عن الاستاذ وهى فى حقيقتها من صنع الخيال المحض . فان قرأ فى أوجه مستمعيه تكذيباً لها سارع إلى دعمها بأسانيد يؤلف بينها تأليفاً وإلى « عنعنات » يرتبها ترتيباً فيه اضطراب ظاهر فتصعب على السامع متابعتها وترجيح صدقها ، وان لم يسهل

عليه تكذيبها من أول وهلة . أما عز الدين عباس فلم يكن من شيمه اللجوء إلى مثل هذا الاسلوب أبداً ، وإنما يتحمل ما يحيق به من ظلم أو أذى من قبل الاستاذ في صمت وقور وصبر جميل ويمسك لسانه بين فكيه لا يطلقه في الناس كما يفعل الآخرون . وما كان ذلك لِعِي في لسانه ولا خشية أن يبلغ عنه أحد أو يسعى بينه وبين الاستاذ بنميمة ، ولكنه ترفع في طبعه عن مظان الزلل واغتياب الناس ، وإيثار للسلامة بحكمة قوامها الصمت حينما يكون الكلام لغواً لا ينفع وقد يؤذي ، ودرء لمخاطر فضول الكلام حينما يكون الدافع للحديث هو الانتقام بحق وبغير حق . ورغم كل ذلك ورغم ضيق الصببية بصمته في مثل هذه المواقف ، فقد ظل عز الدين عباس محبوباً بين أقرانه الذين عرفوا فيه هذه الرزانة وهذه العفة وأيقنوا أنها بعض من طبعه الذي فطره الله عليه . بل إن عز الدين حظى باحترام اساتذته وتوقيرهم له ، رغم أنه لم يبلغ عند الشيخ أبي بكر ما بلغه الدرديري وعكود والحبيب من مكانة سامية ، ولم يكن أحد يدرى لذلك سبباً . فقد اعيتنا محاولاتنا لفهم ما يريده منا الشيخ وأعجزت عقولنا حالات مزاجه التي لا تكاد تستقر على قرار . فهي قد تكون في أحيان هادئة هدوءاً طلقاً رخاء صافي الاديم ، حتى إذا فتنت بها واغتررت بوداعتها وصحوها وكدت تركز إليها شيئاً قليلاً تجمعت رياحها عليك من كل صوب وبلا مقدمات تذكر واستحالت إلى عواصف ورعود تقتلع السكينة من جذورها وتمطر أشباه الحمم . ولقد أفاد عز الدين من عدم بلوغه درجة الاصطفاء عند الشيخ ، فلو أنه بلغ من نفس الشيخ ما بلغه هؤلاء الفتيه المصطفين الثلاثة لسقط معهم من شاهق عندما تتابع سقوط ثلاثتهم من نظر الشيخ ، الواحد تلو الآخر ، في نوبات عاصفة ارتجت لها أركان فصلنا ارتجاجاً . فأبدلوا نقمة بعد نعمة ، وبعداً بعد قرب ، ومقتاً بعد مقة ، وجفاء بعد وصل ، وعذاباً بعد رحمة ، وهذا هو الفرق بين السقوط من قمة الجبل إلى قيعان الأودية فإنه أليم شديد ، وبين التدرج من مرتفع ناتي إلى سهل منبسط ، فإنه أقرب للعافية والسلامة . ولذلك ظل عز الدين عباس راکزاً في مقامه ، لا هو قريب من الشيخ فينفذ إلى دائرة



الثلاثة الذين اجتباهم ، ولا هو بعيد فيحسب من رهط « كُرْم » الذى « يدق الرمبة » بنفسه ثم يرقص على انغامها فيثير حفيظة الشيخ . وكان هذا من نكاء عز الدين ومن أصالة خلقه أيضاً . فاذا كان هؤلاء الثلاثة مقربين للشيخ فى وقت من الأوقات ينعمون بهذا القرب فلا يطلب منهم « تسميع » السور لأنهم « مرايا البيت » فمنذا الذى يأمن مِقَّةَ الشيخ الا أن يكون من السذاجة بحيث لا يرى فى الحديث الانعومة ملمسه؟! قالوا إن الفأر سقط من تعريشة على وجه الأرض وظل راقداً على قفاه . وقبل أن يعتدل ليجرى فوجئ بالقط يقف حياله ويقول له فى رقة مفتعلة وعذوبة صوت مصطنعة : قل بسم الله واستعد من الشيطان الرجيم . فما كان من الفأر إلا أن قال له وهو يرتعد من الفرق : إذا تركتني أنت لحالى فلست ابالى بما يمكن أن يفعله بى الشيطان الرجيم ! كان عز الدين يحب أن يترك لحاله ، فهو قد ترك الناس لحالهم ولذلك لم يقع فى شراك المحبة ، وأنجاه حذره من الوقوع فى مصائد القلى . أما عكود والدرديبرى والحبيب فقد انتهى بهم الأمر جميعاً إلى حال أشبه بحال « الثلاثة الذين خَلَّفُوا » فضاقت بهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ... وعز الدين بعيد من كل ذلك آمن على نفسه ، لا يغنى للشر ولا يقترب من مواقعه ، ولا يدع الشر يقترب منه إلا بمقدار ما يمكنه من تحاشيه .

ولم يكن عز الدين يكثر من التردد على جامع الخليفة فى « العصريات » ، فهو لم يكن كلفاً بلعب كرة القدم ولا مفتوناً بنجومها المدرسية ، وان كان متشيعاً لفريق الهلال فى قصد واعتدال . لأنه كان يعلم أن بعض المباريات التى تجرى فى ساحة جامع الخليفة بين فرق التلاميذ المختلفة هى فى حقيقتها أكد مظان النزاعات والاشتباكات التى من أخف نتائجها التمرغ بالتراب والاحتكاك بحبات الحصى . وليس من طبائع عز الدين التعرض لمثل هذه المواقف ولا من شيمه الانحشار فى ما يقود إلى أشباهها من أسباب . فهو حريص على أناقته وعلى كمالها فى جميع الحالات ، وهو ضنين بها على كل ما يتهدد تمامها فى كافة المناسبات واللحظات . وذلك أيضاً من تمام عقله .

ولست أذكر أنى رأيت عز الدين فى « سوق الزلعة » مرة واحدة . فتلك مجاهل يختلط فيها الحابل بالنابل وهى عالم يعج بأقوام ليس من بينهم أحد من شاكلة عز الدين ، وتتميز بزحام خانق لا تطيق نفسه اللبث والبقاء فيه دقيقة واحدة ، وتفوح فى أجوائه وأرجائه روائح متباينة تزكم أنفه وتقطع أنفاسه تقطيعاً . وتمتد أطراف المعروضات فى ساحته وألوان وطعوم هذه المعروضات من الفسيخ إلى الشربات . وفيما بين هذه الأبعاد النائية الأطراف تتلاقى وتختلط وتمتزج أفانين الروائح والنكهات المتنافرة منبعثة من « صاجات » الطعمية التى يغلى النىء منها فى ثيج الزيت يصرُّ صريراً ويتكدس الناضج منها فى « طشت » أو « طشتين » ، ومن « حلل » الكمونية فاغرة الأفواه وقدر الفول المصرى المحكمة القفل إلا من ثقب تبرز منه مقبضة « الكمشة » ومن « طوات » شرائح اللحم وطباق « ام فتفت » ، وقصاع الأسماك ورؤوس « النيفة » ، ومن « ريكات » التسالى « الجرم » ، وشئ من رزم حلاوة المولد وعرائسه يطوف بها بعض الصبية استكمالاً لقائمة المتناقضات . فهل يمكنك أن تتصور عز الدين عباس منغمساً فى مثل هذا الوسط الذى يوشك أن يوحى بفساد الذوق ويودى بكل مظاهر الأناقة والوقار ؟

ولقد حمل عز الدين عباس وقاره معه إلى مدرسة خور طقت الثانوية ، ولم يتخل عنه لحظة واحدة . وحمل معه أيضاً أناقته ورقته وأخلاقه الكريمة . فكانت تلك هى عدده فى مجابهة ذلك المجتمع الجديد . ورغم أنه لم يكن مولعاً بلعب كرة القدم ولا لعب « الباسكتبول » ولا الكرة الطائرة ، إلا أنه كان مولعاً برياضة المشى والركض فأصاب منهما خيراً كثيراً . واستطاع بنبله وانضباطه وسلامة حديثه وعفته أن يكتسب صداقات واسعة وأن يحظى باحترام زملائه وتقديرهم . وقد لقى فى رحاب تلك الديار الحانية بعض زملاء كرام يشاركونه التمسك بقيم الأناقة ومظاهرها البهية ويبادلونه رقة الأحاسيس وصفاء الوجدان ، ويماثلونه فى رفعة الذوق ولين الجانب ولطف الطبع وطيب الاحدوثة . فنعم بمعرفة عبد الوهاب تميم الذى لم تخنه رفته وسلامة ذوقه أبداً حتى

عندما يتصدى لكبح جماح المترين وإيقافهم عند حدهم لا يطبق الماراة ولا يحتمل اللجاجة ولا يعجبه الخروج عن حدود الأدب واللباقة ، فيردع بضغت لا يؤذى ، ويمنع الافتئات بكلمات حاسمة غير أنها لا تجرح ولا تحرق . وذلك لأن عبد الوهاب تميم رقيق بطبعه ولكنه لا يحب « المسخرة » « وقلة القيمة » ، ولذلك أحبه عز الدين . ونعم بمعرفة الوليد شبيكة ، الذى كان يحرص على « أدبيات » الأناقة فى اللبس والمظهر والسلوك أشد من حرصه حتى على الدروس ومتابعة شروح معمياتها وغرائبها ، وكان يتميز برفعة الذوق فى اصدار أحكامه على كل ما يطلب منه الافتاء فيه . وقد أوتى ملكة ردع بيانية فائقة ولكنها لم تخرج به أبداً من حصون قيمه التى ارتضاها لنفسه واندمغت فى جبلته اندغاماً . ومن عجب أن الوليد أثر أن ينتمى إلى اولاد « الكديت » فتدرب على يدى الصول عم يوسف أحسن تدريب ، وأعجب من ذلك أنه التحق من بعد ذلك بكلية البوليس . ولعل هذه الواقعة مما كان يحير عز الدين وعبد الوهاب تميم على السواء . فكيف يمكن لتلك النفس السمحة الرقيقة أن تألف لبس الكاكي والقبعة « والقلشين » ويطلب منها مطاردة عتاة المجرمين وأرباب السوابق ؟ وكيف يمكن لصاحب هذه النفس المسالمة أن يمشى بين الناس وقد شد على وسطه حزاماً بالغ الخشونة يتدلى منه على كل من جنبه « جفير » غليظ يحتقب « طبنجة » موقرة بالرصاص ؟ فهذا أمر محير وهو لا يشبه الوليد الرقيق فى شئ . ونعم عز الدين أيضاً بمعرفة فاروق معنى الذى كانت الأناقة بعضاً من خلانقه العذبة وقيضاً من محاسنه الموشاة بالائق والظرف والبهاء . يحمل بين أضلاعه قلباً حانياً نقى الأعطاف لا يضممر سوءاً ولا يعرف الضغينة . سريرته مثل علانيته ، وقلبه من وراء لسانه . مسالم هين رشيق الكلمة والعبارة والخطى ، إلا فى ميدان الباسكبتول فانه يستحيل إلى مقاتل ، وتزدان أناقته بمظاهر القوة ، وتتحول خطاه الهادئة الناعمة إلى قفزات هادفة منغمة الايقاع ، لأنه لا يرضى دون الظفر الحاسم بديلاً لفريقه . ولذلك أحبه زملاؤه وعزروه ووقروه .. وحق لعز الدين عباس أن يفخر بصداقته وحق لعبد الوهاب تميم أن يباهى به ويحجته به . ذلك

ثألوت علّمنا أن الذوق العالى بعض بضاعة أهل الود وأن الخلق السامى زين أناقة كل أحد ، فانظر كيف وفق عز الدين .

وأنا لست أحسب أن عز الدين عباس كان يكتب شعراً ، ولم أسمعته يتغنى أو يترنم به كثيراً ، ولكنك إذا أبصرته يتأمل الخضرة فى ربوع تلك البقاع الكردفانية الحبيبة ، واسترقت إليه النظر - على غير انتباه منه - وهو يقف امام برك المياه الصافية خارج أسوار « العمارة » يتصفحها كما يقلب الانسان صفحات سفر من اسفار الأدب أو ديوان من دواوين الشعر ، لأيقنت أنك أمام فنان موهوب يختزن ريشته فى أعماقه ويبدع خطوطه وظلاله فى طروس وجدانه ولتغشاك شعور صادق بأنه يكتب الشعر فى دفاتر أحاسيسه بأقلام رقاق يفرسها فى مدام تلك الرمال الرطبة الناعمة غداة الطل والويل والندى ، فتشرب الشعر وتنداح بقوافيه ، وتتهل الحسن وتنتثر معانيه . ولم يكن عز الدين يألف سوى الهدوء فهو لايسرع فى شئ ، ولا يبطن إلا بقدر ما يسمح له به وقته . إذا صلصل جرس « الصفرة » فهو لا يهرع اليها كما يفعل البعض وإنما يمشى فى تؤدة ووقار . وإذا ألقى تجمعاً عند مدخلها فانه لا يعرف « المدافرة » ولا المعافسة ولا المكابسة ، وإنما يأبى الزحام فيستأنى . وإذا دخلها فان مقعده واحد لا يفارقة ولا يبدله . كذلك مقعده فى الفصل ، وسريره فى الداخلية ، وموقعه امام المسرح وحتى فى قهوة عم عبد الجليل « ديك الجن » - مكانه واحد لا يبدله . إذا وجده مشغولاً عاد من حيث أتى ونفسه راضية ، لأنه لا يعرف الشجار ولا يتحين أسبابه . ومع ذلك فقد سلم من مغبة الصغار « والحقارة » وظفر بقدر من الوقار عصمه من أن يجهل أو يجهل عليه . ومن عجب أنه سلم حتى من لسان محمد العوض مصطفى طيلة أعوام مدرسة امدرمان الاميرية الوسطى وأعوام خور طقت الثانوية . وذلك مغنم أيما مغنم . فما رأيت أحداً سلم من ذلك اللسان السليط سواه . ولقد كان عز الدين من السكينة والوقار والبهاء على أيام ام درمان الاميرية بحيث لم يظهر اسمه أبداً - على ما أنكر - ضمن قائمة « المهرجلين فى الفصل » التى كان الكبتل فى بعض الأحيان يحشدها

حشداً بين الحصص . ورغم أن عز الدين تعرض كغيره لبعض عقوبات الاساتذة ونال نصيبه الذى كتبه الله عليه من سوط عم مبارك إلا أنه كان يقابل كل ذلك بقناعة ورضا ولا يلعن ولا يسب أحداً كما كان يفعل غيره من شياطين التلاميذ .

ولقد كان من أقرب الناس وأحبهم اليه فى خور طقت عثمان زروق لأن عز الدين كان دقيقاً فى اصطفاء خلانه حريصاً على التناسق بين نظراتهم للامور ونظراته لها . فعثمان زروق تلميذ رقيق شديد الرقة مفرط الحساسية وهو فى ذات الوقت نظامى موفور الانضباط ، على خديه الشلوخ التى يسمونها الشلوخ السلم ولعلها نتاج حسن الفأل بأن من وسم بها يصعد ان شاء الله على سلم المراقى فى كافة شؤون حياته الدراسية والدينية والاجتماعية . وبعض السودانين يسمون هذه الشلوخ « سلم الشيخ الطيب » تيمنا بهذا الشيخ العارف بالله وهو تيمن شائع بين أهالى منطقة الجزيرة المروية ولعله نو أصول اعرق عند أهل الباقوة التى هى موطن عثمان زروق . ومهما يكن من أمر فقد وفق عز الدين أحسن توفيق فى اصطفائه لعثمان زروق واختصاصه اياه بهذا الاجتباء لأن عثمان مثل عز الدين يعيش النظام والنظافة والأناقة.والأناقة عنده - مثل ما هى عند عز الدين - تشمل جميع أوجه الحياة ولا تقتصر على حسن الهيئة والهندام . فهى أيضاً لباقه فى الحديث وطهر فى القول ونقاء فى السريرة والمقاصد واحترام للأقران وتبجيل للأساتيد . وهى مع ذلك تواضع لا يرضى بالمذلة والهوان وعزة نفس لا تشتمل على الكبر والتعالى . وهذا هو جوهر خلائق عز الدين وجوهر خلائق صديقه الوفى عثمان زروق . وعثمان شاعر مثل عز الدين ، ولكنه مثله أيضاً لا يكتب الشعر وانما يسيل الشعر فى أعطافه وتتغنى به جوانحه وتعبق أزميره بالشذى فى تعامله مع الناس . ولطالما شهدت لهما ربوع خور طقت سياحات هادئة هانئة يتأملان خلالها جمال طبيعة تلك الامكنة وقد اكتست رمالها الوادعة ندى وخضرة وبهاء وامتلات قيعان أوديتها المنتثرة فى أويقات الخريف ماءً ثجاجاً من سماء معطاءة حبلى بالغيوم وأسباب الرخاء . فاذا أبصرتهما امام احدى هذه البرك يتأملانها كدت

تجزم أنهما يتطارحان الشعر وتضح أحاسيسهما بالقوافي وأيقنت أنهما أمام ذات  
المشهد الذى أغرى أبا الطيب بأن يقول فيه :

لولاك لم اترك البحيرة والـ	غورُ دقيئٍ وماؤها شَبْمُ
والموج مثل الفحول مزبدة	تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها	فرسان يلق تخونها اللجم
كانها والرياح تضر بها	جيشا وغى : هازم ومنهزم
كانها فى نهارها قمر	حَفْ به من جنانها ظَلَمُ
ناعمة الجسم لا عظام لها	لها بنات وماأها رحم
يُبقر عنهن بطنتها أبدأ	وما تشكى ومايسيل دم
تغنت الطير فى جوانبها	وجادت الروض حولها الديم
فهى كما وية مطوقة	جُرَد عنها غشاؤها الأدم

وقد يطول مكثهما أمام هذه المشاهد الاسرة وقد يقصر فيتحولان منه إلى مواقع  
آخر ويأنسان من بعده إلى ما يخالفه مرأى ويشاكله معنى ويشببه بهاء منظر ولطافة  
ايحاء وعمق تأثير .فاذا قضيا من هذا التأمل الشعارى فى سحر الطبيعة وطراً عادا  
ادراجهما سعيدين كل إلى عنبره فى الداخلية ، وطلق كل منهما يعد العدة لاستئناف  
القيام بواجبات الدرس والتحصيل . لقد وجد عز الدين فى عثمان زروق شاعراً مثله لا  
يكتب الشعر وانما تنطق به جميع أحاسيسه ، ولقى فيه نظامياً مثله محباً للأناقة تتسع  
معانيها فى افاقه اتساعاً حتى تشمل الكلمة تخرج من فمه وقد أحسن انتقاها وأيقن  
بحسن وقعها على المسامع فليس فى حديثه جفاء وليس فى تعابيره نبوءاً أو غلظة أو  
فظاظة أو خروج عن الادب الرفيع والذوق السليم . وقد سررنى أن اعلم أن عز الدين  
وعثمان زروق لا يزالان حتى هذا اليوم على صلة متينة من الوداد والوفاء المتبادل على  
الرغم من مرور ما يقارب نصف القرن على تعارفهما وعلى الرغم مما يفصل بين  
داريهما من الفراسخ والأميال . ذلك هو مضمون الصلات الحميمة التى نشأت بين  
تلاميذ تلك الحقبة القصية سواء كان ذلك فى امدرمان الاميرية الوسطى أو فى خور  
طلقت الثانوية . فهى صلات نشأت لتبقى وتخلد وهى مودات ربطت بين فتية تلك الازمان

لتورق وتثمر مزيداً من المحبة والوفاء ولتصبح لمن يتأملها أو يسمع عنها ويجتليها مضرِباً للامثال . لقد انتهى كل من فتية تلك الأزمنة الخوالد إلى ما يسره له الله وقضاه بمحكم تدبيره . منهم من صار طبيبياً ومنهم من صار مهندساً ومنهم من راقته الجنديه أو العسكرية فأبلى في الذود عن ثغور الوطن . ومنهم من تأثر بعباء اساتذته الثر الامين فتقلد شرف مهنة التدريس وتربت على يديه أجيال فقهت في العلم وبصرت بطرائق المعارف والحياة . منهم من مضى إلى لقاء ربه مأسوفاً على فقدته محمود السيرة مبكياً عليه بدموع الأسى والحرقة والعرفان . ومنهم من بقى يعطى بلاده بلا منة ولاكدر ، يقابل عطاؤه المخلص العميم في هذه الأزمنة الكالحة المجحفة بالانكار والجحود ، فلا يلقى العنت والنكران إلا بمزيد من البذل والتضحيات وفاء للوطن وتعبيراً صادقاً عن المحبة والاخلاص لهذا التراب الطاهر وأهله الطيبين البسطاء .

لقد صار عز الدين عباس مهندساً ولكن مهنته لم تشغله عن وداد رفقة الصبا واخوة الحداثة إلا ريثما يتقنها اتقاناً ويبلى في مضمارها أحسن بلاء . فهو عز الدين عباس الذى عرفته منذ نعومة الأظفار - اذا التقيته في حى الشهداء بام درمان - وهذا أمر يحدث في بعض الأحيان - - سقطت من بيننا جدران السنين ، واشتمل علينا عناق ومصافحة وحديث طويل ، فطوفنا على تلك الربوع الزاهية التى جمعت بيننا في وئام بقيت او امره خالدة لا تزول ، وذكرنا كل من كان يالفنا في تلك المواطن من رفقاء الصبا ، من مات منهم ومن بقى وفي خاطر كلينا قول شوقى يرحمه الله :

نعيش ونمضى فى عذاب كلذة . ، من العيش ، أو كلذة فى عذاب  
ذهبنا من الأحلام كل مذهب . ، فلما انتهينا فُسرتُ بذهاب  
وكل أخى عيش وان طال عيشه . ، تراب لعمر الموت وابنُ تراب

، وكما التقيت عز الدين الفتية في تواضعه المألوف ، فى البنطلون البسيط والقميص الأبيض ندى الأكمام ، والرأس المرفوعة تيتها على جور الحياة وظلم نوى القريبى . والهندسة جوهرها النظام والنسق والأناقة والدقة والانضباط فلا عجب فى أن صار عز الدين مهندساً ، بل العجب أن يمشى مثله فقيراً بين الناس وهو الذى أعطى بلاده

عطاء المكثرين من البذل والإيثار :

متجنب الخيلاء إلا عزة .  
عف السرائر والملاحظ والخطى .  
متدرع صبر الكرام على الأذى .  
ان الكرام مشاغل السفهاء

## توتى ... وجزائر الأشراف :

كان ميرغنى على المحسى يختلف كثيراً عن عز الدين عباس وربما كان ميرغنى أكبر منه سنناً بقليل . ولكنه كان عفريتاً لا يجارى بل « جنا » احمر قانى الحمرة . وإذا كان لا يفصل بين توتى التى هى موطن ميرغنى وبيت المال التى هى موطن عز الدين إلا النيل الخالد ثم عشرات من الخطى ، فان الذى كان يفصل بين عز الدين وميرغنى على بون شاسع ومحيط هائل من المفارقات . وذلك أن ميرغنى كان تلميذاً مشاغباً لا يهدأ له بال سواء ذلك فى داخل الفصل أو فى خارجه . وهو ان لم يكن « هراشاً » فانه « حراش » على اقل تقدير . ولو أنا استمعنا إلى نصائح ميرغنى التى كاد أن يقنعنا بجدواها فى وقت من الأوقات لو لا أن صبرنا عليها لبطشنا بالشيخ ابى بكر بطشاً ، ولطرحنا الاستاذ السبكى الجزولى أرضاً ، ولقدقنا الاستاذ محمود الضيرير من النافذة ، ولحصبنا الاستاذ الحاج هاشم بالحجارة حصباً ولرجمناه بها رجماً ، ولأحزنا استاذنا « فرحا » حزناً ، ولا وقدنا فى وجه الاستاذ غزالى السراج سرجاً من نار عذاب . ولكننا قلبنا الامور واعملنا الفكر واستعصمنا بالحيطه ، بعد أن كدنا نركن إلى منطقة الذى يغلفه بحجج يطغى عليها غشاء الحماس والتهور . فميرغنى محب للهرجلة والصخب ، مجاهر بالتمرد وعصيان الأوامر ، كلف بخوض لجج المجهول دون تروء وأناة ، مستخف بالعواقب والنتائج ، مستهين بما يمكن أن يجره عليه بعض سلوكه من متاعب . ورغم أنه كان محبوباً جداً بين زملائه إلا أنهم كانوا يخشون من توابع جراته الزائدة ، ويتحاشون الانسياق وراء عناده وولعه بالمغامرة . وليس فى كل هذا من مأخذ عليه ولا تثريب ، فتلك كانت بعض سمات نفر غير قليل من تلاميذ ذلك الزمان ، غير أن ميرغنى كان يرتاد ما يرتاد من مداخل المحن ويلج ما يلج من دروب المآزق



وحيداً منفرداً دون حليف مأمون يستند عليه . ولو أنه تدبر أمره جيداً لهدى إلى معرفة حلفائه الطبيعيين ولخصمهم دون غيرهم بمحاولات « التحريش » واتقان منطق الاقناع - عبد الكريم ومحجوب والكتبلى ، وربما مكى برعى أيضا . ولكنه أثر الأ يعبأ بهم كثيراً دون سواهم . وله فى ذلك منطقه الذى ارتضاه وقناعته التى أخذل اليها ، وهو مخطئ فى ذلك دون ريب إذ لم يأخذ فى حساباته حقائق الأمور وثوابت الواقع المعاش . وربما لم يهن عليه أن يدخل فى حلف مع هؤلاء الأربعة الصناديد لأن ثلاثة منهم من أولاد ام درمان ورابعهم من قرية أبى عشر . وهم بهذا الوصف بعيدون عن تفهم آرائه وأفكاره ، عاجزون عن استيعاب روائع مخططاته ، لا يصلح أي منهم حليفاً يرتجى إذا قضى المقدر وظهر أمر الله وهم كارهون . ففى نظر ميرغنى أنك إن لم تكن من توتى فانك لا تأخذ بالحكمة ولا تؤتى ! وذلك أن ميرغنى كان عظيم الفخر والاعتداد بجزيرته التى صمدت فى وجه كل من أراد أن يجلى عنها أهلها ، وبقيت راکزة بين أذرع النيل الحانية تدفع عن نفسها جميع أسباب ما يسمى بالحضارة والتطوير ، وذلك لأنها - فى نظر أهلها على اقل تقدير - جنة من جنان الأرض لا يبيغون عنها حولا . وقد صدحت بمعانى حسننها قيثارة التجانى الخالد إذ يقول :

ل واحتواها البر	يادرة حفها النيد
ك فى الاسرة فجر	صحى الدجى وتغشا
ر عبقرى أغر	وصاح بين الربى الغ
من الكراكى أغر	وطاف حولك ركب
من بنى الأيك حر	وراح ينفض عينيه
وقام فى العش دير	فماج بالأيك عش
على يدك وسحر	كم ذا تمازج فن
شاة وتنهق حمر	يخور ثور وتثغو
ع مونق مخضر	والبهم تمرح والزر
ن والثفاء السر	تجاوب اللحن والطح
دكن الجوانح كثر	وفى الضفاف أوز

ولكن ربما فات على ميرغنى أن من أراد أن يذهب مذهبه فى الشيطنة والكيد العبثى البرئ للاستاتيذ ، وأحياناً للزملاء التلاميذ أيضاً ، فعليه أن يتخذ الدروع الواقية وأن يستند إلى ركن شديد . وماكان فى فصلنا ذاك من ركن بشرى أشد من اهل الربيع الخراب – عبد الكريم وجماعته . وهم رهط كبار النفوس رفاق الحواشى ، ثقال الخطى ... متثنون لا يسارعون ولا يتدافعون . لا يخطبون ودكك إن لم تبادرهم بالوداد ، غير أنهم لا يكرهونك على أمر من الامور ان لم يجد له فى نفسك قبولاً ، ولا ينالونك بمكروه إن نأيت عنهم وكففت عنهم أذاك . واذا أحسوا منك تجاهلاً ظاهراً لثقلهم المؤثر فانهم لا يحفلون بأمرك أبداً ، ولا يهبون بدافع مروءتهم القادرة لوجدتك ان ألمت بك مصائب الدنيا وداهمتكَ صروف الزمان ، وانما يقفون على البعد ، يرمقونك بنظرات تنطق بالرأفة والحنان وتكن قدراً من السخرية وعدم المبالاة . ولقد أشبعهم ميرغنى بصلفه وكبريائه من ذلك وأثار فى احاسيسهم شعوراً يقارب « الشماتة » ولا يكاد يبلغها ، فلطالما حمله عم عبد العزيز وعم محمود وأصلت عقبه سياط الاستاذ فرح والاستاذ الحاج هاشم نيراناً حارقة . فاذا صرخ لم ينفعه صراخه بشئ ، وانما أضاف لهم مادة جديدة للسخرية منه والأسى لحاله . واذا تلوى من الألم لم يشفع له تلوّيه عند الاستاذ ، فالجلدات العشر ستكون عشراً وان لم يبق منه رمق ، وانما انتقص ذلك فى نظرهم من مصداقية تشدقه « بفرسنة » « التواتة » وثبات جنانهم فى وجه المكروه . وعندما تنتهى أمثال هذه النوية العقابية ويخرج التلاميذ لفسحة الفطور ، فاننا نتجمع حول ميرغنى ونستمع اليه وهو يتوعد بسيل جارف من العبارات المزمجرة، ويلوح بقبضته فى الهواء وكأنه ينازل « تنيناً » اسطورى القدرات ! ويقف ركائز الربيع الخراب بقضهم وقضيضهم على مقربة هى أدنى للبعد ، يرقبون ما يقول ومايأتى من حركات ، فيتبسمون فى رضا ظاهر ويتغامزون فى مكر خفى .. فهم يعلمون يقيناً أن ميرغنى إنما يقدم الوعيد والثبور ويؤخر الانهزام والنكول ، يعلن الاقدام ويضمّر التراجع ، يقول ولا يفعل . والفرق بينه وبينهم هو أنهم لا يقولون ، وعندما يفعلون فانهم

يأتون بالممكن ويذرون ما يستحيل ويعجز ، ويحاذرون من المغالاة ، ولكنهم لا يفرطون في شيء إنما يبتغون بين ذلك سبيلاً . فلكل شيء عندهم حدود ، وعندهم أن «المجالس بالأمانات» ، ولكل حال مقال .. وهو لا يقال حتى تستوفى شروط الأمان ، والا في حضرة من يحفظ السر ولا يبوح به فيفضح الأمر ، أو يشي به فيجلب عليهم سوء المال . تلك هي حكمتهم الخالدة ، والتي أرادوا لميرغنى أن يتعلمها ويستمسك بها ، ولكنه تنكب طريقها وفاتت عليه فأحزنهم ذلك . ولعل ميرغنى على كان من القلائل في فصلنا الذين تعرضوا لبطش الاستاذ محمود بلال رزق . فتلك «البشمة» التي كانت في نظرنا مدرعة كاملة أو دبابة مجنزرة لم يكن أحد منا - بما في ذلك الصقور - يملك الجرأة على المخاطرة بالوقوع تحت سلطانها القاهر . فاذا قال الاستاذ محمود بلال رزق : «هات البشمة» فاعلم أن الأمر قد بلغ أعلى درجات الخطورة وأن ما يتلو ذلك القول سيكون ارهاباً مفرعاً وبلاءً محيطاً لا قبل لأمثالنا به وإن اجتمعت لنصرتنا جزائر الدنيا بأجمعها وفي طليعتها جزيرة توتي ! وما أوقع ميرغنى تحت سوط العذاب ونير البشمة «الا استهانت المفرطة بجسيمات الامور واستخفافه بنظرية الصقور الداعية إلى التدبر والأناة ، وجسارته الغالية التي غيبت عنه بغلوها حقائق الحياة وملامح الواقع في كثير من الأحيان .

على أن ميرغنى على المحسى كان - رغم ذلك - تلميذاً محبوباً وفتى مرموقاً بين زملائه لأنه كان حاضر البديهة سريع النكتة وعلي قدر كبير من الاريحية والكرم . ورغم أن جسارته الزائدة التي هو مطبوع عليها قد جرت عليه كثيراً من المتاعب ، الا أنها كانت عند كثير منا موضع اعجاب واكبار ، لأن فيها ارضاء لغريزة حب الانتقام خاصة عندما يتعرض بعض التلاميذ لشيء من «البهدلة» على يد استاذ ولا يرون لهذه «البهدلة» سبباً كافياً أو مبرراً شافياً . ولقد تركت حكايات اللبغ الزاخرة بالبطولات وقصص «كبس الجبة» الموقرة بأصناف المعجزات وغيرها من مغامرات ومغازي فتوات الأحياء والداساكر آثاراً بعيدة المدى في وجدان التلاميذ ومخيلاتهم ، وولدت في

نفوسهم اعجاباً بمعانى الصمود واطهار العناد ، وبخاصة عندما تكون هذه المواقف بغرض مواجهة ما يحسبونه ظلماً لهم وهضماً جائراً لحقوقهم . وقد أضافت بعض أفلام السينما التى كنا نرتادها فى بعض الأحيان وبعض التمثيليات التى كان يقدمها بعض التلاميذ على خشبة مسرح المدرسة ذخيرة وافرة من المعارف والمعانى الجديدة التى تبصّر بطرائق مقارعة العدوان ! فمن منا لا يذكر فيلم عنتر وعبلة والتمثيليات المسرحية فى المدرسة ويكاد يحفظ عن ظهر قلب كل ما جادت به قريحة هذا البطل المغوار وهو يطلب النزال ولا يرضى بالهوان وينشد على رؤوس الأشهاد:

انا ابن سوداء الحبين كأنها	ذئب ترعرع فى نواحي المنزل
الساق منها مثل ساق نعامة	والشعر منها مثل حب الفلفل
لاتسقنى ماء الحياة بذلة	بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجـهـنـم	وجهنم بالعز أطيب منزل

كلنا نذكر ذلك . نذكر بعضاً منه وقد عرض على شاشة السينما ، وبعضاً آخر وقد جرى على مسرح المدرسة ، وطائفة أخرى وقد احتوت عليها بعض دواوين الشعر . واذا كان القيام بدور عنتر يحتاج إلى بعض مؤهلات من قوة البنية ومظاهر شدة اليباس فلا أقل من أن يعجب الانسان على البعد بهذه المواهب العنترية الأخاذة أو على الأقل بخفة روح « شيبوب » الذى كان رسول خير يحمل رسائل البطل إلى محبوبته ويعود اليه بطائفة من أخبارها تسعده أو تشقيه ، أو بالاخلاص وتفانى زياد الذى كان رسول قيس إلى أمه غداة تغنيه بأيادى الأمير . ولقد شهد مسرح مدرستنا الاميرية فى تلك السنوات الهائلة صولات لنا وجولات ونحن نحاول أن نضفى على اصواتنا الواناً من التغيير تقترب بها من نبرات الرجولة الراشدة وذلك حينما يحتدم الجدل بين البطل وغريمه وبين المحب المتيم والعاذلين .

ورغم أن ميرغنى على المحسى لم يكن من بين من تصدوا لتمثيل تلك الادوار على مسرح المدرسة إلا أنه كان متشرباً بتلك المعانى حتى حد الرئى ، يتمثلها فى بعض علاقاته بالتلاميذ والاساتذة حتى ينسى نفسه وحقائق ما حوله فيغالى ويشتط فيجر

عليه هذا من الويال ما هو فى غنى عنه . ولقد دعانى مرة لاصطحابه إلى توتى فلبيت الدعوة شاكراً وذهبت معه إلى هناك ، وبقيت فى ضيافته الكريمة وبين ظهرانى أهله الأفاضل ساعات طوالاً . فكان ترحابهم بحضورى وما أبدوه لى من مشاعر الوداد والاحتفاء أموراً لا تزال وضاءة فى ذاكرتى لا تنسى . ولقد أبدى لى ميرغنى فى تلك الهنيهات من الاعتزاز بجزيرته الصغيرة وبطولات أهلها ما أهاج فى نفسى كثيراً من الخيالات والمعانى والصور الرائعة لماض ما تزال آثاره وأصداؤه ماثلة للعيان والأسماع . وقلت فى نفسى : إذا كان ميرغنى ابن جزيرة واحدة وهو ينسب إليها كل اقااصيص البطولات ونماذج التضحية والفداء ، فمن مبلغه أنى انا ابن جزيرتين هما مهد لأرفع البطولات ؟ أولاهما جزيرة لب ( وماجاورها من جزائر الأشرف الأخرى ) - وهى التى شهدت مولد الامام المهدي واخوته . والثانية هى الجزيرة أبا التى شهدت مولد الدعوة واندلاع الثورة التى غيرت وجه السودان وصنعت له اهم مفاخره وارفع أمجاده .

. وإلى الاولى اشارات كلمات التجانى الخالد :

فى دجى مطبق ويوم دجوى .٠٠ . وليل مقفقف مقـــــرور  
ولدت ثورة البلاد على أحضا .٠٠ . ن كوخ وفى ذراعى فقير  
عوذوا طفلها وصونوا فتاها .٠٠ . بجديد من الرقى أو أثير!  
واقروا حوله المعوذة الكبرى .٠٠ . وذرؤا عليه بعض الذرور!  
واعقدوا واكتبوا من الكلم الع .٠٠ . ليا حفاظاً على النبى الصغير  
وى هلم انظروا سياجاً من النو .٠٠ . ر على مهده الوطى الوثير !  
وى هلم اسمعوا الملائك يعز .٠٠ . فن بميلاده نشيد الســـــرور  
باركوا الطفل فى القلوب وصل .٠٠ . وا فى المحاريب للعلى الكبير  
ومشى فى الصبا قسيم المحيا .٠٠ . هينث نفسه لكبرى الأمور  
واغتندى زاهد الشباب وصوفى .٠٠ . بنى قومه ومصباح نور  
أيهذا « النبى » مرعى بمغدا .٠٠ . ك إلينا أهلاً بلقيا البشير  
اصبح الغار تاج ملك وأضحى .٠٠ . مفرعات الفراء عرش أمير  
والنبى الصغير من بعد مازال .٠٠ . نبياً معظماً فى الصدور

وصرت أتيه فى دخيلتى على ميرغنى ولا أرى فيما هو به مفتون إلا قطرة واحدة من محيط أمجاد هائل أنا غارق فى لجته تجرى فى عروقى بماؤه الدافئة الهادئة الصافية النقية . ولقد هممت بأن أبوح لصديقى ميرغنى بهذه الخواطر وما كان ينتابنى من أحاسيس فى هذه الصدد وأنا مُصغ إليه وهو يفاخر بجزيرته . ولكن كرم أهله واحتفائهم بى واهتمامهم بأمرى - كل ذلك أخجلنى وعقد لسانى ، فقعد بى الحياء عن التصدى للمناكفة والمقارعة والمبارزة ، وتلك مداخلات وأنماط سلوك كانت سائدة بيننا فى تلك الأزمان . على أنى أسررت فى نفسى الأُترك هذا الأمر يمر دون ايضاح ، وصممت على تأجيل المواجهة حتى أنهض بها فى ظروف أكثر مواتاة بالنسبة لى . وقد تم لى ذلك فيما بعد ، ومن حولى الصديقان الوفيان عبد الرحمن كنتبائى والنفراوى . فما كان من ميرغنى إلا أن سلم لنا بالريادة فى هذه الآفاق على كره منه ومضض . والحق إن ميرغنى كان شديد الحرص على صداقة من يثق بهم من زملائه ، وقد كنت واحداً من قلائثهم . ولعله أحس أن عبد الرحمن كنتبائى والنفراوى يخفان لنصرتى عليه إن هو أضمر أو أعلن شراً . أو لعله قنع بأن « حواء والدة » وإن هناك دنيا وعوالم أخر غير « توتى » ، وأن هذه العوالم تحوى أيضاً رصيذاً حقيقياً من الأمجاد . أو لعله أثر السلامة ورضى من الغنيمة بالبر ، فابتعد عن المماراة وتخلّى عن المكابرة وأعطى ذوى الحقوق حقوقهم، فدام فيما بيننا وبينه الصفاء والوداد . ولست أدرى إن كان ميرغنى قد أصاب من منهل « الأفكار الجديدة » فى أواخر ايام ام درمان الاميرية الوسطى ، ولكنى أذكر أنه كان من المعجبين بالتلميذ عبدالله عبيد ، بل كان هو معه فى مقدمة مواكب التلامذة وهما يهتفان معاً ونحن نردد من ورائهما : « نحن نطالب بالرحلة » فى تلك التظاهرة الشهيرة التى انتهت بجلد جميع الذين اشتركوا فيها وانذار أولياء أمورهم باحتمال فصلهم من المدرسة ان هم أقدموا على مثل هذه الاعمال الفوضوية التخريبية ! أما ميرغنى فقد لقى أضعاف ما لقينا من عقاب . وانى لأظن ظناً راجحاً على غيره ان تلك الأويقات هى التى تلقى فيها ميرغنى اوليات الفكر الجديد ، وهى التى

بدأت تتخلق فى ذهنه خلالها بنيات أفكار رسمت طريق مسيرته الشبابية وحددت منهاجها فيما تلا تلك العهود من أزمان .

ذلك هو ميرغنى على المحسى ابن جزيرة توتى الوفى الذى كان من أعز الأصدقاء ، معتد بنفسه فخور بأصوله ومنايته إذا لقيته بعد فراق تمعن فيك ملياً بعينين فاحصتين احدهما أصغر من الأخرى ، وقطب جبينه هنيهة ولم ينبس بكلمة . حتى اذا اجتمعت له بشاشته من كل أطرافها وأفاق هونا مما عده مفاجاة له هش فى وجهك وتهللت أسايره ثم احتو شك بذراعيه وعانقك طويلاً فى حرارة ظاهرة وترحاب بليغ . فهو تلميذ وفى لصحابه دافئ الانفاس . ورغم ان بعض اقرانه كانوا يرمونه بالاندفاع احياناً وبالحدة احياناً اخرى الا انه كان رجاعاً الى الحق ان هو تنكب طريقه اثر سورة غضب عارض ، وكان لا يستكف ان يعتذر اذا بدر منه فى حق احد ما يستوجب الاعتذار . وتلك شجاعة ربما خفيت حقيقتها على الناس فى تلك الازمنة . وهى من مآثر ميرغنى التى اذكراها جلياً . ولقد التقيت ميرغنى بعد سنوات طوال وهو يعمل موظفاً فاذا به يذكر تلك الايام الزاهية ويحن اليها ، ويذكر اولاد الفصل ويسأل عنهم وعن أنبيائهم فى حرارة وصدق اشتياق . نعم كان ميرغنى على المحسى تلميذاً شقيماً مثل كثير من زملائه ولكنه كان حقانياً اذا حصص الحق وبيانت له طرائقه ، وكان - حتى فى تلك السنوات المبكرة - تلميذاً يمكن او يوصف بأنه عقلانى . ولقد حددت هذه العقلانية مسيرته فيما بعد كما علمت ، وانى لامل ان يكون قد اطلع علي وصف ابي العلاء للعقل بالعجز اذ يقول :

متى عرض الحجا لله ضاقت مذاهبه عليه وان عرضنه

## محمد المصطفى بلال ... وا لخيار الصعب :

الإلف من صفات البشر الطيبة وهو سجية يمتاز بها الطيبون . ومن هؤلاء محمد المصطفى بلال . فهو تلميذ طيب وألوف . ولطالما سرنا معاً فى الطريق الي المدرسة وعدنا سوياً نخترق مجاهل « الصور » نحث الخطي فننتهبها انتهاباً ، فان « الصور »

ما قد علمت وما استقر في الانفس والخواطر في تلك الازمان فهو مسكون وان لم يلقك فيه اثناء سيرك الحثيث بعاتي او شيطان رجيم .. فاذا اجتزنا قفاره هدأت خطانا وداخلنا شئ من الامان ، وتراخى سيرنا الذي كان حثيثا حتي نبلغ حي وداورو الامن لتفترق بعده بقليل . فاذا جاوزنا شارع ابي روف الذي يمتد بين شاطئ النيل والسوق وصارت ساحة الشهداء عن يسارنا وحي الخنادقة عن اليمين افترقنا هناك ، ليعطف محمد يميناُ تلقاء داره . ورغم ان محمدا كان أميل الي الصمت منه الي الثرثرة التي كانت بضاعة التلاميذ الرائجة الا أنه امتاز بروح فنان محب للجمال كلف بالابداع . فقد كان محمد يجيد الرسم ويحسن التعبير به عن ملكاته الفطرية الخفية . فهو فنان مطبوع وان لم يبلغ في ذلك - حسب تقييم بعض العارفين - شأؤ محمد عبد الله الشيخ ومراقبه . وكان يترنم ببعض الاغاني التي لم اكن أتبينها علي وجه التحديد ، ولكني كنت اعجب لرخامة صوته ويطربني اداؤه وتشجيني ألحانه العذاب . ولقد ادهشني ذلك حقا عندما استمعت اليه اول مرة وهو يؤاخي بين موجات صوته المرتفعة والمنخفضة في نسق موزون النبرات مرنان التوقيع . وذلك لان تقاطيع وجهه لا توحى لك بالركة من اول وهلة . ولكنك اذا تعرفت عليه عن قرب ألفتيت فتحي رقيق الطباع دمث الخلائق مرهف الاحاسيس . وكم من مرة قلت في سريرتي إزاء هذا التباين البادي: « يضع سره في اضعف خلقو » او شيئاً من هذا القبيل . ولكن محمدا لم يكن يركن الي هذه الرقة وهذه الوداعة كثيراً ، وذلك لانه كان يدرك وسائل التفوق الاجتماعي بين التلاميذ في تلك الحقب والازمان الغابرة . فهو علي بصيرة من أمره ، يعلم ان هذه الوسائل علي اختلافها وتباينها وفي كثير من منعطفات الحياة المدرسية انما كانت تنبني في المكان الاول علي اظهار التفوق الجسماني وتأكيد شدة المراس وقوة البأس ، خصوصاً عند المنازعات حول الانتماء الكروي او التفاخر بامجاد الحي السكني او العرق ومنابت الاصول في بعض الاحايين القليلة . فانه يتعين عليك ان تجتهد في ابراز بطولات الفتوات في حيك السكني ابرازاً تدعمه الاسانيد التي تحدث الاثر المطلوب



وتعود عليك برفعة الشأن بين اقران لا يري اي واحد منهم ان ابطال حيه يقلون درجة عن ابي زيد الهلالي او عنتر بن شداد العبسي ! واهم من ذلك يتوجب عليك - ان كنت راغباً حقاً في الفوز بالاعجاب وعلو القدر بين الناس - ان تؤكد صلتك الوثيقة بهؤلاء الابطال والفتوات حتي يهابك الناس او يكفوا عنك شرورهم علي اقل تقدير . كان محمد المصطفي يدرك هذه الامور ، ولذلك لم يركن ابدأ الي رفته المطبوعة ولا الي مقدراته الفنية العالية في مجال الرسم والغناء ، وانما تجاوز ذلك وأثر ان يتحدث بلغة العصر . ولما كان ذلك كذلك فقد زعم محمد مرة انه يعرف اللبخ معرفة شخصية ، وان اللبخ صديق حميم لاحد اقاربه ، فهو يستقي معلوماته عن هذا البطل الذي طبقت سمعته الافاق إما منه مباشرة وكفاحاً واما من قريبه هذا الذي كان لا يفارق اللبخ في غدو ولا في رواح . ولقد ابان لنا محمد - بعد ان قدم هذه الاسانيد التي لاتحتاج لمزيد من الاستدلال علي صحتها - أن اللبخ يستطيع دخول اي بيت وفي اي لحظة بالقوة ، ويستطيع إجبار اهل ذلك البيت علي اعطائه ما يريد ، وأنه لا يحمل في يده او جيوبه اي نوع من السلاح . يكفي انه اللبخ . فاذا زارك اللبخ فعين الحكمة ان تسلم دون اي محاولة للمقاومة فانك ان لم تفعل فلا سلامة لك ترجي ، ولن يحرك انسان ساكناً لنجدتك حتي وان كان عسكرياً يحمل مسدساً او بندقية وهو في زيه الرسمي ! وذلك لان اللبخ لا يأبه بأي قوة ولو كانت هي قوة السلاح ، فقد اوتي يداً مثل الكوريك وهي اقوي من « البلطة والعتلة » وأوتي ارتفاع قامته مثل الصهريج ، ورأساً اقوي وأعتي من صخرة سيزيف ، ورجلين هما أثبت في الارض من أعمدة الكهرياء ، لا قبل لأحد أو مجموعة ببأسهما الشديد . وحتى تكتمل الصورة في أذهاننا كما أراد لها محمد أن تكتمل وحتى نعلم مدي قربه من اللبخ ووثيق صلته به ، فقد زعم محمد أن البيت الوحيد الذي ظل أمنأ في حيه من صولات اللبخ هو بيتهم . ولك أن تتصور أي مدي بلغ أثر هذا الذي كان يرويه محمد في أذهان التلاميذ . غير أن محمد العوض مصطفي لا يدع مثل هذه الروايات المفزعة أن تلهيه عن هزله ومرحه الذي يتعشقه ويهرع اليه حتي في

أخرج الأوقات ، ولا تخونه بديهته الحاضرة ولا تفارقه روحه السمحة الهائلة الساخرة حتي وان كاد يصدق - من فرط تواتر الروايات وتنميقها بشتى صنوف الشواهد - أن اللبخ نفسه يوشك ان يطبق عليه ليخلع لسانه من بين فكليه . فقد همس في اذني - ونحن نستمع لقصص محمد المصطفي اللبخية مأخوذين اساري لقوة بيانه - قائلاً وهو يكاد ينفجر بالضحك لولا بقية حياء ومجاملة : ياخي هو داعاوز ليه لبخ ؟ يمكن يكون هو ذاتو اللبخ ! ولكني حمدت الله ان محمد المصطفي لم يسمع ذلك الهمس ولم يتبين كلماته ، وان محمد العوض عاد من بعده الي الاطراق وقد تبددت في داخل فيه وحلقومه تلك الضحكة التي كانت تنذر بالانفجار وتوشك ان تتفرقع به لولا انه تحكم فيها بحكمته التي تحسن خلاصه من مثل هذه الورطات ، فلم يبق من اثارها علي وجهه إلا بسمة شاحبة سرعان ما أطبق عليها شفتيه وكأنه ابتلعها ابتلاعاً . وقد بلغني أن محمد المصطفي بلال كان أحياناً - وفي غيابي - يستعير أبا الدفاع وينسبه الي حيه ثم يروي عنه الاعاجيب ، ليزيد من أمجاد ذلك الحي الذي يقطنه ويباهي به الناس . فبعد أن يروي له من البطولات والمآثر ما تجود به مخيلته العامرة بشتى الصور واللوحات البديعة ، فانه يؤكد لمستمعيه أن أبا الدفاع لم يكن صاحب بسطة في الجسم وسطوة وقوة فحسب ، ولكنه الي جانب ذلك كان عالماً درأكاً واسع الاطلاع . وآية ذلك انه يجيد اللغة الانجليزية ويتحدثها بطلاقة الانجليز ويتفوق علي كثير منهم في ذلك ! وكان محمد ينطق كلمات انجليزية ينسبها الي ابي الدفاع ، فيضحك بعض الخبثاء بعيداً عن سمعه ونظره ويشيرون في مكر ودهاء الي خطأ في النطق او خطل في نسق العبارة ، بما توفر لهم من معرفة ربما فاتت علي محمد او نسيها وهو يروي ما يروي وقد اخذ منه الحماس والإنفعال كل مأخذ .

ومثل جل أولاد ام درمان كان محمد المصطفي بلال يجيد « الشعبطة » في الطرماج ، ويبرع في فنون الزوغان من الكمساري والمفتش علي السواء . وقد ظل يفاخر بهذه القدرات والمواهب الي أن كان ذلك الصباح الذي حاول فيه أن « ينزل

عكس « من الطرماج ، فزلت قدمه وانبطح علي قفاه ، وتبهدل حاله وانعركت جلابيته وعمامته في التراب ، واصيب في ركبته اليمنى « بظلطة » أدمتها حتي ظهرت آثار ذلك علي جلابيته بقعاً من الدم ، ولولا انه استجمع ذخيرة مراسه وخبراته السابقة ، فواتته يقظته ومعارفه بهذه الطرائق فسحب رجليه ويديه وكورهما علي جسده في سرعة فائقة لما استطاع ان ينجو بجسده كاملاً معافياً من عجلات الطرماج المجنون الذي كاد ان « يدهس » بعضاً من اطرافه علي القضيب . فقام - أو لعله أقيم - من وهدته وهو يحمد ربه علي السلامة فرحاً بالاذني « السلاخي » الذي اصاب ركبته . ورغم انه اتى الي المدرسة في تلك الهيئة المزرية إلا انه نجا ايضاً من تفتيش الطابور باعجوبة ، ولعله قرأ الاخلاص في سره مراراً ودعا بأدعية منجية فوافته الاجابة التي لا تخيب ولا تتخلف عن مستحقها عند الله . ولكنه لم يكن لينجو من عيون التلاميذ وفضولهم الذي يقود عادة في لحظة واحدة الي تأليف قصة كاملة متناسقة المراحل والفصول عما حدث بالضبط وعلي وجه الدقة في ذلك اليوم ، وهي كلها من نسيج الخيال . وهم يعلمون تماماً ان من اصعب الامور علي محمد المصطفي ان يعترف بالهزيمة في مغامراته الطرماجية ، لانه كان من قبل ذلك قد « قلق رؤوسهم » وصمّ أذانهم « وشطب » ادمغتهم بما كان يرويه عليهم من فنون « الحرفة » التي كان يدعيها والتي قل ان تجد لها مثيلاً في مآثورات « الادب الطرماجي » المتناقلة بين التلاميذ . فلم يبق لمحمد بد من أن يأتيهم بمبرر معقول لهيئته الرثة التي أتى بها صباح ذلك اليوم الي المدرسة . ولم يبق هناك معني لما كانت توحى به تلك الحالة المبهدة المزرية التي كان عليها في ذلك الصباح إلا ان يكون قد اشتبك مع غريم له في معركة ضارية وخرج منها جريحاً معفر الثياب كسير الفؤاد . اما ان يكون السبب هو الطرماج واما ان يكون هو معركة لم يكتب له فيها النصر ، فماذا هو فاعل ياتري ؟ ولما كان هذان الخياران امرين احلاهما مر ، ولما كان الانهزام في معركة او شكلة يعد عيباً كبيراً ومنقصصاً ونكوصاً لا يغتفر ، وهو لا شك يقلل من شأن محمد بين اقرانه وربما دفعهم الي الاستهانة به ونسف - في

نظرهم - جميع الأماجد التي حققها بأقاصيصه عن اللبخ ومعرفته الشخصية له عن قرب لا يمكن ان يحلم بمثله غيره من التلاميذ ، فقد أثر محمد ان يعترف بحقيقة الذي حدث بالفعل . نعم كان في هذا الاعتراف الذي أجبرته عليه الظروف حيث صعب الخيار وتعذر منقصة واضحة لانه كان كغيره من التلاميذ العفاريين كثيراً ما يروي عن مغامراته في ركوب الطرماج بدون تذكرة والخروج منها جميعاً سالماً معافى ، رغم وجود المفتش والكمساري ورغم تعدد المحطات وطول مدة السفر . وكانت هذه السقطة دليلاً ساطعاً علي ان مقدراته الطرماجية لم تكن بالمستوي الرفيع الذي كان يفاخر به ويشيعه بين الناس . وهذا يعني ان مصطفى عابدين والفاضل شريف والتجاني الطاهر وابراهيم الامين ولغيف آخر من زملائه كانوا اشد مراساً منه واصلب عوداً في هذا الفن ، وانهم كانوا اثبت منه قدماً واعلي موهبة في هذا المضمار . ولكنه ادرك ان التنازل عن قمم الريادة في هذه الحلبة أهون بكثير من ان يسود القوم انطباع بأن محمداً قد لقي علقه واصاب عاراً من مجهول ، وانه انهزم امام هذا المجهول ، وهو امر بالطبع لم يحدث . ولكنه اذا ذهب الي انكار مثل هذا الحدث واصر علي رسوخ القدم في موهبة قدرات الركوب والزوغان والنزول الطرماجية فلا بد له ان يقابل فضولهم وتساؤلهم عما حدث بإبداء سبب مقنع آخر لهذه البهدة التي لقي بها زملاءه في ذلك الصباح النكد . وليس هنا لك من سبب آخر مقنع سوي معركة تكون قد انتهت بهزيمته هزيمة منكرة وربما بفراره من الميدان . ولذلك رأي محمد ان الحكمة تقتضي الاعتراف بما حدث حقيقة ، رغم ان مثل هذا الاعتراف الصريح يعني بالنسبة له التخلي النهائي عن اي دعاوي مستقبلية فيما يختص بالتفوق في مضمار البطولات الطرماجية . وذلك بالطبع خسران عليه مبين ، ولكن بعض الشر أهون من بعض .

لقد اسفت لهذه الورطة التي وقع فيها محمد وتمنيت لو كان في مقدوري ان اجد له مخرجاً يحفظ عليه دعواه في هذه المجالات التي لم يكن غرضه من الخوض فيها إلا مجاراة غيره حتي لا يتخلف عن مواقع الصدارة وحتى لا يتهم بالقصور عن التحدث

بلغة العصر واجادة مفرداتها . وذلك ان محمداً لم يكن في حقيقة أمره يحب الشيطنة والشفقة بل كان مدفوعاً لهما او لمحاولة الاتصاف بهما تمشياً مع مفاهيم التلاميذ في تلك الايام . ولكن الامر الذي كان يميز محمداً ويطبع شخصيته ويبين عن حقيقتها التي هي عليها انما هو رفته وشفافيته ولين عريكته ، رغم ما كان يضطر لكي يباهي به من سطوة وجبروت وقندفة تماشياً مع منطق التفاضل السائد في اوساط تلاميذ تلك الازمنة . فهو في جوهره مطبوع علي الرقة والمسألة ، وروحه روح فنان اصيل . ولو انه لم يسلك الطرائق المفضية الي التوظيف في اي حقل من حقول المعارف والتأهيل المهني ، لربما صار بلبلاً صيدحاً يشدو مع البلابل التي تطرب الاسماع وتبهج النفوس والقلوب . ولقد التقيته قبل فترة لا تتعدي العام الواحد وقد ارسل لحيته واطلق لها العنان ، فقلت في نفسي : لعل محمداً المهندس العالم وجد لصوته الرخيم رياضاً آمنة في تلاوة القرآن المجيد .

### **احمد بدر ... وتعاليم كبس الجبة :**

اما القول بان احمد بدر كان تلميذاً مشاغباً اصلاً فهو حكم غير دقيق علي اقل تقدير ، وفيه من التجني عليه ما لا يرضاه الفهم السليم لدوافع التطبع بالشيم السائدة في مجتمع مدرسي يمور موراً ولا يكاد يستقر علي قرار . ولكن يمكن القول بان احمد بدر كان يتبع بفطرته الحكمة القائلة : اذا كنت في روما فافعل ما يفعله اهل روما . فماذا كان بوسع احمد بدر ان يفعل غير التجاوب مع ما يفرضه عليه مجتمعه المدرسي ويغريه به ؟ إنه يجلس حيناً في الصف الامامي وحيناً آخر في الصف الذي يليه ، وهو في كلا الحالين - ولم يكن له من خيار ثالث - محاط بمجموعة متمرسه من العفاريين الحقيقيين - محمد العوض وهاشم مصطفى القرد والفاضل شريف الراعي . وهذا ثلوث ان سلطه الله عليك صار كالمعقبات من خلفك ، وهو ثلوث انفق الكبتل علي كتابة اسماء افراده علي السبورة اكواماً من الطباشير حتي تاكلت « البشاورة » من تعاقب المحو والاثبات واصبحت خرقة بالية . وكاد سوط عم مبارك ان ينطق معلناً برمه

بهم لكثرة ما تعرضوا للسعاته دون ان ينال ذلك من تعاضم شقاوتهم فتيلاً . وكاد عم محمود وعم عبد العزيز وعم جادين ان يعطوا تقييماً دقيقاً لاوزان اجسادهم الي درجة جزيئات الوقية من كثرة ما حملوهم ويطحوهم علي الهواء تلقاء كرابيج الاستاذ الحاج هاشم المنتظمة . فكيف يمكن لاحمد بدر ان ينجو من تأثير هذا الثالوث الذي يحيط به بين جدران الفصل ولا يتركه لشأنه حتي خارج هذه الجدران ؟ والحق ان احمد بدر كان بطبعه تلميذاً وديعاً موادعاً حسن المظهر صبيح الوجه مشرق الحيا . ولقد حاول في اول امره ان يحافظ علي هذه الوداعة ، وان يجتنب كل ما يكره عليه صفوها او يسمها بما لا يلائمها ولا يتسق معها من انماط سلوك والوان تطبع . وظل يقاوم نوازع الشر يدفعها عن نفسه دفعاً بكل ما أوتي من مقدرات علي الصمود وتصميم علي البقاء بعيداً عن مؤثرات هذا الثالوث التي طفتت تحاصره حصاراً وتغريه بالركون اليها اغراء . وهو بالفعل قد ادار اليهم ظهره في غير مامرة ، وكاد انه يفلح في الافلات من قبضتهم العبيثة الماكرة ، واتي عليه حين من الدهر وهو يظن انه قد نجا تماماً بوداعته من هذه الشراك المنصوية . ولكنهم لم يتركوه وشأنه أبداً ، بل ما زالوا به يلاطفونه ويغرونه بفلسفتهم العبيثة واحابيلهم الفوضوية الهرجلية حتي راضوه ابرع رياضة ، وانقاد لهم اسلس انقياد وقرر في نهاية المطاف ان يصير بعضاً من ملتهم بعد ان حسبنا ان الله قد نجاه منها . وبعد ان لانت لهم قنائته توثقت عرى صلاتهم به ، واخذ هو نفسه في نهاية الامر - لا بفطرته هذه المرة ولكن تحولا مع الحال المعاش - الي حكمة اخري تقول : « إذا لم تستطع ان تهزمهم فلتنضم اليهم » . هكذا فعل احمد بدر ، وهو في حقيقة الامر مغلوب علي امره حيران لا يدري بصورة قاطعة ماهو الصواب الحقيقي في هذا المنعطف . فلما صار الي ما صار إليه وأصبح ظله رابعاً لظل ذي ثلاث شعب ( لا ظليل ولا يغني من اللهب ) بدأ اسمه يظهر علي السبورة في عداد المهرجلين في الفصل وأحياناً في طليعتهم ، فينال ما شاء الله له من عقاب . ولقد ادرك احمد بأخرة - وكان ذلك غائباً عنه في اوائل عهده « بالمسخة » و« الطمسة »

التي سيق اليها سوقاً ودفع اليها دفعاً - ان دهاقنة الفوضي واساطين الهرجلة كانوا يلبسون لكل حال لبوسها ، ويعدون لكل امر عدته فيتمنطقون باللبد الواقية من الم السياط . وادرك ايضاً انه - بعد ان صار اسمه كثير الظهور علي السبورة - قد وجب عليه ان يتمنطق بمثل ما به يتمنطقون وان « يتلبد » بمثل ما به « يتلبدون » . واعجبه ذلك وسره حتي كاد ان يظن انه اصبح فتوة ، وانه يستطيع ان يتعرض لاي « بطان » في اي « سيرة » في حي الهاشماب لولا ان ذكره احد العقلاء من هذا الثالث الغاوي بأن وقع السوط علي عقب ملبد غير وقع السوط علي ظهر عار تماماً ، وان المغالاة في اظهار الشجاعة دون تدبر للامور وادراك لدقائق الاشياء لا تعقب الاخسراناً وببلا وفضيحة تتناقلها الافواه خاصة اذا كان مسرح الاحداث « سباتة » والملا المحيط نساء وفتيات ، وفي يد العريس سوط نو لسانين . فاستمع احمد لنصيحته وارتدع وكف عن التعلق بأمني الشهرة وذيوع الصيت علي نطاق الحلة ، واكتفي باعلان صموده في وجه سياط المدرسة وهو يعلم انها انما تقع علي بعد واق من لحم العقب . ولذلك كان بعض الاساتذة يندهشون لكثرة تعرضه للعقاب ولرباطة جاشه - رغم ذلك - تحت لسع السياط . ولما ادركوا السر الحقيقي وراء ذلك تفاضوا عن الامر كله تماماً كما كانوا يفعلون مع غيره من التلاميذ .

لقد كان احمد بدر في اول امره تلميذاً يمكن ان يطلق عليه صفة المسكنة ، لا بمعنى الفلس فما كان ابعده من ذلك ! ولكن بمعنى الطيبة او قل بمعنى السذاجة الفطرية . تلك كانت هي طبيعته ، وتلك كانت هي سمته التي جذبت اليه بعض الطيبين من امثال محمد عبد الله الشيخ و احمد الحبيب حسين وأغررت به بعض الخبثاء ومن بينهم ذلك الثالث الماكر الذي سلفت الاشارة اليه . وكانت هي عين السمة التي جعلت اهل الربع الخراب وبعض الصناديد الآخرين يعجبون لحاله عجباً هو اقرب الي العطف عليه منه الي الزراية به والسخرية منه . غير ان احمد بدر كان تلميذاً نكياً علي الرغم من مظاهر المسكنة التي لاحظها عليه الناس في اول عهده بالمدرسة . فسرعان ما ادرك

ان الذى يود ان يعاشر الصقور ويتعامل معهم بفعالية يقترب بها من الندية وما يشبه المساواة لا بد له من ان يمتلك او ينمى مخالباً غلاظاً حداداً شداداً ، وان يصطنع او يستصحب اجنحة ضخماً مشرعات ( ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن ) . وان من يود ان يتعايش مع الذين وقعوا من السماء مائة مرة لابد له من ان يصعد الى السماء ويقع منها عشرات المرات ، بشرط ان ينهض من كل وقعة من هذه الوقعات سالماً موفور الحيوية . وذلك لأن الصقور لا تعباً ببغات الطير ، وقد تغرس فى لحمها مخالباها او تغطى عنها الفضاء وتمنع عنها الهواء بريش اجنحتها المترامية العظام . وان الذين وقعوا من السماء الى الارض مائة مرة ثم قاموا فى كل مرة من هذه المرات وانقلبوا لم بمسسهم سوء هم الذين يعرفون دروب السماء والارض . لقد ادرك احمد بدر كل هذه الحقائق بذكائه وفطنته ، وقرر امتثالاً للضرورة وتمشياً مع الظروف المحيطة ان يتحول من ملاك مسالم وديع الى ( شيطان ) مشاكس مشاغب نشط . كيف وهو من العباسية ، او قل حى الهاشماب ، غير بعيد من الموردة ، تدوى فى مسامعه وفى الافاق وتجرى امام بصره واعين الناس انباء ومشاهد بطولات « كبس الجبة » وخوارقه، ويسالات فتية الخور الذى يريض ساكناً وهم « منبطحون » على ترابه قرب نادى الموردة ؟ وربما رافقه فى دربه الى المدرسة والعودة منها على ذات الطريق كل من محمد العوض مصطفى ومحمد الحسن الشايقى وهاشم مصطفى القرد . وكل من هؤلاء الثلاثة اذا حدثك عن « كبس الجبة » وفتية الخور استمعت منه للاعاجيب وابلغك مما يرويه عليك أشباه الاساطير . وهو يستطيع ان يقنعك فى بساطة وسهولة وبالشواهد والاسانيد المقنعة ان « كبس » لا يعجزه ان يفلق باب السنط ببنية واحدة الى نصفين ، وان « بنيته » اذا صحت القبضنة وتمكنت من الباب يمكنها ان تفتته الى شظايا متناثرة بضربة واحدة ، وانه يستطيع ان يتلقى الف طوية من الطوب الاحمر الصلب برأسه الاصلب ، الواحدة تلو الأخرى ، فتنشطر كل واحدة الى شطرين وتنفلق الى نصفين وقد تتناثر الى قطع صغيرة ، دون ان يصاب درأسه بأذى ودون أن



يعتريه الم ، ودون ان يلقي من ذلك ادني رفق. وهم الذين وصفوا له بدقة شاهد العيان كيف ان كبس الجبة يستطيع وحده دون عون احد ان « يفرق اللعبات » وان يحيل سامر الاعراس الي ثلل صغيرة متفرقة والي ملا شتيت الشمل من النسوة الفرقات والصبية والرجال المقزوعين . ولقد كانت هذه « الفرقة » التي تفرد بها « كبس الجبة » تعد من البطولات النادرة . ولكن شتان ما بينها وبين « الفرقة » التي اشتهر بها « بقة عقود السم » ! فتلك قد خلدتها شاعرة القوم اذا تقول عنها وعن « مقتع بنات جعل العزاز من جم » :

الخيال عركسن ما قال عدانن كم

فرتاق حافلن ملاي سروجن دم

ولو علم احمد بدر او الم بهذه المعاني لامتدت امام ناظره آفاق مضيئة رحاب وتغيرت نظرتة للامور . وهو قد استمع طويلا الي اقاصيص الفاضل شريف عن حوش الجمال في ود نوباوي وعن « المسرح » معقل الشياطين والمردة والبعاعيت ، وعن طرائف ومغامرات موسي ود نفاش ، ودارت رأسه كثيرا مع حكايات اللبخ وابي الدفاع وشمشون وبله الاحمراني وغيرهم من المردة الادميين وغير الادميين ، فاختار لنفسه ان ينضو عن نفسه آثار المسكنة ويغادر طائعا مختاراً عالم السذاجة والطيبة ، ليرتاد افاق الشفتنة والقنفذة حتي يحتل من نفوس زملائه مكانة مرموقة ترفع من قدره في انظارهم وتعلي من شأنه بين ظهراينهم . ويمكن القول بأن احمد بدر قد نجح في ذلك نجاحاً مرموقاً وأبلى بلاءً مشهوداً ، وان كان الثمن الذي دفعه من اجل ذلك غالياً بعض الشيء . وذلك ان مغالاته في التخلق بأمثال هذه الخلائق والتحقق بأشباه هذه الملكات قد جرته وجرفته في احايين كثيرة الي شجارات عنيفة ، وكاد بعض صقور فصل الاوائل ان يققوا إحدى عينيه لولا ان تداركته العناية الالهية فأرسلت الي نجدته كاتب هذه السطور والامير عبد الرحمن ككتباي وعبد الحميد عباس . فكان ما كان من عراق وثار ماثار من تقع قوامه الحصي والتراب ، وتبديل ما تبديل من صياح وسباب ووعيد

فخرج احمد من تلك الواقعة الحامية سليماً معافى لم يزد الأذى الذى أصابه عن « كندكة » وجهه الوسيم بالتراب ، وتعفير عمامته الناصعة البياض بأوشاب الارض وطين الجدول ، واستحالة جلابيته النظيفة المكوية الي خرقة هي اقرب الي « المعراكة » من اي شئ آخر .. ثم اصابته « بظلمة » او قل خدشة طفيفة فوق حاجب عينه اليمني . وكان كل هذا الذي حدث ثمناً زهيداً للسلامة التي أب بها احمد من ذلك المعترك الخطير . ولقد حفظ لنا احمد ذلك الجميل الذي أوليناه اياه ، واكبر فينا تلك المروءة التي حدث بنا الي الاسراع لنجدته دون تهاون او ابطاء من قبل ان يصبح « ملطشة » امام المعتدين تتقاذفه الايدي او « تيوءة » هملاً تحت ارجل العتاة تتعاوره وتتراكله وتتشاوته الاقدام .

ومنذ تلك الواقعة الي تعرض لها احمد بدر ونتيجة لوقوفنا الي جانبه بكل ما اوتينا من قوة ، واستنقاذنا له من براثن الاعداء ، توثقت فيما بيننا وبينه عري المودة واسباب الصفاء . واذا كان احمد قد خرج من تلك المعمة بما لا يؤبه به من الاذى الذي ذكرنا ، فان كل واحد منا نحن الثلاثة قد باء بعد انجلاء العراك بما هو اشد وادهي . ولكننا تحملنا ما اصابنا في جلد وكبرياء ، وكان عزاؤنا ان الناس شهدوا لنا بفضل المروءة وحياسة الظفر والانتصار . ولو كان صقور فصلنا حضوراً لا نحسنت نتيجة المعركة التي طال علينا مداها في لحظات . ومهما يكن من امر فان احمد بدر صار بعد تلك الواقعة من اخلص الخلاء بالنسبة لثلاثتنا . واستمع بوعي وادراك الي نصائح عبد الرحمن كنتبائي الذي امده بالاركان الاساسية لفلسفته الخاصة التي ارتضاها لنفسه . وهي في حقيقتها استراتيجية واقعية متكاملة تدعو الي الاقدام واقتحام الاهوال واطراح التهاون عندما تكون مؤخرتك موفورة الحماية ، وتنهى عن النكوص والتقاعس اذا كان الخصم المناوئ وحيداً ، وتوحي بارتياح دروب السلامة اذا كان اساتذة بعينهم يرقبون علي البعد ما يجري بينك وبين غيرك من مقدمات العراك . ولقد افاد احمد بدر كثيراً من هذه الفلسفة التي كان يبشر بها عبد الرحمن كنتبائي في ملامح محدود من

اصفيائه ، ولكن احمد كان احياناً يخط الامور وتشتبه عليه البنود وتنبهم عليه التفاصيل ، فيقدم حينما يكون الاقدام تهلكة صريحة ، ويدبر حينما يكون الادبار عاراً ومثلبة تلوكها بعض الالسن الخبيثة . ورغم ان نصيحة عبد الرحمن كنتبائي كان مجالها التعامل مع التلاميذ إلا ان احمد بدر قد ظن أنها فلسفة تصلح في كل الاحوال وتناسب جميع الظروف . ولعله نسي نفسه حين حاول استخدامها مع الشيخ ابي بكر والاستاذ الحاج هاشم ، فذاق وبال امره .

هكذا تحول احمد بدر الوديع الهادئ الي عفريرت يعمل له الناس الف حساب . ولكنه كان في حقيقة أمره تلميذاً فطناً اصل خلقه الوداعة ، يعرف ذلك فيه من تعامل معه عن قرب . بل هو كان في بادئ أمره لا يخاشن حتي من خاشنه من زملائه . فلما كثرت عليه المخاشنات واراد ان يعيش في ذلك الوسط مرفوع الرأس ألباً للضيم ، خلع عن نفسه مظاهر الهدوء ونضا عنها ثياب المسالمة ، واعتمد جدوي حكمة الهجوم من اجل الدفاع . ولكن حسناً فعل في النهاية باستيعابه لجوهر فلسفة عبد الرحمن كنتبائي ، فنجا من شرور ووقع في آخر ، وهذا هو حال الدنيا مهما كانت درجة يقظتك ورجاحة عقلك . ولو انه استمع الي نصائح عبد الحميد التي كانت تحث علي الاستهانة بكل احد وارتفاع العجيرة في كل منعطف لتكاثرت عليه الهزائم ولتوالى عليه النكبات . وذلك لان عبد الحميد كان يعرف ويتقن التوقيت المطلوب في الظروف الملائمة لما يدعو له ويحث عليه ، بينما كان احمد يتعلم ذلك ويستجلي اسرار مراحلها واغوارها ، وشتان ما بين عالم ومتعلم ، وما بين بصير ومستبصر وخبير ومستخبر .

### **أبو السباع ... والصداع والمفص :**

علي نقيض الكثيرين من اولاد فصلنا في الانفتاح علي بعضهم البعض وعلي المجتمع المدرسي الصاخب عموماً كان اسماعيل عبد الصادق ابو السباع . وليس ذلك لأنه كان منغلقاً علي نفسه هائماً بها بعيداً عن غيره مستغنياً بعالمه عن عالم الناس ، ولكن لأنه كان صاحب اولويات مرتبة ومنتظمة ، يأتي في مقدمتها الاقبال علي الدروس

ثم الاهتمام بالدروس ، ثم اعادة الاهتمام بها .. ويأتي ما سوي ذلك في مؤخرة القائمة . وذلك أن أبا السباع لا يولي اي قدر من الاهتمام يذكر لما يمكن ان يلهيه عن منادمة الكتب و« مصافرة » الكراسات ومحاولة تجرع جميع محتوياتها وان غص بذلك او شرق او عاني من سوء الهضم المعارفي او تقلصات الذاكرة المتخمة . كنت القاه احياناً في الصباح الباكر علي درب « الصور » ونحن نولي وجوهنا شطر المدرسة مسرعين اذا اقترب ميعاد جرس الطابور او متئدين اذا كان في الوقت متسع . ولكن حاله كانت واحدة لا تتغير ، فهو يوماً مسرع مهموم قلق يبدو وكأنه يحمل اثقالا علي اثقالي . ولم يكن في ذلك من عجب . فالذي يعرف اسماعيل لا يشك لحظة في انه يكاد يكون التلميذ الوحيد الذي ألي علي نفسه ان يهب وقته كله للدروس والتحصيل . ولقد حاول كثير من زملائه ان يصرفوه عن هذه الرهينة بعض الشئ ولكن دون جدوي . فهو يعرف رسالته كتلميذ معرفة جيدة ويود ان يؤديها علي اتم الوجوه وأكملها . ومن كان هذا شأنه وتلك قناعته فليس من بين بنود اجندة يومه ما يسمى اي مواضيع أخرى . فالموضوع عنده واحد ، لا ثاني له ولا ثالث ، وهو لا يتبدل ولا يتغير ولو تبدلت الارض غير الارض وتغيرت السماء غير السماء . فهو لا يهتم اي اهتمام ظاهر بأخبار الفرق الرياضية ، ويصعب عليك ان انت انصفت ان تصنفه بين مؤيدي هذا الفريق او ذلك . واذا كان ابو السباع يخافت احياناً - وقد يجاهر فيما ندر - بعواطف هلالبية فان ذلك يعزي الي استشعاره شيئاً من الحرج في بعض الاوقات ، والي محاولة تاكيد ما يشبه الحضور في إطار الغيبة الحقيقية ، والتعلق بحسنة الامام من كل فن بطرف وان كان الطرف الذي اشتهر هو بالتعلق به واحداً لا ثاني له ، والي التحلي بمكارم المجاملة والتوشي بدثار محاسن العصر . فمن محاسن ذلك العصر ومن تمامها التشجيع للفرق الرياضية ومعرفة اسماء نجوم الكرة ولاعبي فرق الدرجة الثانية وربما معرفة انسابهم وتفاصيل حياتهم اليومية . وقد كان ابو السباع في شغل شاغل عن كل ذلك ، واذا كان لا بد له من معايشة الناس والاحداث حتي لا يوغل في مجاهل الغربة ويتهم بالخروج

علي الجماعة ، فلا اقل من ان يتمسك بالعموميات ويفصح ولو علي فترات متباعدة بملاحظات تكسبه بعض ملامح العصر وتجعله علي مقربة من قضايا الملحة بالنسبة للتلاميذ . ولكن مادته في هذا المجال لم تكن كافية وليس له من سبيل الي مثل هذه الكفاية لأن الكتب والكراسات لا تشتمل عليها ، ولأن الحصول عليها يتطلب ارتياد الاندية الرياضية والتعرف علي اسماء اللاعبين ، والاختلاف إلى دار الرياضة بصورة شبه منتظمة ، الامر الذي يحتاج الي انفاق الوقت والمال . والوقت عند اسماعيل عبد الصادق كالسيف ان لم تقطعه في الدروس دون غيرها قطعك ، والمال امره افدح واشق . وهذا الاقرار الاخير لا ينطبق علي اسماعيل وحده وانما يشمل جميع التلاميذ . ولكنهم - ولتعلقهم بالمعارف الكروية العصرية - احسنوا اصطناع البدائل واتقنوا الالتفاف من حول هذه العقبة ( الكأداء ) . فزيارة اندية الفرق الرياضية لا تحتاج الي اكثر من انفاق الوقت ، والوقت عند كثير منهم ليس سيقاً ولا هو من ذهب . ودخول دار الرياضة ممكن وان لم يكن في جيب جلابيتك « ابو النوم » وذلك لان ابواب دار الرياضة تفتح علي مصاريحها قبل انتهاء المباراة بخمس او سبع دقائق ، فينهمر الي داخلها اشباه سيل العرم من الموجات البشرية . غير ان بعض « الشفوت » لا يسعهم الانتظار حتي تحين هذه اللحظات وانما « يتشعبطون » ويتسلقون جدران دار الرياضة العالية كما تتسلق القروذ سوامق الاشجار لا يعبأون « بالسوارة » الذين يحملون الكرابيج وهم علي سهوات الخيول . لقد كان ابو السباع بعيداً عن كل هذا بعد الشمس ان يؤتي بها من المغرب . ولكنه يريد ان يكون في الصورة ليس خارجاً من اطارها ، ولذلك فهو يعبر احياناً عن عواطف هلالبية . غير اني لا استبعد ان ينكرها ويتملص منها اذا وجد نفسه بين ظهرائي وسط مريخابي . ولست ارتاب في انه سينقلب عليها تماماً ويتنصل منها ويتبرأ إن تجمع من حوله او احاط به من يوقن انهم مورداب !

فعند اسماعيل حاسة سادسة قادرة علي التقاط ادق الاشارات من اجواف الاثير

تنبيهه بالخطر قبل وقوعه ، وعنده كشافة خفية تسير أمام قدميه كأنها رادار متحرك تنبئه خلال وقت كاف الي وجود اي حفرة توشك قدمه ان تنزل به ليسقط فيها ... فيتحاشاها ويتجنبها في اللحظة المناسبة . وليس معني هذا ان اسماعيل عبد الصادق لم يسقط ابدأ في حفرة من الحفر ، بل هو كثيراً ما فعل ، وذلك عندما تتكاثر عليه الحفر وتلتوي عليه طرائق السير وتزدحم حاسته السادسة بجيوش المخاطر وفيالق الشكوك والالوهام ، وينعطب جهازه الراداري من شدة احتشاده بالاشارات المتناقضة المتتابة . فعند ذلك تصيح النجاة من إحددي الحفر هي عين العدول الي سواها والوقوع في غيرها . إلا أن رحمة الله واسعة وفضله علي عباده جزيل ونعمه تعالي لاتحصي . فقد يكون الوقوع في حفرة نجاة بالمقارنة لما يمكن ان يكون ، وسلامة من الوقوع في غيابة الجب او غياهب ما هو اعمق منه واشد تنكيلا . لقد قلنا ان اسماعيل كان دائماً يبدو مهموماً رغم انه يستذكر دروسه باجتهاد ومثابرة وعزيمة قل ان تجد لها مثيلاً بين اقرانه . ولست ادري ان كان محقاً في حمل اثقال هذه الهموم علي الدوام . ولكنه كان يحملها في قلبه وكنا نقرأ اثارها علي وجهه . فاذا ذكرت له الاستاذ غزالي السراج امتنع لون وجهه وارتعدت فرائصه وانحبس عنه النطق والكلام . واذا حدثته عن الاستاذ فرح غامت في وجهه الابتسامة وعلا محياه الكدر . واذا القيت علي مسامعه اسم الاستاذ الحاج هاشم اوشك ان يرتد عائداً وان يولي علي ادماره نفوراً . فهو لا يتوقع من اي منهم خيراً و لا يرتجى من احد منهم جزءاً من قطمير . ولكنك اذا حدثته عن الشيخ ابي بكر فانك ملاق عجباً وظافر بغريبة . وذلك ان الحديث عن الشيخ ابي بكر لا يستثير في نفسه المخاوف ولا يبلغ به حافة الفزع . بل هو لايزيد على ان يتبسم في شئ من الرضا وتلوح علي وجهه علامات القبول . وذلك ان النكال الموعد المرتبط باسم الشيخ والذي لا مهرب منه ولا منجاة انما هو امر مجرب كثير الحدوث ، تقلل من آلامه وتباريحه خفة دم الشيخ وغرائب حركاته البهلوانية التي تجلب الضحك من معادنه ، وتدافع الفاظه المنتقاة التي تفرد بها قاموسه ، حتي صار هذا الخليط المتباين

من الاقوال والافعال يشكل مادة حية وغزيرة لمجالس انس التلاميذ وتعليقاتهم واستنباطاتهم في اوقات الفراغ . تلك كانت هي الطلبة التي كان ابو السباع لا يستنكف ان يجود ببعض وقته للمشاركة فيها ، وقد حمد له زملاؤه هذا الجود وأكبروه فيه .

ولا يظنُّ أحد ان اسماعيل عبد الصادق يقل فطنة وذكاء عن الاخرين . فهو تلميذ نكي دون ريب . ولكنه - ولسبب لانعلمه ولم نجرؤ علي استنبائه عن حقيقته - قد اقمع نفسه وحملها علي الاعتقاد بأن ميدان ممارسة الذكاء هو خارج جدران الفصل . اما في داخل هذه الجدران فان المطلوب هو رد البضاعة الي اهلها كاملة غير منقوصة ، ولذلك فليكن الاعتماد علي الذاكرة بمعنى الحفظ دون سواء . ومعلوم ان مثل هذا الحفظ قد ينفع في بعض الامور وبعض النصوص والدروس ، ولكنه قد يخذلك في غيرها خذلانا مبيهاً ، وقد يبين عن رخاوة في الاستمساك بلب المواضيع وجوهر القضايا وعن قصور وعجز عن الاستيعاب الوافي . فلا بد من الجمع بين الامرين سواء كان ذلك داخل جدران الفصل او خارجها لانك لا تستطيع ان توقظ بعض مراكز الدماغ وتنبم او تعطل بعضها الآخر ، وان عمدت الي ذلك عمداً وقصدت اليه قصداً وابتغيت اليه أكثر من سبيل . فهذه أمور تصعب السيطرة عليها بالارادة الواعية لأن مراكز الدماغ علي اختلاف وظائفها انما تشكل في مجموعها وحدة متماسكة متناسقة . ولأن تجتهد ما وسعك الاجتهاد ثم تبقى على مقدمة دماغك في حالة يقظة مستمرة خير لك من ان تسلبها هذه الملكة عن قصد ، واجدي لك من ان توقد مصابيح المعرفة في مراكز الحفظ علي حسابها ، وتتركها في ظلام دامس بهيم . ولكن ، من الذي يستطيع ان يقنع ابا السباع بخطر نظريته ، ويرشده الي حقيقة ان الدماغ في وحدة اجزائه - وخاصة خلاياه ومادته الرمادية - انما هو كالجسد في وحدة اعضائه اذا اشتكي عضو منه تداعي له سائرته بالسهر والحمي ؟ ومن الذي يستطيع ان يقنعه بأن الساعة لن تقوم حتي تستوفي كل نفس رزقها الذي كتبه الله وقدره لها ؟ وأنها لن

تفارق هذه الدنيا حتي تتقاضى جميع ما سطر لها ؟ وان ذلك يشمل فيما يشمل العلوم والمعارف ايضاً ؟ وانا لست في التذكير بهذا الذي اقول بعاتب علي الصديق العزيز اسماعيل ولا بلائم له ، فما عرفت هذه الحقيقة عن فهم إلا بأخرة ، وما انا الان بأعلم بها منه . ولكن ربما كان يبدو لنا مغالياً في تلك الايام ، متعجلاً في امره ، مبالغاً في ابتغاء الاسباب وجد السعي لاستيفاء رزقه من العلوم ، غير متمهل ولا مجمل في الطلب . ولامشاحة في ان المغالاة نهج غير محمود في كافة الاحوال .

ولكن الحق يقال ان ابا السباع - بجانب ذكائه وفطنته ، ورغم تطرفه في استنكار دروسه الي درجة ما عرف في تلك الازمنة باسم « الكب » - كان تلميذاً كريم الخلاق طيب النفس ، لا يبدأ احداً بعداوة ، ولا يماري ولا يجادل فيكثر الجدل ، فهو مشغول البال بهموم الدروس ، شديد الانكباب عليها . ويقيني ان حصيلته الان من العلوم والمعارف لا تداني ولا تجاري ، وليته يكتب وينشر ، إذاً لقرأنا عجباً . ولكنه كان منذ تلك الأزمنة ميالا للتواضع ونكران الذات . وكانت بعض اقواله وتصرفاته - وحتى بعض صمته وإطراقه وتأملاته - توحى اليك باعتقاد راسخ في نفسه مؤداه انه مستهدف من قبل الاقدار . يعرف ذلك من رافقه في ام درمان الاميرية وفي خور طقت. ولذلك هو قد ادار ظهره منذ وقت مبكر للطرماج ، فأراح نفسه من مطاردة الكمساري « وزرة » مفتش التذاكر ومغبة النزول الاضطرابي « العديل » من هذه المركبة المجنونة ، ناهيك عن مخاطر « النزول العكس » الذي يتباهي به بعض السذج المغامرين ويدعون اتقانه في جميع « الكشات » ولايري ابو السباع إلا انه جن صريح او « لحسة » مذهبة للعقل تماماً علي اقل تقدير . ليس ذلك فحسب بل هو ايضاً أدار ظهره لهذه الدابة الجديدة التي يسمونها البسكليت ، وذلك لعدة اسباب . اولها ان الوقوع منها قد يكسر الرقبة او الاضلاع او الرجلين . وثانيها ان العجلاتي يصر علي ان تدفع له قرشين كايجار للعجلة عن كل ساعة . وثالثها انك اذا استأجرتها وأمنت من الوقوع منها فانك لن تنعم بها طويلا لان كل واحد من معارفك يريد منك ان تعطيه



« سحبة » والخير كل الخير في ان توصل هذا الباب تماماً ، ولذلك فقد كره ابو السباع العجلات والعجلاتية علي السواء وسد هذا الباب الذي تأتي منه الريح فاستراح ، ولكنه مع ذلك لم يسلم من نواذب الدهر بل هو قد وطن النفس علي الاستعداد لها وتلقيها . فلما انكسرت جريدته في احدي نوبات المصائب التي كان شديدة القابلية لها ، وظلت ذراعه ويده علي خرقة من الديمورية تتدلي من عنقه لتحمل عنه ثقل الجبص الباريسي ، لم يقابل ذلك الحدث إلا بجنان ثابت ويقين راسخ ان ما كان ليصيبك فلن يخطئك ، وما كان ليخطئك فلن يصيبك ، وبدا وكأنه كان يتوقع ذلك المكروه ويعد نفسه للصبر عليه . وليته توسع في فهم دلالات هذه المقولة الشريفة واحتكم الي سعة شمولها ورحابة أفاقها في جميع شؤونه المدرسية علي الاقل ! ولكن ، بالطبع لما انتقل ابو السباع من عالم الاميرية الي عالم ارحب منه هو خور طقت - ولم يكن ذلك الانتقال إلا ثمرة دانية حلوة القطاف لاقباله علي دروسه وانشغاله بها - أحس احساساً صادقاً ومريحاً بأنه قد تحول من عالم مثقل بالمخاوف ونكير الاسانذة الي افاق جديدة هي ( خير مقاماً واحسن ندياً ) ، وانه قد تراخي وانفك عنه عقال الهموم والاحزان فولج عالم الحرية الجديد من اوسع ابوابه . نعم كانت ام درمان الاميرية حلاًماً زاهياً قد تقضي ، أكثره المحاسن وحشود اطياف من الذكريات الحبيبة ، واقله بعض غلالات من التعاسة الناتجة عن « بشفمة » الاستاذ محمود بلال رزق وسوط عم مبارك ومرأي العمين محمود وعبد العزيز وكل منهما يخطر بالبردلوبة الكاكي احياناً والتيل الابيض احياناً اخري ، وعلي راس كل منهما عمامة تناسب في لونها بقية الهندام . ولكن خور طقت كانت شيئاً آخر . كانت جنة في ربوع كردفان الزاهية الخضراء - الغرة ام خيراً بره . كانت حلاًماً ابلج رائعاً .. ندي الاعطاف وارف الظلال . ولذلك فان ابا السباع كاد ان يشدو جهرة برقائيق الغناء ، وكادت احساسه ان تتجسس بروائع الشعر وتجأر بحانيات القوافي ، فهو قد ذاق طعم الحرية ونعم بحلاوة الانعتاق . ولكن ، بالرغم من هذا الفتح الجديد في حياته فان ابا السباع كان علي قناعة تامة - وهو محق في ذلك - ان شيئاً

من سوء الطالع يلزمه وأنه مستهدف للأقدار . وأية ذلك انه كان من بين طائفة من فتية اصيبوا بداء الملاريا في اول عهدهم في خور طقت . فظل معهم في « شفقانة » المدرسة « يهضرب » اياما حتي شفاه الله وشفاهم . فنسي الناس كل ذلك إلا « هضرية » ابي السباع التي روج لها محمد العوض مصطفي ترويجاً وزعم انها كانت في جملتها تسميعاً صريحاً للنصوص تمييزاً لها عن « هضرية » رفقائه الاخرين فحرمه حتي من نعمة ان المصائب يجمعن المصابينا . وعندما تهشم زجاج نافذة الفصل علي يد ابي السباع سال دمه القاني - لا اقول الازرق لان اسماعيل لم يكن يحفل بهذه الدعاوي - من رسغ يده اليمني اذ تمزقت الاوردة ولكن عناية الله ابقت علي الشرايين . وبعد ان اسعف في الشفقانة ظلت يده أسيرة الضمادات و« العلاقة » أياماً طرأاً ، وظل ابو السباع موضوعاً حياً لتندر محمد العوض وطرانفه التي لا تنتهي . وفي ذات مرة حاول أبو السباع ان يجد مسوغاً مقنعاً للتغيب عن بعض الحصص فذهب بدفتر المرضي الي الشفقانة ، ولكن عاد وقد كتب المساعد الطبي قبالة اسمه نوع المرض وملاحظاته الطبية ، فكان ان قرأها محمد العوض علي مسامعنا وهو يكاد « يموت » من الضحك . فقد كانت مختصرة وحاسمة لا تتعدي كلمات قصاراً : صداع ، مغص ، يستمر في عمله ! فلم يجد ابو السباع بدأ من حضور جميع الحصص التي حاول الهرب منها ، وصار مضغفة في فم محمد العوض . الذي كان كلما لقيه في ملا من الناس صاح في وجهه ضاحكاً : صداع ، مغص ، يستمر في عمله : وهو ينطق كلمة مغص بقاف السودانية الدارجة وكأنه يقص بذلك رقبة ابي السباع .

## **الكبتل وأبو العلاء المعري ... في سوق الزلعة :**

لقد ورد ذكر الكبتل كثيراً فيما تقدم . وهو الحاج محمد عثمان ابراهيم الذي اتى من قرية ابي عشر يحمل سمات اهل الجزيرة المروية كرمياً وسخاءً ونجدة وبساطة مرسلة لا تعرف التمحك ولا الالتواء . ولن يشك احد في انه يكبر أغلب زملاء دراسته

بسنوات ، فقد كاد شاربه الغض ان يسفر نابتاً ، وكادت شعيراته الوليدة ان تنبئ بالخبر الصحيح ، والكبتل تلميذ فارغ الطول ، نحيل الجسم ، علي كل من خديه نقرايبي محفور بنظام يؤكد قرؤية المنشأ والانتماء ويضفي علي وجهه المستطيل مسحة حسن تعصمه من سمات الجلافة وتؤهله لارتياح افاق المدينة . وقد اطلق عليه محمد العوض اسم الكبتل بكسر الباء ثم انتهى بهذه الباء الي سكنون دائم بدل الكسر . وهذا تصحيف في النطق غير مستغرب لان ميل الناس الي التبسيط امر معروف ، وهو يقود احيانا الي تبديل الكلمة تبديلاً يباعد بينها وبين الاصل الذي هو اصلها . والكلمة المقصودة هنا هي الكلمة الانجليزية التي تعني حرف الهجاء الذي يكتب كبيراً في اول الكلام ، ومن معانيها ايضاً الحاضرة او العاصمة او المركز . ولقد جمعت عبقرية محمد العوض كل هذه المعاني في ابتداعه لهذا الاسم او اللقب والصاقه بالحاج . ولك ان تفهم من هذا الاسم ان الحاج هو كبير القوم او حاضرتهم أو الألفة أو مركز الثقل ومناط الاهتمام ! او انه بين زملائه مثل مظهر الحرف الكبير الذي يبدأ به كتابة الكلام بالانجليزية مقارناً بالحروف الصغيرة الاخرى ، او اي شيء من هذا القبيل . فقد كان محمد العوض دقيقاً في اختيار الالقاب التي يطلقها علي الناس ، وليس أدل علي ذلك من هذا الاسم الذي خص به الحاج محمد عثمان ابراهيم فصار ملازماً له علي الدوام .

واذا كنت قد تعرضت من قبل لبعض شأن الكبتل وسيرته فما كان ذلك الا لميزاته العديدة . فهو قد صار ألفة فصلنا منذ اللحظة الاولى ، ودان له الجميع بهذه الريادة والموقع المتقدم ، لاستثنائي من ذلك احداً حتي صقور الربع الخراب الذين كانوا يناهزون ارتفاع قامه ، ومنهم من يفوقه بسطة في الجسم والمال . فانعقدت له البيعة القسرية علي الالفوية دون ادني « نقتة » او اعتراض . والكبتل تلميذ نجيب حصيف حاضر الذهن نبض الفؤاد ناضج المشاعر موفور الفطنة . فقد اتخذ من هؤلاء الصقور حلفاء دائمين لا تظهر اسماؤهم ابداً ضمن قائمة المهرجلين في الفصل ، وهم في

الحقيقة أساس الهرجلة ومنايع الفوضى . ولكن الكبتل انتهج معهم سياسة التقية فأتقن ممارستها وأجاد . وأية ذلك انه لم يحدث اي نوع من العراك او التهارش بينه وبين اي احد منهم طيلة سنوات ام درمان الاميرية . فجلهم اولاد ام درمان - عبد الكريم ومحجوب ومكي . وهم ينحدرون من احياء ام درمانية مختلفة - بيت المال وحي الاسبتالية ومكي ود عروسة . ولو انه دخل في عراك مع احد منهم لتضافرت عليه ايدي فتوات هذه الاحياء ، وهو الغريب المغمور في حي السوق ، لا يهب لنجدته احد من ذلك الحي ولو استغاث والح في الاستغاثة لأنه يعتقد ان اهل هذا الحي - وهو وعم محمد بن من بينهم - « لحم راس » ، فمتي تجتمع هذه الاشتات وعلي اي امر تتفق ؟ ولذلك فقد ادرك الكبتل منذ الوهلة الاولى انه ليس نداً لهؤلاء الصناديد ان اجتمعوا عليه ، ولا قبل له باستعدادهم والتعرض لآثار خصومتهم ، وان الخير كل الخير في ان يتودد اليهم ويتخذهم اخداناً وحلفاء إن استطاع ، ويتغاضي - بوصفه الألفة - عن الهرجلة والفوضى التي يحدثونها في الفصل بين الحصص . وليدفع ثمن هذا المعاهدة السلمية او معاهدة عدم الاعتداء فيما بينه وبينهم نفر آخر لا يشكلون عليه خطراً يذكر . فكانت اسماء محمد العوض وقاسم أبو بكر والفاضل شريف وغيرهم من المستضعفين من الولدان تنصدر قائمة المهرجلين في الفصل وقد خلت منها اسماء الصقور اولي البأس . ولقد ظهر اسم كاتب هذه السطور مراراً في هذه القائمة ونال ما ناله غيره مما كتبه الله من جزاء وعقاب تحت سياط عم مبارك . وظهر اسم عبد الرحمن ككتباي والنفراوي أيضاً في اول الأمر فنالا ما نلنا . ولكنهما لم يرضيا بهذه المهانة ولم يستسلما ولم يسعهما السكوت علي هذا الضيم فأسرا لي بما بيتنا عليه النية من اخذ الثأر والرد علي هذا التعدي . وكان ذلك هو احد اسلحتي التي انتصيتها في محادثتي مع الكبتل واحتجاجي عليه . فما زلت به ألوح في وجهه باغصان الترغيب وقبضات التهيب حتي لانت لي قناته واستوعب مضمون حديثي استيعاباً . فما كان منه الا ان اسف علي ما كان وفات وأبدي صفحة حسن لم تظهر بعدها اسمائنا الثلاثة علي

السبورة إلا فيما ندر وكان له مبرر قطعي جازم يصعب التحلل منه ورده عليه . ولعله استعاض عن اسمائنا باسماء المصباح الصادق وعباس صالح ومحمود احمد مهدي وغيرهم ممن عرفوا بالهرجلة ولم يعرفوا بشدة البأس . فانظر كيف يمكن ان يدفع المستضعفون ثمن اخطاء ذوي الشوكة والضراوة ، وبعض زلات اهل الحضوة والقرب واولاد « المصارين البيض » .

وهذه « التقية » من حكم الكبتل الخالدة وعقائده الراشدة ، وهذا الحذر الوقور من شيمه المميزة ومرتكزات منهاجه الثابتة ، وهو مقتدر علي التلبس بهذه الخلائق والشيم في ذات الوقت الذي يحافظ فيه علي وقاره ان يخف وعلي كبريائه ان يمس ، من دون ان يتهمه احد بالفرق او الجزع او النكوص . ولقد نمت وتأصلت بيني وبينه صداقة حميمة امتدت الي سنوات خور طقت وما بعدها الي ان فرقت بيننا دروب الحياة . وعلي ايام ام درمان الاميرية كان الكبتل يستمع فيما يستمع اليه من قصص الي ما كنا نروي عن ود نوباوي وفتواته وغرايبه السود ، يعير احاديثنا اذنين صاغيتين متابعتين وانتباها عميقاً مستغرقاً لا تفوت عليه ادق التفاصيل والخفايا مما كنا نضيف من رتوش ونبرع في سردها لنثري بذلك مادة الاقاصيص ونزينها بأطياف متباينة من الالوان ونحليها بأفانين شبيهة من الطعوم ، فيطرب لذلك كله ويستملحه ويلذ له ويطيبه . ولكنه لا يبدي استغراباً ابداً وكأنه معتاد علي كل تلك المشاهد المرعبة وتلك المراني المفزعة وما تعج به ساحاتها من الخلائق الاسطورية ، بل كأنه معايش لها في جميع اوقاته . فاذا افرغنا مافي كناناتنا من القصص والحكايات وظننا أننا قد انبأناه بعجائب الدنيا وغرائب مافي بطن الارض من جميع الدقائق والخفايا والاسرار التي لاتخطر علي بال ، اذا به ينبري فيقص علينا من الانباء ما هو اعجب ويتلو علينا من سير « شفوت » ابي عشر ومردتها من انس وجن مايفوق جميع التصورات الممكنة . فلم نكن نرتاب - ونحن قد خبرنا اشباه هذه الاشارات والصواعق التي كان محمد العوض مصطفي يسميها « دراب الكبتل » - ان اغلب الشخوص الذين يروي علينا

الحاج اقا صيصهم انما كانوا من بنات خياله المحض ولا صلة لهم بحقيقة الحياة في ابي عشر ولا غيرها من مدن وقرى هذا الكوكب الارضي الذي نعيش فيه . ولقد كنت دعوت الكبتل مراراً ليذهب معي الي ود نوباوي . ورغم انه كان يعد في كل مرة بتلبية الدعوة مظهراً كل الفرح والترحيب بها ، إلا انه لم يف بوعده ابدأ وانما كان يصطنع لنفسه اعداراً لبقة - وان كانت تظهر لي واهية - مؤكداً انه مشغول بمساعدة عم محمدين . ورغم اني ذهبت معه مراراً الي داره التي هي دار عم محمدين في حي السوق ولم افق علي هذه المشغوليات التي كان يتخذ منها الاعذار ، إلا اني ايقنت في نهاية الامر انه انما كان يتحاشي تلبية دعواتي له بالذهاب معي الي ود نوباوي تحاشياً ظاهراً ، يخفيه وراء لباقتة وظرفه وكياسته ، ولكن دون ان يؤسني من هذه الزيارة الموعودة . وما ذلك إلا لحسه الذي ربما كان صادقاً انه ان فعل ولبي دعوتي فلربما عرض سلامته لما لا تحمد عقباه . فلقد كان ود نوباوي بالنسبة له عالم خارج حدود الكرة الارضية ، والعاقل في نظره من اجتناب ارتياد مثل هذه العوالم التي تروج بالمخاطر والفرائب . واني لاشهد ان الكبتل كان تلميذاً متماسك القناعات في امور السلامة لم تخذله مقدراته الفائقة علي التقية والحذر إلا في تلك المرة التي دعانا فيها للذهاب للموردة لكي « ندق المورداب » والتي انتهت بذلك الانكسار المزري وذلك الفرار المشين من الزحف ! ولولا ان بعض جنود فيلقنا الغازي استطاعوا ان « ينزغموا » في وسط حلقات الطار وصفوف الذكار علي انغام النوبة ، واستطعنا نحن ان نحتمي بخيمة الانصار في تلك الامسية ، لمزقت اجسادنا سياط المورداب ولربما كسرت سيقاننا عصيهم الغلاظ « وفرطقت » رؤسنا قذائفهم الطوية التي لم يحكموا تسديدها ولم يحسنوا تصويبها ، فطاشت عن الهدف والمرمي لتصيب ابرياء في ذلك الزحام ليس لهم من الامر شئ . وعندما بلغ الكبتل خيمة الانصار ورأى كم هو آمن في ذلك السرب ادرك اننا - عبد الرحمن كنتبائي والنفرأوي وكاتب هذه السطور - إنما نأوي الي ركن شديد . فلطالما كان ينازع في ذلك حتي تبين له الحق واشرقت في سماء شكوكه

السالفة شمس الحقيقة . ولعل ذلك الحدث وتلك الحماية التي أظلمته في لحظة كان هو في اشد الحوجة لها هي التي ساهمت في تغييب اسمائنا عن قائمة المهرجلين في الفصل لفترة طويلة ، رغم اننا نحن الثلاثة لم نكن علي وجه العموم اقل هرجلة من ضحاياه الاخرين ، ان لم نكن في كثير من الاحوال اشد بلاء واطول باعاً فيها ! علي ان الكبتل كان في بعض احيائه يطلق لنفسه العنان ويتحرر بعض الشيء من ربة حذره خصوصاً اذا أحس بأن الامر يستدعي بعض هذا التراخي . فكنا نذهب احياناً الي سوق الزلعة الذي يكتظ بالناس في تلك الساحة الضيقة الواقعة بين مستشفى ام درمان وظهر السور الشمالي لجامع الخليفة . فاذا توسطنا ذلك الملاذخ السرور واشرق وجه بالبهجة . ورغم اني كنت اتضايق من ذلك الزحام والضجيج والغبار الذي يسد الافق إلا اني كنت اسر لسرور الحاج الكبتل واتحمل ما اتحمل لمجاملته وارضائه لانه كان صديقاً عزيزاً بالنسبة لي . ولقد كنت اعجب له كيف يطيق البقاء طويلا في مثل هذه الامكنة ، واذكر صديقي عز الدين عباس واجد له في سريرتي كل المبررات التي تؤكد لي صواب عزوفه عنها وصدفه عن مجرد التحدث عن جوها الخانق «وبوخها» الذي يقطع الانفاس . فأنت بمجرد ان تضع قدمك في تلك الساحة التي احسن عزالدين باطلاقه عليها اسم «ساحة المداعسة والمدافسة» فان جميع حواسك تأخذ في الارتجاج . يباغتك من اول وهلة خليط عجيب من روائح البصل والطرشي والدوم والساردين واللقيمات والجنزيبيل والبن والهبهان والقرنفل ، والفول المدمس ، والترمس والتسالي - وهم يسمونه الجرم . وهذا الاسم يذكرني الان بأبيات ابي العلاء المعري التي يعبر فيها عن عجز العقل عن فهم الحوادث - وسوق الزلعة من الحوادث التي يصعب على العقل تجميعها - ويعبث فيها بالألفاظ عبثاً فيه من الظرف ما فيه إذ يقول :

تشابهت الخلائق والبرايا . . . وان ما زتهم صور ركسنة  
وجرم في الحقيقة مثل جمر . . . ولكن الحروف به عكسنة  
غني زيد يكون لفقر عمرو . . . واحكام الحوادث لا يقسنه

ولست اعلم ان كان ابو العلاء قد دخل سوق الزلعة في زمانه ، ولكن ابياته هذه تصور بعض ما فيه . ثم اذا ما امتلأ صدرك ورثتاك من هذه الاشياء وغيرها بما يفوح من التوم والبهارات وحقاق الصعوط العماري وغير العماري ولفائف التبغ البحاري والقولد فليكس والقمشة والدقة والدكوة وقراصة النبق والسلك المقلبي ولسال البيض المسلوق والطعمية والادخنة المنبعتة من الكوانين ، فانك ذائق بانفك وربما بحلقومك طعم عرق الادميين وصناح انماط من بني البشر . ويكتنك من وراء ذلك غبار يحشو الانوف والاذان وخليط شمار وشطة تدمع الاعين وتبلغ اقاصي جيوب الرؤوس ، فيتكاثر العطس ويتناثر الرذاذ ، وتسمع الحمد لله تتردد هنا وهناك ، ولكنك لا تسمع احداً يشمت أحداً . ومن عجب ان الكبتل كان يسعد بالتجوال في ذلك الوسط ولكن حاسته السادسة كانت تنبئه في الوقت المناسب إذا ما رأي او احس نذير سوء ان ياذن بالتراجع والانسحاب . فكنت اتبعه دون ادني منازعة ، وذلك لاني كنت اود الخروج من ذلك الضيق الي رحاب السعة ، واهم من ذلك أني كنت اعلم ان الذي يوجي الي الكبتل بمفارقة سوق الزلعة ويدفعه لمغادرته لا يمكن إلا ان يكون امراً جليلاً او خطراً وشيك الوقوع . ولذلك كنت اتجاوب مع اوامره بالانسحاب فوراً دون ابطاء او استفسار عن السبب لأن ذلك الانسحاب يوافق اصلاً زهدي في البقاء في ذلك المجتمع الرهيب ، ويوافق دواعي السلامة التي لم ار مثل الكبتل في الحرص عليها واجادة التوقيت الدقيق الذي يراعيها ويضمنها .

لقد كان الكبتل تلميذاً شديداً الذكاء لماحاً ذا بصر وبصيرة . وأية ذلك انه تبوء المركز الاول في الفصل اكثر من مرة ، وعن جدارة تامة . وليس من الانصاف القول بأن تقدمه في السن هو الذي ساعده علي ذلك ، وان كان هذا العامل مهماً لأنه يضع صاحبه في درجة متقدمة من درجات سلم الوعي والنضوج . وذلك انه قد تفوق في دروسه وبدرجة ملحوظة علي اقوام ربما يماثلونه في السن وبالتالي في درجة سلم النضوج والوعي . بل من هؤلاء الرهط من كان «يمسك الدفة» عندما كان الكبتل يأتي



في المقدمة ولست بهذا القول اعيب احداً ، إذ ليس مقياس الذكاء عندي هو الترتيب في الفصل ، وليس معيار غير الذكاء هو الامساك بالدفة فمهما كان الفصل ومهما كان التلاميذ فلا بد لهم من حائز على «الأولية» ولا بد لهم من «ماسك للدفة» ، لا بد لهم من أول ولا بد لهم من «طيش» . وكم من تلميذ كان الطيش في فصله واتهمه بعض اساتذته بالغباء ، ثم لما اكتمل نضوجه واقبل علي الحياة العامة برزت مقدراته الذهنية بروزاً جعله موسراً او حاكماً او زعيماً يشار اليه بالبنان . وكم من اول في فصله شهد له اساتذته بالنبوغ ، ثم انتهى به الامر الي حياة مغمورة وفقير مدقع وموقع نهب في المجتمع جعل منه نسياً منسياً . وليس أدل علي بعض ذلك من سيرة الكبتل نفسه . فقد كان تلميذاً ذكياً نابغة دون ريب ، ولست ارتاب في انه ما يزال كذلك ، وكان في اول امره يتقدم زملاءه في الفصل ويفوقهم حسن بلاء في الامتحان . ولكنه اخذ في التراخي عن مواطن الريادة بمجرد بلوغه مدرسة خور طقت ، واغلب ظني انه زهد في المنافسة من حيث هي ، وزهد في الانكباب علي الدروس ، واختار راضياً وعن طيب خاطر ان يستسلم لشعور الاحساس بضرورة الاسراع بالتخرج والاتحاق بالوظيفة لمساعدة الاسرة والاخذ بيدها ، وهو شعور كان سائداً بين الكثيرين . وإلا فهو صاحب مقدرات ذهنية هائلة ما كان يمكن ان تخذله ابدأً ان هو احسن شحذها كما كان دأبه من قبل ، واستقام عليها وصبر علي تحديات الحياة التي كانت تشغل بال الكثيرين . ولتراخي الكبتل قصة اخري ربما اشرنا اليها في نهاية هذه الذكريات . ولكن الحاج محمد عثمان ابراهيم الكبتل ظل على العهد صديقاً ودواً وأخاً وفيماً ذا مروءة وشهامة وشخصاً كريماً متخلقاً بروح عبقة وضمير نقي وأدب جم . ولقد اخفي علينا اسم عائلته في ابي عشر الي ان جهر لنا به الاستاذ الطيب شببكية حينما كان يناديه «جلد البقر» ! ولست ارتاب في ان هذا هو اسم الشهرة لاسرته الكريمة وان هذا الاسم له في قاموس قيم القرية دلالات ومعان رفيعة . ولما كان محمد العوض يحب الكبتل حقاً ويعجب به فقد كان كثيراً ما يغنيه : «كبتولة ياكبتولة» .. «كبتولة يا اب ناتولة» .. ولست

ازعم ان محمد العوض كان صاحب صوت رخيم ، ولكننا كنا نطرب له لأن عناصر الطرب تأتينا من روحه الحلوة ، ولأن الكبتل كان يبسم في وجه هذا التصغير والتكبير وهو راضٍ قرير العين والبال ، رغم اننا لم ندرك معني هذه «الناتولة» علي وجه التحديد . لقد فارقتنا الكبتل بعد خور طقت ولم نجتمع في فصل دراسي بعد ذلك ، ولكننا ظللنا نلقاه في فترات متباعدة فاذا بوفائه مطبوع علي كل ارجائه واذا بلسان حاله يخاطبنا في كل حال :

واذا اضاعتني الخطوب قلن اري # لوداد اخوان الصفاء مضيعا  
خالت توديع الاصادق للنوي # فمتي اودع خلي التوديعا

### **عبد الرحمن الدريدي ... بقرنين وذنب :**

إذا كان من بين اولاد فصلنا من يستحق ان يوصف بالوداعة والبراءة دون تحفظ فهو عبد الرحمن الدريدي . والعجيب ان عبد الرحمن الدريدي ولد وتربى وترعرع في حي وداوروه وهو نفس الحى الذي انبت فتحي ابراهيم وصفي وحجازي ولطفي اخاه الاكبر ، فسبحان من خلق الانس والجن ليعبدوه ! فلقد جاء عبد الرحمن الدريدي الي مدرسة ام درمان الاميرية وكأئه أت من عالم ملائكي . وذلك انه كان في أول عهده تلميذاً سمح النفس وسيم الخلقة والسمت نقي السر والعلانية بساماً رضيعاً كأنه لم يعرف الأدميين من قبل وانما هبط اليهم لتوه من السماء . ولكنه سرعان ما ادرك بشاقب نظره ونور بصيرته ان من اراد من الملائكة ان يعيش مع الجن فلا بد له من استحداث قرون واذناب كحد ادني للتأهيل لهذا المجتمع الجديد . ولست أرتاب في ان هدوءه وبراعته وحسن سمته كانت بعض امور جعلت الشيخ ابابكر يعجب به في اوائل امره أيما اعجاب . فصار هو وقاسم عبد القادر ابو عكر واحمد الحبيب حسين محل احترام الشيخ وتنويهه الدائم ومحبهه وإيثاره . فكان الشيخ اذا دخل الفصل بدأ بالثناء عليهم ، لا ينسي أحداً منهم . واذا شتم عبد الكريم او أيأ ممن كرههم دون سبب مقنع ، ختم حديثه بالثناء العاطر علي هؤلاء الثلاثة ايضاً ، لا يغادر منهم احداً. وما

زال الشيخ على هذا المنوال وثلاثتهم فى مأمن من تغييره وانقلاب مزاجه حتى دارت عليهم الايام بما عودت الناس عليه من دورات ، فكان سقوط ثلاثتهم من نظر الشيخ اشبه ما يكون بنكبة البرامكة ، فانتهوا جميعاً الي مثل ما انتهى اليه بقية اولاد الفصل وانعركت انوفهم فى ذات التراب الذي انعركت فيه انوف غيرهم ، والشيخ جذلان يبسم فى مكره ويمطر من بركان فيه عليهم امثال الحمم . (وتلك الايام نداولها بين الناس).

ولكن الحق يقال ان عبد الرحمن الدرديري كان قد حظي بمكانة رفيعة بين زملائه اهله لها سجاياه الأسرة الكثر وفضائله التي ميزته فى اعين الناس . فهو تلميذ مرتب الحال فى مظهره ومخبره وسائر شأنه . وهو مجامل وكريم يعرف واجباته اتم المعرفة وينهض بها على احسن الوجوه ، ويعرف لذوي الفضل فضلهم ويرعى حقوق غيره اكمل رعاية . لا يحمل غلا ولا ضعفناً لاحد ولو بادره بما لا يسر ، ولا يرد على كيد بمثله وان انس فى نفسه المقدرة على ذلك . بل يعفو ويصفح دون مزايده ولا عتاب ولا إرجاف بفضول حديث . ولعله هو التلميذ الوحيد الذي نجا من شرور الفاضل شريف وهذره وسخريته الحارقة وعبثه الذي لا يكاد يكف عنه لحظة من اللحظات . وذلك لان عبد الرحمن كان يجامل الفاضل كثيراً ويضحك لنكاته البايخة باخلاص وروح سمحة مرحة صادقة المرح والسماحة ، ولا يذكره ابداً ببايخة هذه النكات التي «ورم» بها رؤوسنا «وحرق» بها روحنا ولايزجره عليها ، بل يرخى له العنان ويسلس له القياد ويوطئ له الاكتاف حتى اوشك الفاضل ان يظن ، بل ان يستيقن ، انه قد حصل على اعتراف هام بالبراعة والاقدار فى دنيا الملح والطرائف ونال على ذلك البراءة والرتبة الرفيعة . ولقد كان هذا التقارب بين عبد الرحمن الدرديري والفاضل شريف امرأ محيراً لكثير من اولاد الفصل . فهم يعلمون ان الفاضل عفريت وعكروت لا يمكن الركون اليه . فانك ان ركنت اليه اتخذك هزواً «وقد دماغك» بفزوراته التي كان يكررها حتى حفظها الناس عن ظهر قلب ، ومد لسانه لك من وراء ظهره وكأنه هو نفسه يضحك من سذاجتك التي

جعلتك تركز اليه . ولكن عبد الرحمن الدرديري أبان بعد قليل انه لم يكن يجهد شيئاً من ذلك ، وانما كان يتحسس طريقه في تودة ويتدبر امره في هدوء . فهو يعلم ان الفاضل شريف تلميذ متعب فليصبر عليه ، وليتحمل ما شق علي الآخرين منه ، وليأمل مواقع خطوه حتي لا يعثر في اول الطريق . فاذا كانت صداقة الفاضل شريف جالبة له بعض المتاعب فانها أهون من المتاعب التي يمكن ان تجرأ عليك معاداته او البعد عنه او مجرد نعت نكاته بالباخا والسماجة علي مسمع منه وامام الناس . ولذلك حرص عبد الرحمن علي إكرامه وشجعه علي عيئه حتي يأمن جانبه ريثما ينبت لنفسه الريش الذي به يطير والقرون والاذناب التي يتعايش بها مع بقية العفاريث واشباه الجن . فهو يعلم تماماً ان الفاضل شريف وحده لن يغني عنه من مكر الآخرين شيئاً إن أرادوا به سوءاً . بل هو يعلم ايضاً ان تحالفه مع الفاضل شريف تحالفاً دائماً ربما زج به في مضائق لا يسهل الخروج منها وربما اوقعه في شرك لا يمكن الافلات من قبضتها واطباقتها عليه . وذلك ان الفاضل كان فضولياً يدخل أنفه في كل شيء فيثير حفيظة الآخرين . ولقد خشى عبد الرحمن علي نفسه من مغبة ذلك وصرح بتخوفه هذا من وراء ظهر الفاضل فلم يبلغه به احد . وظن عبد الرحمن - وهو محق تماماً - ان الايدي والالسنه التي كانت كثيراً ما تمتد الي الفاضل لتزجره وتضع حداً لسيل نكلته المفجعة ربما امتدت اليه هو ايضاً . ولذلك اخذ عبد الرحمن في الابتعاد عنه شيئاً فشيئاً حتي ان الفاضل نفسه أحسُ بذلك النفور وطفق يظن بعبد الرحمن الظنون . ولما يقن بهذا الصدود وبلغته بعض شظايا شماتة الشامتين ما كان منه إلا ان اشاع بين الهللاب من التلاميذ - وهم الكثرة الغالبة - ان عبد الرحمن الدرديري يضمير في دخيلته مشاعر مريخية وانما يتظاهر بالهللالية تظاهراً . والا فكيف صار صديقاً حميماً لعثمان حسن المريخابي المعروف في المدرسة ، وكيف صار لصيقاً بأحد المريخاب من خارج المدرسة وهو سري ؟ وسري هذا هو شقيق لاعب المريخ قرعم الذي اشتهر فيها بعد ، وقد صار سري نفسه بعد سنوات من التدريب احد نجوم فريق

المريخ المعروفين ، ولكن عبد الرحمن الدريدي فطن لهذا المكر في وقته حتي كاد صديقه عثمان حسن ان ينشد في حقه :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا .

ثم ان عبد الرحمن وثق من علاقته بفتحي ابراهيم وصفي بصورة ملحوظة ، وليس ذلك لان فتحي رفيق الحي فحسب ولكن لانه هلالبي صادق . فصار عبد الرحمن بفضل التفافه من حول مكر الراعي - وهو الفاضل - بهذه الطريقة أمنا في سريه الي حدود بعيدة وخاصة اذا تذكرنا ان فتحي هو ابن عمه التجاني الطاهر . فاجتمع لعبد الرحمن الدريدي بأس لا بأس به قوامه رهط اولاد ود اورو وفي طبيعتهم فتحي ، ونفر مغوار من حي العرب - نسمع عنهم ولا نراهم - وفي مقدمتهم التجاني . فمنذا الذي لا يعمل حساباً للتجاني الذي يقف من ورائه بلة الاحمراني بقضه وقضيضه ؟ ولقد كانت صداقتي بعبد الرحمن الدريدي وطيدة ، وهي التي ساقط اليه وأورثته وعداً قاطعاً بمعونة اولاد ود نويوي وحي الخنادقة عموماً ، ومحبة عبد الرحمن كنتبائي والنفراوي والكبتل نفسه وتعاطفهم معه . وما كان هذا النصر الدبلوماسي الذي احرزه عبد الرحمن إلا نتاجاً لحسن سياسته للامور وتدبيره لمواقع الخطي . ولو انه ظل علي مسكنته التي بدأ بها لما احتفل به احد ولما هب لسنده نصير . ورغم ان عبد الرحمن الدريدي قد اجتمع مع قاسم « ابو بكر » واحمد الحبيب حسين في تبوء تلك المكانة الرفيعة من نفس الشيخ ابي بكر إلا انه كان يختلف عنهما في بعض امور . فوداعة عبد الرحمن لم تكن مصطنعة وانما هي بعض خلانقه التي عليها جبل وبعض طباعه التي عليها فطر فهي وداعة صادقة . اما الذي كان يبدو علي قاسم ابو بكر من هدوء فلم يكن حقيقياً وانما هو تخلق مؤقت بالرزانة ودعوة عريضة بالوداعة وذلك لان قاسماً من الموردة موطن سكن ومبادئ عقيدة كروية ، ومن بعض خلانق المورداب العكر وهو نقيض الهدوء . واما احمد الحبيب حسين فقد ابان عندما حلت به غضبة الشيخ ابي بكر عن قدرات هائلة علي الفوران والهياج ، وظهر لنا جليا انه كان يكتم في أعماقه

عواصف هوجاء تجمعت أطرافها في تلك اللحظات من كل ركن من اركانه فأحدثت رعوداً واورمضت ببروق ، ثم أمطرت سيلاً جارفاً من التعابير القادحة في الشيخ لم نكن نحسب ان احمد الحبيب قادر علي تصورها ناهيك عن الاتيان بها تباعاً دون ان تشق عليه كلمة او تعوزه عبارة . والامر الثاني هو ان بعض الشيطنة والفهولة التي اضطر عبد الرحمن الدرديري لارتداء قميصها انما هي خلاق املته عليه الضرورة فهي ليست من عناصر تكوينه في شئ . وذلك بخلاف قاسم ابوعكر الذي تشكل الشيطنة بالنسبة لمنشئه وانتمائه ركناً هاماً لقاعدة البقاء للأصلح التي تختلف من حي الي حي باختلاف اسباب المنافسة وتباين معاني هذا الصلاح . وقد علم احمد الحبيب وهو الملم بتقاليد اولاد بيت المال عموماً وفي مقدمتهم عبد الكريم ، انه لابد للعاقل من الاقتدار علي حد ادني من الشيطنة «وحمرة العين» علي اقل تقدير - سواء اضمر ذلك او اعلنه علي الملأ - لمواجهة التحديات التي قد تأخذك علي حين غرة ولسد مداخل الذرائع التي يمكن ان تنفذ اليك منها الدواهي والسهام . وثالث الامور ان عبد الرحمن الدرديري كانت فيه بساطة هي اقرب للسذاجة من اي شئ اخر ، فهو يصدق كل ما يقال ، في الوقت الذي كان فيه كل من قاسم ابوعكر واحمد الحبيب يحسنان الاستماع فيدخل اكثر ما يقال لهما باذن ليخرج من الاخري ، لاينفعلان بسهولة وانما يصبران ويمحصان ، سكوتها تقييم صامت للامور بفتنة وزكائة ، وثلاثه تغافل .

هكذا اختلف عبد الرحمن الدرديري عن رصيفيه وشريكه في مودة الشيخ ابي ابكر التي لاتدوم . ولكنه اكتسب بمرور الايام واحكام الضرورة والواقع وطبيعة الاشياء بعض صفات الجسارة التي كان لابد لكل تلميذ من التحلي بالحد الادني منها علي اقل تقدير حتي يستطيع العيش في ذلك الجو الرازم المرعد العاصف الذي لايمكن الركون الي السلامة فيه وان طال امدها . فاذا كان عبد الرحمن - بحكم بساطته ووداعته التي نشأعليها - لا يستطيع ان يقول للأعور يا أعور فلا اقل من ان يجد الشجاعة الكافية ليقول له : سلامة عيونك ! ، وذلك اما م الملأ علي عينك يا تاجر .

ولذلك تطورت مقدرات عبد الرحمن حتي استطاع ان يقهر حياؤه ويتجافي عن الفاضل شريف ، ولو علم لتلا حكمة الشاعر :

ألم تران المرء تدوي يمينه . . فيقطعها عمداً ليسلم سائره

ورغم هذا الانتصار فان القول بان عبد الرحمن قد تحرر نهائياً من البساطة والسذاجة هو قول ينفية الواقع وتدحضه التجربة المعاشة . فعلي الرغم من ان صداقتي له قد توطدت تماماً وبالرغم من محاولاتى العديدة لتغيير صورة ود نوباوي التي انطبعت في ذهنه فقد ظل عبد الرحمن الدرديري يثق ثقة راکزة في ان جميع شياطين الدنيا وبعاعيتها وعفارياتها إنما تنبعث من ود نوباوي دون غيره . واما «قطيفة» التي كنا نحكي عنها نقلاً عن قصص خالد الشفيح في كويرى ود نوباوي فقد كانت هاجساً من هواجس عبد الرحمن التي لا تفارقه ، ولطالما نازعته نفسه في السؤال عنها لمزيد من الاستيضاح الا انه اثر الا يفعل حتي لا يفجع بما هو انكي وافزع مما سمع عنها . ولقد اعتذر عن اصطحابى لود نوباوي في لباقة اكثرها خوف ظاهر وصرت كلما دعوته ألقينه كارهاً يكاد يجعل اصابعه في اذنيه ويوشك ان يستغشى الثياب . ولكنني عذرتة ولم اعجب كثيراً لما كان يبديه من فرق ظاهر وفزع مبین . فاذا كان الكبتل نفسه قد نكل عن هذه الزيارة وتهرب منها وهو القوي ذو الايد والبأس ، الذي زعم انه رأى البعاعيت بعينيه في ابي عشر وتمعن في انوفهم الفطس وسمع نخنختهم باذنيه فكيف بعبد الرحمن الدرديري الذي لم ير بعاتياً واحداً في حياته ولم يسمع صوتاً يقارب النخنخة سوي صوت هاشم الاطرش وقد كاد من شدة خوفه ان يترك له المدرسة نهائياً لولا اننا اكدنا له ان هاشم الاطرش لم يمتم بعد علي اقل تقدير وان البعاتي لا يولد بعاتياً وانما يتحول الي هذه الهيئة بعد ان يموت ان كان هو من هذه الاصول التي «تقوم» . ومن الاشياء التي كانت تدهش عبد الرحمن ان محمد احمد قاسم وهو من اولاد ابي روف او سوق الشجرة قد لبي دعوتى لزيارة ود نوباوي . بل انه هو وصديقه ود اليماني صارا بمرور الايام من جوغتنا الدائمة في الدافوري في حوش الجمال

وأمام مسجد الهجرة . ولقد كان محمد أحمد قاسم لا يستطيع نطق حرف الراء وانما يجيء به ويخرجه من فمه اخراجاً يجعل له جرساً قواماً بين الغين والياء . وكان هو وود اليماني شديدي الولع بكرة القدم واخبارها وما اكثر ما ذهبنا سوياً «وتشعبطنا» وتسلقنا حيطة دار الرياضة من الواجهة الشمالية وسياط السواري وخيولهم تفرق الجموع المحتشدة التي تترقب فتح الابواب في الدقائق الاخيرة لتتعالى صيحات الجماهير علي انغام التصفيق الحاد المدوي : الباب فتحوه والهلال او المريخ رشوه ! وعندما نقص كل هذا علي عبد الرحمن كان يبدي من الدهشة والاستغراب ما لا يزيد عليه . وقد ذكرني عبد الرحمن - وكنت غافلاً عن ذلك - ان ود اليماني نفسه ألجن مثل محمد احمد قاسم تماماً . وهو قول حق . ولكن عبد الرحمن الذي لم يجد تفسيراً واحداً مقنعاً لجرأة هذا الثنائي الأجن علي الذهب لود نويابوي أيقن أن السر كله يمكن في هذه «اللجنة» ، وانها بنت عم النخنخة ، وربما كانت بهذا الوصف واقية من شرور البعاعيت وأصناف الجن والعفاريت . ولكنه كان يعلم ان محمد احمد قاسم تلميذ مهذب ذو خلق رفيع ، وهو مسالم هادئ الطبع فكيف توفرت له هذه المقدرات ؟ ثم عاد فعزا ذلك الي تأثير ود اليماني الذي كان «قندفاً» وصخاباً . ولو علم عبد الرحمن شيئاً من اخبار هشام بن عبد الملك لهدأ من روعه وصف الاعرابي لأحوال الخليفة حينما سألهم بقوله : ماذا اقول يا امير المؤمنين في قوم هم بين حائك برد ودابغ جلد وسائس قرد ملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدمد وغرقتهم فارة ؟! ولكن من الذي يمكن ان يذكر ذلك لود اليماني ؟ ومهما يكن من امر فان جسارة عبد الرحمن الدرديري وتطور مقدراته لم تكن تدفعه الي اقتحام المجهول وارتياد المخاطر كما كان يفعل كل من محمد احمد قاسم وود اليماني . ويكفي انه انتنضي لمواجهة بعض تحديات المدرسة أشباه القرون والاذناب ، فهل يطلب منه ان ينتنضي اظلاًفاً وحوافر ومخالب ومنقاراً وريشاً لمواجهة السحرة والقشاعم والاهوال الاخري في ديار ليست هي دياره وبين اقوام لا يستطيع ان يعرف تماماً ان كانوا قد ماتوا قبل ذلك ثم قاموا ؟ علي ان شيئاً



واحداً كان يعكر صفو عبد الرحمن في المدرسة ويقلل من شأنه في نظر بعض الخبثاء وهو صلة القربي التي تجمعها بالاستاذ محمود علي الياس . فهو خاله كما قيل والويل لك من التلاميذ ان كان احد الاساتذة من قرابتك ، فانهم يظنون بك الظنون . وخاصة اذا تميزت عنهم او عن بعضهم في المادة التي يقوم هذا الاستاذ بتدريسها . ولعلها طبيعة نفوس البشر وان كانوا صغاراً دون الحلم . فالانسان هو الانسان ، ايا كانت مراحل عمره ، مجبول علي الحسد وسوء الظن بالآخرين وحب الذات وتزكية النفس ، وان كان عالماً بجميع عيوبه ، لا يستثني من ذلك إلا من عصم الله . ولذلك زهد ابو العلاء في الناس وود ان يتركوه لشأنه حتي قال :

خذي رأيي وحسب ذاك مني # علي مافي من عوج وأمت  
وماذا يبتغي الجلساء عندي # ارادوا منطقي وأردت صمتي  
ويوجد بيننا أمد قصي # فأموا سمتهم وأمت سمتي

وقال ايضاً :

الم ترني حميت بنات صدري # فما زوجتهن وقد عنسنه  
ولا أبرزتهن السي انيس # إذا نور الوحوش به انسنه

والحق ان عبد الرحمن الدريدي لم يكن محتاجاً لعون الاستاذ محمود وماظنه بعض الخبثاء من ذلك لم يكن حقيقة أبداً ، ولم يكن الاستاذ محمود ليفضله علي احد من اقرانه ان هو لم يبرهن علي تفوق مستحق ، وما كان الذين يقولون بغير ذلك الا مازحين او ظانين ظناً وماهم بمستيقنين . فتلك أيام كان النبوغ فيها حراً مفتحة له الابواب ، وكان الغنم فيها علي قدر الجهد ، والعرق فيها لا يذهب جفاءً بل يخلف الملح الذي يذيق طعم الفوز ثمرة لهذا العرق . الا نضر الله تلك الايام وابقى اطيافها راكزة في النفوس ، ونضر الله ذكرى أساتذتها الكرام وتلامذتها الميامين . وليت الذين تلوهم علي ايامنا هذه تأسؤوا بهم واشربوا في نفوسهم شيئاً من قيم تلك العهود وصدق مثلها التي تحيي موات القلوب وتهدى الي طريق مستقيم .

## بابكر النور .. واللايظمان .. وتسل محمد بله :

ولقد انضم الينا في مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي في مرحلة من المراحل التلميذ بابكر النور عثمان . وكان بابكر في اول امره غريباً علي المجموعة ولكنه سرعان ما احتل مكانه بين ظهرانيها . وذلك انه كان علي قدر من النضوج النسبي ولم يجد مشقة في التعرف علي زملائه ومصادقتهم . وقد ساعده علي ذلك قلب مفتوح وذهن حاضر ونفس صافية ونزوع طبيعي الي الهدوء والمهانة ومقدرة فريدة علي الابتسام المطمئن حتي في اصعب الاوقات واحرجها . ورغم ان بابكر من فريق حي الخنادقة بالقرب من ود اورو ، وهو حي ام درماني عريق إلا انه لم يشتهر بشيطنة اولاد ام درمان ومراوغاتهم ، ولم يشاطرهم افانين الشقاوة التي كانوا يتميزون بها ، بل كان مسلكه موسوماً بالهدوء والسكينة ومرقوماً بلين العريكة وسهولة الطبع والنفور والتباعد بقدر المستطاع عن كل اصناف الفتن والمكائدات . ولذلك أمنه زملاؤه فأحبوه وتقبلوه في صفوفهم احسن قبول . وعندما كنا نجلس في بعض الاحايين ونستمع الي احاديث وروايات البطولات في الاحياء ، لم يكن بابكر يستجيب للاثارة التي تدعو اليها مثل هذه الاحاديث وانما كان يستمع بانتباه ويتابع في حضور ولايزيد علي الابتسامة القسط الوقورة . وهو لم يدع في يوم من الايام ان اللبخ مثلاً زار حي الخنادقة او انه تعرف عليه من قريب او بعيد . ولو انه قال بشئ من ذلك لما تعجب احد ولا رأينا في ذلك غرابة . فاذا كان اللبخ صديقاً لمحمد مصطفى بلال واسرته فما الذي يمنعه من ان يقيم مثل هذه الصلة مع بابكر النور ، والشقة لا تبعد عليه لأن الديار متجاورة ؟ ولكن بابكر لم ينبس بأي زعم من هذا القبيل . بل هو لم يكن يروي لنا شيئاً عن ابي الدفاع او عبد التام او شمشون علي الرغم من ان حي الشفايعة وكبري ود نوباوي علي مقربة من موطنه الذي فيه داره واهله . ولاشك ان اقاصيص هؤلاء الابطال الثلاثة وغيرهم قد بلغت بحذافيرها ، او ربما سمعهم بأذنيه وهم يقصون الاعاجيب ويروون الخوارق والمعجزات . وذلك ان بابكر كان علي قدر من الاتزان وضبط النفس والتحكم في

العواطف قل ان تجد له مثيلاً في ذلك الوسط الهائج المائج المفتون بكل ماهو مثير او مرعب او غريب . ولست أذكر لبابكر اي معركة من المعارك التي كثيراً ما كان التلاميذ يشعلونها فيما بينهم ويضرمون اوارها ويصلون سعيها بشتي الدوافع التي من بينها - وربما في مقدمتها - إثبات الذات وتأكيد المقدرات الجسدية وملكات البأس والفتوة . وما كان ابتعاد بابكر عن هذه المعارك وليد التزام باستراتيجية معينة او خطط تكتيكية مؤقتة او ادعاء لبق للفطنة والرزانة ، ولكنه كان سجية من خلافته وطبعاً لصيقاً به . فهو لايعرف التعدي علي الناس ، ولايسف في القول حتي وان دفع الي ذلك دفعاً ، ولايورد نفسه مواطن الريبة . ورغم ان اكثر التلاميذ كانوا يقصون علينا ماتيسر سرده من احداث يومهم السالف إلا ان بابكر كان يؤثر الصمت في مثل هذه المجالس ، ويبتسم في وجوه زملائه وهم يتبارون في هذا المضمار ابتساماً فيها كثير من الرضا والتشجيع . فيمضون في رواياتهم غير عابئين بصمته وعدم مشاركته لهم في ماهم فيه . ومن الغريب اننا لم نسمعه ابدأ يروي علينا اي شئ عن المغامرات الطرماجية التي كانت تروي طائفة منها كل صباح تقريباً واحياناً كل «عصرية» ، وهي عادة تكون حافلة بالمبالغات التي ينكرها العقل السليم لانها غير منطقية ، ويتقبلها الخيال وتلذ له لانها «عنكوليب» الحديث . وعندما نتوافد في العصريات زرافات ووحداناً علي جامع الخليفة لنقيم المباريات الكروية بين فرقنا الرياضية ما كان بابكر يتخلف عنا . ورغم انه لم يكن ذا كلف بممارسة لعبة كرة القدم بنفسه إلا انه كان من عشاقها المدنفين . ولقد ألفتته مستهماً بفريق الهلال فعزز ذلك من صلتي به وقوي من صلته هو بالهلالاب في المدرسة . وقد شاء الله لبابكر في ماتلا تلك الحقبة من عهود ان يصهر الي بيت كريم بعض اهله جار بالجنب لدار الرياضة بام درمان . فكنا وقد بلغنا سني الشباب المبكر نغدو عليه ونبقي اضيافاً عنده حتي اذا اقترب موعد المباراة المعينة دلفنا من دارهم العامرة تلك الي دار الرياضة في يسر وسهولة وبون معاناة . والحق ان بابكر النور كان متزناً حتي في تشييعه لفريق الهلال ، فلم يصدر عنه ما يجرح مشاعر الاخرين ،

هذه هي الكلمة التي استبدلت فيما بعد بكلمة متسلل فالسرقة والتسلل رديفان ، وانما تطورت السرقة لغة ومعني لتصبح تسللاً . والامر فيه نظر . فمما لاشك فيه ان كلمة تسلل ارقى والطف جرساً وارق واسلس وادق تعبيراً ، لأن الذي يتسلل من خلفك يفعل ذلك بلطف وعلي حين غرة منك . اما السرقة فقد تعقب التسلل ويمكن اعتبار التسلل شروعاً فيها ، وهي قد تحدث من غيره والله أعلم فكأن المراد ان شخصاً ما قد تسلل من وراء ظهرك دون وعي منك ( او عن وعي منك في بعض الحالات ) واراد بذلك ان يسرق منك هدفاً او نصراً او فوزاً او متاعاً او شيئاً من هذا القبيل . ولكن بابكر لم يكن مفتوناً بمفردات اللغة العربية ولم يكن مغالياً في تبيان دقة الكلمات والمحاكاة في تشقيق معانيها واجتلاء الفروق بين المترادفات منها والنقائص والأضداد ، ولذلك ابقى في قاموسه علي كلمة سارق وشجب هذه الفعلية الذميمة وادانها ودل بذلك علي استمسك ثابت بقيم الامانة وصدق المقاصد . ولكنه كان يختار لهذا الصدق مايلئمه من ظروف . فلو انه قال ذلك جهرة وصراحة علي مسمع من المتطرفين من الهلابل لماجني من هذه الامانة وهذا الصدق خيراً ولا نعيماً ، ولربما تدافعت نحوه الأيدي «والشلاليت» من كل مهتاج يكاد يختنق بحبل الغضب ثم هو لايدري هل ( يذهبن كيده ما يغيظ ) . ولكن بابكر كان تلميذاً فطناً موفوراً الزكامة يتخير كلماته وتعابيره تخيراً ، ويستجلي جمهوره استجلاء ، ويدرك تباين أمزجة مستمعيه بحصافة ، ثم يعرف كيف يحسن مخاطبتهم بما يمكن ان يعوه ويتقبلوه منه دون اثاره تجلب عليه الشرور .

ولقد أبدى بابكر عزوفاً عن الطرماج مثيراً لاستغراب زملائه عموماً إلا القليل منهم . ومن هؤلاء القليل مصباح الصادق ، الذي رأي في هذا العزوف حكمة ورجاحة عقل . فهو قد وجد اخيراً في بابكر النور واحداً من اولاد ام درمان الذين يسكنون داراً قريبة من محطة الطرماج ولايكلفون به . وهذا في نظر مصباح هو عين العقل والرشاد . فلاغرابة اذاً في ان يقترب مصباح من بابكر ويصبح واحداً من اخلص اصدقائه . ولكننا لم نقف ابدأ علي السر الكامن من وراء نفور بابكر عن الطرماج . قال بعضنا

ولم تخرجه انتصارات الهلال عن تواضعه الجم وأدبه المطبوع ليسهم في المعارك التي كانت تنشب بين التلاميذ اثر هذه الانتصارات وما يتبعها عادة من صنوف الاستفزاز وردود الفعل ، ولم تدفعه الهزائم التي مني بها فريق الهلال الي الموجدة والاشتطاط في اختلاق المعاذير واتهام الحكم ورجلي الخط بالتواطؤ وعدم الامانة كما كان يفعل غيره من التلاميذ . فمنهم من يزعم ان الشاهد ( وهو الاسم السائد الذي كان يطلق علي حكم المباراة ) منحاز لأنه «قابض» . ومنهم من يرمي واحداً من رجلي الخط او كليهما بما هو انكر من ذلك . ورجل الخط هو اللابزمان ولكن هذه الكلمة الانجليزية استعربت علي ألسنتنا واستبحنا نطقها كما نريد ، فاكلنا حرف النون وحولنا حرف الزاي الي ظاء حتي صارت الكلمة المتداولة «لابظمان» . فانظر الي هذا الاعتداء علي لغة بني السكسون اي درجة من «التعفيص» قد بلغ ! ومثله كثير ، وقد تلبسنا به طويلاً : الباك هندس الكورة وذلك يعني ان الظهير مسها بيده . فاذا فعل ذلك صارت الكورة بلنت وليست هذه إلا الكلمة الانجليزية بنالتي ( Penalty ) . وكذلك فركريك التي هي تحويل لكمتي فري كك ( Free kick ) الانجليزييتين . وحسناً فعل بنا التطور الذي علمنا ان نقول ضربة جزاء وضربة حرة وظهير ودفاع وجناح وغير ذلك من مستجدات التعريب التي حفظت للغة العرب كرامتها ووضعت حداً للاعتداءات المتكررة علي سلامة الكلمات الانجليزية . ولكن مالنا وكل ذلك ؟ لقد قلنا ان المعارك كانت تنشب بين التلاميذ إثر نتائج مباريات الفرق الرياضية . بل ان بعض هذه المعارك قد تنشأ وتحتدم بين الفرقاء لأتفه الاسباب . وتلك هي المواقف التي يظهر فيها اتزان بابكر ظهوراً جلياً . فاذا قال قائل ان محمد بلة كان « سارقاً » حينما سجل ذلك الهدف الذي كاد «يقدر الشبكة» تسارعت الايدي قبل الالسنة لتسكت ذلك القائل او تجبره علي ان «يلحس» كلامه ، ولم يكن من بينها يد بابكر بأي حال من الاحوال . بل ان بابكر ربما اختار انسب الاوقات والمواقف ليفتي بأن محمد بلة كان « سارقاً » بالفعل وان الهدف الذي ارتجت له قلوب الناس والشباك واركاب دار الرياضة غير صحيح . وكلمة سارق

او كان يردد في شي من الحزن والاسي مقولة ابي الطيب :

وقد يتزيا بالهوي غير اهله # ويستصحب الانسان من لا يلائمه

ولكن العجب ان هذا الحق الذي ملأ نفس بابكر حتي كادت ان تضيق به فينفجر عنها انفجاراً ، وهذا الاسي الذي رنح اعطافه حتي كاد ان يعتزل الناس لم يدم اي منهما طويلاً وإنما تجاوزهما بابكر بسرعة مذهلة ونسيهما تماماً حتي ان محمد العوض اصبح من خيرة اصدقائه في فترة وجيزة . واما محمد العوض فقد ران علي سمته انقباض طارئ سرعان ما تقضي وزال ، فعاودته روحه العابثة بكل افاقها المترامية الاطراف ، ولاشك انه دعا الله في سريرته أن يغفر له افتاتة علي بابكر ، ولو كان يعلم لأنشد في دعابة ابن هائي وانسه وعبثه وظرفه الموفور :

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة # حفظت شيئاً وغابت عنك اشياء

لاتحظر العفو ان كنت امرءاً فطنا # فان حظركه بالسديين إزراء

اما الصقور فقد اعجبوا بهدوء بابكر وترفعه عن اغتيابهم او اغتياب غيرهم ، واتخذوه خليلاً ولكن على شئ من البعد ! وذلك لان نفوسهم لم تكن راضية تماماً عن تحفظه في التشيع لفريق الهلال . وربما كان بعض سخطهم عليه - او عدم رضائهم عنه - ناتجاً من مشاعر الاعجاب التي كان بابكر يبديها - في شئ من الحيطة والحذر - للاعبي الموردة ترنة « ودرار » « والصافي » « والجاك » « والشاويش جمعة » . واية حذره وتحوطه انه انما كان يبوح بذلك الاعجاب الدقيق ويظهره للناس عندما يتألق هؤلاء « اللعيبه » في مباراة بين فريقي المورة والمريخ . وهذا هو ما يقلل من سخط الصقور عليه ، بل هو ربما ارضاهم وسرهم وراح بالهم لان الغريم الاول لفريق الهلال في نظرهم هو فريق المريخ . الذي كانت له مقدرة عجيبة علي الانهزام امام فتية الموردة القراير الاشاوس ! ومهما كانت الملابسات والمواقفات والمفارقات ، ومهما كانت درجة الرضا ومظنة القبول فان الكمال لله وحده . وقد رضي الصقور من بابكر مواقفه عموماً ، وخاصة بعده عن المنازعات التي تجر الي المعارك . فهو لم يكلفهم شططاً

انه ربما ابتعد عن ركوب الطرماج نتيجة لتجربة او تجارب مرة قاسية ، فليس طبيعياً الا يتحدث مثله عن هذه المركبة المجنونة إلا ان يكون قد عانى من «زرة» المفتش او ملاحقة الكمساري . او لعله حاول النزول قبل ان يبلغ الطرماج المحطة التالية فأصاب «بهذلة وملطشة» أبي له دهاؤه وكبرياؤه إلا أن يحتفظ بحقيقتها لنفسه وان يخفيها عن الناس . ولعل الحظ واتاه في تلك اللحظات الحرجة فلم يكن معه من التلاميذ من ينشر ذلك النبأ بين الناس ، فحمد الله علي انها «جات مستورة» وأثر - من فرط حكمته وكياسته - ألا يعيد الكرة حتي لايعطي فرصة - اذا فعل ذلك - لافتضاح امر ستر الله عليه . وقد كان هذا هو تصور محمد العوض مصطفى للأمر . فهو الذي قال لبعض الخبثاء مرة وهم يتجادلون فيما بينهم باحثين عن حل مقبول لهذا اللغز : « ياخي هو في واحد بيتهم جنب الطرماج ويجي المدرسة كداري » ؟ « مشي الكرعين دا ماهين . لازم في الامر شئ » ! ثم طفق محمد العوض يقهقه ساخراً متندراً وكأنه قد كشف الغطاء لكل ذي بصر حديد وخيال مستبصر ، حتي إذا رأى بابكر النور وهو يتهادى تلقاعاً همس في أذناننا : « هس ياولاد الكلب أهو القندف جايي » . ثم كان هو اول من تلقي بابكر بالأحضان وصار يتحدث معه في كل الامور إلا الطرماج . ولم يكن مكر محمد العوض بغائب عن فطنة بابكر وذهنه اللماح ، وهو قد ادرك محمد العوض وما تزال البسمة الساخرة ترتسم علي وجهه وهو قد سمع قهقهته لامحالة ، وألم به والمكر لا يزال يشع من عينيه الضاحكتين ، وترحابه المغالي يشئ بأن بابكر النور دون سواه قد كان مضغفة في فمه منذ هنيهة . ولكن اذا كان محمد العوض بهذا المستوي من المكر والخبث فان بابكر يحسن قراءة الوجوه ويمتاز بأنه « نوبطن غريقة » . فهو قد سخط علي محمد العوض لا محالة ولكنه اسرها في نفسه ولم يبدها له ، وأثر الايبث حزنه وشكواه لاحد من البشر ، وفضل ان يدعي البله او « يعمل نايم » او « يعمل مجنون » او « يعمل اطرش » او ان يقول لنفسه : الايام بيننا ، ويتمثل قول القائل :

إذا انت لم تشرب مراراً علي القذي # ظمئت ، واي الناس تصفو مشاربه .

لحمائته والانتصار له لانه لا يغشني مواطن الشر ، وهو بعد هلالابي مدنف بحب الهلال دون ريب ، ولايشي بهم ، ولا يعترض علي تجاوزاتهم ، بل يبسم في ارتياح ظاهر لا يخفي علي التلاميذ ، ولاتدرك معانيه عيون الاساتذة . وربما اسر بابكر لبعض أقرانه - عندما يأمن اعين واذان الرقباء - عن إعجابه بأنشطة الصقور الهرجلية ، وعن احساسه بالاسي لتخلفه عن مجاراتهم . ولقد سمعت محجوب حسن سعيد مرة يقول لعبد الكريم ، ومحجوب كما قد علمت تلميذ قليل الكلام : ياخي بابكر تخين لكن خواف . ولكن عبد الكريم دافع عن بابكر وعزا ما حسبه محجوب خوفاً الي شدة حياء بابكر . وضحك محجوب ولم يزد علي ان قال : «إمكن» وهو يهز رأسه في استغراب . وان من خلانق محجوب ألا يسهب في الحديث ومدعاة الي اللجاجة ، ولذلك اكتفي بكلمة الاول بجملته اخري هو إسهاب في الحديث ومدعاة الي اللجاجة ، ولذلك اكتفي بكلمة «إمكن» وحدها ، ولكن - كما يقولون « اللي في القلب في القلب » . اما عبد الكريم فقد كان « حبوباً » وهو حريص علي رضا صديقه محجوب وحريص ايضاً علي إنصاف بابكر ، ولذلك اضاف عبد الكريم واصفا بابكر ومستدركاً بذلك : «لكن بطنو غريقة»! فتقبل محجوب هذا القول ورضي به وسكت دون ان يقطب او يبتسم .

اما في الفصل فقد تعددت اماكن جلوس بابكر ، يبتغي من وراء ذلك الابتعاد عن مواطن الزلل والتجافي عن مواقع الهرجلة ومرامي سهام الاساتذة . ولكن من كان في فصل محمد العوض وعبد الكريم ومصطفي وامثالهم فلن تكتب له النجاة ، ولو ابتغي لذلك نفقاً في الارض او سلماً في السماء . نعم ، كان الكبتل يحترم بابكر ولا يتصيد هرجلته ليثبت اسمه في القائمة المعلومة إلا نادراً ، وبعد ان يتصايح الخبثاء محتجين علي براءته «المزعومة» ، وبعد ان يغمز عبد الكريم للكبتل حتي لاتخرج الامور من اليد . ولكن عندما يكون الشأن شأن الاساتذة والدروس فان بابكر كان يعلم ان النجاة من غضب الاستاذ الحاج هاشم ومكر الشيخ ابي بكر انما هي العنقاء بعينها ، فكان يمثل للامر امتثالاً ويتجمل تجملاً لما يسوقه اليه من نكد وشقاء . فليس الكبتل في مثل



هذه المواقف بمصرخه ، وليس عبد الكريم بمنجيه من سياط العذاب .  
لقد توثقت صلتى باباكر منذ تلك العهود السالفات ونمت وتكاملت في مدرسة خور  
طقت وما بعدها ، حتى اصبحنا صديقين حميمين . وقد تعرفت علي اخوته جميعاً وهم  
قوم كرام بحق . ولست انسي ابدأ صديقي واخي العزيز عثمان النور عليه رحمة الله ،  
فقد كان ملاكاً يمشي علي الارض . وعرفت في بابكر شهامة ومروءة وطيب خلق نادر ،  
وألفت فيه رقة وعذوبة ونعومة مشاعر عجبت معها كثيراً كيف اختار بابكر ان يمتهن  
العسكرية ، وهو الذي قضي جميع اوقاته بين زملائه مسالماً وقوراً ينشد السكينة  
ويتزيا بالهدوء . وربما صح مازعمه عبد الكريم منذ تلك الآماد ان بابكر تلميذ شديد  
الحياء ولكن «بطنو غريقة» . فقد بان لأصدقائه بعد حين صحة ماذهب اليه عبد الكريم  
صاحب الفراسة التي لاتخطيء . غير ان هذه الصفة ليست مذمة علي الاطلاق ، بل  
هي ربما كانت في اكثر احيانها محمودة وصفة غالية . ولولا ذلك لهلك اقوام من اثرها ،  
ولولاها لنجا بابكر من موارد الحتف ، ولكن « لكل اجل كتاب » .

### **مصباح ... ولفز الطرماج والبسكيت :**

أراني قد تركت صديقي مصباح الصادق الي آخر القائمة ، وليس ذلك من قبيل  
ختام المسك فحسب ، ولكن لأنني اثرت ان يكون معي وانا أتى علي آخر أبناء فصلنا في  
« التواني » . وذلك ان المصباح صديق عزيز لم تنقطع صلتني به طوال هذه الدهور ،  
وان من زملاء مدرسة ام درمان الاميرية الميامين من ظلت صلتني بهم قائمة نون  
انقطاع يذكر ، غير ان مصباح قد يكون اكثرهم اجتراراً لهذه الذكريات . وقد برهن -  
بخطابه الذي ارسله إلي يستحثني علي الكتابة عنها - انه اشدهم حرصاً علي  
تسجيلها واشاعة فصولها بين الناس . والانسان الذي يكتب من الذاكرة عن احداث  
بدأت منذ خمسين عاما لايمكن ان ينتظر منه رصد كل جزئياتها بالدقة المطلوبة ، وانما  
هي طائفة من صور وحكايا وواقعات عشناها معاً وانتقش منها علي صفحات دفتر  
الذاكرة ما عجزت هذه «السنين» الطوال عن محوه وازالته .

جاعنا مصباح - وكنا نسميه المصباح - من السروراب ، وهي قرية لاتبعد كثيراً عن تخوم مدينة ام درمان الشمالية . وحق لمصباح ان يفخر بأنه اغترف مبادئ العلوم من منهل هذه المدرسة العريقة تماماً كما فعل والده من قبله بأزمان . ومنذ ان عرفت مصباحاً عرفت فيه تخلقه بقيم القرية السمحة السوية ، وان كان هو لايعترف بهذه الهوية القروية وربما اصصر علي ادعاء التحضر والمدنية منذ القدم . واني لأذكر كيف التقيته في اول امرنا في المدرسة التي تقع حالياً قرب كبري شمبات ، حيث بدأ فصلنا اولي « ب » او « التواني » هناك . وكان مصباح - كبقية التلاميذ - يرتدي الجلابية البيضاء ذات الياقة ، ويلف علي رأسه عمامته - وكانت كبيرة او طويلة نسبياً - علي طريقة « محمود قيل » ، وهي طريقة عرفت بشكل خاص في القرى السوانية عموماً ، والعمامة التي تلف علي هذه الطريقة تنتظم في هيئة دوائر مترادفة تبلغ طبقاتها اربعاً او خمساً لاتزيد ولا تنقص ، وهي فضفاضة بعض الشيء ، مائلة الي الامام ، منحسرة عن الاذنين ، مشتملة علي مؤخرة الرأس إلا قليلاً ، مطلة علي الحاجبين في قرب منها تكاد من فرطه ان تلامسهما وتوشك أحياناً أن تنسدل عليهما . قد استدارت طياتها هوناً علي غير ما شد وثاق ، حتى إذا هبت عليها نسمة هواء نشطة او اهتز صاحبها ضاحكاً تداعت حلقاتها العليا وانسدل طرفها علي الكتف او الوجه او القفا ، إلا أن يسارع صاحبها باعادة لفها وتمكينها من رأسه لتستدير عليه من جديد . اما اذا تغاضى عنها واكثر من حراك رأسه فانها تترامي علي كتفيه او قفاه لتنجلي عن طاوية هي الاخري بيضاء - وربما تكون حمراء احياناً - ذات شرائط متساوية تفصل بعضها عن بعض شبكة رقيقة من الزركشة مثقبة متناسقة الاجزاء متقنة النسيج ، تنتهي في قمتها الي قرص مستدير منمق كأنه خرز موضون . ورغم ان مصباح قد جاء من السروراب التي هي علي مقربة من مدينة ام درمان فقد ظللنا نقرأ آيات الحيرة والدهشة علي وجهه لفترة طويلة قبل ان تطمئن نفسه ويألف طبعه حياة الحضارة الجديدة التي دفع به اليها دفعاً وقذف به في ارجائها الصخابة قذفاً وقبل ان تركز

مشاعره القروية النافرة الي التعامل بطريقة ودية مع قيم المدينة الجديدة . ولست ادري ان كان في سابق عهده يذهب الي مدرسته الاولي علي ظهر حمار او سيراً علي قدميه، ولكنه بالقطع كان يري الترام لأول مرة في حياته ، فيتعجب من هذه الدابة الحديدية التي تجري علي القضبان وقد الصقت قرنيها بأسلاك شاهقة العلو وطفقت تحدث ازيراً ونشيجاً لم يألفه طفل تعودت اذناه علي ثغاء الشياه وخوار البقر ونهيق الحمير ونقيق الدجاج « ولبلة » التيوس ، واندغمت في احاسيسه اصداء نغمات هادئة خافتة منبعثة من جوف « زمبارة » الراعي وصرير الرياح وانين السواقي . لقد كانت هذه المصيبة ذات العجلات الحديدية التي تنزلق علي دروب من حديد املس هي اعجوبة في نظر مصباح . ولكن اعجوبة الاعاجيب بالنسبة له كانت هي هذا الرهط من الناس المغامرين المستهترين بالحياة والسلامة ، الذين يجلسون داخل عرباتها الخضراء غير هيابين ولاوجلين وكأن الامر لا يعينهم ، وكأنهم لايعرفون الانعام التي خلقها الله لهم فيها دفء ومنافع ، ( ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل اثقالكم الي بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس ) . لو علم مصباح لتلا عليهم : ( والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ) . ولو تأمل اصدق القول ( ويخلق ما لا تعلمون ) لعلم ان كلمة « ما » هذه تشتمل علي كل ما يمكن ان يخطر علي البال او لا يخطر . ولكن مصباحاً كان تلميذاً صغيراً ، ولذلك كانت دهشته من حماقات اهل المدينة دهشة بالغة لاتحدها حدود . ماذا لو عجز السائق عن ايقاف هذه الدابة المخلوقة من حديد ؟ ماذا لو « حدف » من يده « الدرکسون » ؟ وماذا لو ارتطمت هذه المصيبة بأحد البيوت التي تصطف من حولها وهي تسابق الريح ؟ ماذا لو خرجت عجلاتها عن هذه القضبان وانكفأت بمن فيها وانغرست قرونها في الارض ؟ اترجي من ذلك سلامة ؟ ايمن لعاقل ان يركب هذه المخاطرة وان يدفع من حر ماله ليبتاع من هذا الكمساري الاحمق الذي يرتدي بردلوبة الكاكي تذكره هي في حقيقتها جواز سفره الاكيد الي الدار الاخرة ؟ وهبك احسنت الزوغان من الكمساري واتقنت فنون الاختباء عن عيني المفتش الفاحصتين

فأبي فائدة ترتجي ان عثرت بك هذه المركبة المرعبة ( والقت ما فيها وتخلت ) وقذفت  
بمن علي ظهرها وفي بطنها الي الهلاك المحتوم ؟ ان اهل ام درمان مجانيين دون ريب ،  
ولن يسمح مصباح لهذه الغواية المبتدعة ان تأسر لبه وتأخذ بتلابيب فكره . وخير له  
الف مرة ان يسير علي قدميه بعيداً عن هذه المخاطر ، او ان يطلب من أهله ان يمدوه  
بحمار او «حش» ينقله الي المدرسة ويعيده الي اهله سالماً مطمئناً ، وهو لايبالي حتي  
اذا كان هذا الناقل أتاناً بلاسرج ولافروة وعلي ظهره امثال الريال ابو عشرين من  
الدبر والقرح والجراح ، او كان حماراً «دبلواياً» كما يحلو لأهل القرية ان يعيروا بعض  
الحمير بشدة الحران . إلا ان مصباحاً لن يلقي بنفسه او بيده الي التهلكة ، وان  
يستمتع الي نصائح هؤلاء المعتوهين من اولاد ام درمان . واذا كان ركوب الطرماج في  
حد ذاته خبلاً وجنوناً بالنسبة لمصباح فان النزول منه الي الارض وهو يندفع كالعاصفة  
إنما هو قمة الجنون . اما النزول «عكس» الذي يبشر به ويمارسه بعض «القنادف» من  
زملائه فانه لايجد في قاموسه كلمة واحدة يمكن ان يصفه بها . ولو علم مصباح لتأسي  
بحكمة الشاعر المجنوب اذ يقول في معرض نقوره من المدينة وحنينه الي القرية :  
إنني من الدامر السمحاء دوخني # هذا الترام حماراً غير مأمون  
فيه ارتدفتنا وقرفاً ثم جمدنا # ذاك التاله من سواقه السدون  
وكم أروح إلسى الطباخ يخدعنى # صياحه بطبيخ غير مسمون  
من لي « بكسرة » خالاتي ومايبست # فيها القواديس في احجار طاحون  
كنزي قلادة تمر عدها مائة # معسولة كعيون الخرد العين  
وقرعة حلبوا فيها وأعجبها # رغو يفور علي زهو يناديني  
ابغضت حدلقة الخرطوم سوف تري # يوماً يجيء بجزار وسكبين  
تلك هي بعض إحياءات الحنين الذي كان يداعب نفوس التلاميذ الصغار الذين  
قدموا من مواطن الدعة والامان ويسر الحياة في القرية الي صخب المدينة ومتاعب  
الحياة فيها ، وفي طليعتهم كاتب هذا السطور .

ومهما يكن من امر فقد كانت قناعات مصباح وتصميمه ان يبقى حياً سليماً كيفما تأمرت عليه اغراءات المدينة الزائفة وكيفما حاول اغواءه هؤلاء التلاميذ المردة . فهو لايعرفهم جيداً وان عرفهم فهو لا يثق بهم ولايؤمن مكرهم . ولعله قد حمل معه في حنايا صدره من وصايا الاسرة بالمحافظة علي نفسه وعافيته ما صار له ذخيرة مأمونه يلجأ الي بركاتها دون انقطاع . وليت اهله عرفوا الطرماج وأبانوا له افضل الوسائل للتعامل معه ، او قل لاجتنابه بل ولاجتناب الطرق والمنعطفات التي يسلكها ! غير ان قيمة الوصايا تكمن في عموميتها ، وفلاح الانسان في استصحابها استصحاباً رشيداً مرناً يفرض عليه ان يأخذ في الحسبان كل جديد لم تشتمل هي علي التحذير من مخاطره . فاذا خلت الوصايا الاسرية من النصوص القاطعة بشأن بعض المستجدات التي لم تكن تخطر علي بال فليكن اللجوء الي القياس مع الابقاء على الحذر وحضور الذهن واستصحاب المرونة وبعد النظر . وقد افلح مصباح في ذلك كله في اول امره ، فابتعد عن كل مامن شأنه ان يزج به في مغامرة لايرجي منها مخرج بسلام . وبالطبع كان التخلق بالمكارم من صميم وصايا الاسرة ، شأنها في ذلك شأن كل اسرة سودانية صميمة . ومن منا لا يذكر وصية امه ودعاها له بالخير وحثها له علي التمسك بكرم الاخلاق ؟ «إنت يايا تبقي لي غابة والناس حطابة» ، انظر بربك الي هذا الدعاء وهذه الامنية . إنها تستوفي جميع معاني الكرم والبذل ومآثر العطاء . «إن شاء الله يا ولدي نارك وقادة وضيوفاك وراة» . وهذه قمة اخري من قمم الشهامه والنخوة « إنت يا ولدي ماك جمل الشيل وضو الليل» . دعوة صريحة الي استيفاء المروءة وتحمل اثقال التضحيات من اجل الغير وتبديد الظلمات وانارة الطريق للناس . «الله يعليك علي الماييك» . اطروحة اخري في شجب الحسد ودعوة صادقة الي العمل وبذل الجهد من اجل التفوق. وغير ذلك كثير . تلك هي بعض امهات المعاني التي كان تلميذ تلك الايام يملأ رثتيه من هوائها النقي ، وتجري بها دماؤه في عروقه . جاء مصباح - كما جاء غيره - يحمل بين جنبيه هذه المعاني الكبار الزواهي ، وهي ذات المعاني التي تخلقت

من رحمها امال ذلك الجيل وشدت قوائم عزماته . قلا جرم عاد الي صفائها من  
اختلفت بعض صفائها منه تقلبات الحياة واضطراب الناس فيها اثر غفلة عارضة ،  
فعرفها من جديد واشتاق الي ظلها وأمانها وفرح بها واستقر واستقام عليها ولزم .  
بعد ان تم قبولنا في مدرسة ود نوباوي - التي صارت الاوائل الي حين فيما بعد -  
بدأنا الدراسة في فصل « التواني » ببيت المال ، وذلك لفترة قصيرة . وهناك تعرفت  
علي مصباح الصادق ، ووقر في نفسي هذا الانطباع الذي سلف سرده . ولست انسي  
ان فصلنا كان في الجهة الشرقية من المدرسة ونحن نجلس لأدراجنا وواجهنا متجهة  
الي الجنوب . واما باب الفصل فقد كان يفتح الي الجهة الغربية قريباً من الركن  
الجنوبي الغربي للفصل . واول استاذ دخل فصلنا كان هو الشيخ ابوبكر عبد الله ،  
فكان منه مارويناه سالفاً عن محمد علي مقبل وكيف صار في نظره مدبراً منذ تلك  
الوهلة الاولى . وكان ثاني الاساتذة الذين دخلوا فصلنا هو الاستاذ احمد زين  
العابدين . ولا بد انه اشتغل بالتدريس هنيهة قبل ان يسافر الي القاهرة ليتخرج في  
كلية الحقوق بعد سنوات . لقد كان الاستاذ احمد يدرسنا اللغة العربية . واني لأذكر  
جيداً انه في يومه الاول كتب لنا علي السبورة نشيد : احب الماء والشجرا # احب النيل  
والقمرا . فكان مصباح في مقدمة التلاميذ الذين استظهروا ذلك النشيد وحفظوه عن  
ظهر قلب بسرعة فائقة . ولم اتعجب لذلك اذ ان مصباحاً عربي من السروراب . وماذا  
في السروراب غير الماء والشجر والنيل والقمر ؟ ولو كان في النشيد اي ذكر لطرماج  
السمع او عجلاته وبياراته ، او اي ذكر للقطار وقمراته وقضبانه الحديدية ، او اي ذكر  
لأى امر من أمور المستحدثات الحضارية المعقدة التي يعمر بها قاموس المدينة  
لاستعصي ذلك علي مصباح ولصعب عليه استيعاب طرق النطق لتلك المفردات العجمية  
ناهيك عن استلها مغانها واستقرارها في الفهم استقراراً تطمئن النفس اليه وتأنس  
به . ولو ان الاستاذ احمد عرف جلية الامر واراد ان يبهج مصباح الصادق حقاً لكتب  
لنا ايضاً قصيدة الشاعر الشيخ عبد الله البنا التي جاء فيها :

فلو سكنت معنا البطانة # لما رأيت مثلها مكانة  
 يكفيك من دنياك كلب صيد # يكون للغزلان مثل القييد  
 تمتع النفس من الأرنب # ومن حليب لبن ورايب  
 انا اذا امطرت السماء # فأرضنا جميعها خضراء  
 إبلنا من حولنا عظام # كآهن رتعا نعام  
 ويقر الحى لها دوي # كأنما قرونها العصي  
 والضأن والمعزي تبيت حولنا # نجبها كحبنا أطفالنا  
 إذا ثغين مغرباً في الساحة # فكالنساء صحن في نياحة  
 والناس عندنا جميعاً أخوة # وهم لذى المرعي الجميل اسوة  
 نحن ألفنا سكن البرية # لحسن ما فيها من الحرية

فذلك هو العيش الرغد الهنيئ يفتي ! او تعجب بعد كل هذه «البانوراما» الرائعة  
 ان قلت لك انها كانت ستسعد مصباحاً اذا الم بها ؟ واين هذه الحرية وهذه الطلاقة من  
 ضيق المدينة وانقباض رتابة الحياة فيها ؟ الا ترى ان مصباحاً محق اذا استبته هذه  
 الصور والمعاني وهام بها واهتاجه الي منابعها الشوق والحنين ؟ .  
 كان ضحك مصباح علي محمد علي مقبل مقدمة لبدء صداقتي به . وذلك ان مقبلاً  
 كما ذكرت حنق علي اشد الحنق ، فقد خرج هو من حصة الشيخ ابي بكر مدبراً  
 وخرجت انا شريفاً ( فأى الفريقين احق بالأمن ان كنتم تعلمون ) و( أي الفريقين خير  
 مقاماً واحسن نديا ) . هل يستويان مثلاً ؟ شتان ما بينها .

فشتان ما بين اليزيديين في الندي # يزيد سليم والأغر ابن حاتم .  
 ولذلك كان العراك بيني وبين مقبل . ولذلك ايضاً عرفت من هم حلفائي الحقيقيون  
 وكما كان يقول الاستاذ محمود علي الياس - وهو يحاول ان يشرح لنا بعض فنون  
 الرياضيات «إن ناقص ناقص تساوي زائد» لأن عدو عدوك صديقك - فمن ضحك علم  
 مقبل في تلك الواقعة واستخف به فقد عاداه ، ومن عاداه فهو لي صديق إذ ان مقبل

قد اختار طوعاً معاداتي . ولكنه العداء المحبب ، عداء الطفولة العابث الذي سرعان ما ينقلب الي اخاء وصفاء ووداد . ورغم ان الود قد اتصل بيننا جميعاً فيما بعد برغم المهارشات والصراعات العابرة التي لاتدوم ولاتبقي في الانفس منها مرارات ، إلا ان صلتني بمصباح ، ومنذ تلك اللحظة وحتى كتابة هذه السطور ظلت وداداً متصلاً لم تذكر صفوه آثارة من سوء . فله تلك الايام الغر النواضر ولله اولئك الصبية الصغار البررة ، ولله تلك المعاني السامية الوضاح التي غمرتنا بطهرها وعافيتها رداً من الزمان ، ولله اولئك النفر الكرام من الاساتذة الذين غرسوا في نفوسنا محبة العلم والوطن والتخلق بمكارم الاخلاق !

كنا نعجب من الاستاذ احمد زين العابدين وكيف يذهب لشأنه في داخل حدود المدرسة وهو علي ظهر دراجته ! لقد كنا نضحك لذلك كثيراً ، ويرمي بعض الخبثاء منا الاستاذ بالكسل وربما وصفه بعضهم «بالقرضمة» وقد يصفه فريق ثالث بحب الاستعراض ، وهو برئ من كل هذا وذاك . ولكن الشيء المثير بالنسبة لمصباح لم يكن هذه الصفات والنعوت التي انقسمت حولها الاراء ، وانما كان هذه العجلة ، هذه الدراجة ، هذا البسكليت ، هذه المصيبة المصنوعة من الحديد وهي تسعي في الارض علي عجلتين ، ولها فانوس وأيدي وبدالان وجنزير . ياإلهي ، ما هذا ؟ هل جن اهل هذه المدينة المسحورة ؟ كيف تجري مركبة علي عجلتين ؟ وقصاري ثقافة مصباح في هذا المضمار لم تتعد رؤية اللوري الفوردي أو البدفورد أو الأوستن ، وهم ينطقونها «هوستن» بهاء من ابداعاتهم عندما تستعرب علي السنتهم لغة الاعاجم . ولكن الهوستن علي اي حال مركبة ذات عجلات اربعة تجري علي اليبس ، فكيف استطاع اهل ام درمان ابتداع هذا البسكليت الذي يمشي علي عجلتين ؟ والادهي من ذلك ، والذي كان يحير مصباحاً تمام الحيرة هو كيف يتسنى لانسان - ان لم يكن به مس من الجنون - أن يعتلي سرج هذه الدابة ويمسك بمقودها ثم لا تخطئ قدماه في الدوران مع بداليها وجنزيرها حيث تلور ؟ وكيف يستطيع الانسان ان يحافظ علي



تزانه وهو علي ظهر هذه الدابة الحديدية ذات العجلتين دون ان يسقط علي الارض ويمتلئ فمه بالتراب ؟ إن مصباحاً لن يدخل نفسه في مثل هذه المأزق والورطات فهو يعلم من تجارب اهل الريف ان الانسان اذا سقط من ظهر الحمار فانه في اكثر الحالات ينهض سليماً . وفي الاحيان القليلة التي يتأذي فيها يذهب به الي بصير القرية وقصاري ما يحتاج اليه من علاج لا يتعدي مرواداً أو مروادين احمرين كالجمر لوناً وحرأً يكوى بهما موضع الالم فيبيل ويشفي في لحظة ، «الكمدة بالرمدة» . ولكنه لم تقع عيناه بعد علي احد سقط من ظهر هذه المصائب المبتدعة ، وانه ليوقن في قرارة نفسه ان السقوط منها لا يكون معه قيام ابداً ولن ينفع معه مرواد البصير ولو حمي في نار جهنم ! ولذلك وضع مصباح البسكليت ضمن قائمة المحرمات التي يحتفظ بها في سريرته في طي الكتمان لا يعلن من امرها شيئاً علي الملا ولا يسر به الي احد مهما كانت الظروف .

ولما كان اكثر التلاميذ ينتعلون احذية الباتا في ذلك الزمان فقد كان مرأي عز الدين عباس حفاوي وهو «يقدل» في حذاء جلدي ذي رباط مثيراً للدهشة . ولقد رأي بعض الخبثاء كيف كان مصباح يحملق في حذاء عز الدين ، ولم يكن احد يدري هل كان يغبطه عليه ام انه كان يتعجب منه مجرد العجب . فروي هذا الخبيث فيما بعد قصة مضمونها ان احد مواطني السروراب ابتاع حذاء لامعاً من سوق ام درمان ، وعندما ذهب به الي اهله سألهم اهل القرية في دهشة واستغراب : ما هذا الحذاء الذي يلمع ويشع ببريق خاطف ومستمر في ذات الوقت ؟ فقال لهم : هذه جزمة قزاز . قالوا : ومن اين جئت بها ؟ قال : من ام درمان . فاسترجع العقلاء منهم وهزوا رؤوسهم في حيرة وارتيابك دهش ، ومسح كل منهم كفأ بكف ، ثم تنفس اعلمهم بالامور نفساً طويلاً وقال معبراً عن مشاعرهم جميعاً دون استثناء : الله قادر . والله ناس ام درمان ديل بعد دا فاضلة ليهم الروح بس يسووها ! وهذا يذكرني بطرائف اخر كانت تروي عن بعض ابناء القرية من طلاب جامعة الخرطوم علي ايامنا فيها . فان تأملت هذه

الطرائف ايقنت ان مصباحاً لم يكن بدءاً من اهل القرى . فمما كان يروي عن احدهم انه رأى ذلك الاعلان الشهير في المحطة الوسطي في قلب سوق الخرطوم وهو يتلألاً بالنور الخاطف ويظلم في تتابع سريع لايمهله حتي يميز حروف الكلمات التي كانت تقرأ بالانجليزية ذات الاحرف الكبيرة ! « DON'T BE VAGUE ,ASK FOR HAIG » ولكن هذا الشاب القروي لم يهتم بمضمون الاعلان قدر اهتمامه بهذه الظاهرة التي تبرق وتنطفئ لتبرق من جديد ثم تنطفئ ثم تبرق الي مالانهاية . فما كان منه إلا ان ظل «مصنقاً» يتابع هذه الدورات السريعة المتلاحقة وهو يردد : امك ولع ، امك طفي ، امك ولع ، امك طفي ... حتي اشفق عليه بعض المارة فقال له : يا هذا اذا تابعت هذه المصيبة فان رقبك ستتكسر قبل ان تصل الي نهاية امرها وربما انقطعت انفاسك قبل انكسار الرقبة ! واما القروي الاخر فقد كان طالباً عجوزاً « يهاتي» بالزواج . وذات مرة سأل احد اصدقائه عن تكلفة الزواج في ام درمان . فرد عليه قائلاً : ان تكلفة الزواج من بنات ام درمان لاتقل عن اربعمائه جنيه بالتمام والكمال . فطفق صديقنا القروي يمسح كفا بكف ويهز رأسه عجباً وهو يقول : الكتلل ، والله في اهلنا مرة الجنيهين الحمار ما يشيلها ! وساعتها علمنا لأول مرة كم من المال كان صاحبنا يدخر لزواجه المزعم وماهي المقاييس التي يريد ان يزن بها المرأة التي يتعشقها ويتخيرها شريكة لحياته ! وهكذا نرى ان مصباحاً كان علي اقل تقدير تلميذاً متحضرأ بالقياس لهذين الصديقين إذ من الواضح انهما لوتعرضا لنفس تجربة مصباح وهما في سنه لوليا علي ادبارهما نفوراً . فلا اقل من ان نحمد لمصباح صموده اما هذه التجارب المرعبة المحيرة واجتيازه لها بسلام دون فرار او تكول .

بعد اشهر معدودات تحولنا من مدرسة بيت المال الي الكلية القديمة التي اصبحت تعرف باسم مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي ، وان كانت مدرسة التجارة الثانوية الصغرى تشاركنا المكان وتحتل الطابق الاعلي منها . وهناك كان الفصالات «الأوائل» و «الثواني» وهناك نمت وترعرعت بيننا وشائج المودات التي اثمرت محبة باقية ووفاءً اصيلاً ، رغم ما كان يعتري سير الحياة من مشاحنات عارضة

سرعان تنجلي عن وفاق وتقضي الي روابط أوثق وعلائق أتم وابقى بين اولئك الفتية الصغار . وهناك تعرفنا علي رصفائنا من فصل الاوائل : دفع الله الحاج يوسف ، والهادي محمد عباس ومحمود زروق وعوض الله ( او عبد اللطيف ) زروق ، ومحمود قرشلي وعوض الكريم محمد علي بكار وكمال شكاك وامين علي حسني وعبد المنعم عبد العزيز ابو سمرة ومصطفي احمد عيسي ومصطفي خوجلي وعبد الله عبيد ، وصلاح الزبير والطيب عوض دياب و ابا صالح وغيرهم . كما تعرفنا علي طائفة من تلاميذ الاوائل والثواني من مختلف المراحل : من اولاد رابعة حسين سليمان ابو صالح وصلاح مازري وعمر محمد سعيد وساحر كرة القدم مرزوق والطاهر الفاضل محمود وغيرهم ، ومن اولاد ثالثة مأمون يحي وعبد الوهاب سنادة وشبيلية و خليل ابو زيد والقاتح عبد الله حامد وعبد الجليل محمد والطيب وحسان وعبد الرحمن محمد نور ومحمد عبد العزيز أبو سمره وعوض خلف الله وغيرهم ، ومن اولاد ثانية عبد الرحمن اللدر والطيب احمد حميدة والسر دوليب وغيرهم ، ثم تعرفنا بعد ذلك علي اولاد الفصول التي تليها تباعاً : محمد احمد قاسم وعبد المحمود ابو شامة وفيصل تاج الدين وعبد الله عبيد حسن ، وعبد الحليم عباس ، وملاً لا يحصي من التلاميذ . وشيئاً فشيئاً أخذ مصباح يألف جو المدينة ويتأقلم على منغصاتها ويحاول ان يستوعب المستجدات . وقد اعانه علي ذلك مرونة في طبعه كانت مستكنة في اعماقه . فلما استلهمها واستجار بها لمواجهة غرائب الدنيا واتته سائلة عذبة متجاوبة مع تفكره في الامور وتدبره لخفاياها . وساعده ايضاً علي ذلك تعاطف صديقه وصديقي عبد الرحمن كتنباي الذي بدأ تماماً كما بدأ مصباح ، وبدأ كلاهما كعلي بن الجهم . وانهما وان لم يبصرا عيون المها بين الرصافة والجسر - اذ لم تكن هناك رصافة ولم يكن ثمة جسر - وان لم يبلغا من العمر - والله اعلم - ما يؤهلها لادراك معاني الهوي تجلبها عيون المها «من حيث ادري ولا ادري» إلا انهما قد فطنا الي انهما يقفان علي اعقاب فتح جديد مفض لامحالة الي عوالم المسدنية والحضارة . فتقهما هذه العوالم عنوة فيمن تقحم ولما تغب عن ذاكرة وعيون الأسماع

بعد اخلاط اصوات هي مزيج من نباح الكلاب تحفظ الود وتحمي الحمي ، وشكول من لبلبات التيوس وهي تتناطح تنمي قدراتها علي قراع الخطوب ، وأهازيج من ثغاء الشياه وهي تروح صوادر في الامسيات في صحبة الراعي الامين . كما ان ذاكرة الشم عند القوم حديثة عهد ببقايا روائح مألوفة منبعتة من معادن الابل ومرابط الدواب والبربندي وشايات الحمير ، ثم نفس الدعاش ، وفي خيالهم صور متباينة لطبيعة فيها من الخيرات الاخضران الزرع والضرع ، وفيها من مظاهر القدرة العطاء والمنع ، ( ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك ) . ( ومن الجبال جدد بيض وحممر مختلف الوانها وغرايب سود ) . ولقد تمتن الرباط والحلف بين اربعتنا تمتيناً : مصباح وكنتباي والنفراوي وشخصي . وكان مصباح اكثرنا ضحكاً واقربنا الي الهزل وابعدنا عن الجد ، اوقل عن التمسك به في كل الاحيان والمغلاة فيه . ولذلك احبه محمد العوض وعباس صالح وهاشم الاطرش ومصطفي عابدين ، كما احبه الصقور جميعاً . وصرح عبد الكريم في غير مرة ان مصباح الصادق طيب جداً . وهذه شهادة بالغة الاهمية لأنها تمثل رضا القوة الضاربة في الفصل . وهي اذا جاءت من عبد الكريم فمعني ذلك انها اتية ايضاً من الكبتل ومحجوب ومكي . ولعل قرب مصباح من عبد الرحمن كنتباي كان من العوامل الهامة التي جعلت عبد الكريم يثني عليه هذا الثناء العاطر ويذكره هذه التزكية الغالية الصريحة ، لأن عبد الكريم لم يكن ليذكر احداً بهذه السرعة وبهذه الصورة القاطعة . ولقد ادرك مصباح قيمة هذه التزكية وحافظ عليها وصار بفضلها في مأمن حقيقي . وهذه هي ثمرة النظر الي الامور بمنظار العقل المستبصر الذي يتفهم واقع الحال تفهم دراية ورشد ولا يظل حالماً غافلاً يتجاوز مقدراته ويتمني علي الله الاماني .

واذا كنت قد « نبطت » علي صديقي الغالي مصباح بعض « تنبيط » بمثل هذه المداعبات الغليظة او هذا « الهظار الدراش » فما كان ذلك إلا من فرط المحبة التي اكنها له في نفسه وهو بصدقها عليم ، لأنها محبة قديمة ولدت منذ ذلك الفجر الذي التقينا تحت ضوء شمس في تلك الايام النواضر الخالدة . وهي محبة لاتزال علي صفائها

وروائها ونضارتها ، لم تنل منها عاديات السنين ، ماغيض ماؤها ولاجفت مناهلها ، وماغالها يبس الفرقة والافتراق ولا جذب الحاضر المريع وقحط ايامه السود العوايس ، ولم يبدلها ويغيرها اختلاف المصائر وتباين الاحوال . وذلك لأنها نشأت منذ يومها الاول صادقة ومتينة ، وانبتت وقامت علي ركائز الوفاء والاخلاص واتفاق الكلمة والعطف المتبادل . اما الركائز الثلاثة الاولي فقد كانت خلائق تلك العصور وشيمها ولباب قيمها السائدة . واما العطف فهو الحنان والحنو الذي يسبق المحبة ويفضي إليها . ولقد أشارت حكمة برنارد شو الي بعض ذلك إذ يقول :

« If pity is akin to love gratitude is akin to the other thing »

والمعني - عموماً ودون ترجمة حرفية للالفاظ - هو انك اذا حنوت علي انسان احببته ، وان احسست انك مدين له كرهته . وهو معني قد لا يستسيغ بعض الناس نصفه الثاني ، ولكن فيه عمقاً فلسفياً اذا حدقت فيه وتأملت ملياً اطالعك علي اسرار في طبائع البشر وارشدك الي ما يصدقها في حياة الناس ولا يكذبها . وصاحب هذه المقولة هو عين الشخص الذي قال ايضاً « Familiarity is a sort of impertinence » اي ان رفع الكلفة انما هو ضرب من ضروب الجسارة أو الصفاقة أو سوء الأدب . وهو قول لا يعدو الحقيقة ان انت احسنت التفكير فيه . لقد كان العطف والتعاطف فيما بيني وبين مصباح شعوراً ذا تفرد وخصوصية ، وهو الذي اثمر هذا الود الباقي الذي عجزت الفرقة ان توحيه واخفقت سنوات البعاد وفتراته المتطاولة ان تمسه بسوء او وهن وهو الذي اغراني بالجسارة ورفع الكلفة التي لم تكن اصلاً موجودة بيننا في يوم من الايام . أية ذلك ان مصباحا - دون غيره من رفقة الحداثة والصبا - هو الذي اوحى إلي بخطابه الرقيق ان اقبل علي تسطير هذه الصفحات ، وهو الذي الح علي بوفائه الاصيل ان اتصدي لرصد هذه الاشتات المتباينة في رواية لأحداث قد تسلي او لاتسلي ، ولكنها تذكر بأيام خوالد من ايام ذلك الجيل القديم ، والذكرى تنفع المؤمنين . وانا لست ارتاب في ان مصباحاً يحمل في أعماق نفسه امثال هذه الانطباعات وغيرها مما لم تهدني ذاكرتي اليه . ولو اراد ووجد متسعاً من الوقت في هذه الأزمنة

الشداد الجدباء لأوفي الامر ما عجزت عن إيفائه ، ولأورد من الطرائف واللطائف والملح ما قعد بي دونه سلطان النسيان . ولكني تصدّيت لهذا الامر نيابة عنه وبأذنه ، ونيابة عن الاحباب الاخرين دون اذن مكتوب . ولو خيرت لأخترت الا افعل حتي يفعل غيري . ولقد طال الامد واقترب الوعد الحق ، فرأيت ان أجمع هذه الاشتات واستجلي هذه الاطياف عساها توقظ همماً هي اقدر مني علي الايضاح والتبيين والرسم بالكلمات . فتلك أيام تستحق أن يقف حيال صورها من شهداها . ومن لم يشهدا لأنها ومضات حوافل بحياة ذلك الجيل بأسره .

وما العطف والتعاطف الذي جمع بيني وبين مصباح إلا ذلك الرباط الوجداني الوثيق الذي يصل بين صديقين حميمين جمعهما رواق واحد يستظلان بظله الوارف ويتلقيان في رحابه بواكير انوار التبصرة والمعارف علي مدي سنوات قصار في حساب الزمن اللاهث الحثيث ، طوال في حساب التذكار الذي لا ينقطع والذكري التي لا تتمحي . فولد ذلك الرباط المودة وسمت وارتقت هذه المودة حتي بلغت درجة المحبة . وعلي خصوصية ماسبي وبين مصباح فان الكل كانوا أحبباً ولا يزالون . ليس بين التلامذة الصغار مشاعر عرفان بهذا المعني الذي قد يلوح لك ويتراءى من ظاهر مقولة برناردشو ، لأنهم متماثلون وانت بينهم كما تدين تدان إذ لم يكن من بينهم من هو احوج الي غيره من هذا الغير إليه . فتلك ندية حقيقية ، ورؤوس مرفوعة ، وجبله شامخة ، ووجوه لاتعنو إلا للحي القيوم ، وان عرفت كيف تتأدب مع اساتذتها ومن هم في مرتبتهم من الكبار . فالحنو والتعاطف والعطف بينهم مشاعر صدق وحقائق صفاء ، ليس فيها ممارسة ولا عوج ولا التواء . وذلك أنهم لم يعرفوا المين ولا التمثيل ولا الخداع ، فمن وراء ذلك غلبة البراءة عليهم وأثر التنشئة فيهم وصدق المشاعر التي يبديونها ويتبادلونها فيما بينهم ، وبساطة حياة كانت تزخر بالفضائل . فاذا كان مصباح - كما « نبطنا » عليه - قروياً من السروراب فان كاتب هذا السطور اشد قسوية منه ، لأنه ولد في الكوة وتربي فيها وفي الجزيرة ابا ، وهما بقعتان تفصل بينهما وبين عاصمة البلاد مئات الفراسخ ، بينما قرية السروراب - وهي « ضهرة » من ضهاري المدينة - علي مرمي حجر من ام درمان ، وتوشك هذه المدينة التي تترامي اطرافها

ترامياً حثيثاً في كل حين ان تبتلعها اليوم ابتلاعاً وان تجعل منها حياً من احيائها التي لاتحصى . غير ان مصباحاً ينبغي الا يسر بهذا الاعتراف لأن كاتب هذه السطور قد سبقه الي ام درمان يوم كان بعض ذرية في ظهور الالباء الذين عمروها ونفخوا فيها الروح ، وساواه يوم ان اتاها وهو دون العاشرة بقليل تلميذاً في الأميرية الوسطي . ولكن اولاد ام درمان لا يعترفون لك يامصباح بحق المواطنة في مدينتهم الا ان تكون قد ولدت في ام درمان . وقد يولد فيها من لاصلة له بها غير المولد ، وقد ينكر فيها ويذاد عنها من لاسبيل لانكار جنوره فيها . وهي حالة من حالات الدنيا ، فلا يحبطن ولاك مكر الماكرين . فلو لم تكن السروراب وام مرح والكوة والجزيرة أبا لما كانت ام درمان ، ولن يجهل ذلك اولادها . وعندي ان اروع مافي الامر هو ان مدينة ام درمان هي بالفعل ام السودان الذي نعرفه وقد ولدته مرتين . المرة الاولى عندما اسسها الامام المهدي وصحبه الابرار ورفعوا فوق سمانها عالية خفاقة راية الوطن الواحد المستقل . والمرة الثانية عندما سقط علي سفوح جبالها ووديانها وسهولها الشمالية وبين حواريتها وبيوتها المتواضعة عشرات الالوف من شهداء الوطن الذين تحدورا من شتتي المنابت والبقاع علي امتداد رقعة البلاد بأسرها . فتلك الدماء التي سالت وامتزجت بتراب البقعة هي التي اعطت حق المواطنة في مدينة ام درمان لكل سوداني حيث ما وجد وأين ما كان . فلا تكن مثل ذلك الخبيث الذي حاجه اولاد ام درمان فرد عليهم متعجباً من ان اقامة خمس سنوات في انجلترا كانت كافية في وقت من الاوقات لحصولك علي الجنسية البريطانية بينما الاقامة في مدينة ام درمان لعشرات السنين المتتابعات ليست بعاصمة لك من ان تظل في نظر اولادها وافداً من جملة الوافدين ! ولكنهم لم يرقوا لحاله بل جعلوا من المثل الذي ضربه حجة داحضة . فلما استيأس من ان يجد منهم اذنأ صاغية راح يزعم ان ام درمان كانت موطنأ لاشتات السودانيين الذين توافدوا عليها ولم تكن شيئاً حتي عمرت بهم وتأهلت . وعندما اقتحمتها جيوش الغزاة المستعمرين في اواخر القرن الماضي ذهب كل ذي اهل واصل من سكانها الي اهله

واصله ، وبقي فيها من لم يعرف الي اين يذهب !

وعلي ذات طريق رفع الكلفة مع اخي وصديقي مصباح فاني استغل هذا السياق لاعرف قارئ هذه الصفحات الذي لايعرفني بنفسني ضمن هذا الحيز الذي هو حيز الحديث عن مصباح . وهذا امر يأتي مصادفة ويتلقائية اذ الاصل في مثل هذا التعريف ان يأتي في المقدمة . ولكني لا أتكلف شيئاً فيما اكتب ، وربما كانت هذه الخصوصية التي اشرت لها في علاقتي بمصباح هي التي حشرت هذا التعريف بين الاسطر التي تتحدث عنه . فقد قلت لك اني ولدت في مدينة الكوة وكان ذلك في عام ١٩٣٦ . والكوة هي التي شهدت اول برقية للحكمدار رؤوف باشا في الخرطوم يعلن فيها الامام المهدي عن مهيته . وقد نشأت فيها وتلقيت تعليمي الاولي في كتابها وكتاب الجزيرة ابا . فالكوة موطن امي السيدة فاطمة بنت الحاج المهدي سيد احمد عليهما رحمة الله . ابوها بديري دهمشي . وامها من احفاد السيد فحل جد الامام المهدي المباشر من ناحية ابيه . وقد كانت رحمها الله تقول انها بديرية دهمشية وخرناقية ودقارية ( بتشديد الفاء وفتحها وضم الدال حتي نفرق بين الاصول القديمة والمواصلات الحديثة ) وانها سليلة الاشراف . والجزيرة ابا هي موطن ابي وهي - كما علمت - موطن الثورة وموئل الدعوة ، ومهد الغار الذي تضوع طويلاً بالذكر والمناجاة وقيام الليالي والاستغفار بالأسحار ، وهي ارض ام المعمارك الاولي التي تخلق في رحمها ثم ولد سيداً عزيزاً سودان اليوم . وأبي هو السيد عبد الله ( ولقبه الهاشمي ) ابن السيد حامد شقيق الامام المهدي الذي استشهد في اوائل ملاحم الثورة . وينطق اسم عبد الله بضم حرف الدال وكسر الهاء في اسم الجلالة ، فذلك هو اسمه الذي عرف به وهو اسم جده لأبيه . ولقد دعاني لهذا التوضيح ما توهمه كثير من الاصدقاء والاحباب من انني شقيق كل من اللواء احمد عبد الله حامد والعقيد ابوبكر عبد الله حامد عليهما رحمة الله لهذا التطابق في الاسماء . ولو كان ذلك كذلك لشرفتني وأسعدني لأنهم أهل المكرمات والسؤدد والعز . ولكن الحقيقة هي ان اباهما هو طيب الذكر المرحوم الشيخ الزاهد التقي عبد الله ود حامد الذي هو من قبيلة الجعليين ونو



قراية حميمة بالسادة الاعلام آل علي طه المعروفين في العمارة ( اربجي ) وعلي نطاق البلاد بأسرها . وقد كان العم عبد الله رحمه الله شيخاً وقوراً جليلاً ورجلاً صالحاً ذاكراً مخبتاً ركاعاً سجّاداً قواماً يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ، وكرماً محسناً مضيافاً يطعم في داره عشرات الفقراء المساكين صباح كل جمعة الي ان فارق الدنيا . فقامت من بعده ابنته الوفية السيدة فاطمة ام البدوي - رغم عجاف السنين - تقفو اثره وتترسم خطاه وتطعم الناس برأ بوالدها وصدقة جارية لروحه الطاهرة . واما امهما - اعني احمد وابابكر - فهي السيدة ام الحسن بنت الخليفة شريف عليها رحمة الله . ابوها قريبي من ناحية امي ومن ناحية ابي ، وامها عمتي شقيقة ابي . فأنا خالهما بهذه النسبة . واحدي شقيقاتهما الفضليات زوج شقيقي المهندس الفاتح وام اولاده . لذا - كما يقول اهل الصحف - لزم التنويه .

وهكذا تراني قد حشرت هذا التعريف بنفسني حشراً في صحائف مصباح دون تخطيط سابق . فهذه قرابات عززتها صلوات الود ، سقتها لك مبيناً حتي لا تلتبس عليك الامور فجاءت علي غير قصد مني في هذا السياق دون سواه . وهذا شأن من يكتب « علي كيفه » ولا يحفل برتابة ما تعارف عليه الناس من ترتيب المواضيع التي يطرقونها . فمصباح اهل لأن تشمل الصحائف التي افردتها لسيرته - وانا هازل طوراً وجاد طوراً آخر - هذا الايضاح الخصوصي . وذلك انني قد قلت لك ان صلتني به ، وهي قد نيفت علي الخمسين عاماً دون ان تنقطع ، هي صلة ذات خصوصية . واذا كانت القرابة تحتاج الي مودة لكي تتوثق العري فان المودة لا تحتاج الي قرابة لكي تدوم . تلك محتاجة الي السقيا ، واما هذه فريانة لا تظماً . فلست اذكر ام درمان الاميرية وخور طقت - وهي مراتع اليفاعه والحداثة والصببا التي لا تنسي - الا ومصباح في طليعة اضياف الذاكرة ، بفصد قديم علي الخد ، او عمامة هي « محمود قيل » دون ريب او هرولة في فناء المدرسة دون هدف يذكر ، او ضحكة اكاد اسمعها الآن من وراء السنين ، او تجوال طليق علي تلك الرمال التي تبتلع الخطي وتشرب الصدي . واني لأذكر كيف كان

مصباح ينطط فرحاً معافى فى ربوع خور طقت الناعمة الموشاة بالخضرة والجمال حتى اطلق عليه الكبتل اسم « حمل الخريف » . فكم ياترى ابقت ذئاب الأيام العوادى من حملان الخريف الوديعه ؟ ! وهل بقى من دعاش ذلك الخريف الا بعض صور غائمات لا تكاد تبين ؟ ويقىنى ان صديقى المصباح يذكر كل ذلك واكثر منه بوجودان يكاد من فرط حنينه ان ينتحب انتحاباً . ولو انه استقبل من عشقه القديم للشعر ما استدبر لانشد مع امير الشعراء وفى خاطره ذكرى اطياف ربوع أهلة ومراتع زمان بهيج :

يامكتبى قبل الشباب وملعبى	#	ومسقىل ايام الشباب النوك
ومراح لذاتى ومغداها على	#	افق كجنات النعيم ضحوك
وسماء وحي الشعر من متدفق	#	سلس على نول السماء محوك
لما احتملت لك الصنيفة لم اجد	#	غير القوافى مابه أجزيك
إن لم يقوك بكل نفس حرة	#	فالله جلَّ جلاله واقبيك

## وآخرون منهم لما يلحقوا بهم :

وهكذا ترانى أتيت على مايسره لى الله من تذكر شئ من سيرة كل فرد من أفراد فصلنا «التوانى» فى ام درمان الاميرية الوسطى . وهى بالطبع آراء خاصة وانطباعت شخصية متباينة ، ربما صدقت او لم تصدق ، ربما عبرت عن حقائق الأشياء كما كانت عليه او لم تعبر . فهى قراءة من الذاكرة ، واجتلاء للمرائى والشخوص من وراء الحقب الطوال ، ومحاولة لتصوير جوانب من حياة مضى على بدايتها نصف قرن من الزمان ، وهى بأحداثها وأناسها ومراحلها التى نجت زكراها ونقص عليك من أنبائها ، نائية بعيدة المنال . وما غاب عن الذاكرة منها أكثر مما تجلى لها . ولست أرتاب فى حسن ظن من أتت هذه الصفحات على ذكرهم ولا أشك فى حسن تفهمهم لمقاصدى ، لانهم أحباب ، سواء كانوا تلامذة او أساتذة او غير ذلك . فانى اذكرهم جميعاً بالحب والوداد ، وأحملهم جميعاً فى مكانة عالية من نفسى ، وأخصهم جميعاً بأعلى وأغلى

وأعلى معانى الوفاء . لا أدعى أننى قد أبرزت شيئاً من محاسنهم فهى كثر لاتحصى ويضيق هذا المجال عن سرد بهائنها وصفائها ونقائها . وليس الغرض من قص هذه الذكريات هو تبيان هذه المحاسن الوضيئة . ولكن الذى اشتملت عليه هذه الأسطر من آحادها قد أتى عرضاً دون اقتناص ، وفرض نفسه فرضاً دون جهد منى يذكر ، وسال صافياً دون عناء او مشقة . ولم أعمد كذلك للتحدث عن نقائص او مثالب ، فذلك نفر برئ منها فى نظرى ، وانما أتى بعض ما يشبه هذه وتلك فى معرض ايراد بعض الأحداث المسلية التى ما تزال عالقة بالذاكرة ، وفى سياق المحاولة الرامية الى تسليط الضوء على بعض الصفات والمميزات التى تنبئ عن عبث الطفولة البرئ ولا تتعداه . وما قيل عن التلاميذ فى هذه الصفحات وما سيقال عنهم عبر الصفحات التى تليها إنما هو انطباع عفوى انتقش فى الذاكرة ووقر بين طياتها منذ تلك العهود السحيقة ، فلا يؤخذ مأخذ الجد والاحاطة الا بقدر ما تجد وتحيط ادمغة هاتيك الأزمنة ، ولا يؤبه به الا فى اطار هذه العفوية وذلك التأثير الوقتى الذى هو رهين بميقاته ووسائله . ومثل ذلك ما قيل ويقال عن الاساتذة وغيرهم ، فهو ايضاً انطباع وليد وقته ، جانب الخير فيه حقيقة لا مرية فيها ولا شقاق ، وما سوى ذلك مما فيه لا يتعدى ان يكون بعض «تنبيط» وتوسع فى مجال الرؤية والتدقيق . فجميع الذين اشتملت عليهم هذه الصفحات كانوا أختياراً بررة فى نظرى ، وجميعهم خلّفوا فى ذاكرتى آثاراً طيبة لا تزول ولا تشيخ ولا تكتهل ، فهى غضة طرية ريانة بأنداء الطفولة ومشاعر الحداثة . وجميعهم علمونى مما أخذت منه ، وربحت منهم ما عجزت عن تعلّمه بمفردى . وكلهم أثرى وجدانى بما قال او فعل او وحى او خاض او اجتنب ، أعجبنى ذلك فى وقته أو لم يعجبنى ، سرنى ذلك او أغضببنى ، أفزعنى ذلك أو تألّفنى وطمأننى . ولولاهم لما كانت هذه الكلمات ، ولولا حيويتهم الدافقة وودادهم الحنون وتباينهم الملهم لما كان لهذه الذكريات شأن يؤبه به . فلمن سره منهم أو من نويهم وصحابهم هذا الذى أسرد أكيد وقائى وحبى . ولئن لم يرقه منهم أو من نويهم وأصدقائهم سردى هذا صادق العتبى حتى يرضوا

ويصفحوا . فما رميت لظلم أحد ، وما أمسكت قلمي للافتراء على فرد أو جماعة ، ولا قدحت ذاكرتى للتقليل من شأن من هم فى نظرى براء من الشين والشنان . ولكنى أرخيت لها العنان ومهدت لها السبل واستتطقتها بصدق وأمانة ، فاذا بالذى بين طياتها وفى غضوننا هو هذا الذى سال به المداد .

كأن زمان الوصل يوم مُعْرَس . . . ألا إن أيام السرور قصار

وانى لأسأل اله ربى أن يجعل ما صح من حديثى عنهم حسناتٍ فى موازينهم يوم يضع الله الموازين القسط ، وأن يجعل ما جانب الحقيقة ان وجد كفارةً لهم ، وأن يغفر لى ماظننت أنه خير وهو ليس بذلك ، وماحسبته هيناً وهو عندالله عظيم . فالله سبحانه يعلم وهو علام الغيوب أننى ما قصدت إلا كل خير وما نويت إلا كل طيب ، وانما لكل امرئ ما نوى والله من وراء القصد . فاذا قرأت هذه الكلمات وضحكت ملء شديك وأصبت شيئاً من التسلية ثم رميت بها بعيداً ونفضت عنها يدك ولم يعلق منها شئ بذاكرتك إلا ما كان عندك محبباً فقد أدت هذه الكلمات ما أريد منها أن تؤديه ، وانى لراضٍ عنها سعيد . ولن يكون غير ذلك إن أنت أنصفت . فهى ليست بحثاً فى علم من العلوم ، وليست رسماً لقسمات وجوه دون نفاذ للوجدان ، وليست ترتيباً لدقائق مسرح تعرض بين جوانبه أحداث روايات واساطير . إنما هى شتات انطباعات قديمة ، قد تسلى وقد لا تسلى ، ولكنها أمينة وصادقة بالقدر الذى جادت به مقدرات ذاكراتى المعنأة المحدودة . فلك أن تحاول قراءة هذه الخواطر ، فانها ان لم تسلك فلن تؤذيك . فأنت تعلم أننا نعيش فى عصر «الورم» «والغبابن» التى «لاتنفش» . فلم يبق فى زماننا هذا من التسلية إلا التسالى ، وهو نوع بئيس من «الجرم» ، محروق ومثقل بملح أجاج قد اجتمع له - كما اجتمع لهذا الزمان الكالج المغبر - معايب ثلاث : غلاء الثمن وتفاهة المحتوى ، ورداءة الطعم . ولذلك فهو يسبب «العشراقة» ، وضيق النفس ، ووجع القلب ، وقيل الاورام ، ومن بينها تضخم الكبد والطوحوال والدماغ ، تضخماً يورث العطب ثم يعصف بالحياة . وهو بعد كل هذا سمي «التسالى» مجازاً لانه فى حقيقة

الامر لا يسلى ، ولا يكتفى بأنه لا يسلى ، وإنما « ينعل الخاش » و« يوم الفشفاش » ، ولات بعض رياش ولا غرفة انعاش ، فهو عين « الطفاش » وهو الموت الزؤام المعاش . ولذلك أنصحك بترك التسالى ، وادعوك للنظر فى هاتيك المجالى ، لتسمع أنباء العصر الخوالى . لك أسوة حسنة فى الفورى الشاحن الطالع العالى ، القاطم بستم ومار طوالى . فانى لا أرتاب فى أنك « قاطم بستم » مثل غيرك من عامة الخلق ، ولكن العبرة فى مار طوالى هذه ، فهى الصمود بعينه .

من أغرب ما رأيت كان ذلك اليوم الذى اعلنت فيه نتائج امتحاننا لدخول المدرسة الوسطى . وكان ذلك فى المدرسة الوسطى الام بود نوبوى قبالة ذلك الخور (الذى كان فى العهود السالفة مصرفاً لمياه الأمطار فصار اليوم مقبرة للقمامة متبرجة ليس لها حياء ) وهو المجرى الذى يشق الواجبة الجنوبية لحي ود نوبوى بدءاً من تخوم حى المسالمة وحتى مشارف الهجرة فيشطر المنطقة الى شطرين غير متساويين . ففى ذلك الصباح كان النداء بالاسماء ، يهرول كل من يسمع اسمه وهو فرح مسرور الى حيث الاصطفاف فى مكان آخر داخل أسوار المدرسة . حتى إذا انتهى ذلك « الفاصل » المثير وكف المنادى عن النداء وظن من نودى عليهم انهم هم المنصورون وانهم هم الفائزون ، وحسب الفريق الآخر انه قد احيط بهم ، وظنوا بالله الظنون ، وضافت عليهم الأرض بما رحبت وضافت عليهم انفسهم ، نادى منادٍ على من نودوا من قبل ان تفضلوا فالباب مفتوح على مصراعيه وهو يقود الى الشارع العريض ! وكاد أن يصيح بهذه الفئة التعسة : « ورونا عرض أكتافكم » . فانقلبت الفرحة فى لحظة واحدة الى حزن عميق . واما أولئك الذين ظلوا واقفين مكانهم ولم تعلن أسماؤهم بعد فقد بدل الله حزنهم سروراً غامراً فى لحظة واحدة ايضاً ، فهم المقبولون وهم الفائزون حقاً . وقد سرنى أنى كنت من بينهم . ويعد أن اخرجت الفئة التى لم تحظ بالقبول أو صد الباب ، ثم بدأ النداء من جديد . فتسمر كل تلميذ فى مكانه لا يود أن يغادره ، حتى طمأنهم الناظر فى الوقت المناسب واكد لهم ان الامر يختلف هذه المرة . ثم نادى على اربعين من بيننا وسماهم المقبولين لمدرسة حى العرب الوسطى وكان من بينهم شقيقى عبد الملك

وكم تمنيت وتمنى غيرى ان نكون ضمن هؤلاء الاربعة لان سمعة مدرسة حى العرب الطيبة كانت قد طبقت الافاق في ذلك الزمان . وكان ناظرها الاستاذ عفان علماً بارزاً من اعلام الوطنية والتعليم ، وهو رجل مشهود له بالكفاءة والاخلاص والتفانى فى العمل . اما بقية التلاميذ فقد تم قبولهم فى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى . وقد بقى فصل «الاول» فى ود نوباوى ، وذهب فصل «التوانى» - وهو فصلنا - الى بيت المال ، وبعد أشهر قلائل اجتمع الفصلان ، كل على حدة ، فى رحاب ام درمان الاميرية الوسطى التى من اسمائها التاريخية الكلية ومدرسة التجارة ، ومن علاماتها المميزة ساعة الحائط الكبيرة التى كانت - وما تزال - تزين وجه المدرسة من الناحية الغربية . وهى الآن تشير الى الساعة التاسعة الا قليلاً ، وقد توقفت عقاربها عند ذاك الميقات منذ أزمان ، وكأنها تأسى على أيام عامرة حافلة مضت ولن تعود ، لم تبق منها الا اطياف ذكريات مهوِّمات عالقات بذلك الموطن القديم . فاذا تأملها أحد فتية تلك العهود سالت فى خاطره كلمات ابن زريق البغدادي :

بالله يا منزل العيش الذى درستُ	أثاره وعفتُ مذ بنتُ أربعهُ
هل الزمان معيد فيك لذتنا	ام الليالى التى أمضته ترجعه
في نمة الله من أصبحت منزله	وجاد غيث على مغناك يُمرعه
من عنده عهد لى لا يضيعه	كما له عهد صدق لا أضيعه .
ومن يصدّع قلبى ذكره.. واذا	جرى على قلبه ذكرى يصدّعه
لا صبرن لدهر لا يمتنعنى	ولا بى فى حال يمتنع
علماً بأن اصطبارى معقب فرجاً	فأضيق الأمر ان فكرت او سعه
عسى الليالى التى أضنت بفرقتنا	جسمى ، ستجمعنى يوماً وتجمعه

فالانسان تنثره الخطوب والرزايا مرقاً وأشتاتاً وتجمعه الإرادة والتصميم ان صح منه العزم ويسر الله الامور . واما الديار فانها تبقى وإن عفت وتستنهض وان درست . عندما هدمت قوات الاحتلال قبة الامام المهدي قال خليفة المهدي مواسياً مواطنيه : « القبة ما طيناية نحن بنيناها وتانى بتتبني » . وقد تم ذلك . هناك فى تلك الديار

الحببية اكتملت معرفتي ببقية التلاميذ ، وفي تلك الرحاب العامرة سرنا خطواتنا المبكرة في مجال التحصيل ، وكان ما كان من كل ما قد رويت او نسيت او آثرت الا اخوض فيه لا لشيء الا مخافة الاطالة والملل . وقد خلف كل ذلك الذي كان ذكريات عزيزة على النفس ولست ارتاب في ان هذه الذكريات العطرة مازالت تومض جلية في خاطر كل من بقى من تلاميذ واساتذة تلك العهود المفعمة بالوداد والصفاء

إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صافٍ من تصافينا  
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبت ما كان موصولاً بأيدينا

### **عبد المنعم وعوض . . ورجب والقيثارة الحانية :**

إذا كنت قد أتيت على شيء مقتضب من بعض سير اولاد فصلنا وأمل الا اكون قد أذيت او أسرفت او تجاوزت حدود اللياقة والادب - فليس بضار ان تشمل هذه الذكريات احاداً من اولاد الفصول الاخرى وبعض الاساتذة . فقد كان ذلك المجتمع الحبيب مجتمعاً متكاملًا وكانت تلك الحياة «الاميرية» حياة نابضة عامرة حافلة بأقوام كثر وأمزجة شتى وطباع ضروب . عرفت من اولاد دفعتنا في فصل «الاولاد» كثيرين اذكر طائفة منهم على وجه التحديد وذلك انني كنت لصيق الصلة ببعضهم ودامت علاقتي بهم طويلاً . كان اول من تعرفت عليه منهم هو عبد المنعم عبد العزيز لبو سمرة . وهو تلميذ صغير قصير القامة نوعاً ضئيل الحجم . ولكنه وسيم الخلقة رقيق المشاعر شفاف الروح سهل هين الطباع . تقدم نحوى ذات صباح في فسحة الفطور وعلى وجهه ابتسامة مشرقة صافية فعرفني بنفسه ودعاني الى طبليية عم محمدين ، ومنذ اللحظة الاولى أعجبت برقته وسماحة روحه . ودعاني من بعد ذلك الى بيتهم في حي سوق الشجرة ، فصحبته الى هناك مرات أتعرف اليه والى نويه عن قرب .

فلقيت من أهلى ججاج اكرموا . . . نزلى وأولونى الجميل مكررا

تعرفت على امه واخوته محمد وفؤاد ومن بعد ذلك سمير . وقد طوقوني بحببتهم وترحابهم وفتحوا لى قلوبهم ورحاب دارهم البسيطة . وكان محمد يسبقنا فى ام

درمان الاميرية الوسطى بدفعتين وهو من نوابغ التلاميذ . وقد ادركته فى كلية الطب بجامعة الخرطوم وظل يسبقنى فيها حتى تخرج وتخرجت من بعده بعامين ، وما زالت تربطنى به مودة عريقة نقيه لاتزول . اما عبد المنعم فقد كان شأنه شأنأ آخر بالنسبة لى . كان كثيراً ما يذهب معى الى ود نوباوى وكثيراً ما كنت اذهب معه الى سوق الشجرة . ومن عجب ان الذى وثق الصلة بيننا لم يكن هو استنكار الدروس ، وما كان هو الدافورى بكرة الشراب ، ولم يكن هو التحزب لفريق الهلال ولا هو العقيدة الأنصارية ولا غيرها من العقائد . انما هو شئ آخر جذبنى الى عبد المنعم جذباً لم أجد له مقاومة فى نفسى ، وجببنى فيه محبة لأزال وقياً لها كل الوفاء ، رغم أنى لم ألتقه منذ حقب طوال . كان ذلك الشئ السحرى الذى جمع بيننا هو « الصفارة» او المزمار . . . الصفارة ذات الثقوب الست التى منها مايصنع من الصفيح ومنها مايصنع من الابنوس الخالص . وبما أنى لست فناناً ولا موسيقاراً ولم أوت فى هذا المجال معرفة او فهماً او موهبة فانى لا اجد كلمة اخرى اسمى بها هذه الالة الموسيقية الساحرة التى كان عبد المنعم يجيد العزق عليها بأنامل راقصات مرات رقاق ، فتشجبنى انغامه وتملك على جميع أقطار وجدانى . عشقتها منذ الوهلة الاولى وصممت على ان اتعلم العزف عليها . وبعد قليل تمكنت من شراء «صفارة» جديدة ، فطلقنا نذهب معاً فى أوقات فراغنا الى شاطئ النيل الخالد نتبتل فى محرابه الآمن بما يتيسر لنا من أنغام . وشيئاً فشيئاً تمكنت من اداء بعض «المقطوعات» وعبد المنعم يشجعنى ويبدى اعجابه بسرعة تقدمى فى هذا المضمار ، وهو قد برهن على صبر وقوة احتمال لأنى كنت فى اول الامر «أجوط» كل الالحن التى اراد ان يعلمنى . فوجدت فى سعة صدره وتجاوزه السماح عن زلاتى الموسيقية المرعبة مجالاً خصباً للتعلق بهذه العوالم الشجية المسعدة . وتدرج بى عبد المنعم حتى لان من أصابعى كل بنان ، وتمكنت من عزف مطالع بعينها : «مالو ماجا» ، ولو انت نسيت بالليلة يا سمير ماجيت . . . حجبوك ولا نسيت . . . وعبد المنعم يترنم مع الانغام التى أحدثها بمشقة



منى ، «برائه» البهية التي تجئ مزجاً لطيفاً بين صوت حرف الغين وصوت حرف الياء . . ولانزال كذلك حتى نبلغ «شياكم الاخدر» . . او «خشم بابكم الاخدر» في بعض الروايات ! ثم نفترق على ان نعود مرة اخرى في أصيل اليوم التالي . لقد دهشت حقاً لرعاية صدر عبد المنعم واهتمامه بأمرى في هذا الشأن ، ولم أعجب من بعد ان عبد المنعم الصبور الرقيق ذا الاحساس المرهف قد صار معلماً ، وانما غبطت تلاميذه على فوزهم بمثل هذا الاستاذ المتميز الذى أوتى وجداناً عامراً وقلباً يسع الوجود . ثم ان عبد المنعم هو الذى اعترنى على كنز غالٍ ربما تأخر وقوفى عليه أزماناً لولاه . فهو الذى عرفنى على عوض الكريم محمد على بكار زميله فى فصل الاوائل . ومنذ ان عرفت عوض بكار فى تلك الايام الناضرة الزواهى وحتى فراقه المأساوى للدنيا صرت لصيقاً به وصار أخاً حبيباً الى نفسى لا افارقه الا لالتقى ثانية . كان عوض بكار يجيد العزف على «الصفارة» اجادة تامة . وقد تدرت من بعد ذلك على يديه حتى اتقنت الاداء ، وصرت اتيه على صديقى مصباح الصادق بشكل خاص . وذلك ان خيال مصباح - رغم إفاقته من آثار الصدمة الحضارية التى تعرض لها فى اول امره - لم يكن ليتسع لأكثر من «زمبارة» الراعى التى تتخذ من القصب وتحتقن من النفح عليها الاشدق والحلاقيم . ثم هى لا تخاطب بألحانها المنبعثة من تجاويها الا احساس الشياه والأغنام ! ولو ان مصباحاً كان قد انعتق نهائياً من المحاذير التى استعصم بدواعيها تلقاء كل ما تدفع به المدينة فى وجهه من جديد لم يقف عليه من قبل لتسنى له ان يتعامل مع هذه الاداة الموسيقية «الحديثة» بشئ من «المهلة» رجاء الاستيعاب . ولكنه اخذ الى قرويته وسوء ظنه بمحدثات المدينة فانغلق عن هذه الأفاق الرحاب وظلّ رهين محبسه التشكى المحاذر حتى نور الله بصيرته يوم ان وطئت قدماه رمال خور طقت الهيئة الندية البشوشة . اما عوض بكار فقد كانت داره فى حى الدباغة بام درمان ملتقى جلساتنا فى الاصائل والامسيات . لطالما دعانى الى داره وغمرنى بكرمه وحسن ضيافته . ولست أنسى كيف كنا نجلس فى داره على بلاط

الناقدة الشرقية من ذلك الصالون الأنيق العالى الذرى نرقب النيل « الفاض وامتلا »  
وهو يحيط بخاصرة البيت كما تحيط الام بذراعيها الحنونين فلذة من افلاذ كبدها . كنا  
نتربع هناك طويلاً نتبادل العزف على هذه القيثارة الساحرة تتراقص الامواج من  
تحتنا طرباً وهياماً كما تتراقص النجب من تحت انغام الحداء . وكان عوض بكار  
يعلمنى فى كل مرة لحناً او نشيداً لا اجد مشقة فى استظهاره والاتيان به موقعاً هادئاً  
ينساب من بين الاصابع التى يتعاقب بنانها على ثقب ذلك المزار السحرى البليغ .  
ولقد اوتى عوض بكار صوتاً كروانياً رخيماً عذب النبرات اذا شدا به أطرب واسعد  
واشجى . وكان عبد المنعم ابوسمرة يرافقنا فى تلك الجلسات الطيبة الهادئة فى بعض  
الاحايين . ذلك انه كان تلميذاً مجداً عزيز عليه ان ينصرف جل وقته الى ما نحن فيه  
من تحليق طليق فى عوالم الألحان ، ولقد كاد ان يعترينى شئ من الغرور - او قل  
بعض العجب - من فرط ما امتدح كل منهما «مقدراتى» الموسيقية فى مجاملة ظاهرة  
وتشجيع كريم واضح . ذلك أنى وان كنت مدركاً لعظم الفارق بين مقدراتهما من ناحية  
ومحاولاتى اليائسة للحاق بهما من الناحية الاخرى ، الا انى كنت امنى نفسى بأن ابلغ  
بعض شأوهما فى فترة وجيزة على أحسن الفروض . ولم يغادر هذا الحلم مخليتى  
تماماً الا بعد ان ولجنا ابواب خور طقت الثانوية ، وعثرنا هناك على «رجب» الذى فاقت  
موهبتة فى العزف على «الصفارة» كل تصور كان يخالغ خيالى وتطلعاتى . لقد افترق  
عنا عبد المنعم وذهب الى وادى سيدنا الثانوية ، وقد هالنى ان عوض بكار نفسه - وهو  
استاذى - سلم بالريادة فى هذا المضمار للصديق «رجب» طائعاً مختاراً مقراً ، فلم  
أزد من بعد ذلك على ان كنت أحد الذين يستمعون فى انبهار الى الانغام التى يبدعها  
«رجب» فى امسيات الخور الحاملة بوجدان مشبوب واعجاب طرح عن خيالى كل أمل  
فى الاتيان بشئ يقارب ذلك الاداء الرائع وذاك السلسال النغمى الصافى وهاتيك  
المقاطع الساحرة المبدعة التى تأخذ بشغاف القلوب . حقاً لقد كان «رجب» الضحوك  
الحنون أمة وحده فى هذا المجال !

لم يكن عوض بكار استاذاً في هذا المضمار فحسب ولكنه كان استاذاً في سائر الفضائل . كان مؤمناً تقياً مصلحاً ذا كرامته في السر والعلانية ، وكريماً معطاءً يضع اللقمة في يدك ويتخير لك اطيب ما هو امامه من طعام . يجود في وقت يسره وعسره على السواء لا فرق عنده بين ان يفتقر او يريش ويوسر . يهتز للعتاء ويضطرب كأنه يزداد بما ينقص ويمتار بما يهب . وكان شجاعاً مقداماً لا يعرف الخور ولا النكول ، وهو مع هذا رجاع الى الحق ان أخطأ دروبه لا يجد في نفسه ادنى قدر من العجب او الكبر يمنعه عن الاعتذار الصريح وطلب المسامحة . . في وقت كان الفتية من أمثاله يركبون رؤوسهم ويعتلون هودج العناد . يستعقب من يري له العتبي بتلقائية أصيلة وسماحة أخاذة ولطف أسر وابتسامة صادقة المعاني . ومع نكائه الذي هو مطبوع عليه كان عوض بكار تلميذاً جاداً ذا عزيمة تحرك الجبال . وليس ادل على ذلك من انه بعد ان هجر علم الرياضيات طويلاً لانشغاله بعلوم الأدب واللغات وتفوقه فيها عاد اليه يجتلي غوامضه من بداياتها بمثابة لم ار مثل صدقها وشدة مراسها ابدأ حتى راض عصى علوم الرياضيات ودانت له داخراً فأبلى فيها وفي غيرها بلاءً صعده به الى رحاب احدى اعرق كليات الطب وتخرج فيها طبيباً . ثم تابع جهوده التي لاتنى ولا تعرف الكلل حتى تخرج في انجلترا اخصائياً . مرموقاً في مجال الطب الباطنى وطب وصحة الاطفال والصحة العامة . ثم كان من امره ما كان . . بدلاً اميناً وعطاءً سخياً لبلاده وأهلها في شتى المواقع .

ولست انسى ابدأ تلك الليلة التي صحبني فيها عوض لتلبية دعوة للعشاء عند الصديق العزيز ابو القاسم هاشم كان قد اقامها تكريماً لبعض الاصدقاء الاوقياء من ابناء خور طقت وعلى رأسهم الاخ العزيز صالح شبور . كان عوض متردداً في الذهاب معى رغم شوقه للملاقة رفاق صباه وذلك لانه كان يتابع حالة طفل مريض من عيادته ربما اتصل به اهله هاتفياً من ام درمان في أي لحظة . وامام إلحاحى عليه وقولى اننا سنتصل من هناك لنترك رقم هاتف الاخ الشيخ هاشم مع أم اولاده السيدة الفضلى

سعاد احتياطاً لما يمكن أن يحدث خرج معى عوض وهو نصف مقتنع . وهنا وقعت لنا مصادفة جدية بالتسجيل لأنها تنبئ عن رقة عوض بكار المفرطة وتنهض دليلاً ناصعاً فى نظرى على أن ما حدث من مأساة مريعة فى الليلة التالية كان امراً يستحيل على من عرف عوض بكار ان يتصوره قريباً منه او على أى نوع من الصلة به . وذلك اننا قبل ان نأخذ سيارتى ابصرنا انحماماً وسمعنا هرجاً امام قسم الحوادث بمستشفى الخرطوم قبالة دار عوض ، وتبيننا ان ذلك كان نتيجة لشجار وقع بين شيخ فقير مسن كان يرقد على الرصيف بجانب المدخل وبين سائق احدى سيارات المستشفى . فتدخل عوض لصالح الشيخ المسن ثم أصر على استضافته فى بيته ، وقال لى بالحرف الواحد تقريباً - وانا امنعه من تلك الاستضافة - وهو يلح : « هذا شيخ كبير مسن حرم حتى من النوم على الارض لان السائق اراد ان يجعل سيارته فى تلك البقعة دون سواها ، فهل من المروءة ان نتركه يفترش التراب ؟ هل فى ذلك من خلاق ؟ » وتدخل آخرون وساندونى فى القول بأنه على كل حال شخص غريب فلا يصح ان يدخله فى بيته الذى لم يكن فيه سوى زوجته واطفاله الصغار ، والخير ان نجد له مكاناً فى ذلك الرصيف مناسباً ، والله من بعد يتولى عباده وهو خير لهم منا جميعاً . وفى حقيقة الامر لم يكن عوض ليجهل انه انما يدخل شخصاً غريباً فى بيته لا يعرفه لان الدنيا - كما يقال كثيراً - كانت بخيرها آنذاك ، ولم يولد بعد من رحم الغيب هذا الزمان المغبر الذى نعيش فيه ، والذى اصبح الغريب فيه لا يحتاج الى دعوة كريمة لدخول دار غريبة عليه ، انما هو يقتحمها اقتحاماً ويروع اهلها ترويعاً ، ويستحوذ فيها ومنها على كل ما يريد عنوة واقتداراً ، ثم يفلت أمنأ قرير العين والفؤاد . لو كان هذا الزمان الكالح البئيس قد ولد لتعرف عليه عوض ولتحفظ فى حسن ظنه بكل الناس . وعلى كل فقد قبل عوض حجج المعارضين على مفض ودون اقتناع كامل ، ودس فى يد الشيخ شيئاً من المال ، ثم مضينا معاً الى منزل الصديق الشيخ هاشم . ولكن لم يطل بقاؤنا هناك ، فقد كان عوض قلقاً طوال الفترة القصيرة التى قضيناها معهم لانه - كما اخبرنى - كان

متشغل البال بحالة الطفل المريض الذى ربما عاد به اهله اليه فى أى لحظة بعد ان رفضوا نصيحته لهم بادخاله المستشفى للمتابعة الدقيقة . فاضطررنا للاستئذان وفارقنا الاخوة الاحباب على كره منا لهذا الفراق ، ثم ابلغته داره ومضيت الى دارى فى ام درمان . ولم ار عوض فى الامسية التالية ولم اسمع منه . ومن عجب ذلك لاننا ان لم نلتق فلا اقل من ان نتحدث عبر الهاتف ، وذلك ان التحدث عن طريق الهاتف كان متعة فى تلك الازمنة وكان امرأ فى مقدور اواسط الناس ، ولم يكن مدعاة الى الافلاس وخراب البيوت كما هو الحال اليوم . لم يتصل عوض . وكانت تلك الامسية التى لم أره فيها هى امسية الخامس والعشرين من ديسمبر . وفى صباح اليوم التالى ذهبت الى المستشفى كعادتى ، وفى تمام الساعة السابعة صباحاً ابلغت بالنبأ المشئوم . ثم كان ما كان مما قدره الله وجرى به قلم الارادة . وكم أسيت وتألقت للارواح البريئة التى زهقت ولعوض بكار النبيل الاصيل ذى العواطف الرؤوفة الحنونة الدفاقة . وعجبت كيف دفعت الأقدار لهذا الموقف الذى لا يشبه عوض فى شئ وهو غريب عن طباعه كل الغرابة . وهو الذى أبدى من العطف والتكرم على رجل مسكين لا يعرف ولايعبأ به احد فى الامسية الماضية ما لم يبده غيره ، وهو الذى انشغل باله بطفل مريض لا تربطه به ادنى صلة سوى شفقة الطبيب الحانى على مريضه اللتاع حتى ضاق عليه مجلسه مع أخلص وأحب أصدقائه فاعتزلهم وأثر ان يبقى فى داره لعله يتلقى محادثة تنبئه عن حال ذلك الطفل الصغير او تدعوه لمتابعته بمزيد من العناية والدواء ! ولقد ادهشنى حقاً قول من قال ان عوض كان غنياً وهو يملك ويملك . وذلك لانى كنت الصق اصدقائه به وأعلم انه كان قد انفق جميع ما آل اليه من ورثة ابيه على شتى انواع الخير ولم يبق له فى هذه الدنيا الفانية سوى ذلك البيت المشئوم ، وان ديناً تافهاً على عاتقه من أحد البنوك كان يقض مضاجعه حتى لبي نداء ربه اثر ذلك الحدث المأساوى الحزين ، فقامت زوجته من بعده بسداد ذلك الدين بمشقة وعناء . الا رحم الله عوض بكار رحمة واسعة . ورحم اولئك الفتية الطيبين الذين راحوا ضحية نفاذ

قدر لم يملك له احد دفعاً ولا رداً ولا اجتناباً . ان الله يفعل ما يريد .  
كان عوض بكار صديقاً حبيباً ودوداً وفيماً بالغ الرقة والنبيل والسماحة . وكان ذكياً  
متقد الذهن عقب الروح نبض الفؤاد ، عالماً واسع الاطلاع رحب المدارك والافاق . وكان  
جواداً كريماً ندى الراح شفيف الروح والمشاعر ، مؤمناً ذاكراً ملماً اوفى المام بالقرآن  
والتفسير . وكان طبيباً مقتدرأ محيطاً سامى الخلق عالى المثل شديد الرأفة والعناية  
بمرضاة ، متواضعاً بشوشاً سباقاً الى الخيرات متخلقاً بأرفع القيم . كان عوض بكار  
كنزاً للمعارف والعلوم فى شتى مناحيها ومظانها ، شديد الكلف بعلم الدين واللغات  
والادب والشعر وسائر فنون المعرفة . . رحمه الله رحمة واسعة .

عندما ذهبنا الى خور طقت في ذلك الشتاء الذى لاينسى أصيب عوض بكار وطائفة  
من التلاميذ بحمى الملاريا وادخلوا مستشفى المدرسة الصغير الذى كان يشرف عليه  
مساعد طبي مقتدر . فانحبس عوض هناك (ودخل معه السجن فتيان) - بجانب آخرين  
- هما اسماعيل عبد الصادق ومحمد العوض مصطفى . لم يقل احدهما (انى ارانى  
اعصر خمراً) . ولم يقل الآخر (انى ارانى أحمل فوق رأسى خبزاً تاكل الطير منه) .  
ولكن كلاً منهما رأى مرأى فسرناها على انها «هضربة» او «هلوسة» . وفسرها عوض  
بكار بأنها حمى « طلعت فى الراس » . فقال له محمد العوض - بعد ان تماثلوا جميعاً  
للشفاء - وهو يباشر سخريته المعهودة : يعنى انت راسك جبل الاحقاف بتاع التجانى  
الحمى ما بتطلعو؟ ثم اشاع محمد العوض ان هضربة عوض بكار كانت فريدة في  
نوعها لانها كانت باللغة الانجليزية الصرفة وقد تخللتها بعض آيات قرآنية هي في  
مجملها دعاء بالعافية واستغفار جامع ملح . اما اسماعيل عبد الصادق فقد زعم  
محمد العوض ان هضربته كانت تسميعاً حرفياً خالصاً لبعض النصوص والدروس .  
ولما سألتنا محمد العوض عن هضربته هو نفسه وهلاويسه ضحك ملياً وقال : ياخى هو  
الما بجيب الهلوسة والهضاريب شنو اذا كان على يمينك ابو الحسوس وعلى شمالك  
عبد السلام فضل الله ، وعلى ابراهيم وميكادو كوكو وميرغنى الدتتش على بعد خطوات

منك ؟ ما الحمد لله الواحد ماجن جن عديل ؟ تلك كانت أياماً لاتنسى لانها كانت فى بدايات عهدنا بخور طقت . ثم تعافى الصبية جميعاً وخرجوا سالمين بفضل الله وجهود المساعد الطبي . فلقد كانت تلك «الشفخانة» الصغيرة تحوى من المعدات والعقاقير والاستعدادات لمجابهة أشباه تلك الحالات وغيرها مالا تستطيع ان تقدمه اكبر مستشفيات بلادنا فى هذه الازمان التربة المغبرة . وكانت العناية الطبية والصحية بتلاميذ تلك الازمان وغيرهم من اهل البلاد حقوقاً واجبة تراعى وتسدى الى اصحابها من غير من ولا كدر ، وهى ذات الحقوق التى صارت فى ازماننا الكالحة هذى أمانى تشرى بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ثم هى لا توفى لاصحابها الا وهى منقوصة معيبة فى أحسن الحالات !

لقد كان عوض بكار تلميذاً قوى العزيمة ابى النفس صادق الود عاطفياً واسع الصلات بالناس ، الوفياً كثير المعارف ، رقيقاً سيال المشاعر بالمروءات والندى . يجلب اساتذته ويعجب بهم ويتمثل خلالهم الطبية فى حياته اليومية . وكان فؤاده عامراً بحب الناس ، يحنو على فقرائهم ويتخير اخوانه وأخلاءه من اواسطهم ولا يبادل المتكبرين منهم الا تكبراً وتيهاً وكبر نفس وعفة خلال . يتغنى بحب بلاده ويتطلع لخدمتها واعلاء شأنها ، ويؤذيه ان يرى بين أقرانه من لايعير مثل هذه الامور ماهى خليفة به من جهد واهتمام . وقد امتاز مع ذلك بخفة روح وحسن معاشرة قل ان تجد لها مثيلاً . يحب الطرفة والدعابة ولا يسرف فيها ، ويميل الى الجد والصرامة ولا يوغل فيهما . يحب من الامور اواسطها ومن خلانق النفوس أحاسنها ، ومن أسباب العيش ماكفى وستر ولم يميز أهله عن الآخرين . ولو عاش عوض بكار لأودع معارفه الكثر بطون أسفار يجنى منها الناس نوارد الفوائد والعلوم ولكن الاقدار تجرى بما سطر فى اجواف الغيوب . وما اصدق ما قال شوقي رحمة الله :

ولم أر كالأحداث سهماً اذا جرت ، ولا كاليالى رامياً يبعد المرمى  
ولسّم أر حكماً كالمقادير نافذاً ، ولا كلقاء الموت من بينها حتماً

## دفع الله . . وليالى القبعة . . وكتبليات اخرى :

من بين اولاد دفعتنا فى فصل الاوائل الصديق القديم دفع الله الحاج يوسف . وقد كان تلميذاً طويل القامة يضع على رأسه عمامة لا تشبه فى تراص طبقاتها عمائم أهل المدينة ، وانما فيها بداوة طلية بريئة من الجفاء ، اخذة بأطراف النعومة حاقلة بأسباب الوقار . ولو انك رسمت دائرة وجعلت قطرها يمر من أبى حراز وينتهى فى الجبلاب لاكتشفت ان مركز هذه الدائرة هو مدينة ام درمان الخالدة . اذاً فدفع الله من ام درمان مركزاً ومهاجر اسرة ، وهو من طرفى الدائرة المذكورين أصلاً ومنبت أعراق . وهذا أمر فى غاية الأهمية بالنسبة لتكوين الانسان ونشؤته واتساع دائرة معارفه وانفساح آفاق تأملاته . لقد اجتمع لدفع الله من طرفى منبته فضلان : تراث التقوى والصلاح ، وإرث البطولات والفداء . ثم اندغمت هذه الفضائل فى عز مدينة ام درمان وأمجادها ، فخرج دفع الله من هذا المركزالجامع لامهات الماثر والمكرمات موسوماً بها ومعبراً عنها . فهو الأديب الأريب القطن وهو القارئ النهم المولع بالشعر وسائر فنون الابداع البيانى .

فى عصر يوم من ايام ام درمان الاميرية - وكنا حين ذاك فى السنة الثالثة - جرت انتخابات حرة وسط التلاميذ لاختيار قادة الجمعيات المدرسية المختلفة . ولم يكن كاتب هذه السطور موجوداً فى ذلك الوقت بين زملائه رغم علمه بهذا الحدث الذى اجتمع له الناس . وما كان ذلك الا لانشغالى بما لم اجد فى نفسى قدرة على مقاومة اغرائه ، وهو شهود مباراة فى كرة القدم بين فريقين رياضيين بدار الرياضة بام درمان ! لقد كان شهود هذه المباراة امراً بالغ الأهمية بالنسبة لى وكان التوفيق بين الامرين مستحيلاً لان وقت الحدثين واحد ولن يتسنى لك ان تحظى بكليهما الا ان تكون أنت «حسن ودحسونه» . ولما لم تكن لى دعاوى من هذا القبيل ، ولم اكن ابالى كثيراً بما يمكن ان يترتب على غيابى من صيرورة حتمية الى دفتر عم مبارك ، ولقناعتى عند التعرض لمثل هذه الخيارات بأن بعض الشر أهون من بعض ، فقد تولكت على الحى



الذى لا يموت وقررت ان امتع ناظرى بمشاهدة تلك المباراة وليكن بعد ذلك ما يقدره المولى سبحانه . وربما كانت لى فى ذلك اسوة حسنة خفية المعانى فى فيلسوف الكوة البليغ مصطفى حامد كروم الذى كان يقول : «والله على الطلاق موتة فى القيقر ولا عرسة فى حلة الكروماب » ! فاذا عرفت ان القيقر هى حى من احياء الكوة اشتهرت حسناواته بالجمال الفريد وأن حلة الكروماب هى أيضاً حى من أحياء الكوة يقطنه هذا الفيلسوف الذرب تبين لك ما اريد وعلمت ان الخيارات قد تنحصر فى امرين أحلاهما مرٌّ وانك لابد ان تختار واحداً منهما ، وانت تدرى انك قد تندم على اختيارك احد الأمرين دون الآخر . اما اذا كانت قناعتك كاملة مثل قناعة مصطفى كروم ، راكزة لا يأتئها الشك من بين يديها ولا من خلفها ، فانك لن تستشعر الندم مهما كانت تبعات اختيارك .

كذلك انا لم اندم لاختيارى وتفضيلى لمشاهدة مباراة كرة القدم على حضور ما كان يجرى عند ذاك الاصيل فى ربوع ام درمان الاميرية ، وان كان قد فاتنى مشهد من اروع المشاهد لممارسة التلاميذ - بحرية تامة - لواحد من أغلى حقوق الانسان . فقد أنبئت فى صباح اليوم التالى ان انتخابات حرة لقادة الجمعيات المدرسية قد أجريت بين ذلك الجمع الذى غيبتنى عنه - وربما غيبت غيرى - دواعى الهيام الكروى ، وانه قد تم انتخابى فى غيابى رئيساً لجمعية الثقافة ، وتم انتخاب دفع الله الحاج يوسف سكرتيراً لها . ويومها تلقيت التهانى من زملائي الكثر ومن أساتذتى بهذه الثقة الغالية ، كما تلقى مثل هذه التهانى منهم دفع الله الحاج يوسف والاخوة الاخرون الذين جرى اختيارهم لقيادة الجمعيات المدرسية الاخرى . ولقد قرب هذا التكليف بينى وبين دفع الله قريباً وثق فيما بيننا اوامر الوداد التى ماتزال تزداد متانة على مر الايام. وانى عندما اذكر تلك الاحايين الهنيئة التى مضت سراعاً ولن تعود انما اتعجب كثيراً لتغير الحال وانقضاء بواكير الآمال ! فلقد عرفنا ونحن تلاميذ صغار فضيلة حرية الاختيار والتعبير وهو ما علمنا من بعد انه يسمى «الديمقراطية» فأنسنا به منذ

تلك العهود وخالطنا منه طعم حلو المذاق . كان دفع الله يُغليه ويبدو وهو اسعدنا طراً به ، وما كان ذاك الا لعمق ادراك تميز به منذ الحداثة وسعة افق بكرت عليه وهو طفل عامر الوجدان ريان المشاعر ، ثم رافقته في اطوار حياته اللاحقة وهي تزداد انفساحاً وتصيب انماط الرشاد . والفضل في ذلك بالطبع عائد الى أساتذتنا الاجلاء والى ادارة المدرسة المقتردة ، التي كانت تبصر مالا نبصر وتستبين مالا نستبين . اولئك اقوام عرفوا منذ تلك الاوقات المبكرة ملامح القيم التربوية الرفيعة التي تكمن في اطلاق مثل هذه الحريات للتلاميذ حتى يتمكنوا من التعبير عن مشاعرهم الحقيقية ويمارسوا بأنفسهم قيادة وتنظيم جمعياتهم المدرسية المختلفة واختيار من يتقنون بهم من زملائهم لتصدرها وتولى ادارتها . واعجب من ذلك ان يجرى انتخاب تلميذ وهو غائب عن ذلك الجمع في ذلك اليوم المشهود لرئاسة جمعية هي اهم جمعيات التلاميذ علي الاطلاق ، دون ان يعترض على ذلك تلميذ او استاذ ، ودون ان يسقط الغياب للغائب حقاً من الحقوق ! هل يا ترى يمكن ان يتصور حدوث شئ من هذا القبيل في زماننا هذا ؟ هذا زمان يغمط الحاضر حقه غمطاً فكيف بالغائب يرجى ان ترعى له حقوق ؟ وهكذا كنا قبل ما يقارب الخمسين عاماً نجلُ بعضنا بعضاً في الغيبة والشهود ، فهل ترانا اليوم يفضل حالنا ما كنا عليه من حال ؟ كان حق التلميذ يحفظ له وهو غائب ، فماظنك بالحاضرين الشاهدين اليوم تنتهب حقوقهم المشروعة وهم بعد ليسوا تلامذة اغراراً وانما هم رجال مؤهلون ومؤثرون لهم سابقة ومآثر في خدمة الوطن يراها الناس بأعينهم ويشهدون لهم بأشباهها من العطاء في شتى الساحات والمناحي ؟ لقد كان بمقدور أساتذتنا في تلك الحقبة الخالية ان يعينوا رؤساء الجمعيات المدرسية وينصبوا قادتها بفرمان من ناظر المدرسة او ضابطها او أى جسم من سلطاناتها الفوقى ان هم ارادوا . ولو فعلوا ذلك لما رددناه عليهم ولاسرت بيننا موجة احتجاج او تذمر ، ولحسبنا الامر عادياً لايدفع الى الدهشة والاستنكار . ولكنهم كانوا مبادرين الى غراس القيم الرفيعة ، يسعدهم ان يربوا تلاميذهم اكمل تربية في مناخ

الحرية المعافى ، وينموا فيهم ملكة تحمل المسؤولية فى تلك السن المبكرة ، ويمهدوا لهم الطريق هوناً حتى تتسامى وتتكامل وتنضج مواهبهم ومقدراتهم الذهنية ، وحتى تشحن الممارسة فيهم غافيات الهمم وبواكير الخيال المبدع الخلاق . فتلك حسنة من فيض حسناتهم التى لاتنسى ، ومنقبة من بعض مناقبهم التى لاتحصى . ولست ارتاب انها أثمرت فيما بعد رجالاً وهبوا هذه البلاد اعز ما يملكون من فكر راشد وجهد واصب وعطاء مهنى غزير . ولو ان بلادنا سارت على هذا النهج العدل القويم ودأبت على استصحاب هذه المعانى والتوجهات التى ترعى وتغلى حرية الرأى والتعبير والاختيار وتعمل على توفيرها حتى بين التلاميذ الصغار مع المراعاة المرنة للضوابط التى تعصم من الفوضى والفراطة - لما رثَّ حالنا اليوم ، ولما بكينا على أمسنا الوضى ، ولصار لنا فى يومنا هذا شأن آخر بين الامم. ولقد برهن حتى اولئك التلامذة الصغار الذين نتحدث عن بعض شأنهم فى هذه الصفحات انهم أهل لحسن ظن اساتذتهم وانه بمقدورهم ان يحافظوا على هذه الحرية وعلى هذه المكاسب ، وأن يحيلوها الى نشاط دؤوب وخلاق ومفيد ، ميز مجتمعاتهم تلك بالحيوية الدافقة والتقدير بأسس النظام والقيم الرفيعة والانضباط .

مهما يكن من امر فقد كانت جمعية الثقافة فاتحة لوثوق معرفتى بدفع الله الحاج يوسف الذى اعتبره اليوم واحداً من اعز واغلى اصدقائي واخواني الذين اكن لهم ابلغ آيات المودة والوفاء . كنا فى تلك الازمنة نعقد اجتماعات الجمعية الادبية - التى هي اهم عناصر جمعية الثقافة - مرتين فى الاسبوع ، واحياناً مرة واحدة هي عصر يوم الارباء . ولست انسى كيف كنا نجلس على كرسيين متجاورين وامامنا منضدة ، والتلاميذ امامنا يجلسون حشوداً على المقاعد وبعضهم على الارض . وكنت كرئيس للجمعية اقف لاخاطب الاجتماع فلا تكاد قامتي تربو فى ارتفاعها على قامة دفع الله السكرتير وهو جالس بجانبى على كرسيه ! وانا اعلم ان دفع الله ربما قطب جبينه استنكاراً لهذا القول وهو يتلو هذه الاسطر ، ولكنها هي الحقيقة ، ولاعلاقة لها بانتهيار

بيارة السوكي الاولى ولاصلة لها بانهيال البيارة الثانية ! ومن عجب ان التلاميذ كانوا يحرسون كل الحرص علي ارتياد لقاءات الجمعية الادبية ويقضون بين رحابها امتع اللحظات ، وهم يتناشدون الاشعار ويستمعون الي حديث دفع الله والي حديثي واحاديث الاخرين ممن يحلو لهم ان يشاركوا في هذه المنتديات ، باسماع واعية وانتباه حاذق مبهور . وفي مثل هذه اللقاءات كانت تنعقد ليالي القبة حيث تكتب رؤوس الموضوعات المختلفة في قصاصات من الورق صغيرة ، ثم يأخذ كل تلميذ ممن يقع عليهم الاختيار قصاصة يقرأ محتوياتها ثم يحدثنا عن موضوعه ونحن سكوت نتابع في شغف ما يقول . وكان ذلك احياناً باللغة العربية الفصحى و احياناً اخري بالانجليزية الاعجمية الفصحى ايضاً . وفي كل من الحالين يكون معنا استاذ من استاذة اللغة التي يتم اختيارها وسيلة للحديث واداة لتشقيق المعاني التي يراد بسطها وابلغها الي فهم السامعين . فلا جرم خرج تلاميذ تلك العهود بذخيرة طيبة من المعرفة والدراية بأسرار الكلام في هاتين اللغتين . ولقد شكلت هذه المعرفة اساساً متيناً لما صاروا اليه من مراكز ومهن ومسئوليات في ايامهم التي تلت تلك العهود . لقد علمنا اساتذة اجلاء - حتى في تلك الازمان السحيقة ورغم حداثة السن وضمور التجربة - كيف نجهد انفسنا لتتحدث بفصاحة وطلاقة . بل وكيف ننظم الاشعار ونتخير القوافي ونراعي نسق الروي والاوزان .

لقد كانت الجمعية الادبية بالنسبة لنا مدرسة من مدارس البيان . ولست انسى صولات دفع الله الحاج يوسف الادبية التي كانت تلاقي من مستمعيه القبول والاستحسان . فكان اذا تحدث نثراً او شعراً اجاد وامتع ، وحاز على رضاء التلامذة والاساتيد . لقد كانت تلك بدايات دفع الله التي اثمرت معارفة اللغوية والشعرية الحالية دون ريب . ولو أنك استمعت إليه اليوم وهو يتلو عليك بعض روائعه الشعرية لعجبت كيف يختزن دفع الله كل هذه الخرائد الغالية ويضن بها علي الناس ، ولايقنت أنك امام شاعر فحل قل ان تجد له مثيلاً في هذا الزمان . وانا لست اقول هذا الذي اقول من

باب الاطراء علي صديق اثير وحبیب ، ولكني اقله عن صدق تجربة ومعرفة ، ویحزني انه يخفي ولاينشر هذه الدرر الغالية التي يبدعها ولا يفشيها بين الناس ، وانما يضمن بها ضناً وتحتبس عنده احتباساً ، فتغيب عنا بلا واصف والشعر تهذي طماطمه ! وحتى يبين المعني لمن يريد - والمستشهد به عجز بيت لابي الطيب - فاني اقول ان طماطم هي جمع طمطم ولاعلاقة لها في هذا السياق بالبنضورة التي نعرفها . يقال رجل طمطم اذا كان في لسانه عجمة لايفصح . قال عنتره يمدح عظيماً :

تأوى له قلعُ النعام كما أوت . . . حزق يمانية لأعجم طمطم

فهذا التمكين البياني الذي صار اليه دفع الله انما هو بعض ثمار ذلك الغراس الذي نتحدث عنه ونقص عليك من انبائه بعض اطراف . وهو وليد تلك العهود الطيبة وافياؤها الظليلة وسقياها الهائلة المرية . . . ( كزرع اخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى علي سوقه يعجب الزراع ) . واذا اردت ان تقطع الشك باليقين فانظر معي الي روعة هذا الشعر الصادق العذب الذي صاغه دفع الله الحاج يوسف في رثاء حبيينا الغالي محمد العوض مصطفى اذ يقول فيه :

احاول فيك الصبر والصبر اخلق	ولكن قلبي منذ رحلت ممزقُ
فيا بعض روجي كيف غيبك الثرى	ويابعضها الباقي إخالك تزهق
اكفكف دمع العين فيك تصبراً	فيجري نجيعاً من فؤادي يدفق
اجادل نفسي ان تثوب وترعوى	فتأبي وتأبي . . ثم يعجز منطق
وتأبي خلال الخير تأبي مودتي	وحزن علي أفاق روجي مطبق

\*\*\*\*

مشاهد من عهد الطفولة والصبا	عليها جلال لا يحول ورونق
تعذبني والليل مدُّ رواقه	يشاركني بلواي نجم مؤذق
ابا حاتم أشكو اكتئاباً ووحشة	وكنت اذا اشكو ترق وتشفق
وأنت قسيمي كل نعماء عشتها	وانت قسيمي كل بأساء تقلق
فمن ذا يعاطيني المودة بعده	ويجلو شجونني وجهه المتألق

سيمضى ويضننى الاسى والتفرق  
تصان فلاتنسى وحبك موثق  
لتبقي علي رغم الحمام اذا بقوا  
تعطر ارجاء الزمان فيعقب  
وسر تبدي في حياتك مشرق  
واحببتهم والحب بالحب يسبق  
واسعدهم منك الندي المتدفق  
ينضر أفاق الحياة فتعشوق  
يرجى فيوفي بل يزيد فيغدق  
لاقبل من اخلاقه يتخلق  
مع الله يُربى في الدعاء ويصدق  
حصيف فلا يهفو ولايتفهبق  
لتجهل ما يعطى اليمين وينفق  
تتوق لها الارواح والقلب يخفق  
واقبالها والعيش أخضر مونق  
ومازال ينمو الحب فيها ويورق  
غريباً وأصل التبر في العز مورق  
الي غمده والغمد بالسيف ارفق  
وربك في الاخري أحن وأرفق  
تبارك رحماناً الي الناس اسبق  
فتسقي ويرويك الشراب المعتق

واين الذى ماكنت يوماً اخاله  
بكاك اخلاء عهودك عندهم  
طواك الردى عنهم ومازلت بينهم  
ومن بعدهم نكرارك ربا زكية  
فله سر فى مماتك معجز  
أحبك كل الناس في كل موطن  
وقد شاقهم منك التواضع والتقى  
بشوش بشاشات الربيع قدومه  
سحى سخاء النيل في كل لحظة  
وفى ولوكان السمومل مائلاً  
تقى له فى هدأة الليل لحظة  
ويدعو الي الحسنى سجية عارف  
وينفق في سر وان يساره  
سلام على أيامك الغر لم تزل  
طوت كل نعماء الحياة وسعدها  
وحباً لهذى الارض حباً لاهلها  
تغربت مثل التبر يزداد قدره  
وعدت اليها مثل ما عاد صارم  
فتم هادئاً قد طبت في الناس سيرة  
اليس الذى رحماته من عذابه  
شفيك خير الخلق ترتاد حوضه

فانظر الي هذا الشعر الرصين القوى المتماسك ، والى هذه العذوبة السائلة  
والسلاسة الحالية ، والى هذه الرقة الوارفة وهذا الروى المؤثر وهذه القافية الوضيئة  
المشرقة وخفة جرس الكلمات ووداعة ملامستها للأسماع . فهذه بعض مؤشرات من  
ابداع دفع الله الشعرى ، افلا ترى انى محق فيما ذهبت اليه ؟ هى بعض آثار نقوش  
خلفتها في خواطر دفع الله ايام ام درمان الاميرية واساتذة ام درمان الاميرية ومناخ

الحياة المعافاة فيها التي كانت تعبق بالعطر والعبير فيها نسائم جمعية الثقافة الطلقة ورياح الجمعية الادبية الرخاء .

بلى ، لقد كانت الجمعية الادبية أسمى وأرفع منتدياتنا المعرفية آنذاك ، وكان دفع الله «قسها» الذي لايداني في رقة العبارة وجزالة الكلمة وسلاسة الحديث ورفعته المعاني . وكنت أقرأ علي مستمعي ما اسميه شعراً امتدح به فريق الهلال واعد انتصاراته الباهرة وانا في مأمن من القرقاير والمريخاب علي السواء ، وذلك لان عبد الكريم والكبتل ومحجوب ومكي وبعض صقور الاوائل من الهلالاب كانوا يوماً حاضرين . وكانت « اشعارى » تجد عندهم القبول والاستحسان . فاذا فرغنا من امسيتنا وقضيئنا من مراتع الشعر والادب وطراً سرنا ثلاً وزرافات ، كل عقد نظيم بما شهدوا وسمعوا وقالوا فرحون . ومن عجب ان المريخاب والمورداب لايضيقون ذرعاً بما كنا نتناشد من محامد الهلال ، وذلك انهم - كغيرهم - يجلون منابر الادب والشعر التى تنعقد في رواق الجمعية الادبية ،ويتلقون مايسمعون في اطار عشقهم للشعر والادب ، فيفارقون بين ماهو ادب وشعر وان كان موضوعه الثناء على فريق الهلال غريمهم اللود ، وبين ما هو غير ذلك وان لم يكن فيه ثناء صريح على فريق الهلال ، يتخلقون لكل حال بخلائقه ، ولاينالون خصماً بأذى ولايزيلون سترأ عن بوائقه . وفي هذا ما فيه من السمو والتقيد بالمثل الرفيعة . ولو اني انشدت قصيدة في الثناء علي فريق الهلال في غير هذا الندي الادبي لقرضتني اللسن بالمقاريض ولانهالت على الايدى والشلايت الا ان يكون الصقور على مقربة من مسرح الاحداث ، فأولئك قوم بأسهم شديد ، والعاقل من اتعظ بغيره وعمل لهم ألف حساب لانهم حماة الحق كما كان عبد الكريم يقول ! ولقد امتدت دائرة عناية الصقور فشملت دفع الله فيمن شملت رغم انه ليس من فصل «التوانى» ، ولكنه سكرتير جمعية الثقافة والجمعية الادبية . وهو منتخب من قبل التلاميذ انتخاباً حراً مباشراً . ولما كان كاتب هذه السطور رئيساً لجمعية الثقافة والجمعية الادبية منتخباً انتخاباً حراً مباشراً ايضاً وهو من صميم

فصل «التواني» فان اهتمام عبد الكريم خاصة والصقور عامة بأمر هاتين الجمعيتين كان اهتماماً عظيماً . وهم يتذوقون الشعر والادب ويجتلون مشارف البيان وان لم يكونوا يعباؤن كثيراً بالانكباب على هذه الفنون . ولقد سحرهم دفع الله بأسلوبه السلس العذب المنقاد وتعابيره الادبية الجزلة الرفيعة فغفروا له ما كانوا يحسبون استخفافاً منه بشأن فريق الهلال . وذلك في اطار تعاملهم تعاملأ راشداً مع الأولويات التي تفرضها بعض الظروف المتغيرة . فقد كانوا في بادئ أمرهم يعتبرونه صقراً من صقور « الأوائل » ، وامتداداً أميناً ومشروعاً لتوجهاتهم البرجلية الهرجلية ، وسفيراً لهم ناشراً لاولية فلسفتهم القائمة علي ركائز المرح والعبث الطفولي البرئ . وربما فات عليهم انه اشتغل برقة عواطفه وعمق تأملاته وغلبة فيوضه الادبية عن فلسفة الحيوية التي كانوا يؤصلونها تأصيلاً بأدواتهم التي احسنوا اختيارها ، وينشرونها نشرأ بين الناس ، ويدفعون ثمن شيوعها وتمكنها « انبطاحات » متتالية على كنبه عم مبارك و «سياحات» مشهودة في الهواء بين ايدي عم عبد العزيز صاحب الكدوس وعم محمود الذي لم يكن يجيد الضحك او الابتسام ! فما اكثر ما كانوا يدفعون هذا الثمن وهم راضون موقنون ! ويقيني ان صداقتي مع دفع الله قد نفعته كثيراً في هذا الشأن وربما من حيث لا يدري . فقد بلغت من أنفس الصقور مرتبة الوداد ، وذلك توفيق من الله . وكان عبد الكريم يقول لي احياناً وهو يشير الى دفع الله : «صاحبك الطويل دا طلع مسكين» . وهذه مسكنة لها وقع خاص في نفس عبد الكريم ، ولها ايضاً معنى خاص تستشفه من النبذة التي يطلق بها التعبير . وذلك لان الطول في نظر عبد الكريم مؤهل هام لتسنم المراقى التي كان يجلس هو علي ذراها . وهو سلاح ماضٍ في اعتقاده لفرض الهيمنة المعنوية الفعلية علي الاخرين . وهذه الهيمنة تشكل ضماناً مأموناً لانتشار الفلسفة الهرجلية التي يبشرون بها . واذا لم يحملك طول القامة علي الانخراط في هذا الكومبارس العابث المرح فأنت في نظرهم مسكين . والمسكنة عندهم «خشم بيوت» . وقد سرني ان مسكنة دفع الله التي خلعوها عليه لم تكن من ذلك النوع



الذى يزهدهم فيه ، فقد ارضتهم عنه كرائم سجاياه وموهباته الاخر . وعموماً - ولهذه الاسباب مجتمعة - فقد لقي دفع الله معاملة كريمة من صقور فصلنا ، وان لم يعجبهم ولم يرقهم ابتعاده عن فلسفتهم ، ولم يرضهم قلة جنوحه الي احداث ما كانوا يحدثون ، رغم اني كنت اقتنص الدلائل والبراهين التى تؤكد لهم ان دفع الله كادر سرى من الكوادر التى يمكن ائتمانها علي تعاليمهم ، مؤهل تمام التأهيل علي استيعابها والاحاطة بفتونها وقواعدها واساليب بثها واشاعتها بين الناس ، ولكنه نابه فطن يتحين لذلك الاحايين المناسبة .

ولقد كان دفع الله بالفعل واحداً من الشياطين المرموقين في فصل الاوائل . وقد شهد له بذلك على الشريف و احمد حسين الرفاعى ، ومن شهد له هذان فقد أوتى « جنا » كثيرا . وذلك أنهما اشتهدا بشتى ضروب الهرجلة حتى ضاق عنهما صدر الاستاذ منصور حسن أمين وهو صبور ، ولم يشفع لهما إلا أن على الشريف كان مع عبثه ومشاغبته فتى ذا مرة وظرف فى آن واحد ، وأن الرفاعى كان هلالياً متطرفاً وهو في ذات الوقت لاعب كرة ممتاز . واما دفع الله فقد اختلف شأنه عنهما بعض اختلاف ولم يبد عليه انه وقع من السماء الف مرة مثلهما . فهو قد افاد من تجارب غيره ورأى بعين بصيرته ان الدعاوى العريضة امور مهلكة وان مالا ينال كله الا بالتعرض للمخاطر فالخير فى ان ينال بعضه عبر دروب السلامة . ورغم ولعه الدفين باحداث الفوضى وافشاء الحيوية والضحك بين الناس فقد كان حصيفاً فى تحسس الطرائق المؤدية الى هذه الغايات . فهى في نظره فروض ولكنها فروض كفاية ، يقوم بها البعض فتسقط عن الآخرين - هكذا يخيل اليك . ولكن الواقع غير ذلك . فهو من الاساطين الذين يمسكون بأزمة الامور في الفصل ، من وراء ستار الفطنة والدهاء . فهو المحرك ، وغيره المحركون ، وهو احد صناع الفوضى الحقيقيين ، وغيره المنفنون . وهم يبيعون باثم الهرجلة وقد احيط بهم وهم غافلون فى اغلب احيانهم ، وهو ينجو ويظفر بالسلامة فى اكثر هذه الاحيان رغم انه وراء كل الذى به يؤخنون ويساقون الى كنية عم مبارك وهم يوزعون .

هذا هو فن التحكم القصى (RemoteControl) الذى أشرنا اليه من قبل فى فصل «التوانى» والذى يعتبر تجديداً فى قواعد وفنون الهرجلة وتطويراً هائلاً لبعض أساليبها التى عفا عليها الزمن عندما اكتشف بعض الاساتيد لعبتها وصاروا يتصيدون الجناة بيسر وسهولة . لقد فرض هذا التجديد والتطوير نفسه فرضاً وافرزت الممارسات المتطورة قيادات جديدة اكثر تأهيلاً وابلغ تأثيراً واقدر على اخفاء الوسائل وابرع فى إحداث ما هو مطلوب !

كان دفع الله من هؤلاء النفر الميامين ، وقليل ما هم . يحدث فى الفصل ما يريد من عبث وضحك وفوضى ، بمقدرات خفية تدفع الاخرين دفعا الى انجاز هذه المهام المبتغاة ، وفطنة ودهاء يدفعان عنه الريب والشكوك . ولقد وجدت بعض العناء فى تبيان هذه الامور لصقور فصلنا حتى يبلغ عندهم دفع الله تمام الرضا . وسقت لهم من اجل ذلك الامثال والأقيسة حتى شارفت بهم مواطن الاقتناع بما اقول . فهم يعلمون ان دفع الله لم يكن يدعى - مثل بعض المدعين - انه يرتاد مجالس « اللبخ » . ولم يقل لنا ابداً انه يعرف كبس الجبة او بلة الاحمرانى او شمشون كبرى ود نوباوى . ولم يزعم فى يوم من الايام انه لعب الملوص وخرت الجماعة ، او دخل سينما برمبل بدون تذكرة ، او تشعبط فى حيطة دار الرياضة ليشهد مباراة الهلال والمريخ مع ثلة من القنادف على عينك يا تاجر والسوارة على ظهور خيولهم ينظرون اليه عاجزين ، او نطاً فى طرماج السمع وهو يعدو بسرعة الضوء . ولم يقل ابداً انه خرت كل بلى اولاد الحلة بما فى ذلك ضراربيهم وهو عدم تسبقه عادة عبارة الرجاء المألوفة : ياخى ارمى لى عليه ! بل هو لم يقل لنا ابداً انه يستأجر العجلات مثلما كان يفعل قاسم ابوعكر ومحمد على مقبل وعض بكار وغيرهم ولم يزعم أنه يحسن ركوب العجلة ، وهو يعلم ان مجرد هذه السيرة كانت تثير اشمئزاز مصباح الصادق والنقراوى وعبد الرحمن كنتباى رغم انه لم يقف على الاسباب الحقيقية لذلك الاشمئزاز . وعندما أعلن بعض العقلاء عن كراهيتهم للعجلاتية عموماً لم يعجبه هذا التجنى على «المهن الحرة» وكاد ان يجهر

بالاعتراض ، ولكنه أثر الا يخوض فيما لايعنيه وحبب الى نفسه اجتناب اللجاجة والمغالطات ونأى بلسانه عن الخوض في هذه المضائق وحبسه بين فكيه ، فمن يدري ؟ ربما كان هؤلاء العقلاء على حق . ومهما يكن فهو بعيد ايضاً عن البسكليت . ولكنه كان يرتاد مجالس التلاميذ الذين كانت لهم مزاعم تشمل جميع هذه الالوجه ، فيستمع اليهم ويزن الامور بميزان دقيق ، لانه يعلم مدى قدراته ولا يريد ان يتعدها . ورغم انه لايتبجح بشئ الا ان الصقور في فصلنا قد قيموا امره تقييماً سليماً ، واعجبهم تواضعه الذي برأه في نظرهم من الغلو والشطط ، بل اعجبهم فيه انه لم يكن ينسب لنفسه من امثال هذه المفاخر اقلها شأنأ ، وهو ما يأتيه اواسط التلاميذ ، رغم علمهم اليقيني انه كان ملماً من كل هذه الفنون بطرف ، وهو ما تؤكده انجازاته الهرجلية الخفية في الفصل التي تحدث الاثر المراد دون ان توقع بالمريد ! وقد بلغهم يقيناً ان دفع الله الذي لم يدع اياً من هذه البطولات والخوارق كان في حقيقة أمره صاحب صولات طرماجية دائرية ، وقد اعجز في كثير من هذه الصولات كلاً من الكمسارى والمفتش علي السواء . وهو يصل الي المدرسة في الصباح وقرش الفطور في جيبه في حرز امين لم تخترم نصفه تذكرة الطرماج ، رغم انه لم يكن يسلم في بعض احايينه من «كندكة» ظاهرة تنبئ عن نزول اضطرارى يصعب القول ان كان نزولاً «عكساً» أو نزولاً «عديلاً» ، ويستحيل الحكم بأنه كان نتيجة لأثار «زرة» الكمسارى او ملاحقة المفتش . وهو يسلمك الى مثل هذه الحيرة لانه لايتحدث عن بطولات طرماجية ولاغيرها . ولك ان تسمى هذه فطنة او تواضعاً او دهاء او ماشئت من مسميات .

واذا دار بخلدك انى لا اصدقك فى حديثى عن شيطنة دفع الله ، وخاصة عن صولاته الطرماجية التى كثيراً ما دار حولها الهمس ولم نقف على حقيقتها ، استيقنها بعضنا ووجد بها آخرون فاقرأ معى هذا الشعر الرائع الذى اختزن دفع الله مادته ومعانيه طوال الحقب والاماد حتى فاضت بها مشاعره وهو يخاطب رفيق دربه الراحل

الغالى محمد العوض مصطفى مداعباً فيقول :

فيا صديقى لقد ولى الصبا ومضى      وصرت جداً فيا مرحى وبشرانا  
نظل نذكر في ام درمان نشأتنا      ونحن نمرح في الساحات صبيانا  
نغدو الى الدرس فى خوف وفى رهب      تظننا فى فصول الدرس رهبانا  
وان ترانا بعيد المدرس تحسبنا      جنا تمرد لا يخشى سليمانا  
يشكو الترام عراييداً قد ابتدعوا      من التشعبط اشكالاً والوانا  
واغتاض قيمه من فتية هربوا      من بعد ان ركبوا الطرماج مجاناً

فهل بعد هذا من دليل يراد ليقوم برهاناً ساطعاً على ما ذهبت اليه ؟ فانظر الى هذا الجن الذى لم يكفه انه جن حتى تمرد لا يخشى (سليمانا) . وانظر الى هؤلاء العراييد كيف لم يقتصروا على التشعبط المعروف حتى صار عندهم اشكالاً والواناً . وانظر الى هذا القيم - وهو وصف عبقرى لأى من كمسارى الطرماج او مفتشه - وكيف اعجزوه فى الارض هرباً وركبوا الطرماج مجاناً حتى كاد يموت بغيظه ! ولم تسعفه الا امثال هذه الشتائم التي كان يضحك منها الفتية العفاريت ويهزأون . ومع هذا فأنت ترى أن دفع الله - فى هذا الشعر الصادق الذى يموج بصور الصبا واهازيجه - قد خلا تماماً من أى مزاعم لبخية او اساطير كبسية او دعاوى سلطوية تشير الى صلوات - ولو من بعيد - مع شمشون وبلة الاحمرانى . وذلك هو التواضع الذى امتاز به دفع الله وجعله أثيراً حميد السيرة بين أقرانه .

لقد توثقت الروابط بينى وبين دفع الله فى جمعية الثقافة والجمعية الادبية . فكنا نذهب سوياً الى السوق لنبتاع الورق «الفولسكاب» من المكتبة الوطنية التي كانت على مقربة من محلات يوسف الفكى الذائعة الصيت ، وهى على بعد خطوات من المدرسة الاميرية ذاتها . واني لأذكر بجلاء ان سعر الرزمة من الورق «الفولسكاب» ستون قرشاً ، وهى أحمال ثقيل من الورق الابيض الناصع المسطر تكفى لكتابة عدة رسائل علمية

بيتغى من ورائها نيل درجة الدكتوراه فى أى مشرب من العلوم . لقد كنا نبتاع هذا الورق من احد بنود ميزانية جمعية الثقافة التي كان مرشدها الاستاذ منصور حسن امين تم تلاه الشيخ الاستاذ يوسف الخليفة . ومن هذا الورق الفولسكاب كنا نصدر ثلاثة جرائد حائطية في كل اسبوع . ولقد اطلقنا علي اولها اسم «العروبة» ، واطلقنا علي الثانية اسم «القبس» . وظللنا نبحث عن اسم مناسب لصحيفتنا الحائطية الثالثة حتى دلنا عليه عثمان سلمان غندور زميل دفع الله فى فصل «الاول» . لقد برهن عثمان على ذوق ادبى رفيع ، او قل على حس شاعرى أصيل فاقترح علينا اسم «الراووق» فلقى عندنا قبولاً وارتضيناه . ولعله كان يظن الخمر معنى لهذا الاسم الجميل او لعل ذلك خيل اليّ ، فقد كان سعيداً سكر الروح بهذا التوفيق الذي قادته اليه فطرته العبقريّة وكان ينطق الكلمة وكأنه يشربها ويلتذ بها وينتشى . ورغم ان بعض الخبثاء تعمدا السخرية من عثمان لابتداعه هذا الاسم الساحر الرشيق ، الا انه لم يحفل بهم ولا بهزئهم ، وانما سره ما لقيه منا من ثناء عاطر فكان يخطر بينهم جذلان راضياً عن نفسه ولسان حاله قائل لهم : (إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون) . والراووق ليس هو الخمر بالطبع وانما هو المصفاة ، وهو الباطية وهو الكأس . ولكن بصرف النظر عن المعنى فالكلمة جميلة رشيقة عذبة ، وهى قد اعجبت دفع الله واعجبتنى كثيراً ، وصارت اسماً معتمداً لجريدتنا الحائطية الثالثة . لقد كان عثمان سلمان غندور تلميذاً نابهاً مجداً . ورغم انه كان «احمرانى» لون البشرة الا ان هذا لم يثر عليه حفيظة الصقور ، وانى لاحسب ان الذى استنقذه من هذه المهالك انما هو كلفه بالأدب وعمق تذوقه للشعر واشتراكه النشط فى ليالى القبعة وطبيعته السمحة المسالمة . وكان عبد الكريم اذا أراد ان يطاعن التجانى الطاهر او يفامزه يقول على مسمع منه وهو يشير الى عثمان : « والله غايتو فى حلب كويسين » !

كان عثمان يشارك بهمة فى تحرير هذه الصحف الثلاث ، ويعتبر «الراووق» نبتاً

اصيلاً من نيات بنات أفكاره ، وهو فى ذلك محق لانه هو الذى ابتدع هذا الاسم الشاعرى الخمرى الرقيق الذى لقى منا احسن قبول وترحاب . اما خطاط الصحافة الحائطية فقد كان هو كمال شكاك زميل دفع الله فى فصل الاوائل . وكمال تلميذ صغير الجسم بسام مشرق الحيا لايقبل شيطنة عن امثاله من العفاريت الدقاق . لكنه تلميذ مجتهد مشهود له بالذكاء وحسن البلاء فى الدروس ، ورغم ضالة حجمه ودقة عوده فقد اوتى جرأة لم يؤت مثلها محمد عبد الله الشيخ «خطاط» فصل «التوانى» الموهوب . ولذلك صار كمال هو خطاط صحائفنا الاثير . ومن بين التلاميذ الذين كانوا يكتبون لنا وننشر ما تجود به قرائهم فى هذه الصحف الحاج محمد عثمان ابراهيم (الكبتل) ومصطفى احمد عيسى . اما الكبتل فهو من قد علمت . واما مصطفى احمد عيسى فهو «الفة» فصل الاوائل وهو بازى صقورهم وهو اول الفصل . ولقد أكسبته هذه الخلال الثلاث - وهى ميزات متساوية فى الاهمية فى نظر التلاميذ (الألفة ، والاول وقائد الصقور) - احترام زملائه قاطبة الا من لا يعجبهم العجب . ورضى عنه عبد الكريم وجماعته ايما رضا . وكان محمد العوض صاحب اللسان الساخر المذبذب يقول كلما التقى الكبتل ومصطفى فى مناظرة فى احدى ليالى القبة : هلْ هلْ ، حديد لاقى حديد . وهو يضحك ملء شذقيه يود لو يجرؤ غيره ليقول لهما : المديدة حرقنتى . فلطالما كان محمد العوض يحدثنا عن عراق الديوك وخاصة حينما ينفجر شجار بين محمود احمد مهدى وحاج حنفى . وهو يمنى النفس بأن يرى مثل هذا العراك بين الكبتل ومصطفى . ولكن تمنياته هذه ربما كانت فى احسن حالاتها افتراضات لا تخلو من بعض السذاجة وقلة الإلمام بخفايا الامور . وذلك انه لم يفطن الى ان السلام النسبى الذى كان يسود اجواء المدرسة انما يقوم على اسس مدروسة ومنتقاة ، وان مبعثه الحقيقى هو جهود مبذولة فى الخفاء وفى العلن للمحافظة على ميزان القوى بحيث لايتعدى الغرماء حافة الهاوية ، يراعى ذلك بدقة وانضباط كل من صقور الاوائل

وصقور التواني ، وهو ما عبر عنه فصحاء الانجليز بكلمة BRINKMANSHIP وهي كلمة معبرة ابلغ تعبير عن حقيقة مثل هذه المواقف . وذلك أمر لا يفهمه على وجه الدقة الا من كان صقراً او على صلة من الوداد مع الصقور وثيقة العرى . ولو ان كفة ميزان القوى مالت لصالح أى من المجموعتين «المتحامرتين» لانفرط العقد ولما تمكنت وسائل الادارة المدرسية بأجمعها من احلال السلام الدائم مرة اخرى وتلك محمدة من محامد الصقور فى كل من فصلى «الاول» و«التواني» .

ومن عجب ان الكبتل ومصطفى - وقد كانا متفوقين بشكل ملحوظ في ام درمان الاميرية - لم يكن بلاؤهما في خورطقت بالصورة التي ألفها الناس من قبل ، ولم يعد يوافيهما ذبوع الصيت الذى كان ملازماً لهما على صعيد التحصيل والتفوق فى الدروس . بل يمكن القول بأن قبضتهما على أزمة امور العلوم والريادة فيها قد تراخت الى حد بعيد حتى لم يعد لهما شأن خطير في هذين المجالين ، وان ظل كل منهما يتمتع بذكاء فطرى اصيل ومرموق . وربما كان السبب في ذلك هو ولوجهما لعالم جديد ومجتمع مغاير وانشغالهما بمستحدثات طرأت او نشأت فى تلك الربوع . ولقد كنا نعجب من ذلك كل العجب ولم نجد له تفسيراً مقنعاً ترتاح له النفس ويقبله المنطق السليم . غير ان محمد العوض - دون غيره - أسر لنا فى ذات مرة ان الكبتل ومصطفى قد بلغا قمة مقدراتهما ، وهو ما يسمى في اللغة العسكرية - واحياناً كثيرة فى لغة المال والمصارف - بالسقف (ceiling) وقد تستخدم فى معناه لغات اخرى واشارات متباينة . واكد لنا محمد العوض ان من يبلغ قمة مقدراته يصعب عليه البقاء فى هاتيك الذري ، لان هناك منحدرأ قد يهبط بك سريعاً إن لم تكتنك العناية الالهية ، ولان من يقف على بداية المنحدر فلا بد ان يهوى الي القاع . وهذا التحليل الذى لا يخلو - ان تأملته ملياً - من المنطق والسلامة ، انما هو من خبث محمد العوض وبعض آيات مكره وتندرته ، لان محمد العوض كان يعنى به تقدم السن ! ومهما يكن

من أمر فان الريادة الاجتماعية التي كان يتمتع بها هذان الصقران في ام درمان الاميرية لم تعد مواتية لهما ، ولم يكن لينعقد لهما لواؤهما في مجتمع كثرت فيه البوازي والجوارح والعقبان . فأين بأسهما من بأس اولى البأس الشديد : الفاتح بشارة ، والتاج حمد ، وابراهيم زعوط ، والتجاني الصاموتي ، وكمر ، وحسن الاسطى وابراهيم بلل ، وعبد السلام فضل الله ، وعلى سالم على التوم ، وحسن الفكي ، والزعيم الطيب باك القيامة ، وحمدنا الله طه طويل ، وعلى محبوب ، والبدين ابو ضفيره ، واحمد وادى حسن ، ومحمد على تشرشل (أوحلة) ، وعصائب اخرى لاتحصى من عواجيز الفتية الصغار ؟ واما فيما يختص بالريادة في دنيا العلوم والمعرفة والتفوق في هذه المناحي والمجالات ، فان «حواء والدة» ، لانها هي التي ولدت عوض السيد مصطفى وعلى كمبال وعوض عمر وعيسى ابكر وغيرهم من ذوى البصائر الراققة والابصار الرامقة .

وعلى كل حال فقد اثبت لنا محمد العوض - في معرض سخريته التي يحسن استدعاءها وتأتيه مواتية منقادة - ان العبرة بالخواتيم ، وان لكل اول آخر ولكل بداية نهاية ، وقد يأتيك بالانباء من لم تزود . غير انه من الانصاف ان نقول ان الكبتل ومصطفى - وان تراخت قبضتاها عن هذه الريادة وتلك - قد ظلا ، ولم يكن ذلك من غير جهد مثابر منهما ، ملء العيون والاسماع . وقد حفظ لهما زملاؤهما مكانة عالية في الانفس لما جبلا عليه من كرم خلق وصفاء ذهن . ولو صحت منهما العزائم كما كانت تصح على ايام ام درمان الاميرية لما «بلغ الميس» قبلهما احد . وتلك سنة الله في البرايا . فحيناً على قدر ما تكذ تجد ، وحيناً تقصر بالمجد الحيل . وقد صدق ابو الطيب اذ يقول :

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت . . . على عينه حتى يرى صدقها كذبا

اما مصطفى فقد تواضع ورضى بتبديل الحال ، وسخر مقدراته الذهنية وجهوده



الاطلاعية حتى صار علماً في مجال معارف اللغة الانجليزية . واما الكبتل فقد زهد في هذه الامور وان بقيت محبته للغة العربية والتاريخ عاصماً له من التردى السحيق ودافعاً له للبقاء على السفوح يوم عزّ واستعصى بلوغ القنن . ومن العسير عليك ان تأخذ عليه هذا او تنحى عليه باللائمة لان للمشاعر سلطاناً على النفس شديد السطوة . فقد كان جسده في العمارة وقلبه في حلة الدونكى . وقد بلغ من رقة العواطف وشفافية الروح والاحساس ما جعل لسان حاله ينشد على من يحسن الاستماع :

اذا سمعت اسم ليلى ثبت من خبلى . . . وثاب ما صرت منى العناقيد

كسا النداء اسمها حسناً فحببه . . . حتى كأن اسمها البشرى أو العيد

وما ليلى وزينب وما الى ذلك الا واجهات شتى لشيء واحد . وقد يتزيا بالهوى غير اهله وانما الصرعى هم الصادقون ، فليس وراء الفناء من دليل على صدق الاحاسيس . واذا كان للعناقيد صرعى فان «القناديل» لها صرعى كذلك . ومادام الموت واحداً فليس بمصرخ لك بأيهما تموت . ولقد تجاوز توفيق صالح جبريل رحمه الله هذه التفاصيل الى تعميم مبين في خمرياته فأجاد وأفصح أذ يقول :

ظلت الغيد والقوارير صرعى . . . والأباريق بتن في اطراق .

ولقد كان الكبتل فتى ذا احساس مرهف ومشاعر دفاقة برقائيق المعانى . وكان الشيخ عبد الله عمدة حلة الدونكى رجلاً كريماً ليناً بشوشاً مضيافاً يحب الأنس والطرب ويدعو فتية العمارة الى داره فى الليالى القمرية يوطن لهم الاكناف ويسرد عليهم من الاقاصيص واشباه الاحاجى ما يبدد عن نفوسهم ملال استذكار الدروس ويملاً أقطار خيالاتهم بشتى الصور والمرائى العجيبة البديعة ويغالى فى اكرامهم بما يتسير له من مأكّل ومشرب على ما به من بساطة مظهر وخصاصة عيش ظاهرة . فلا عجب اذا تغنى من قدر له ان يتغنى بعد دهور وهو اسير حنين مثل حنين ابى الطيب :

رَدْرَ الصبا أيام تجر . . . ير ذبولى بدار أثلة عودى

وعندما ما يكون الكبتل في ضيافة العمدة وبعض منا ضمن وفد الكبتل فاننا جميعاً ننعج بأريحيته السمحة وكرامه البالغ ، وهو يجلس في الكبتل مروءاته المبكرة ووفاءه الأصيل ، ولم يعكر ذلك الصفو الذي دام ردهاً من الزمان الاحداث كادت ان ترتج له ارجاء المدرسة وتسير به الركبان . ففي ذات يوم تكاثر بعض التلاميذ على احد عناقيرب العمدة عبد الله حتى انكسر «مرقه» ، فتغير العمدة عبد الله تماماً وصار شخصاً آخر ، وأقسم ليحملن هذا الأمر الى ناظر العمارة لان عنقريبه الذي انكسر كان اعز «عنقريبه» عليه . ولقد اسقط في يد الكبتل تماماً وابقن انه هالك لا محالة فمن اين له ثمن العنقريب فيقتدى به نفسه وهو القائد المتبوع الذي لولاه لما حل هؤلاء الفتية المشاغبون في كنف العمدة عبد الله وضيافته ؟ ولم يكن غريباً قوله وهو يلتفت قبالة مصطفى ود الشوال وصلاح فرج «أبو الحسوس» : يا اخوانا ماتشوفوا لينا حل من الورطة دي ! ولما كانت العجائب لاتنتهي ، ومنها انه تعالى يضع سره في اضعف خلقه فقد جاءت الفكرة المنجية من اضعف الفتية بنية واقلمهم جرماً . وذلك ان سمير - وهو الطيب تاج الدين - بشلوخه السلم ومكره الحصاصيصى المفعم بطيبة اهل الجزيرة وذكائهم - همس في اذن عبد الرحيم قلى شيئاً اشرق على اثره محياه وتهللت اساريه . ثم تفكر عبد الرحيم هنيهة وهمس بشئ لكل من يونس الحضري «أبو الحسوس» . وعندما أسرُ هذان بذلك الشئ للكبتل تبديل حزنه فرحة في لحظة واحدة وانجابت عن وجهه دياجير الظلمة والفرق . وبدا ركنا شاربه الغض الاخذ في الانتشار كطرفي مؤشر ميزان الضغط الجوى (باروميتر) يبشران بطقس معتدل . وهكذا لم يطل بقاء الكبتل في الحبس والارتهان الا قليلاً . فقد خف الفتية بقيادة ود الشوال والحضري الى داخلية «ودتكتوك» . وهناك التقوا عم على ابو شلوخ - هكذا كانوا يسمونه - وهو فراش الداخلية القائم على امرها . وحملوا له «هدية» فرح بها كما يفرح الطفل ، ثم افضوا اليه بما عقدوا عليه العزم . ورغم ان عم على تهيب

الدخول في مثل هذه المغامرة في اول الامر ، الا ان تطلعه لمزيد من مثل هذه الهدايا وادراكه العميق لعظم «الورطة» التي وقع فيها الكبتل ورفاقه من الفتية الصغار ، جعلته لايمانع ، ولكنه اشترط الايرد اسمه ولايشار اليه من قريب او بعيد اذا اقتضح الامر وانكشفت الخبايا . فاقسم له ود الشوال ويونس بأن هذا السر سيدفن في تلك الرمال الامينة علي الودائع ولن يطلع عليه احد . وبعد قليل خرج الفتية خروج الغزاة الظافرين وهم يحملون عنقريباً جديداً من اجمل عناقريب الدنيا لم يستلق عليه من قبل إنس ولاجان . وما ان تباعدوا عن العمارة قليلاً حتى صار ود الشوال ينشد والفتية من ورائه يرددون: يا الله الحلة . . لى عم عبد الله . . نخارج الكبتل . . من قيد الذلة الخ . . والحلة بالطبع هي حلة الدونكى وعم عبد الله هو «العمدة» الذى هو صاحب الشأن ، والكبتل من وراء ذلك فى الاسر يكاد ينشد بلسان ابى فراس :

بلى أنا مشتاق وعندى لوعة . . ولكن مثلى لايداع له سر  
اذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى . . وأذلت دمعاً من خلانقه الكبر  
تكاد تضى النار بين جوانحسى . . اذا هي أذكتها الصباية والفكر  
أسرت وما صحبى بعزل لدى الوغى . . ولا فرسى مهر ولا ربه غمر  
ولكن اذا حم القضاء على امرئ . . فليس له بر يقيه ولا بحر  
وقال اصيحابى : الفرار او الردى؟ . . فقلت هما امران احلاهما مر

وما ان وصل العنقريب محمولاً على أكتاف الفتية حتى عم السرور وتعالت صيحات الفرح وخرج الكبتل ظافراً وقد تحرر من الاسر ونجا من الوعيد ، ومن «القيد والذلة» . ولما بلغنا العمارة فى تلك الامسية التى لاتنسى كان الدينمو قد كف عن الازيز وبانت «العمارة» كمدينة حاملة تبترد فى ضوء القمر ، فتسلل كل منا الى عنبره فى الداخلية ، وانسدل الستارعلى هذه الملهاة المضنية ، وصارت من الذكريات التى تضحك بعد ان كادت تغدو من التجاوزات التى تبكى وتنذر بأوخم العواقب .

على أن دفع الله الحاج يوسف لم يكن بعيداً عن ساحة الاحداث ، وان لم يكن قد شهد تلك الواقعة . فقد بلغت انبائها مسامعه بعد قليل دون ريب . وعندما تدبر فصولها ومنعرجات سيرها أشاد بحكمة سمير التي ولدت الفكرة وبعبقرية عبد الرحيم قلى التي طورتها تطويراً جعلها سهلة التنفيذ ، وكاد ان يؤلف قصيدة فى الثناء عليهما لولا انه خشى ان يجر مثل هذا الاندفاع الى ما لا يحمد من العواقب . ورأى ان يدخر ملكاته الشعرية لما لا يحتمل ان يستنكر الجهر به من محامد زملائه واقدامهم وقدراتهم الموازية على الخروج من مواضع الحرج الى أفاق النجاة بأيسر وسائل استخدام العقل . ولو علم دفع الله ما سيؤول اليه امره بعد حين لخلد تلك الواقعة بأبلغ القوافى واعذب انماط الروى ، غير هيب ولا وجل . فالفصل من المدرسة هو الفصل منها سواء كان ذلك على أثر التغنى برجاحة عقول من افتدوا الكبتل من اسره وهلاكه المحقق ، او كان ذلك على أثر الاشتراك فى الاضراب . لقد فارقنا دفع الله ضمن «مرافيت» الاضراب بعد قليل ، ثم التقينا فى الجامعة مرة اخرى لتتصل بيننا مودات لم تكن لتتقطع اصلاً . ولست ادري ان كان دفع الله قد غير من موقفه ازاء تلك الحادثة بعد ان اشرب علوم القانون الشرعى والمدنى وتضلع فى فقه مادتيهما حتى الرى ، فهى حادثة ربما تستملحها عواطف الحداثة المشاغبة ، وتطريها روح التلمذة الجماعية العابثة ، وتحفل بأمثالها شيطنة الصبا وخيالات اليفاعه ، وقد يستنكرها سلطان المعرفة ، خاصة اذا كانت معرفة بالقانون واصوله . وكم وددت ان اسأل دفع الله عن حكم من حملوا «العنقريب» من داخلية «ودتكتوك» فى تلك الليلة السكرى بضوء القمر ، وطفقوا يخوضون به عباب الرمال الهينة تلقاء حلة الدونكى لافتداء عزيز لهم بات فى الاسر تظن به الظنون . . . ايقام على مثلهم الحد رغم ان العنقريب الود تكتوكى كان مالأ عاماً ورغم ان من بين «الحملة» من الفتية من لم يكن بالغ اللحم ؟

## الهادى . . والداندرمة . . والشعر والفناء :

واما الهادى محمد عباس فقد كان من الاصدقاء الاخيار الذين جاد علينا بهم فصل «الاول» فى ام درمان الاميرية . وكم من مرة صحبته ونحن فى طريق عودتنا بعد انتهاء اليوم الدراسى مشياً على الاقدام . فقد كان الهادى من اولاد حى مكى ود عروسة ، او قل حى الركابية ، فهذان حيان من احياء ام درمان لا تفصل بينهما مسافات تذكر وهما يكادان يمتزجان امتزاجاً ويختلط الناس فيهما وعلى امتدادهما اختلاطاً . وربما كان اهل هذين الحيين من اعلم الناس ببوائق الطرماج ومأسيه التى احدثها . ولذلك كان الهادى يفضل «المشى الكدارى» على امتطاء تلك المركبة المجنونة التى احتار فى امرها مصباح الصادق وعبد الرحمن ككتباى ولفيف من اولاد «الضهارى» (حتى كاد يزيغ قلوب فريق منهم). ولولا أن ثبتنى الله لقد كدت أركن إليهم شيئاً قليلاً . فكنت فى بعض الاحايين اصطحب الهادى فى طريق العودة ، فتمضى سويماً ننظر فى لافتات بعض المحال التجارية ونقرأ المكتوب جهراً كأننا نمارس نوعاً من المران . . محلات هريدى ، ديران جموشيان . المحطة الوسطى . . حتى نشرف على بداية شارع ابي روف ، فاذا بمحلات الداندرمة على يسارنا ويرعى المصرى صاحب المحل فى طربوشه الاحمر وفرجيته التى يربطها على وسطه النحيل «قيطان» ابيض منعقد دقيق النسيج . فاذا يسر الله وبقيت فى الوفاض تعريفة ابتاع كل منا كأساً من هذه «الداندرمة» - ولم يكن اسم الايس كريم معروفاً لدينا فى تلك الازمنة - ورحنا ننعم بها ونحن نمشى فى تؤده وانشراح . وان كانت الاخرى لعن كل منا فى سريرته «الفلس» وراح يغبط هذا «المصرى» صاحب الطربوش الاحمر والفرجية البيضاء على نعمة الداندرمة التى خصه بها الله من دون عباده الآخرين ، واعانه بها على «حندكة» امثالنا ممن لايملكون شروى نكير . فاذا بلغنا دار الهادى فى حى السادة الركابية قريباً من حى السيد المكى افترقنا هناك ، ودلفت انا الى حى القلعة

عند مدخله من شجرة « اللالوب » التي ماتزال حتى يومنا هذا ماثلة للعيان ، ثم سرت من هناك الى ودينيواوى خلال دروب وازقة تتعرج وتتلقى بين البيوت المتواضعة المصطفة على جانبي الطريق ، كما تتعرج وتتلقى امزجة الناس وامانيهم في هذا الزمان البائس الكئيب .

لقد عرفت في الهادي رقة نادرة المثال . فهو يتحدث اليك بأدب جم وتواضع أصيل وعلي وجهه ابتسامة أسرة وجبين منهلل صبور . لايمارى ولا يكابر اذا اختلفت الاراء وانما يسلم امر ما لا يعلمه اليك تسليماً . وهو الى الصمت اقرب منه ميلاً الى الكلام مع انه متماسك الحجة موفور الذكاء . لا يذكر احداً بسوء ، ولا يفصح عن مواهبه الكثر الا ان تطلع انت عليها اطلاعاً من وراء تواضعه الشفيف ، ومن وراء حجب صمته الذى يزدان بالسكينة والوقار . ومع ذلك يخيل اليك ان دخيلة نفسه تضطرم فيها أمور كبار وتختلج فيها بواكير رؤى جسام ، وهو لا يفصح عنها ولا يجلى غوامضها الا لاماً وبمقدار . يحب الشعر والادب وحسان القوافى ، ويتغنى بالروائع منها فى بعض الاحايين فاذا استشعر منك اقبالاً وشيئاً من الفضول عفّ عن ان يطلق لنفسه العنان ، فتبسم في حياء وعاد الي صمته الرزين . وتسحره لغة بنى السكون ، يستنظر منها مقاطع وتعابير يجود عليك ببعضها احياناً اذا انطلق مع سجيته الالوفة وانعق من اسار سكوته المحسوب . فاذا بادلته مثل هذه المقولات الرقاق اشرق وجهه بالبشر ووصفا ، وانتقشت عليه علامات الرضا ، وانبعثت فى نفسه وسائر اعضائه حيوية دافقة ، ووافته ذكرااته المواتية بما يبهج ويسر من رقائق البيان وحلاوات الكلم . . . تماماً كما الارض الخصيبة المعطاءة . . . تشرب من ضوء الشمس الوهاج خلال شقوقها اويقات الظهيرة والضحي ، وتبترد عند الاصائل فى فيض نورها العسجدى . (فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) . كان الهادى فناً مطبوعاً تجرى فى عروقه اعذب الالحن وتتبجس روحه بأرفع المعانى ، وتلوح على وجهه

البشوش ومضات من الفرحة تغنيك عن الحديث . وذلك بالرغم من انه لم يكن مثلي يدعى الوقوف على اسرار فنون «الصفارة» او المزمار ، ولم يكن مثل غيري من زملائه يزعم الاحاطة بعوالم القصيد والغناء . ولطالما اشعرنى ذلك التواضع الذى هو طبعه الملازم بالحرص ، فهو من القلائل الذين لايمشون على الارض مرحاً ولايتطاولون على الناس وان أوتوا مايفرئ بمثل هذا المشى وهذا التطاول . ولطالما تعلمت منه كيف يكون الانسان لصيقاً بالتراب من فرط نكران الذات ، ثم هو من بعد ذلك وعلى الرغم منه رقيق الجوانح عقب الروح مشبوب الاحاسيس معافى المقاصد والنوايا .

لم يكن الهادي يخوض كثيراً في عبث العابثين في المدرسة . فهو تلميذ نظامي مرتب الفكر متزن التصرفات . مارايته في عراق مع احد ابدأ ، وما سمعته ينتصر لثمة من اقرانه دون سواها . ورغم انه كان هلالابي النزعة الا انه لم يكن يغالى في امر من الامور ، ولم يكن يغمط الناس اشياءهم ، بل كان قصداً قسطاً في كل شأنه ، قواماً بين الطرفين . ولقد كنت علي يقين بان الهادي ينطوى فى دخيلته علي «أسرار» يختزنها اختزاناً ، ولايبوح لك مما يختلج في نفسه الا بالقليل . ولست اسمى ذلك مكرماً منه ولا دهاءً ، فقد كان خلقه بعيداً عن المكر والدهاء . وربما كان ذلك حذراً منه ، ومجانبة لما ظن انه افراط او حسب أنه تقريط . ومهما يكن من امر فقد احسست نحوه ميلاً شديداً واعجبتنى فيه رفته الاصيلة ووداعته المطبوعة ، وحلاوة طبعه الآسرة . وكم وددت ان ارى فيه شيطنة اقرانه المحببة ، وحاولت ان احمله على شئ منها ، ولكنه استعصم وابتى الا ان يظل وفيماً لخلائقه التى جبل عليها ، ولاسمة الذى يحمله منذ ان قدم الى هذه الدنيا ، فكان هادئاً لا تحركه دواعى العبث ولاستهويه «مجانبات» تلك العهود ، وكان هادياً - اذا انت اقتديت به - الى طرائق الجد المستبصر والنضوج الباكر الحثيث . وقلت فى نفسى ان الهادى يضم من وراء هذا السكون الغالب على طبعه امرأ جلاً . وذهبت في ذلك مذاهب شتى كان اقربها لقناعتي ان له اصفياء غيري

يبوح لهم بما يمسك عنى ، ويتبادل معهم من الحديث ما لا يطلعنى على أسراره . ولقد صدق حدسى بعض الشئ مع مرور الايام . فما ان غادرنا ام درمان الاميرية حتى التقيته مرة اخرى فى خورطقت العامرة الحبيبة . وهناك ادهشنى ابتعاد الهادى عنى فى اول الامر واقترابه من آخرين لم يكونوا فى سابق عهدهم أوثق صلة به منى . لقد كبر الهادى شيئاً قليلاً وتوسعت مداركه تبعاً لذلك وبذات المقاييس - ولعله انس ببعض « الافكار الجديدة » او لعلها استأسرته وراقت له وروت ظمأ فى نفسه الى حياض الجد ومناهل النضوج . . فهام بها بعيداً عنى وانا اظن به الظنون . غير ان الصداقة التي كانت تربطنى به منذ ايام ام درمان الاميرية لم تفتقر ، وانما تراخت عراها لحين موقوت . وعندما الح على داعى الوفاء عمدت اليه اعاتبه هوناً وأسائله متلطفاً عنى اقف على حقيقة امره . فكان يبسم راضياً دون ان تضيق نفسه بما أقول وربما اعتذر ضاحكاً فى صدق وصفاء ، ولكنه لم يكن ليفصح عن كل ما يدور فى خاطره . وماكنت لائمأ له على ما لا اعلم له سبباً ، ولا ظانأ به غير الوفاء لرفقة الحدائث والصبا . فقد اكد لى من بعد ذلك مراراً انه ربما انشغل بدروسه عن اصدقائه ، وحسبت ذلك القول عذراً كافياً فتلقيته فى يسر وبساطة وحسن قبول . ولربما منعه حياؤه الجم وانضباطه الاصيل من البوح لى بما كان يعتمل فى صدره وما نفذ اليه فكره من آفاق جديدة . غير انى أليت ألا أشق عليه فى شئ وأبقيت على صلة الوداد التي تجمعنى به دون ان افسد روحها بمزيد من التسال . فالتقينى علي الوداد من جديد واستقامت بيننا علائق الصفو الوطيدة حتى اذا شارفنا نهاية السنة الثانية عقدنا العزم سوياً علي الجلوس لامتحان شهادة اكسفورد من السنة الثالثة . ولقد دفعنا هذا الميثاق الجديد الى مزيد من القرب حتى صرنا نستذكر ونستظهر اشعار تنيسون وشكسبير ونتناشد مقاطعها فى اويقات هانئة من الجد والصفاء لاتزال ظلالها واصداء انفاسها عالقة بذاكرتى لاتريم . غير ان تلك الامانى لم تدم طويلاً وان كنا قد جنينا بفضلها علوماً ومعارف لاتحصى اذ كنا



بجانب هذه الاشعار الخالدة نستقصى النقائض من الكلمات الانجليزية العديدة لانها كانت تشكل جزءاً هاماً من كمال التحضير لامتحان اللغة الانجليزية عندما يحين الجلوس لشهادة اكسفورد . فقد ذهب الهادى من بين رهط كرام فصلوا من المدرسة اثر المظاهرات الطلابية فأكمل دراسته فى المدرسة الاهلية الثانوية بام درمان ونال شهادة كمبردج بامتياز ، فالتقينا مرة اخرى فى رحاب كلية الطب بجامعة الخرطوم . فكان الهادى محمد عباس هو ذلك الفتى الذي عرفته منذ ازمان ، بوجهه المتهلل وتواضعه الأسر وطبعه السمع الالوف . غير انه اصاب نضوجاً واضحاً ، وميلاً للمرح اكثر جلاءً مما كان عليه ، موسوماً فى ذات الوقت برزانة موفورة تباعد بينه وبين العبث واللجاجة والجدال . وعلى الرغم من حيائه الذى لم يكن ليفارقه وابتسامته التى كانت تضيء وجهه بالبشر والترحاب فى كل حين فانك ان احسنت اجتلاء المعانى وراء الحديث فلن تخطئ ملامسة السخرية الهادئة المرسلة العذبة التى كانت تتقلت فى بعض تعليقاته فلا يطبق لها حبساً . ولن تخفى على مسامع قلبك وعيون احاسيسك رنة حزن وأسى كانت شجوناً ينطق بها فى بعض الاحايين صمته المدوى وسكوته المفعم بالكلام . لقد ولج الهادى فى وقت مبكر الى رحاب قضايا فكرية معقدة ، ولست ارتاب فى انه اصيب بخيبة امل ظلت ترتسم على عينيه الساهمتين ونبرات صوته الهادئة حيناً من الزمان . وعاد الهادى الي سكينته المعهودة بعد أن طوف فى الافاق حتى رضى من الغنيمة بالاياب . وهو ليس بدعاً من التلاميذ والطلاب فى هذا ولا فى ذاك . ولكنه امتاز بعقل راجح وطوية نقية وادراك عميق لطبائع الناس ومعانى الاشياء . ورغم ان الهادى لايزال اليوم فى طواف من نوع آخر فانه قد اصبح واحداً من قلائل الاطباء السودانين الذين تعتد بهم بلادنا وتفخر . ورغم انى لم القه منذ سنوات عديدة الا ان الهادى فى نفسى مكانة عالية وليس من ريب عندى أنه يبادل اصدقاء صباه العديدين وفاءً بوفاء . كنت فى مدرسة خور طقت احوال كتابة الشعر ، تماماً كما كان يفعل غيرى من

التلاميذ. وقد كان في طليعة شعرائنا آنذاك حمزة حسين العبادي ومحمد بخيت سليمان. وفي ذات ليلة مقمرة كنت اجلس مع الهادي محمد عباس علي رمال الميدان الاول غربى سور المدرسة . وهو الميدان الذي كان مستر بروكس يسميه Pitch Number one تمييزاً له عن ميادين كرة القدم العديدة الاخرى . وفي تلك الليلة الحاملة كانت رمال الميدان الاول تسبح في ضوء القمر اللجيني وكنا نحن نسبح في بحور الشعر ونركض في رياض القريض تتفشاننا نسيما لطاف رقائق حانيات ، كأنها تقرأ علينا السلام من منابع الصفاء والامان والسلام . كان كل شئ من حولنا يكتب شعراً ويقرأ شعراً ويتنفس شعراً ويستحيل الى سلسال من الشعر صاف شديد الصفاء . ولما كان ذلك كذلك فقد قرأت علي الهادي بعض ابيات من قصيدة كنت قد كتبتها منذ ليال مضت . فصار يستزيدني من ابياتها حتى أكملتها فاذا هي تعجبه واذا به يعود لبعض أبياتها يستقرئني من كلماتها ما عن له ان يستعاد ويستوضح . وكان ينشدني بعض ابياتٍ منها كلما التقينا بعد ذلك . وفيها كنت اقول :

يا ليل مالك قد عراك جمود	أجفك صباً أم رماك صدود
يا ليل عهدى بالنسيم اذا سرى	سرى عليك فضج فيك نشيد
مالي اراك وقد سكتت وربما	سكن المشوق وقلبه معمود ؟

إلى أن قلت :

يا ليل إنى راحل ومودع	قد شقنى ذا الصمت والتسهيد
يا ليل ويحك لا تجيب خواطرى	تهفو إليك ، وبالوداع تجود
فالي لقاء لست أعلم حينه	إنى ذهبت ، ولست لست أعود

وانت ترى انه شعر سخيف وليس بشئ اذا ما قورن بما كانت تبذعه ملكات محمد بخيت سلمان وحمزه حسين . ولكنها احساس الحداثة واليفوغة كانت تجد وسائلها للتعبير عن نفسها فتقابل بالرضا والقبول من الصبية الذين كانوا يعيشون عين التجربة ويتقاسمون ذات المشاعر والخطرات . ولذلك وجدت هذه الابيات - على سذاجتها

وبعدهما عن الجودة - مكانة حسنة في نفس الهادى . وقد سرنى ذلك وأفرحنى دون ريب ، وربما اشعرنى بأننى سأكتب شعراً جيداً فى يوم من الأيام ، ولكن ذلك لم يكن الا احلاماً وامانى لا تتحقق ، فهانذا بعد كل هذه الحقب الطوال اجد قدراً غير قليل من العناء فى تفهم معانى اشعار الفحول ناهيك عن محاولة الاتيان بشعر يستساغ وتتقبله الانواق السليمة . والهادى لم يكن يكتب شعراً فيما اظن - الا ان يكون قد اخفاه عنى - ولكنه كان صاحب ذوق رفيع واحساس مرهف وشفافية بالغة . ولو ان الهادى استمع الى خرائد محمد بخيت وروائع حمزة حسين لوجد عندهما ضالته ولأروى ظمأه الى رقائق البيان وبدائع القوافى . فهما شاعران مطبوعان ، خلص أحدهما الى الخدمة العسكرية ثم انجاه الله منها ، وخاض الثانى غمار التعليم والثقافة فآثر ذلك - فيما آثر - ديوانه « ميسون والمطر » . وحمزة حسين مولع بالشعر مشغوف به . فبينما الفتية ينشغلون فى حصتى المساء (Prep) باستذكار الدروس كانت الرسائل بينى وبين حمزة تتوالى تباعاً ... يبدؤنى بقصيدة وارد عليه باخرى فى مثل قافيتها رغم أنها دون قصيدته فى الجودة بكثير ، فلا يغضبه ذلك ولايزهده فى مزيد من التقصيد وهو بذلك انما يشجعنى ويدفعنى دفعاً الى التحليق معه فى عوالم هو اطول باعاً منى فى التعرف على حقائقها . لقد كانت قصائد حمزه شعراً ناضجاً بحق ولم تكن «قصائدى» حياها بشئ . ولكن سماحته التى امتاز بها جعلته يتغاضى عن الغث منها والفقير . ولو انه طارح محمد بخيت بدلاً عنى لآثرى نتاجهما معاً اجواء تلك العهود الحبيبة الحانية . ولقد اجتمع عندى كثير من هذه الرسائل الشعرية المتبادلة وضاع اكثرها ، وانى لاذكر ان حمزة قرأ على ذات مره قصيدة جاء فيها هذا البيت :

عار على انا الجمال عبدته      أُنزل معبودى على اجلاله

و ذلك بعد ان قص على الدوافع التى اوحت له بها وبكتابتها . وكنت اظن وانا استمع اليه ان قافيتها لامية ولم اتبين الهاء فى الروى . فأعجبني النظم واعجبتنى المعانى

والقيم الرفيعة المستكنة في كلماتها فكتبت ابياتاً بعثت بها اليه جاء في بعضها :

افسدى بنفسى شاعراً نفثاته      سالت مشاعر عذبة التسيال  
يكسو الجمال بطة قد سبية      من طهر قول زانه بفعال  
«عار على انا الجمال عبده      أذل معبودى على اجلالى؟»  
يا شاعراً عبد الجمال شعوره      عش انت رمزاً للشعور العالى

فكان الهادى يلم احياناً باطراف من هذه المساجلات ويستعذبها ويستجلى اغوارها وربما استبان لها من المعانى مالم يخطر على بال مؤلفيها كما يفعل بعض الشراح وهم يتمعنون اشعار غيرهم ، وما كان ذلك الا دليلاً ساطعاً على سعة آفاق فكره وخصوصية خياله وعمق تأملاته في النص وما قد توحى به الكلمات والتعابير من معانٍ متباينة .

كان الهادى حياً موفور الحياء ولكنه كان في ذات الوقت شديد الذكاء جياش العواطف اذا استمع الى شئ من قصائد التشبيب اصطفت جوانحه طرباً واهتز لوقعها سائره ، وبدا وكأن رقائق الكلمات تخاطب وجدانه دون سواه . تلك ايام لمعت فيها في سماء الفن والغناء اقمار ونجوم خوالد . فاذا تغنى عثمان الشفيح بروائع ودم القرشى ، وصدح عثمان حسين برقائيق بازرعة وغرد التاج مصطفى وهو يناجى نسائم الضحى والاصائل ذاب الهادى واستحال كيانه الى رقرائق من المشاعر مستطاب . وهو كثيراً ما يترنم ببعض الاغنيات الرقيقة حتى اذا بلغ بك : «يانسيم ارجوك روح لها وحييها . . . بالفراغ البى والشجون احكيها» لم يترك في نفسك ريبه في انك تستمع الي التاج مصطفى بعينه من وراء ستر رقيق ، وسالت عواطفه المشبوبة حتى تجمعت في مقلتيه مدامعاً توحى بالمعاني ويمنعها من البوح الصريح الحياء .

ذلك هو الهادى محمد عباس الذى عرفته في ام درمان الاميرية وصحبته فى خورطقت ، ثم فى جامعة الخرطوم ، وصار ولا يزال واحداً من احب اصدقاء الطفولة

والصبا والشباب . وذلك هو الهادي محمد عباس الذي كان شديد النفور من الدخول فيما لايعنيه من الامور ، يفزع الى صمته الوقور اذا احتدمت بين الناس الخلافات وتشعبت بهم طرائق النقاش وانفلتت من عقالها بعض تعابير غير موفقة . ويضع على وجهه ابتسامته المضيئة التي تبشر بالمودة وتنأى بالسامر عن مقتضيات اللجاجة والثرثرة التي لاتجدي . لا يغمس لسانه في ما يظن انه قد يؤذى الاخرين ، ولا يعرض عفة منطقته لما يمكن ان يظن من ورائه السوء . يقاتل الضجيج والهرج بالصمت والابتسام حينما تتفكك اوصال المنطق السليم بين الناس وتوشك الايدي أن تنوب عن الألسنة في الحديث ، ويقارع بالحسنى ولين الكلام إذا أبصر مخرجاً من ظلمات الحديث المرجم وقبساً يهدى إلى مواطن الوفاق بالحجة الرصينة لايعرف الكبر ولا العجب ولا الرياء ولا الخيلاء ، ولا يرفع راسه الى السماء ولا يمشى في الارض مرحاً ، لانه يعلم مغبة كل ذلك . فهو يمشى هوناً ويغض بصره حياءً من قبل ان يقرأ ويعرف (وقل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم) لانه فطر على ذلك الحياء وخلقه به ربه منذ ازمان الطفولة واليفاعة ، وكأنه يمثل لنصيحة ابي العلاء المعري اذ يقول :

فيا غصاً من الفتیان خيراً . . . من اللحظات ابصار غصضته

ولست اعلم له عدواً بين الناس الا ان يكون امراً لم اقف عليه . وذلك انني منذ عرفته في ام درمان الاميرية لم اره يتدخل في شئون غيره الا بخير او اصلاح ، ولا يكون ذلك الا اذا ايقن انه يدرك ما يبغي ويرتجى من اصلاح بين الناس . فكيف يكون لمثله اعداء ؟ وهو الذي ابان مسلكه في جميع المراحل التي عرفته فيها وكنت لصيقاً به عن عفة ظاهرة في اليد واللسان . وكانما خاطبه المعري من وراء التخصيص بالتعميم اذ يقول في فلسفته التي احتار فيها الناس وربما لم يحسنوا فهمها :

فلا تأخذ ودائع ذات ريش . . . فمالك ايها الانسان بضنه

ويعد كل هذا ، فما كان الهادي الا احد فتيّة تلك الازمنة الغواير ممن يحملون في

حنايا صدورهم كنوزاً من الفضائل ويجسدون بمختلف طرائقهم ووسائلهم أنصع معانى القيم والمثل الرفيعة فكلهم احباب وكلهم اهل محامد ، وان تفاوتت درجات الافصاح عما يستكن من خير في اعماق النفوس .

## **مصطفى . . والزروقان . . وقائمة الاشراف :**

اما مصطفى خوجلى فلم اعرفه في ام درمان الاميرية معرفة وثيقة . وكان في نفسى شئ من بكوية جده هذه ، ولعلّ هذا الشئ كان ايضاً في نفس عبد الرحمن كنتبای والنفراوى وغيرهما . ولست ادري ان كان مصطفى من صقور فصل «الاول» او من حمائمه وان كنت ارجح انه من الحمائم ، فنحن لم نجتمع في ميادين كرة القدم الا قليلاً . ولكنى علمت يقيناً انه هلالابى ، وهذا امر بالغ الاهمية . ولكنه كان كثير الضحك . وكثرة الضحك كانت احياناً تستثير الصقور في فصلنا «التوانى» ، الا ان يكونوا هم مبعث هذا الضحك او من وراء اسبابه . وذلك انهم قد يفسرونه في بعض الاحايين بانه نوع من السخرية منهم . ومن الذي يستطيع ان يسخر من الصقور جهرة وصراحة الا ان يكون قليل الالمام بحقيقة موازين القوى السائدة ، او ان يكون ملقياً بنفسه ويديه الي التهلكة ، غافلاً عن ان مثل هذا الالقاء امر منهى عنه فى محكم التنزيل . ولولا انى تدخلت - ومعي رهط من اصدقاء الصقور - فاقضينا الي عبد الكريم بأن مصطفى خوجلى هلالابى «قاطع» علي اقل تقدير ، لما شفع له عندهم شئ . وذلك بالرغم من ان مصطفى من حى البوسته وهو حى قريب من حى السوق الذى يقطنه عم محمد بن خال الكبتل . ولو كان مصطفى مريخابياً لما نفعته هذه الجيرة التى ربما انكرها الكبتل وقاس المسافة التى تفصل بين دار خاله ودار مصطفى بالفراسخ والاميال ، وجاراه بقية الصقور فى هذا الزعم نفياً لمثل هذه الجيرة «المزعومة» واخراجاً لمصطفى من نطاق حماية الصقور التى كان هو وامثاله من الحمائم في امس الحوجة اليها خاصة عندما تتلبد السماء بالغيوم . ولكن الذي حمى ظهر مصطفى وادخله فى

رواق السلامة كان هو هذه «الهلالبية» التي تأتي عند الصقور في المكان الاول ،  
وجميع ما عداها يأتي في المحل الثاني على احسن الفروض .

لقد كان مصطفى من الاولاد «الشطار» في فصل الاوائل ، ولكن الشطارة وحدها  
لم تكن كافية لك لكي تحتل مكاناً مرموقاً من انفس التلاميذ . فلا بد من قدر من  
«الشيطنة» يزكك في نظرهم ، ولا بد من القدرة على رواية اقايصيص درامية او بطولية  
على مسامع التلاميذ تكون من وحى الاحداث اليومية التي تطرأ علي حياة الناس في  
الحى الذى تعيش انت فيه . ولما كان حى مصطفى قريباً من المدرسة بحيث يغدو اليها  
ويروح منها سيراً عل قدميه ، فهو لم يشتهر بمادة طرماجية «يفلق» بها الرؤوس ويفرقع  
بها الاذان كما يفعل آخرون . ونحن لم نسمعه يروى شيئاً عن قنادف الحى رغم ان  
سينما برمبل كانت على مرمى حجر من داره وهي مسرح القنادف ومقيل العفاريت  
وقبله القصاد من انماط الجن الاحمر وغير الاحمر . ولو ان مصطفى استقده خياله  
واضفى علي بعض احداث حيه الصغيرة شيئاً من فيوض هذا الخيال ، لطلع علينا  
بحكايا تقارب الاعاجيب وتبوأ من نفوس الصقور مراتب عالية . ولو ادرك غزارة المادة  
التي يتيحها له قرب داره من معادن الخوارق الاصلية - وهي سينما برمبل ، وقهوة  
الملوص والمكرفون الذى كان يلعلع قريباً من تلك الامكنة من اذاعة هنا ام درمان -  
لاستغل كل ذلك ابرع استغلال ، ولروى علينا من الاساطير ما ان «مغاليقه» لتتوء  
بالعصبة اولى القوة من الصقور . فاذا كان التجانى الطاهر لاكتفى براوية المعجزات  
التي يبدعها «بله الاحمرانى» ورفاقه في حى العرب بل هو يصطحبهم - فيما يروى  
علينا - الي شباك تذاكر السينما ومائدة «الملوص» دون ان تطرف له عين او يفتر له  
حماس ، فقد كان الاحرى بمصطفى ، وهو القريب من هذه المواقع التى تثبت  
الاساطير وتحلو الرواية عن أحداثها الصحيحة والمختلقة ، ان يحسن الاستفادة من  
هذه الامكانات الهائلة التى حبته بها الاقدار وطرحتها امام ناظره لاتكلفه الا ان

يجيد الملاحظة ويعمل الخيال الخلاق لينسج مما يرى وما يزعم انه قد رأى ما شاء من اساطير الاولين . ولو كان مصطفى من الشيطنة المقتدرة بمكان لما آده ان يأتينا في كل صباح بعجيب من القصص والروايات ، ولما اعجزه ان يتحايل على اقناعنا باختلاق بعض الطرائف وإحكام تشويق المعانى الكامنة فى بعض المفارقات . ولكنه كان أيضاً تلميذاً فطناً ، فهو لا يحوم حول هذه المشارف والتخوم لانه يعلم ان الفتية العفاريت كثيراً ما يطرحون على اهل الحكايا اسئلة محيرة وقد تقود اجاباتك عليها - ان لم تكن من دهاقنة هذا النوع من الحديث مثل التجانى - الى مطالبات يصعب عليك الخروج منها ، فترمى رواياتك واحاديثك بالغبثاة والفسولة ، ثم لايعبأ بك كراوية يعتد به في امثال هذه المجالس . وعندى ان الذي دفع مصطفى الى الامسك عن الخوض في مثل هذه الوحول لم يكن هو قلة شيطنته أو عدم إلمامه بأسباب ارتفاع المكانة فى أعين التلاميذ ، وانما هو أمران : اولهما ان اولاد حى البوسته المطلعين على الامور فى تلك المناحى كثر يقف فى طليعتهم محمود قرشلى والزروقان . ولو ان مصطفى روى علينا من الاحداث الجسام مالم يتفق معهم على روايته لربما كذبتة اعينهم والسنتهم ولصار بفضل ذلك اضحوكة بين الناس . وثانيهما ان مصطفى كان تلميذاً كثير الضحك حتى فى المواقف الحازمة التى تحتاج لشيء من «صرة الوش» وتغيير نبرات الصوت بما يتماشى وروح الحدث الذى يرجى ان تحدث روايته الاثر المطلوب فى نفوس المستمعين . والضحك فى مثل هذه المواقف يفسد روعة الرواية ويوحى لسامعك بانك لاتجد ولاتتحرى الصدق فيما تقول وتفصل . وهكذا قصرت هاتان الخصلتان بمصطفى ، فهو لا يستطيع ان يوغل فى اختراع الوقائع والاحداث كما يشاء لان عليه من عيون اولاد حى البوسته الاخرين والسنتهم الحداد رقباء يخشى مكرهم وتخشى عاقبة الانفراد بالرواية دونهم ، وهو ليس بمقدوره - حتى وان خلا من هؤلاء المجلس - ان يسيطر على احساس مستمعيه بتأثير ما يروى عليهم لانه يفرق فى الضحك قبل ان يصل بك



الى نهاية الاسطورة او المعجزة . وذلك امر مخل يجافى الاصول التي عودنا عليها  
الأساطين اصحاب الشأن في هذه الفنون . وهي الاصول التي تسم الروايات بالصدق  
ويقبلها الصقور ويجلون رواتها . وان كان لمصطفى دعوي في الشيطنة فلربما كان  
مجالها ركوب البسكليت فقد كان حي البوسته قريباً من دكاكين العجلاتية ، وكان  
اولاده من اكثر التلاميذ ركوباً للعجلات ، واكثرهم انساً بصريير البدال تحركه القدمان  
في الاتجاه العكسي والبسكليت راكز علي الارض واليدان قابضتان علي الميزان في  
اعلان واضح عن قدرات هائلة علي الطيران من وجه الارض علي سرج هذه الدابة  
الحديدية المرعبة . وهذه هي بعينها الامور التي كانت تثير سخط مصباح الصادق  
وتقرز عبد الرحمن ككتباى حتى كادت كراهيتهما للعجلات والعجلاتية أن تشمل أولاد  
حي البوسته أنفسهم .

وكما صرت مع ثلة من التلاميذ الي خور طقت فقد صار مصطفى خوجلى الي  
وادى سيدنا والتقيته بعد ذلك زميل فصل واحد وداخلية واحدة في كلية الطب بجامعة  
الخرطوم . ولهذه الزمالة قصة اخري ربما تعرضنا لها اذا قدر لنا ان نبقي وان نسجل  
بعض لوافت من ذكريات الجامعة .

واما محمود زروق فقد كان ايضاً من اولاد فصل الاوائل في ام درمان الاميرية وهو  
هلالبي واضح الهوية ، لاينقص من هلالبيته الا انه كان ميالاً الي الاناقة «والنظاكة»  
التي لا تعجب الصقور عموماً ، وهم يعتبرون المغلاة فيها ضرباً من ضروب «الفيافة»  
وربما الابتذال . ولكن ربما فات عليهم ان محموداً لم يكن محباً للاناقة فحسب بل كان  
مطبوعاً عليها فهي احدى سجاياه التي هي ملازمة له . وقد ساعده علي ذلك قوام  
حسن ممشوق وجسم متناسق الاعضاء غير مكتنز ، لا هو بالنحافة التي تدنيه من  
الخفة «الفلكايبية» ولا هو بالسمنة التي تقارب بينه وبين «الزنفخة» . وهو تلميذ فيه رقة  
هي اشبه برقة الفنان الصيدخ منها برقة الشاعر او الاديب او الرسام . فما بين

الامرين بون شاسع وفرق جلي ان انت امعنت النظر واستصحتب الخيال ، واستنطقت الايحاءات التي ترد عليك وانت ترقب ما تري بالعين الفاحصة . فالشاعر او الاديب او الرسام يغني بالضرورة . وما الشعر ورقائق البيان والرسم إلاغناء صريح يطرب له من تنفتح عنده عيون الاسماع وتنشخذ عنده حاسة إدراك لطائف المعانى وترقي به سلامة الذوق الي اجتلاء تلك المشارف الرحاب . واما المغنى فقد يكون بلبلاً شجىً الصوت عذب الثبرات ولكنه قد يعجز عن ان يبدع او يخلق او يستوحى . ومن الناس من تجمعت له كلا الموهبتين ، فذلك هو الفنان المطبوع . ولقد كاد محمود زروق ان يجمع بين هاتين الخصلتين لولا ان شدة حرصه علي الاناقة والقيافة باعدت بينه وبين الفرشاة وسائر ادوات الابداع التى قد تلحق بيدك او ثيابك من البقع والاوشاب ما لا يحتمل مثله محمود!

وعلي الرغم من انه كان هلالياً ملك عليه حب فريق الهلال جميع اقطار نفسه الا قليلاً - وهو قد ابقى هذا القليل ليتسع لبقية وجدانياته وعشقياته الصرفة التي بلغت ذروتها علي ايام الجامعة - الا انه لم يكن كلفاً بالدافورى واللعب بكرة الشراب . وليس في ذلك من عجب ، لان الدافوري وكرة الشراب ومباريات كرة القدم في جامع الخليفة وما يصاحب هذه «المعمعات» عادة من مدافرة ومعافسة وشنكة وسائر انماط العنف ، كلها مظنة التعفر بالتراب والاحتكاك بالحصى واتساخ الجسد والثياب . ومحمود لايطبق مثل هذا «العفار» لانه ينال من اناقته وقد يعرضه للأذى الجسدى الذى يصيب دعائم الاناقة والقيافة في مقتل ، لانها تقوم علي سلامة الجسم وخلوه من أى اثر للبهذلة والخدوش والكدمات والاورام . ولهذه المحاذير لست اذكر ابدأ ان محموداً «تلب» معنا «حيطة» دار الرياضة او حاول تسلق ذلك الجدار التاريخى ذى الحجارة البارزة التى تعين المتسورين وتيسر مهمتهم احسن تيسير . غير ان الذين يفعلون ذلك لايبالون - عادة - باتساخ ملابسهم ولا بالعثرات والزلات والانزلاقات التى قد تنجم

عنها «ظلمات» دامية في الركبتين او الساقين او ما هو اشد من ذلك اذني . ولكن محموداً لايعرض نفسه لمثل هذه «البهدلة» . وهو علي اي حال لايطيق دخول دار الرياضة «شعب» حتي ولو كان ذلك بالطريق المشروع خلال الباب الجانبي الذي يلج منه الي داخل دار الرياضة فرسان الطابور الشعبي الطويل المألوف . ولن يبلغ هؤلاء الفتية الذين يتسلقون هذا الحائط الشاهق - وفي احسن حالات نجاحهم بعد جهد جهيد - الا هذه «المصاطب» الشعبية التي هو راغب عنها وزاهد فيها . فلماذا يزج بنفسه في مثل هذه «الشعبطات» المحفوفة بالمخاطر التي لاتنتهي به - علي احسن الفروض - الا الى هذه الاماكن الشعبية التي تعج بالناس والتي تنفر منها طبيعته وتأبأها ابسط قواعد الاستمساك بالاناقة وكمال حسن المظهر ؟ ان الاحتمالات المتعلقة بنتائج الشعبة على حيطه دار الرياضة كثيرة ، وليس من بينها الوصول الى الهدف المرجو بالسلامة التامة ، ولن يكون من بينها المحافظة علي مظهر القيافة كما يجب ان تكون . فانت لا تأمن منذ البداية ان ينهال علي ظهرك سوط السوارى ليلهب قفاك او مؤخرتك حتي قبل ان تشرع او تفلح في تثبيت قدمك علي اول حجر بارز في قاعدة الحائط . واذا سلمت من ذلك باعجوبة او فلتة حظ لان سياط السوارة منشغلة عنك بأخرين من امثالك فانك ماتزال كالمبتغى سلماً للسماء لان ارتفاع الحائط بالغ «علايل» الفضاء ولن تبلغ قمته الا بمشقة وصبر ومثابرة وشدة مراس . فاذا تمكنت من الصعود قليلاً وافلت من مدى سياط السوارة فانك لن تأمن ان تزل قدمك عند (صفوان عليه تراب فأصابه وابل) فتتخبط ركبتك او «ينملخ» كتفك او ينسلخ بعض جلدك او تهوى الى الارض فتتناوشك السياط من جديد . اما اذا وافتك المنة الالهية فبلغت قمة الحائط باعجوبة من الاعاجيب فالخير لك ان تبقى هناك على هاتيك الذرى لتتمكن من الاحاطة باللعب ومشاهدة المباراة على الاصول من عل . غير أنه ليس بمستبعد - وانت «مقنطر» بهذه الصورة - ان يحصبك بالحجارة او ماتيسر من وسائل

المناوشة وتهديد الامن الشخصى بعض الصبية الذين لم يتالوا ماثلت حسداً من عند  
 انفسهم وعملاً بقاعدة «يا فيها يا اطفياها» . وذلك لان هؤلاء العفاريت لا يهون عليهم -  
 وقد عجزوا او اعجزوا عن اللحاق بك - ان يدعوك تنعم بثمار مهارتك التى بلغتك  
 المقصود ، بل ان أرف ما يمكن ان يتبعوه معك هو سياسة «سهر الجداد ولانومو» .  
 ولذلك فأنت لست فى مأمن وإن تنعم بمشاهدة المباراة فى اغلب منعطفاتها لانك لا تملك  
 الا ان تتلفت يمناً ويسرة وقد تدير ظهرك لما شقيت من اجل مشاهدته حتى ترى بعينيك  
 وتتقى بيدك او باخفاء وجهك ما تتراشقك به هذه العفاريت الادمية الصغيرة من  
 الحصباء والحجارة والحصى . وانت مضطر للبقاء على هذه الحالة اذا اردت ان تتمتع  
 من وقت لآخر بأقصى درجات الرؤية . وذلك لانك اذا «تلبت» من قمة هذا السور  
 التاريخى الى الداخل لكى تنجو من هذا «الطقيع» الذى لا بد ان يكون قد نغص عليك  
 حياتك فقد تهبط علي كتف شخص غافل منهمك فى متابعة المباراة ، فاذا افاق من  
 «الخلعة» وهول المفاجأة لم يتردد في ان يفرى ظهره ووجهك بأقصى انواع «ام دلوم»  
 واشد انماط الكفوف واقذع انواع الشتائم . اما اذا سلمت من ذلك وسقطت علي  
 الارض الصلبة فربما اصبت بفكك عند مفصل «عضم الشيطان» او كسر في  
 «عضم القنقوس» او أى اذى من هذا القبيل . اما اذا انجاك الله من كل هذه المخاطر  
 التى قل ان ينجو منها احد ، فاستقمت بعد سقطتك واقفاً على قدميك فانك ستجد ان  
 اغلب «الفراجة» من الجمهور هم ابلغ منك طولاً ويحجبون عنك الرؤية ، وان الذين هم  
 في طول قامتك - سواء كانوا «بعيوات» او صبية صغاراً مثلك - يتدافعونك من جهة  
 الى جهة حتى لاتحول دونهم ودون مشاهدة المباراة التى دفع كل منهم ثلاثة قروش لكى  
 يدخلها دخولاً مشروعاً ليس هو مثل دخورك . فاذا حاولت ان تقترب - بعد مدافرة  
 شديدة من جهة «القون» او تتعدى السلك الشائك الذى يفصل بين حرم الميدان  
 ومصاطب المشاهدين فان عين البوليس بالمرصاد ، وإن تنجو من كفين او ثلاثة ، او

لبعات متتاليات اقل ما يتخللها : يا ابن الكلب اطلع من هنا ، انعل ابو اهلك . واذا عدت القهقري وانحشرت مرة اخرى وسط ذلك الزحام الشعبي ، ثم حاولت ان «تتشابي» وتتطاول على امشاط قدميك لتري شيئاً من المباراة فان الايدي والاسنة لا بد ان تتقاذفك دون ادنى ريب : يا ود ما تزح كدة ولاكدة . . انعل ابو خاشك . . ياخي عاوز تجننا مالك ؟ ومثل هذه اللعنات الاخيرة اكثر رحمة من غيرها ، لانها على كل حال اقل درجة فى الايذاء من نسبتك الى الكلب او الحرام ، او النيل من امك وابيك وجميع من هم على ظهر الارض او بباطنها من قراباتك .

فمال محمود زروق بكل هذا العنت والعذاب ، وهو الذى اذا علقت بجلابيته اثاره من غبار اشقاه ذلك اشد الشقاء حتى يتاح له ارتداء اخرى نظيفة تنضو عن كاهله هذه الاوساخ والأدران ! لذلك فليس غريباً ان يدير محمود ظهره لامثال هذه المغامرات التى كان اترابه مولعين بها وهو بها برم ضائق الصدر لا يمنعه من الجهر برايه الصريح فيها الا ان يعاب عليه او تظن به الظنون . فهو لا يمكن ان يعرض نفسه لهذه التعاسات ابدأ ولن يفكر مجرد تفكير فى «التشعبط» على سور دار الرياضة . وحتى اذا كان لابد له من دخول دار الرياضة فانه لن يدخلها «شعب» ابدأ ، وأنا لست ادري ان كان محمود يدخل السينما شعب ، ولكنى ارجح انه لا يفعل ذلك لانه امر محفوف بشتى انواع المضايقات ايضاً . فانك ان وجدت مكاناً مناسباً فى أى كنبه من كنبات الشعب الخشبية نوات المسامير النائثة التى تقد الثياب وربما تصل الى لحم الجسم وعصبه ، فانك لست فى مأمن من قشر التسالى الذى يساقطه عليك جيرانك من خلف او على جنبك . واذا اوشك بطل الفيلم - والفيلم عادة كاويوى امريكانى - ان يسقط من شاهق ، او اذا كاد «الخائن» ان يودى بحياته على حين غفلة منه ، فانك لا تأمن ان ينفعل من خلك «ويتف» «السفة» على ظهرك او رقبته او راسك او وجهك - اذا حانت

منك التفاتة في الوقت المناسب - او يدك ، او ان يصفحك بيده او يركلك بقدمه في محاولة ومروءة كريمة منه للتدخل الفعال لصالح البطل وحمايته من غدر الأقدار ومؤامرات الخونة الأشرار . فما قيمة الفيلم إذا سقط البطل بالفعل ومات او تعرض للاغتيال على يد الخائن الجبان الذى تتضاعل برئيلته المصنوعة من القش امام كسكته البطل التى تستقر على راسه كتاج الملك ، ويبدو حصانه السمين المترهل امام فرس البطل المنجرد الوثاب كبغلة عجوز هدها الزمن واعياها المسير ، ولاسيبيل الى المقارنة بين بندقيته الخربة المهترئة التى تهتز وترتجف فى يديه وبين مسدس البطل ذى الطلقات السريعة التى تحصد ارواح اعدائه حصداً فى لحظات قليلة دون ان تخطى الهدف ولو فى مرة واحدة ؟ ما الفائدة اذا مات هذا البطل المغوار او قتل ؟ هل دفع هذا المسكين المنفعل - المحق فى انفعاله - ثلاثة قروش بالتمام والكمال ثمناً لتذكرة السينما ليجد ان البطل واحد «فشوش» ؟ وكيف يستطيع الخائن ان يقتل البطل ؟ وهل يكون البطل «هاملاً» لهذه الدرجة بحيث يوشك ان يموت ولما يمض على بداية الفيلم الا زمن يسير ؟ واين صاحب البطل الذى يأتى عادة فى اللحظة المناسبة لينذره ويوقظ انتباهه للخطر المحدق ، فاذا بالبطل يفعل الاعاجيب سواء كان ذلك بالبنية المجردة الميته او بالمسدس الذى لاتنبو نيرانه المتدافعة القاتلة عن الهدف ابدأ بحال من الاحوال ؟ فالمسكين له حق اذا بصق عليك او «جلبلك» بالتмбаك او رفسك فى بطنك دون قصد ظاهر ، او لكزك او لطمك او صفعك ، لانه ينافح عن الحق او عن الذى يجب ان يكون ، ولانه لم يدفع هذه القروش الثلاث ليشهد مصرع البطل وانتكاس راية الشرعية الكاويوية .

وانت ربما ساعدك الحظ فجلست علي كنية في «الشعب» بعيداً عن مثل هذا المنفعل الهائج ولكن قريباً من معجب بالبطل متزن لا يصفع جاره ولا « يلبع » من هو امامه فى مثل هذه المواقف الحرجة التى يتعرض لها البطل ، ولا يبصق التмбаك ولا غيره فى رقاب الناس ووجوههم . ولكنه على أى حال لا يرضى ابدأ بهزيمة البطل ، ويؤذيه ان يصاب

البطل بأى نوع من انواع «المرمطة» امام الناس . ولست انسى اننا دخلنا مرة السينما الوطنية (الخرطوم) «شعب» - ولم يكن من بيننا محمود زروق بالطبع لما علمته من امره ونحن طلبة فى كلية الطب بجامعة الخرطوم لنشهد احد افلام الكاوبويات الشهيرة . انذاك . ورغم انى لا اذكر الان اسم الفيلم ولا اذكر ان كان بطله هو همقرى بوقارديت او روبرت ميتشام او جارى كوبر ، الا اننى اذكر جيداً ان كتبات الشعب كانت تغص بالرواد وان صيحات الاعجاب بالبطل كانت تتعالى من كل فج من فجاج ذلك الوسط الشعبى ، حتى بلغنا موضعاً من الفيلم حوصر فيه البطل حصاراً مطبقاً وهو على سطح عمارة شاهقة العلا . وحمل عليه «الخائن» واصحاب الخائن حتى وقف على حافة السطح بقدم واحدة والاخرى فى الهواء ، وبات سقوطه من تلك الاعالى امرأ محققاً ليس وراءه الا الهلاك المحتوم . وفى تلك اللحظة التى بلغت فيها قلوب المشاهدين الحناجر وانشدت اعصابهم وانتصب كثير منهم قياماً فى احتجاج صامت وشيك الانفجار - فى تلك اللحظة المرعبة القاسية ، اذا بشاشة السينما تظلم فجأة ، ربما لانقطاع التيار الكهربائى ، رغم أن انقطاع الكهرباء كان امرأ نادر الحدوث فى تلك الأزمنة السحيقة بل لعله لم يحدث إطلاقاً ، على نقيض ماصرنا إليه فى هذه الأزمنة الماحقة التى كادت «القطوعات» المميتة فيها أن تشمل نفس الانسان وتيار الحياة فيه . ورغم أن إظلام الشاشة لم يدم إلا دقائق معدودة ثم عادت إليها الحياة ، إلا أننا استمعنا فى خلال هذه الدقائق المعدودة إلى خطبة بليغة ومؤثرة من أحد رواد كتبات الشعب . وقف هذا الرجل الغيور يصلح من وضع عمامته بيده اليسرى ويشير الى جماهير المشاهدين بيميناه فى شئ من العصبية رغم ان وجهه كان يبدو فى ضوء القمر هادئاً بعض هدوء ، فالقى على مسامعنا هذه الخطبة المطمئنة التى جاء فيما جاء فيها قوله : يا جماعة ماتخافوا . على الطلاق البطل منصور ، لابقع ولا حاجة . حرم انا الفيلم دا شايفو فى كوستى . البطل منصور والله حيجه صاحبو وحيكتلو الجماعة ديل

كلهم ما يخلو فيهم طافى النار . ابشروا بالخير ، البطل ما بقع . . . الى غير ذلك من الانبياء السارة التي لا اشك في انها بلغت مواضع الرضا من انفس المشاهدين في كتب «الشعب» ونزلت على عواطفهم المشبوبة برداً وسلاماً . وقد صدق الرجل ايما صدق . فما هي الا لحظات حتى استانفنا مشاهدة القليم فاذا بصاحب البطل يبرز من وراء استار الغيب واذا بالبطل يلتف من حول اعدائه الكثر بحركة ليست في مقدور البشر واذا به يبعث باعدائه الواحد تلو الاخر من ذلك العلو الشاهق الى الهلاك المحقق في مكان سحيق . ولست ادري ان كان محمود زروق في تلك اللحظات في «اللوج» او الدرجة الاولى من مقاعد السينما ، ولكنى اجزم بانه لم يخرج كما خرجنا نحن ننفض عن ملابسنا قشر التسالى واغشية الفول الدمس وبقايا الطرشى ، وقد علقت بها ويالايدى والاعناق بقع لا يخطئ احد ان يشم فيها رائحة الصعوط . ولو ان محموداً اصاب شيئاً من ذلك لمات في حينه من هول وقع المصاب . افلا ترى معى انه محق في كل ما كان يذهب اليه ؟

لقد التقيت بمحمود زروق من بعد ام درمان الاميرية في خور طقت . فكان - وهو لا يزال - من اعز اصدقائى . وقد باعد بينى وبينه في اول احيانا فى خور طقت شأنان : اولهما هذه الاناقة التي اعيتنى مجاراتها ففررت من وجهها الى بساطة احمد وادى حسن وعلى محبوب ونعيم الله البشارى ويخارى محمود وغيرهم . وثانيهما كلف محمود زروق بالزعامة وحبه وتصديه للقيادة في امور الطلاب . لقد كانت نفسى تنفر من الدعاوى الكبيرة والصغيرة علي السواء ، وترى في التواضع والترابية الحقيقية معنى من ارفع المعانى وقيمة من انبل القيم . ولكن ذلك لم يحل بينى وبين ود محمود وصداقته ، وان كانت بعض تصرفاته توحى اليك بانه يضمّر نوعاً من التعالى واحساساً بالتفوق على اقرانه لم اجد له مبرراً مقنعاً في يوم من الايام . على ان محموداً كان - والحق يقال - من اوائل المبشرين بالافكار الجديدة فى خور طقت .



وربما ظن البعض انه «عامل خالقه» فكان ذلك هو مبعث ما دعاهم لوصف مسلكه بالتمعالي والعجب والكبر ، وفى ذلك ظلم على محمود . غير انه لم يجفل به كثيراً بل سدر فيما تراعى له انه هدى وان رأى غيره انه غى ، فأتبع سبباً ، ثم اتبع سبباً . او قل سار مع ما جلته له بصيرته وظنه من صحائح الامور ، ومع ما راقه من التماس كبريات القضايا والتصدى لقيادتها ، وان كان ذلك من وراء حجاب . فقد اوتى محمود من الذكاء ما عصمه من مقارفة المخاطر دون روية ، وحبب اليه من اسباب الدعة وخفض العيش ما راض من جموح الخيال الذى كثيراً ما يعترى الفتية في تلك الاعمار الحاملة بشتى انواع الاحلام الوردية . فصار يقدم رجلاً ويؤخر اخرى حتى انتهى به الامر - رغم البيقظة والحذر - الى الفصل من خور طقت . فالتقينا من بعد ذلك فى كلية الطب بجامعة الخرطوم . ولعل الذى تجدر اليه الاشارة هنا هو ان الفصل من المدرسة لم يكن بقدر الجرم بحال من الاحوال . وما الجرم هنا الا ما كان يسمى بمخالفة القوانين المدرسية . وما هذه التسمية سوى اطار فضفاض ليس له حدود معلومة ولا خطوط صفراء يعتد بها . فالشقى من وقع فى الاحبولة بلا يد او كراع ، وقليل ما هم . والسعيد من قارف الجرم ثم نجا من مغبة شروره ، وكثير ما هم . ولو كان الفصل يجرى بمقياس دقيق لمخالفة قوانين المدرسة او الخروج عليها ، لما تمكن كاتب هذه السطور من الجلوس لامتحانات شهادة كمبردج فى تلك الربوع النائية الحانية والنجاح فيها مثل عشرات آخرين ، ولما ظل ابو الحسوس والكبتل وبشرى عمر احمد وغيرهم تلامذة فيها حتى النهاية . فلقد اجتث سيف الفصل اقواماً كانوا اشد براءة من ذنب يوسف المفتري عليه ، وبقي فى المدرسة حتى نهاية الشوط الدراسى ارتال من العفاريث الاشقياء كانوا اكثر استهانة بقوانين المدرسة من استهانة اخوة يوسف بوعدهم لأبيهم النبى . ولايظن احد انى اندد بادارة المدرسة فى تلك العهود . ولكن اذا حدثت تجاوزات فلا بد لها من متجاوزين ، ولا بد من انزال العقوبة بهم . واذا

كان السؤال من هم ؟ فالجواب عليه هو ان «الحريف» لايرى ، وغيره ممن لايصطحب الحذر قد تلتقطه اعين الرادارات البشرية في موطن الحدث علي غفلة منه - وربما وهو برىء تماماً . فيشقى هذا دون جرم حقيقي منه ، ويسعد غيره على حساب شقائه . وما كان ليصيبك فلن يخطئك بريئاً كنت ام مخالطاً لخطيئة . وقد يكون خيرك ونفحك فيما لا تريد ، وشرك وضررك فيما تحرص عليه ، (والله يعلم وانتم لاتعلمون) .

ورغم ان عبداللطيف زروق ( او عوض الله وهو اسمه ايضاً) هو ابن عم محمود واحد اترابه واقرانه الا انه يختلف عن محمود من عدة اوجه ويمكن القول بان عبد اللطيف زروق كان تلميذاً شعيباً في الوقت الذي كان فيه محمود زروق تلميذاً صفوياً . واذا كان محمود قد وصف من بعض زملائه «بالقرضمة» - على غير دقة منهم وعلى غير فهم صحيح لحالته - فان عبد اللطيف قد وصف بالشعبية والبساطة . وليس صحيحاً انه لم يكن يحب القيافة والاناقة مثل محمود ، بل من الواضح انه كان يجتهد في هذين الامرين ما وسعه الاجتهاد ، ولكن مشاغله الاخرى كانت تلهيه في اغلب الاحيان عن ان يبلغ باجتهاده شاوفاً عالياً في هذين المجالين . وقد تقعد به هذه المشاغل عن بلوغ درجة الوسطية التي كان يحوم حولها - دون ان يتعداها - اغلب التلاميذ . فهو كثير الكلام مع كل زملائه الذين يلقاهم وهو شديد الحركة موفور الحيوية ، يفضل الحديث في اغلب احيانه عن «الكورة» ويتمثل في مخيلته أساطينها ورموزها المشهود لهم بحسن البلاء في مضمارها ، بل هو يكثر من محاولات تقليدهم ويكاد يزعم احياناً انه يجيد ذلك . وقد تبلغ محاولاته للالتيان ببعض اعاجيبهم الكروية نروتها اثناء احدى المباريات التي كنا نجريها في تلك الميادين الرابضة غربي سور العمارة ، ولكنه كثيراً ما يخفق في تحقيق مراده ويقصر عن إحداث الاثر الذي يرمى الى تثبيته في اذهان التلاميذ . فاذا حاول ان يلعب الكرة «باكورد» بتلك القفزة التي تبدأ بالقدم اليسرى في الهواء ثم تردف باليمنى وقد لامست الكرة واصابتها وحولت

مسارها دون ان تخطى؛ فانه قليلاً ما يحسن التوقيت ، وكثيراً «مايجلى الكورة» وربما «هندسها» او ارتطمت براسه او مرت من بين قدميه دون ان تمس ايا منها بخير او بسوء ، فيسقط عوض الله علي الارض وهو يلحق مرارة اخفاقه . واذا اراد ان يقلد باصات الدهاقنة من «اللعيبة» - وهو دأبه ليثبت «حرفنته» - فقلما تبلغ الكرة المدى الذى يريد ، فتراه يمسح على راسه بيده اليسرى بحركة عصبية تجمع بين الحسرة والاحتجاج . اما اذا انفرد بحارس المرمى وغض «الشاهد» الطرف عن تسله الظاهر واراد ان يصوب او يسدد فان الكرة لا يخلو مصيرها من احد امرين : اما ان تستقر في يدى الحارس صيداً سهلاً لاقتناص ، وإما ان تعلق عارضة المرمى بما لا يقل عن اربعة امتار لتستقر من خلفه بين احضان الرمال . فيتعالى خليط من الاصوات التى تجمع بين السخرية والغضب والضحك والاسى علي ضياع اصابة محققة اهدرتها قدم عوض الله لانه - فى نظر البعض - يحاول ان يحاكي غيره من المهرة بقدمين ليستاهما من المهارة في شئ . ولقد ابان بعض الخبراء والعارفين ببواطن الامور ان الذى يقعد بعوض الله عن تحقيق بغياته الكروية فى الميدان ويجعل الاخفاق ملازماً له فى اغلب احيانه انما هو «دقشة» من الاسباب . أولها انه ضعيف الجسم والاتيان بمثل هذه المهارات يحتاج لقوة واقدام وسواعد مفتولة . وثانيها ان عوض الله لم يتدرب على اللعب على ارض رملية موحلة ، فهو يقتلع قدميه منها اقتلاعاً ولاينجو من «فرناغة» حتى تغوص قدمه فى اخرى . وثالثها انه مولع «بالمحاورة» وهى ما أطلق عليه بعض الخبثاء اسم «الاستعراض» الذى من نتائجه المؤكدة تضييع الفرص السانحة واهدارها دون طائل .

ولكن عوض الله - على الرغم من كل ذلك - كان تلميذاً محبوباً كثير الاصدقاء ، وربما كان السبب الغالب في هذه المحبوبة هو «شعبيته» التى تميز بها واستطاع بفضلها ان يخالط الناس دون ادنى تحفظ . فهو لايعرف «القرضمة» الا فى ميدان

الكرة عندما يحاول ان يأتى بما كان يظن ان غيره عاجز عنه . ولعله - ويعد تجاربه المريرة - قد ادرك ان «القرضمة» حيثما كان مجالها فهي لا تجلب لصاحبها الا الخسران ولا تقابل ممن تمارس عليه او فى حضرته الا بالهزء والسخرية والازدراء . ولا عجب فى ذلك ، فقد كانت من الاغنيات الشعبية السائدة فى تلك الازمنة : «تزدرينى . . . انا بزديك» ! ولقد ادرك عوض الله على كل حال ان القرضمة بضاعة مزجاة ، وهى نعت بغيض حاول البعض الصاقه باولاد البحر عموماً وان كانوا يقصدون به اولاد ام درمان على وجه الخصوص ، فظهر لهم جلياً من مسلك عوض الله ورفاقه ان ذلك الاتهام لم يكن الا رجماً بالغيب وتبدى لهم ان بعض الظن اثم فاجتنبوه لعلمهم يفلحون . ولقد زاد من محبتهم لعوض الله انه طيب لا يضمر سوءاً وهو يرسل نفسه على سجيتهما ويجهر بما يعن له من حديث وان كان اكثر ذلك فى عوالم الكرة ويطولاتها والثناء على نجومها اللامعة وبعض ماخذ على الحكم ورجلى الخط لا يخلو منها وصفه لاي مباراة شهداها فى دار الرياضة بام درمان وبخصوص اشد ان كانت تلك المباراة بين فريقى الهلال والمريخ . وعندما يتحدث اليك عوض الله فى مثل هذه الشؤون تكتسب احاديثه حرارة وحماسة مشبوبة وتتوالى كلماته سراعاً حتى ليصعب عليك تبين بعضها فى كثير من الاحيان . ولم يكن ذلك لشدة اندفاعه فى الحديث فحسب وانما لطريقته التى تميز بها فى التعامل مع مخارج الحروف حتى ليخيل اليك ان بعضها يندغم فى بعض اندغاماً يغيب عنك فى متنه المعنى المراد . ولن تخطئ وانك تستمع اليه تلك «اللجنة» الخفية التى تضى على نطقه نكهة مستطرفة . فهى «لجنة» لا تخلو من طلاوة ولطف . وهى وان كانت مضحكة بعض الشيء الا انها محببة مرضى عنها لانها ليست مصطنعة وانما هى طبيعية وسائلة بعفوية ورقة . وغيرها مما قد يصطنع ويتكلف لا يغدو الا مدعاة للسخرية ومجلبة للاستنكار والامتعاض . إذأ كانت «لجنة» عوض الله مألوفة ومستساغة ولذلك وقعت من أنفوس زملائه موقع الرضا والقبول . وقد اعانت على

طلاوة الحديث وتشقيق معانية تلك المادة الغزيرة التي يختزنها في ذاكرته وهي نابعة من تشييعه لفريق الهلال تشيعاً يعلنه دوماً ولا يخفيه، وكثيراً ما يفاخر به وهو مستهام دفاق المشاعر مشبوب الوجدان. وقد بلغ من فطنته وعذوبة روحه ورقته انه -حتى عندما يكون في اعالي درجات حماسه - لا يتعرض الى المعسكرات الكروية الاخرى بسوء ، وانما يعبر عن احساسه ومشاعره وحبه لفريق الهلال بصدق وعفوية وتلقائيه بسيطة لا تثير الخصوم ، وان تركت في حلقهم غصة ، ولا تدعو انصار فريق الهلال من زملائه الى عراك مفتعل مع غيرهم ، وان اعجبهم وروت ظمأ نفوسهم إلى الاستزادة من سرد مآثر الهلال وترديدها على اذان السامعين أيأ كان ولاؤهم ومتعلق هيامهم الكروي .

لقد ظل عوض الله زروق على عشقه الأصيل لفريق الهلال طوال الفترة القصيرة التي قضاها معنا بخور طقت . ولم تفارقه شعبيته هناك ابداً رغم علم الجميع انه من اولاد ام درمان ومن اشد احيائها موراً بالحياة واصطخاباً بالنشاط ، واكثرها قرباً من مواقع «الحضارة» والزحام . وآية ذلك أن صقور داخلية ودتكوتك جميعهم قد أحبوه واتخذوه خليلاً ، وفي طبيعتهم الشريف الصادق محمد الصادق والشريف احمد حسب الرسول الكوقلى (زعيم الاشراف بلا منازع) وعبد الوهاب ريس وجعفر عطا المنان الاشعث وامين ميرغنى . وحتى الزعيم الطيب احمد حميدة - وهو باك القيامة وقائد فريق الخوارج وصقر داخلية ود زايد المبايع - كان يجد في قلبه متسعاً لعوض الله زروق ، رغم ازدحام ذلك القلب الرحب الارحاء بقضايا فريق الخوارج واللوان الوجبات في الصفرة وهي غرفة الطعام ، والمكانة «الوهيطة» العالية التي يحتلها منه «هجو» رئيس الطهاة ، وخاصة ابان مناسبات السبشل ميل (Special Meal) .

ولقد كان من آثار محبة اولئك الصقور لعوض الله زروق ان القوا عليه بردة الشرف وضموه الى قائمة الاشراف في وضع النهار ، بتزكية خاصة من الشريف الكوقلى والشريف الصادق ، في الوقت الذي لم تشمل فيه هذه القائمة كاتب هذه السطور في

نظرهم ، رغم انه كان يقطن معهم في عنبر واحد في داخلية ود تكتوك . ولقد بقى كاتب هذه السطور في قائمة الانتظار اماداً طويلة حتى تحرى كل من الشريف الكوئلى والشريف الصادق الرؤية في شجرة الانساب ، وحصل على تزكية كريمة من امين ميرغنى ، فالحقوا اسمه بذيول القائمة الاصلية المجازة فى عهود تلت تلك الايام الغر الضواحك بأزمان .

وانا لست ادري ان كان عوض الله زروق شريفاً سليل اشراف بحق ، ام ان ادخاله في تلك الزمرة المعدودة المنتقاة قد كان من تجاوزات الهوى ومفارقات الاستلطاف . ولكن منذ الذى يمكنه ان يعترض على قرار شريفين سلم لهما الناس بحق الفتوى في مثل هذه الامور دون الرجوع الى وثائق ثبوتية او شجرة نسب لا يأتيها الباطل من بين افرعها وسوقها واراقها ؟ ولو ان هذه القائمة احتوت على اسماء ابو الحسوس وميكادو كوكو وعلى ابراهيم وغيرهم من الذين لا يحفلون بمثل هذه الدعاوى ، لما اثار ذلك ادنى احتجاج لان الشريفين المذكورين هما صاحبا الامر وهما اللذان يصدران هذه الصكوك الشرفية بعد المشاورات التى يجريانها عادة مع اعضاء مجلسهما الاخرين ، فاذا اصدر القرار فهو ملزم واجب الاتباع . وكيف لى انا مثلاً ان اعترض على غياب اسمى من القائمة وامامى يوسف محمد الصادق شقيق الشريف الصادق ، الذى لم يلج اسمه الى القائمة الشريفة الا باخرة ، وبعد لى وتكرار التماس «ومناكفة» «وخراج روح» ؟ نعم لقد فارقنا الشريف الصادق بعد قليل وكذلك الشريف الكوئلى ولكن التعاليم بقيت ثابتة ، ومن لم يجزه هذان الشريهان فلا سبيل له الى القائمة ، ومن لم يحصل على موافقتهم وترشيحهما له لهذا المقام العالى فهو ليس بشريف فى نظر ذلك المجتمع المدرسى وان اتى بوثائق تؤكد نسبه الى الحسن العسكرى او السبطين القميرين النيرين . ولقد عجبنا كيف خلت قائمة الشرف لفترة طويلة من اسم يوسف محمد الصادق ، وكيف ابطأت عليه بردة الشرف وهو الشقيق الأصغر لثانى اثنين ليس

فوقهما من سلطة تدبير هذه الشؤون . ويذا يوسف الصادق لامد طويل وهو ينتظر  
الفرج فى احتجاج صامت وكل ضحكاته وتقاطيع وجهه ناطقة ابلغ النطق بجملته  
المعاني التى اشتملت عليها دخيلة نفس ابيه الطيب وهى تنشد :

لا بقومى شرفت بل شرفوا بى	وينفسى فخرت لا بجودى
ويهم فخر كل من نطق الضاد	وعوذ الجانى وغوث الطريد
ان اكن معجباً فعجب عجيب	لم يجد فوق نفسه من مزيد
انا ترب الندى ورب القوافى	وسمام العدا وغيط الحسود
انا فى امة تداركها الله	غريب كصالح فى ثمود

ولم يكن يوسف محمد الصادق بمبدع للقوافى ، ولم يكن نبياً او مدعى نبوة ، وما  
كان رهطه من ثمود ، ولكنه الاحساس بالظلم ، يجى رد الفعل عليه اكثر من  
مضاعف ، وهو الحرمان من الحقوق المشروعة اذا ابتلى به الانسان توهمت نفسه له  
حقوقاً لم يكن ليتطلع اليها لولا غبن النكران والاستلاب !

ومهما يكن من امر فقد استحق عوض الله زروق هذا الدخول المبكر فى قائمة  
الاشراف لانه كان يتمتع بخلال كريمة من بينها ذلك التواضع الحكيم الذى امله لان  
يكون «حواراً» مخلصاً ووفياً لجموعة الاشراف . وقد يكون شريفاً بالسلالة ، وقد لا  
يكون ، فهذه امور يعرفها العارفون . ومن لم يعجبه ذلك فلا أقل من ان يتمثل قول  
القائل :

ملك الملوك اذا وهب لا تسألن عن السبب

فاذا اراد الله لك الخير حببك الى انفس هؤلاء الاشراف ، فصرت شريفاً بين  
الناس . ولا يظن احد ان الشريف الكوكلى والشريف الصادق مغرضان او انهما يقتلان  
من شأن احد بتغيب اسمه عن هذه القائمة التى لا اعلم ان احداً قد اطلع عليها بالفعل  
فهما من اطيب من التقيت من الخلائق وقد اصفيا علي حياتنا بهذه الامور والمفارقات

بهجة وانماطاً من الطرائف والسرور ولم تكن احاديثهما حول هذه الشؤون فى حقيقتها  
الا رسائل مرح محض ترقرق الندى على اوراق تلك الحياة الزاهية التى مضت ولن  
تعود :

رسائل من عفو الكلام كأنها حواشى عيون فى الطروس عذاب  
هى المحض لايشقى به ابن تميمه غداءً ، ولايشقى به ابن خضاب

### **محمود قرشلى وبخيت مكى وثلة من الآخرين :**

لعلّ من الممكن القول بأن محمود محمد حسن قرشلى كان من صقور فصل  
«الاولئ» ، على الرغم من انه كان يبدو حمائمى النزعة والمظهر على ايام ام درمان  
الاميرية . والذى يرجح الزعم القائل بأنه كان من الصقور هو ما صار اليه امره فى  
خور طقت ، ولم يكن الفارق الزمنى كبيراً . فقد برز فى خور طقت بروزاً لا يرب فيه  
واكتسب اجنحة ضخاماً ومخالب حداداً ومنقاراً لا يشبه الحمائم فى شئ . وانت حتى  
لوكنت من المؤمنين بنظرية النشوء والتطور الدارونية قد يصعب عليك ان تستسيغ  
امكانية تحول الحمامة الوديعه فى بضع سنين الى فصيلة البوازى لون مرور بمراحل  
متوسطة . ولذلك صار الترجيح الذى ذهبنا اليه . ومحمود ايضاً من اولاد حى البوسنة  
فى ام درمان ، ولكنه لم يكن صاحب دعوى عريضة كما كان غيره من اولاد ذلك  
الحى . فاحتر فى امره الكثيرون ، منهم من نسبه الى الصقور ومنهم من نسبه الى  
الحمائم . وحقيقة الامر انه كان يجمع ويظهر من صفات القبيلين ما يدعك فى حيرة  
تصح معها نسبتك له لاي من الفصيلين او النوعين . وهذا من دهاء محمود واكتمال  
مقدراته الماكرة منذ اويقات مبكرة .

وبالرغم من «حمرته» الظاهرة - والحمره هنا اشارة الي ميل لون البشرة للبياض -  
فانه لم يكن «حلبياً» فى نظر محمد العوض ولا غيره من علماء التصنيف البشرى  
الذين برعوا فى هذا الفن واجادوا ظواهره وخفاياه اجادة الخبير العليم بترتيب الناس



وتقسيمهم وتمييزهم حسب السحنات . وهذا سر قد حيرنى كثيراً لان قرشلى - معنى ومظهراً - كان من السهل المسور تصنيفه - ان انت اتبعت القاعدة المعروفة المألوفة السائدة . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . وقد روى بعض الخبثاء - ولست اذكر من الذى تولى كبر هذه الرواية منهم على وجه التحديد - ان جماعة قرشلى كانت لهم راية فى المهديّة بقيادة امير من بينهم ، وان بعض الانصار من قبائل العرب فى غرب السودان كانوا يدعونهم «عيال غرنجال» . وغرنجال هذه بالطبع تصحيف لفظي لكلمة قرشلى التى اجهل اصلها تماماً ولا يعلمه فى رايى الابارى النسم . ولعل هذا التصحيف مقصود فى نفسه ، وهو ينم عن شئ غير قليل من الاستهانة ان صح فهمي لبعض تعابير اهلنا فى الغرب الحبيب . وربما لم يكن مقصوداً ، وانما هو مبلغ العلم بصحة الاسم او مايقاربها . فنحن فى السودان عموماً تقريبيون فى تعابيرنا وتصوراتنا ، ولا نميل كثيراً إلى الدقة ولا نتحراها كل التحرى لأن التدقيق فى الامور ليس فرض عين عندنا وإنما هو - على أحسن الاحتمالات - فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين . وهو فى كثير من الاحيان ليس فرضاً علي الاطلاق ، بل هو فى بعض الاحيان منكر ومكروه . وليس ادل علي ذلك من ما تسمعه احياناً في معرض التعليق الاستنكارى : يعنى خلاص الود خواجة ما بلعب في المواعيد . . . او ياخى تعال بعد شوية ، مع ان القائل بذلك يدري تماماً ان معنى «شوية» هذه ومداهها لا يعلمه الا علام الغيوب . . . او تعال بعد يومين تلاته . . . او ما شابه ذلك . وهو مجافاة ظاهرة للتدقيق ، واحتماء بين فى متاهات سراديب التقريب والتباعد عن الالتزام الدقيق الذى ربما استعصى الوفاء به . ولقد فسر بعض المتفائلين هذه الظاهرة بأنها دليل على حب اهلنا الطيبين للحرية واجتلاء الرحاب الواسعة للحركة والاضطراب فى الحياة . والله اعلم بالصواب . غير انى - بعد هذا الاستطراد المخل الذى هو ايضاً من بعض طباعنا - اميل الى القول بأن عبارة «عيال غرنجال» انما صممت عن قصد لتوحى الى

السامع بأن هذه المجموعة - وان كانت تقف مع المصممين فى خندق واحد - تختلف عنهم بعض اختلاف لايمكن تجاهله ، خاصة اذا اخذنا فى الاعتبار غرابة الاسم الصحيح الاصلى وما تلقيه هذه الغرابة فى خلد السامع من ان هؤلاء الاقوام انما جاوا من كوكب آخر غير هذا الكوكب الذى نعيش على ظهره . وهم بهذا الوصف يشكلون بالنسبة للبقرارى الذى قدم الى البقعة من اطراف كردفان النائية او دارفور البعيدة فئة من الناس ينبغى التعامل معها بشئ من الحذر . ولذلك قال بعض الخبثاء ان البقرارى تمنى جهرة على مسامع الناس وامام اعينهم ان لوكان فى مقدوره ان يستأنن قائده فى السماح لهم بتشحيذ الاسنة والصورم فى «عيال غرنجال» ريثما يلتحمون بجيوش العدو القادم اليهم من الشمال ، وذلك حتى تكون تلك الحراب والسيوف اشد مضاً واقدر على الحاق الهزيمة بالخواجات الحقيقيين ! وازضاف هؤلاء القوم الخبثاء أن أحد المجاهدين من البقارة عثر على واحد من «عيال غرنجال» وهو يختبئ خلف شجيرة صغيرة فقال له ما معناه : او تنكل عن القتال ؟ وفوجئ المجاهد «الغرنجالى» وكاد ان يسقط فى يده ، ولكنه الهم ان يقول للرجل : الم تسمع قول الله تعالى : (واقعدوا لهم كل مرصد) ؟ وهو محق فى اختبائه ومصيب فى استشهاده لانه كان متربصاً يحمل «شلكايتة» ويتحين الوقت المناسب للانقضاض على الاعداء . غير ان المجاهد البقرارى كان حاضر البديهة حاد الذكاء ، فأجابته على الفور بهذا السؤال المفحم : من كلام الله الحلو دا كله مالقيت إلا آية اللبّيد ؟ أى : ألم تجد فى كل هذا القرآن الحلو الا هذه الاية التى فهمت منها انها تسمح بالنكول وتحض علي الاختباء عن اعين العدو ؟ ثم امره بأن يبرز للقتال بعد أن أفحمه بهذه البساطة التى لم يحر لها «ول غرنجال» جواباً ولم يجد لسرعتها المباغته - وربما سلامة منطقتها - دفعاً .

ومهما يكن من امر فان مثل هذه «القفشات» انما تروى فى سياق الملح والطرائف التى تصاغ بلهجة اهلنا البقارة فتسرى عن النفس وتثير فى الخيال بعض الغرائب

المحبة . واغلب ظنى ان هذه الواقعة منحولة وانها من صنع الخيال المحض . ولست ارتاب فى ان جماعة قرشلى - او عيال غرنجال كما يحلو لهذه الرواية ان تسميهم - كانوا فى طبيعة المجاهدين الذائدين عن حرية الوطن ونقاء العقيدة ، وقد سقط منهم خلق كثير يعدون بالألوف فى حومة الوغى وهم يحملون راية الفداء عالية خفاقة ويهلكون دونها فى ثبات ويقين . وليس يخالجنى ادنى ريب فى ان اخوانهم من القبائل الاخرى كانوا يبادولونهم الاكبار والتبجيل وينظرون اليهم كاخوان صفاء ورفاق مبدأ واحد لا يميزهم عنهم إلا لون البشرة الذى هو من صنع القادر الذى احسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين .

وعلى كل فان محمود قرشلى تلميذ يستحق ان نقف امامه هنيهة . معرفتى به لم تكن وثيقة علي ايام ام درمان الاميرية لانه كان في الفصل الاخر ، وهو فصل الاوائل . وكنت القاه كما القى الاخرين . وقد لفت نظرى انه تلميذ كثير الابتسام ، اذا ضحك اهتز كله واطال الضحك في هدوء وادار راسه يمنة ويسرة كأنه يستعين بذلك على اعلان سروره بين الناس وحثهم على مشاركته المرح والحبور . وهو قليل الكلام ميال الى الهدوء بعيد عن المعارك والشجارات التى كانت تدور بين التلاميذ ولاتسفر عن عداوات تبقى او تدوم . ورغم انى سمعت انه ماكر بطبعه وانه في حقيقة الامر يكُون من وراء اغلب الشجارات التى تحتدم بين الفرقاء ثم لايجد اليه القائمون على الامر سبيلا ، الا انى استبعدت ان يكون ذلك كذلك ، وحسبت انه من كيد الكائدين له والظانين به ظن السوء ، لانى لم ألقه الا مسالماً ضاحكاً نزر الكلام ، حسن المظهر طيب النفس والسمت والوجه ، منتظماً مرتب الحال ، لايجنح كثيراً الى الفوضى والشغب اللذين كانا من السمات الملازمة لكثير من التلاميذ ، خاصة فى اوقات الفراغ وخارج حجرات الدراسة . ولم التق به امام سينما برمبل حيث لاتخطئ عيناك ثلة من بعض «الشفوت» وهم يتطلعون الي الحصول علي تذاكر الشعب وقد حملها فتية

يتصحايحون مرديين . ثلاثة ونص تخش كتلوج . . وذلك يعنى ان ثمن التذكرة ثلاثة قروش ونصف قرش ، وانك اذا ما ابتعت هذه التذكرة وصرفت في سبيل اقتنائها هذه الاموال فانك سوف تجد مقعداً طيباً مريحاً فى داخل بهو السينما . وكلمة كتلوج هى تصحيف لكلمة لوج وهو المركز الممتاز من مقاعد المتفرجين . ولكن هؤلاء الشفوت - ومن بينهم بعض اولاد فصلنا وبعض اولاد حى ودنوباوى - ينتظرون الى ان تقترب بداية عرض الفيلم وهم قد ضحوا بالمناظر ، لان سعر التذكرة يأخذ فى الانخفاض بعد ذلك ، ويمكنك اذا تذرعت بالصبر واحسنت التحلى بمظهر العزوف وعدم الاهتمام ان تحصل فى نهاية الامر على تذكرة بقرشين او قرشين ونصف فتوفر قرشاً كاملاً يكفيك نصفه لشراء رغيفة مدورة ساخنة من طابونة ودارو «تقرضها» هانئاً وانت راكب على قدميك في طريق العودة . وان يفوتك ان تدرك جل محتويات الفيلم المعروض فتتم بمشاهدة الخوارق والمعجزات على الشاشة . وربما وجدت من يتطوع ويروى لك كل ما فاتك من المناظر او بداية الفيلم . لم أكن أجد قرشلى هناك ، وماكنت اعتقد أنه من الموسرين الذين يدخلون دار السينما مبكراً وفى هدوء ، بعيداً عن «المجابدات» والمفصلات والمساومات فى أسعار تذاكر الشعب . فاستقر فى خلدى أنه لم يكن يحفل بهذه الأمور ولم يكن من فرسان هذه المغازى . ومادامت مشاهداته لافلام الكاوبويأت نزره متباعدة فى بعض الاقوال فلا جرم سلوكه فى المدرسة هادئ مهذب . ورغم انه كان يرتاد حلقات الاقاصيص التى يعقدها التلاميذ فى فناء المدرسة ، ويستمتع باعجاب الى مختلف انواع الكبسيات واللبخيات ، ويحاول احياناً تجريب قبضته فى الهواء بعيداً عن اعين الناس ، فانه لم يكن ميالاً الى استصحاب هذه المفاهيم فى حياته ، وكان له من نفسه وازع يحميه من الخوض في احوال المنازعات التى تستدعى اللجوء الى تعطيل العقل والمنطق واطلاق الاسنة واستخدام القوة البدنية الكامنة فى الايدى والارجل والرؤوس !

ولكنى عرفت محمود قرشلى فيما بعد . وذلك عندما انتقلنا سوياً الى مدرسة خور طقت الثانوية . فهناك عرفت محموداً آخر تماماً ، وان ظل محتفظاً بكثير من مزاياه الأسرة التى كان عليها ايام ام درمان الاميرية الوسطى . وانى لاذكر اننى كنت في ذات اصيل مع الصديق العزيز يوسف حسين (ود البطرى) تتجول خارج اسوار المدرسة هانئين نملأ صدرينا من ذلك الهواء «الدعاشى» العبق النقى جنوبى العمارة ، تتهتك هوناً تحت اقدامنا الصغيرة بسط الرمال الهشة الندية وتتغرس فى بطونها على اثر الوطاء قضيبات العشب الخضر المخضلة ، فتتندى وتروى وتغفو هنيهة ريثماً تشرئب من جديد . وقد كان الصديق يوسف حسين زميلى في داخلية ودتكوك ونشأت بينى وبينه صداقة حميمة منذ ايامنا الاولى . وبينما نحن فى ذلك التجوال الطليق نستكشف مكنونات الطبيعة الساحرة ونجتلى اسرار تلك الاكوان الغامضة اذ لحق بنا ثلاثة فرسان هم محمود قرشلى وعض بكار وبخيت مكى . ولقد كان ثلاثتهم من فصل الاوائل فى ام درمان الاميرية .ولذلك كنت أعرفهم تماماً ، وانما كان يوسف حسين غريباً عليهم إذ لم تكن لهم به معرفة سابقة . اما عوض بكار ومحمود قرشلى فهما كما قد علمت . واما بخيت مكى فقد كان من حمائم فصل الاوائل وكان تلميذاً هادئاً مشهوداً له بالمثابرة والاهتمام بالدروس . وهو من اولاد حى العمدة حسب ما علمت ، ولم يكن فى حى العمدة لبخ او كبس او شمشون او بلة الاحمرانى او ابو الدفاع . ولذلك كان بخيت مكى براءً من المزاعم البطولية وتقمص روح القندفة والشفقة . ومهما كانت درجة دعاويه الطرماجية فانها لم تكن تخلو من بعض اضافات يجود بها الخيال وتسعفه بها الرغبة فى مسابرة سنن العصر ومجابهة ضغوط التحديات ، ولكنها لم تخرج عن التفاخر بمواهب الزوجان من الكمسارى والهيوط الى الارض اذا اوشك المفتش ان يمسك منك بالتلابيب . وهو لم ينسب الى نفسه ملكة القدرة على النزول «عكس» وفى أى كشة من الكشات ، ولو فعل ذلك لما وجد من يصدقه . وذلك لان بخيت مكى كان

تلميذاً مسكيناً فى نظر الصقور ، والمسكين فى نظرهم لا قبل له بصنع المعجزات او التعرض لمثل هذه المخاطر . وفوق ذلك فان بخيت مكى يسكن حياً لا يشقه الطرامج ولا يمر قريباً منه ، الامر الذى يؤكد ضمور تجربته فى هذه الفنون ويبرهن على ضآلتها اذا ما قورنت بتجارب اولاد الموردة وأبى روف وبيت المال وغيرهم ممن ينامون ويستيقظون على أزيز مركبات الترام وصرير «بكارته» وهى تحتك بأسلاك الكهرباء . ومن دلائهم على مسكنة بخيت انه كان ينطق حرف الكاف من اسم ابيه بطريقة غريبة عندما يسأله الأساتيذ عن اسمه فيخرج هذا الحرف من فمه وهو اقرب الى خليط بين حرفي الجيم والشين ، منه الى حرف الكاف المعروف ! واذا لم يكن هذا دليلاً على مسكنته فليس يصح في الافهام شئ عند الصقور . فها هو ذا مكى برعى اذا سئل عن اسمه اتى بحرف الكاف واضحاً مشدداً حتى لتكاد لهاته تخرج من فمه حين ينطق به ، فلا رنة ولا رائحة لجيم او شين او اى اثر من حرف اخر . وليس هناك من ريب في ان بينه وبين المسكنة ما بين السماء والارض . غير ان بخيت مكى كان تلميذاً مهذباً وذكياً ومسالمًا . ولذلك احبه الصقور ايضاً ولقد اوضحت لك من قبل ان المسكنة فى نظرهم «خشم بيوت» . ومن حسن طالع بخيت ان مسكنته كانت من النوع الذى رضى عنه الصقور ، وزاد من رضائهم عليه انه لم يكن صاحب مزاعم وبطولات ، وان بعض تجاوزاته فى الاقاصيص التى تروى فى حلقات «الونسة» لم تكن من النوع الذى يصم الأذان «ويستغرب المخ» كما يقول بعض أهلنا الحفاويين ، ولم تكن من الطراز الذى يدل اصحابه بان فى مقدورهم مجالسة الجن ومصادقة البعاعيت والاتيان ببيض العنقاء ولبن الطير وشعيرات من شارب الاسد . ولكنها كانت تجاوزات متواضعة يستسيغها الخيال ولاينكرها الذوق ، فهى لاتتناول علي مزاعم الاخرين وقد لا تبلغها ، وتتراوح بين ماهو عادى وبين ما هو اكبر من ذلك ، مما يمكن ان يصدقه الخيال وتكذبه مقدراته الحقيقية.فانت اذا لم ترو شيئاً من أعاجيب الحى الذى تسكنه او تقص على

مسامع الآخرين طرفاً من بطولات شهدتها بنفسك و شاركت فيها أو سمعتها من مصدر يثق سامعوك فى عدالته أو شهرته فأنتك موسوم بذلك النوع من المسكنة الذى يعتبر نقصا معيباً ويراه الصقور على وجه الخصوص مدعاة لهوانك فى نظرهم وباعثاً على السخرية منك والتندر عليك والابطاء عن عونك اذا ألم بك مكروه . ولذلك صارت كل احياء ام درمان تقريباً معاقل أعاجيب وساحات بطولات ومنابت خوارق ، وصارت بعض القرى النائية مسرحا لفحولات «الرباييط» وبعض من لوافت قيمهم الرفيعة ، ومغارات تربض فى أجوافها شرانم البعاعيت والعفاريت وأنماط الجن والشياطين ، يتداول التلاميذ أنبعاها وهم بين مصدق يتوق الى رؤية ما يروى عليه بعينى رأسه ، ومكذب لا يحمله على التكذيب إلا جزعه من أن يجابه فريداً فى يوم من الأيام ما قص عليه فنفر منه وارتعدت منه فرائصه .

وعندما الم بنا هذا الثالوث ونحن نتجول فى تلك الربوع الكردفانية الزاهية لم أفاجا بهم وانما كان ذلك مفاجأة ليوسف حسين ولعل حاسته السادسة أوحى اليه بأن هؤلاء الفتية قد ارادوا بنا شراً ، ورغم معرفتى بهم ومعرفتهم بى فهم لم يبدأونا بالسلام عندما صاروا على مقربة منا . ولقد هممت بأن أرحب بهم رغم ذلك ، ولكنى لم أنس فى وجوههم ذلك البشر الذى كنت اعرفه وحق لى أن اتوقعه ، وانما الفيتها خالية من معانى الالف والمودة ، أو هكذا خيل الى ، وقرأت على قسماتها بعض أحرف الجفاء ، واستجلت من وراء غيوبها مكرا مضمراً يوشك ان يسفر عن حقيقته بجلاء .. ولذلك أمسكت عن البوح بالترحاب وعزيت نفسى بأن ذلك خير تحية لمن لم يبدأك بالتحية .

ولسبب ما - لست أدريه - جرت محاولة للتحرش بنا ، وقد كنت أحمل فى يمنى عصا قصيرة ، فأمكنك يدي منها وهيأت نفسى للعراك . وقد أدهشنى أن البادىء بالحديث كان بخيت مكى ، الذى قال لنا - دون ان يستهل حديثه بتحية أو سلام : لماذا أنتما هنا ؟ فقلت له : نتجول فى هذه الرمال الهينة الندية وبين هذه الأعشاب المخضرة

الخضلة ، وستنشق هذا الهواء الطلق العليل . ثم ، لماذا هذا السؤال ، ومن أنتم حتى نجيبكم ؟ ودهشت للروح العدائية التي ظهرت منهم فى أول الأمر رغم انى اعرف ثلاثتهم من أم درمان الاميرية وبينى وبين ثلاثتهم مودات متفاوتة الدرجات . وأيقنت أن المقصود بالتحرش هو صديقى يوسف حسين دون أن أعرف لذلك سببا وجيهاً و مبرراً مقنعاً . وقد بدت على وجهه آثار الفرق ، ولكنى صممت على أن أحميه بكل ما أوتيت من قوة . ولقد كاد أن ينشب بيننا شجار بالفعل لولا أن عوض بكار قال فيما يشبه الاعتذار وهو يعلم مكانته من نفسى : « ياخى نحن خايفين عليكم » ، ولولا أن محمود قرشلى استطاع بحكمته - وربما بدهائه أيضاً - أن ينقذ الموقف عندما انفجر ضاحكاً وأكد أنهم يمزحون ولا يضمرون شراً أو سوءاً ولا يتطلعون الى عراقك . واذا ضحك محمود قرشلى فإنه يضحك بكل كيانه ، ويغرق فى الضحك ويطلق فاذا بالذين من حوله جميعاً يضحكون . ولذلك ضحك الجميع ، وتفرقت ضحكات عوض بكار الودودة تعلن فى فصاحة وبلاغة لا تحتاج الى حروف وكلمات لتنبىء عن مسالة حقيقية ووداد أصيل . وحتى بخيت مكي الذي بدأنا بذلك السؤال الذي انكرناه عليه ، لم يتمالك نفسه ، فغلبت عليه ضحكاته المنقطعة التى ربما كان يعوق استرسالها انه يعانى من التهاب الجيوب الأنفية المزمن . ولكن اساريير وجهه كانت تكمل ما ينقطع من ضحكه وتؤكد بقاء أواصر ذلك الود القديم . وسرعان ما غاب عنا كدر قصير العمر واحتوانا ذلك الصفو الرخاء .

ثم سرنا معاً عائدين ادراجنا حتى بلغنا رحاب «العمارة» فى أول المساء . وفى أثناء مسيرتنا الهادئة ونحن نتجاذب أطراف الحديث فى شتى الشؤون ، همس محمود قرشلى فى أذنى متسائلاً : «ياخى دا مش يوسف حسين الفنان بتاع ود تكتوك» ؟ فقلت : بلى . وأردفت بأنه فنان المدرسة كلها وليس داخلية ود تكتوك وحدها ! فقال لى محمود قرشلى : « طيب ياخى ما تخلى يغنى لينا » . فقللت له ضاحكاً : « قبل شوية كنتو عاوزين تدوقو



وحسه عاوزينو يغنى ليكم ؟ فاقسم قرشلى انهم انما كانوا يمزحون وانهم لايمكن ان يعندوا علي صديق لصديق واخ لهم قديم . وحملتني مشاعر ام درمان الاميرية على تصديقه وان بقى فى نفسى شئ من روح الجفاء والتحرش التى بادرنا بها بخيت مكى الي ان جلى ذلك الاحساس ومحاه عن خاطرى وداد بخيت الذى ابان عن اصالة جوهره ونقاء معدنه . ومنذ تلك الاحايين دام الصفاء والوفاء بين الفرسان الثلاثة ويوسف حسين ولقد اسعدنى ذلك وسرنى لان يوسف حسين كان اهلاً للمودة والوفاء . لقد كان يوسف حسين فناناً بحق . لم اقرأ له شعراً من تأليفه ولكنى لم اكن ارتاب في ان الشعر طوع بنانه ان هو اراد . فقد كان فتى رقيق المشاعر روى الوجدان . أوتى صوتاً كنارىّ الرنين موقع النبرات متنسق النغم فى علوه وانخفاضه . يحفظ جميع ما تنهى الينا من أغانى ذلك الزمان ويؤديها بكفاءة محبطة وعاطفة مشبوبة جياشة وحنو رقيق أسر ، وصوت وهبى ساحر يبلغ القلوب قبل الأسماع . وهو بسام مرح صادق الود نبيل السجيا ، فيه ميل ظاهر إلى الضحك والعبث البريء وحرص غامض على التوفيق بين حمل النفس على مكابدة الدروس واطلاق العنان لها لتهوم فى آفاق الطرب والمراح . وربما احتدم الصراع فى دخيلته بين هذين الخيارين ، وربما عز عليه أن ينتصر لأحدهما عنوة دون الآخر ، ولكنى رأيتة يؤثر الانفلات من ربقة القيود وينزع إلى إرسال روحه الشاعرة الشفافة على سجيتها ويترك الخيار للمشاعر الصادقة وهى مشغوفة مدنفة بالالمان والأهازيج . ولقد كشف لى أداء يوسف حسين الرائع فى مجال الغناء عن رقة مشاعر الكثيرين ممن كان يحسبهم البعض - ظناً مجحفاً ورجماً بالغيب - صخوراً لاتحركها الاغاريد . ولقد رأيت بعينى رأسى حسين عبد الله وهو أبو الحسوس المعروف يكاد يستحيل إلى شظايا عندما تستعر جوانحه بدفء ذلك الصوت الحنون . ورأيت أن محمود قرشلى الذى امتاز وعرف برزانة وقورة واعتدال قسط مشوب بالحياء لم يكن يسعه أن يتمالك مشاعره ويبقى على وقاره اذا

صاح يوسف حسين مغرداً يغنى بصوته البلورى الصافى احدى روائع الفنان عثمان حسين وفى طليعتها أغنية «كيف لا أعشق جمالك» التى كان يوسف كلفاً بها أيما كلف معجياً بها أيما اعجاب . فكان قرشلى إذا سمعها منه اهتز طرباً وغنت جميع ملامحه الصامتة بصوت يتغشى روحك وأحاسيسك من قبل المسامع ، وكاد - من فرط خفة روحه التى كان يستشعرها - أن يسبح فى الهواء أو يخلق فى الأفاق ، وأوشك فى بعض الأحيان التى يتموج فيها صوت يوسف مع المقاطع والمعانى اتساعاً وارتقاءً أن يصعق أو يغشى عليه أو تفارق روحه الجسد .

وفى حقيقة الامر يمكننى القول بأنى قد تعرفت على يوسف حسين منذ أول يوم لى فى خور طقت ، ونما بيننا الوداد وازدهر ، وضربت جذوره وأعراقه فى اعماق الوجدان وهو لا يزال الى هذا اليوم من أعز أصدقائى . وأنى لاتعجب - للمرة الثانية فى هذه الصفحات - كيف صار يوسف حسين الى العسكرية . ولا يظن أحد أنى بهذا القول إنما أرمى الإخوة العسكريين بجذب المشاعر أو تباب الاحاسيس ، فأننا أعلم أن فيهم الشاعر والفنان والمطرب والمبدع والرسام ، وأن بينهم من لو قسمت رقة عواطفهم على أهل البلاد لغدا كل فرد من افرادها رقيقاً شفيف النفس والفؤاد والجوانح . ولكن يوسف حسين كان فناناً فطر على اللحن والفن والغناء . ولو أنه وجد من يعنى بأمره ويهتم بهذه الشؤون ، ولو أنه سار على هذه الدروب غير عابىء بما يرمى به بعض سالكيها ظلماً وبهتاناً لبلغ القمة مع من بلغوها ولاثرى هذا المجال الذى ينبىء بصدق وامانة عن رقى المشاعر وغزارة الثقافة وصفاء النفس ، ويفتح آفاقاً رحاباً لاكتساب الاصدقاء من شتى الامم والنحل والاعراق لأن الفن ييوج بأسرار لغة يفهمها ويلتذ لتغمها ويدرك رونقها وشمول رسالتها جميع الناس . غير أن يوسف حسين اثر أن يمضى فى طريق آخر مغاير لفطرته التى جبل عليها ، ولقد أصاب نجاحاً فى مسيرته وذلك الفضل من الله . لم أكن أعرفه قبل ان نلتقى فى خور طقت ، ولكننا صرنا - منذ

أن التقينا هناك - صديقين حميمين لانكاد نفترق . وقد زرته في داره في ود مدني أكثر من مرة بعد ذلك ، وافلحت في توثيق حبال المودة والإخاء بينه وبين كوكبة مضيئة من رفقاء الحداثة في أم درمان الاميرية ، وفي مقدمتهم محمود قرشلي وعض بكار وبخيت مكى والكبتل ومحمد العوض ومصباح الصادق والهادي محمد عباس وعثمان محمد الحسن العربي أو الرجل كما كنا نسميه في غابر الازمان . غير أن عثمان محمد الحسن كان في بعض الاحيان يظهر نوعاً من الضيق والبرم بمجالسنا ، فيتصدى محمود قرشلي لتطبيب خاطره بضحكه المتواصل الذي يهتز له جميع كيانه فيسرى بين الناس سريان العطر العبق النوم . ولعل محمود قرشلي لم يدرك من اول وهلة اسباب الضيق والضجر والحنق الذي كان ينتاب عثمان ويؤرقه ويمضه . ولو عاد بذاكرته الي ايام ام درمان الاميرية حين كان عثمان منبع الطرب الذي نتحلق من حوله وتشرب عواطفنا من مناهله لتذكر انه كان امير الدوبيت من بيننا دون منازع او شبيهه ولأيقن ان مجتمعنا الجديد في خور طقت قد جرد عثمان من الريادة في تلك المجالى ودفغ في وجهه بمنافس مقتدر جليد ، فلم يترك له الغناء الذى برع فيه يوسف حسين مجالاً ليظهر فيه مواهبه ، ولذلك لم تفلح محاولات محمود قرشلي في تنقية خواطر عثمان مما كان يلم بها ويستحوذ عليها من سحائب الكدر والانقباض وعكر المزاج . وفوق ذلك فان سطوع نجم يوسف حسين كان بمثابة المفاجأة لعثمان لدرجة انه كان يبدو جريح الكبرياء . وذلك ان عثمان كان شديد الاعتداد بنفسه كما قد علمت . وقد تفاقت على اذاننا بدائع قصصه عن غرائب شندى وما جاورها من قرى ، وبطولاته الشخصية التي كانت تشكل بعض اللحم والسدى لذلك النسيج القصصى البديع . فاذا وجد سائحة أمطرنا بوابل من جوامع تلك الأقاصيص لا يفادر اسماً من اسماء ابطالها الا اكد لنا صلته الوثيقة به وإلا بلغ به جده الرابع او الخامس حتى لا يترك مجالاً لريب في معرفته به معرفة كاملة تامة . ثم لا يفوت عليه ابدأ - رغم طول هذه النسب وكثرة حديثه

حول القرابات المتشابكة بين اهلها - ان يضع نفسه في قلب الاحداث التي تشتمل عليها هذه الاقاصيص وتشكل مادتها الرئيسية . واذا اطمأن الى احداث الاثر المطلوب في نفوسنا من هذا السرد المطول ، وبان له جلياً انه قد نال اعجاب مستمعيه وشوقهم الي المزيد والهيب منهم مواقد الخيال . . . وقف وقفته المشهودة رافعاً راسه في ما يشبه التحدى والدعوة الي النزال ، وفي عجب ينبئ عن الاستهانة بالغير ، وكبر لا يخلو من مسحة قروية هي خليط عجيب من الجفاء والبراءة ، مقوساً يديه على خاصرتيه في مظهر تعارف الناس على تسميته «غز الكيعان» وسماه محمود قرشلى «الهنظبة» ، معتدلاً معجباً ناظراً نظر الصقر في اعطافه . فاذا فاض هذا الشعور بالعجب والخيلاء على اركانه وآدفاً روحه ومشاعره وشحذ منه الهمم العوالى ، صاح عثمان مترنماً بصوت ينم عن عمره الحقيقي على الرغم من رخامته وحسن رنين نبراته : واحد واربعين بت اللبيب عبد الله . . او واحد واربعين بت اللبيب عثمان . . الى اخر تلك الهازيج الدوبيتية التى الفناها طويلاً فى ام درمان الاميرية الوسطى . ولما كان يوسف حسين فناً مطبوعاً يتمتع بذاكرة نقية وقادة لكل نغم موقع وكل كلام مموسق مقفى فقد استظهر ذلك الدوبيت في زمن وجيز وصار ينشدنا من رئاته الاعاجيب يكسوها نضارة وبهاء ورواءً من سحر صوته العذب الحنون . فاعجز بذلك عثمان ، ولم يترك له مجالاً ليصعد بنا الاعالى كما كان يفعل فى سوافل الايام وانما اربى عليه وشغل الناس عنه لانه جمع بين روعة اداء الاغانى وحسن الترتم بالدوبيت ، وامتاز على غريمه عثمان بصوت شجى ندى يتبجس رقة وعذوبة ويسيل في خلايا روحك كما تتغشى جسدك نسيومات الدعاش . ولم يكن بمقدور عثمان الرجل (او العربى كما كان يسميه مصباح) ان يوقف ويعتقل هذا الاندياح الاثيرى الذى ظفرت به رقة يوسف حسين الحانية بين فتية ذلك الزمان . ولم يعد بمقدور محمود قرشلى الذى حرص على مجاملة عثمان ورفع روحه المعنوية ان يستنقذه من تلك الهزيمة الفنية الماحقة التى منى

بها امام مواهب يوسف حسين . ولو ان عثمان ابدى صفحة سوء اولج فى العناد والمكابرة لتكاثرت عليه الايدى حماية لهذا البلبل الصيدح الغريد ، ولوهب لنصرتة محمود قرشلى وغيره وكان بعضهم لبعض ظهيراً . فآثر عثمان بحكمته السلامة ، وبابح يوسف حسين اميراً للغناء والدوبيت علي السواء . وكان ذلك منه عين العقل . فالعائل اللبيب الفطن هو من عرف حدوده فلزمها وزهد في ما ليس من ورائه طائل ، وعرف حقوق الاخرين فاداها اليهم ولم يبخسهم اشياءهم . والاحمق من اغتر بمقدراته وظن ان لن يقدر عليه احد . وما اصدق ما قال ابو العلاء المعرى :

وامال النفوس معللات .: ولكن الحوداث يعترضنه

واذا كان الامر كذلك فالحكمة تقتضى الرضا بما ليس منه بد . وقد بان جلياً لعثمان انه لن يظفر بمغرم اذا انسأقت نفسه وراء العناد وادرك ان الاعجاب الذى كان ينعم به وسط رفاقه في ام درمان الاميرية حينما يجأر بالدوبيت لم يعد يجدى بعد سطوع نجم يوسف حسين ، وان محمود قرشلى الذى كان مولعاً بسماعه قد تراخت حماسته لادائه بعد ان افتتن بمواهب يوسف حسين التى جمعت بين روعة الاداء فى الأغانى والقدرة علي التجديد فى متون الدوبيت ومعانيه . ولذلك شهد عثمان ليوسف بالامارة فى الحقلين ، وان بقيت فى نفسه آثار مرارة لا يخطئها من يقرأ بدقة ما يرتسم على وجهه من تعابير فى بعض الاحايين التى تجمع الناس حلقاً حول يوسف حسين وهو ينفث من صوته الشقشقى رسائل الشوق والطفافة . . تدور القمر ، وتغضى الحقول بالزهر . ولقد كان محمود قرشلى وعوض بكار سعيدين بهذا المسلك التواضعى المرن الذى انتهجه عثمان فى وجه هذه المستجدات التى عرضت له من حيث لم يحتسب ، واعلنا انهما يكبران فيه هذا «التطامن» الواقعى التلقائى الذى صار اليه عثمان بعد ان غفل طويلاً عن الحقائق التى يمكن ان تحبل بها ارحام الغيوب ، وبعد ان كادت راسه ان ترتطم بالسماء من فرط اعتداده بنفسه وشدة ثقته فى مقدراته فى هذه

العوامل الطربية العاطفية . وربما كان إكبارهما المعلن لهذا «التقاصر» الذى فزع اليه عثمان ورضى به ناتجاً عن حكمة قصد من ورائها ان يظل ذلك الجو الودى الوفاقى المعافى الذى يستدرى بظلاله الصبية سليماً صحواً لا تكدر صفوه غيوم . فجات اشادتهما بما اسمياه «تواضع» عثمان اشادة حاقله تنسب اليه شتى المائر والمفاخر تطيبياً لخطره ، لانهما كانا يعلمان ان عثمان ربما استطاع - اذا استشعر اى نوع من «قلة القيمة» في نظر معجبيه في سوائف العهود - ان يجهز قوة ضاربة قد يكون قوامها الكبتل وابو الحسوس وربما متطوعين اخرين ممن كانوا يهتزون طرباً لأقاصيصه «الشندية» و«انجازاته» فى ام درمان الأميرية التى كان يرويها على مسامعهم فى غياينا . لقد احسن عثمان صنعاً بجنوحه للسلم وتسليمه الامر لاهله ، واحسن كل من محمود قرشلى وعض بكار صنعاً بامتداحهما له على هذه الروح المسالمة الطيبة . ولولا ذلك لما ساد السلام ورفرفت على اجواء تلك الحياة الجديدة بنوده وفى حقيقة الامر كانت جل اوقاتنا في خور طقت ازمان صفاء ووداد ومرح - وما كان مايتخللها من سويغات نادرة يمكن وصفها بالكدر الا تغييراً طارئاً اورث احداثها مزيداً من الخصوبة والثراء ، وسرعان ما انقشعت سحائب الصيف مخلفة من ورائها سماءً صافية مثل مرآة صقيلة مجلوة . وقد كان فى طليعة تلك الاحداث المدوية ما اسميناه بحرب البسوس التى كانت شجاراً عبثياً دام بين حسن «ابو العايلة» من جهة وبين مجموعة من الفتية من الجهة الاخرى هم سر الختم وداعة الله وحسن عبد الحفيظ وابراهيم حاج حسن . ورغم ان محمود قرشلى لم يظهر لنا منه دور بارز في ذلك الصراع ، الا اننا علمنا انه كان يجهد من وراء ستار ليقضى على الفتنة ويرتق ما انفثق بين الفتية من صلوات ليبلغ بهم مشارف الصلح واحلال السلام والصفاء مكان القطيعة والخصام . ولقد ظلت هذه الحرب سجالاً تستعر من حين الى حين فى الفناء الواقع قرب غرفة الطعام . ولم يكن فيها في نهاية الامر منتصر ولا مهزوم . فانتهت

بصفاء قرب ما بين الفرقاء واكسبهم فيما بينهم وداداً واخاءً ومحبة كانت من بعد ذلك مضرب الامثال . ومن عجب ان مثل هذه المصادمات التي تنشأ لشتى الاسباب كانت دوماً تنتهى بوداد شديد بين الخصوم المتنازعين ، وخاصة بعد ان ذاب تماماً ذلك الجليد الذى كان يفصل في اول الامر بين المجموعات المختلفة التي جاءت من مختلف المدارس الوسطى ومن شتى بقاع البلاد . حتى حسن الفكى الذى كان يحمل سوطه جهاراً نهاراً بين ربوع العمارة ويفزع اليه فى شجاراته مع اولاد البحر حيث كان يكفيه لسانه ، صار بعد قليل من اصدق اصدقاء اولاد البحر واخلصهم وفاءً لهم . بل ان على سالم على التوم الذى كان لا يثق الا باولاد الكبابيش ، صار بعد فترة قصيرة من التأمل واجتلاء حقائق الامور والمعرفة بنفوس زملائه القادمين من اواسط البلاد وشمالها واحداً منهم لا يميزه عنهم الا ذلك النفور من الحصص والدروس الذى لم نجد له مبرراً شافياً . وذلك رغم ذكائه الذى عرف به وعظم استعداده الذهنى الفطرى لتلقى عصيات المسائل وتفهمها على احسن الوجوه . وانى لا نذكر كيف كان يرتدى «الردى الكاكي» ويسبل على اعاليه القميص الابيض غير عابئ بما كنا نؤمر به من ادخال اسفل القميص وهو ما كان يطلق عليه عبارة «التشنط» وهى عبارة معروفة فى ذلك الزمان سيقنت لتسجيل وصفاً يزخر بالاحتجاج والسخرية اللاذعة . ومع هذا المظهر الذى لا يعجب الاساتذة كان على سالم «يشنق» الطاقية - وهى ليست من الزي المدرسى فى شئ وانما هى من اضافاته الفوضوية - وذلك فى الفصل اثناء الدرس وامام عينى الاستاذ ، امعناً منه فى تحدى القوانين المدرسية ! وليته كان يكتفى بذلك ويترك الناس فى سلام ، ولكنه كان ايضاً يلبس السكين فى نراعه اليسرى ويبدو امامنا فى تلك الهيئة وكأنه ناشغ مع اهله الكبابيش فى قطعان من الابل العوارى وذوات الهوداج يشيمون من وراء لمعان البروق مواقع انهمال السحاب الثقيل ويحثون الخطى صوب تخوم ديار الميذوب البعيدة طلباً للكلا والمرعى واسباب الحياة .

ولعلك تعجب كيف احتشدت هذه الاسماء كلها في هذا المجال الذى نتحدث فيه عن محمود قرشلى وتتسائل عن صلة كل ذلك به . فاعلم ان هذا ان دل على شئ فانما يدل على ما سبق ان بينته لك من اننى عرفت في خور طقت محموداً اخر غير الذى عرفته في ام درمان الاميرية . فقد ظهرت شخصيته الحقيقية وتكاملت عناصرها ومميزاتها بوضوح . وبدا للجميع انه كان يخفى وراء صمته ورزائته المعهودة ملكات هائلة . فهو يصلح بين الفرقاء ويتابع مساعيه مثل حكيم القبيلة حتى ياتى على اسباب الخصومة والفرقة والشتات . فاذا اصاب نجاحاً وتوفيقاً فى مسعاه الوفاقى لم يتبجح بما بذل من جهود وانما انكر ذاته وتواضع حتى لكأنه يتأسى بابى العلاء المعرى حين شفع لقومه عند رجل اسمه صالح فلما نجحت شفاعته عاد فأنشد في تواضع بين ونكران ذات حقيقى :

نجى المعاشر من براثن صالح رب يفرج كل امر معضل  
ما كان لى فيها جناح بعوضة الله البسهم جناح تفضل

فاذا كان البعض يظنون من قديم ان محمود قرشلى كان وراء كثير من المنازعات بين التلاميذ في ام درمان الاميرية فانه قد صار في خور طقت وراء كثير من اسباب الصلح والوفاق التى انهدت الخلافات واخمدت ضرام المعارك . واذا كان ذلك من بعض ثمار النضوج النسبى الذى أصابه محمود فهو دون ريب روح من خلاله السمحة التى كانت كامنة فيه لم يجلبها لوقتها الا مرور الايام واتساع مدى التجربة واكتساب هذا النضوج المبكر . ولقد برز محمود قرشلى كلاعب لكرة السلة (الباسكتبول) موهوب عظيم ، وعلى قدر هائل من الحصافة والذكاء والدراية . وساعدته طبيعته الهادئة الوقورة التى لم تكن تخلو من مكر خفى ودهاء مبين ، فاستخدم هاتين الخصلتين المواقيتين فى هذا المجال الرياضى اروع استخدام وحاز على اعجاب زملائه عن جدارة واستحقاق . فهو من دهاقنة كرة السلة المعدودين في المدرسة وقد عرف له زملاؤه



واساتذته هذه المقدرات العالية التي كانت في كثير من الاحايين سبباً رائداً ومباشراً لفوز فريق كرة السلة المدرسى في خور طقت على فرق كرة السلة من مدرستي حنتوب ووداي سيدنا في اغلب اللقاءات التي كانت تجرى في مختلف المواطنين والميادين .

ولقد بينت لك من قبل ان محمود قرشلى كان صاحب وقائد فرقة كلفة ببعض الاشعار تتناشد اطرافاً من خمريات ابن هانىء (ابى نواس) فيهرع اليهم التلاميذ من كل صوب يرددون معهم الالحان والاشعار الرقيقة والأهازيج فيضمخون اجواء تلك الأزمنة بعبير الطرب والحبور والمرح البرئ . فان كانت تلك التجمعات الاناشيدية نوعاً من الفوضى التي يتعشقهها محمود قرشلى ورفاقه فهي فوضى محببة الي النفوس تغمرها بالحيوية الدافقة وتجلو عنها صداً الرتابة والملل . واست اعلم احداً رأى محمود قرشلى غاضباً ابدأ او عاتباً على احد ، فهو الضاحك المتبسم علي الدوام ، مع جد واهتمام بالدروس ليس ادل عليه من تخرجه في الجامعة رغم ظروف صعبة كان يعيشها فيما تلا تلك الازمنة من سنوات . وانه ليصح ان يقال فيه ما قال شوقى وكأنه يعنيه :

القريب العتب من معنى الرضا	والقريب الجدّ من معنى اللعب
والاخ الصادق فى الود اذا	ظهر الاخوان بالسود الكذب
خاشع في درسه محتشم	فكه فى مجلس اللهو طرب .



# الباب الثالث

## أسرة التدريس :

لقد كانت مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى مجتمعاً حافلاً بكل مايسر ويبهج وهى قد جمعت فتية تلك الأزمنة وهم تلامذة صغار بطائفة من الاساتذة الأجلاء قدم رهط منهم إليها وبقي فيها سنوات ، وتعاقب عليها اخرون تفاوتت فترات اقامتهم بها وكلهم خلف فى أذهان التلاميذ اثراً من الذكرى الطيبة باقية لا تنمحى ، وان تباين عمق كل أثر من هذه الاثار واختلف باختلاف طول الفترة التى لبثها بين ظهر انينا الاستاذ . هناك اساتذة لم يقدر لهم أن يبقوا بيننا طويلاً ولكننا نذكرهم جيداً ونذكر لمحات من سيرهم ومن أوصافهم ومناهجهم وطرائق تعاملهم مع زملائهم وتلامذتهم . وبعضهم لم نحظ بشرف الوقوف على شأنهم وذلك لأنهم لم يقوموا بتدريسنا فى الفصول التى كنا فيها أو أنهم فعلوا ذلك بعض حصص قليلة ، والبعض الاخر اختلفوا الى فصول أخرى دون فصلنا فلم نقف من سيرهم إلا على ما كان يرويه علينا الأقران . غير اننا نستطيع أن نشير بكلمة أو كلمتين إلى كل واحد منهم تقريباً لأننا علمنا من أمرهم شيئاً وفاتت علينا منه أشياء . وما هذه الاشارات التى نعنى والكلمات التى تتداعى إلا ما وقر فى الذاكرة وانطبع عن هؤلاء القوم الكرام . فيها صور جلية حية دافئة الأنفاس كما انتقش الأصيل العسجدى قبيل الغروب سبائك حسن على جبين الأفق . ومن بينها صور أخرى غائمت موغلات فى الخفاء غير أنها تدرك إذ تجتلى من وراء غيوم المدى وسدف السنين الخوالى - « بدا حاجب منها وضنت بحاجب » . ولعله من العجب أن كثرة الصور والمرائى والمشاهد والأحداث لا ترهق الذاكرة ولا تضنيها ولا تضجرها ولا تشقيها . بل هى على النقيض من ذلك توقد فيها المصابيح وتجلو عنها الظلمة وتطرده من عيونها سنة الغفلة والنسيان ، فاذا ارادت وصح منها العزم استرجعت كل شئ وأبصرت جميع دقائق تلك العوالم من جديد وتعلقت بها لا تبغى عنها حولاً . وعلى الرغم من أنه ليس من أغراض هذه الصفحات أن ترسم لوحة دقيقة المعالم عن كل شئ كان فى تلك العصر الغرالا أنها قد تصيب وقفات تقارب التدقيق عندما تتدافع

إلى الذاكرة أحداث بعينها وتلوح امامها صور تلك الأحداث تبعاً وأوجه اناس لا تنسى . فمن الاساتذة والتلاميذ من عرفنا عن قرب لصيق ولذلك تداعت أنباؤهم متتابعات يسوق بعضها بعضاً . ومنهم من أدركناه ولم نصحبه طويلاً ولذلك جاء ذكره بعض لوافت مسرعات لا توغل في التفصيل الذى ربما توفر عليه غيرنا ممن كان أدرى منا بهذا الرهط الكريم وأكثر قرباً منه والتصاقاً به . فالأمر لا يعدو أن يكون تصاوير أو انطباعات كما قلنا أو ما يشبه التأمل الذى يذكر بتلك الومضات التى عبر عنها التجاني يوسف بشير أرق وأروع تعبير وهو يقدم لديوانه « اشراقة » ببعض كلمات أحسن اختيارها وتنميق العبارة المشتمة عليها إذ يقول :

قطرات من التأمل حيرى . . . مطرقات على الدجى مبراقة

يترسلن فى جوانب أفاقى . . . حنيناً اسميته « اشراقة »

فلو أنك أبدلت كلمة « حيرى » فى البيت الأول بكلمة « عجلى » مثلاً فلربما اقتربت من الوصف الصحيح لهذه السطور التى بين يديك ، ولا تسق البيت الثانى مع هذا المعنى أروع اتساق ، ولعلمت أن كلمة « حنيناً » هذه هى ام المعنى بأسره وهى مدار الحديث ولب المضمون . والذى يرسل نفسه على سجيته لتلتقط هذه الاشتات من مختلف صفحات دفتر الذاكرة يسعده أن يتأملها جميعاً بذات القدر من التدقيق لأنها عزيزة عليه كلها . غير أنه قد يقف امام بعضها وقفات أطول ويلقى على البعض الآخر نظرات خاطفات مسرعات . ويفعل ذلك مع الاشخاص أيضاً لأنه ربما تتلمذ على بعضهم طويلاً ، وتعرف على بعضهم خلال حصّة واحدة أو حصتين لا تزيد ، ولم يعرف عن فريق منهم إلا أنه كان استاذاً فى الاميرية الوسطى أو فى مدرسة التجارة أو ناظراً يضطلع بمهام الادارة دون التدريس . ولذلك فان اسما بعض الاساتذة قد ترد دون محاولة لاطالة الوقوف حيالها ولكن من باب محاولة الاحاطة واستكمال حبات العقد النظيم . ولعل الله يعين غيرى على التصدى لتكملة ما عجزت عن تكلمته ، وخصوصاً فيما يتعلق بأساتذتنا الاجلاء .

## جيل من العمالقة :

كانت اسرة ذلك المجتمع الكريم تضم أقماراً من الاساتذة بعضهم يعمل فى مدرسة التجارة الثانوية الصغرى ، والبعض الاخر - وهو الشق الاكثر نفراً - يعمل فى المدرسة الاميرية الوسطى ، فكانت هذه العائلة من الاساتيد بشقيها هذين دوماً فى تناسق ووثاق . يذهب منهم من يذهب ويأتى اليهم من يأتى فلا يخل ذلك بالتناسق ولا ينال ذلك من الوثاق ، فتلك عشيرة وثيقة العرى كأنما عناها ابو الطحان إذ يقول :

نجسوم سماء كلما غاب كوكب .  
بدا كوكب تأرى اليه كواكب  
أضاعت لهم أحسابهم ووجوههم .  
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

فاذا انت ذكرت الاستاذ الهادى فلا بد أنك ذاكر أباه الاستاذ أحمد محمد صالح بصورة أوضح وأجلى وذلك أن الاستاذ الهادى لم يكن يدرس فصلنا انما كنا نراه فى المدرسة ونسمع من سيرته الحميدة من اولاد الفصول الأخرى ما يسر النفس ويدفعنا إلى التطلع لمعرفته عن قرب . غير أن ذلك لم يكن متاحاً لنا فاكتفينا بما علمناه من أمره على البعد وهو خير كله . وربما كان ذلك من حسن طالعنا إذ أن من اولاد فصلنا من لوعرفه عن قرب لما ترك له جانباً يستريح عليه . وما أن بلغت مسامعنا مقدراته الشعرية والخطابية حتى اهتممنا بأمره غاية الاهتمام وصار فى دفاترنا من الاساتذة الذين بلغوا من نفوس تلامذتهم مرتبة الرضا والتوقير . وقد ذاع أمره فيما بعد وعرفه الناس جميعاً شاعراً غنائياً ومذيعاً وخطيباً مقلقاً رائع الأداء . وليس فى ذلك من عجب لأن « ابن الوزعوم » كما يقولون . أما ابوه الاستاذ احمد محمد صالح فلم يكن يدرسنا أيضاً ولكن قل من لم يكن يعرف هذا الاستاذ الجليل الذى كان يشرف على مدرسة التجارة الثانوية الصغرى فى تلك الأزمان . وهو استاذ كنا نراه دائماً متهندماً بالبدلة الكاملة وأكثر ما كان يستهويه من الوان ملبسه « البيج » - أو ما كنا نسماه « السمى » - والأسود أو الرمادى . وهى مصنوعة من أقمشة لم تكن نرتاب فى أنها انجليزية الصنع وان كنا فى تلك الأوقات قليلى الامام بأنواع هذه الأقمشة واسماؤها .

ورغم ذلك فقد دبت إلى اسماعنا كلمات تطلق على هذه الأقمشة والأصواف الانجليزية من بينها « اليومبتش » وربما « الموهير » والفراك . وكان الاستاذ احمد محمد صالح اذ يخطر في هيئته اللبسية الفاخرة يحملك حملاً على تذكر فينوسه الغانية الفرعاء التي أبدعها « حسناء تخطر في ثياب اللازورد » . ولقد رويت لك في غير هذا السياق أنه زارنا في فصلنا واستمع منى لقصيدته « فينوس » أو بعض أبيات منها فسره ذلك ابلغ سرور ، فأجازني على جهدي وعلمت منه مالم اكن اعلم . والاستاذ احمد من شعراء السودان الخالدين وقد أودع بعضاً من شعره في ديوانه « مع الأحرار » الذي يحوى من نفائس القصيد ألواناً متباينة . فهو يمدح السيد عبد الرحمن المهدي عند رجوعه من بعثة الوفد السوداني إلى لندن عام ١٩١٩م بقصيدة يبدوها بهذا المطلع التشبيبي التقليدي :

لزينب ربع ما يجيبك محول . . عفا بعد ما قد كان بالغيد يأهل  
وأقفر من بيض حسان نواعم . . أوانس من أخلاقهن التدل

إلى أن يقول في ممدوحه :

إمام الهدى قمرت بمرآك أعين \* \* \* وطابت نفوس حين عدت وأعقلُ  
ومازال هذا القطر يزدان بهجة \* \* \* ويختال في برد السرور ويرفل  
نمتك إلى الخيرات أعراق هاشم \* \* \* فأنت لهذا الدين ركن وموئل  
واقسم ما قاسوك بالبدر ميسماً \* \* \* وشمس الضحى إلا ووجهك أجمل  
ولا قرنوا كفيك بالبحر نائلاً \* \* \* ولا بالحيا إلا وجدواك أجزل  
فكم فرجت كفاك في المحل كرية \* \* \* وكنت لكل النائبات تُؤمّل  
تهش إذا جاء الفقير ميمماً \* \* \* وتبدؤه بالنيل من قبل يسأل  
أبوك أقام الدين والفسق ضارب \* \* \* بأطنابه والناس للحق تجهل  
به عاد دين الله أبلج واضحاً \* \* \* مقيماً فلا يبلى ولا يتحول  
ألا أفخر فبالمهدي يفخر نسله \* \* \* ويفتخر السودان والدين يجمل

وقال في قصيدة عنوانها « الامام عبد الرحمن والبعثة المصرية عام ١٩٣٥ م » :

قل للامام الذي يمناه من شرف \* \* كالليث والغيث في بأس وفي كرم  
ان كنت قصرت في سعيي لكم زمناً \* \* ولم أزر كعبة القصاد من أمم  
ما كان ذلك زهداً في وصالكم \* \* فأنتم خير من تسعى له قدمي  
بينى وبينك عهد لا انفصام له \* \* ومثله حبل ود غير منفصم  
مضى الزمان على صفو الوداد بنا \* \* ولست فيك على ود بمتهم  
الجود عندك مضروب سرداقه \* \* والدين حرمته مرعية الذم  
والفضل في بيتكم طابت منابته \* \* فأنتم زينة الدنيا من القدم  
أباؤك الفر أحياء بذكورهم \* \* ان كان آباء بعض الناس في الرمم  
ما كان منهم لدى البأساء غيرفتى \* \* كالويل في المحل أو كالبدن في الظلم  
لما أتتك وفود القوم زائرة \* \* إلى الجزيرة ذات المنهل الشبم  
شاموا بروق الندى حتى اذا وصلوا \* \* سالت يمينك سيل الوابل العرم  
مازلت تغمهم بالجود متصلاً \* \* والعرق منسكباً في اطيب النعم  
حتى انثوا وكان القوم من فرح \* \* في نشوة الراح أو في غمرة الحلم  
إلى أن قال فيما قال عن والد ممدوحه :

قد كان للدين في أيامه خبر \* \* وللفضيلة ركن غير منهدم  
جلى أبوك وجئت اليوم تتبعه \* \* في حلبة الرأي والعلياء والكرم  
ورثت عنه خلال الخير أجمعها \* \* يامفرداً علماً من مفرد علم

وقال يرثى الاستاذ على الجارم عام ١٩٤٩م

سرى من مصر يخترق التلالا \* \* نعى كنت أحسبه محالا  
وقالوا شاعر الفصحى تولى \* \* فقلت رويدكم مهلاً إلا لا  
نعيتم خير من نظم القوافى \* \* وراض عصبها الحقب الطوالا  
ومن هز المنابر إذ علاها \* \* وجال بكل قافية وصالا

فهذا هو الاستاذ أحمد محمد صالح الذى جال هونفسه « بكل قافية وصالا » . فهو



وإن لم يكن على أيامنا تلك مدرساً في ام درمان الأميركية إلا أنه كان ملء الأسماع والأبصار وكان ذا تأثير هائل على مجرى الأحداث والمعارف الثقافية في وسط ذلك المجتمع الجامع الفريد . وكانت دراينه باللغة الانجليزية مضرب الأمثال .

ولقد كان من اساتذة مدرسة التجارة في تلك الأزمان الاستاذ الخالد هاشم ضيف الله الذي عرفه من بعد تلامذة مدرسة حنتوب الثانوية وغيرها . وهو استاذ مولع بالرياضة عظيم الشأن في دنيا كرة القدم شهدت ملاعبها أداءه المتميز وبعض تعليقاته اللاذعة . وهو الذي كان يدرّب نجم الكرة السودانية الخالد صديق منزل على تسديد ضربة الجزاء بالاتقان المبتغى في ميادين جامع الخليفة على أيامنا تلك الغر الناضرات . فكان الفتية وغيرهم من المشاهدين يتحلقون من حول الميدان ينعمون بشهود ذلك المران الذي أثمر خبيراً في تسديد ضربات الجزاء خصوصاً واتقان فنون لعب كرة القدم عموماً فأسهم في اعلاء شأن السودان بين الامم اعظم اسهام . ورغم أن الاستاذ هاشم ضيف الله لم يكن من مدرسي فصلنا إلا أنه كان علماً في رأسه نار . فهو لاعب فريق الهلال المميز الذي كانت له نظرية خاصة في التصرف في الكرة عندما تكون هي بين قدميك وأنت في خط « تمنطاشر » ، وهي نظرية اشتهرت عنه وذاعت بين الناس فان كنت لا تذكرها أو تعلم أمرها فاسأل مصباح الصادق تجد عنده الخبر البقير ' لقد برهنت الايام على صحتها ولكن بشرط واحد وهو أن يكون اللاعب الذي يود أن يطبقها لاعباً مقتدرأ مثل الاستاذ هاشم ضيف الله وقليل ماهم مثله . ولو كان هذا التطبيق أمراً متاحاً ومضمون النتائج المبتغاة لكل من هب ودب لما صح قول الشاعر :

إذا ما أراد الله اهـلاك نملة سمّت بجاحيها إلى الجو تصعد

فقد هلك أقوام ما كان لريش اجنحتهم أن يقوى على مثل هذا الطيران ! وإذا كان الاستاذ ابوضيف محبوباً بين التلاميذ لأنه نجم متآلف في سماء كرة القدم ولأنه قمر منير بين فتية فريق الهلال ، فهو محبوب بينهم في المكان الأول لأنه كان شمساً من شمس المعارف . فهو الخبير بلغة بنى السكسون وهو عراف علم الجغرافيا وملاح

سفانثها وربانها المقتدر العليم بأسرار بحارها وبراريها وقضاءاتها الكثر الزاخرات  
بالعجائب .

ومن اساتذة مدرسة التجارة الاستاذ ابراهيم على ، وهو شقيق الاستاذ عثمان على  
الذى حدثتك عنه فى غير هذا السياق . وهو استاذ حسن السيرة كريم الخلق ، وأية  
ذلك أنه لقي بين تلامذته من المحبة والتوقير مثل مالمقيه الاستاذ عثمان على بيننا ،  
وليس ذلك بمستغرب لأن الأصل واحد والمحتد معلوم . وإن لأهل جزيرة توتى لباعاً فى  
الوطنية لا يغيب عن اذهان الناس ولجداً مؤتلقاً فى سماء العلوم والتربية وتنشئة  
الاجيال لا يفتر الناس عن ذكره بالتقدير والعرفان . ولقد تميز الاستاذ ابراهيم على  
بالهدوء والسكينة والوقار وكنا نراه دائماً وهو يرتدى البدلة الكاملة فى أبهى مظهر  
وأجل مخبر ونشهد من تواضعه ما كان يغرينا بأن نتمنى أن لو كان واحداً من  
الاساتذة الذين نتلقى عليهم بعض الدروس . فهو يبدو لنا دائماً - وان كان ذلك على  
البعد - رجلاً بسيطاً متضعاً يبتسم فى غير ما تصنع ويختال فى غير ما كبر أو  
جبروت . خبرنا فى شقيقه عثمان كل صفات الخير وخلال الا خلاص والصفاء فبتنا  
على قناعة تامة أنه لابد أن يكون وجهاً مليحاً آخر لذات هذه الصفات والخلال ،  
و صورة طبق الأصل كما يقول أهل المكاتب !

وأما الاستاذ محمد عثمان ميرغنى شكاك فقد كنا نراه على البعد أيضاً ونسمع  
طرفاً من سيرته العطرة بين الناس ولا أزال انكر مرأه وهو فى بدلته الدمور التى كنا  
نعجب منها أيما عجب . وهو ربما كان فى اواخر الأربعينات من العمر أو مطلع  
الخمسينات ولكنه كان مليئاً بالحيوية دائم الابتسام ، على كل من خديه آثار شلوخ أو  
فصوص رقيقة ثلاث تضى على وجهه المستدير ذى البشرة القمحية نوراً وبهاء وجمالاً ،  
كأنما ابدعتها على خديه أنامل فنان يعنى باستقامة خطوطه ودقة قياس المسافات التى  
تفصل بينها . ولقد أكلت بواكير الكهولة أو بعض الهموم شيئاً من مقدمة شعر رأسه  
وخطت بالشيب الباكر ماسلم من غوائلها وبقي فوق الصدغين ، فافضى به كل ذلك

إلى رأس أجلح حسن الخلقة وجبين واسع وضيق أبلج ، ووجه مشرق ضاحك  
القسمات طلق ياتلق بالبشاشة ويلمع بالترحاب . وعلى الرغم من أننا لم نكن نعرفه ولم  
يكن هو يعرفنا الا أنه كان يجذب اهتمامنا بصورة واضحة وذلك لعدة أسباب . أولها  
مراه الباهر ووجهه المشرق الوضاح الذى ينطق بالحسن والبهاء وينبئ عن كرم المحتد ،  
وسمته المتواضع الذى يزيل الحواجز فيما بينك وبينه ويغريك بالقرب منه إذا كنت  
واحداً من تلامذته ، وقد أحزننا انا لم نكن منهم . وثانيها أنه كان مداوماً على ارتداء  
بدلة الديمور الوطنى ، فكانت هي على جسمه خلة من خلع الوقار والوطنية وكان  
جسمه عليها خلة من خلع الحسن والبهاء وكان مجمل المظهر كله روعة واتساقاً  
ومجئلياً لامهات المعانى وعوالى الهمم . وأى معنى أثر للانسان من كبريائه وكرامته ؟  
وأى همة أعلى من همة حب الوطن وسوم أيام العمر فى سوق همومه وابتياح عزته  
وحرية ومجده بها وان ضمن بذلك الغير وبخلوا به ؟ ومن يذكر الاستاذ محمد عثمان  
ميرغنى فى بدلة الديمور الوطنى فانه يذكر أيضاً الامير عبدالله عبد الرحمن نقداً لله  
فهما اللذان ابتدعا وتبنيا وطبقا شعار « نلبس مما نصنع » منذ تلك العهود البعيدة  
دون كلمات أو ضجيج وتلبس به كل منهما صادقاً ومخلصاً حتى فارق الدنيا وما فى  
يده من حطامها الفانى شئ . لقد كان مرأى الاستاذ محمد عثمان ميرغنى فى بدلته  
المصنوعة من الديمور الوطنى مرأى رائعاً بحق وملفتاً للنظر فى ذلك المجتمع المدرسى  
الناض بالحياة . ورغم أننا تلامذة صغار إلا أننا كنا نستشعر دفاً انفاً الحركة  
الوطنية ونتذوق حلاوة كثير من الأناشيد والتعابير والكلمات التى تنطق بحب الوطن  
وتطرح قضايا امال الناس فى التحرر واسترداد السيادة والكرامة والعزة . وكانت دار  
حزب الامة قريية من المدرسة فكنا نرتادها فى بعض الامسيات ونستمع إلى خطب  
وأحاديث تدور حول مطلب الاستقلال الوطنى وإلى أشعار تستحث الناس وتملأ أنفسهم  
حماساً فيتعالي الهتاف بحياة السودان الحر المستقل . وكنا فى بعض الأحيان نذهب  
إلى نادى الخريجين فنستمع كذلك إلى القصائد والأناشيد الوطنية والأحاديث التى

تتغنى بالكفاح المشترك بين الشعبين السوداني والمصري فترتاح نفوسنا لما يعجبنا من كل ذلك ونكل أمر ما استعصى علينا فهمه أو استساغته لعلم علام الغيوب أملى أن ندرك في غد ما فاتنا ادراكه في ذلك الحين . غير أن هذا التباين فيما يلقي على مسامعنا في كل من الدارين أو الناديين لم يكن يثير بيننا أى نوع من الخلافات أو المشاحنات إلا ما كان ينعكس على مجتمعنا المدرسى فى بعض الأحيان من خلاف حول الانتماء الاسرى لأى من كياني الأنصار والختمية . وحتى هذا الخلاف ما كنا ننظر اليه - فى اغلب أحيانا - إلا كخلاف طبيعى يولد به الناس ويتعايشون فى إطاره فى وئام . ولكن مظهر الاستاذ محمد عثمان ميرغنى وارتداهه الدائم للبدلة الدور كان مثار اعجاب التلاميذ دون ريب وهو قد ساعد على ترسيخ فكرة الاستقلال ومعنى المطالبة به فى أذهان التلاميذ وحبب اليهم دعوة الاستقلال وشعار السودان للسودانيين لأن كلاً من هذه الدعوة وهذا الشعار بسيط فى التعبير والمحتوى قريب من الوجدان يباشره ويخاطبه دون التواء . ولما علمنا يقيناً أن الاستاذ محمد عثمان ميرغنى من دعاة الاستقلال ازداد شعار الاستقلال قرباً من فهمنا ومن عواطفنا لأن الاستاذ كان يشكل فى نظرنا قدوة لعالمنا الصغير المحدود . ولو أنه أراد أن يجاهر بأرائه السياسية ويبشر بيننا بشعار الاستقلال لوجد من سند التلاميذ ما يقارب الاجماع ، ولكن اساتذة تلك العهود عموماً كانوا أهل عفة وأمانة ورياسة ، لا يستغلون عواطف تلامذتهم ولا يسترقون سذاجتهم ولا يحملونهم ما لا طاقة لهم به . ولذلك فان ذلك المجتمع المدرسى قد برئ تماماً من أي نوع من أنواع الصراعات السياسية ، ولست اذكر شيئاً كدر صفاءه أو نال من هدوئه بعض نيل سوى تلك التظاهرة التى انطلق فيها التلاميذ يهتفون « نحن نطالب بالرحلة » . وهى رحلة مدرسية كانت قد ارجئت أو الغيت ، ولم تكن المطالبة بها بتلك الصورة بريئة من التأثير السياسى . وفيما عدا ذلك فان اصابع السياسة كانت بعيدة عن ملامسة صفاء ذلك المجتمع ، إلا ما كان يقال همساً أو يشتم أو يستذاق من بعض اشارات تصدر عن

طائفة من شباب الاساتذة ، وهى اشارات تذكر بالوطنية عموماً وتحبب فى الوطن وقضاياها العادلة فلا تذهب إلى أقصى من ذلك ولا تدعو اليه . ولقد ظل الاستاذ محمد عثمان ميرغنى على انحيازه لدعوة الاستقلال وتمسكه « بسودنة » الزى الافرنجى حتى علمنا فيما بعد أنه كان من المقربين للإمام عبد الرحمن المهدي الذى ربما زكاه لتقلد منصب رئيس الوزراء اذا ما قدر لدعوة الاستقلال أن تنتصر ولحزب الاستقلال أن يحرز الاغلبية فى الانتخابات النيابية فتوكل اليه مهمة تأليف الحكومة . ولم نكن نحن لنستغرب هذا لأن الامام عبد الرحمن كان راعى الحركة الاستقلالية ونحن نعلم ذلك ، ولأن الاستاذ محمد عثمان كان فى نظرنا أهلاً لذلك . وقد بلغنى - والعهد على الرواى - أنه كان أول من أدخل على اقتصاديات ذلك الزمان ما يسمى « حساب الدويبة » وهو نوع متطور من فنون المحاسبة ومسك الدفاتر . ومهما يكن من أمر فقد ترك ذلك الاستاذ فى أذهاننا أثراً باقياً رغم أنى لا أذكر أنه دخل فصلنا فى يوم من الأيام . وهو قد ذهب فيما علمت إلى نيجيريا وقضى بها سنوات ، ثم عاجلته منيته وهو لا يزال قوياً موفور العزائم مستمسكاً بالفضائل ، ويقينى أنه لو عاش لكان له شأن جسيم وخبر عظيم . وما أصدق ما قال شوقى يرحمه الله :

هو الدهر : ميلاد ، فشغل ، فماتم فذكر كما أبقى الصدى زاهب الصوت  
واما شقيقه احمد ميرغنى شكاك فقد كان فى فترة من أزماننا تلك ناظراً لام  
درمان الاميرية . وهو استاذ قصير القامة أو ربعة جسمه بين الامتلاء والنحافة لون  
بشرته أقرب للسمره من بياض بشرة أخيه . وهو ناظر حازم فى اغلب احيائه قليل  
الابتسام ، ولكنه ربما كان يلبس قسماات وجهه هذا الحزم الغالب لأن « النظارة »  
تقتضى مثل هذا المظهر الذى ساد اعتقاد بين الناس بضرورة الظهور به ابقاء على  
هيبة الإدارة أن تمس او توحى بالتهاون والتراخى فينفرط العقد وتعم الفوضى . وهو  
اعتقاد كان فى نظرنا بنئيساً وسيظل كذلك لانه يجعل من المسافات التى تفصل بين  
التلميذ واستاذه أماداً زمانية ومكانية بعيدة ويوشك أن يبني بينهما حائطاً أصم

سميكاً من البعد والنفور والقطيعة ، وذلك أن الحزم ليس فى صرة الوجه وليست هى من وسائله التى تنفذ مقاصده أحسن انفاذ ، إنما الشأن فى طلاقة الوجه التى تدعو الى القرب فتتهىء نفس التلميذ لقبول ما يلقى عليه ويسند اليه ويؤمر به عن طواعية ورضا . ولكننا نظلم الاستاذ احمد وهو المربي الخبيران قلنا إنه لم يحفل بذلك ، فلعل من طبائعه التى جبل عليها أنه لا يكثر من الابتسام ، أو لعل من سوء طالعته وطالعنا على السواء أنه فى المرات القليلة التى قابلناه فيها - فهو لم يكن يقوم بتدريس فصلنا - كان قليل الابتسام فانطبعت فى أذهاننا عنه تلك الصورة التى لا تعبر عن حقيقته . ومهما يكن من أمر فقد كنا نخشاه وقد أطلق عله بعضنا اسم « الرجل القصير » (Short Man) ولم يكن ذلك هجواً له بقدر ما كان تعبيراً يقيس بعد المساحة التى تفصل بينه وبين وجدان من أطلقوا عليه هذا الاسم . فهو تعبير عن شعور يمكن وصفه بأنه محايد بين المدح والذم ولكنه لا يعبر عن الرضا الكامل ولا يخلو من معنى خفى من معانى الاستياء القسط الذى هو من طبائع البشر والتلاميذ الصغار منهم على وجه الخصوص . وما أكثر ما كنا نخطئ فى تقييم بعض الناس والامور وفى تفسير بعض الظواهر والأحداث ! ولعله من الملاحظ أن التلميذ فى تلك السن الباكرة غالباً ما يكون مفرط الحساسية ، تلتقط مشاعره أخفى الاشارات فى سرعة خاطفة وتتأثر بها سلباً أو ايجاباً حسب درجة القرب أو البعد من مصدر الاشارة وهى قد تكون فى ذلك مخطئة أو مصيبة ولكنها تركز إلى التفسير الذى تمليه عليها مجموعة عوامل يقف فى طليعتها هذا المؤثر الفعال الذى أطلقنا عليه صفة « القرب الوجدانى » . وقد يعود استخدام هذا المعيار التقييمى بالظلم على بعض الاساتذة إذ أن طبيعة المهام التى يضطلعون بها لا تهىء لهم أسباب هذا القرب الذى نتحدث عنه . فالادارى الذى يستغرق جهده ووقته فى تصريف الشؤون الادارية ولا يدرس التلاميذ ولا يخالطهم يكون بعيداً عنهم وقد يرون فى بعض طرائقه التى يباشر بها عمله وواجباته غلظة وفضاظة تنفر منها نفوسهم ، بينما هو فى حقيقة أمره انسان رقيق عذب الروح

والسجاياء، ولكن مظاهر الحزم الإداري هي التي تغيب عن تلامذته هذه الرقة والعذوبة ولقد غاب عنهم أيضاً أنه لولا ذلك الحزم والانضباط لا نفرط عقد ذلك المجتمع المدرسي المعافى الذي أرحى عليهم من غضارة نعماء الأمانة أورف الظلال . ولقد قدر لى أن أقف على حقيقة الاستاذ احمد ميرغنى شكاك اثر حدثين ليس لأى منهما أهمية تذكر ولكنى لست أنساها أبداً . أولهما أننا كنا فى ذات صباح نركض فى فناء المدرسة أثناء الفسحة ودلفنا دون شعور منا أو قصد إلى الردهة الواقعة قبالة مكتبه . فخرج غاضباً ونادى علينا فجئنا اليه وقد تفرق عنى الآخرون، فاقترادنى إلى داخل مكتبه وأمر عم مبارك بجلدى ست جلدات . ولكنه سألنى قبل انزال العقوبة عنى كانوا معى من التلاميذ يتراخضون فأنكرتهم جميعاً وأنا بهم عليم . فقال لى: اذا لم تخبرنى بأسمائهم فانك ستنتال عشر جلدات بدل الست . ولكن الله ثبتنى بالقول الثابت فى ذلك الحين فلم أسلمهم ابداً وإنما بقيت على قولى إنى كنت وحدى واستلقيت على الكنبه مفوضاً أمرى لله متستراً على من كان معى متحملاً الأذى لوحدى . ولقد كانت دهشتى عظيمة عندما أمرنى بأن أقوم واقفاً وصرف عنى عم مبارك وهو يتلمظ من وراء ابتسامه حسرى وسوطه فى يده خزيان ينظر . وتعاضمت دهشتى مراراً عندما قال لى بعد حوار طويل وفى رقة سائلة عجزت كل مظاهر الحزم البادية عليه أن تخفيها عنى: أنت ولد شجاع . اذهب فقد عفوت عنك هذه المرة . ثم ضحك ضحكة عابرة أثارته وجهه بمعنى لم أطلع عليه من قبل فانصرفت راضياً موفوراً . ولما رويت ماشهدت على من كانوا يركضون معى عبر تلك الردهة لم يفقهوا قولى من شدة تكذيبهم لما رويت فما كان منهم من يصدق أن أحداً يمكن أن ينجو من العقاب خصوصاً إذا كان الجرم واضحاً وكان الحكم هو الاستاذ احمد ميرغنى شكاك . وأما ثانى الحدثين فقد وقع لى بعد نهاية الحصه الأخيرة ونحن تلاميذ فى السنة الرابعة . ففى ذلك اليوم ويعد أن صلصل جرس عم مبارك الأخير وخرج من فصلنا الاستاذ تعالى بيننا الصخب والضجيج ونحن نعد للخروج من الفصل . وكنت قد فتحت درجى بحركة سريعة

وأنا فى آخر الصف الاول ، ثم أعدت غطاءه عليه أيضاً بحركة سريعة . ولعل هذا الصخب والضجيج هو الذى دفع الناظر للحضور فى تلك اللحظة فأبصرته عند باب الفصل وأنا اغلق درجى وقد تطاير الحبر من المحبرة فرش ظهر الدرج وسقطت منه بقع على البلاط . فرأى هو ذلك بعينيه ونادانى إلى مكتبه ، وحكم على بست جلدات تلقيتها صامداً دون حراك ، ولكنى بكيت بكاءً مرأً لأنه اتهمنى بالهرجلة وأنا منها برئى واعترفت باندلاق الحبر من محبرتى ولكن دون قصد منى . واذكر انى قلت له وفى نفسى حرقة ، وكان ذلك بعد أن تلقيت العقاب « يافندى وحات المهدي أنما ما هرجلت » . فرأيت انه دهش لقسمى هذا أيما دهشة ولعله أيقن أن بكائى انما كان وليد الحرقة والاحساس بالظلم فعاد على بتلك الرقة العجيبة التى خبرتها فيه من قبل وطيب خاطرى حتى غادرته وأنا راضٍ طيب النفس . وكان أن قصصت هذا الحدث على أبى يرحمه الله فأخذنى معه فى زيارة للاستاذ أحمد فى داره فى العباسية . وهناك استقبلنا الاستاذ اعظم استقبال وكرم وفادة أبى عليه أبلغ اكرام ونعمت ساعة بالتعرف فيه على شخص غير الذى يعرفه أولاد ام درمان الاميرية . فهو رجل بسيط يضحك ويتهلل وجهه بالسرور ، ويروى القصص ويقرى الأضياف ويتحدث عن أمجاد المهديّة حديث المعجب الخبير .

ذلك هو الاستاذ أحمد ميرغنى شكاك ناظر ام درمان الاميرية الذى حجبت عنا حقيقته السمحة مهامه الادارية وخفيت عنا خلائقه الداعية إلى القرب من وراء حزمه الذى يغرى بالنفور . ولقد علمنا من بعد أنه كان من الاساتذة القلائل الذين شهد لهم حقل التعليم والمعارف وادارة المؤسسات التدريبية التنويرية بحسن البلاء . أعطى كثيراً وعاش حياة البسطاء المستورين وترك من ورائه ذكرى عطرة .

غدير أترع الأوطان خيراً ## وان لم تمتلئ منه نويًا  
وقد تآتى الجداول فى خشوع ## بما قد يُعجز السيل الأتيا  
حياة معلم طفنت وكسّانت ## سراجاً يعجب السارى وضيا



وكان الاستاذ على حسنى عميداً لمدرسة التجارة الثانوية الصغرى . ولعله كان أيضاً مشرفاً على المدرسة الاميرية الوسطى التى تحتل الطابق الأرضى من المبنى . وهو رجل رزق بسطة فى الجسم وارتفاعاً فى القامة يسمان مظهره الكلى بالهيبة والوقار . ومع ذلك فقد أوتى من خفة الروح وملكة الدعابة الساخرة الموجهة ما حجب فيه زملاءه وتلامذته على السواء . فكانت تعليقاته الذكية المرحة التى يطلقها من حين لآخر تتناقل سريعاً بين الناس وتشيع فى الأنفس الواناً من أفانين الحيوية والمراح . وعلى الرغم من بياض لون بشرته الظاهر فقد كان الاستاذ على حسنى سودانياً خالصاً فى كل شأنه حتى النخاع ورجلاً متواضعاً فى المظهر والمخبر ، يجمع إلى صرامة القبضة الادارية المستبصرة تلقائية مرسلة ، وكلفاً قسطاً متزناً بالطرفة والملحة والدعابة يقربه من وجدان تلامذته ورفاقه الاساتذة ، ويوشك أن يطوى ما تبسطه فيما بينه وبينهم مواقع الوظيفة وتباين درجات الواجب والمسئولية من مسافات. لقد اشتهر الاستاذ على حسنى بابتداع الطرائف المحكمة والنوادر البديعة . ولعل اكثرنا لم يطلع على كثير منها فى تلك الأزمنة ، فما كان لعقولنا الصغيرة أن تقف على أسرار الكلام الذكى يتجس من لسان ذرب ومنطق حكيم وعقل موفور يحسن انتقاء الكلمات والتعابير . وإنما شاعت بعض تعليقاته اللبقة الساخرة بين الناس بعد أزمان من تلك الأيام ، وهى مقولات فيها من الفطنة وعمق المعانى شئ كثير ، وفيها من نفاذ نور البصيرة وحسن الادراك لعواقب الامور ماشهدته وتناقلت أنباءه ثل متباينة الرؤى والمشارب من المثقفين الذين كانت تنعقد منتدياتهم ومجالس انسهم ونقاشهم فى مقهى السليمانى الشهير فى الخرطوم « نمره اتنين » فى مطلع السبعينات .

ولعلك تعلم أن الاستاذ على حسنى من أصول مصرية . فقد كان والده السيد حسن حسنى مصرى الجنسية أصلاً . وكان فى زمنه موظفاً للتلغراف ذا إلمام جيد باللغة الانجليزية . وهو الذى صحب نونالد ستيوارت مساعد غردون على الباخرة عباس مترجماً . فتحركت بهم الباخرة فى العاشر من سبتمبر عام ١٨٨٤ وهى محملة بحقائب

تحوى أوراقاً مهمة . ولكن الباخرة اصطدمت بصخرة فى النيل عطلت مسيرتها صوب الشمال ، وكان ذلك فى يوم الخميس الثامن عشر من سبتمبر بالقرب من قرية الهبة ( ام دويمة فيما بعد ) . وعندما طلب الكولونيل ستيفورات من السيد حسن حسنى النزول مع بعض رسله للاستطلاع أبدى نوعاً من العزوف عن اطاعة الأوامر . ولكن الكولونيل - فيما يقال - هدده بالقتل . فاستقل مع آخرين زورقاً إلى الشاطئ . ثم كان من أمر الباخرة عباس وطاقمها وركابها على ايدي المناصير ماروته كتب التاريخ . تقول بعض المصادر أن السيد حسن حسنى قد لعب دوراً هاماً لصالح الثورة المهدية فى هذه الواقعة وأنه تصرف بذكاء أرضى عنه الثوار . ولعل هذا الذكاء البصير بعواقب الامور هو بعض ماورثه الاستاذ على حسنى من مكارم أبيه . ولعل هذا التصرف - إذا صحت الرواية - يشير إلى حقيقة المشاعر التى كانت تربط بين شعبى وادى النيل فى تلك العهود السالفة . ومهما يكن من أمر فقد كان الاستاذ على حسنى مواطناً سودانياً صميماً عقب السجايا ، انفق العمر فى خدمة هذه البلاد وتنشئة بنيتها على أقوم الأسس وأجدى المعارف واطيب الخلال ، ونشر من درر مقولاته الطريفة الهادفة ما استقر فى معجم النوادر السياسية السودانية طرائف تروى على مر الأيام . وكان من بين زملائنا فى ام درمان الاميرية ابناه أمين ومحمود . أما أمين فقد كان فى فصل الأوائل من أبناء دفعتنا وقد ربطت بينى وبينه صداقة لا تزال وفيها لها رغم أنى لم أراه منذ سنوات عديدة . ولقد ورث أمين عن أبيه خصلتى الاستقامة والجدية ، وأفضت به مسيرته اللاحقة إلى القوات المسلحة ضابطاً متميزاً بحسن الأداء وحلاوة المعشر . وأما محمود فقد كان وراعنا فى المدرسة الاميرية بدفعتين . وقد ورث عن أبيه البسطة فى الجسم والخفة فى الروح والقدرة على الدعابة الساخرة الهادفة . ورغم انى لم ألتق به منذ أن فارقت ام درمان الاميرية الوسطى إلا أنى لا ازال اذكر جلابيته وهى معرفة بالتراب على أثر « شكلات » كانت تجررها عليه بعض مقولاته الهازئه فيتكأثر عليه ممن يصيبهم رشاشها خلق كثير . فلا يهرع إلى نجدته شقيقه

القوى الامين ، وهو صقر من صقور الأوائل دون ريب ، لأنه كان يعلم أن الأمر لم يكن ليتعدى حدود الهزل البرئ . ولو علم بغير ذلك لما وقف امام قبضته القوية الا أحاد من الصقور تربط بينه وبينهم اتفاقية عدم اعتداء غير مكتوبة . ولا بد أن الاستاذ على حسنى كان على علم بكل ذلك ، ولكنه كان لا يزيد علي أن يتغافل عنه ويضحك لأن الكل أبنائه .

ونحن لم ندرك الاستاذ بابكر على أبوفى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي ولكننا أدركنا من ورائه لوافت من سمعة طيبة يتحدث بها الناس . فقد كان الاستاذ بابكر ضابط المدرسة فيما يروي علينا . ورغم أنه عرف بالصرامة وشدة الانضباط - وهما أمران يضيق بهما التلاميذ أشد الضيق - إلا أنه عرف قبل ذلك بالاستقامة والأمانة والتفانى فى أداء الواجب وجليل الاهتمام بأمر تلامذته وكل شأن يرفع من قدر المدرسة . وليس فى ذلك من غرابة . فالاستاذ بابكر على من خيار أهل الكوة المعطاءة التى وهبت هذه البلاد كوكبة مضيئة من الرجال البررة الأكفاء والنساء الفضليات المرابطات ممن حفلت بهم شتى ميادين المعارف والعطاء عبر السنين والأجيال . وهو من اسرة عريقة مشهود لها بالأصالة والدين وحسن البلاء . وهو واحد من طيور كثر صواحح انتجتها رحم الكوة الولود فطارت ثم حلقت فى افاق البلاد وجابت أرجاءها دون ملل أو نكوص ، تتغنى بحب الوطن وتبشر بالصبح الجديد . فكان منهم المعلم المتفانى والقانونى الضليع والطبيب الحانى والديپلوماسى الفطن والسياسى الامين والعالم المخبت والجندى المقدام والمهندس المقتدر والشاعر المفلق والفنان الموهوب والباحث المدقق والتاجر الأمين والصانع الماهر والمرأة الفارسة المؤمنة . فمن بين اولئك وهؤلاء نجم الاستاذ بابكر على كما نجم غيره من أهل مهنته فزينوها بميسم الصدق والأمانة ورفع الأذى وكلهم خلف فى مضابطها سيرة عطرة لا تبلى ولا تزول .

ولقد جاء إلى مدرسة ام درمان الاميرية الوسطى فيمن جاء من شباب الاساتذة فى تلك الأزمنة شقيقى الاستاذ الصادق عبدالله حامد ، الذى قدم لفترة قصيرة من

التدريب ولعله كان أصغر الاساتذة سنأ . ورغم أنى كنت فرحأ فى سريرتى بمقدمه وانضمامه لهيئه التدريس إلا أنى كنت مشفقأ من أمرين : أولهما أن يجد فيه شياطين التلاميذ مأخذأ يأخذونه عليه فيحيلون حياتى بينهم بألسنتهم السليطة إلى جحيم لا يطاق . فهم يبحثون عن كل دقيق وجليل يتعلق بشأن الاستاذ وخاصة اذا كان ذلك الاستاذ حديث عهد بهم . غير أن الصادق كان مثلاً طيبأ للشباب السودانى المستمسك بمحاسن الأخلاق وسائر امهات الفضائل ، وهو لا يزال كما كان ، أمة من المكارم وسعة الصدر والافق وعمق المعرفة وكمال الدين . ولو أنهم وجدوا فيه ما يغريهم به لما أقام عبثهم الطفولى وزناً لشيئ « ولكن لم يروا فيه مطمعا » . فشهد له من أنصف بالكفاءة والنبل والمروءة ، وصمت عنه من كان يبحث عن منقصة ، فغادرهم ولسان حاله قائل لهم :

كم تطلبون لنا عيبأ فيعجزكم \* \* ويكره الله ما تآتون والكرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفى \* \* أنا الثريا وذان الشيب والهزم

وثانى الأمرين أنى قد ألمحت لك فيما قد مضى من هذه الصفحات أن الشقى من بين التلاميذ هو من كان قريب له استاذأ فى المدرسة . وذلك أن اولئك المردة الصغار انما يبتغون إلى العبث والسخرية والهزء كافة الأسباب والسبل . ومن بينها أن احرازك لنتائج طيبة فى دروسك وامتحاناتك إنما يعزى إلى استنادك فى قريك الاستاذ إلى ركن شديد . ولقد انجانى الله بفضلله من مثل هذا الاتهام وبوائقه وتبعاته ، وذلك أيضاً بأمرين . أولهما أن شقيقى الصادق لم يقم بمهمة التدريس فى فصلنا الامرة أو مرتين لم يكن فيهما امتحان ولا هو توجه إلى خلالهما بسؤال . وثانيهما أنه عرف بين تلاميذ الفصول الأخرى التى كان يختلف اليها بالنزاهة والتواضع واتقان العمل والاهتمام الحانى بشأن التلاميذ . وعلى كل فهو لم يلبث بين ظهرانينا إلا يسيراً فقد فارقنا إلى معهد تدريب المعلمين فى مبروكة ثم طاف اصقاع البلاد جميعها ظاعناً ومقيماً مع زملاء له كرام ، ينشر معهم انوار المعرفة ويعلى قيم الرشاد . أولئك أقوام ميامين ، من حقهم علينا أن نذكرهم بالخير ، فقد انفقوا زهرة العمر فى تهيئة أجيال

أفادت منهم البلاد خيراً كثيراً .

ولست أنسى ابدأ الاستاذ سعيد ضرار ( أو درار ، أيهما أصح ) الذى كان قمرأ من أقمار تعليم اللغة الانجليزية . فقد جاء الينا من مدرسة وادى سيدنا الثانوية حيث اشتهر بالنبوغ والتقدم على سائر زملائه . وهو من اسرة عريقة موطنها جزائر الأشراف فى شمال السودان . ولم اكن اعلم حينها أنه من أهلى وعشيرتى . ولقد كان الاستاذ سعيد شاباً وسيماً مكتمل الوسامة تلوح على خديه شلوخ عمودية متوازنة ، ويعلو رأسه شعر سيببى جثل دجوحى ، وهو دوماً يرتدى بدلة كحلية أو سوداء وربطة عنق غاية فى الأناقة والظرف ، ويتحدث اللغة الانجليزية بطلاقة وفصاحة لا تعرف اللحن ولا الغموض . وهو ذات الرجل الذى ان لقيته اليوم فلن تعرفه ، فقد صار سعيد أواخر الاربعينات الأنيق المهنتم بلباس الافرنج فقيراً سائحاً فى رحاب الله منذ أمد بعيد . فهو اليوم يرتدى المرقعة ويرسل اللحية ويحمل راية المهديّة حيثما سار ، صدره موقر بالقرآن والحديث ولسانه رطب بالذكر والتوحيد ، قدماه مغبرتان بتراب الأرض وفكره معلق بملكوت السماء . كان سعيد فى طبيعة المرشحين لدخول الجامعه ويلوغ مراتب التفوق فيها . وكان وقد اكتفى بما هو دون ذلك من القلائل الذين يرتجى لهم مستقبل رغد وضىء فى حلبة التعليم وسلم الوظيفة . ولكنه أثر الدين على الدنيا ورغب فى الآخرة عن الاولى . زهد فى ما لايدوم ولا يبقى وأقبل على ما لا ينفد ولا يفنى . فهو اليوم يعيش بين الناس بعيون تبصر ما يبصرون وبصيرة تطلع على ما لايدركون .. بحر لجى فى علوم الدين واللغات ، بليغ الموعظة قليل الجدل . يحسبه البعض جاهلاً أو درويشاً فلا يعباؤن به ، وهو عالم محيط . يخاطبهم لسان حاله لويسمعون ويعلمون :

على ثياب لويباع جميعها \* \* \* بفلس لكان الفلاس منهن أكثرا

وفيهن نفس لويقاس ببعضها \* \* \* نفوس السورى كانت أجل واكبرا

وماضراً نصل السيف إخلاقُ غمده \* \* \* اذا كان عضباً أينما وجههُ فرى

وتولى الاستاذ يوسف زمراوى أيضاً نظارة المدرسة وكان رجلاً محبوباً بين التلاميذ

طلق الوجهه كثير الابتسام شديد العناية بأمر تلامذة المدرسة . وقد عرف بأنه أنصارى العقيدة وأنه كان سكرتيراً للجنة التعليم بدائرة المهدي وهي لجنة الفها الامام عبد الرحمن المهدي ورسد لها مبالغ طائلة من ماله الخاص لا عانة الطلاب السودانيين فى المعاهد التعليمية داخل السودان وخارجه . وهى بعض الأيادى الحانية الكثر التى غمر بها الامام ناشئته بنى وطنه فى كرم ومروءة وصدق وطنية لم تعرف لها البلاد مثيلاً . ورغم أن الاستاذ زمرأوى لم يضطلع بمهمة تدريس فصلنا إلا أننا كنا نراه كثيراً . فهو رجل دؤوب دائم الحركة تعلق وجهه علائم البشر على الدوام . ولم نره يعاقب تلميذاً أو يغلظ عليه فى القول . وعلى الرغم من أنه كان ناظر المدرسة والسلطة العليا فيها إلا أنه كان ميالاً إلى البساطة فى ملبسه وممشاه وفى حديثه وتعامله مع الناس . وهو طويل القامة فى غير ما افراط ، ممتلئ الجسم امتلاء يناسب ارتفاع قامته ، يعصمه من النحافة والهزال ، ولا يدفع به إلى تخوم السمنة والترهل . ولعله كان فى مطلع أو منتصف الخمسينات من العمر ، يدل على ذلك انحسار فى شعر مقدمة رأسه وشيب يغطى ما تبقى من شعر الفودين ، وجلحتان ملساءان من وراء جبين لا يخلو من بواكير غضون وتجاعيد ولكنه طلق متهلل . وهو أحياناً يغطى رأسه بالكسكتة أو البرنيطة إلا أن ذلك كان يحدث فيما ندر .

ولقد كان الكثيرون ممن سبقونا فى فصول الدراسة يشبهون الاستاذ زمرأوى بالاستاذ عبد القادر شريف . فهما - كما قيل لنا - يتماثلان فى العمر وبساطة المظهر والقرب من قلوب التلاميذ والاساتذة على السواء . ولقد كان التلاميذ كثيراً ما يتساءلون عن « العقائد » الكروية لاساتذتهم ، فهم اكثر اهتماماً بها من أى عقائد أخرى . وكان الاستاذ زمرأوى والاستاذ عبد القادر شريف كثيراً ما يشاهدان فى دار الرياضة بين رواد المسطبة الوسطى . ويبدو أن الهلالاب كانوا أغلبية بين التلاميذ ، أو أن أصوات الهلالاب بينهم كانت أقوى وأعلى مما سواها . ولقد أكد لنا الخبراء من التلاميذ الذين يجيدون فن التشعبط على حيطة دار الرياضة أن الاستاذ يوسف

زمرأى لم يكن هلالياً وإنما كان مريخياً حتى النخاع . واتخذ عبد الكريم من هذا التصنيف الذى ارتضاه وأطمأن إليه متكاً يسند نظريته التى روج لها بين الناس وزعم أنها علمية تقوم على القاعدة الحسابية الرياضية القائلة بأن نفى النفى اثبات أو ما يمكن أن نعبر عنه بصورة أقرب إلي طلاس لغة الحساب اذا قلنا إن « ناقص ناقص تساوى زانداً » . يقول عبد الكريم إن الاستاذ يوسف زمرأى يسكن حى ود نوبأوى وهو دائم الارتياح لدار الرياضة فلا بد أن يكون مريخياً . ولو أن عبد الكريم استعان بنظرية « البرهان بالاقصاء » ( Proof By Exhaustion ) لكان أقرب إلى منطق الحساب والرياضيات عموماً . ولكنه غير ملام فى ذلك لأننا لم نكن بعد قد وقفنا على هذه النظرية . وهى فى حقيقتها نظرية بسيطة تفترض بضعة احتمالات للشئ الصحيح وأن الصحيح واحد فى كل الأحوال لا ثانى له وإنما يتوصل إليه بالترجيح . فاذا استنطعت أن تبرهن أن احتمالين من ثلاث ليسا صحيحين فالثالث هو الصحيح . فالاستاذ يوسف زمرأى ليس مورداً بالقطع أيضاً لأن البراهين على هذا متوفرة . فلم يبق الا أن يكون مريخياً دون ريب . ومعلوم أنه لا يحمل عواطف نحو النيل أو الأهلى أو الكوكب أو استاك لأنه ليس من سكان الخرطوم ولا من سكان الخرطوم بحرى، ورغم أنه أمدرمانى أصيل إلا أنه لا يتصور من مثله أن يكون متعلق الوجدان بفريق الوطن أو الشاطىء أو « ابو عنجة » ولا حتى بفريق الاخلاص أو ود نوبأوى إلا أن يكون ذلك بالنسبة للفريقين الأخيرين من باب العطف الذى يمليه واجب الجوار ولا يرقى إلى درجة العقيدة . ولكن بالرغم من التباين الواضح بين النظرية التى يسترشد بها عبد الكريم والنتائج التى يزعم أنه يصل إليها عن طريقها فإنه موفق فيما يخلص إليه من حكم نهائى وفتوى لا تقبل النقض . فقد اكد لنا التلاميذ الذين هم اكثر احاطة منا بمثل هذه « التصانيف » أن الاستاذ يوسف زمرأى مريخى بالفعل ، بل ان الاستاذ عبد القادر شريف نفسه أيضاً مريخى وهو عين الاستنتاج الذى وصل إليه عبد الكريم مستخدماً فى الوصول اليه ذات هذه النظرية الحسابية السحرية . وعندما

أجرى المهتمون بهذه الشؤون مزيداً من البحث والتنقيب فانهم وصفوا مريخايبية الاستاذ يوسف زمراوى بالاعتدال ونعتوا مريخايبية الاستاذ عبد القادر شريف بالقو والاسراف العاطفى . وساقوا دليلاً على ذلك طرائف من بينها أن الاستاذ عبد القادر شريف كان يبدو على درجة عالية من القلق والاضطراب والعصبية فى كل المباريات التى تتعقد بين فريقى الهلال والمريخ ، وخاصة عندما يكون « سنترفرود » الهلال هو عبد الخير صالح ، بينما يكون الاستاذ يوسف زمراوى على درجة طيبة من الهدوء والتماسك . فقد زعموا أن الكرة إذا وصلت إلى قدمى عبد الخير وهو على بعد مناسب للتهديف فى مرمى المريخ فان الاستاذ عبد القادر شريف يصاب بما يشبه حالة الذعر ولا يطيق رؤية نهاية مطاف الكرة لأنه يوقن أن شبك المريخ ستتهتز باصابة مدوية . ولذلك فهو يخفى وجهه بين يديه لا يود أن تبصر عيناه ما أيقن أنه سيحدث لا محالة ، وانما يسأل جاره فى اسى بالغ : « اسمع يافلان ... الزول داشات ولا لسع ماشات ؟ ويظل يكرر هذا السؤال فى لوعة لا تخلو من أمل فى أن « يكضب الله الشينة » ، وحتى يصل الأمر إلى نهايته المحتمومة وهى غالباً ما تكون اصابة مجلجلة . ذلك أن عبد الخير اذا استلم الكرة فى خط « تمنطاشر » فقل على قون المريخ السلام . ونحن قد شهدنا هذا اللاعب الفذ فى أواخر مجده الكروى بالسودان وسمعنا بأمجاده الكروية فى مصر من بعد ذلك حتى تقاعد . واذا كنا نسمع من بعض القنادف الملمين ببواطن الامور - ولكننا لا نرى رؤية عين - أن حمدتو مكتوب على رجله اليسرى « خطر » وكذلك طلعت فريد ، فان صدر عبد الخير ان يتلقى الكرة أشد خطراً من جميع الأرجل والأقدام الأخرى . واذا انحدرت الكرة من صدره إلى أى من قدميه فاعلم أن شبك المرمى توشك أن تهتز باصابة لن يملك الحارس لها دفعاً ولا عدلاً ولا صرفاً وان كان معتصماً بسد ذى القرنين ! وما سؤال الاستاذ عبد القادر شريف « الزول داشات ولا لسع » إلا تحصيل حاصل ، لأنه اذا استلم الكرة فلسوف « يشوت » ، وربما راوغ قبل أن يفعل ذلك . واذا شات فالنتيجة معروفة لأن سهام عبد الخير لا تطيش أبداً وان كان



بعيداً عما يسمى بمنطقة الخطورة بالنسبة للمرمى ، ورغم أن اليون شاسع بين سهم وسهم وبين اصابة واصابه وبين الكرة والصيابة وبين المرمى والفؤاد إلا أن دقة التصويب وبراعة الاستلاب قد تذكر رغم المفارقات بقول الشريف يعتب متشيباً فى رقة وظرف :

سهم أصاب وراميه بذى سلم \* \* من بالعراق ... لقد أبعدت مرمك  
هذا بعض مارواه لنا الخبراء المطلعون على الأسرار وبواطن الامور ، وهو يعنى أن  
كلاً من الاستاذين الناظرين مريخابى لا تقوته مباراة بين الهلال والمريخ أبداً . والفرق  
أن احدهما يرى كل شئ والاخر لا يطيق ان يرى كل شئ لأنه حسب منظور هذه  
الرواية لم يشاهد بعينه أبداً كيف يسجل عبد الخير أهداف الفوز فى مرمى المريخ .  
فاذا صح هذا - والعهد على الرواة - فانه من عجائب فنون الانتماء الكروى  
« العقائدى » وتباين درجات الثبات العاطفى ، وهو يبنى عن سماحة أحاسيس أحد  
الاستاذين الناظرين وعن رقة مشاعر الناظر الاخر وشفافية روحه على هذا الصعيد ،  
ولكم فى دنيا الكرة من أعاجيب !

### **وهؤلاء نذكرهم بعرفان ومحبة :**

كما أن هناك نقرأ كريماً من اساتذتنا فى ام درمان الاميرية نذكر منهم الاساتذة  
احمد اسماعيل النضيف وتوفيق احمد سليمان وعموض طلحة وابراهيم الياس وعبد  
الوهاب الشيخ وخليفة خوجلى ومحمد عبد الماجد وحسن رابع وحسن محمد الامين  
ومحجوب على والشيخ الخاتم ومدنى ومالك محمد مالك ومحمود على الياس وعمر  
مصطفى واخرين ربما ورد أو سيرد ذكر طرف من أنباء بعضهم على هذه الصفحات .  
فالاستاذ النضيف من شباب الأساتذة الذين لاحت لنا من قسماات وجوههم المضيئة  
ومن بعض اشاراتهم العابرة بوادر المعانى الدالة على صدق الاحساس الوطنى والتطلع  
المشروع إلى تحقيق امانى التحرر واسترداد السيادة القومية . وكذلك الاستاذ ابراهيم  
الياس والاستاذ خليفة خوجلى الذين صدق حدس التلامذة الصغار بشأنهما اذا أنهما

صارا نجمين فيما تلا تلك الايام من عهود ، كل فى مجال يناسب ثقافته وقدراته ومواهبه ، لصيق الصلة بقضايا الوطن وهمومه الكبرى . وكان الاستاذ محمد عبد الماجد احمد - وهو استاذ شديد العناية بمظهره وملبسه - مثلاً حياً للمعلم الذى يتجاوز عن هفوات تلامذته وهرجهم ويشيح باذنيه عن فضول الكلام فيتقاضى ما يستحقه من إكبار وتوقير . فهو إذ يجلس على كرسيه عند منضدة الاستاذ انما يلقى درسه فى هدوء تام ، ولا يعير انتباهاً لما تحدثه شيطنة العفاريت من التلاميذ . وعلى الرغم من بياض لون بشرته الملفت للنظر فان هدوءه الوافى وتسامحه الأصيل قد شفعا له عند غلاة المصنفين وعلماء الأجناس من تلامذته فسلم من أن تشتغل به مجالسهم إلا فيما هو خير وطيب أحوثة . وهى عادة مجالس لا تغادر شأناً من شؤون الاساتذة - بما فى ذلك قبائلهم وأعرافهم وأصولهم - الا وهو بعض مادة حديثها ومداولاتها . فهم الذين فرقوا بين الاستاذ مدنى وشقيقه الاستاذ مالك ، فوصفوا الأول بالشعبية والبساطة وأثنوا على تواضعه ، بينما نعتوا الثانى - وهو شاب وسيم دقيق الجرم صغير حجم البنية الجسدية - بأنه غامض بعض الشئ .. وما كان ذلك إلا لأنه يصبر على ارتداء البدلة الكاملة فى كل أحيانه ، ويجنح إلى الصمت فلا يكتر من الكلام . وهم قد أبدوا عطفاً نحو الاستاذ عوض طلحة لا أعلم حقيقة السر من ورائه ولكنى أرجح بناء على بعض فتاوى تطوع بها عبد الرحيم قلى - أن هرجلة التلاميذ كانت تبلغ ذروتها فى حصته فلا يبدي لهم صفحة سوء . وبدل أن يصفوه بالطيبة فانى رأيتهم يصفونه بالمسكنة وهى من نوع المسكنة التى قد تستدر العطف . ثم هو بعد ذلك لم يتميز فى نظرهم مثل شباب الاساتذة بلون عقائدى خاص ، سواء كان ذلك اللون كروياً أو غير ذلك . وهذا عندهم أيضاً من علامات المسكنة . ولكنه كان - على كل حال - استاذاً فى المدرسة وكان بمقدوره أن يريهم « العين الحمراء » ان هو أراد . ولكنه قليلاً ما كان يفعل ذلك ، حتى غلب عليه التغافل عن فورات نزقهم العبثى الدائب .

ولقد الف التلاميذ نمطاً من الشدة والتشديد فى كل من الاستاذ عبد الوهاب الشيخ

والاستاذ محجوب على والاستاذ فرح محمد فرح والاستاذ ثابت أحمد ثابت حتى أطلقوا على الاخير لقب « الرجل الحديدى » ليجمعوا فى تعبير واحد بين نعته بالشدة والتذكير بأنه مفتول السواعد قوى البنية الجسدية كأنه طرزان بذاته وصفاته ولكن شدة هؤلاء الاساتذة لم تكن من النوع الذى يقطع الأنفاس ويزهق الأرواح وانما كانت شدة سائغة بفضل المرونة التى تخالطها ، فهى غير بالغة بهم متون الغلو والشطط ، وان كانت مستقيمة بهم على الجادة دوماً لا تطمعهم أبداً فى التراخى الذى قد يورث الفساد ويفضى الى الاستهانة بامور الدرس والتحصيل . ومن الطرائف الدالة على هذه المرونة أن أحد هؤلاء الاساتذة كان مولعاً بعقد امتحانات الاختبار التحريرية لتلامذته بين الفينة والأخرى ، وهو نمط تعليمى تربوى أثبتت الأيام جدواه وصحته وصار فى هذه الأزمنة الحالية من مستحدثات التطور والتقدم فى هذا الحقل وأصبح تقليداً راکزاً ومتبعاً فى بعض الجامعات التى تطلق عليه عبارة « التقييم المستمر » Continuous ( assessment ) . وكان هذا الاستاذ الذى سبق عصره يرمى من وراء عقد هذه الاختبارات المتتالية الى إعلاء قيم الاحساس بالمسئولية حتى لا يغفل تلامذته عن فضيلة استذكار دروسهم لحظة واحدة . وفى ذات صباح طلع علينا باختيار فى علم الجغرافيا كان قد حدد موعده قبل ذلك بيومين . وكان أحد التلاميذ يعتبر نفسه « مجلياً » أو « مسطحاً » فى هذه المادة ويرهب اختباراتنا ويخشاه ، على الرغم من أنه كان من تلاميذ المقدمة بين اولاد الفصل . ولما شكنا سوء إلمامه بعلم الجغرافيا لأحد العفاريت أشار عليه هذا « المسلط » بأن يحمل معه « بخرة » إلى داخل الفصل وشرح له معنى « البخرة » عموماً وأكد له أنها اجراء مشروع وأوهمه بالأتتريب عليه ان فعل . فأخذ هذا الفر المسكين ورقة كبيرة كتب عليها بعض المعلومات ثم وضعها أمامه على ظهر درجه غداة الامتحان « على عينك ياتاجر » ! ولما سأله الاستاذ عن تلك الورقة أجاب فى سذاجة بالغة وبراءة لا يتطرق إلى حقيقتها الشك : « دى بخرة يافندى » ! ويمكنك أن تتصور مدى دهشة الاستاذ وعجبه مما سمع ، ومدى الحرج الذى حشر فيه

هذا التلميذ نفسه لما تبين له فداحة ما ارتكب من جرم . ولكن مرونة الاستاذ واتته فى وقت مناسب . فهو قد اكتشف « البخرة » قبل أن يكتب أسئلة الاختبار على السبورة . فأخذ الورقة ومزقها وأعلم التلميذ بأن ما أتى به يعتبر سرقة فى وضح النهار . ولكنه رأى أن التلميذ لم يخف « بخرته » وانما طرحها أمامه فى سذاجة وبراعة وحسن نية ، فدل بذلك على أنه يجهل ما ينطوى عليه تصرفه من معنى . ولذلك أمسك الاستاذ عن المضى بالأمر إلى أكثر مما يحتمل ، وان كان قد عنفه على فعلته أشد تعنيف ثم تركه نهياً للحسرة والندامة والأسى دون أن يضاعف من معاناته النفسية بأى عقاب بدنى أو بأى جزاء معنوى آخر . ولقد كاد أن ينشب عراك مشهود بين هذا التلميذ وناصحه الذى أغواه وأوحى له باحتقاب « البخرة » لولا أن تداركهما تدخل الصقور الحاسم فى الفسحة فباعدوا بينهما ثم جدوا فى السعى حتى أصلحوا ذات بينهما فى أيام معدودات . وكانت كلمة « البخرة » بهذا المفهوم شيئاً جديداً لم نقف عليه من قبل ، رغم علمنا التام بأن « البخرة » التى يعرفها الناس انما هى واحدة من طرائق الرقى التى تمارس على نطاق واسع لدرء شر العين وابطال السحرواستجلاب العافية والشفاء من المرض باستنفار آيات الله البينات . أما استعمالها بهذا المعنى الذى تقدم فلم يدر بخلد أحد سوى ذلك العفريت الغاوى الذى أكد لنا هو الآخر أنه لم يكن يرى فيه ما يخل بالأمانة والصدق ، ولم نسمع به بعد ذلك إلا فيما كان يروى على أسماعنا من أقاصيص وحكايات تبتدع ابتداءً لتضفى على مسلك بعض الطلاب ما يجعل شيطنتهم ودهاءهم مضرب الأمثال ، فتثرى وتتنوع بذلك مادة «الونسة» ، ويتناقل الناس سير أصحاب هذه الأفاعيل المنحولة المختلقة وهم بين معجب ضاحك مسرور وساخر مشمنز مستنكر ومتعجب متحير يتحفظ فى حكمه وان كان يصدق كل الذى يقال ويروى فلا يرتاب فى صحة حدوثه .

ومن الاساتذة الذين يذكرهم تلامذة تلك الحقبة بوضوح الاستاذ حسن محمد الأمين والاستاذ توفيق احمد سليمان والاستاذ محمود على الياس . أما الاستاذ حسن محمد

الامين فقد كان مثل باستير رين محبس معمله فى اكثر أحيانه . فهو استاذ العلوم الذى تلقينا على يديه مبادئ التعرف على أسرار الكون التى رفع الله عنها الحجب ويسر لعباده شيئاً من التفقه فيها . وهو استاذ أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، ليس بالشديد السرعة ولا هو باللين الضاوى . فيه حزم وسمت أمر وعلى وجهه طلاقة ووداعة صامته . يرتدى جاكته تغاير فى لونها لون البنطلون ولكنها تشكل معه وحدة الانسجام فى التنوع . لبق حلو الحديث إلا حينما نجتمع عليه فى المعمل فانه حينذاك يتعامل معنا بلغة العلوم الصرفة حيث لا متسع لحلاوة الحديث بين مفردات تدور حول أرجل بعض الحشرات واجنحتها ، وتعقد - أو تفض - الزيجات المشروعة بين ذكور الغازات واناثها ، وتفتت الشئ الواحد إلى شظايا متفرقات ثم تعيده - إن شاء الله وشاعت - إلى وحدة متماسكة الأجزاء من جديد . وإذا خلا إلى نفسه فى معمله أو مكتبه رأيته صامتاً مطرقاً متأملاً يحدق فى الافق البعيد وكأنه يناجى سراديب المدى ويجتلى أسرار الغيوب ، فاذا دنوت منه وهو مستغرق يطوف مغارات ذلك العالم الاثيرى النائى فانه لا يكاد يشعر بك حتى تحدث مهمة أو جلبة يستفيق على أثرها فيطالعك بوجه ترتسم عليه ابتسامة شاحبة توشك أن تنضو عنه ظلال الحيرة وتجلو عنه غيوم التفكير والتنقل بين أقبية المجهول . كان كل شئ من حوله يوحى اليك بأنه غواص فى بحار المعرفة يتصيد أصداف العلوم . ولو أنه عاش فى عصر توفرت فيه الأسباب لسطع نجمه فى سماء العلوم . ولقد أوتى الاستاذ حسن لطفاً فى الخلائق والروح اجتذب اليه الناس ومهارة فى استلهاام الاجابات المقنعة على اسئلة السائلين ، ودقة فى انتقاء أجزل وأرق العبارات يدفع بها فى وجه محدثه فتستبيه . تلك صفات ومواهب شكلت فى نظرى - بواكير معارفه ومؤهلاته الدبلوماسية التى هيأته فيما بعد للاضطلاع بتمثيل السودان سفيراً له فى شتى عواصم الدنيا فكان مفخرة من مفاخر جيله وبلاده على السواء .

وأما الاستاذ توفيق احمد سليمان فقد كان ديدنه الهدوء التام والنظام والانضباط

الذى فاق كل وصف وأربى على كل تصور . وهو لم يكن يدرس اولاد فصلنا فى ام درمان الاميرية ولكنه كان من الشهرة وعلو القدر بمكان فى نفوس التلاميذ بحيث لا يتصور أن يجله أحد . ولكنه على الرغم من وقائه لرسائله وتمسكه الصارم بقواعد النظام وتصريفه لمهامه التعليمية والتربوية بكفاءة شهد له بها الناس قد كان شديد العطف على تلامذته يأخذهم باللين ويروض عقابيتهم بالملاطفة . ورغم أننا لم نقف على حقيقة انتمائه الكروى ولا انتماء الاستاذ حسن الكروى إلا أن ذلك لم يقلل من اهميتهما فى نظرنا . وقد طرحت علينا فى هذا الشأن نظريات عديدة ولكنها لم تجل هذا الأمر جلاء كافياً . واستخدم عبد الكريم نظريته الخالدة ليبرهن لنا أن الاستاذ حسن هلالابى واستند فى ذلك - فيما استند - على أن هذا الاستاذ من حى سوق الشجرة وهو توأم حى بيت المال . واجله بأعراق الاستاذ توفيق وحيه السكنى ، ولعدم توفر المعطيات التى يمكن أن تصلح لتطبيق نظريته فقد أعلن عبد الكريم عجزه عن تحديد مذهب الكروى بالدقة المطلوبة . وإذا عجز عبد الكريم عن الاتيان بالحق اليقين فى مثل هذه الامور فغيره أعجز وأجهل . ومن عجب أن الاستاذ توفيق الذى لم نشهده يعاقب تلميذاً فى ام درمان الاميرية كان هو عين الاستاذ الذى هدد كاتب هذه السطور بالجلد عقاباً له فيما بعد . وكان ذلك فى أوائل عهدنا بمدرسة خور طقت حين كان الاستاذ توفيق مراقب داخليتنا « ود تكتوك » . فبينما كنا نلعب الكرة فى « برندة » الداخلية اذا بها تنطلق من قدمى قوية لتهشم المصباح الكهربائى الذى كان مثبتاً بالحائط قبالتى . وقد أحدث ذلك دويماً وفرقة خف الينا على أثرها الاستاذ توفيق من غرفته . وعندما تبين له ما حدث من « مخالفة » سأل عن مرتكبها فقدمت له نفسى مقرأ بها . ورغم أننا كنا مجموعة من الفتية نلعب الكرة فانى لم أوثر الصمت وانما صدقته القول . فطلب منى أن احضر فى الغداة لمكتبه اتلقى عشر جلدات عقاباً لى على ما اقترفته من جرم . وكانت دهشته بالغة عندما قلت له ان تلميذ المدرسة الثانوية لا يعاقب بالجلد وعجب لقولى اشد العجب . ولكنه بعد حوار طويل ظلت خلاله متمسكاً بهذه القناعة

ضحك ضحكة طويلة لم نشهد مثلها عنده من قبل حتى اهتز رأسه وسائر جسده ثم غلبت عليه سماحته فتركنى وشأنى. وقد كانت تلك هى بعض تعاليم الحاج تبيدى التى تلقيناها فى أيامنا الأولى بخور طقت ، وهو يزعم أنها تقاليد مرعية وسارية فى كل من حنتوب ووادى سيدنا حيث قضى هو ورفاقه سنتهم الاولى من المرحلة الثانوية . ولو أنى ذكرت للاستاذ توفيق أن من بعض تعاليم الحاج تبيدى « دك الحصص» أيضاً بوصفه أحد حقوق الطالب الثانوى المكتسبة لما نجوت من العقاب ولربما جر ذلك على تبيدى من المتاعب ما هو فى غنى عنه . ولقد ظل الاستاذ توفيق طيلة بقائه معنا يضحك كلما لقينى ويعجب كيف تأتى لاطفال ام درمان الاميرية أن يتحولوا من سلاسة الانقياد إلى المجاهرة بالعصيان خلال هذه الفترة الوجيزة . ولو قدر له أن يلم بأطراف من التعاليم التبيدية التى انتظمت ذلك المجتمع الجديد فى سرعة ونفاذ لزال منه العجب ، ولأدرك أن الانتقال من حال الى حال هو غير الانتقال من موطن الى موطن .

أما الاستاذ محمود على الياس فقد كان أحد عشاق علم الرياضيات الذى يقوم بتدريسه ، وان لم يبلغ به هذا العشق مرتبة الهيام التى كان عليها الاستاذ غزالى السراج . فاذا كان الاستاذ غزالى يطلق لعاطفته العنان حتى تكاد أنفاسه أن تنقطع وهو يلح علينا فى أن الأصفار على شمال الواحد لا تساوى شيئاً وان زادت على المائة ، فان الاستاذ محمود كان اكثر هدوءاً فى شروحه لا يسلم نفسه للانفعال أبداً وإن انس فى تلامذته جهلاً بجدول الضرب . وهو - بخلاف الاستاذ غزالى - لا يؤاخذك على نسيان المقابل والمجاور وظل الزاوية فى غمرة حزنك على وفاة والدك المفاجئة بل هو من المرونة بحيث يسمح لك أن تبكى عزيزك الذى فارق الحياة دون مقدمات وأن تلطم خديك أسى وحزناً عليه ولكن يتوجب عليك - بعد أن تقضى من البكاء « وطراً » - ان تذكر فى سريرتك بوضوح أن المقابل على المجاور يساوى ظل الزاوية لأن هذه المعادلة فى نظر أهل العشق الحسابى الرياضى حقيقة ثابتة مثل الموت تماماً لا تتبدل ولا تتغير طوال العهود والدهور . ومن الخيرك أن تدرك ذلك وتتمثله فى جميع أحوالك فانك ان لم تفعل ذلك فلا بد أن تختضب ورقة امتحانك بما يشبه دم الديك المذبوح

وعندها تكون بين شقى الرحى اللذين هما عم مبارك وولى امرك ، وان ينجيك من طحن هذه « المرحاكة » أنك ولد شاطر نبابه الحظ أو غلب عليه الحزن فأنساه ما ليس من حقه أن ينساه . فالاستاذ محمود على الياس لا يغلو فى شئ ولكنه لايساوم فى « الثوابت » ولايقبل التهاون بالمرتكزات الاساسية . وهو الذى أتاح لنا بشروحه الدقيقة وامثلته السهلة الواضحة أن نقف على اساسيات مادة علم الرياضيات بما يشبه اليقين ويشارف الاقتناع . وكانت الأمثلة التى يضربها والمقارنات التى يعقدها لتقريب أَلغاز هذه المادة المستعصية على الفهوم من أذهان تلامذته هى التى حببت فيه عبد الكريم ورفاقه ، وهى التى استقى منها عبد الكريم نظريته وصار يحاول تطبيقها فى كل شأن من الشؤون ، وهى عين النظرية القائلة بأن نفى النفى اثبات ، وأساسها فى لغة المعادلات الحسابية هو أن « ناقص ناقص تساوى زائداً » . وقد كان الاستاذ محمود على الياس يجد بعض الصعوبة فى اقناع أقوام بأنها قاعدة صحيحة ، ولذلك فقد استعان لتقريبها من فهمهم بمثاله الذى كان يردده على الدوام وهو أن « عدو عدوك صديقك » وقد أعجب عبد الكريم ورفقته بهذا المثال كل الاعجاب لأنه مثال واقعى فى نظرهم وله من الدلائل الواسعة الانتشار فى ذلك الوسط المدرسى الصاخب ما يؤكد على صحته ويبرهن برهانا ساطعاً على سلامته . وكان الاستاذ محمود نفسه ينفعل بهذا المثال اذ يردده على مسامعنا دون أن يمل ، يشير الينا باصبعه الأوسط من أصابع يده وهو اصبع يظل ممدوداً على الدوام حتى حينما يجمع الاستاذ بقية اصابعه على كفه ، وهذا من الغرائب التى كانت تثير اهتمام التلاميذ وتدعو انتباههم لما يقول . ولم يدر بخلد أحد منهم أن تلك الاستقامة « الاصبعية » ربما كانت نتيجة علة قديمة فى المفصل أو وتر العضل الذى يتصل بالعظام ولكنها كانت فى نظرهم أحد ضروب السحر التى امتازت بها شروح استاذهم وبرع هو فى الاستحواذ بها على انتباههم ومتابعتهم الدقيقة لكل مايسوق اليهم من شرح وتبيين . و هو عندما يردد هذا المثال مشيراً بهذه الاصبع السحرية فانه يتحدث وقد أمال فمه إلى جهة اليسار إمالة ظاهرة لا تخطئها



عين لأنها جاذبة للانتباه أيضاً ، ولكنه ما أن يفرغ من تثبيت الامثلة التي يريد في أذهان التلاميذ حتى يعود فمه إلى اعتداله الطبيعي ويكتسى وجهه بقسامته المعهودة وتسطع مشرقة منه تلك البسمة الراضية التي تنبئ عن ثقة مطمئنة بالنفس واحتفال ظاهر بالمقدرات الذاتية وسعادة غامرة بأنه قد بلغ ما انيط به من رسالة إلى تلامذته الصغار وأنهم قد تلقوا هذه الرسالة بأذهان مفتوحة وادركوا معانيها خير ادراك . ذلك هو الاستاذ محمود على الياس الذي أشقى نفسه ليسعدنا . وقد بلغنا من بعد أنه ارتقى إلى وظيفة كبرى في مشروع الجزيرة . ولو علمنا حينها - ونحن نحمل له عظيم الاجلال والتقدير والعرفان - لتصرفنا في أبيات شوقى وأنشدناه :

ياعزيزاً لنا « نجلٌ » علمنا .  
سرنّا أنك ارتقيت وترقى .  
رتبة ألسن العلاء أرتختها .  
أنت محمود في العلاء المتمايز

اما الشيخ الخاتم فقد كان أستاذاً ذا شأن مرموق بين الناس . فهو شيخ ربما كان في منتصف الخمسينات من عمره آنذاك طويل القامة ممتلئ الجسم امتلاءً معتدلاً يناسب ارتفاع قامته فيكسوه هيبة وجلال هيئة وحسن منظر . يرتدى ملابس الشيوخ التقليدية التي تشتمل على القفطان والفرجية وغطاء الرأس الذي يتكون من العمامة البيضاء الزاهية والقلنسوة الطربوشية الحمراء . ولكنه يمتاز بذوق رفيع في تخير الوان ملبسه ونوعيتها . فهي فاخرة على الدوام متناسقة الأطياف فاقعة الوانها تسر الناظرين . بعضها من الحرير الخالص دون ريب ، وبعضها مما يقارب الحرير نوعاً ويريو عليه بهاء منظر . فاذا رأيت الشيخ يخطر في هذه الثياب البهية أيقنت أنك أمام رجل ذى شأن خطير . وهو رجل بسام مضئ الوجه وضاح المياضاحك العينين كحيلهما موقور الوقار . في عينيه نكاء وقاد لا ينفك يشع بالمكر والدهاء ويومض بالزهو والرضا عن النفس وبما يشبه الصلف والكبرياء . وعلى الرغم من أن الشيخ الخاتم لم يكن متكبراً ولا متعالياً على الناس بل كان متواضعاً سمح الروح فانك لن

تخطئ أن تحس وتبصر - وأنت تنظر اليه - هذه الرفعة التي تجذبك اليه وتباعد بينك وبينه في ذات الوقت ، وذلك أنه استاذ حسن الصورة وسيم الخلقة رفيع الذوق في انتقاء أبهى الحل وأعز الثياب ثم هو بعد ذلك مهيب الطلعة قشيب السميت بعيد ما بينه وبين بساطة أواسط الناس . أن شئت نسبته الى الارستقراطية ونعته بها دون ان تتجاوز الحقيقة لأن مجمل هيأته ومرآه ناطق بها ولكنها ليست من الكبر والأشر والبطر والتعالى في شئ لأنه شيخ متضع ودود ، وان شئت نسبته إلى البساطة المترفة المحسوبة ، ولكنها ليست من التصنع والتعمل والاختلاق في شئ لأنها شيمة من تسيمة وخلق صادق ملازم له من أصل جبلته وخلاتقه . فهي مثل بساطة « ابن العز » الذي تربي في النعيم ورزقه الله سمو الروح ورقعة الذوق ورقة المشاعر .

ولقد علمنا فيما بعد أن الشيخ الخاتم كان وثيق الصلة بالاستاذ مبارك زروق وهو أمر هام في حد ذاته لأنه يلقي بعض الضوء على ما يمكن أن يكون عليه النسق الفكري واللون السياسي للشيخ الاستاذ . فالتطابق بينهما يتعدى مجرد الكلف والعناية بحسن المظهر إلى التماثل العقائدي والتوافق الفكري والالتقاء الوجداني حول أمان وطينة مشتركة . ورغم أن الشيخ لم يكن يعبر عن آرائه السياسية امامنا بدرجة كافية من الوضوح إلا أنه ربما لم يكن غائباً علي من كان منا يعي بعض تلك الامور على الاقل أنه غارق في لجج العمل السياسي وان كان ذلك من وراء حجاب . وما كان بمقدورنا أن نجزم بهذا أو بغيره إلا أن نظن ظناً وما نحن بمستيقنين . فالشيخ لم يقم بالتدريس في فصلنا إلا حصتين أو ثلاث لم تكن كافية لايقافنا على ما كان يمور في نفسه ويختلج في ذهنه من قضايا وارااء ومشاعر وامنيات . وما كان يبلغنا عنه من اولاد الفصول الأخرى التي يتولى أمر تدريسها بانتظام لم يتعد الحديث حول أناقة الشيخ وقسامته ووسامته ولو أفت دالة على ولعه بالشعر وطول باعه في حلبة الادب العربي . ولقد ظهر لنا من اللحظات القليلة التي ألمَّ خلالها بفصلنا أنه استاذ متمكن من مادته أحسن تمكن وأنه شيخ خفيف الظل عذب الروح طليّ الدعابة . واني لأذكر بوضوح

كيف كان يردد مراراً هذا البيت من الشعر .

تقول العاذلات علاك شيب أهدا الشيب يمنعى مراحي ؟

فاذا قرأ هذا البيت أتم عجزه وهو يمسك بطرف لحيته البيضاء القصيرة الحليقة ويبسم فى ارتياح ظاهر والمكر فى عينيه وادع مقيم .

وأما الاستاذ عمر مصطفى والاستاذ حسن رابع فقد كانا أيضاً من شباب الاساتذة . فالاستاذ عمر مصطفى يدرسنا علم التاريخ وكانت كثيراً ما تنشب بيننا وبينه المنازعات أو ان شئت قلت المغالطات. وانى لا ذكر كيف كنت اختلف معه حول رؤيته لبعض أحداث الثورة المهدية وتعليه وتفسيره لبعض الوقائع التى رويت واختلق كثير منها اختلاقاً خلال فترة ولاية خليفة المهدي . وكان عبد الرحمن كنتباى ايضاً ينازعه فى كثير من مثل هذه الامور . ولكن الاستاذ عمر كان ينظر إلى أحداث ذلك التاريخ بمنظار يومه الذى هو فيه ، أو هكذا خيل إلى . وأحسب أنه لو علم أو تذكر لأنشدنى بيت الطائى الذى يقول

فقد بث عبدالله خوف انتقامه ، . على الليل حتى ما تدب عقاربه

ولو علمت حينها لأنشدته قول القائل :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم ، . والسيف حد حين يسطو وونق

ثم لأردفت من بعد ذلك .

وعلى عدوك يا ابن عم محمد ، . رصدان : ضوء الصبح والاظلام

فاذا تنبه رعته واذا غفا ، . سألت عليه سيوفك الأحلام

ولكن الاستاذ عمر كان رجلاً متسامحاً وذكياً ، ما أن تكاثرت عليه اسئلتى واستفسارات غيرى حتى أوضح لنا فى روح اقرب للحياذ أن بعض أحداث التاريخ قد تروى بطرق شتى وأن تفسير الحدث التاريخى الواحد قد تتباين صوره وتختلف دقة رصده من مصدر إلى مصدر ، فنجا بقطنة ولباقة من شر منازعاتنا التى كادت أن تعرقل عليه مسيرته بنا فى دروب تاريخ الوطن . واذا كان الاستاذ عمر معروفاً بين

اولاد فصلنا لهذا القرب فان الاستاذ حسن رابع لم يكن قربه منا قرب تدريس ، فهو لم يكن من اساتذة فصلنا . ولكن رغم ذلك كان من اقرب الاساتذة إلي التلاميذ عموماً . وذلك لأنه كان من اعلام نادى الهلال ، ولأن أخاه الأكبر عبد الله رابع كان سكرتيراً لنادى الهلال . وكنا نراه كثيراً مع عم عوض سالم . فاذا كان بعض تلامذته الذين يتلقون عليه دروساً يحبونه ويكبرونه فان غيرهم كانوا يجلونه أيضاً وذلك لمواهبه الرياضية الكروية ولهذا الموقع الخطير الذى كان يحتله من النفوس وذلك أنه نجم من نجوم نادى الهلال . فمثل هذا الانتماء الايجابى الفاعل يعطيك شعبية واسعة النطاق وسط التلاميذ ان أنت اشتهرت به ويجعلك فى نظرهم من الخطورة بمكان .

فهذه بعض صور قلمية سريعة عن نفر من اساتذتنا الكرام فى ام درمان الاميرية . فان هى لم تستوف الحقوق كاملة لمن شملتهم بالذكر فليوطئ لى العذر عند قارئ هذه الصفحات أنى - كما ذكرت من قبل - انما اسجل طوائف انطباعات . وقد يكون عند غيرى عن من أقترت فى ذكرهم ماليس عندى ، وانى لأمل - ان صح ذلك - أن نقف على خبره فى يوم من الايام . غير انى سأتناول فى شئ من الاسهاب بعض اساتذة بعينهم وذلك لأن ما وقر عنهم فى غضون ذاكرتى يلح على أن أتى به كما هو مصور مطبوع . فان وفقت فى ذلك فهذا من فضل ربى ، وان نبت بى مقدراتى أو خانتنى الذاكرة فانى استغفر ربى على كل ما اردت به الخير والحقيقة وجاء بغير ذلك .

### **الضابط الذى علمنا الشعر :**

كان الاستاذ عز الدين الحافظ من الاساتذة المرموقين فى المدرسة ، الذين يخشاهم التلاميذ كثيراً ولا يودون الاقتراب منهم . وهو يرتدى فى كثير من احيانه البنطلون والقميص ولكنه كثيراً ما كان يرتدى البدلة الكاملة أيضاً الامر الذى ربما كان عاملاً فى ابتعاد التلاميذ عنه وفرارهم من وجهه . وذلك أن مظهر « الفل سوت » كان يوحى بمعانى السلطة والسطوة والقهر ، وهى أمور ينفر منها الصغار لائذين منها بمعامل البساطة التى يألّفونها ويجدون عندها الطمأنينة . وقد زاد من هذا الاحساس فى

نفوسهم أن الاستاذ عز الدين كان صارماً جاداً فى كل شأنه ابان اليوم الدراسى وعلى امتداده قل أن تلقاه ضاحكاً أو مازحاً ، أو أذنأ فى تعابير وجهه بما يمكن أن يفهم منه أنه طلائع ضحك أو مزاح . ولعل السبب فى ذلك أنه كان ضابط المدرسة وهى درجة فيما كنا نعتقد تقارب درجة ناظر المدرسة وتفرض على شاغلها أن « يتزيا » بالحزم والصرامة ، لأن ادارة المدرسة عموماً تتطلب التحلى بهذه الصفات التى يرتدع من خشيتها العابثون من التلامذة الصغار ويسود النظام وتتوفر أسباب الانضباط . ولقد كان التلاميذ - مع اقبالهم على دروسهم واهتمامهم بما يتلقون من فنون المعارف من اساتذتهم - ميالين إلى العبث البرئ ، مولعين باتخاذ الاسباب التى تفضى اليه ، برمين ضائقين بأى نوع من الرقابة أو المتابعة يصادر بعضاً من حرياتهم الاساسية المشروعة فى « الفنجطة » « والبردبة » والصخب والضجيج خلال « الفسحة » الكبيرة التى تصبح السلطة المطلقة الوحيدة التى يعترف بها التلاميذ ويوقرونها فيها هى سلطة عم محمد بن بائع الفول والطعمية والعيش المدور دون سواه . ولما كان الاستاذ عز الدين الحافظ - ربما بوصفه ضابط المدرسة وربما لأن كلمة « ضابط » وثيقة الصلة لفظاً ومعنى بكلمة انضباط - يخرج أحياناً من مكتبه ليحد من غلواء ضجيجهم وصراخهم المتصاعد ، فيأمرهم بالحزم كله أن يكفوا عن « الدوشة » والهرج - لما كان ذلك كذلك فانهم كانوا ينفرون منه فى أول أمرهم ويعتبرونه حرباً على حرياتهم التى تكفلها قوانين المدرسة نفسها . فهى التى أطلقت على هذه الفترة التى يقضونها خارج الفصول بعد الحصتين الأوليين اسم « الفسحة » ، وهى كلمة تعنى - إن أنت تمعننت فى جنورها وجميع مشتقاتها - أنها فترة للراحة من عناء الدرس ، ومنطقة زمنية حرة لكى يتفسح فيها الانسان « على كيفه » . فمال هذا الاستاذ يطالبهم بالكف عن الضجيج والهرج « والدوشة » ؟ أليست هذه « الدوشة » حقاً من حقوقهم المشروعة فى مثل هذه الأحيان ؟ ألم « يتبكموا » ويخلدوا إلى الصمت والاطراق والانتباه طوال ما يقارب الساعتين منذ الصباح الباكر مهطعين قبل استاذ الحساب واستاذ اللغة الانجليزية وهما يحاولان أن

ينفثا في روعهم من غرائب الألفاظ ما إن أثقاله لتنوء بالعصبة أولى القوة ؟ اليس من حقهم - بعد هذا الانصات الذي طال أمده وعزُ فهم ما طرح عليهم خلاله - أن ينعموا بهذا القدر القليل من الحرية والتخلل من قيود الصرامة لكي « يبرذبوا » ويركضوا ويتصايحوا كما يشاؤون ؟ أليست هي فترة قصيرة تثثها للهرج والشغب وتثثها للطعام والشراب وتثثها الأخير لمحاكاة المدرسين والتندر على بعض طرائقهم في الحديث والمشى وترويع الأمنين من التلاميذ بأسئلة تصعب وقد تستحيل الاجابة عليها ؟ فلماذا هذا التدخل الصريح في خصوصياتهم التي ليست من شأن المدرسة وليست بعض ساعات الدرس ؟ لكل هذه الاسئلة الاستنكارية التي كانت تدور في رؤوس الصغار فانهم أطلقوا على الاستاذ عز الدين الحافظ لقب « ألفة الألفوات » ولكن محمد العوض كان يسميه « الفة المدرسة » ولم يكن ذلك إلا وليد سخريته اللاذعة . وذلك أن « الفة الألفوات » يمثل في نظره اداة قهر للتلاميذ عموماً من خلال بسط السيطرة والسلطان علي « الفوات » فصولهم . ولكن « ألفة المدرسة » عنده هو الذي يخضع لسطوته الجميع ، اساتذه وتلامذة وعاملين . ولقد شاع هذا المفهوم الذي بثه محمد العوض بين اولاد فصلنا علي وجه الخصوص ، لأن الاستاذ عز الدين لم يكن يقوم بتدريس أية مادة من المواد في فصلنا ، فلم نعرف فيه المدرس وانما عرفنا فيه الضابط - أو « ألفة المدرسة » كما كان يسميه محمد العوض . ومن خلال هذه المعرفة القاصرة بان لنا كعنصر للقهر والردع اكثر منه استاناً للتدريس ورياضة العقول . ولقد عزز هذا الاعتقاد المجحف في حقه أنه كان اذا اغرقنا في الشغب والضجيج في فسحة الفطور خرج علينا من مكتبه وفي يده اليسرى عصا صغيرة أوسط يلوح به في الهواء أمراً إياناً أن « بطلوا الدوشة » دون أن يفوت عليه أن يردد عبارته المألوفة « جاتك البلا ! فكنا إذا رأيناه على هذه الحالة أمسكنا عن الهرولة والركض وسائر « الشقاوات » وارتدعنا الى حين . وكان هو اذا أطمأن إلى بلوغ رسالته ومعانيها- من تبعات عدم الانصياع لها - الأسماع والفهوم عاد إلى مكتبه ظافراً مطاع الأمر . ولكن سرعان ما تعاود الرحي

طحنها من جديد ويعلو صياح الفتية وتتصاعد ضحكاتهم بمجرد أن يعود إلى مكتبه ويغيب عن أنظارهم . فإذا عاد اشتمل عليهم الهدوء ، وإذا غاب ثانية ساد الهرج والمرج من جديد . فلا يحسم الأمر بصورة نهائية حازمة غير قابلة لأى نوع من التراخى أو التهاون إلا جرس عم مبارك الذى يؤذن بنهاية الفسحة ويدعو إلى ولوج أبواب الفصول .

ومما ساعد على ارتباط اسم الاستاذ عز الدين بهذا القهر الذى كان يتوهمه فيه التلاميذ أن مكتبه - وهو مكتب الضابط كما يعرفه الجميع - كان قريباً من مكتب الناظر ، بل أن كنية عم مبارك التى تجسد قمة القهر الحقيقى بذلك السوط « العنج » كانت ملتصقة من الخارج بجدار هذا المكتب دون غيره ، من الناحية الشمالية ؛ ومن « ينبطح » عليها من التلاميذ فى انتظار السياط المكتوبة عليه يدرك تماماً أنه قد احيط به من كل جانب ، وماذا يبقى له من « الجوانب » بعد مكتب الناظر الذى هو على مقربة خطوتين ، ومكتب الضابط الذى تحتضن الكنية جداره الشمالى ، ثم عم مبارك بنفسه فى برد لوبته الكاكي وكراصة « المهرجلين فى الفصل » فى يده اليسرى والسوط فى بمناءه ليس بينه وبين الهوى على العقب إلا أن يزيح التلميذ يده اليمنى التى يحاول أن يحتمى بها ويكف عن « الجرس » التى لا تجدى ولا تستنقذ من نفاذ المكتوب ؟ كل هذه العوامل والمصادفات ولدت فى أذهان التلاميذ شعوراً بالرهبة ازاء الاستاذ عز الدين الحافظ وبالخوف منه والسعى للافلات من جميع المواقف التى يمكن أن تؤدى إلى المواجهة معه أو الاحتكاك به . ولقد زاد من رسوخ هذا الشعور أو الاحساس فى انفسهم أن الاستاذ عز الدين كان ذا كفاءة عالية فى القيام بواجبه كضابط للمدرسة ، ومن عجب أن هذا الأداء المتقن الذى سهل على ادارة المدرسة مهمة السيطرة على كافة شؤونها كان هو عين الاسلوب والمسلك الذى اعتبر التلاميذ أن فيه احصاء لانفاسهم عليهم وأن الذين يصطدمون بتياره القوي عن ارادة منهم أو عن غير ارادة انما يعرضون أنفسهم للعقاب . فالذى سرُّ ادارة المدرسة من سيادة للنظام

والانضباط هو الذى رأى فيه التلاميذ انتهاكاً صريحاً لحرياتهم التى يكفلها لهم العرف على أقل تقدير إن هم جهلوا ما يقول به القانون .

بذا قضت الأيام بين أهلها . ، مصائب قوم عند قوم فوائد

غير أن هذه الصورة التى ارتسمت فى أذهان التلاميذ عن الاستاذ عز الدين الحافظ لم تكن تنبئ عن حقيقة جوهره ومكونات مواهبه وميزاته الكثر. ولقد وقفنا على طرف منها بعد تلك العهود بقليل . وذلك أننا التقينا الاستاذ عز الدين مرة أخرى فى خور طقت وهو لم يكن هذه المرة ضابطاً للمدرسة ، بل ان مسؤولياته الجديدة نضت عنه تماماً ما كنا نحسبه ثياب القهر ولبوس الردع والتعدى على حريات التلاميذ . فبان جوهره على حقيقته الناصعة وشفقت نفسه عن أصالة رقتها التى خفيت علينا طوال أزمان . ولعلّ النضوج النسبى الذى أصابه الفتية فى خور طقت بعد سنوات قد جلى عن أبصارهم وبصائرهم غشاوات الطفولة وضباب الحداثة وظلمات الجهل بحقائق طبائع الناس . لقد كان الاستاذ عز الدين الحافظ فى مدرسة خور طقت استاذاً للغة العربية وتلك كانت هى مسؤولياته الجديدة . فتحققنا للمرة الاولى أننا أمام شخص آخر غير الذى كنا نرهب طلعتة فى ام درمان الأميرية. وتعرفنا - فى الفصول وخارجها - على الاستاذ عز الدين من جديد . فاذا هو استاذ نحيف الجسم فاتح لون البشرة طلق الوجه ، بسام فى غيرما تفريط ، حازم فى غيرما افراط . ، معتدل القامة متوسط الطول ، وقور هادئ المشية لا هى بالهرولة الصريحة ولا هى بالسير المكسال ، ولكنها قوام بين ذلك ، تضيف على سمته اتزاناً موفوراً وسكينة تدعو إلى الاكبار والتوقير . ولقد اكتشفنا - بعد جهل منا دام طويلاً أيام الحداثة الاولى - أن الاستاذ عز الدين الحافظ كنز من كنوز اللغة العربية موقر ببيواقيت الأشعار وفصوص الحكم وسبائك البيان ، وأنه صاحب مقدرات هائلة على اجتذاب أحاسيس التلاميذ إلى رياض الأدب وامتع النفوس بشذى ازاهيره الزاهية اللوانع . فكانت حصته من أنفس الحصص عندنا ، نحرص على شهودها حرصاً ، وندافع الى الصفوف الامامية فيها تدافعاً ، ونأسى



على انقضائها فى ذلك الزمن الوجيز . فقد كان اسلوبه فى الدرس والشرح شيقاً ، وكانت مادته التى يقص علينا من أنبائها ما تيسر غزيرة ومتباينة الأطياف ، وكان تعامله مع تلامذته ينم عن رغبة صادقة فى تزويدهم بالمعارف وروح سمحة فى التغاضى عن هفواتهم وزلاتهم وجنوح بعضهم الى ما يشبه الاستخفاف بما يتلى عليهم ويلقى على مسامعهم من درر الكلم وجواهر المعانى . ولقد ادرك ذلك كثير ممن كانوا يحسبون ادارياً معنىً بالانضباط العام دون غيره ، إذ كشف لهم فى وضعه الجديد عن هذه القدرات البيانية الهائلة فأحبوه ، واقتربوا منه وتعلقوا به وصار واحداً من أبرز هداتهم فى هذه المجالي الأخاذة الساحرة . وصار حمزة حسين العبادى ومحمد بخيت سلمان الفتیان الشاعران الموهوبان يهرعان إليه كلما استعصت عليهما بحور الشعر وانتاب قوافيها الحران . فيمهد لهما السبيل ويفتح امامهما الآفاق ولايزال بهما مشجعاً ملاطفاً حاثاً مبيناً موضحاً جالياً لهما ما خفى عنهما من أمور فلا يدعهما حتى تموج وتصطبغ فى جوانحهما هذه البحور وحتى تنقاد وتأرن وتصطفق فى خاطريهما هذه القوافى . وكنت اصطحبهما فى كثير من الاحايين إليه فى مكتبه فلا يلقانا إلا بالبشر والترحاب والاهتمام . ولما رأيت ذلك منه لم يسعنى إلا أن أتجاسر على الشعر وأتقحم قلاعه واكتب ما شاعت لى سذاجتى وجهالتى أن اكتب ، فاذا سرت بيضاءتى هذه اليه ، لم يردنى على اعقابى خاسراً ، وانما نقى منها ما رآه أهلاً للتنقية وباعد بينى وبين الغث منها فى لطف ويسر وحسن منطق يبذر الاستعداد وينميه ويدفع الى مزيد من الاطلاع ومعاودة الكتابة ، ولا يمس كبرياء النفس بسوء . وهو اذا أراد منك أن تستبدل - فيما كتبت - كلمة بأخرى فإنه لا يملئها عليك ولا يتخيرها لك ويلقى بها اليك ، وانما يأخذ بيدك هوناً ويقارعك بحجة الذوق الشعري السليم حتى تأتى أنت بها سهلة طيعة هينة تستقر فى مكانها الذى هو مكانها وتؤدى المعنى المراد منها خير أداء يناسب النسق ويوافق الوزن والتفعيلة . فاذا تم له ذلك سعد فى نفسه لأنه بلغ بك المراد ، وهناك على التوفيق الذى اصبته لأنك أنت صاحبه فى نظره ،

وان كان هو من ورائه الباعث الحقيقي . فانظر إلى هذا التواضع الجم والى هذا الاهتمام الوافى ، والى هذه الرقة السائلة ، والى هذا النمط الراقى فى تنمية المقدرات الذهنية للتلاميذ دون أدنى تلويح لهم بالمنة أو إشعار لهم بالاخفاق .

كان الاستاذ عز الدين الحافظ شيخاً لطلاب الشعر فى خور طقت ، وهو - دون ريب - غير الاستاذ عز الدين الذى عرفه تلاميذ ام درمان الاميرية - أو جهلوه على أصح وجوه التعبير - فهو فى طليعة الاساتذة الذين اعطوا عطاء ثراً غامراً عمرت به نفوس فتية تلك الأزمان ، وبذلوا من الجهد فى السمو بمشاعرهم وقدراتهم البيانية ما تشهد عليه أشعار حمزة حسين فى ديوانه «ميسون والمطر». ألا نضر الله ذكرى تلك الايام الغر المسعدات الخوالد وجزى الله الاستاذ عز الدين ورفاقه الميامين عنا خير الجزاء .

### **البكرى .. عراف لغة الأعاجم :**

من الاساتذة الذين لا يمكن ان ينساهم تلامذة تلك الحقبة الاستاذ كمال البكرى كيلانى ، فهو استاذ ذائع الصيت بين طلابه وأصدقائه وقد حق له أن يكون كذلك لأنه كان قمرأ مضيئاً فى سماء تلك الأزمنة وماتلاها من عهود . وهو من شباب الاساتذة الذين توالوا على ام درمان الاميرية تضطرم مشاعرهم بالأم الوطن وآماله تدفعهم غيرة صادقة وحماسة مخلصه نحو إرساء قواعد التعليم الحديث وافشاء المعارف الثقافية بين التلاميذ . وذلك جيل من المعلمين والاساتيد أحسبه كان متشرباً بقيم الحرية النى كانت بلادنا لا تزال تحلم بها ويفضيلة الانعتاق التى كانت أمنية من أمانى اهلنا العذاب . فقد كانت الحركة الوطنية قد شبت فى تلك السنوات عن الطوق وان اختلفت بها الطرائق وتباينت من بين عناصرها السبل . ويدأنا نحن التلامذة الصغار نحس احساساً غريباً ومبهماً أن هناك صراعاً يدور وأن هناك مستقبلاً جديداً يتخلف فى رحم ذلك الزمان الذى أتينا فى اخره . وعلى الرغم من أن الاستاذ كمال البكرى لم يكن يلقى علينا دروساً صريحة فى الوطنية ، إلا أن بعض حديثه الذى

يراعى فيه الحذر لأسباب لا تخفى انما كان تذكيراً على قدر طاقة العقول بأن الوطن على ابواب تحول سياسى كبير وأن طلائع النصر تلوح فى الافق القريب . ولعله من الغريب أننا لم نكن على أى قدر من المعرفة الحقيقية بأمر السياسة رغم ما كان يدور حولنا من أحداث وما تضطرب به مدينة ام درمان على وجه الخصوص من تحولات جسام هى التى رسمت وحددت - فى نهاية الأمر - مسار الحركة الوطنية فى البلاد بأسرها . وربما كان ذلك لصغر سن أغلب التلاميذ ، أو لرقابة مفروضة على أمثال هذه المدارس من قبل السلطات التى تهيمن على البلاد ، أو لتهيب الاساتذة الخوض فى مثل هذه الشؤون مع صغار لا يحسنون فهمها ولا يدركون عمق محتواها . ولكن الاستاذ كمال كان فى بعض أحيائه يشير الى شىء من ذلك دون أن يوغل فيه ، ويومئ إلى بعض أطرافه دون أن يسترسل فى لمة هذه الأطراف حتى تغدو كيانا بين المعالم . فهو « يرمى الكلام » ضاحكاً مقتضباً فى غير ما اطناب وفى غير ما تتبع لما يحدثه الصدى ، كما « يشتت » طلاب الجامعة المناشير فيما استجد من عهود ، حيثما اتفق وكما سمحت بذلك الحاسة السادسة التى كثيراً ما تصدق فى انبائها عن اعتدال الطقس الامنى أو احتمالات تكدره واحداق العواصف به . ولقد ادركنا معانى ذلك الكلام الذى كان « يرميه » الاستاذ كمال ولكن بأخرة ، وصرنا نعيد قراءة صحائف الأيام الماضية من جديد وبنظرة لم تكن تطيقها بصائرنا فى تلك الأزمنة ، فأدركنا ما فات علينا من قيمة تلمحياته ولو افته . لقد نعمنا دهرأ بقدراته الهائلة على التدريس واثراء كل من اللب والوجدان بكل ما هو طارف وما هو تليد .

أما الطارف فى نظرنا فهو اللغة الانجليزية التى كان تعلمها هو صيحة العصر التى لم تسمعها كل الأذان ، ولم يستجب لها كل من سمعوها . ولما كنا نحن بعضاً ممن ألقى السمع ثم استجاب فقد سحرتنا هذه الرطانة سحراً واجتذبتنا إلى رياضها وبساتينها اجتذاباً ، وكان من حسن طالعنا أن الاستاذ كمال البكرى كان فى طبيعة من أناروا لنا سبيل التعرف على خباياها ولطائفها وحلاوة مفرداتها وتعبيرها .

لقد أتى الينا الاستاذ كمال فى ام درمان الاميرية مدرساً للغة الانجليزية . فاذا بنا امام شاب أنيق ممشوق القوام بهى المظهر وضاح المحيا مشرق الأسارير ، أكثر مايطالعنا وهو مهندم بالبدلة الكاملة التى يبدو فيها وسيماً بالغ الوسامة ، وجيهاً مكتمل الوجاهة .فاذا أضفت الى ذلك رباط العنق الذى برع فى تخيره وانتقائه ليتسق اتساقا لا مزيد عليه مع مظهره الكلى أيقنت أنك أمام فنان من بعض مواهبه الذوق الرفيع . ولقد أدهشت أناقة الاستاذ كمال لفيماً من اولاد فصلنا ، حتى صار بعضهم يقول إنه فى حقيقة الأمر مصرى ، وقال آخرون إنه تركى وكاد فريق ثالث أن يلحقه بالخواجات صراحة دون مواراة . وكأن بهاء اللبس وحسن السميت وقف على الأجانب دون اولاد البلد . ومما يؤكد هذه الدهشة التى استولت على الصبية أن محمد العوض نفسه - وهو الساخر الذى لا يكاد ينجو من شذاة لسانه أحد - قد انعقد منطقته ، وفرت عنه مقدرته العبثية على السخرية من كل شئ ومن كل أحد ، ونبت عنه موهبته المولعة بابتداع الاسماء والالقباب الباعثة على الضحك والتندر ، ولم يسعه إلا أن يقر أمامنا ونحن نستعرض مظاهر الاساتيد فى فسحة الفطور أن الاستاذ كمال البكرى أكلمهم أناقة وادومهم عليها . وعندما احتدم النقاش حول هذا الأمر حسمه محمد العوض - ولاول مرة دون أن يضحك تلك الضحكة التى تعلن أنه يعنى نقيض ما يقول - وذلك بعبارته الجادة الحازمة التى جاء فيها : « ياخى بالله سيبنا من دا وداك ، البدلة يا عند كمال البكرى يابلاش » . ومن عجب أن التجانى الطاهر وفتحى وصفى حاولا ترشيح استاذ آخر لهذه القمة ، وأعجب من ذلك محاولتهما إلحاق الاستاذ كمال بغير الجنسية السودانية ، مؤكدين أن اسم « كيلانى » وهو اسم جد الاستاذ كمال ليس اسماً سودانياً . ولكن محمد العوض هزمهما فى جميع ما ذهبوا اليه وأخرس جميع اللسان التى أحس بأنها تعارض مقولته الحاسمة وكشف لنا أن الاستاذ كمال من شباب بيت المال وهو الأمر الذى اكده عبد الكريم احمد حميدة وهو يضحك راضياً عن بلاء محمد العوض وعمق معرفته وسلامة ذوقه . وهكذا انعقد لواء الأناقة بين الاساتذة

لاستاذنا كمال البكرى دون سواه فى نظر اولاد فصلنا على أقل تقدير ، ورضى الذين طوفوا به الافاق باعادته للجنسية السودانية وخلصوا عليه حق المواطنة فى حى بيت المال قانعين أو راغمين . وأنا لست أدرى لماذا نسبه البعض الى المصرية أو التركية ، ومما حيرنى وقد عقد لسانى الحياء عن الافصاح عن تلك الحيرة أن بين هؤلاء التجانى وفتحى . وكان الفاضل شريف أكثر شجاعة منى - أوقل اقل حياء - حينما قال لمحمد العوض دون أن يسمعه المعنيون بالأمر : « هو يا اخى فى مصرى ولا تركى اكثر من الاتنين ديل » ؟ ولكن محمداً انتهره وكتب بين فكيه وفي أحشائه ضحكة كادت أن تتفجر مجلة فتفسد عليه حججه التى قاربت بينه وبين الانتصار النهائى . غير أنى قد أجد بعض العذر للذين ذهبوا بشجرة نسبة إلى فروع وسوق وجذور خواجية عموماً وانجلو ساكسونية على وجه الدقة والتحديد . وذلك لأنه كان يتحدث رطانة هؤلاء الأقوام « كما جاءت من أهلها » . ومبلغ علمنا أنه لا يلحن فيها ولا يخطئ ولا يختلف نطقه ومخارج حروفه عن نطقهم وفصاحتهم . ولعل من رحمة لغة بنى السكسون على الفهم والأرواح أنها خلقت تماماً من علامات الاعراب الظاهرة والمستترة وبرتت من تشويهات الآثار السلبية لدخول حروف الجر على الاسماء فالبيت مثلاً - House - هو البيت سواء جاء مبتدأ معرفاً أو دخل عليه حرف الجر أو حرف التملك . فهو راکز ثابت الاركان لا يتغير فيه شئ على اثر دخول الحروف إلا أن يصير مجموعة من البيوت مثل سائر الاشياء . ولكنه فى اللغة العربية - كما تعلم وأنت سيد العارفين - ينصب ويرفع ويجر وينون ويصغر ويتصاعد الاعتداء عليه والتمثيل به حتى يهد « جمع التكسير » أركانه هدأ ويحيله إلى مزق وشظايا يعبر عنها بكلمة « أبيات » وهى كلمة لها جرس يوحى بالقلّة وحطة الشأن وضمور الهيئة . فلغة بنى السكسون - إذا نظرت لها من هذا القبيل - فيها يسر وبساطة واذعان للانقياد . وقد كان الاستاذ كمال البكرى يجيدها تماماً دون ريب ، ويأخذ بأيدينا هوناً يجوب بنا رياضاً منها يانعات « حواشيهن أفنان » وهو الذى دلنا - وكذلك فعل رفاقه الآخرون من بعده - إلى أهمية الأرقام التى كنا

نلقاها تحت الكلمات الانجليزية فى «الكومبانيون» المصاحب «الريدر» مصاحبة الظل للإنسان ، لا يفارقه حتى تضجر الشمس وتأذن بالأقول . فدلنا بذلك على النطق الصحيح الذى يقارب نطق أهل اللغة الذين هم أهلها إن لم يبلغه تماماً ويمائله . فكل رقم من الأرقام 7، 77، 67، 21، 44 وغيرها - تحت الكلمة الانجليزية - يضىء عليها نطقاً معيناً، ان أنت أحسنته فقد أحسنت هذه الرطانة وأن جهلته أو لم تحفل به صرت أعجمياً فى لغة الاعاجم ، وليس فوق ذلك من عجمة. ولن ينسى تلامذة تلك الحقب للاستاذ كمال أنه كان بصيراً برياضة الألسن أحسن تدريبها حتى ارتاضت- أو ارتاض أكثرها - وباعت بالعجمة الفصحى على خير الوجوه . ولا أرتاب فى أنهم يذكرون كيف كان الاستاذ كمال يسأل بانجليزية طلاقة واضحة محببة تسحر التلاميذ وتخريهم بإعمال الفكر والنوق والحواس من أجل الاتيان بالاجابة الصحيحة . فاذا صدع بها من بينهم من وفقه الله ورزقه السداد اثنى عليه الاستاذ كمال بعبارته المشهورة المعروفة « قود بوى » ( Good Boy ) وهو يبسم فى رضا ظاهر وسعادة غامرة . ومن كثرة ما كان يردد هذه العبارة فقد أُلصقناها به لقباً واسماً نشير به إليه كلما طالعنا أو بصُرنا به عن جنب وهو لا يشعر ، نملأ بها الأفواه فى محاولة منا للإتيان بها كما يأتى بها ، ونضحك معها كما كان يضحك ، ونشهر سبابة اليد اليمنى تماماً كما كان يفعل . لقد كنا نعجب من اناقته فى النطق وحسن الهندام ، ومن وسامته المقرونة بمظاهر القوة والفتوة والحزم ، ومن دقة واتساع معارفه فى عوالم لغة بنى السكسون . وهو مع كل هذا شاب هادىء الطبع لين العريكة جم التواضع رائع الأداء منضبط انضباطاً يدعو الى التبجيل والاكبار، يعامل تلاميذه بلطف وكرم وأريحية . ويفرد من مرتبه الضئيل فى كثير من الأحيان جوائز تشجيعية . فاذا طرح علينا سؤالاً صعباً وتلقى عليه اجابة صحيحة نفح المصيب منا قرشاً أو شلناً أو شيئاً بين ذلك ، وكلها جوائز سخية لأن القرش يعنى قطعة باسطة وان دعمته تعريفة إضافية فأنت على موعد ان تخلفه مع الباسطة الكورنر وذلك هو النعيم الذى ليس عليه من مزيد

. ولم يجاره فى هذا النسق الأريحي الفريد إلا قلة من الاساتذة الآخريين . و لذلك كان لمحببتنا له درجة على غيرها . ولماً كان بعضنا مفتوناً برطانة بنى السكسون مولعاً بنغم تعابيرها وجرس الفاظها فقد أجهد هذا البعض نفسه ليفوز بجائزة الاستاذ كمال من وقت لآخر ؛ فما أكثر ما نعمنا بحلاوتى الظفر والباسطة الكورنر ، ننتيه بالاولى ونزهو ، و نلتهم الثانية فى فسحة الفطور أو بين الحصص ، والغير « خزيان ينظر » . وليس هناك مجال « للحدكة » لأنها دعوة صريحة للشجار ، وليس هناك مكان أو معنى لعبارة « ادينى معاك شوية » لأن الأمر ليس هو طعمية عم محمدين أو قول الحاجة وانما هو أجل وأخطر . فقد كانت الباسطة بعد انفاق قرش الفطور – وهى اليوم حتى قبل انفاق ما يقارب ألفى جنيه على الفطور – امنية غالية لا ينالها إلا من فتح الله عليه ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم . هكذا كان الاستاذ كمال البكرى فى ام درمان الاميرية ، كريماً سخياً بالمعرفة والمال ، بساماً متضعاً على ما به من بهاء وحسن مظهر وسمت لا يخلو من الاعتداد بالنفس وعظيم الثقة فى المقدرات الذاتية . يطاء الثرى متمهلاً فى مشية خالية تماماً من المرح والأشهر والبطر ، تجمع بين التلقائية والانضباط ، وتؤاخى بين الرقة وقوة البأس ، وتخلط الهيبة بالبشر والترحاب والقبول ، وتمزج دلائل الفحولة بصباحة الوجه واثلاق الحياء .

ولقد التقينا الاستاذ كمال البكرى مرة أخرى فى خور طقت مدرساً للتاريخ الذى كانت وسيلة تعليمنا له هى اللغة الانجليزية . فالفينا خبيراً بهذه الشؤون عليمأ بأسرارها التى انطوت وتقادمت عليها العهود . وقد كانت مادة التاريخ من أحب العلوم إلى ، وزاد من حببى لها أن من بين اساتذتها كمال البكرى وضرار صالح ضرار ومسترجض . فمن منا لا يذكر هذا الثلاثى الرائع ؟ كانوا اساتذة كالملائكة وداعة وصفاء ورقة وغزارة علم ومعرفة وعذوبة حديث . ألفناهم فى تلك البقاع البعيدة ، واحبيناهم واكبرنا فيهم تواضعهم ورفعة مقاصدهم ، فاقترينا منهم وعرفناهم على حقيقتهم ، لأنهم قربونا منهم ومهدوا لنا السبل لاجتلاء نفائس العلوم واستصحاب

أصح العزائم لتحصيلها ، وبذلوا لنا مكنونات حصائلهم وسائر فروع معارفهم  
 باخلاص ويسر وبساطة وصدق أريحية ونوايا . ولما كان الاستاذ كمال البكرى مولعاً  
 بالكمال فى شتى الامور فهو ينظر أيضاً إلى ما وراء استقامة الفهم من صحائح  
 أصول تربية التلاميذ . ولذلك كان يعجبه « كمال الأجسام » وهو تعبير درج أهل فنون  
 الرياضة على تثبيته فى الأذهان واشاعته بين الناس . فقد كان الاستاذ كمال يصحبنا  
 - أو قل يأخذنا - فى حصة ما يسمى P.T. وهو اختصار للكلمتين الانجليزييتين  
 PHYSICAL TRAINING والبعض يسمونه P.E. PHYSICAL EXERCISE ولعل P.T.  
 أفصح ، والله أعلم . والمطلوب هو تدريب الجسم ليغدو العقل سليماً وأهلاً  
 للتدريب الذي يتم فى المدرجات وفصول الدراسة ، وان كان حضور العقل وصفاء  
 الذهن مهماً أيضاً فى ميدان الرياضة . ولكننا كنا مولعين بكرة القدم أكثر من  
 شغفنا « بالجمباز » الذي يدعونا اليه الاستاذ كمال ، فاذا خرجنا معه فى الصباح الباكر  
 خلال الحصة الاولى والثانية إلى الميادين Pitch Number one أو Pitch Number two  
 كما كان يسميها مستر بروكس ويعلن عن تنظيم اللعب عليها عند « الاسمبلى » أو  
 اجتماع الغداة - خرجنا ونحن نعجب من حزم مستر بروكس وانجليزيتة السلسلة  
 الأخاذة ، ودقته البالغة فى تقسيم الميادين على الفرق والفصول ، واشاراته الواضحة  
 بسبابة يده اليمنى وهى تدور حول أذنه اليمنى فى قرب يكاد يمس طرف نظارته  
 ويوشك أن ينزعها عن عينيه ومؤخرة اذنيه نزعاً . فاذا انتهى « الأسمبلى » بخيره -  
 وهو نادراً ما كان يشتمل على غير الخير - اسرعنا فى صحبة الاستاذ كمال تلقاء  
 ميادين الرياضة والكرة بين أقدامنا تتقاذف فرحة ونحن بها فرحون ، فالثار الكروى بين  
 فريقى الفصل مثل « تار بابكر الصديق » ، لا يخمد ولا يخبو له أوار وهو دائم وليس له  
 نهاية . ولكن الاستاذ كمال مولع بالانضباط وهو يحثنا على « الجمباز » دون لعب  
 كرة القدم . ولم يكن ذلك تمسكاً منه بحرفية التعبير P.T. أو P.E. - فهو أبعد  
 الناس عن الوقوع تحت اسار ضيق المسميات واكثرهم ميلاً إلى المرونة



وأخطبهم لفضيلة سعة الأفاق وهو أدري منا بما فيه خيرنا في مثل هذه الأنشطة .  
ولعلمنا بذلك كنا نطيعه راضين موقرين ، موقنين بأنه سيخلى - بعد قليل - بيننا وبين  
كرة القدم التي كانت « هوساً » ليس للبرء منه من سبيل . فنصطف أمامه بالحزم كله  
برؤوس مرفوعة وقامات معتدلة وأرجل مشدودة وأيد مقبوضة وأذرع مثبتة على  
الأجناب. ويبدو هو أمامنا كقائد عسكري يدرّب فرقة من المقاتلين توشك أن تلتحم في  
عراك شرس مع عدو جليد . وبعد نداءات حازمة ومتكررة تغلب عليها «صفا» و«انتباه»  
وتتجاوب معها انفراجات الأرجل واجتماعها إثر هوى القدم اليمني على الأرض في  
إرزام تبتلع نصف صداه نعومة الرمال ، يسعى الاستاذ كمال بين صفوفنا في مشية  
عسكرية لا تدع ريباً في جديته ودقة تفقده لعسكره الصغار واحداً واحداً. فإذا فرغ  
من ذلك وأبصر تراخياً عند أحد منا صاح بحزم تحببه إلينا ابتسامته الطلقة التي لا  
تفارق محياه : «ياود أنت هناك ، أقيف كويس ، خليك مكربّ زى العربى دا» وهو يشير  
إلى أنور عبد الحليم . فقد كان أنور « مكرباً » بحق ، رغم أنه لم يكن من النجوم  
الساطعة في سماء كرة القدم ، لأنه ربما لم يكن في مقدر قرية « أربجى » العريقة بعد  
أن تواضعت كثيراً عبر حقب التاريخ أن تلد في تلك الأزمان نجوماً كروية ، إذ قد  
اتسعت شقة المدى بين أرضها الخصبة المعطاءة وسحاب الرى الحضارى الحديث  
التي قلتها وجفتها دون مراعاة لوفاء أو عرفان ، وهاجرت منها إلى سماوات آخر .  
وعلى كل حال فقد كان كل منا يحاول - امتثالاً للأمر وإيماناً بالحكمة من ورائه -  
أن «يتكرب» ماوسعته الحيلة وواتته المقدرات ، حتى يرضى عنا الاستاذ كمال . فلقد  
كان الاستاذ كمال عسكرياً في دخيلة نفسه ، يجمع في نسق واعتدال بين صرامة  
الجندي ونفاذ بصيرة المثقف رقيق الحواشى والأعطاف . وانى لعل ثقة ويقين من أن  
هذه الرقة، وهذه البصيرة النافذة ، وذلك المستوى الثقافى العالى ، وغير ذلك من المزايا  
التي كان يتمتع بها الاستاذ كمال انما هى بعض خصاله ومواهبه التي مهدت له الطريق لكى  
يصبح فيما بعد واحداً من منارات الدبلوماسية السودانية وسفيراً مقترداً قام بتمثيل





أثارة ثقل الهموم ومحاولة الصمود في وجهها أو الاستخفاف بها ودحر أسبابها . فإذا جاء وقت الدرس ودخل علينا الاستاذ غزالي الفصل لم يضيع دقيقه واحدة فيما لا يجدى ، وإنما انحصر اهتمامه في الشرح والتبيين . وهو استاذ متشرب بعلم الرياضيات حتى لا مجال عنده لغيره . وهو على الرغم من ذلك انسان فياض بالمشاعر والعواطف ، جياشة نفسه بها ، يشعر بذلك من يتأمل حيويته الدافقة وهو يلقي الدرس ، غير أنك لا تدرك من هذه العواطف الزاخرة إلا ما يتعلق بصميم موضوعه الذى يليق به عليك ، فيتملكك احساس جارف بأنه عاشق للرياضيات مدنف بها ، فهى شعوره وهى موسيقاه وهى عالمه الرحب الذى يخلق فيه ويستظل بوارفات ذراه . ولو أراد لقال فيه ما قاله غيره فى ما هو ارقُّ متوناً وأعذب حواشياً وأدعى لانتقاء لطائف الكلم :

وعذلت أهل العشق حتى ذقته .  
ف عجبت كيف يموت من لا يعشق  
وعذرتهم وعرفت ذنبى أننى .  
عيرتهم فلقيت فيه ما لقوا

ولو قال ذلك فى معشوقه الحساب وسمعه أهل اللغة العربية لما صدقوه . ولكن كم من صادق كذبه من لا يعرفون حقيقة مشاعره ! وأنت قد تعجب كيف يمكن لعاقل أن يبنتلى بعشق الدوائر والزوايا والخطوط و ألغاز المعادلات الصعبة وجداول اللوقرثمات . غير أن الاستاذ غزالي السراج كان كذلك . وليس ادلّ على ذلك من قولته الشهيرة التى لا تزال اصداؤها ترن فى اذنى منذ تلك العهود : اذا انتبهت من نومك فى الصبّاح الباكر والفيت الدار التى أنت فيها ينتحب جميع أهلها لأن أباك أو امك أو كلاهما قد توفاه الله ، فلا تبدأ بالبكاء والعيول ولكن قل للأحياء من أهل بيتكم قبل أن تسأل عن فارق الحياة منهم : اسمعوا يا جماعة ، المقابل على المجاور يساوى ظل الزاوية ! وبعد ذلك يحق لك أن تسأل عن حقيقة ما حدث أثناء نومك من وفيات ، وأن « تتكندك » بالتراب إذا شئت ! تلك هى قاعدته الذهبية . فهل وراء هذا العشق لعلم الحساب أو الرياضيات من عشق ؟ ونحن الآن ندرى - نتيجة لهذا الغراس الذى تقادمت عليه العهود ولكنه ظل مخضراً فى الذاكرة - أن المقابل على المجاور يساوى ظل الزاوية بالفعل وأن المقابل هو الخط من المثلث الذى يمتد فى قبالة الزاوية . ولكن الزاوية لها

مجاوران فأيهما المراد ياترى؟ وهل يصلح أىُّ منهما لهذه القسمة التى لا تلد إلا ظلاً؟ وهل يعيش الظل عمراً يعتد به والشمس تبدمه إذا أشرقت طولاً وقصراً وتمحوه إذا أفلتت عنه محوياً دون اثبات؟ هذه بعض الخواطر التى لا أشك فى أنها كانت تبرق فى نفوس كثير من التلاميذ وهم يستمعون إلى الاستاذ غزالى السراج يحبب اليهم « الحساب » وهو عاشق له ولهان به مستهام . وربما تسأل بعضهم بعد مضى كل تلك الأزمنة فى سخرية لا تفتقر إلى أسباب : ماذا أفدنا ياترى من معرفة ظل الزاوية وما كان يجاورها ويقابلها فى حياتنا؟ فيقال له على الفور رداً له على هذا الاستخفاف الساذج وتبصيراً له بأقل الحقائق اهمية : نعم كانت معرفة ذلك هى بعض الطريق إلى الترقى فى سلم التعليم ولو لا ذلك لما أصبح عمرو ضابطاً مرموقاً ولما صار زيد قانونياً ضليعاً ، ولما غدا صابر طبيباً نسياً منسياً ! وربما انتهى أحد افراد المجموعة التى كنت أنت بين ظهرانيها تتلقى هذه « الظلال » وأشباهاها إلى منصب وزير ثم تقاعد أو أقيى ولم يعد يذكره أحد . وقد يتسأل مرة أخرى اولئك الساخرون عن جدوى هذه الجهود المضنية التى يبذلها اساتذة مخلصون فى مراحل تعليمية بعينها، فلا يبقى منها فى ذاكرة أغلب تلاميذ تلك العهود شئ ولا تكاد تلمس لها أثراً فى حياتهم من بعد . فلا يعدو ما يقال لهم اجابة على هذه الاستهانة بالعلوم إن المهندس الذى تحدر من رحم تلك الآماد السحيقة يدرك اليوم بعرفان قيمة « ظل الزاوية » وما يتصل به من أغاز ، تماماً كما يدرك الطبيب ويعرف الصيد لاني والكيميائى وغيرهم قدر الحقيقة العلمية القائلة بأن الماء ليس هو سوى زواج شرعى ودائم بين غاز الأوكسجين والهيدروجين وان كان للثانى على الأول درجة، وإن ظل استمرار هذا الرباط رهناً بدرجة أو درجات معينة من الحرارة .

انى لا ذكر أن التعابير التى كانت ترسم فى وجوه التلاميذ تختلف من حصة إلى حصة وذلك يعنى أيضاً أنها تختلف باختلاف الاساتذة . فحصة الحساب تفرض على اكثر الوجوه سمات الصرامة الممزوجة بالحيرة وقدر غير قليل من الخوف والتوجس





تحفل بها صفحة السبورة قبل حين ولم يبق في أذهاننا من هذه الألفاظ الممضت إلا أن الزاوية قد تفرج وقد تستقيم وقد تضيق ، وهذا التبسيط يريجننا ويهدئ الاعصاب التي لم تعد تحتل من التعقيدات ما يجعل من الزوايا البسيطة الميسورة التصنيف هموماً ثقلاً على النفوس وجبالاً عاليات الذرى ... و«ليها ضل كمان» !

فاذا خرجنا من الفصل لفسحة صغيرة أو كبيرة تبارى امامنا بعض الشياطين من أولاد فصلنا في محاكاة الاستاذ غزالي والاتيان بجميع حركاته وترديد عباراته الوعيدية التي كان يتشدد في التلويح بها ويتراخى في المضى قدماً في تنفيذها . ولذلك أحبه التلاميذ على الرغم من شقائهم بمادة الحساب واحفائقتهم المتلاحقة في الفوز في اختباراتهما وامتحاناتها بما صار يتعارف عليه في هذه الأزمنة الحالية المغلقة باسم « التقييل » ، وهو قد استيقن من محبة تلامذته له فاذا بصر بهم عن جنب - أثناء محاسنهم له - وهم لا يشعرون فان وجهه يشرق بذات الابتسامة التي لا تدوم طويلاً ، ويمضى في سبيله متغافلاً عما يصنعون وكأنه لا يعنيه .

## الضير الذي يرى :

وأما الاستاذ محمود الضير استاذ الرياضيات فقد تتلمذنا عليه وأفدنا من علومه الجمّة ومعارفه الواسعة في كل من ام درمان الاميرية وخور طقت . ففي الاولى كانت وسيلته اللغة العربية ، وفي الثانية اللغة الانجليزية ، فلا جرم كان جامعاً بين الفضلين ، بحراً في مادته ، خبيراً بكل من اللسانين . واذا كان الاستاذ غزالي السراج ربما ينفجر في بعض أحيائه غاضباً ويزمجر متوعداً بعضائم الامور دون أن ينفذ الوعيد فان الاستاذ محمود الضير كان على نقيض ذلك تماماً . فهو شديد الهدوء ، لا يظهر عليه أثر انفعال وان كانت كلماته التي ينسب بها توحى بأنه يخفيه بين جنبه ولا يبوح به إلا نادراً ولدى الضرورة . وهي ضرورة يحددها هو بنفسه وأنت لن تقف على دواعيها وارهاساتها إلا أن تفاجأ بها وتشقى بتبعاتها من حيث لا تعلم ولا تحتسب . وهو أبلغ في السخرية والزراية بمن يريد السخرية والزراية بهم بين التلاميذ من



جميع زملائه الأساتيد ، لم أر أحداً منهم يماثله فى هذه الموهبة التى يوجهها حيث يشاء فى هدوء بالغ ، وينفذها إلى أهدافها فى تسديد دقيق . وهو أوجع فى انزال العقوبة ، فإذا كانت « جلداتك » التى يقررها عليك الاستاذ غزالي عند عم مبارك ثلاثاً - وهو لا يأمر بمثل هذا الجلد الانادراً - فان هذه « الجلادات » تكون ستاً حينما يقررها عليك الاستاذ الضرير . وذلك بعد أن يقرضك من لسانه بالمقاريض ، ويجعل منك بتعليقاته اللاذعة أمثلة أو اضحوكة بين أولاد الفصل . ولكن عم مبارك كان بالرغم من كل شئ رجلاً محبوباً وسط التلاميذ . « فالجلادات » الثلاث عنده قد تُفرى العقب وتقده ان كان خفيف اللبد الواقيات ، ولكن الجلادات الست غالباً ما تكون عنده أقل إيلاماً وان كانت أطول مدى وأبلغ فى الردع والتخويف . ولعل هذا هو جوهر الحكمة من وراء ذلك التضعيف الذى تفرد به الاستاذ محمود الضرير وهو يبعث باسمك إلى دفتر عم مبارك ويبسم فى وجهك وكأنك على موعد منه بقطعة من الحلوى أو كأس من الداندرمة أو كوز من الشربات !

لقد كان الاستاذ محمود الضرير شديد الهدوء موفور السكينة والوقار ، لا يعرف الزعيق ولا الهياج ولا الصراخ ولا الانفعال الذى يؤدي إلى ارتفاع العجيرة وانفجارات الغضب واصطكاك الاسنان وتقلص عضلات الوجه . إذا غضب أو أغضب أو استنكر أمراً أتاه تلميذ أبقى على ابتسامته الساخرة التى تلوح دوماً على وجهه لا تفارقه ، وفزع إلى سكينته الملازمة له يستهديها كيف يُنفسُ عما ألمُّ به من موجدة وطفق يستلهمها أبرع الوسائل وأسلمها لأخذ الثأر وإرضاء النفس دون أدنى قدر من الصخب والضوضاء . فهو لا يلجأ إلى استخدام يده لأنه يعلم أن لسانه أمضى حدّاً وأشد فتكاً ، ولا يستصحب سوطاً ولا « بشمةً » لأنه موقن بأن من دخل اسمه دفتر عم مبارك فهو غير آمن وان هبت لنصرتة جميع منظمات حقوق الانسان المنبثة على ظهر اليايسة . فهو استاذ بارع فى تدريس علم الرياضيات دون ريب ، بل هو أشد براعة فى الأخذ بالثأر لنفسه من أى تلميذ لا يعجبه مسلكه أو أداؤه ، وذلك بأيسر





فانه لا يقيم وزناً لامثال هذه المحاذير وانما يطلق لسانه ذرياً حاداً سليقاً موجعاً لا يخاف بأساً ولا بخصاً ولا رهقاً . فهو قد « ضبطني » ذات مرة وانا اتحدث مع جاري اثناء شرحه ، واتهمني « بالهرجلة » التي انكرتها في حينها . فقال لى وهو يبتسم ابتسامة كانت ابلغ من كل عقاب : « ياموسي ياخي انت اسمك منو » ؟ فضحك من سمع قوالته وتعجب منها من لم يدرك ماوراءها . فقلت له : اسمي موسي يا افندي . وانا اعلم انه يعرف اسمي وقد جاء به فى معرض سؤاله الذي يوهم بأنه لا يعنى مايقول . فلما أجبته بهذه الاجابة لم يزد علي ان وسع من نطاق ابتسامته واردف ساخراً : طبعاً ، يعنى حيكون اسمك منو ؟ ولم يفت علي إحتشاد عبارته بالخبت المقصود والزراية الماحقة . وهو اوشك أن يسألني من أي الاصقاع أتيت . ولكنه اكتفى بالتلميح عن التصريح . وعنده أن « فيصل » « وكمال » وربما « رأفت » « وبهجت » « وعزت » وأشباهاها هي الاسماء التي تنبئ عن حضارة حاملها ورقيمهم واتسامهم بالمدنية . اما اسماء موسي وعيسي وأدم ومثيلاتها فهى التي يستحق حاملوها من المهرجلين ان يقال لهم : طبعاً ، يعنى حيكون اسمك منو ؟ . ولا يظن احد أنى احمل ضغناً علي الاستاذ محمود الضرير لهذه المقولة التي لا ارتاب في انها لم تكن الا وليدة سخريته التي عرف بها فكنا نذهب - من فرطها - في تفسير تعليقاته شتى المذاهب . وذلك انى اعتبره محقاً فيما ذهب اليه فى ذلك الحين ، ولاتثريب عليه ان جهل الاعراق والاصول . فقد قدر لى من بعد سنوات طوال ان اذهب لاحضر ابنى محمداً من مدرسة كمبوني فى ام درمان وهو طفل صغير بعدانتهاء اليوم الدراسى . وفى مرة من المرات كنت انتظر ابنى محمداً خارج المدرسة والاطفال يتصايحون ويركضون . وفى ذلك الخور العميق الاخودى الرابض أمام المدرسة ابصرت وسمعت بعض الصغار ينادون واحداً منهم اسمه موسى فتملكنى الفضول وقلت اقف برهة حتى يخرج موسى هذا لارى إن كان بين تلاميذ كمبوني فى هذه العهود الجديدة من يمكن ان يحمل هذا

الاسم القديم . فاذا الذى يخرج من اعماق ذلك الخور الذى تحتشد فيه وعلى جنباته الاوساخ والقانورات طفل اشد سواداً من الغراب وأشمل «كندكة» - من أى «بعاتى» - بالتراب . وهو تلميذ في كمبوني في ثمانينات هذا القرن . وساعتها تذكرت الاستاذ محمود الضرير ، وقلت في نفسى : طبعاً ، يعنى سيكون اسمك منو ؟ غير انى وهذا الطفل الذى ربما صار الى الجامعة الان سودانيان اصيلان وكلانا يحمل اسماً كفى به شرفاً انه اسم كليم الله واحد الخمسة اولى العزم من رسله الكرام . ولو ان الاستاذ محمود الضرير - وهو التقى سليل الاتقياء - تفكر فى امره واستلهم هذه المعانى لكفانى شر سخريته التى تقتصد فى الكلمات والتعابير وتسرف فى المعانى والدلالات .

لم يكن الاستاذ محمود الضرير من المؤمنين بمبدأ الاستاذ غزالى السراج القائل بأن معرفة حقيقة ان المقابل على المجاور يساوى ظل الزاوية اهم من معرفة من توفاه الله من الابوين ، ولكنه كان حريصاً على النظام والمثابرة وعلى ان يستوعب التلاميذ ما يلقيه عليهم من دروس الحساب اتم واكمل استيعاب . غير ان هذا الكمال لم يكن فى متناول الجميع . فالمقدرات تتفاوت ، وما لاينال كله يكتفى بجله او بعضه . ولعله ادرك ذلك بأخرة ، وان لم يفارقه حرصه واصرارته على تحويل جميع تلامذته الى «حسابيين» مقتدرين . فلست انسى انه كان يدرسننا الرياضيات فى مدرسة خور طقت الثانوية ، وانه فاجأنا ذات مرة ونحن فى السنة الثالثة بامتحان فى كل من الجيو مترى والجبرا والحساب والتريقونومتري انتقى مسائله كلها من «نوات النجوم» العواصى . فحصل واحد منا فقط - وهو عيسى ابكر - على مائة درجة من مائة . وحصل كاتب هذه السطور على اربعة واربعين درجة من مائة . وغضب الاستاذ محمود اشد الغضب ، وان لم يمح ذلك عن وجهه ابتسامته المعهودة وانما خالطها من غضبه المكبوت ما يشبه الحزن والاسى . وتحت الحاح الطلاب اعاد الامتحان فظفر هذه المرة كثير منا بالدرجة





وهذا ناظر كان امره عجباً . فهو موردى اصيل عظيم الجسم ضخم الكراديس مستدير الوجه داكن لون البشرة . يغطى رأساً كبيراً انحسر عنه الشعر بكسكتة حيناً وبرنيطة احياناً أخر . ويرتدى القميص الابيض والبنطلون الكاكي ، ويمشى كضيف بدر ابن عمار .

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا

يطالعك بوجه صارم او هو اشد ميلاً للصرامة منه الى الابتسام وابعد عن الضحك منه الى متطلبات سلطان الادارة ، يوحى اليك بشتى صنوف المعانى واخفى ضروب الإشارات التى لاتخرج في مجملها عن التذكير بالقوة والتلميح بالعقاب والتلويح بدلائل الغلبة والقهر والترهيب . ومن عجب ان الابتسام يحو عن الوجه والمحيا كل هذه المعانى والايحاءات ، وان كانت اموراً باقية ومسلماً بها وتظهر في الاحيان المناسبة لظهورها . ولذلك فان التلاميذ يأنسون بالاساتذة الذين يكثرون من الابتسام فى وجوههم ، وهو انس ليس وقفاً عليهم وحدهم لسذاجتهم ولصغر السن ، وانما هو بعض طبائع البشر على وجه العموم ، ومن اوتى كثرة الابتسام فى وجوه الناس فقد اوتى خيراً كثيراً . الم تسمع قول الشاعر وهو قد اجاد وابدع فى هذا المعنى :

اضاحك ضيفى قبل انزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب

وما الخصب للأضياف ان يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب

وهو عين المعنى الذى قال فيه غيره :

بشاشة وجه المرء خير من القرى فكيف بمن يأتى به وهو ضاحك

ولا يظن من يقرأ عنى هذه الكلمات انى اعرض بالاستاذ محمود بلال رزق او ارمى الى النيل منه ، فانا لست اشك ابداً في انه كان رجلاً كريماً في داره يقرى اضيافه صنوف الطعام والضحك والابتسام فتلك كانت خلانقه التى هى خلانق جيله بأسره . ولكنى اسجل انطباعات تلميذ صغير قرأها ابان تلك الحقب الدوارس فى وجه ناظر



مدرسته واستقرت وانطبعت في مخيلته السانجة في وقتها وحينها . فهي لا تزيد ولا تنقص عن الانطباع المرهون بوقته ولا تدعى الصحة ولا الدقة لهذا الانطباع او موافقته للحقيقة . فقد كنا نقرأ في وجه الاستاذ محمود هذه الصور . وكنا نطالع في عينيه احمراراً يردنا علي أعقابنا فراراً من بأس مخوف . وهو عين الاحمرار الذي عفر بدر بن عمار صاحبه بسوطه ، وخلده ابو الطيب بوصفه الرائع :

ما قويلت عيناه الا ظنتنا      تحت الدجى نار الفريق حلولا

كان الاستاذ محمود بلال رزق يطلع - بجانب ادارته لشؤون المدرسة بوصفه ناظراً لها - بتدريس اللغة الانجليزية في بعض الفصول ، وهو مولى باختبار التلاميذ وامتحانهم كلما امكنه ذلك ، ولاريب عندي ان ذلك كان وليد حرصه الشديد على ان يبلغ تلامذته الذرى العوالى من اتقان اللغة الانجليزية ، ولذلك اشتهر بالاكثار من الاملاء (DICTATIONS) حتى يحسن مران التلاميذ على كتابة هذه اللغة وتنقاد لهم كلماتها سلسلة طائعة . وقد أكد لنا بعض التلامذة فى الفصول التى تتقدمنا أن الاستاذ محمود بلال رزق ذو معرفة واسعة بلغة الانجليز وأنه يستحق أن يسمى الانجليزى الأسود تماماً مثل الاستاذ احمد محمد صالح الذى حمل لقب «BLACK ENGLISH MAN» ، وهذا فى نظرى عين تركيد المدح بما يشبه الذم وهو فن من فنون البلاغة وقفنا عليه بعد سنوات . وقد قيل لنا إن الاستاذ محمود بلال رزق حينما ينطق كلمة «املاء» (Dictation) بالانجليزية فانه يلقها نصفين . فاذا قال Dic طارت منه زرارة لو صادفت عيناً لفقأتها ، ولكنها ترتطم بالجدار ولا يتابع احد منقلبها ومستقرها ومستودعها . ثم يأخذ نفساً وبعده يأتى ببقية الكلمة (Tation) فتطير زرارة اخرى . ولكن رحمة الله وحكمته اقتضت الا ينطلق مع كل شطر من شطرى الكلمة الا زرارة واحدة ، وان ثمن المائة منها - فى تلك الايام الرخيصة - بخس لا يعبو القراريط او الملايم . وكان الاستاذ محمود اذا دخل الفصل يبس الحديث على

الشفاه وساد عرصات الحجر صمت أصم بهيم وبدا الفتية كالخشب المسندة لا يكادون يفقهون قولاً . . . وخمدت من بينهم تلك الحيوية وانحسرت جميع معالمها حتى لاتكاد تسمع الا همس الانفاس المتصاعدة من فرط الفرز والفرق وتوقع الشرور والشبور وعظائم الامور . واما اذا جاء من خلفه عم عبد العزيز وعم محمود او عم جادين وكل منهم يتزيا بالبنطلون والسترة الكاكي والعمامة التي كأنها نبتت مع الراس من يوم رأى النور فتلك هي الواقعة التي لا منجاة منها وذلك هو اليوم القمطرير . وذلك ان مهمة هؤلاء النفر الكرام عقابية بحتة فلا احد يرجو خيراً اذا راهم يدخلون خلف الناظر . فاذا كنت من الذين حلت عليهم لعنة الناظر حملك هذان الماردان من اليمين والقدمين وانهاك عليك الاستاذ محمود ضرباً مبرحاً «بالبشمة» ، عشر جلادات او ما شاء الله لك . فان صبرت على هذا الاذى وسكنت جوارحك حتى يتم القصاص منك ابصرت فى وجه الناظر معنى خافئاً مبهماً للاعجاب ببطنه ولا يود ان يظهره وقد يند عنه ما يدل عليه بون أن يعبر عنه بكلمة . اما اذا بلغ منك الفرق والجزع درجة الصراخ والعويل «المرصعة» و«الملاوة» التي لاتجدى فتيلاً فاعلم انك جالب لنفسك على وقع انغام «البشمة» على جسدك الرخو الغرير لعنات الناظر ايضاً . . . يا كلب . . . يا ابن الكلب . . . يا قليل الادب . . . الى اخر مفردات قاموس التشهير، ثم انت لا تقرأ على وجهه الغاضب الا كل معانى السخرية والزراية برجاءاتك التي لا تستجاب ولا يلتفت اليها ، وجبتك وخورك الذى هو في نظره اكبر المثالب وانكر العيوب . وذلك ان الناظر رجل «حمش» يعجبه الثبات فى مواقع المعاناة والالم وتغضبه «الجرسة» وهو يسميها «الفضايح» فيلا حقا اذا انت تملمت او تخاذلت عنك رباطة جأشك تحت نكير البشمة بصوته الجهورى المفرز صائحاً : يا ود ما بلاش فضايح ، شد حيلك شوية . فهو من المؤمنين بصحة المثل القائل . الصقر ان وقع كثر البتات عيب . وقد راينا بأعيننا كم من «صقر» من صقور الاوائل والتوانى قد وقع وكم كانت البتات مذاهباً وضروباً ، وان

من الحمائم لمن هو اشد صبراً على الاذى واكثر احتمالاً للالم . ومهما قيل فالحق هو ان «السترة والفضيحة متباريات» . وقد تتزلزل وتضوى عزيمتك من البشمة الاولى وتنهار قواك وينفد صبرك فتأتى من سقطات الجزع ما يقلل من شأنك في نظر الاستاذ ويجعلك مضغرة في افواه الاقران ، وقد ينعم الله عليك بالجلد والتماسك ، فاذا صبرت على البشمتات الثلاث الاولى فان اغلب الاحتمالات انك ستصبر علي بقية البلاء ، وساعتها يكبر قدرك عند من حواك جميعاً ويقيك الله شرور التعليقات القارصة التي عادة ما تتناوش الجزعين لازمان بعد انقضاء تلك الدقائق الطوال الحرجة .

ومن منا لا يذكر قصة ذلك التلميذ العايب الذي حرر خطاباً لاحد زملائه ووضع في درجه من دون توقيع بالطبع وقد حشد اسطره بأقبح الكلام ؟ فلما فضّ زميله الخطاب ووقف على محتواه استشاط غضباً وزاد من غضبه انه لم يستطع ان يهتدى لاسم الراسل . فاستحال غضبه الى حزن عميق وتحول من بعد ذلك الى انتحاب صامت تشى به على وجهه الدموع ، وإلى شقاء ظاهر هيمنت علاماته على كل ملامح وجهه وعلى صلاته بالأقران . ولما بلغت به هذه الحالة الكئيبة مبلغاً لم يعد يحتمل اثقاله على نفسه الجريحة باح بالامر الى ابي الفصل واطلعه على الخطاب . وكان ابو الفصل استاذاً محبوباً بين تلامذته ملء الاسماع والابصار ، وهو شاب رقيق ومسالم ، عظيم الاهتمام بتلامذته شديد الحرص على سلامة سلوكهم عموماً وحسن تحصيلهم في الدروس على وجه الخصوص . فساءه ما علم اشد مساءة واحزنه ما قرأ ابلغ حزن . وظل مغموماً مهموماً يسأل عن كتب هذا الكلام الغث النابى فلا يلقى احداً يجيب . ويعد ان باع كل محاولاته للتعرف على فاعل تلك الفعلة المنكرة بالفشل والاخفاق امرنا فى ذات صباح ان نجمع كراسات الانشاء ، وما كنا ندري ما هو السبب الحقيقي من وراء ذلك لأن الكراسات انما كانت تجمع للتصحيح ولم يكن هناك ما يتطلب تصحيحاً . ولكن مجموعة عبد الكريم اخبرتنا في الفسحة ان الامر يتعلق بمحاولة الاهتداء الي

خط كاتب تلك الرسالة الملعونة التي أشقت لحظاتنا تلك وجلتها بالبؤس والاسى . فأصابنا مزيد من الهلع ، وعجبنا كيف يمكن لسلطات المدرسة ان تكتشف خط «المجرم» - كما صار يشار الى كاتب الخطاب - وسط خطوط قد تتشابه ويصعب التمييز بينها ، فلربما اخذ البرئ بالظنة وافلت المسئى الحقيقى من ربة العقاب . فعشنا اياماً من الهلع كئيبة لا تنسى . وكان بعضنا يجلس تحت الشمس حتى اذا احس دفناً فى جسمه او بعض اعضائه فرح بذلك وادعى انه يعانى من الحمى ولاذ بدفتر المستشفى ليذهب به الى حيث مظان الرأفة ، عساه يظفر براحة ليوم او يومين او يلزم سرير المرض ، ولتكن حقن الكينا التى تشوى الاصلاب او شرابها العلقى الذى تتلظى من مرارته الحلاقيم والاحشاء ، فكلاهما ارحم من «بشمة» الناظر التى تنضج الجلود وتقذح النار فى سائر كيان الجسد . فلعل الظافر بهذه الراحة من سلطات المستشفى ينجو من عذاب وشيك الوقوع لامرله من سبيل . ولكن هذه «الحمامات» الشمسية التى يفزع اليها البعض فى مثل هذه الظروف كثيراً ما كانت تعود عليهم بنتائج عكسية ليست تجز عن درء البلاء فحسب وانما تفاقمه وتضيف اليه ابعاداً اخرى جديدة . فان الذين يجلسون فى عيادة المستشفى الخارجية لا يحفلون كثيراً بالاسباب الحقيقية من وراء ظهورك امامهم وانت «تقنت» وتدعى عسر التنفس والتهالك وما هو قريب من الاغماء ، فهم مشغولون بعشرات ومئات غيرك ممن تقاطروا عليهم من كل ارجاء المدينة يبغون العافية ويلتمسون عندهم الشفاء . فاذا وضع بين شفقتك «الثيرموميتر» ثم انتزع بعد لحظات وحدق فيه محدق وقطب حاجبيه اعتراك شعور صادق بانك تكذب ، وغمرك احساس محبط بانك امام من هم ليسوا اكثر رحمة من سلطات المدرسة ، وغشيت نفسك الهموم واحاطت بها من كل ناحية . ثم انت لاتدرى مايكتب قبالة اسمك فى دفتر المستشفى . وماذا انت فاعل لوكتب حيال اسمك كلمة «متصنع» وختم ذلك بختم المستشفى ؟ وقد كان هذا يحدث بالفعل احياناً فيعرض

«المتصنع» لعقوبة اشد واقسى من تلك التى خشى وقوعها ولاذ منه بذلك الدفتر العجيب الذى قد تتغشاك من بين دفتيه الرحمة وكثيراً ما يريض لتقاءك بينهما العذاب المهين . فتغدو انت خاسراً كالمنبت لا ارضاً قطع ولا ظهراً ابقى ، يفوتك من الحصص والدروس ما غبت عنه وانت لائذ بالفرار ويحل بك من العذاب المضاعف ما طلبت قبلاً النجاة من نصفه ، وينالك من شماتة اللسنيين الهازئين من اقرانك ما كنت تحرص على اجتنابه والبعد عن المزالق المفضية اليه .

وعلى كل فقد ظللنا اسارى هذه الحيرة وهذا التوجس ثلاثة ايام حسوماً . وعندما جاء اليوم الموعود ودخل علينا «أبو الفصل» أسرعنا قياماً لتحيته . ولكنه كان لايزال حزيناً مغتماً باكى السمات من هول ما حدث ، وهو الذى ظل يبشر بين ظهرائنا بالوداعة والصفاء ومكارم الأخلاق . فقال في تلك اللحظة وقد غابت عن وجهه ابتسامته المعهودة : جلوس . نطقها وكأئنه يتقرزز منا جميعاً ، وبطريقة نفت عنها تماماً تلك الرنة المؤنسة التى كانت فيما مضى تهيب عقولنا الصغيرة وتدعوها بوداد وترحاب الى تلقى ما كان ينثره على اسماعنا وخواطرننا واذهاننا من نقائس الدرس والحديث . ثم جئ بكراسات الانشاء التى تم جمعها ووضعت على منضدة الاستاذ ، وهو صامت مثقل خاطر لاينبس بكلمة ولا ينفك عن وجه تلوح على محياه آثار الحزن والشقاء . وبعد قليل جاء الناظر الاستاذ محمود بلال رزق بذاته وصفاته والبشمة في يمينه كسيف فارق الغمد وحن الى الرقاب ، ومن ورائه عم محمود وعم عبد العزيز وكل منهما في السترة والبنطلون الكاكي والعمامة المثبته كالمغفر تغشى به حومات الوغى ، وعلى وجهه نصف ابتسامه ماكرة تنبئ عن سبب مجيئه الينا في تلك اللحظة في وضوح لاغموض فيه . وقف الاستاذ محمود بلال رزق بجسمه الضخم المعافى ، وبعد أن تأكد من توزيع كراسات الانشاء لأصحابها ، قال بصوته الجهورى المرعب الذى اذا زمجر ترددت اصداؤه في كل عرصات المدرسة : «طلعوا المجرم» . قالها بغضب لم يترك فى

نفوسنا ريباً فى سوء المنقلب وبؤس المصير . واشتمل علينا من الرعب والرهب والخوف  
 ما لا مزيد عليه وما لا قبل لنا بمثله . ولقد خيل الى أن المجرم اذا كان حجراً لبرز امامه  
 من تلقاء نفسه في تلك اللحظة . ولو ان احد التلاميذ علم حقيقته لأشار اليه دون تردد  
 ، حتى ينجو بنفسه وينجى غيره من ذلك الوعيد الذى تفجر من بين شفتى الناظر ودوى  
 دويماً . ثم أردف الناظر مرعداً مرة اخرى : «أحسن تطلعوا المجرم» . ومن عجب أن  
 كلمة «أحسن» هذه - وهى كلمة رقيقة اذا ما وجدت السياق المناسب لها - وقعت من  
 أنفسنا موقعاً هو أشد ارهاباً وامضى وعيداً ، بل أفصح إخباراً وأصح إنباءً بما اوشك  
 ان يصير اليه حالنا . فاصطلكت الاسنان ، وارتعدت الفرائص وساخت الاوصال  
 ووقفت شعور الرؤوس كأشواك القنافذ ، وانتهكت استتار الجأش وخارت القوى  
 وانحطمت النفوس ، وتمكن الفرع من القلوب فاشتد وجيهاً وتسارعت وتيرات ضرباتها  
 ، وصارت الايدي على الادراج تهتز وترتعد ارتعاداً . ولست ارتاب فى ان كل تلميذ منا  
 فد لاذ في تلك اللحظات بما في صدره من ذخيرة من القرآن والدعاء ، فقرأ في سره  
 كل ما تسنى له ان يقرأ عائذاً بربه لائذاً به من سوء ما تنطق به النذر وشر ما يوشك  
 ان يحيق بالناس . وكأنى بلسان حال الصبية الصغار يضرع الى المولى جل وتعالى  
 (لما أخذتهم الرجفة) وهو يتلو ما جاء من قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام :  
 (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ،  
 أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) . ثم صاح الناظر وقد عيل، صيره  
 «المجرم يوقف على حيلو» . فكاد كل منا ان يقف ، لان الوقوع فى الشر أهون من  
 توقعه . ولكن خذلتنا الارجل وأقعدنا الفرع وثقلت عن الوقوف الاجسام . ثم اخذ  
 الناظر يمشى بين الادارج ، تلك الشية الغضنفرية المتمهلة الماحقة ، التى تحمل في كل  
 خطوة من خطواتها جميع مقدمات الافتراس ومعانيه ، وينظر الى كل تلميذ نظرات  
 فاحصمة نوات دلالات طاحنة فلا يجرو هذا ان ينظر اليه . حتى القنادف رجالات الربع

الخراب ، عبد الكريم ومكى ومحجوب والحاج الكبتل ، ظلوا نواكس الازقان مثبتة انظارهم على بلاط الارض ، كل يتعوذ في سريرته بما فتح الله عليه من قرآن ودعاء (مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتد اليهم طرفم وأفئدتهم هواء) ، والناظر يقف حيال كل واحد منا بعض ثوانٍ تبدو له وكأنها سود دهور جمعت ازمانها من عجاف السنين . ولما شاء الله لهذا الكرب ان ينجلى عن الصدور وقف الناظر أخيراً قبالة احد التلاميذ قائلًا وقد جحظت عيناه من الرعب والهلع واصطكت أسنانه واهتز من ارتجاف أعضائه «الدرج» الذى كان أمامه . كان الناظر قد عرف من كراسة الانشاء من هو المجرم بعد مضاهاة الخطوط ، ولم تدم وقفته أمام هذا التلميذ طويلاً فهو هدفه ومبتغاه . وسرعان ما قال بصوت كالرعد - استغفر الله ، فالرعد هو صوت رحمة الله - وهو يشير اليه بسبابة يمناه : انت المجرم، فخارت قوى التلميذ ولكنه أنكر قائلاً في رجفة ومحاق : لا يا فندى دا ما انا والله . ولم يجد اذنأ صاغية لضراعتيه . وصدرت الأوامر : «محمود . . عبد العزيز . . شيلوه » فحمل من مكانه الى مقدمة الفصل ، عم عبد العزيز يمسك باليدين وعم محمود بالرجلين والتلميذ يصيح : فندى عليك الله يرددها دون ان يحظى بانتباه او استجابة . وأخذت البشمة تنهال على عقبه في قوة ورتابة . ورغم ان بقية التلاميذ قد تنفسوا الصعداء الا انهم رقوا لحاله وودوا لو انهم لم بمصرخين . ولست ادري كم بشمة تلقى ذلك الشقى على عقبه ، ولكن الذى لا مرأء فيه هو انه نال «علقة» العمر ، ولولا ان أحد الاساتذة قد شفع له لفصل من المدرسة كذلك . وانتهى ذلك اليوم المفعم بالرعب لتستقر اصداؤه في ذاكرة الصغار حدثاً لا يمحي ولا ينسى .

حقاً لقد كان الاستاذ محمود بلال رزق ناظراً مهيباً مخوفاً مرعباً . وربما كان الحزم والشدة أمرين تمليهما الضرورة وتدفع للتمسك بهما لان التلاميذ فى مثل هذه الأعمار الباكرة انما يكونون اكثر جنوحاً للفوضى منهم الى النظام ، ولا بد لهم من

مؤدب يخشون سطوته وبطشه حتى تستقيم قناتهم ويرتدع مردتهم وشياطينهم  
وترتاض نفوسهم وطبائعهم ، وان كانت الشدة المطلوبة والحزم المراد والردع المبتغى  
أموراً تختلف درجاتها باختلاف الظروف وتباين الفلسفات التربوية . وانا لست اروي  
هذا الذي ارويهِ عن الاستاذ محمود بلال رزق من باب القدح في اسلوبه او انتقاد  
وسائله ومنهاجه ، فلعله كان على حق ، ولعله - ان لم يفعل ما كان يفعل - لا يبلغ من  
الامسك بأزمة الامور مبلغاً . ولكنى على كل حال اسرد طرفاً من ذكريات رسخت في  
الذاكرة واستقرت فيها فهي باقية لاتبرح ولا تريم . ولقد كان التلاميذ يصورون الاستاذ  
محمود فى اذهانهم وفى اقاصيهم «الونسية» صوراً شتى ، ولكنها جميعاً تلتقى عند  
نعت الشدة والجبروت . فذلك هو جوهر الانطباع . ولم تكن قصة الزائر التي تطير  
تباعاً فى حصة الاملاء الانجليزية الا بعض تحقيق تصويرى لهذا الانطباع . فالزيارة  
التي تخطى العين - فى قولهم - انما ترتطم بالجدار او الدرج لتحدث فرقة اشبه  
بانفجار رصاصة صغيرة . ولقد كنا - من فرط سذاجتنا وتصديقنا لكل ما يروي -  
نحمد الله ان الاستاذ محمود لا يدرسنا الا نادراً ، اذ لا طاقة لنا بانطلاق هذه القذائف  
الزرائرية التي تفقأ الاعين ، ولا قبل لأسماعنا بهذه الفرقتات الموية التي يمكن ان  
تحدثها فتنشر الفزع وتصدع القلوب والالباب .

ولقد كان من بين التلاميذ من يتهم الاستاذ محمود بلال رزق بإضفاء جو خائق على  
المدرسة ، هو عين ما يسمى فى لغة العصر الحديث بجو الارهاب . وربما كان من بين  
الاساتذة ايضاً من يرميه بهذا الاتهام . ولكن العبرة بالمقاصد والغايات وليست  
بالوسائل والاساليب ، وليس من شك فى ان مقاصد الاستاذ محمود لم تكن غير سيادة  
النظام وكمال الانضباط وتهيئة أنسب الظروف - فى تصوره واعتقاده - للتحصيل  
والنجاح . ولا مشاحة فى ان الارهاب بمعناه الذى يتبادر الى الذهن والذى لا ثانى له  
فى حقيقة الامر انما هو منهج ممقوت ومسلك منقر . ومع ذلك فهو - كوسيلة لقضاء



الحاجات وبلوغ الغايات - قديم في طباع البشر قدم الانسان على ظهر هذا الكوكب الارضى . الم تسمع الى قوله تعالى تصور الظلم الذى يترتب عليه اروع تصوير : ( واتل عليهم نبأ ابني ادم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك ) ؟ كان هذا قمة الارهاب . ولكن الذى تعرض لهذا الارهاب الوعيدى استقبله بنفس ملائكية راضية ( قال انما يتقبل الله من المتقين ) . ثم هو قال من بعد ذلك : ( لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما انا بباسط يدي اليك لأقتلك ، انى اخاف الله رب العالمين ) . وعلى الرغم من هذا النمط الرفيع من الحديث والسلوك الحكيم فقد قتل الاخ أخاه ، وأصبح من الخاسرين ، ثم ندم على فعلته ولات ساعة مندم ، وبعد ان عجز ان يكون مثل الغراب فيوارى سواة أخيه . غير ان الاستاذ محمود بلال رزق لم يبسط يده ليقتل احداً ، وان كان هناك بسط فهو من باب ما يسمونه «البسطة العراقية» ، وهى لاتبلغ مرتبة «الفسحة» عندنا بأى حال من الاحوال ! وذلك ان من «بسط» بقى معه الامل ، ومن «فُسِّحَ» فقد زحزح عن البقاء وأجره على الله . والمسألة بالنسبة للتلاميذ على كل حال إنما هى أمر وسط بين «البسطة» فى القاموس العراقى «والفسحة» فى معجم الالفاظ السودانى ، والاجال بيد الله (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير) . ومهما قيل عن الارهاب فهو واحد وان تعددت اشكاله ودوافعه ومراميه ، وهو يوحى اليك - إن لم تكن غافلاً - بعبارة زياد : «أنج سعد فقد هلك سعيد» ، وهو ينقش فى وجدانك أثاراً لا تزول ، وربما أوغر صدرك ان انت نجوت منه وحملك على السعى الى الثأر والانتقام .

ولما كان ذلك كذلك فلربما خامرت عقول الصغار بعض نوايا السوء ، وهم يعلمون ان ليس للمواجهة الصريحة من سبيل . ولكن البشر هم البشر ، اذا حصرت احدهم فى ركن ضيق ولم تترك له منفذاً فربما أصابك ببعض خدوش . ولايصح ان يسمى ذلك اعتداءً ولا حتى دفاعاً عن النفس ، ولكنه نوع من البحث عن مخرج ينجى من السيف

والنطع ويحفظ او يرد بعض الكرامة والكبرياء مما لايمكن ان تخلو عنه نفس انسان . فاذا ضاقت عليه الارض بما رحبت امكنه ان يأتى بما كان يعجز عن الاتيان به في غير هذه الظروف والمواقف . واذا وجهت اليه الاساءات والأذى ونلت منه بالكلام مالاتناله منه السياط فاعلم انك قد ملأت نفسه بالحنق عليك ، وإن يعجزه ان يحتال عليك ويسعى فى ايدائك بما يتوفر له من وسائل ، ولو ان يأخذ ضغثاً فيضرب به ولايحدث ، علماً بأن جميع خلجات نفسه مقسمة على الثأر والانتقام . ومن لايدرك هذه القاعدة البسيطة يجهل تركيب الانسان العادى ، وهو النمط الذى يشكله اغلبية البشر وذلك ان العافين عن الناس والمتبعين السيئة الحسنة تمحها انما هم قليل .

فقد اصبحنا - كما بينت لك فى غير هذا الموضوع - فى ذات يوم من ايام نظارة الاستاذ محمود . لنجد ان جميع الجدران فى المدرسة تقريباً ، فضلاً عن النوافذ والابواب ، قد سُودت بكلمات وتعابير مسيئة موجهة الى الناظر ، لا ارتاب فى ان تلاميذ تلك الحقب يذكرونها اليوم بوضوح . بعضها يحمل اسم الناظر بين احرفه صريحاً لا مواراة فيه ، والبعض يشير اليه اشارات لا تخفى عليه ولا على غيره من الناس . وعلى كثرة التلاميذ والاساتذة الذين تجمعوا فى فناء المدرسة الواسع فى ذلك الصباح فانى لم أنس على وجه واحد منهم تلك الطلاقة التى كنا نألفها ، اللهم الا فى وجه الاستاذ محمد الدريرى ، وهو استاذ يتمتع بروح مرحة ولايخفى اعتزازه بأصله وانتمائه ومنبته العمرابى وانه ابن الاستاذ الدريرى محمد عثمان المعروف لأهل السودان عموماً ولأهل ام درمان على وجه الخصوص . وانى لاحسب ان الاستاذ محمد كان من الناقمين على سياسة الناظر المتشددة عموماً ولكن كان يمنعه الحياء من إظهار نقمته ، فوجد فى ذلك الصباح فرصته وهو يطالع مايغطى جدران المدرسة من شتى صنوف الكلمات القادحة فى شخص الناظر . ولذلك اطلق نفسه على سجيتها وتحدث عن شلالات او اطنان الفحم التى تم استهلاكها «عشان يطلعوا ذمة الناظر»

على حد تعبيره ! وقال الاستاذ محمد غير ذلك وهو يبسم ضاحكاً . ورغم ان اغلبية التلاميذ كانوا خائفين مكروبين فزعين من البطش المتوقع الا انهم كانوا في غاية الفضول والتركب ولم اسمع بينهم صوتاً يعلو باستنكار ما حدث . أما بعض الأساتذة الآخرين فقد بدا لنا نحن الصغار أنهم - على ما كان يزينهم من وقار وامسك عن التفوه بما لايجوز او قد لاتحمد عقباه - لم يتمكن أحاد منهم من اخفاء ارتياحهم لما حلّ بالجدران - او قل حل بالناظر - فمنهم من بادل الاستاذ محمد الدرديري التعليقات الساخرة ، ولكن بأصوات لايكاد يتبينها الا من يقف على مقربة منهم . وقد بان جلياً للجميع ، اساتذة وتلامذة ، ان هذه النازلة لن تمر دون ان تزعزع أمن المدرسة وسكينتها ، وان هذه الفعلة لن ينجو من الاتهام باقترافها الا من عصم الله . فيد الناظر لاحقة وهي قاصمة في حد ذاتها ناهيك عن «البشمة» التي لا تكاد تفارقها . ولذلك كانت مشاعر التلاميذ خليطاً عجيباً متنافر العناصر امتزجت فيه الحيرة والدهشة بالرعب والفرع والهلع ، واشتجر فيه الارتياح الخفى الدفين مع النفور والتقزز والانكار ، وتلون الخوف والفرق فيه بشئ من استشعار الاقدام والرغبة في اقتحام حصون الجبروت وجعلها جذاً وانهاء اسطورتها الي الابد . ولذلك كانوا يستقبلون تعليقات الاستاذ محمد الدرديري الساخرة بنصف ابتسامة حذراً وحيطة من ان تشئ هذه الابتسامة ان هي اتسعت بما يشبه الارتياح والرضا الصراح . وذلك لان سطوة الاستاذ محمود بلال رزق لاتقاوم ، ومن نجا من بشمته لابد واقع في كراسة عم مبارك ، فالأعناق الصغيرة تشرئب في حذر الى ما سطره الفحم على الجدران ، كل يقرأ في سريرته ولايجرؤ على ترديد حرف واحد مما كتب علانية . وكان السؤال الذي يضرم نيران الفضول واحداً : من فعل هذا بناظرنا ياترى ؟ ما اشجعه ! ولكن كيف يفلت احد من الاتهام ثم من العقاب ؟ وبينما الصبية غارقون في هذا الجو الصامت الحزين وبعض الأساتذة يعبرون للناظر عن تعاطفهم معه ، ولا احد يعلم ما يضمرون

ويسرون غير علام الغيوب ، اذا بعم مبارك يقرع الجرس قرعاً متصلاً مفعماً بالندير ،  
واذا بالتلاميذ يتدافعون صفوفاً وهم يوزعون ، واذا بالناظر في وسط ذلك الحشد كأنه  
موكل باخراج الانفس ومناقشتها الحساب . ثم كان ما كان مما قد رويت لك طرفاً منه  
فى غير هذا السياق .

## سامى وأشعار الفحول :

وكان من استاذة اللغة العربية فى تلك العهود الاستاذ احمد عبد الله سامى ، وهو  
ايضاً من شبان الاساتذة ، شديد العناية بمظهره ، يتخير هندامه تخيراً ، اكثر ملبسه  
القميص والبنطلون وان كان فى احيان غير قليلة يرتدى البدلة الكاملة وربطة العنق .  
وهو يفضل الالوان الداكنة على غيرها ، ويبدو فيها على درجة عالية من الاناقة وحسن  
الانسجام . يخطر أمامنا دائماً مرتب شعر الرأس وكأنه غادر دكان الحلاق لتوه .  
ويمكن القول بأن درجة غزارة شعر الرأس عنده كانت متوسطة دوماً ، لاهو بالكث  
المطبق ولا هو بالخفيف الذى يقارب الصلع ، وان كان نصيبه من الخفة اكثر . وهو  
شعر «قرقدى» كما يصفه اهل السودان ممتدحين ، وليس بالسببى ، ولا يبدو على  
الاستاذ احمد سامى انه يحفل بتصفيفه كثيراً . وهذا الشعر - على قلة كثافته التى  
يحافظ عليها الاستاذ سامى ولا يدعها تتزايد - فهو فاحم السواد ليس به من اثر  
الشيب الا بضع شعيرات بيض لا يبيصرها الا من يدقق عن قرب ، وهو يغطى رأساً  
اكبر فى حجمها من المتوسط ، ولكنها متناسقة مع بقية جسمه تناسقاً طيباً . فى عينيه  
مكر هادئ لا يوحى بنية الاعتداء على احد ، ولكنه ينم عن استعداد فطرى طبيعى  
لمواجهة العدوان ، وعن يقظة دائمة مستعصمة بالحضور الذهنى التام عن الغفلة  
والتهاون . وقد يطالعك منهما ما تحسبه شروداً وسياحة فى عالم مجهول اذا فرغ لتوه  
من اللقاء احدى القصائد التى تحرك مشاعره وتهز كيانه هزاً . وذلك انه يصمت هنيهة  
ولا ينبس بكلمة وكأنه يتابع بعينيه واذنيه اصداء ما كان يتلو حتى تغيب عنه وتنقضى .

ولكنه ليس بشارد لب ولا ساهم عينين . وآية ذلك انه يكاد يسمع دبيب النملة فى الفصل ويضع حداً له فى حينه اذا اراد . وهو استاذ يغلب على طبيعته الحزم ، فلم اره يضاحك تلامذته او يبادلهم رواية الطرائف ، سواء كان ذلك فى داخل الفصل او خارجه . ولذلك كانت بينه وبينهم مسافة معينة كالمنطقة الحرام ، لايتسنى لهم ان يقتحموها اقتراباً منهم اليه ولم يرد هو ان يطويها ليدنو منهم اكثر مما كان عليه حاله . وبالرغم من ذلك فقد كانوا يحبونه ويجلونه ويمتدحون مقدراته على التدريس وابلاغ المادة العلمية المرادة الى نطاق الفهوم . ولقد امتاز الاستاذ احمد سامى بحسن الالقاء مع وضوح فى مخارج الحروف واشباع للحرف والكلمة بدرجة تجعل وقعهما على الاذان مقبولاً ومؤثراً ودافعاً الى المتابعة واجتلاء المعانى وخفايا الجمال اللغوى . فاذا قرأ علينا الشعر احسن وأجاد واوفى النطق حقه واثار مشاعر مستمعيه . وهو مولع بالشعر ولعاً ظاهراً يبيديه لك إلقاؤه لهذا الشعر . فعندما يتحول من الكلام المنثور إلى الكلام المقفى فانه يتحول بكليته ويجعلك تشعر بوضوح انه يتحول من حال الى حال ثانية . فتراه عند قراءة الشعر يقف فى مكان واحد لايتعداه ، ويرفع رأسه عالياً ويبدو وجهه اشد حزمأ مما كان عليه قبل قليل ، ويستعين بيده اليمنى على ابراز أهم المقاطع التى يشتمل عليها بيت القصيد ، ويكتسب صوته جرساً خاصاً يجمع بين تأثره بما يلقى على مسامع الناس وبين رغبته فى التأثير بهذا الذى يليقيه . فهو يعيش فى جو المعانى التى تتفجر بها هذه الاشعار ويجهد نفسه حتى يجعلك تشاركه هذا النعيم ، ويسعه ان تستغرق انت فى متابعة كل كلمة ينطقها بدقة واهتمام . فاذا كانت القصيدة رثاءً كاد - وهو يقرأ ابياتها فى القاء رائع مؤثر - ان ينتحب او تدمع عيناه ، واذا كانت فخراً اكثر من الاشارة بيده اليمنى كلما جاء بكلمة او صدر او عجز او بيت يرى انه من القمم فى مثل هذه المعانى ، واذا كانت غزلاً او تشبيهاً او نسيباً فانك واجد فى نطقه وطريقة القاؤه خفة ووداعة وجمال نبرة ، وملامس من سيل كلماته رقاً وعذوبة

وظلاوة حديث ، واذا كانت متصلة بالفروسية وبيان شدة البأس فانه مقتدر على اخراج كلماتها قصاراً متتابعات مرزمات مثل فرقعات البارود ، او سناناً باترات أشبه ماتكون بصليل السيوف . فاذا فرغ من انشاده صمت هنيهة وهو بالغ التأثر ورننا الى تلامذته يستطلع احاسيسهم ويستجلى معلق بوجودهم من أثر وانفعال .

وانى لانكر انه كان معجباً بشعر محمود سامى البارودى ، ولست اعلم ان كان اسم الشاعر واحداً من أسباب هذا الاعجاب ، ولكنى اميل الى الاعتقاد بأن المعانى التى يطرقتها البارودى فى اشعاره ويأتى بها فى تلك الصور الجميلة المعبرة هى التى اطبت الاستاذ احمد سامى وسحرته . فتلك ايام كان الحديث فيها عن شرف النفس ورفعة المقاصد وقوة العزيمة وسائر معانى الصمود وجلائل القيم هو الحديث المجتبى وهو البحر الذى يحسن الخوض فيه . تلك سنوات شهدت اشتداد ساعد الحركة الوطنية بعد ان انجبت رحم مدينة ام درمان احزاب البلاد السياسية . فعاد السودانيون يتغنون جهرة بذات القيم الرفيعة التى تخلق بها اسلافهم على مختلف العهود والمناحى ، وفى طليعتها الطهارة والنقاء والامانة والتواضع والشجاعة والمحافظة على عزة النفس عند المكاره والمسرات . واذا كان التلاميذ صببة صغاراً لم يبلغ وعيهم درجة استيعاب متقدمة لما كان يضطرم حولهم من احداث وما كان يتبدى لقادتها من رؤى ويتخلق فى خواطرهم من آمال ، فان اساتذتهم كانوا رعيلاً من الشباب الوطنى المخلص تفتحت اعين بصائرهم على بدايات تلك العهود الغر التى شهدت ميلاد فجر جديد ، وحينئذ مشبوباً مشروعاً الى امجاد أمتهم الصامدة التى كانت تخفق فى سمائها عالية منذ حين اعلام الحرية والاستقلال الوطنى ممهورة بدماء الشهداء الخالدين . وكأنى بالشاعر السودانى المبدع تاج السر الحسن يشير الى ذلك دون سواه اذ يقول فى احدى روائعه : الارض تضئ بزيت الدم

فشهيد مات . . ومن دمه سمقت آلاف الانجم . .

فمن ذلك الدم الذى روى ارض الوطن فى كل بقاعها فى اواخر القرن الماضى سمقت هذه الانجم التى بلغت رشدها فى مراحل متعددة قبل أن ينتصف هذا القرن الذى كاد اليوم ان يأذن بالأفول . ولذلك كنت ترى فى اساتذتنا الشبان فى ام درمان الاميرية نماذج حية لهذا البعث الوطنى ، وشواهد ناطقة بأصالة هذه البلاد التى حفل تاريخها بامجاد البطولات والإقدام والقداء .

وعلى الرغم من كثرة انشاده للأشعار السودانية الوطنية وتغنيه بها ، فقد كان الاستاذ احمد سامى مولعاً - كما قلنا بأشعار البارودى وبخاصة تلك التى تجسد المعانى السامية وتبشر بالقيم الرفيعة وتدعو الى الطهر والنقاء واليسالة وسائر الفضائل المحببة . فمما كان يلقيه على مسامعنا ويكتبه على السبورة ويأمرنا باستظهاره وانشاده مرة اخرى دون لحن او خطأ او تصحيف قصيدة البارودى التى اذكر منها منذ تلك الايام قوله :

خلقت عيسوفاً لا أرى لابن حرةٍ	على يداً أغضى لها حين يغضب
وما انا ممن تأسر الخمر لبه	ويملك سمعيه اليسراع المثقبُ
ولكن اخوهم اذا ما تارجحت به	ثورة نحو العلالا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس ابيبة	لها بين أطراف الاسنة مطلب
فلمست لأمر لم يكن متوقِعاً	ولست على شئٍ مضى أتعتب

وانت اذا تأملت هذه الابيات وجدتها قوية جزلة الالفاظ سلسلة الروى متينة القافية محتشدة بكبار امهات المعانى . وقد كان الاستاذ سامى يلقيها على مسامعنا القاءً رائعاً وهو يهتز طرباً ويتميل انتشاءً ويستعين بيديه وكأنه يود ان يوقظ بهما نَوْمَ العقول ويزيل بهما الاستار والاعشبية عن الفهوم .

وفى حقيقة الامر وضح لنا ان الاستاذ سامى معجب بكل الشعراء الفحول وربما كان يحفظ كثيراً من اشعارهم عن ظهر قلب . ولست اعلم ان كان هو نفسه ينظم

الشعر فهو لم يقرأ علينا قصيدة ينسبها لنفسه ، ولكنى كنت موقناً ان فى روحه شعراً  
وانه قادر على ان يكتب الشعر ويجيد فيه ان توجهت نفسه اليه . وقد يكون بعض  
تواضعه قد أملى عليه الا يزعم امامنا انه يقرض الشعر ، ولكن كلفه بالشعر وهيامه به  
كان امراً ظاهراً لاختفاء فيه وكان حقيقة كبرى من حقائق رقائقه الوجدانية التى تفيض  
على طريقته الواثقة فى الإلقاء فتضفى عليها مزيداً من الروعة والاستغراق والجلال .  
وقد حمدنا له انه ظل يتحفنا دوماً بعيون القصيد . وقد لمسنا منذ تلك الازمنة انه  
مفتون ايضاً بشعر محمد سعيد العباسى يقرأ علينا منه ابياتاً تارة ويكتب منه غيرها  
تارة اخرى علي السبورة ، ثم يمحوها بعد حين ويطلب الى بعضنا قراءتها من الذاكرة  
. ولما الفنا ذلك منه صرنا نركز عقولنا الصغيرة على ما يكتب ونجهد ان نلصقه  
بالذاكرة فى حينه ثم نتلوه عليه استظهاراً منها قرب نهاية الحصة . وقد كانت هذه هى  
احدى وسائله فى تحبيب الشعر اليها واغرائنا بحفظ واستظهار أحاسنه . وهو كان  
كثير الإنشاد لأبيات ثلاث من شعر العباسى لعلها انطبعت فى ذاكرة كل فرد منا منذ  
تلك الاحايين الرغبة السعيدة ، وهى عندى غاية فى التشبيب :

بالله يا حلو اللمي      مالك تجفو مغرماً  
صددت عنى ظالمأ      أفديك يا من ظلمنا  
هلاً ذكرت يا رشا      عيشاً تقضى بالحمى !

اما تلك القصيدة الرائعة التى انشأها العباسى فى «التشبيب» بمصر واهل مصر ،  
والحين الى ايامه النواضر التى قضاها فى ضيافة ارض الكتانة ينهل العلوم والمعارف  
متتلمذاً على استاذة الزناتى ، فقد كانت - فى نظر الاستاذ سامى ، وفى نظرنا  
ايضاً ، على الرغم من ضمور معارفنا - من احسن واسلس وابدع ما نظم فى امثال  
هذه المناحى الوفاية ومن ابلغ ما قيل فى اشباه هذه العلائق الانسانية التى يكون  
الاخلاص لها نابعاً من هيام وجدانى حقيقى قادر على الهام صاحبه أجمل الكلام



وأحسن المعانى وأبهى الصور . ولقد جاء فى هذه القصيدة الخالدة قول العباسى  
يرحمه الله :

أقصرت مذ عاد الزمان فأقصرا      وغفرت لما جاعنى مستغفرا  
ما كنت ارضى يا زمان لو اننى      لم الق منك الضاحك المستبشرا  
مصر وما مصر سوى الشمس التى      بهرت مثاقب نورها كل الورى  
ولقد سعيت لها فكنت كائماً      أسعى لطيبة او الى ام القرى

فانظر الى هذا البيت الاول على وجه الخصوص تجده من احسن الكلام ومن اروع  
ما قيل فى الزمان ، وانظر الى هذا «الاقصار» وهو الكف عن اللوم ، كيف اسنده  
للزمان فى هذا المعنى السلس المنساب الذى كاد من فرط دقة العبارة ان يجعل للزمان  
لساناً وشفتين . ثم انظر اليه كيف بوأ نفسه مواطن العزة والكبرياء والشموخ فلم  
يقصر ويصفح الا بعد ان انطق الزمان وجعله يقصر ويكف عن معاندته . بل ان صفحه  
عن الزمان لم يكتمل الا بعد ان جاءه الزمان مستغفراً ، فغفر من موقع الغلبة  
والاقتدار . ولقد ابان فى البيت الثانى عن حقيقة عزة نفسه وسبب رضاها عن دهرها .  
فهو ما كان ليرضى الا بتحقيق بغيته الغالية ، وقد مطله الزمان حيناً ثم جاءه ليس  
مستغفراً فحسب وانما ضاحكاً مستبشراً ايضاً . ولقد كان الاستاذ احمد سامى يهتز  
طرباً وهو يلقي على مسامعنا هذين البيتين وكأنه هو المعنى بهذا الاستغفار والضحك  
والاستبشار . وانظر الى الشاعر كيف يصف حاله عند فراقه لمصر ثم حاله حين عودته  
اليها بدقة بيانية رفيعة تعد طوال الاعوام عدأ ، وتقيس المدى الزمانى قياساً ، وتجعل  
من الأثر المترتب على تعاقب السنين الراكضة ابلغ دليل واضح معبر صادق على هذا  
العد والقياس دون حوجة الى اقحام أى كم او رقم من الارقام . فهو يقول فى هذا  
المعنى عن مصر التى احبها ثم عن نفسه :

فارقتها والشعر فى لون الدجى      واليوم عدت به صباحاً مسفرا

سبعون قصرت الخطى فتركننى أمشى الهويانا ظالماً متعثراً

ثم هو يصور بعد ذلك عظيم الترحاب الذي قوبل به وهو عائد الي الديار التي عرفها في سننى شبابه والى اهله الذين احاطوه بعنايتهم ايام تلقيه العلم بين ظهرانيهم ، فيمضى فى ما يجسد الوفاء والعرفان ويعبر عن فرحته بعوده الاحمد بما هو انتخاب وجدانى صريح ويكاء ولهان على ايام الصبا والشباب ، وتذكر شجى مؤثر لامجاد اخوانه مفعم بالحب والوفاء . وذلك قوله بعد هذين البيتين المتقدمين :

فلقيت من أهلى ججاج اكرموا	نزلى واولونى الجميل مكررا
وصحابة بكروا الى . . وكلهم	خطب العلاء بالمكرمات مبكرا
يامن وجدت بحبهم ما اشتهى	هل من شباب لى يباع ويشترى
ولوانهم ملكوا لما بخلوا به	ولارجعونى والزمان القهقرى
لاظل ارفل فى نعيم فاتنى	زمن الشباب وفته متحسرا
دار درجت على ثراها يافعاً	ولبست من برد الشباب الانضرا
يا دار اين بنوك اخوانى الالى	رفعوا لواءك دارعين وحسرا
زانوا الكتاب فاتحين وبعضهم	بالسيف ماقتعوا فزانوا المنبرا
انى لاذكرهم فيضنينى الاسى	ومن الحسبى الى ان اتذكرا

فهذا شعر لايحى بمثله الا الفحول ، وفيه من صدق العاطفة ما لا يمكن ان تسعه الا هذه الكلمات القوية المعبرة التى احسن الشاعر انتقاءها وبرع فى نسيجها بهذا النسق الفريد . ولاريب عندى فى ان هذه القصيدة الخالدة قد بلغت من التأثير على وجدان استاذنا احمد سامى ما جعل العباسى شاعراً أثيراً عنده ، وما دفعه - بعد ازمان تلت تلك العهود التى نتحدث عنها - الى تصنيف دراسة علمية مستفيضة جعلها رسالته لنيل درجة الدكتوراه . فهى اليوم بهذا الاعتبار كنز ثقافى هائل من مكنونات المكتبة السودانية فى هذا المجال .

فهذا هو الاستاذ احمد عبد الله سامى الذى كان مولعاً بالادب العربى وكلفاً

بأشعار العباسى . لايضايقه شئ مثل ان تقاطعه اثناء القائه لقصيدة او شرحه لدرس . ويغضبه ان يسأل التلاميذ مسألة فى المادة التى يقوم بتدريسها فلا يظفر بالاجابة الصحيحة . وهو استاذ معتدل المزاج فى كل أحيانه تقريباً الا القليل . ولكن هذا القليل يمكن ان يجلب التعاسة للبعض من معادنها . اذا انس انتباهاً وحسن إصغاء من التلاميذ فإنه يطرح اسئلته عليهم من حيث يقف قرب مقعد الاستاذ غير بعيد عن السبورة ، ولايختص احداً بذاته بهذه الاسئلة . فاذا وافته الاجابة الصحيحة - أياً كان مصدرها - تهلل وجهه بالبشر وربما اثنى على من صدع بهذه الاجابة وامتدحه على «شطارته» . واذا لم يتلق مثل هذه الاجابة حزن حزناً لا يخفى على احد ثم ابان لنا الصواب وحذر من مغبة نسيانه وعدم الاهتمام به . اما اذا أحس بشئ من «الهرجلة» او عدم الانضباط فى الفصل فانه - فى اغلب احواله - لا يأخذ احداً بالظنة ، بل يستخدم حضوره الذهنى التام ويقظته البالغة ليحصر الاتهام فى اقل عدد واضيق نطاق . فاذا اكدت له حواسه الست صدق ماذهب اليه اقتصر ممن قنعت نفسه بأنهم اهل الهرجلة واصل الشغب . وان ارتاب فى امرهم او لم يقطع الشك باليقين احالهم الى عم مبارك ونفض يده مما يمكن ان يأتّم بافترائه عليهم . وربما كان ذلك لانه يعلم ان دفتر عم مبارك مثل نار جهنم ان منا الا وارده ، وان العقوبة عنده واحدة فى اغلب الحالات لاتتعدى ست جلدات وان تكرر ظهور اسم التلميذ فى ذلك الدفتر مرات فى اليوم الواحد . والاستاذ احمد سامى اذا حددت له حواسه الست مواقع الشغب فى الفصل فانه يذرع ارجاءه بين الادراج يتأمل اوجه التلاميذ ، ويقف امام من هو اشدهم - فى اعتقاده - مظنة للاتهام ، يتفحصه بوجه غلبت على ملامحه علامات الحزم والجد والغضب ، ويطميه ويظمره بسيل جارف من الاسئلة العصية ، حتى اذا داخ المسكين او قارب الدوخان ايقظه بصفعتين او ثلاث وغادره وقد اشتفى وانفتأ عن مشاعره الحنق . وكل تلميذ فى الفصل يعلم ان الاستاذ احمد سامى يعنفه

تعنيفاً اذا قصر فى واجب الدرس . ويعلم اكثر من ذلك انه لا يتردد فى ان يصفعه اذا جنح للفوضى واستحل الشغب اثناء الالقاء والشروح . وكان الصقور لا يحبونه فى اول عهدهم به لانه - كما قالوا - يفتش الفصل ولا يبقى فى مكانه . ولانه يعتبر الاصوات التى يحدثونها بمعدات الهندسة هرجلة وهى عندهم موسيقى مهدئة للأعصاب وطاردة للملل ومنعشة للارواح . ولكنهم بعد ان استمعوا اليه مراراً وهو يلقي الأشعار ويجيد الالقاء وينفعل كيانه كله مع كل لفظ ومعنى اعاروه آذاناً صاغية وقلوباً واعية واللباباً مستبصرة فاستباهم سحر البيان وهزهم حسن الالقاء وايقظ فى نفوسهم ارق المشاعر ، فافتتنوا بمقدرات استاذهم احمد سامى واحبوه وحرصوا على ارضائه بالكف عن عزف مقطوعاتهم المحببة الى نفوسهم . وداوموا على الإصغاء الى كل حديثه المنتثر منه والمقفى ، وجنوا - دون ريب - من ذلك خيراً كثيراً .

### **القواعد . . وبنود الغازينية :**

ليس هنالك من شك فى ان اللغة العربية ساحرة اذا قدر لك ان تحسن تذوقها واذا حباك الله بمعرفة اسرارها ودقائقها . ولكن مثل هذا التذوق ومثل هذه المعرفة امران يحتاجان منك الى شيخ او شيوخ تحور عليهم والى مراس قد يطول أمده . فاذا يسر الله لك الشيخ العارف ورزقت صبراً على مكابدة اسرارها ورقائقها فانك تجنى معارف جمة وتظفر بخير عميم . كانت هذه هى تعاليم استاذنا الشيخ يوسف الخليفة استاذ اللغة العربية فى ام درمان الاميرية . اما المعرفة بأسرار اللغة فقد كان الشيخ يوسف احد اساطينها . واما الذوق فقد اجهد نفسه مشكوراً لتعليمنا اياه ، ولكنه حاول أمراً صعباً . وذلك لانه كان يضع الالمام بقواعد اللغة من نحو وصرف واعراب كشرط أساسى ينبغى تجويده لترقية الانواق وجلانها من رين العجمة واللحن . وما كان لنا فى تلك المراحل المبكرة ان نحسن شيئاً من هذه الشؤون . فكان من بيننا من يرفع المفعول به وينصب الفاعل ولا يقيم وزناً يذكر لدخول حرف الجر على الاسم . واما كان

واخواتها وإن واخواتها فقد كان منا من يؤاخي بينها جميعاً ، ومنا من ينسب اخوات هذه الى تلك واخوات تلك الى هذه ، فتلقى اللغة العربية على السنتهم ما كان الشيخ يعتبره هواناً في حقها ومروفاً من ديانة فصاحتها واستخفافاً بأصول الادب الواجب المبتغى في دبرها ومحرابها . وقد كاد الشيخ يوسف ان يعلن على الملأ انه انما يتعامل مع فصل ربما كان تلاميذه مصابين بعقلة في اللسان على احسن الفروض . وهو قد عبر عن سخطه بشتى الوسائل وأوشك ان يعتزل فصلنا او ان يهجره ملياً . ولكنه ادرك بأخرة ان الفتية ليسوا بأعاجم ، وان ما يأتون به من لحن وتصحيف وخلط انما كان امراً مقصوداً واخلالاً متعمداً بسلامة النطق ومراعاة القواعد واحتجاجاً مغلفاً على إكثاره من تدريس «القواعد» ومغالاته في ذلك ، وتعبيراً عن البرم بها واشعاراً له بانها ثقلت عليهم ولم يعودوا يطبقونها صرفة جافة مثل بنود القوانين التي تشتمل عليها غازيتة جمهورية السودان التي رات النور في عهد لاحقة. ربما لم يكن هناك تأمر حقيقي او منظم بين التلاميذ لاغاية الشيخ يوسف ، ولكن المشاعر كثيراً ما كانت تلتقي بعفوية ليس من ورائها تخطيط او تدبير فيبدو هذا التلاقى كأنه أمر حيك بليل ورسمت خطوطه من خلف ستار . ورغم ان اولاد فصلنا لم يبرأوا من الشجارات الطفيفة والمنازعات التي لاتبقى طويلاً فيما بينهم الا انهم امتازوا بروح جماعية فريدة في اكثر احوالهم . ولقد كان هذا الاجماع التلقائي - وهو لم يكن اجماعاً سكوتياً لانهم لايعرفون السكوت على الهوان - امراً كثير الحدوث . فلما اجتمعت كلمتهم على الثار من الاستاذ السبكي الجزولى لانه اطلق اسم احسان عبد القدوس على احد زملائهم لم يكن ذلك وليد تخطيط وتدبير واجالة متهملة للرأى وانما جاء في لحظة واحدة معبراً عن مشاعر متشابهة متطابقة . وعندما اعتمدوا السكوت الامتناعى سلاحاً يشهرونه في وجه ما اسموه بتجاوزات الشيخ ابي بكر لم يكن ذلك الانتاج لقاء

وجدانى فى وجه عاصفة ايقنوا تلقائياً الا نجاه لاحد منهم من نكيرها الا باتخاذ موقف موحد . ورغم انهم اطلقوا على هذا الموقف اسم «السكوت الامتناعى» الا انه كان سكوتاً - او قل عزوفاً - عن التسميع ، ولذلك وصفوه بأنه امتناعى ، فهو لم يمنعهم - وهم لم يكونوا يريدون ان يمتنعوا - عن الهرجلة والشغب والهمس والضحك الصراح وبق الرمية لى كرم وكرم يرقص ، مستععين فى ذلك - والشيخ غاضب حيران - بجميع الادوات الهندسية والايدي والارجل وسائر وسائل الاتصال التى احدثوها فيما بينهم حتى تخفق عالية راية المقاومة السلمية معلنة لكل فرد منهم بلسان الحال : «سكت عن شئ ونابت عنك اشياء» والمعنى : قامت بالنطق اشياء ! ولذلك لم يكن مستغرباً ان تلتقى مشاعر الفتية فى ابتداء اسلوب يعبر عن برهم بكثافة مايصب على رؤوسهم من حميم القواعد الصرفة بما فيها من علامات الاعراب التى تظهر حيناً وتختفى أحياناً أخرى فتقدر تقديراً وتلتمس الأسباب لعدم ظهورها تارة بالتعذر وتارة بحرف العلة .

ويقيني ان استاذنا الشيخ يوسف كان غيوراً على اللغة العربية ، وانما قصد بمحاولته لتمكين تلامذته من قواعد ما يحمى قداستها من اعتداءات اللسن المتكررة وان يزود عن نضارتها ما يمكن ان تعصف به جهالاتنا وقلة اداركنا لاسرارها وغوامضها . ولكنه ما أن احس بهذا الضيق الذى لحق بتلامذته من كثرة «مافلق رؤوسهم» من حصص القواعد حتى أخذ يراخى من شدة هذه القبضة الخانقة وطفق يذلف بنا رويداً رويداً الى مغانى الشعر ونظيم الكلام ، ولم تمض به على هذا النسق الا ايام قصار حتى ألقى من تلامذته اقبالاً لم يعهده من قبل وحتى لمس فيهم تجاوباً لم يقف على مثله فى ماتقضى من حصص ، فكما ان الالحان والموسيقى والغناء طوارد للملل وشوافى للاسقام وبواعث للأرواح فكذلك الشعر اذا كانت قصائده ومقاطعته من الجياد ، فيها شفاء لعلل النفوس وداوئ لاسقام الضجر ومتحول موطن الاكتاف عبق الارحاء

عن ديار الرتابة والملاة والركود والجمود . وذلك ان جياذ الشعر موسيقى تنقش اللحن فى أوتار القلوب وتضرم نيران الحياة فى هو امد النفوس ، وتغذوها بلطائف المعانى وتجلو المسغبة عن العقول والألباب . فاذا بالارواح تسعد وتنتشى ، واذا بكل شىء فى الكون يبدو جميلاً يغنى للجمال . ولقد كان مدخل استاذنا الشيخ يوسف الي رياض الشعر تلك القصيدة الرائعة التى تضح فى عروقها الحياة فياضة بضروب المنى وبواسق الآمال ، وهى - ان لم تخنى الذاكرة - من خوالد ايليا ابى ماضى ، يعتب فيها أرق العتب على من لا يرون فى عيشهم الا المشقات ولا يبصرون فى نعيم الحياة الا ما يتخلله من كدر وسوء ، يتغاضون عن جليل النعمة الالهية ، يجأرون بالشكوى وهم بعد فى اتم العافية والسلامة . فهذه قصيدة تبدأ بهذا العتب وهذا السؤال المفحم البليغ :

ايها المشتكى وما بك داء كيف تغدو اذا غدوت عليلا ؟

ومثل هذه الشكوى عند الشاعر جنائية ، وصاحبها عنده هو شر الجناة ، ولذلك تراه

يقول فى امثاله .

ان شر الجناة فى الارض نفس تتوقى قبل الرحيل الرحيل

فالرحيل امر لا بد منه فى نهاية المطاف ، والعاقل من استعد له بما يرضى الله ، والاحمق من نكره او سوف او استهان بالعاقبة . ولن يقلت من هذا المصير أحد لأن الله تعالى خاطب أفضل خلقه واحبهم اليه فقال : ( انك ميت وانهم ميتون . ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ) . الزمر اية ٣٠ . وقال : ( ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله احسن الخالقين . ثم انكم بعد ذلك لميتون . ثم انكم يوم القيامة تبعثون) . سورة المؤمنون اية ١٢-١٦ . فالموت نهاية كل مخلوق حى . والحياة نعمة مهداة ، وليست عبثاً من غير طائل . فمن ادرك الحكمة من وراء خلقه نعم بالنعيم الذى اوتيته من غير تضييع

لحقوق المنعم أوتهاون فيها . ولقد ادركت حتى الطيور التي لا تعقل شيئاً كيف تمتع نفسها بالبقاء وهو قصير شديد القصر . ولذلك قال الشاعر معاتباً هذا المشتكى مشيراً في شئ من التبسيط الى كنه الحياة دون اسراف او خوض في تفاصيل هذا الكنه وهذا المغزى لانها معلومة :

ادركت كنهها طيور الروابى فمن العار أن تظل جهولاً  
أما تراها والحقل ملك سواها تخذت فيه مسرحاً ومقيلاً ؟  
تتغنى وعمرها بعض عام أفتبكي وأنت تحيا طويلاً ؟

وبعد أن ضرب لك الشاعر هذا المثل الرائع وأبان لك هذه الحقيقة البسيطة عارية الا من هذه الصياغة البيانية الزاهية ، وبعد ان اوقفك علي حقيقة احلام العصافير حتى كدت ان تظن بعقلك الظنون فانه قد حملك حملاً وعلى اجنحة خضر رفيقة حانية من قفار الكدر والاسى والقنوط الى مشارف الامل والفرح والرجاء ، وبث في جوانحك وأوصالك وروحك وشغاف قلبك حديثاً يعافيك اذا وقر في جنانك وانطلق به منك اللسان :

فتمتع بالصبح مادمت فيه لاتخف ان يزول حتى يزولا  
فان اوتيت فهماً سليماً لقوله لاحت امام ناظريك جليلة ناصعة كرائم المقاصد ،  
فحفظت دينك وعمرت دينك واوتيت فقهاً في معانى الجمال . ولذلك نفذ الشاعر الى وجدانك عنوة بعد أن حاجه بهذا اللطف فقال :

والذى نفسه بغير جمال لايرى في الوجود شيئاً جميلاً  
ايها المشتكى ومايك داء كن جميلاً ترى الوجود جميلاً  
وانى لأجد نفساً من مصداق ذلك عند بعض أهل الله ، فقد قالوا : ومن رأى  
الكائنات منه - أى من الله سبحانه وتعالى - راها كلها جميلة . وفى ذلك أنشد  
منشدهم :



وإذا رأيت الكائنات بعينهم فجميع ما يحوى الوجود مليح

وهو قول أنكره من رأى فى معناه الاشتطاط والمروق وأقره من حمله المحمل الحسن  
ولزم معه نقاء الاعتقاد .

وعلى الرغم من أن استاذنا الشيخ يوسف الخليفة لم يحملنا على سفائن كل هذه  
المعانى والتأملات الا انه - بقراءته لهذه الاشعار وحثنا على استظهارها واستيعاب  
مقاصدها الوضيئة المتفائلة فى استمساك متين بعرى الطهارة والنقاء وسائر  
الفضائل - قد بث فى اقطار عقولنا البضة الصغيرة بعض اشارات لبقات تفرغ اليأس  
وتطرد الشقاء وتنبت الأمل . وكان هذا هو مبتغاه ، وهو الذى يلائم روح البعث الذى  
اخذ يسرى بين ابناء الوطن فى تلك الازمنة لان التفاؤل واتساع رقعة الامل هى دعائم  
العمل الوطنى التعبوى وركائز الخطاب القومى الذى صار يحمل فى طياته طلائع  
البشرى بانعتاق الوطن من اسار الاحتلال . فهذا الشعر المتفائل انما هو عون لتلميذ  
تلك الايام لانه يفتح امام بصيرته ومخيلته على السواء آفاقاً رحاباً لتدبر بعض الحكمة  
من وراء الحياة ، وينير له طريقاً يبسا بين اتراحها فلا يخاف منها دركاً ولا يخشى .

وانا لن استطيع فى هذه العجالة ان ارصد لك جميع الدروب البيانية التى سلكها  
بنا الاستاذ الشيخ يوسف لانها كثيرة لاتحصى . ولكن يمكننى القول بأنه جعل من  
هذه السياحات المتمهلة فى رياض الشعر وسيلة بالغة التأثير على صقال الانواق  
والارتقاء بها . فاذا رقت الانواق وصفت ودق احساسها فانها توحى اليك احياناً  
صادقاً بصحائح قواعد اللغة وغرائب اعرابها فتحسن القياس وتأتى بها سليمة معافاة  
من شوائب اللحن والخلط والتصحيف . وانا لست ازعم انك لاتحتاج الى معرفة اسس  
هذه القواعد بدءاً فذلك ما لايقول به احد ، ولكنى رأيت نفوس الصغار تستشعر نفوراً  
من يبس القواعد وجفافها وجفائها ان هى انصببت عليها تباعاً بتلك الرتابة التى تغص  
بها المشاعر ولاتستسيغها ، ولكنها تلتقطها التقاطاً هيناً على النفس من بين مونقات

رياض الشعر كما تجتنى الورود العبقرة من بين افرع شجيراتنا وهن مائسات  
يتراقصن بين اذرع نسيمات الفجر الوليد . وكما انك تحتال على مرارة الدواء النافع  
بماء عذب يذهب هذه المرارة فلا يذهب به تأثير الدواء ، فانك تحسن صنعاُ اذا اذبت  
قليلاً من القواعد فى كثير من الشعر حتى تنصقل فيك حاسة الذوق وترتقى ، فيواتيك  
فى يسر واضطراد وتلقائية ماكنت تحسبه مستعصياً عليك وأنت تجرعه صرفاً يشوى  
حلق الافهام . ولقد قلت لك ان الشيخ يوسف ادرك ذلك فعطف بنا على رياض  
القصيد . وهو قد اكثر من هذه السياحة وشحذ منا المقدرات على استظهار المقطوعات  
الشعرية فى غضون الحصة الواحدة ، وجعل جوائزها على حسن البلاء تتراوح بين  
الاطراء والمكافآت النقدية ، وكثيراً ما يجتمع لك كلاهما اذا انفردت انت وحدك بترديد  
الابيات الشعرية من ذاكرتك فى حينها دون ان تلحن او تخطى فى كلمة من كلماتها او  
حرف من حروفها . فمن منا لا يذكر قصيدة ابي الطيب التى كتبها الشيخ على السبورة  
ثم ازالها منها وطلب الينا ان نقرأها عليه ؟ تلك كانت ميميته المعروفة التى يقول فيها  
هذه الابيات التى اذكرها منذ تلك الايام :

ذكر الصبا ومراتع الارام	جلبت حمامى قبل وقت حمامى
دمن تكاثرت الهموم على فى	عرصاتها كتكاثر اللوام
فكان كل سحابة وكفت بها	تبكى بعين عروة بن حزام
ولطالما أفنيت ريق كعابها	فيها وأفنت بالعتاب كلامى
قد كنت تهزأ بالفراق مجانة	وتجر ذبلى شجرة وعُرام
ليس القباب على الركاب وانما	هن الحياة ترحلت بسلام
ليت الذى خلق النوى جعل الحصى	لخفافهن مفاصلسى وعظامى
متلاحظين نسج ماء شؤوننا	حذراً من الرقباء فى الأكام
ارواحنا انهملت وعشنا بعدها	من بعد ما قطرت على الأقدام

وما ان قرأنا ها عليه بعد حين صافية صحيحة مبرأة من عيوب اللحن والإقواء حتى

ام ضنب . . . وغير ذلك كثير . . . حتى يكتمل الفريقان بإشراف عبد الوهاب سلسيون وأب زعانف ومحمد عمر وآخرين . وإذا انتقلت الى جامع الخليفة بشريط الذكريات أبصرت فى نفق هذه السنين الدوارس الاستاذ هاشم ضيف الله وهو يدرب امير الكرة صديق منزل على فنون تسديد ضربة الجزاء . ولولا ذلك الهيام القديم لما بقيت امثال هذه الصور والاطياف في الذاكرة ، ولولا تسامح الاستاذ يوسف الخليفة ومرونته لما كان لمثل كل هذه المفارقات جامع يؤلف بينها فى مثل هذا النسق الذى يجمع الاشتات المتنافرة فى صعيد واحد .

ويقينى ان الشيخ يوسف كان - كغيره من رفاقه الاساتيد - شديد التفاعل مع موجة البعث الوطنى التى انتظمت اقساماً واسعة من المتعلمين والمثقفين . واية ذلك انه كان بالغ الاحتفاء برموز الحركة الوطنية يلمس ذلك من يلمسه فى بعض مقولاته . ولقد جاعنا في ذات صباح وهو فرح مسرور يعلن ان الاستاذ احمد محمد صالح - وكان استاذاً فى مدرسة التجارة الثانوية على ما اعتقد - سيزور فصلنا فى الحصة الاخيرة ، وكتب لنا على السبورة بعض أبيات من إحدى قصائده وأمرنا باستظهارها وتلاوتها عليه من الذاكرة حين مقدمه . ولقد استظهرتها فيمن استظهروها بسرعة فائقة ، وقرأتها عليه حين دخل فصلنا فى الحصة الأخيرة وهو يرتدى بدلة كنا نصف لونها بأنه «سمنى» وهو مايسمى في الرطانة الانجليزية - ولعلها الفرنسية بصورة ادق - «بيج» . وهى قصيدته المشهورة المسماة فيثوس يجارى فيها قصيدة الشاعر المصرى الاستاذ على الجارم التى كتبها عام ١٩٣٧م وكان مطلعها :

عيد الجلوس صدقت وعدك بالمنى وصدقت وعدى

فما ان اذن لى الاستاذ الشيخ يوسف حتى تلوت على مسامع الاستاذ احمد محمد صالح هذه الابيات من قصيدته من الذاكرة ، وتعمدت القاؤها بأحسن ما اوتيت من مقدرات :

أخلفت يا حسناء وعدي  
 فينوس يا رمز الجمال  
 لما جلوك على الملا  
 هرعوا اليك جماعة  
 استنجز الوعد التسييم  
 يا من رأى حسناء تخطر  
**السي قوله :**

لو كان زندي واريأ  
 او كان لي ذهب المعزز  
 لما تنكر ودهم  
 هذي اليراعة في يدي  
 فاذا رضيت فانها  
 لي من بياني صارم  
 علم شبيب الوادين  
 علمهم ان التمسح  
 وأبن لهم ان العروبة  
 لتهيبوا كفى وزندي  
 لاحسنوا صلتى وودي  
 جازيتهم صبدأ بصد  
 لو شئت كانت ذات حد  
 شهد مصطفى أي شهد  
 وكتائب العزمات جندي  
 خلألق الرجل الأشد  
 بالفرنجة غير مجدي  
 ركن إغزاز ومجد

ولما فرغت من القاء هذه الابيات سر الشيخ يوسف سروراً عظيماً واشاد بما اسماه  
 حسن ادائى وهنائى عليه . وقد ضاعف من سروره ان كان الاستاذ احمد محمد صالح  
 بين طهرانينا يستمع الى احد تلاميذ الشيخ يوسف وهو يتلو عليه بعض خلجات نفسه  
 ويعرض امامه سرباً من بنات مشاعره . واما الاستاذ احمد محمد صالح نفسه فقد  
 سعد سعادة ظاهرة وظل يتبسم فى رضاً وارتياح طوال فترة اللقاء . ثم دعانى اليه  
 وهنائى وشد علي يدي بحرارة ، ورفدنى بهديتين - او قل جائزتين - لازلت اذكرهما  
 بعرفان . الاولى انه ابان لي ان الصواب فى امر الكلمة الاولى من البيت الرابع من  
 هذه القصيدة هو ان تنطق بضم الهاء وكسر الراء مع ترقيقها ، وليس بفتح الهاء وفتح

الراء وتفخيمها كما كنت أقرأ . وهذه فائدة كبرى وهدية قيمة وجائزة ثمينة ، وان كان الامر قد بدا لى غريباً في حينه وحتى من بعد ذلك الحين ، الى ان وقفت على حقيقته بأخرة وايقنت انه افصح الكلم . قال تعالى فى سورة هود (اية ٧٨) : (وجاء قومه يهرعون اليه) . وقال تعالى فى سورة الصافات (اية ٧٠) : (فهم على آثارهم يهرعون) . وليس بعد التنزيل الحكيم من مرجع يحتكم اليه . واما الجائزة الثانية فقد كانت مكافأة نقدية سخية بمقاييس تلك الازمان نعم بخيرها جميع اولاد فصلنا فى نهاية اليوم الدراسى وعدت وانا خالى الوفاض منها تماماً ولكنى كنت مغتبطاً سعيداً راضى النفس بكل الذى كان . ورغم انى ماكنت لأبخل على زملائى بشئ مما رزقنى الله الا انى سمعت نقاشاً هامساً يدور بين بعض التلاميذ ونحن نمضى زمراً الى متجر الباسطة ناحية الشمال الشرقى لفناء المدرسة ، وهو همس وحديث لم يكن يخلو من طرافة وبعض مكر وسذاجة . همس بعضهم ناصحاً - من مواقع العطف على كداح لهم الى هذه الوليمة - ان العدل يقتضى الابقاء على ستة قروش على الاقل ، ثلاثة منها لدار الرياضة ، وثلاثة منها لدخول سينما برمبل شعب ، وان امكن الابقاء على قرشين آخرين للطرماج والتسالى فذلك منتهى الانصاف لزميل لهم شقى بالحفظ واقدم على التسميع فرفع راسهم عالياً . ولكن احد الصقور لم يرق له هذا القول ولم تعجبه هذه السذاجة فزجرهم بما هو فوق الهمس وبدون «الكواريك» قائلاً : يا جماعة انتو مالكم ومالو ؟ هو عاوز يعزمننا . هى قروشكم ولا قروشو هو ؟ فارتدع الهامسون ولاذوا بالضحك الخافت وكفوا عما بان لهم جلياً انه لايرضى الصقور . وتدخل أهل المكر فوقفوا بين الفريقين وساقوا الحجج التى ارضت الطرفين . قال محمد العوض وهو «يكتكتت» من الضحك : يا جماعة البعرف يتشعبط الحيطلة ما بحتاج لثلاثة قروش عشان يدخل دار الرياضة . وقال التجانى الطاهر : لو عايزين تذاكر الشعب لسينما برمبل انا ممكن اجيب ليكم مية تذكرة من «بله الاحمرانى» . ولقد أعجبنى تواضع

محمد المصطفى بلال وعبد الرحيم سعيد واولاد الموردة اذ لم يدع أى منهم أنه بمقدوره ان يسخر اللبخ او كبس الجبة لتسهيل مهمة دخولى الى هذين المرفقين العزيزين . ولو انهم ارادوا مثل هذا الادعاء لزعموه والتزموا به على رؤوس الاشهاد . تلك كانت «عزومة» الموسم ، وقد سماها محمد العوض «مأدبة فينوس» ! وذلك من ذكائه ، فهو لم ينسبها الى الاستاذ احمد محمد صالح ، وهو ان فعل ذلك لكان محقاً ، ولكنه خشى عاقبة التقليل من دور الاستاذ الشيخ يوسف وهو الذى هيا لها الاسباب . وقوله «مأدبة فينوس» يشرك الاستاذين في الفضل ، ويتجنب ذكر اسم أى منهما ، فان كان احدهما صاحب القصيدة ومؤلفها فالثانى هو الذى عرفنا عليها وهو الذى اخرج المشهد الذى ساق الينا الجائزة النقدية . الم أقل لكم ان محمد العوض كان تلميذاً موهوباً بارعاً حاد الذكاء ؟

لقد كان استاذنا الشيخ يوسف الخليفة رجلاً عالى الهمة ، شديد الغيرة على مستويات تلاميذه فى اللغة العربية ومن الممكن القول بأنه قد افلح تماماً فى ارساء قواعد اللغة العربية فى الازهان عن طريق استخدام جياذ الشعر . فارتقت عند تلامذته ملكة القياس ، وتفتحت عقولهم على نضارة البيان ، ورقت عندهم المشاعر وحسن فيهم صقال الأنواق . ولو انه مضى على سيرته الاولى لما بلغ بنا مبلغاً ولحال الملل نون الانصات بحواس الوجدان . ولكنه ادرك هذه الحقيقة فى وقت مبكر وابتكر من أجل تجاوز آثارها منهاجاً جعله اكثر قرىباً لأحاسيس تلامذته ، فجذب انتباههم الى دروسه واحاديثه جذباً ، وسما بمعارفهم ومداركهم سمواً ، وأيقظ فى نفوسهم مقدرات وملكات غافيات ، ربما خفيت من قبل عليه وخفيت عليهم وهم فى غفلة معرضون . فلما اقبل عليهم بما راقهم اقبلوا عليه بما سرّه واسعده . ولقد ظل الشيخ يوسف يتعهدنا بدروسه القيمة وعنايته الهادفة حتى جلسنا لامتحانات الدخول الى المدارس الثانوية فكانت ام درمان الاميرية واحدة من القمم القلائل وكان اداء التلاميذ فى اللغة العربية

ممتازاً شهد بامتيازاه اصحاب الشأن في تلك العهود . لقد عرف الشيخ يوسف مدخله الى قلوب تلامذته فأحسن الدخول وأبان عن مرونة بصيرة بالامور :

إذا ما اتيت الامر من غير بابيه ضللت وان تقصد الى الباب تهتد

## ابو الفصل الذى أحببناه :

كنا في السنة الثانية نجلس في فصل قريب من مكاتب اساتذة اللغة العربية وهو يقع فى الجزء الشرقى لفناء المدرسة ، تتجه وجوه التلاميذ وهم فى داخله الى ناحية الغرب ، وتفتح نافذتاه على فضاء يحده السور الشمالى للمدرسة ، ويطل بابيه من الناحية الجنوبية على بهو صغير يقع غربى مكتب الاستاذ عثمان على ابراهيم ويشكل بالنسبة لهذا المكتب والمكتب الذى يجاوره رثة هامة ومتسعاً رحباً وظلاً ظليلاً للقاعات العابرة بين الاساتذة ريثما يمضى كل منهم الى وجهته التى هو مولياها . لقد كان لقرب مكتب الاستاذ عثمان على من فصلنا اثر بالغ الاهمية بالنسبة لنا وذلك لان الاستاذ عثمان كان من اولئك النفر الذين يحبهم التلاميذ ويعجبون بهم ، فهو لا ينتهر أحداً ولا يمد يده اليه بعقاب . وصار قرب مكتبه من فصلنا مدعاة لنا لمزيد من التعرف عليه . وهو شاب بسام لين الجانب وودود الطباع . إذا احتشد التلاميذ فى مكتبه يستتبثونه عن شأن من شؤون دروسهم فهو لا يبدي ضجراً ولا يلقاهم الا بوجه ضاحك صادق الترحاب ولو علا ضجيجهم وضاق غيره من شؤ شرتهم . يجيب على كل سؤال يطرح عليه وكأنه هو التلميذ والسائل الاستاذ . ويشرح لك ما استعصى عليك من دروس ولو كانت الكراسات على منضدته اكواماً مكدسة تنتظر التصحيح . شديد الحيلة والحذر ازاء كل كلمة تخرج من فيه ، لا ينطق هجراً من القول ولا يلقى على مسمع تلامذته ما يؤذى احداً من بينهم . هو فى طول قامته زملائه الاستاذة الشباب ، ينهج نهجهم فى العناية بحسن مظهره ، ولا يغالى مثل أحاد منهم حتى تشغله هذه المغالاة عما هو اهم فى نظره واجدى . ما رايته تأخر عن درس التزم بالوفاء به ابداً ،

ولارأيته تتأقل عن استيفاء شرح نذر وقته له ولو طال امد هذا الشرح وتشعبت طرائقه . اكثر هيئاته التزيى بالبدة الكاملة وأحب الوانها اليه الرمادى والداكن مع ربة عنق حمراء فاقع لونها تسر الناظرين او ذات الوان هى غاية فى التناسق والانسجام . شعر راسه فاحم السواد عوان بين الرخاوة و«الفقلة» لا هو بالكث ولا هو بالقليل ، مصفف بعناية ولكنه برئ من الدهون والاصباغ . يكثر من لبس النظارة السوداء ، فيبدو فيها اكثر صرامة وحزماً مما هو عليه غير ان ذلك لا يجعله فى منأى عن وجدان تلامذته . فاذا خلعتها اقترب منهم قريباً يكاد يرفع الكلفة بأسرها بينه وبينهم ، واوشك ان يصير واحداً منهم . فهو شاب متواضع شديد التواضع ، لا يفرق بين تلامذته وانما يلقاهم جميعاً بذات الروح السمحة وبذات البشر والترحاب . اذا مشى فهو يخطو خطوات متزنة ولكنها اقرب الى الاسراع منها الى البطة لانها بعض حيويته المتدفقة ، وطرف من نشاطه الدؤوب . فى مشيته وقار موسوم باليقظة واتزان مرصع بالهبة وشموخ ناطق بعزة النفس . فى عينيه ذكاء وقاد وعلى جبينه سمات الصفاء والوداد والقبول ، وفى حديثه لباقة منطق وحرارة مشاعر وصدق عواطف . ولولا ان مكتبه كان على مقربة من فصلنا لما تسنى لنا أن نلقاه كثيراً . ولولا هذه اللقاءات الكثر لما وقفنا على حقيقة امره بالقدر المطلوب . ولولا تواضعه الجم ومرونة طبعه الموائية لأعوزتنا الجسارة على اقتحام مكتبه وابتداره بالحديث . فهذا استاذ فتح قلبه لتلامذته الصغار يطرحون عليه قضاياهم فى شتى صورها وانماطها ويحملون اليه بثوثهم وظلاماتهم ، فلا يلقاهم الا بوجه طلق مضياف ولا يغادرونه الا وقد سرى عنهم وزالت عنهم الهموم .

كان الاستاذ عثمان على يدرسنا اللغة العربية فى السنة الثانية على ايام ام درمان الاميرية الوسطى وهو الذى استطاع بمقدراته الهائلة ان ينقلنا من دنيا الاناشيد السانجة والأراجيز البسيطة الى عوالم الشعر المونقة المثقلة بقطوف المعانى . فانتقلنا



بفضل جهده الدؤوب ونهجه المعافى من بدايات «أحب الماء والشجرة» الى مراقى «وشاة بلا قلب يداووننى بها # وكيف يادوى القلب من لال له قلب» - وهى نقلة كبرى من دروس اللغة العربية في السنة الاولى الى دروسها في السنة الثانية . وانا لست اعيب بذلك علي اساتذتنا في السنة الاولى فقد كانوا يعملون فى اطار نهج مقرر ويتعاملون مع صغار يخطون خطواتهم الاولى فى هذه المرحلة الدراسية ، وهم قد مهدوا لاقدامنا الرخوة السبل وهينأوا عقولنا الغضة للتلقى ، ولولا هذه المقدمات التى قد تبدو ساذجة فى نظمها ومحتواها ولولا انهم اشقوا انفسهم فى تبصيرنا بها لما تيسر لنا ان نطيق هذه النقلة التى حملنا عليها الاستاذ عثمان على . فلهم منا عظيم العرفان والامتنان لايقافنا على بدايات الطريق بأقدام راسخة ، ولاستاذنا عثمان على جليل الشكر والتقدير على اقتحامه بنا قلاع الشعر العصية . لقد انتقلنا بفضل مثابرته وصبره الى افاق المتنبى والشريف الرضى واحمد شوقى وحافظ ابراهيم وغيرهم من الفحول وطفقنا معه نغادر قمة لنحط على اخرى حتى اغتنت معارفنا وسمت مداركنا وحسن المامنا بما يناسب تلك الاعمار الصغيرة ويربو علي ذلك . ولقد استطاع الاستاذ عثمان على باسلوبه السهل الرصين ان يغرس فى نفوس تلامذته حب القيام بأنوار تعرض علي خشبة مسرح المدرسة يضطلع القائمون بها من التلاميذ بالقاء الشعر إلقاءً حسناً مبراً من العيوب ، وهو شعر يزخر بفصوص المعانى الرفيعة ويمور بدرر القيم السامية . فهو الذى علم محمد العوض وحبب الي نفسه القيام بنور قيصر وانطقه بشعر بالغ الجودة مازلنا نذكره ونحن الي ايامه . وهو الذى مرنت بفضل السنتنا على اشعار منسوبة الي عنتره والى ابن الملوح ، كنا نسعد بها ونشدها فى فصاحة واتقان ونحن نمثل فصول رواياتها المختلفة علي المسرح وامام ملاء من الناس ، أكثرهم التلاميذ ومن بينهم رهط من اساتذة المدرسة وبعض العاملين فيها . فاذا شرعنا فى تمثيل الادوار المنوطة بنا رايت الاستاذ عثمان يكثر من القيام والجلوس ومن الحركة عموماً فى قلق

ظاهر مبعثه شدة حرصه على ان يتقن تلامذته تلك الابوار اتقاناً ، وان تنطلق السننهم بصحائح الاشعار انطلاقاً ، وان يحدث اداؤهم الاثر الذى يتطلع اليه والذى ينبغى ان يحدثه بعد ذلك المران الدؤوب وذلك التدريب المضى . فاذا كان ذلك رايت الاستاذ عثمان وهو اسعد الناس لانه اشقى نفسه ليكون الذى كان ولانه هو السر الحقيقى الكامن وراء ذلك النجاح . ولقد كان للاستاذ عثمان اسلوب فريد فى التعامل مع تلامذته . مارايته يعاقب تلميذاً ابداً . وعلى الرغم من ذلك كان التلاميذ اكثر ما يكونون هدوءاً فى حصته ، فقد اوتى ملكة فريدة فى اجتذاب اهتمامهم لما يقول وقدرة ساحرة على ترويض انتباههم وتركيزه على مايلقى على مسامعهم من حديث سواء كان ذلك نثراً او شعراً . وهو قد استطاع ان يسحر عبد الكريم ويلهيه طويلاً عن ممارساته الشغبية المعهودة وانغامه الشفوية البرجلية الحبيبة الى نفسه وانفس اقرانه من اولاد الفصل . وعندى ان ذلك قمة الاقناع وغاية الاقتدار على طرح البدائل بوسائل خلت تماماً من اي اثر للترهيب . فهو الترغيب فى احسن صوره ، لانك تأتيه طائعاً وانت راغب مأخوذ . ويقينى ان هذا الاسلوب الذى انتهجه الاستاذ عثمان على مع تلامذته انما هو سجيته التى فطر عليها حتى يخيل اليك انه لو ارد سواه لما افلح فيه ولما انقاد اليه طبعه . وقد عرف فيه تلامذته هذه الخصال الاسره فوقروه واحبوه وتآدبوا فى حضرته وعزفوا عن احداث الشغب وعزف المعزوفات التى كانوا فى اوائل عهودهم به يتبادلونها بينهم تماماً كما يفعلون فى حصص الاساتذة الاخرين . فهى ان كانت تثير عليهم حفيظة هؤلاء فان الاستاذ عثمان لم يكن يحفل بها اولى لها بالأ ، وانما يتغافل عنها وربما ابتمس لها فى بعض احيائه نون ان يبدى أى نوع من الاهتمام الظاهر بأمرها . فقد كان شديد الثقة بنفسه وبمقدراته على جذب انتباه التلاميذ الى ما يلقى عليهم من درر البيان وكرائم الاشعار . ولقد صدق حدسه وحق له ان يثق بمقدراته لان أهل الشغب قد كفوا عن شغبهم او كانوا وانتصر هو بذلك لفضيلة الحجة والاقناع السلمى الهادئ

واعلى راية المنطق واعتمده وسيلة رابية على وسائل الترهيب وبدلياً - ان انت احسنت استخدامه - عن خيارات اشق واقل جدوى . فهو لا يخاطب عقول تلامذته وحسب وانما يخاطب وجدانهم ايضاً ويلامس ببساطته وتواضعه مواضع القبول فى مشاعرهم وذلك انه لا يفرق بين احد منهم ، ويوحى الى كل فرد منهم بأنه تلميذ «شاطر» ومقتدر على فهم هذه الاشعار وتذوقها ، بل على كتابة الشعر تأليفاً وابتداعاً . فكثير على أثر ذلك الراغبون فى تمثيل الادوار التى كانت تعرض على مسرح المدرسة روايات شعرية ، واحتد التنافس بين الفتية ، وظهرت بينهم ملكات كانت خافية ويانت مقدرات كان يحبسها الخجل وربما قعد ببعضها خوف اللحن عند صعود المنابر . فكان محمد العوض بطل «الخشبة» فى اكثر من رواية وكان غيره قمماً - بمقاييس تلك الاعمار - فى اتقان العروض المسرحية وسلامة الالقاء الشعرى .

ولما كان الاستاذ عثمان يشجعنا على تأليف الاشعار ويساعدنا على ذلك فان بعضنا لم يتحرج فى كتابة الشعر . وانى لاذكر انى كتبت «قصيدة» اسميتها «كررى» وعرضتها على الاستاذ عثمان فأشاد بها وأشعرنى انها اعجبته وطلب منى ان اقيها امام حشد كبير على خشبة مسرح المدرسة . وقد فعلت ذلك بجسارة كلما ذكرتها الان عجبت منها ، وهى من بعض افضال الاستاذ عثمان علينا ، فقد كان يفرس فى نفوس تلاميذه هذه الجسارة ويغزوهم بأمثال هذا الاقدام الادبى فتخصب أخيلتهم على الابداع وتتنامى مقدراتهم على الافصاح عما فى سرائرهم ويحسن اقبالهم على القاء الشعر فى ملا من الناس دون اضطراب او فزع . وانا وان كنت قد نسيت هذه القصيدة التى كتبتها وانا تلميذ فى السنة الثانية الوسطى - او قل ضاع عن ذاكرتى أغلب ابياتها - فانى مازلت اذكر بعضاً منها . ولست ارتاب فى ان اغلبها لم يكن شعراً بالمعنى المفهوم وانما كان محاولة لكتابة الشعر وهو عين الامر الذى كان يريده الاستاذ عثمان من تلامذته ، فقد يفضى بهم فى وقت من الاوقات الى كتابة الشعر

الصحيح . ورغم انى لم اصبح شاعراً ابداً الا انى اذكر امر هذه القصيدة جيداً وذلك لاسباب ثلاث : اول هذه الاسباب هو ارتباط هذه القصيدة بالاستاذ عثمان فهو استاذ اثير لاينسى ولاينسى ما ارتبط به فى الذاكرة منذ تلك العهود . وثانيها ان هذه القصيدة كان موضوعها معركة كبرى الخالدة ، وتلك ملحمة مازالت اصداؤها تدوى فى الافاق . ولقد كان مطلع القصيدة :

الطبل يضرب والرجال تنادى والموت نهر والنفوس صواى

وجاء فيها هذا البيت :

كررى قسوت على بنيك ، دماؤهم سالت واروت ارض ذاك الوادى

وليتنى لم اقرأ هذه القصيدة ، فقد صرت بها مضغعة فى فم محمد العوض مصطفى الذى كان كلما لقينى اغرق فى الضحك وهو يردد بلهجة مليئة بالسخرية : الطبل يضرب والرجال تنادى . حتى مللت ذلك منه وكدت ان اشتجر معه لولا انه كان خبيراً بتجاوز مثل هذه المواقف وتحويلها الى ما لا يدفع للشجار .

وإذا كنت قد سلمت من سخرية محمد العوض ومن شذاة لسانه القاطعة بعد أن صمدت فى وجه «مطاعناته» صمود الابطال فانى لم اسلم تماماً من تندر غيره على بل ومن ظلم نوى القربى الذى قيل فيه واجيد القول :

وظلم نوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

وهذا هو ثالث الاسباب التى جعلت امر هذه القصيدة يعلق بذاكراتى حتى هذا اليوم على الرغم من ان اكثر ابياتها قد غابت عنى وطوتها غيوم النسيان ، فقد زارنى فى تلك الايام احد اقاربنى وهو شخص حبيب الى نفسى ، ووجد هذه القصيدة فى يدي تأملها وانا راض عنها تمام الرضا . فسألنى : ما هذه الاوراق التى تقرأ ؟ قلت هى قصيدة كتبته عن معركة كبرى والقيتها فى المدرسة امام ملا من التلاميذ والاساتذة . وطلب الاطلاع عليها فأمكنته من ذلك . وكنت واثقاً من انه سيطريها وسيمتدح جهدى

فى كتابتها لان الاستاذ عثمان على فعل ذلك ، ولان الذين استمعوا اليها استحسوها  
 واثنوا عليها . وكانت دهشتى عظيمة حينما ارجعها الى بعد ان فرغ من تلاوتها ،  
 وجميع تعابير وجهه ناطقة بما يشبه التقزز والاستنكار . وصمت بعض دقائق ثم قال  
 لى : هذه قصيدة موزونة بميزان حطب ! وقد صدمنى هذا القول واوجعنى فى حينه .  
 وليته وقف عند هذا الحد . ولكنه اشار الى كلمة فى القصيدة وهى كلمة «الاجناد» -  
 وانا انكر ذلك جيداً ولكنى انسى البيت الذى وردت فيه - فقال لى هازئاً : هل  
 هذا جمع تكسير التفسير ؟ فلم أجب بكلمة . ولكنى حزنت حزناً شديداً لأن صاحبي  
 هذا وهو رجل راشد ومعلم أيضاً كان من أحب الناس إلى نفسى . وزاد من حزنى أن  
 تعليقه أقتصر على هذا النقد الجاف دون التبصير بصحائح الامور ودون أى تشجيع  
 على اجتلاء هذه الصحائح ، فكان فيه من التثييط ما يورث النفس الأسى والخذلان .  
 ولم أنم تلك الليلة إلا غزراً . وفى الصباح الباكر حملت مظلمتى إلى الاستاذ عثمان  
 على دون ان ابوح باسم قريبي هذا له ، ورجوته ان يعيننى على تلافى هذه العيوب  
 التى حفلت بها القصيدة كما انبنت ، حتى أخرج من ميزان الحطب الى ميزان الذهب ،  
 وحتى لا احدث مزيداً من التفسير لجمع هو أصلاً ضحية هذا التفسير ! فوجدت عند  
 استاذى عثمان على عطفاً كريماً وسنداً هائلاً وتأكيداً لايرقى اليه الشك بأن القصيدة  
 موزونة ، وان كلمة «الاجناد» كلمة عربية صحيحة . وخرجت منه مرفوع الرأس وقد  
 استرددت من كرامتى وثقتى بنفسى قدراً عظيماً لايستهان به ، وان بقى فى خاطرى  
 شعور قوى بأن الاستاذ عثمان انما كان يشجعنى ويرفع من هممى ويخفى عنى  
 قصورى عن فهم الاوزان الصحيحة والالفاظ الفصيحة خشية ان ينال ذلك من مثابرتى  
 ورجاء ان اقف بنفسى فى مقتبل ايامى على هذه العيوب فأقيمها واصلحها بما يتوفر  
 لى من معارف جديدة اثر تطور طبيعى للمدارك يصاحب النمو العقلى للتلميذ . فهذه  
 محمداً من محامد الاستاذ عثمان الكثر وهو نهجه الذى ارتضاه فى تعامله مع تلامذته

ويرهنت الايام والاحداث على سلامته وجيل فائدته . ومن عجب انى تأثرت بهذه الواقعة تأثراً شديداً وظللت اسائل نفسى عن دوافع قريبي التى حدث به لان يفجعنى بهذه التعليقات القاسية وانا بعد تلميذ هش المعارف نزق الاحاسيس . وقد وقفت بعد سنوات طوال على قناعة راکزة بأن تلك القصيدة قد كانت بالفعل سليمة الوزن الشعرى وان كلمة الاجناد انما هى كلمة عربية فصيحة ، وهى ان كانت جمع تكسير فان كلمة جند هى ايضاً جمع تكسير لان المفرد هو «جندى» ، ونحن لا نقول «جنديون» أو «جنديات» وإن كانت الأخيرة تصلح جمع مؤنث سالم لكلمة «الجندية» المؤنثة . فانظر كيف يمكن لحدث بسيط كهذا ان يبقى في الذاكرة لايفارقها بعد مضى ما يقارب نصف قرن من الزمان . وانظر الى هذا الانطباع الحسن الذى تركه الاستاذ عثمان فى ذاكرة احد تلامذته ، وقارنه بهذا الانطباع الاخر الذى وقر فى ذاكرتى على أثر كلمات قليلة دفع بها فى وجهى احد احب اقاربي الى فى مدى زمانى لم يتعد فى حينه بضع دقائق معدودة . وانا لست اقول هذا الذى اقول من موقع الحفيظة والحق ، فما زال قريبي هذا من احب الناس الى نفسى ، وهو من احسن الناس خلقاً فى نظرى ومن ارفعهم قدراً فى اعتقادى . ولكنى اسجل انطباعات كما قلت لك من قبل واحرص على الاتيان بها كما ارتسمت فى ذهنى فى وقتها ، فهى وليدة وقتها ، وأنت قد تفسر قولاً قيل لك بغير ما أريد منه ، وتذهب فى معناه غير المذهب الذى عناه الشخص الذى نطق به . والاحوط عندي ان يتدبر الاساتذة جميع الاثار التى يمكن ان تنجم عما يلقونه على مسامع تلامذتهم الصغار لان عقولهم اليضة اوعية جامعة تحفظ كل مايلقى عليها وتصنّفه تصنيفاً . فان كان خيراً ذكروك بالخير ، وان كان غير ذلك فهو غير ذلك . ولقد قال شكسبير – ان لم تخنى الذاكرة – وصدق فيما قال : ان الاشياء الحسنة التى يعملها الانسان تدفن معه بعد وفاته ، وان الاشياء السيئة التى يجترحها الانسان تبقى بعد موته !

The good things that men do are burried with them , the evil thngs that men do live after them .

وفى قوله هذا جانب كبير من الحقيقة ، وفيه نوع من السخرية (cynicism) وهو قول فضفاض ولكنه يشمل ما نتحدث عنه من صلة الاستاذ بتلامذته الصغار ، وقد طاف كثير من الامثلة السودانية حول هذا المعنى ، وبعضها اتى به في كلمات قلائل جامعة دون سرف في الكلمات ودون قصور في بيان المقصد ، والله أعلم . علي ان الذي يهمننا في هذا السياق ليس هو شكسبير فنحن لم نسمع به في عهدنا الباكرة ولم نقف علي اشعاره الا في المرحلة الثانوية ومازلنا نتعثر في فهم كثير منها بعد أن بلغنا من العمر عتيا ، ولكن الذي يهمننا هو ما وقر في الذاكرة وانطبع فيها من أحداث تلك العهود وسير تلامذتها واساتذتهم . وبين الاساتذة تفاوت وتباين في الاسلوب التربوي الذي يتبعونه مع تلامذتهم ، وبين التلاميذ تفاضل واختلاف في تسجيل أحداث الصغر بين دفتي كتاب الذاكرة ، ولكن العقول الصغيرة متقاربة في الفهم والادراك الا ماشذ منها وهو قليل ، وعقول الكبار متباعدة في هذا المضمار اشد تباعد . ولست أرتاب في ان جميع الاساتذة الذين تتلمذنا عليهم في تلك الايام الزاهية كانوا رجالاً اكفاءً وكانت مقاصدهم حسنة وسوية . وقد يحسن القصد عند استاذ واستاذ ويختلف الانطباع الذي يخلفه هذا في اذهان تلاميذه عن الذي يخلفه ذاك. والسر من وراء ذلك كامن في تباين اساليب التعامل مع الصغار واستصحاب اليقظة التامة في هذا التعامل وذلك لأن الفتى الصغير - وان قلت معارفه وتجاربه - له عقل شديد الحساسية وذاكرة مكتملة الصفاء تصور الاحداث تصويراً وتخترن صورها اختزاناً ولاتغادر شيئاً إلا ومنه في تجاويها بعض أطياف . وهو عقل شديد الاحتفال بما يسره ويرضيه ، وافر القدرة علي التمييز بين الحسن والأحسن ، قليل الاكتراث بما دون ذلك . ولقد كان الاستاذ عثمان من جيل الاساتذة الذين ادركوا هذه الامور أطيب ادراك ، وسلكوا إلي قلوب تلامذتهم أهدي السبل وأجداها فخلفوا في ذاكرة أذهانهم أروع الصور وأبقاها .

ولم يكن الاستاذ عثمان بمنهاجه الذي اقترب به من وجدان تلامذته مصطنعاً  
ماليس في طبعه ، بل كان منهاجه وليد خلائقه التي جبل عليها . ولو كانت هي بخلاف  
ذلك لما خفي منها شي علي دقة ملاحظة أولئك العفاريت الصغار ولما انطلي عليهم قول  
يخالف طبيعة قائله ولما انتقشت عنه في ذاكرتهم هذه الصور الزاهيات الحسان . فقد  
التقينا الاستاذ عثمان علي مرة أخرى في خور طقت الثانوية فكان امتداداً عبقاً وارف  
الظلال لذات الخصال التي خبرناها فيه ايام امدرمان الاميرية الوسطي . بل ان  
النضج النسبي الذي أصابه التلاميذ قد لاقى ادراكاً واعياً من الاستاذ عثمان لمضمون  
المتغيرات التي انتظمت البيئة المغايرة والحياة الاجتماعية الجديدة والمستوى الذهني  
والفكري المتطور الذي احدثته بضع سنوات في نفوس فتية اكثرهم دون منتصف العقد  
الثاني من العمر . ولذلك انطوى كثير من المسافات الوجدانية التي كانت تفصل بين  
التلميذ والاستاذ واصبح القرب بينهما أرفع درجة واغزر معنى ومضموناً واجدى وابلغ  
اثراً . فصار الاستاذ عثمان صديقاً لنا بحق ، وظل يحمل راية تدريس اللغة العربية في  
اخلاص وثبات وتفان لا يدخر وسعاً ولا يرضى الا بالكمال الذي هو في مقدور البشر .  
وهو الذي طاف بنا جميع رياض الشعر نقطف منها الورود ونصافح من أهلها  
بعواطفنا واخيلتنا ابا الطيب المتنبي و ابا العتاهية والبحترى و ابا تمام وابن هانئ وابن  
زيدون وغيرهم من أئمة القوافي والبيان . ولكن ذلك هو شأن خور طقت الذي قد نتناوله  
ان شاء الله في الجزء الثاني من هذه الاصداء فلنتركه إذأ حتى ذلك الحين إذا مد الله  
في الأيام . غير أن الحديث عن الاستاذ عثمان وما يمكن أن يفثقه هذا الحديث من  
ذكريات متداخلة يمكن ان يطول . وليس المقصود من هذه الصفحات سوى بعض  
لوافت لأطراف ذكريات ، فماهى بالدراسة المتأنية المستقصية ولاهى بالبحث التحليلي  
العلمي لرموز او اشخاص او حقبة زمنية منتقاة للتقصي والتفصيل . وربما حسن مثل  
هذا النهج - مع كثير من التهذيب والالتزام العلمي الموثق - لدراسة عطاء ذلك الجيل



الغد من أساتذة تلك العهود المواضى ، وربما لدراسة النمط السلوكى لتلامذة تلك العهود أيضاً ، وهو عمل اذا قدر له ان يتم على أسس جديدة يمكن أن يكون عظيم الفائدة . ومهما يكن من أمر فقد كان الاساتذ عثمان على ابراهيم واحداً من اجل اساتذتنا فى ام درمان الاميرية وخور طقت . ورغم انه صار فيما بعد صديقاً لى ولغيرى من زملاء تلك العهود فهو لا يزال بالنسبة لى استاذاً ومن أثر الأساتذة عندى ، فاذا رايت على البعد وقفت لتحيته وكأنى لا ازال تلميذاً فى فصل التوانى او فى فصل الرشيد او ابن رشد، واذا حييته ورايت انى لم اوفه حقه من التبجيل والاحترام لمت نفسى على هذا التقصير وعنفتها عليه تعنيفاً . فهو يلقاك بشوشاً دوماً وعلى وجهه ذات الابتسامة القديمة التى مهدت له السبيل الى قلوب تلامذته واقاصى مشاعرهم ، وبذات التواضع الجم الذى عهدناه فيه ونحن تلامذة صغار لا نحسن التفريق بين الحال والتميز ، وبذات الدفاء العاطفى الذى كان بعض ايديه على كل من تتلمذ عليه فى تلك الازمان . اليس من حقه علينا ان نذكره بالعرفان ؟

انا الوفىُّ وتأبى الغرُّ من شيمى كفران نعمة من أسدى الى يدا

## استاذ على . . والصخرة المساء :

وأنت اذا ذكرت تلك الكوكبة المضيئة من شباب الاساتذة فى ام درمان الاميرية فانك لاتملك الا ان تذكر بالعرفان والتبجيل فى مقدمة طلائعهم الاستاذ على محمد خير . فقد جاء الاستاذ على وهو شاب تنظيم الهيئة بهى الطلعة حسن الخلقة والخلائق ليعلمنا فنون أوليات علوم الرياضيات . ولعله كان مثل بقية شباب الاساتذة حديث التخرج من الجامعة ، ينبئ عن ذلك حماسته الدافقة والتزامه الدقيق بالمواعيد وحرصه على الاسهاب فى الشرح والتبيين وابلاغ كل من كان له قلب من التلاميذ ، او القى السمع وهو شهيد . وهو مثل رفاقه من شبيبة الاساتذة «يتدبج» بالبذلة الكومبليت التى غالباً ماتكون رمادية اللون أو مقاربة لذلك ، ولكنه - فى أكثر أحيانه - يبدو أكثر ميلاً

للبساطة ، فيكتفى بالقميص الابيض والبنطلون ذى اللون «الغامق» ، فتكسبه هذه البساطة مع اعتدال جسمه وميله الى النحافة اناقة وهيبة وبهاء مظهر . ولقد استقر في خلد التلاميذ ان الاستاذ على يكون اكثر تشدداً معهم حينما يلقاهم وهو متهنم بالبدلة الكاملة ، وهو أقرب للعفوية واكثر صفحاً عن زلاتهم الدروسية والانتباهية عندما يطلع عليهم وراء بساطة القميص والبنطلون . وكان ذلك امراً محيراً بعض الشيء ما كنا لنهتدى لاسبابه لولا ان بعض عفاريت الفصل تطوعوا بتحديددها - او قل تأليفها - حسبما كان يتراءى لهم . فقد قيل فى معنى ذلك او اسبابه ان الاستاذ على حينما يكون فى البدلة الكاملة يختلف حاله عما يكون عليه فى غيرها . وذلك من عدة وجوه . اولها انه لايمد يده للبشاورة ابدأ وانما يكتر من اصدار الاوامر للتلاميذ : يا ود انت ، امسح التخته ، ويحرص أثناء ذلك على الابتعاد عن غبار وعفار الطباشير حتى لايلحق ببذله . هذه واحدة ، وقد يكون محقاً فيها ، ولكنها من الامور التى قد تثير عليه حفيظة بعض التلاميذ وتفتح المجال امامهم واسعاً لاتهامه «بالقرضمة» . وهذه تهمة خطيرة لانها اذا استقرت عنك فى أذهان التلاميذ فانها - بجانب انها منقصة فى نظرهم - باعثة على مواجهتها برود فعل متباينة ، ليس من بينها الرضا عنك ولا التسليم لك عن طواعية . وثانى هذه الوجوه هو أن لبس البدلة الكاملة - اذا لم يكن مصحوباً بالابتسام الدائم وملاطفة التلاميذ والتغاضى عن تجاوزاتهم - انما يوحى بمظهر من مظاهر السلطة والقهر ويجعل الاستاذ فى نظر التلاميذ أشبه مايكون بالبروقراطية الادارية او ماهو قريب منها ، وفى النفوس نفور تلقائى عن كل ما هو لصيق بالادارة لانها هى التى ترعى الانضباط وتتشدد فيه ، وهو عين الامر الذى يؤدى الاخلال به - وهذا كثيراً مايحدث وكثيراً مايكون عن غير قصد - الى المساءلة والعقاب . وثالث الوجوه هو ان تندر التلاميذ على الاساتذة فى الفصل - وان كان كله همساً وإشارات وتلميحات دون توضيح - انما يتزايد الي حدود معينة مع تزايد صرامة الاستاذ

واصراره على متابعة كل تلامذته لشروحه ، وخاصة اذا كان مظهر الاستاذ وعنايته به وطرائق حديثه معهم تشير - من قريب او بعيد - الى ما يسمونه «القنزحة» او «القرضمة» او «التعلبة» ، فهذه امور لا يطيقونها ، وانما يستلهمون افانين شيطنتهم للرد عليها بما هي مستحقة له فى نظرهم. غير ان الاستاذ على لم يكن «مقرضماً» ابداً ، وقد ظلمه الذين رموه بهذا النعت البغيض وأجحفوا عليه ، وقد ساعى ذلك لانى رأيته استاذاً عالى الهمة غزير المعرفة بصيراً بوسائل الشرح والتبيين . وكنت احسب ان الذين أهالوا عليه مثل هذه التهم التى تفتقر الى البرهان الواضح وتشتمل على البهتان الصريح انما هم فتية الصفوف الخلفية فى الفصل . ولكن عبد الكريم اكد لى أنهم بريئون من ذلك وان العقل المدبر وراء إشاعة هذا الارجاف بين الناس لم يكن سوى هاشم مصطفى ، ووعدى بزجره وايقافه عند حده اذا هو لم يرتدع من نفسه ويعمل غير الذى كان يعمل . وقد كان احد الخبثاء - وكنت اظنه هاشم مصطفى غير انى لم اجزم بذلك حيال نكرانه - قد كتب على السبورة قبيل دخول الاستاذ للفصل شيئاً من الشعر جاء فيه هذا البيت الذى لا طعم له ولا لون ولا رائحة :

إن الامور همة ليس الامور «قرضمة»

واحسب ان الكلمة التى استبدلها هذا العفريت بكلمة «قرضمة» هى كلمة ثرثرة . وعلى كل حال فهو شعر سخييف ولست اعلم ناظمه وقد أنكر هاشم كتابته رغم ان محمد العوض الذى يجلب الضحك للناس من معادته لا يمكن ان يفوت فرصة مثل هذه فقد قال لى : ياخى ينكر شنو؟ هو دابيت الشعر الوحيد الحافظو هو ! وعلى كل «الشينة منكورة» وهى شينة فى حق الاستاذ على كما أكد لى ذلك عبد الكريم ، الذى وافقنى على ان الاستاذ على انسان ممتاز ولكنه مطيل فى الشرح ومولع بطرح الاسئلة الصعبة . ومن شروط عبد الكريم التى اشترطها على ثمناً لمحبهه للاستاذ على وارغام الآخرين على هذه المحبة - وكأنى مبعوث من قبل الاستاذ على للتفاوض معه على هذا

الامر - ان يتركه الاستاذ على وشأنه ولايتدخل في الانشطة والانغام الموسيقية التي يبدعها ويسوق لها مشاعر الاخرين . ومن عجب ان الاستاذ على كأنما احس ذلك كله دون ان يشى به اليه احد ، فتركه وشأنه لايسأله وترك الآخرين ، ولذلك أزال الكبتل بيت الشعر عن السبورة قبل دخول الأستاذ على ووضع اسم هاشم مصطفى فى صدر قائمة المهرجلين فى الفصل وحرص على التأكد من اثبات اسمه فى دفتر عم مبارك .

والاستاذ علي عندما بدأ تدريس الرياضيات فى فصلنا استهل ذلك بحماس منقطع النظير ولم يتمعن فى الوجوه ولا شغل نفسه بمعرفة الاسماء من اول وهلة . ولكنه فطن بعد حين الى ضرورة تأمل وجوه التلاميذ ليستشف - على اقل تقدير - مقدار درجات الاستيعاب وتفاوتها بين مختلف الفتية فى الفصل . فالتعابير التى ترتسم على الوجه على أثر الايغال فى الشروح لاشك منبئة بخبر تقاس به درجة الفهم ويقرأ منه انعدامه وتعذره . ولعل الاستاذ على اندهش عندما حدق ملياً فأبصر رجال الربيع الخراب : عبد الكريم ، ومكى ، والحاج الكبتل ومحجوب و تساعل فى دخيلة نفسه - من غير ان يبوح بذلك شئ من تقاطيع وجهه - كيف حكمت عليه الأقدار ان يقوم بتدريس هؤلاء الصبية العماليق الذين يضارعونه طولاً وعرضاً وليس يفوقهم هو سناً الا بأعوام قليلة ؟ ولما لم يجد لتساؤله الذى طرحه علي نفسه اجابة شافية لأن الأقدار لايمكن محاسبتها على ما جرت به واقتضته سنتها التى هى بعض قضاء الارادة المحيطة ، فان الاستاذ على ادرك الا طائل من وراء منازعة القدرة ، وان لا راد لقضاء الله ، وان لا فائدة ترجى من محاولة ترويض السباع ، فقصر اهتمامه على من يجلسون فى الصفوف المتقدمة فى الفصل ، قفلاً لجميع ابواب الشر التى تاتى منها الريح ، وطلباً للسلامة ، واحتراماً مرناً حصيفاً لرغائب الصقور . وذلك ان عبد الكريم حينما يغرس حد الشفرة فى شق درجه ويعزف - او يعبث - عليها بأطراف البرجل والمنقلة والمثلث ، انما يحدث انغاماً موسيقية خاصة يألّفها اولاد الفصل وقد ينام علي ايقاعها الرتيب بقية رهطه من العتاة

، فلا يجرؤ احد على معارضة سيل احلامهم الوردية . وقد لاحظ الاستاذ على نفسه انه كلما أفاض فى الشرح وأوغل فى حل معضلات المسائل الحسابية ، كلما تعالى الضجيج المتقطع من الربع الخراب ، واختلطت الانغام مع الهرجلة الخافتة التى تسمع ولايستبين مصدرها الحقيقى بصورة قاطعة لانه متعدد الجهات متنوع أطوال الموجات . فاذا تصاعد هذا الهرج الذى يخلط نغمأ بشوشرة وهمساً مسموعاً بضحكات خافتة ومتقطعة استشكل على المهتمين والمنتبهين فهم ما هم بصدد فهمه وأضافوا باستنكاراتهم العفوية زخماً جديداً الى الضجة التى كانت وحدها كافية لتزهد الاستاذ على فى مواصلة الدرس . ولما انضم عثمان محمد الحسن - الذى أتى الينا من شندى - لهذا الرباعى الباتع أصبح القوم اكثر جنداً وأعز نفراً ، وتسلموا السلطة الفعلية فى الفصل وانتزعوا لها من الصلاحيات ما كاد ان يجعل بقية اولاد الفصل رعايا بلا حقوق وكاد أن يجعل من الاستاذ مجرماً يقف مصفداً داخل قفص الاتهام . وساعدهم على ذلك ان بين ظهرانينهم الكبتل وهو الالفة المعين من الجهات الرسمية ، والحاكم الفعلى للفصل المعترف بشرعية حاكميته فى غياب الاستاذ ، واحياناً رغم حضوره . فالويل لمن عارض الكبتل او احتج علي تعاطفه مع فتية الربع الخراب فان الفترة القصيرة بين الحصاة والأخرى قبل دخول الاستاذ للدرس الجديد هى فترة سلطته المطلقة التى يمارسها بتأييد كامل من الصقور ، وخلال هذه الفترة بوجه خاص يمكنه ان يشقك ان اراد فيصنع بك ما يصنع الحداد . وذلك انه فى هذه الفترة القصيرة يقوم بتنظيف السبورة ثم يكتب عليها بخطه الواضح وضوح النقرابى على خديه عبارة «المهرجلون فى الفصل» ، وكفى بذلك رادعاً لمن تحدته نفسه بالعبث أو «البردبة» أو الهرجلة أو الحركة أحياناً باستثناء الصقور . هذا مع العلم اليقيني بأن الهرجلة الحقيقية إنما كانت تأتى من الصفوف الخلفية ، وعلى وجه التحديد من الربع الخراب وهو الصف الأخير وقد علمت جنده وعرفت سيماهم . ولما كانت عبارة

«المهرجلون فى الفصل» عنواناً لابد له من محتوى فان الامر ينتهى عادة بستجبل بعض الاسماء من تحته لن تخطئ عيناك من بينهم اسماء كل من محمود احمد مهدى وعباس صالح وهاشم مصطفى وقد كان الاخير منهم ابليساً فى الهرجلة نسيج وحده . ولكن القائمة تحوى ايضاً بعض الابرياء . فيرد ضحايا هذه السلطة الفاشمة جميعهم موارد السوء عند عم مبارك فلا يخلى سبيلهم إلا بعد تلقى جلدات يأخذونها على «اللباد» ، وهو فى كثير من الأحيان لباد حقيقى كما سلفت إلى ذلك الاشارة . ولكن الاستاذ على لم يكن يعبأ كثيراً بأبلاغ قائمة المهرجلين إلى عم مبارك ولم يكن ميالاً الى عقاب التلاميذ عقوبة بدنية على وجه العموم ، بل هو يكتفى فى اغلب الاوقات بالتوبيخ على الإخلال بالنظام ، وبالتندر والسخرية المغلفة على بطء الاستيعاب والتسرع فى الاجابة مما يوقع فى الخطأ الذى يمكن تجنبه بالتمهل وحسن الاستماع الي السؤال وتفهم المطلوب من ورائه والمراد . وهو يغضب أحياناً للخطأ الفاحش يرتكبه التلميذ ولكنه لايسرف فى المؤاخذه ويحاول جهده ان يخفى هذا الغضب وان كانت تعابير وجهه تنطق به فى وضوح يلحظه من لايقوت عليه ان يبصر على خده الايمن خاصة اثار فصد حسن البرء قديم . ولما استيقن التلاميذ من حسن نوايا الاستاذ على احبوه ووقروه ، وكف المشاغبون منهم عن المشاغبة فى حصته ، اللهم الا عبد الكريم ومجموعته الهائلة المرحه . فهؤلاء فتية ألوا على انفسهم الا يدعوا استاذاً ينعم بالهدوء الكامل الا ريثما يلتفون من حول تحوطه وضبطه للنظام فيأتونه من حيث لا يحتسب وبما لايمكن من تحديد مصدره على وجه الدقة من ازعاج . ولذلك فضل الاستاذ على ان يغض الطرف والاذن ايضاً عن تجاوزاتهم الموسيقية وان يكف عنهم ماكفوا عنه ما هو ابلغ من ذلك من فوضى «وكركبة» ادراج واصوات تنتج عن قدح بلاط الارض بالأرجل المنتعلة هو عين مايدعى فى الامارات «بتصبيح الويل» !

ويبدو أن الاستاذ على محمد خير كغيره من شباب الاساتيد كان قد جاء الى ام

درمان الاميرية لفترة قصيرة بعض الشئ ، لأنه فارقنا بعد ذلك . وقد افتقده تلاميذه كثيراً لأنهم أدركوا بأخرة معنى سمته الجاد ومدى حرصه على بذل العلم والمعرفة بأحسن السبل وعلى أتم الوجوه . وافتقده أيضاً فتية الربع الخراب لأنه حينما هدى الى أسلم طرق التعامل معهم بعد تفكر وتدبر أخذهم باللين والرافة ، ودأوى جراح صخبهم بالصبر عليها حتى كان منهم من يعتذر اليه جهرة فى بعض الأحيان . وما كان ذلك الا ثمرة صبره على البلاء وحسن تقبله للمكروه . فالمعتذر عن الخطأ قريب من الندام عليه المنتوى الا يعود اليه ، وإن كان ممن يصح أن يقال فى حقه «يفلق ويدأوى» . ومهما كان من أمر فانهم سرعان ما وثقوا بالاستاذ على فاقبلوا عليه بعد صدود وأنسوا به بعد وحشة واطمأنوا إليه بعد أن كاد يزيغ قلوب فريق منهم . ولذلك افتقده الجميع عندما فارقنا بعد قليل . ولكننا التقينا به مرة أخرى فى مدرسة خور طقت استاذاً للعلوم يقص علينا من أنبائها وطلاسمها باللغة الانجليزية ما أكسبه بين ظهرانينا مزيداً من الاكبار والتبجيل . بل صار هو الاستاذ المقيم المسئول عن داخليتنا ( House Master ) . ولن أنسى ذلك العنبر الذى كنت اقيم فيه فى داخلية ود التوم فى رفقة من الأشقياء كان من بينهم السمانى عبد الله وعبد الله يعقوب أبشر وحبيب الله الحصاحيصى وادم مادبو وحسب الله وغيرهم . اولئك فتية كانت لاتحلو لهم الوئسة والشوشرة والضحك الا بعد ان يصمت الدينمو ينبوع الضياء الكهربائى بعد الساعة العاشرة ليلاً . فتتناثر الملح والطرائف والقفشات تبعاً وتتفرقع الضحكات صواح مفرحات ويتعالى الضجيج لتقفز أصدائه الى ما وراء الجدران . فيأتى الاستاذ على محمد خير من غرفته وهو نصف غاضب ونصف وسان ليزجر المشاغبين او يعتب عليهم او يستصمتهم بالحسنى . فان خاطبهم بالرقّة واللين ارتدعوا وانصاعوا . وان أغلظ عليهم فى القول أوغر صدورهم عليه . فهم يتناومون ولايجيب أحد منهم على أسئلته التى يطرحها فى الظلمة بحثاً عن رأس الحلقة وامير الشغب ، فلايجد سبيلاً

ليعرف من هو قائد الفوضى . بل هو لا يستطيع أن يجزم ان كان الفتية أيقاظاً أم نياماً . فيلبث بينهم حيناً تتبئهم عن وجوده أنفاسه التي تبلغ أذانهم من وراء ذلك الصمت المحيط ، كل منهم يستغشى بطانيته البنية السمراء ويبدو وكأنه يغط في سبات عميق . وما أن يغادر الاستاذ على العنبر حتى تنضأ البطاطين عن الوجوه وتعلو الضحكات من جديد ويتصايح الفتية في براءة لاتضمحل التحدى وان كانت توحى به وتدل على مايشبهه ، وضوء القمر السارى يتصفى رقراقاً من خلال ثقب النمليات التي تغشى نوافذ العنبر ، فيسبح الفتية وهم علي اسرتهم في لجينه الصافى ، وتمتلئ نفوسهم بالأحلام والأمانى وتفيض بالبهجة والرضا والسرور . فاذا تصاعد هرجهم وضحكهم عاد الاستاذ على مرة اخرى مرزماً متوعداً فلايلقى الا صمتاً محيراً وسكينة صماء . وهكذا تتعاقب دورات هذه الملهاة العبثية التي يطول مداها ولاتكاد تؤذن بانقضاء: همس - إذا أمن الفتية - يبدأ مثل الفحيح من تحت الأغشية التي أسبلت على الوجوه لتوحى بالسكون ، ثم ضحكات خافتة لا تلبث هنيهة الا ريثما يكتمل الاحساس بالأمان لتتعالى من جديد ، وتختلط بأصوات دبت في نبراتها الحياة مرة اخرى فراحت تجهر بأفانين الشغب الحبيس . فاذا تناهى الى الاسماع وقع قدمى الاستاذ على وهو يجر رجليه مغيظاً حانقاً صوب مظان الثرثرة والهرج خرست الألسن وفاض السكون على ارجاء المكان فلست تسمع همساً . ويرتد عائداً مفتماً حتى اذا فارق الاذان حفيف خطاه ارتدت ثانية عن فضيلة الصمت الأفواه . صورة قريبة - وان اختلفت الملامح وتباينت دقائق الأشياء - من تلك التي أبدعتها منذ أزمان بعيدة عبقرية التجانى الخالد وشياً منمنماً على جبين الخلوة وهو ينشد فى ادكار عذب رقيق :

قصف الرعد فسى المكان ودوى مرزماً صاخباً قوى الصياح

فاستناقات وهيمنت بعض أشياء وعادت . . وعاد قصف الرياح

ولقد رأى أحد شياطين عنبرنا رؤية منامية قصها علينا فيما بعد . فقال انه رأى



فيما يرى النائم في نومه أنه في ذات مساء كانت الامور تدور على نسقها المعهود ، فاذا بالاستاذ على يدخل العنبر ويحاول ان يتوغل فيه ظناً منه أنه سيباغت الفتية هذه المرة ويقف بنفسه على امام الشغب الحقيقي من بينهم . ولكنه يفاجأ وهو مسرع الخطى بحبل قوى ممتد بين سريرين متقابلين يعترض سبيله ويعتقل سيره دون ان يراه قبل ارتطامه به . فيعثر وتزل قدمه ثم يترنح ويهوى الى أحضان بلاط الارض بين أسرة التلاميذ وقريباً من سررة العنبر . ولم يعلم الراوى على وجه التحقيق مالحق بالاستاذ من أذى إثر تلك السقطة المدوية . فقد كانت سدول الدجى الساجى مرخاة على المكان . وكان القمر في تلك الليلة ضئيلاً بأسباب الضياء لانه عاد كالعرجون القديم . وكانت نجوم السماء بعيدة حيية اللألاء كأنها ارتاعت وفرت لوأذاً من وحشة اطباق الظلام . ولعل رأس الاستاذ كما اشيع في الغداة الباكرا ارتطمت بالارض او كراع العنقريب وربما زاغت كتفه اليمنى في أحد اقوال الرائي ، او انقرض لسانه بين اسنانه فسال دماً قبل أن يواتيه النطق فيتفجر بآيات الوعيد اذ كان ذلك ايضاً بعض ما ارجف به اقوام على حد قول صاحب الرؤية . ومهما كانت حقيقة المكروه الذي حل بالاستاذ على في تلك اللحظات الحزينة من الرؤية المنامية فان الفتية المكرة تركوه وحيداً يجمع اطرافه ليستقيم واقفاً دون ان يهرع الى عونه والخذ بيده احد . وتناوموا جميعاً أو تغافلوا عما حدث وكأنهم لايعلمون . غير أن الضحكات الخافتة من وراء البطانيات السمر المستغشاة طفقت تعلق وتختلط وتتناغم هازئات نواطق بالسخرية البريئة والشماتة المستترة ، التي عجزت جميع وسائل الادارة المدرسية فيما بعد عن اثبات التهمة بها علي الفتية او استقصاء من تولي كبرها منهم او الاهتداء الي الايدي الآثمة التي نصبت حبلاً شركاً بين عنقريبين فصار مصيدة لم يفلت من الوقوع في احبوتها مراقب الداخلية الاستاذ علي محمد خير . وهو معلم الرياضيات والعلوم التي لم تغن عنه في هذا الموضع شيئاً ولم تجد عنه فتيلاً . ولم يهرع الي نجدته من التلاميذ اهل

المروءات أحد . ولعلمهم معذورون في هذا التثاقل الي الأرض لأن المروعة في مثل هذه المواقف قد تجر علي صاحبها من الولايات ماليس في حسابانه وماهو في غني عنه . تلك هي خلاصة الرؤية المنامية التي قصها علينا ذلك العفريت ونحن نستمع اليه مأخوذين متعجبين .

ولو أنك سألت أهل مدينة الكوة القدماء لسردوا عليك طرفاً من أنباء عم «دراج» الذي كان في السنين الغابرة رئيساً لخبراء السوق في بلدتهم العريقة . وعم «دراج» هذا رجل عرف بالمروءة والشهامة والنجدة والشجاعة .. وعرف ايضاً بالذكاء والحيلة والحذر وحسن الحيلة . وفي ذات ليلة مقمرة كان ينام علي عنقريبه «الهباب» في «السهلة» وسط السوق . فاذا باستغاثة ونداء متلاحق يوقظه من نومه: «يا دراج .. يا دراج .. الحقني .. الحرامية كتلوني» . «فهب عم دراج» مسرعاً يلتقط عكازته وفراره وكوكابه وسائر أسلحته الدفاعية الهجومية الماحقة . ولكنه تأني ونظر فاذا الذي يستنصره منذ حين - وهو أحد مرؤوسيه من الخبراء - مستلق علي «عنقريبه الحبل» وقد وقف الحرامي علي رأسه وهو يشرع في وجهه مدية طويلة يتهدده بها ، بينما طفق الحرامية الآخرون يحاولون «تفليس» أقفال كبريات الدكاكين وأرفعها شأننا وأجلها خطراً وهم مدججون بالسكاكين والهاويات الغليظة والحراپ فضلاً عن مظاهر القوة والعتو والجبروت التي لا تخطئها العين الفاحصة . فتدبر عمك «دراج» في أمره جيداً وعلم يقينا الا قبل له بالتصدي لهؤلاء «العتاولة» المسلحين ومصادمتهم والاكثواء بنيران بأسهم . ورغم ان قمر التم كان في كبد السماء الصافية ينشر الضوء في كل ركن من أركان الأرض الا أن «دراج» الحصيف الذكي - بعد ان رأي ما رأي وأدرك ما أدرك - عاد مستلقيا علي عنقريبه وهو يقول للذي استنصره من خفرائه بصوت مسموع تبسم له جميع الحرامية في رضا تام وتفهم عميق: «يا عبد هوي . موت موتك .. دراج منو البجيك في الضلمة دي ؟! ثم كان ما كان مما عمرت به مجالس الانس في الكوة من النوادر والملح والطرائف ردها من الزمان . وعلي الرغم من أنه لم يكن من بين فتية عنبرنا في داخلية ود التسوم «دراج» يستنجد به ورغم أن

الاستاذ علي حسب هذه الرؤية المنامية لم يجزع ولم يناد علي احد منا يستنصره او يستعين به ، الا انه يبدو اننا جميعاً خلدنا الي حكمة عم « دراج » الذكية وتركنا استاذنا علياً وحده ليعالج امره مع الحبل الاحبولة ، تماماً كما ترك دراج رفيقه وحيداً ليفض نزاعه مع « الحرامية » بالطريقة التي تروق له وتعجبه . فاعجب لاستاذ الرياضيات الذي دارت عليه « الدوائر » من مكر تلامذته الصغار وأحاطت به من كل جانب ، واسقطه علي الارض حبل ممدود بين عنقبرين لم يكن سوي « خط مستقيم » ليس فيه عوج ولا أمت . ثم لم تهده معارفه الجمة الي زاوية قائمة او حادة او منفرجة لينفذ عبرها وينجو من مكر المصيدة ، او يأوي الي « ظلها » الذي طالما « انحشت » رؤسنا الصغيرة بأهمية معرفته ! فلم يلفه الاستاذ علي إلا مثل « ضل الدليب » يظل البعيد ويحرم أقرب الناس اليه ، تماماً كبعض البشر ممن قيل في حقهم :

من الناس من يغشي الأبعاد نفعه # ويشقي به حتي الممات أقرابه

ومن غريب ما علمته من احد رفقاء تلك الايام بعد ازمان ان احد عفاريت عنبرهم رأي في نومه ايضاً أنهم صنعوا مع الاستاذ علي نفسه في عنبرهم عين الذي صنعته به هذه الرؤية في عنبر داخلية ود التوم ! فعجبت لمؤمن يقع في ذات الشرك مرتين ويلدغ من ذات الحجر مرة أخرى !

وعلي كل فقد قال صاحب الرؤية المنامية في عنبرنا ان الاستاذ علي عاد في تلك الليلة التي لاتنسي الي غرفته غضبان اسفاً دون ان يظفر بضالة او بطائل . ولعل حلمه وسماحته غلبت عليه فعفا وغفر ولم يزد علي التلويح بالتهديد الشكلي والوعيد الآني وهو يقفل راجعاً موقناً ان خير وسيلة لمحاربة هذا النوع من العبث الساذج البرئ هي الا يحجر عليه وان يتركه ليجري مجراه . فلا بد ان يهدأ كل شئ بعد قليل من تلقاء نفسه ويمضي الفتية في سبات حقيقي عميق تماماً كصبية الخلوة يصورهم التجاني الشاعر المثال ان يقول :

ونفوس سجي الكري في حواشيها # ودب الفستور في ارواح

فارجحت مهومات وماتبرح # مركززة علي الالواح  
صور من الصبا الاغر موشاة # بسأحلام ضوء الصباح  
يدفق البشر من مفاتن دنياها # وتفتت عن سنا وضساح

لقد كان الاستاذ علي محمد خير من جيل الاساتذة الذين اشربوا في نفوسهم حب بلادهم واهلها وهم طلاب يشهدون الارهاصات الاولى لتعاظم التحرك الشعبي واصطفاق موجات المد الوطني الذي اتخذ أشكالاً عديدة من الوان التنظيم السياسي والوعي الثقافي والطلابي . وولج مع رفاقه واقرانه ابواب مهنة التدريس موقناً مثلهم ان رسالته التربوية التعليمية انما هي ابليغ الرسالات الوطنية في تلك الحقب وجميع ما يتلوها من مراحل . بل هي أجدادها وادومها نفعاً لناشئة البلاد . وذلك لأنك اذا علمت احداً واعتقته من ربة الجهل فكأنما علمت جميع من حوله من رهطه . فاذا فشت المعرفة بين الناس استناروا واسفرت مداركهم بالوعي وتفتحت عقولهم لاستيعاب حقائق العصر ، وفارقت بصائرهم غشاوات الجهالة والاهام . ولذلك اقتصر مجهود ذلك الجيل من الاساتيد تلقاعنا - فيما نعلم - علي التشديد في اجادة معرفة المواد التي تدرس واتقان جميع الفروع التي قد تشتمل عليها المادة الواحدة . ولا أحسبهم ضيعوا وقتا في محاولة تزويدنا بأفكار او نظريات خارجة عن حدود ما هم موفدون من اجله ومعنيون به ومؤتمنون عليه ، وقد يكونون محاسبين عليه لأن من بين كبار الاساتذة الذين يقفون في بعض الاحيان علي الاداء الاستاذ احمد محمد صالح والاستاذ محمد عثمان ميرغني عليهما الرحمة . وربما ندت من بعضهم لوافت واشارات توجي باحاسيس وطنية وتنبئ عن رغبة دفيئة صادقة وامينة في تعريف الصغار بما تمر به البلاد من احداث وماتضطرم به النفوس وتصبو اليه من الاماني ، وما يتخلق في ضمير الغيب من صور وملامح واعدة بالأمل والبشري . ولم يكن الاستاذ علي مثل صنوه الاستاذ كمال « يرمي الكلام » ويدعو لتأمل اطراف الحديث ابتغاء ايقاظ ملكات الفضول او إغراء العقول الغضة اليانعة بمحاولة سبر أغوار الامور الجسام ، ولكنه كان

اشد استمساكاً بدقائق الانضباط الحرفي الذي لا يدع مجالاً لقلته لسان تنبوه عن السياق المعلوم . وعنده ان نوافل الحديث قد تضر بفرائض الدروس ، وقد رأينا انها عند الاستاذ كمال - ربما لندرتها - لاتفعل ذلك . ولعل الفرق بين اسلوبيهما ان مادة الاستاذ علي التي يدرسها إنما هي متون صرفة ليس فيها متسع للحواشي . أما مادة الاستاذ كمال التي يلقيها علي مسامعنا - وكثيرمنها يخاطب الوجدان والعقول علي السواء - ففيها متسع او بعض متسع لسياحات قد تطول وقد تقصر خارج حدود الدرس المعلومه . ومهما اختلفت الوسائل وتباينت وسائط الاقتراب من فهم التلاميذ فقد كان الهدف واحداً وهو تنمية العقول واعداد الناشئة لأثقال هموم الوطن . وقد ابلي كلاهما في هذا الامر احسن بلاء . ولو ان الاستاذ كمال كف عن هذه اللوافت التي يرمي بها في احييين متباعدة لثقل علينا الدرس ولاحتبسنا رهن معاقل هذه الرطانة لانغادرها وللامه بعض « كيارنا » علي تجاهله التام لما يدور حولنا من احداث وارهاصات . ولو عمد الاستاذ علي الي مثل هذا السياحة ولو قليلاً لقلل ذلك من صرامة مادته التي يدرسها في نظر التلاميذ ولأصاب تركيزهم الدقيق بشئ من الوهن ولربما بث فيهم روح استرخاء ليس في علم الرياضيات مكان لاقبل درجة منه . فانظر كيف اصاب كلاهما وكيف انتفع التلاميذ من النهجين المتباينين .

ولقد كان الاستاذ علي محمد خير الذي درسنا الرياضيات في ام درمان الاميرية والعلوم في خور طلقت الثانوية هو عين الاستاذ الذي تتلمذنا عليه في علم الكيمياء ونحن طلاب بالسنة الثانية بكلية الطب في جامعة الخرطوم . وقد كان معه في قسم الكيمياء من المعلمين البروفسور هنري وهو بريطاني الجنسية ، والاستاذ مصطفى حسن وهو الذي صار فيما بعد مديراً لجامعة الخرطوم . اما بروفسور هنري فقد كان استاذاً متمكناً من مادته ولكنه كان بالنسبة للطلاب سوط عذاب ما في ذلك شك . واما الاستاذ مصطفى حسن فقد كان مدرساً ممتازاً بالغ الايام بما يقدم لنا من علوم الكيمياء ولكنه كان علي مدي ما من البعد عن وجدان طلابه حتي نعتهم بالتعالي

وما هو من ذلك في شئ . واما الاستاذ علي محمد خير فقد كان احبهم جميعاً اليها واميهم في نظرنا وأثرهم عندنا ، واقربهم من وجدان طلبته واحلامهم وامانيهم الوطنية . فقد اصبح استاذ الرياضيات في ام درمان الاميرية وقد كان محاذراً لا يخوض في غير مادته - اصبح اكثر جرأة وهو استاذ لعلم الكيمياء في جامعة الخرطوم ، ووضح ميلاً لمقاسمة طلابه فضيلة التفكر في هموم الوطن . وليس في ذلك من عجب إذ قد اصاب صفار الامس نضوجاً واستوت منهم الزروع علي سوقها ، وتحولوا من ضيق مجتمع الحداثة وانغلاقه النسبي علي ايام ام درمان الاميرية الي اتساع مجتمع الشباب الباكر في الجامعة وموره وانفعاله الواعي بقضايا الوطن . فافدنا من استاذنا علي محمد خير معارف كثيراً لاحدود لها ولا انقطاع . ولقد تفاني هو في ابلاغنا ما ارتقي بفهمنا وادراكنا بكل ما اوتي من مواهب ومقدرات . وكان علم الكيمياء عقبة كأداء في طريق جميع طلاب الطب في تلك العهود السحيقة ، بل هو قد تسبب في فصل البعض من كلية الطب لرسوبهم في امتحانه العصي ، وأعجز آخرين بدرجة اقل وأخرهم عاماً دراسياً باكملة وقعد بهم عن اللحاق بزملائهم « المحظوظين » . ولولا الاستاذ علي وكمال أدائه الرائع وقربه الوجداني المؤثر من هموم تلامذته وأوجاعهم الكميائية والفكرية لما افلحنا في الصعود علي تلك الصخرة الملساء بسلام . ولقد حسبت في وقت من الاوقات - او لعل ذلك بلغني ممن لم يحسن النقل - ان الاستاذ علي كان لا يعجبه قولي انه درسني في ثلاثة مراحل دراسية متتابعة . ولكنها حقيقة ، وهو يعلمها ، وانا بها مباه وفخور . وهي تنبئ عن عظم الجهد الذي بذله في تأهيل نفسه والارتقاء بمعارفه العلمية . فقد تتابع نيله للشهادات العليا دون توقف . ولست ارتاب في حقيقة انه واحد من قلائل نادريين هم افضل من نعمت بهم هذه المؤسسات التعليمية علي اختلاف مستوياتها علماً ومعرفة واتضاعاً وكرم خلق وحسن اداء . وهو يقف اليوم في طليعة اساتذة جامعة الخرطوم ومافي يده من حطام هذه الدنيا شئ . واني لأدعو الله ان يمتعه بالصحة والعافية والقدرة علي المزيد من خدمة

الوطن ، وأعلم يقيناً أن ما ناله من محبة تلامذته وتقديرهم واجلالهم له لاتقاس قيمته  
بمال ولا نشب ولامتاع .

## منصور ... والعدالة الناجزة :

من اساتذتنا الذين خلفوا في اذهانتنا انطباعات لاتزول الاستاذ منصور حسن أمين  
وهو استاذ شاب ايضاً ولكنه كان يبدو اسن من بقية شباب الاساتذة بعض الشيء .  
كان طويل القامة مع امتلاء في الجسم هو فوق النحافة ودون السمينة المفرطة . اكثر  
لباسه القميص الابيض والبنطلون الاسود او الرمادي ، واكثر اتعاله الشبب الذي يريح  
القدمين من حبسة الحذاء المقفول « والشراب » « الخانق » . ولكنه يتزيا في بعض  
احيانه بالبدلة الكاملة مع ربطة العنق ، ويوشك في هذه الهيئة ان يصير خواجة في  
نظرنا لولا ان سمرة بشرته تذكرنا دوماً انه « ود بلد » ومن اهل ام درمان العريقين .  
فقد لاحظ بعضنا انه يباشر التدريس في حصص اللغة الانجليزية وهو في البدلة  
الكاملة . اما في غير ذلك من الحصص فهو يتبسبب في ملبسه ، وقد يكون ذلك الامر  
مصادفة ليست نتيجة لتفكير وتدبير ، وقد يكون امراً مقصوداً في حد ذاته . ونحن لم  
نقف علي اي دوافع او اسباب مقنعة لاختيار زي معين لحصة بعينها ، وهندام آخر  
مغاير لحصة مغايرة . كل ما هنالك ان بعض اولاد الفصل كانوا يمتازون بدقة  
الملاحظة وقد جربنا فيهم هذه الدقة وخبرناها ، ولذلك انجذب انتباهنا الي ما أبوه  
حول اختلاف مظهر الاستاذ منصور باختلاف مادة الحصة التي يقوم فيها بمهمة  
التدريس . وقد تبين لنا أن هذه الملاحظة لاتعدو الحقيقة كثيراً وان لم تكن مطابقة لها  
كل المطابقة . ولقد حار العلماء ببواطن الامور من اولاد فصلنا في هذه الظاهرة  
وافردوا لمناقشتها عدة لقاءات متباعدة في اوقات الفسحة شارك في النقاش حولها خلق  
كثير . وذلك ان مثل هذه الامور كانت مثار اهتمام عند التلاميذ وهم يحاولون ان يجدوا  
لأي ظاهرة من الظواهر تفسيراً يجيب علي تساؤلاتهم الفضولية ويروي في نفوسهم  
ظماً حب الاستطلاع . فهم لايستفسرون اساتذتهم إلا فيما يتعلق بالدروس والالعاب

وماشابه ذلك من الانشطة المدرسية ، ويعلمون أنه ليس من حقهم ان يدخلوا فيما لا يعينهم من هيئة الاساتذة وملبسهم . ولو علموا ان لهم بعض حق في ذلك لأعنتوا اساتذتهم إعناتاً ولصبوا علي مسامعهم سيلا من الاسئلة التي قد تصعب الاجابة عليها . وهم في ذات الوقت يقررون بحقوق الاساتذة عليهم ومساملتهم اياهم عن اي بقعة في الجلابية او « كرفسة » في اللياقة او ثقب في العمامة او نقص في الزرائر او قصر في رباط الجزمة الباتا او شعث في اطراف شعر الرأس تعجز ان تخفيه عن الاعين لفة العمامة او قطرة افران في مدخل احد المنخرين حتي في عز الشتاء . والإجابة علي مثل هذه المسألة يتعين ان تكون فورية ومقنعة . وعند تعذر ذلك فان امرك يحال الي عم مبارك فانت في نهاية اليوم ملاقيه . ولكن الاستاذ منصور لم يكن مولعاً باسناد هذه المهام الي عم مبارك ، فهو يقل من ذلك ويكثر من مباشرتها بنفسه ، وخاصة عندما يكون متهدماً بالبدلة الكاملة . ولقد شقينا كثيرا في محاولتنا الرامية الي تبين السر الكامن وراء ميله للتزيي بالبدلة الكاملة في حصة الانجليزي علي وجه الخصوص . فهي ان كانت في فصل الشتاء امرأ لابد منه إلا انها ليست كذلك في غيره من اوقات الحر القائظ . فذهب اولاد الفصل في تفسير هذه الظاهرة مذاهب شتى . منهم من قال ان حصة الانجليزي تحتاج الي مناخ انجليزي يشمل فيما يشمل زي الاستاذ والبدلة الكاملة هي اساس المناخ الانجليزي لأن اولاد البلد يلبسون الجلابيه او « يتلفحون » بالتوب او يرتدون العراقي والسروال . الم تسمع بالأغنية الشهيرة التي كانت سيدة الاغاني في بيوت الاعراس وغيرها ، التي جاء في بعض مقاطعها « مدير الري الفسحة بالعراقي » ؟ وذلك في معرض التخصيص والتمييز والإقرار بعظم الشأن ورفعة المقام . ولكن هذا يكون في اوقات الراحة ، اما في ساعات العمل فان مدير الري يحسن منه التزيي بالبدلة الكاملة لأنها توحى بغير ماتوحي به « سبهلية العراقي » بل هي تذكر كل من نسي او تغافل بأن الامر جد لاهزل فيه وانه « حكومي » وليس اهلياً ، « وشغل خواجات مش لعب عيال » . وهذا هو المناخ الانجليزي الذي كانت تري هذه



الطائفة من الفتية ان البدلة الكاملة تشكل أساسه ، وانها بخلق هذا المناخ وضمان سيادته تساعد وجدان التلاميذ وخيالهم علي الانتقال بأستنتهم الي الرطانة الانجليزية في وثبة واحدة لاتراجع فيها حتي تنقضي الحصة . وتبقي البدلة الكاملة أمام اعيينهم لتذكركم بأن لغة التخاطب هي الانجليزية دون سواها . وقال قوم آخرون إن السبب يكمن في أن البدلة الكاملة توحى بالقهر والسلطان والمقصود منها إذا هو قهر أي مشاعر قد تباعد بين صاحبها ومحاولة استيعاب دروس اللغة الانجليزية ، ولولا مرأي الاستاذ في هذه الهيئة المهيبة لما خشيه التلاميذ ولما عظم اهتمامهم بدروس الرطانة التي يلقيها علي مسامعهم . وذهب فريق ثالث الي ان لبس البدلة الكاملة هو محض « استعراض » ، ولما كانت معرفة اللغة الانجليزية واجادة التحدث بها من اهم دواعي « الاستعراض » في نظرهم فان « الاستعراض » يبلغ ذروته عندما تجتمع حصة الانجليزي مع البدلة الكاملة . ولكن ابا الدفاع كان يتحدث الانجليزية في كبري ودنوياري بطلاقة لم نألفها عند غيره وهو غالباً مايكون في العراقي والسروال او في الجلابية وهو حاسر الرأس حافي القدمين . وهو رجل متواضع لايعرف الاستعراض وهو يصلح ان يكون استاذاً للغة الانجليزية في ام درمان الاميرية فهل تراه يتنكر لبساطته السابقة اذا قدر له ذلك ويلجأ الي الظهور امام تلامذته وهو متسربل بالبدلة الكاملة ؟ طرحت علي هذا نفر من الفتية هذه الحقائق والتساؤلات فازدادت حيرتهم وعجزوا كما عجز غيرهم عن ايجاد تفسير شاف ومقنع لارتباط حصة الانجليزي بالنسبة للاستاذ منصور هذا الارتباط الوثيق بالبدلة الكاملة . وعندما اراد الله ان ينصف الاستاذ منصور ويسلمه من السنة تلامذته الحداد ورجمهم اياه بالغيب وافتاتهم عليه سخر لهذه المهمة مستر كوك (Mr . cook) وهو خواجه انجليزي دون ادني ريب جاء - كما قيل - لاختبار ذكاء التلاميذ وهو تقييم ما يسمى (I . Q) ومعناها علي ما اعتقد مؤشر الذكاء . فكان هذا الخواجه الحازم الذي لا يتكلم إلا بالانجليزية في البدلة الكاملة . ومن الصعب علينا ان نتهم الخواجه ايضاً بالاستعراض لأن من يستعرض

منا انما يتمثل في نظرنا بالخواجات فبمن يتمثلون هم اذا صح انهم يستعرضون ؟ هذا ما لا يجوز ان يكون ، لأن الخواجة خواجة ، وليس وراء ذلك من درجة . وهكذا انصفت المقادير الاستاذ منصور وتفهم التلاميذ هذا التطابق المريح الذي تفرضه الضرورة بين حصة الانجليزي ونمط زي الاستاذ لاحراز اعلي درجات الاتقان من ناحية التدريس ويلوغ أقصي مستويات الفهم بالنسبة للتلاميذ .

ولقد كان الاستاذ منصور حسن امين استاذاً مهيباً ومهاباً ولكنه لم يكن ببعباً مفزعاً . فهو حازم صارم ليس فيه من اللين شئ يذكر ، غير ان حزمه وصرامته يمكن وصفهما بأنهما « موضوعيان » لأنهما خاليان من الظلم والشطط بريئان من القسوة والامتهان . فهو لا يأخذ احداً بالظنة ولا يعاقب بريئاً بمسئول ولا يحمل احداً أكثر مما يستحقه ذنبه الذي جناه ولا ينكر لصاحب فضل فضله وان كان قليلاً لا يعتد به . إنه استاذ عادل مشغوف بالعدالة في كل شؤون ذلك المجتمع المدرسي الصاخب الذي كنا نعيش فيه . يصر علي استيفاء حقوقه كاملة كاستاذ يجب علي تلامذته تبجيله وتوقيره وانفاذ اوامره ، ويضطلع بواجباته في الفصل وفي منتديات الجمعية الادبية والجمعيات الأخرى وفي ملاعب الكرة ، فلا ينقص من هذه الواجبات شيئاً بل يأتي بها جميعاً علي الوجه الاكمل ويجهد نفسه ويشقيها من اجل تحقيق ذلك . ومن ضمن حقوقه التي يحرص علي استخلاصها من تلامذته ان يكونوا يوماً في مستوي دراسي رفيع . هذا امر لا يتراخي فيه إن تراخي في غيره ولا يجامل فيه إذا جامل في ماعده . ولكنه كما قلت لك منطقي في حزمه وموضوعي في صرامته . لا يثب الي الاستنتاجات ولا يتسرع في اصدار الاحكام ولا يضعك في موضع يذيقك مرارة الاكراه وحموضة العسر وانبهام السبل . بشعرك يدينك ان كنت اهلاً للادانة وذلك لأنه يباشر معك حواراً صبوراً حتي تضع الحبل انت حول عنقك راضياً مختاراً . وعندها يقتصر منك بما يوازي جرمك من عقوبة ، لا ينقص منه حبة هباء ولا يزيد عليه زنة قطمير . اما اذا كنت من اهل الكرامة فانه ايضاً لا يسارع بالباسك تاجاً ولكنه يستدرجك بعض

استدراج ينطقك بفضائلك دون استحياء وبدون خيلاء حتي تعلم ان الاتيان بالفضائل هو من صميم واجباتك وحتى تضع الغار انت بنفسك علي رأسك ، وساعتها يطريك ويكافئك ولكن بقدر ما تستحق ، لا يبخسك مما انت اهل له عشرين من خردلة ، ولا يزيدك علي ما انت مستحق له قشرة من بصلة ! ولقد اكبر فيه تلامذته هذه الموازين الدقيقة التي كان يزن بها اعمالهم ويفتي بمقتضي دقتها فيما يجب ان يكون عليه عنده مآلهم . فيحرص علي الا يظلم مستضعفاً لا يجد ما يحمل نفسه عليه من قوة المنطق ، ويحاذر الايجابي قوياً قد يكون مخطئاً ولكنه أقدر وألحن بحجته عن سواه . غير ان هذه النظرة الي احكام الاستاذ منصور وتمسكه بأسس العدالة بين تلاميذه قد تكون صورة زاهية تبدو وكأن فيها كثيراً من المبالغة . وذلك لان الكمال لله وحده والعدل المطلق صفة تفرد بها مبدع الالكوان . ولكني كما قلت لك من قبل اسجل انطباعات وقرت في الذاكرة بعضها تعززه دلائل قطعية ومتواترة ، وبعضها لا يعدو ان يكون مجرد انطباع التمسسته بعد مضي نصف قرن من الزمان فاذا هو كامن في طي من طيات الذاكرة واذا هو علي هيأته التي كان عليها يوم ان كان . والعثور في طيات الذاكرة علي اثار وصور تبلغ من العمر هذا المدي ليس بالامر الهين اليسير ، وتملق الذاكرة واستدرار عطفها حتي تجود عليك بما اخفت واستبطنت في وديان منعرجاتها ليس بالسهولة المواتية التي لا تخيب . والناس في هذا الشأن صنفان : صنف ينسي ولا يجهد لكي يتذكر ، وصنف يتذكر ويستزيد ويلج بعاطفة صادقة فاذا بكل شيء - بعد الجهد - رأي العين . فريق يحاول مرة ولا يعيد الكرة ، فلا يظفر بطائل . وفريق يقارع اليأس مراراً وبدون كلال فيبصر كل شيء بعد حين . وربما صح تشبيهه مطاردة الذكريات البعيدة بملاحقة عصيات القوافي والاشعار لأن كلاً من الصيدين مراوغ يجيد الانفلات ويحسن الازورار . فاذا واثاك الحظ ونصرك الله علي قوي النسيان فلا يركبك الغرور ، واعلم انك دون منزلة ابي الطيب المتنبي بكثير . وذلك ان الشبه الذي اشرنا اليه شكلي بحث وشتان ما بين تذكر ما كان وابداع ما لم يكن . فقد عمل ابو الطيب

أبياتاً من الشعر علي البديهة فتعجب ابو العشائر من بديهته وأعلن ذلك التعجب فما كان من الشاعر الخالد إلا أن اجابه علي البديهة ايضاً بقوله بعفوية وفوراً دون ابطاء :

أتنكر ما نطقت به بديهاً # وليس بمنكر سبق الجواد  
اراكض معوصات الشعر قسراً # فاقنتلها وغيري في الطراد

ولكن كاتب هذه السطور يراكض معوصات الذكريات قسراً ثم هو لا يجزم الا بقتل بعضها ولا يدري ان كان غيره يعبأ بمثل هذا الطراد . واذا كان الاستاذ منصور جزءاً هاماً من هذه الذكريات فالامانة تقتضي ان نوفيه حقه كاملاً مثلما اوفانا حقوقنا كاملة ونحن بعد في ميعة تلك الحداثة . فالاستاذ منصور كان شديد الحرص علي أن يري تلامذته متفوقين ، يفرح بذلك فرحاً عظيماً ويغتم لما بونه أشد اغتمام ، ولكنه في كل من حال الاشادة والمواخذه يقسط ولا يتعدي حدود الاتزان وخاصة فيما يتعلق بالثانية من الحالين . اما فيما يتعلق بالأولي فقد يباهي بك ان كنت من اهلها وهو لا يقصد من وراء ذلك الي المغلاة او تعدي الحدود وانما يرمي الي ضرب المثل علي الاقتداء والاغراء بالتكريم اذا استوفي الاستحقاق .

ولست انسي للاستاذ منصور بعض مواقف مشهودة ما كان لي ان اقوي علي تحمل اثارها لولا انتصاره لقضيتي وتشجيعه إياي علي اجتيازها بتماسك وسلام . اول هذه المواقف كان من النوع الذي قد يخجلك او يخدش حياك ان كنت تلميذاً حياً . ليس ذلك فحسب بل انه قد يثير عليك سخط زملائك - او قل غيرتهم - فيقطعون لحمك بالسنة كالسكاكين ، ويهددون امنك بغمزات عيون فيما بينهم كالسهام او النصال ، وربما اضمروا لتأديبك خطة توشك ان تصيبك بمعرة او مكروه حتي لاتطفي عليهم او تحدثك نفسك بما يشبه الطغيان . فقد درج الاستاذ منصور علي احتقاب كراساتي التي تسجل جهدي في اللغة الانجليزية واللغة العربية ، وعلي الطواف بها علي الفصول بما في ذلك تلك التي نتقدمنا بعام وعامين ، يقرأ محتوياتها عليهم ويشيد بها ويعلن عن رضائه عنها ، ثم يعيدها لي في نهاية اليوم الدراسي . ومن عجب اني لا أذكر ابداً اني

استشعرت ابي نوع مما يسمونه « كبر الرأس » علي اثر هذا الاطراء ، ولكن ربما كان ذلك ناتجاً من تخوفي من بطش الباطشين الذين قد تستفز مشاعرهم مثل هذه المقارنات ، وانشغالي بهذا التخوف وباعداد نفسي لما يمكن ان يترتب عليه ان صدق الحدس ، وخاصة من تلامذة الفصول المتقدمة . وقد كان لتشجيع الاستاذ منصور إياي أثر هائل في تزايد ثقتي بنفسي وصدق عزيمتي علي الصمود في وجه كل الاحتمالات . ورغم اني سلمت بحمد الله من بطش الايدي وركل الارجل ونطح الرؤوس إلا أنني لم اسلم من « مقاريض » الالسن الحداد ، فلطالما استرقت اذناي اصداء التعليقات الساخرة فاستقبلتها بحكمة « أضان الحامل طرشة » . بلغني من تعابير التنذر ما لا يحصي : يعني خلاص الود ابن كلب . يعني الود خوجة يعني الود شوقي ، او حافظ ابراهيم ، او المتنبى . يعني الود ما بغلط اصلو . ياخي انت اصلك كمال البكري ؟ ياخي انت قايل نفسك حسين الغول ؟ ياخي انت احسن من منو ؟ ما ابي واحد لو قعد ممكن يكتب زيك وأحسن منك . طيب ياخي ما يودوك سنة تالته ولا سنة رابعة ، قاعد معنا في الفصل داليه ؟ وكان امثال ذلك كثيراً لا يحصي . ولكن عزائي هو ان هؤلاء الساخرين لم يكونوا سوي قلة من اولاد فصلنا وإن انسي لاكثرتهم انهم تعاطفوا معي اكرم تعاطف ، وربما كان ذلك من اهم الاسباب التي عصمتني من بوائق اقوام وبوادر انتقامهم التي كانت تلوح في الافق وتوشك ان تنزل بي ما لا قبل لي به ، ثم يصرفها الله عني بفضل عدالة الاستاذ منصور وتجدد ثقتي بنفسي وانصاف اكثرية اولاد فصلنا ووقوفهم لجانبي . ورغم كل ذلك وغيره فقد كان اطراء الاستاذ منصور يسعدني ويشقيني في ذات الوقت ، فاعجب لشقاء في ثوب سعادة وسعادة في أتون شقاء . غير ان عدالة الاستاذ منصور كانت سلوتي في ذلك الشقاء بينما كانت نذر النكير التي تلوح في الافق فيطفئ الله نارها هي سبب شقوتي بتلك السعادة القلقة .

وثاني هذه المواقف كان علي اثر تجاوز خطير اقترفته في حق احد الاساتيد وهو الاستاذ يوسف الخليفة . فقد حدد لنا هذا الاستاذ يوماً بعينه لاختبار في اللغة

العربية . وكنت اعلم ان اليوم السابق لهذا اليوم سيشهد مباراة هامة بين فريقي الهلال والمريخ في ميدان البلدية بمدينة الخرطوم بحري . فذهبت من ود نوباوي في رفقة من اولاد الانصار وعلي رأسهم الصديق محمد ابكر لنشهد تلك المباراة . تحركنا من ود نوباوي في الثانية ظهراً وركبنا معدية شمبات التي لم يكن فيها موضع لقدم ولم يكن سواها من جسر فوق النيل . بلغنا استاد البلدية بعد لأي وجهد جهيد ، وشهدنا مباراة مخيبة للأمال انتصر فيها فريق المريخ علي فريق الهلال . وعدنا نجرجر خطانا في حالة من الخزي والاسي لم نشهد مثلها من قبل . وكانت الثالثة الاثافي انا بقينا علي الشاطئ ساعات طوالاً نصارع وسط تلك الامواج البشرية الهائلة بغية ان نجد منفذاً الي داخل المعديّة ، ولكن دون جدوي . فالمعديّة محدودة السعة وهي بطيئة السير أيضاً . تنتقل فوجاً الي البر الغربي لتعود ثانية لحمل فوج آخر . لقد تعددت رحلاتها جيئة وذهوباً فلم نتمكن من بلوغ الشط الغربي إلا مع « هباب الصباح » . ولم يبلغ كل منا داره في ود نوباوي إلا والشمس ساطعة في الافق الشرقي البعيد ، والا ونحن اقرب الي الاغماء من الصحو ، او اقرب الي الموت من الحياة . ولذلك لم اتمكن من الذهاب الي المدرسة في ذلك الصباح وانما اخذت الي سبات عميق . وعندما ذهبت الي المدرسة في اليوم الذي يليه كان اختبار اللغة العربية قد فاتني وفته متحسراً . واستدعاني الاستاذ يوسف الخليفة وهو في اشد حالات الغضب يسألني عن سبب غيابي عن الاختبار . وعندما قصصت عليه الامر كله دون ان اكذب او ادعي مرضاً زاد غضبه وتوعدني بأشد انواع العقاب البدني والمعنوي . اما النوع الاول فقد تلقيته راضياً عند عم مبارك ولم يتعد الست جلدات . واما النوع الثاني فقد هالني وأفرزني لأنه اكد لي اني سأنال صفرأ في الامتحان النهائي مهما او تيت من حسن بلاه . ولقد تملكني الغم واحتوشتني التعاسة وكدت اسقط من نظر الاستاذ يوسف الخليفة الذي اعتبر اعترافني بأسباب التغيب تحدياً له وهو مخطئ في ذلك غير مصيب . وعندما سألني الاستاذ منصور قصصت عليه ذات النبأ ، فصدقني في كل حرف قلته ، واكد

لي اني مستحق لأكثر من الست جلدات التي تكرم بها علي عم مبارك ولكنه شفيع لي عند الاستاذ يوسف الخليفة وظل يسعي بيني وبينه حتي رضي عني الاستاذ يوسف ورفع عني وعيده بذلك الصفر المفزع فاستمر مريري وارعوي الوسن . تلك واحدة من حماقات هيامي بكرة القدم ، وذاك مثل من امثلة التسامح وسماحة النفس عند الاستاذ يوسف الخليفة ، وهذا واحد من افضال الاستاذ منصور حسن امين وضرب من ضروب عدالته واتزان احكامه تجاه تلامذته ، فقد كانت عدالته ناجزة وكان حكمه متزناً .

واما ثالث المواقف فقد كان هو غيابي عن انتخابات الجمعيات المدرسية في تلك «العصرية» التي رويت لك احداثها في غير هذا السياق . ولعل انتخابي - رغم غيابي - رئيساً لجمعية الثقافة ومن ثم الجمعية الادبية ايضاً كان هو الذي شفيع لي او قل باعد بيني وبين العقاب . ومهما يكن من امر فقد صدقت الاستاذ منصور الحديث عن سبب غيابي فأكبر هذا الصدق وزاد من اكباره أنني نلت ثقة زملائي وأنالست بين ظهرانيهم . ولكنه ابان لي بوضوح اني استحق العقاب وانه لهذين السببين المتقدمين قد عفا عني ، وعبر عن أمله في ان أكون عند حسن ظنه في ادارة هذه الجمعية . واني لااذكر كيف كان الاستاذ منصور يحرص علي شهود اجتماعات الجمعية الادبية ويشد من عضد دفع الله الحاج يوسف ومن عضد كاتب هذه السطور حتي اكتسب هذا النشاط مركزاً عالياً في نظر التلاميذ والاساتذة وحتى صار هذا المنتدى الثقافي في الحشود التي تداوم علي شهوده اشبه بالنمط الدراسي العادي في صباح كل يوم . فقد كان يؤمه نفر غفير من التلاميذ والعاملين في المدرسة وبعض الاساتذة فيقضون ساعات ممتعة تلقي خلالها القصائد وتندور المناقشات حول مختلف القضايا الادبية ويتباري اهل البيان ورواة الملح والطرائف في تقديم روائعهم في جو مشبع بالوئام والصفاء . ولقد ابان الاستاذ منصور طوال الفترة التي ظل خلالها مرشداً للجمعية الثقافية عموماً وللجمعية الادبية علي وجه الخصوص عن عزائم ومقدرات قيادية وتربوية

عظيمة وعن ادراك عميق للقدرات الكامنة في نفوس تلامذته . ورغم انه عرف بالشدة والحزم فانه عرف ايضاً بالتحلي بالأناة وذلك هو جوهر عدالته التي ميزت احكامه بالانصاف ومراعاة الحقوق . فهو حازم في غير ما مغالاة في الشدة ، ولين في كثير من احيانه في غير ما ضعف يغري اياً من تلامذته بالتهاون . ولقد كان لي بعض مواقف اخري هي دون ما ذكرت اهمية وبعد صيت ، ولكنها كانت كلها تذكرني بوضوح ان الاستاذ منصور رجل حقاني لا يهضمك حقاً من حقوقك ولو أنس منك ما لم يرقه ويعجبه ، ولا يماريك او يحابيك ان قصرت فيما لايري سبباً في تقصيرك فيه حتي ولو كنت اقرب الناس اليه او كان ابوك هو ناظر المدرسة او مدير مصلحة المعارف ! ولكنه كان بين هذين البعدين ذا بصيرة وصاحب نظر ، يدرك مواهب تلامذته وهي بعد في طور التكوين فيتعهدها بروح سمحة تمهد الطريق لاكتمال عناصرها وازدهارها وبيقظة مستبصرة وقوة عارضة نافذة ناقدة تشير الي الخطأ في حينه فتشجبه وتنهاي عنه ، وتلمح العيب وان صغر في وقت ظهوره فتتعامل معه بالحزم المطلوب والشدة المتبغاة لاتستهين بأمره وان دق وخفي علي الناس . ومن العجب انه لم يجد في كل ذلك مشقة تذكر وقد رضي هو عن نفسه ورضي عنه تلاميذه . ولست اذكر استثناء لذلك إلا ما كان يرويه لنا بعض تلاميذ الاوائل من ان احدهم اتعبه واشقاه حتي صرح الاستاذ منصور بذلك جهرة امامهم وكاد يعلن عن بأسه وعجزه عن اقامة ذلك العفريت الموهوب علي الجادة . ولعله قد استرجع عندما بلغ ذلك المبلغ وتلا في سره قول اصدق القائلين رب العالمين : ( إنك لاتهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ) . وذلك انه - كما قلت لك - عادل في احكامه متزن في تقييمه لتلاميذه ، يحملهم علي الاجتهاد وحسن الاداء حملاً ، ولكنه في ذات الوقت يستنبئ مقدراتهم الحقيقية فلا يسرف في الانتقال عليهم ولا يحملهم ما لا يطيقون . يستخدم هيئته استخداماً حكيماً قسطاً يبغي من وراء ذلك ان يرتقي بمعارفهم الي اسبق الافاق ، فهو في نظرهم حاضر دوماً حتي في غيابة ، غير انه يدأب ما امكنه الا يغلظ علي احد فيدفعه الي الخصومة او اهتزاز ثقته



بنفسه . فاذا رأي انه اوشك ان يفعل ذلك قفل راجعاً الي الوسطية والاعتدال . فهو مهيب ولكنه قسط الموازين .

لم يكن في غلوه ضيق الصدر # ولا كان عاجزاً في اعتداله  
لا يعادي ، ويتقي ان يعادي # ويخلي سبيل من لم يواله

### محمد المامون والقاعدة الرياضية السحرية :

كان معظم شبان وشيوخ ذلك الجيل من الاساتذة الذين تلقينا عليهم بواكير العلوم يهتمون اعظم الاهتمام بمظهرهم ويعتبرون ذلك من تمام الهبة وكمال الرفعة الداعية الي الاحترام والتوقير . ومن تقاليد معظمهم انهم يحتفظون لأنفسهم بمسافة مناسبة البعد عن تلامذتهم يمكن وصفها بأنها وسط قوام بين النأي والقرب ، وذلك تمثيلاً مع الاعتقاد السائد آنذاك في ان شدة القرب من هؤلاء العفاريت الصغار مدعاة لجعل البساط احمدياً ودعوة لهؤلاء الصغار ان يتجاسروا علي اساتذتهم ويجعلوهم مضغة في أفواههم ولربما سخروا منهم واتخذوهم هزواً . اما الابتعاد القصي عن التلاميذ فربما اظهر الاساتذة بمظهر التعالي والكبر وهو خلق تنفر منه نفوس الصغار ويوغر صدورهم علي اساتذتهم فيتصيدون زلاتهم - ولا يخلو بشر من بعض زلات - ويجعلون من الحبة قبة فيعود ذلك علي الاساتذة وبالأ وسوء ذكري علي الالسن وفي الخواطر . ولذلك فان معظمهم قنعوا بهذه الوسطية في تحديد واتخاذ المسافات العلائقية التي تفصل وتربط في ذلك الوقت بينهم وبين تلامذتهم الصغار . ولست ادري ان كان مثل هذا النهج نهجاً علمياً صرفاً تمليه اساسيات علم التربية المدروسة باتقان وبعد تجارب وتمحيص . ويقيني ان اولئك الاساتذة الكرام ادري مني ومن غيري بهذه الشعاب التي هم اهل مكة العليمون بدروبيها ومنعطفاتها . ولكني رأيت بالتجربة الذاتية والمقارنة ان التلميذ في تلك السن المبكرة يكون اكثر تعلقاً باستاذة واعمق احتراماً له كلما زاد قرب ذلك الاستاذ منه وكلما دنا هو من استاذة ولقي ترحاباً واحتفالاً بهذا الدنو والقرب . فمثل هذا الترحاب والاحتفال يضاعف من ثقته بنفسه ويرفع من قدر استاذة في نظره .

ولقد كان استاذنا محمد المأمون الريح من القلائل الذين سلكوا هذا الطريق - طريق طي المسافات التي تباعد بينهم وبين تلامذتهم . وكان من القلائل الذين مهدوا السبيل لهذا القرب الذي يؤلف بين القلوب وي طرح عن الانفس الحرج ويصل بينها وصلة وداد تميط الحواجز وتكاد تزيل الفروق . فهو استاذ متبسط في مظهره وفي حديثه وخطابه لتلامذته . ما سمعته ابدأ ينادي قائلاً - كما يفعل البعض - « ياود انت هناك » او ماشابه هذا القول الذي يوحي ببعد المسافة إحياء وينبئ عن الفوقية الاستاذية إنباء ويذكرك - إن كنت ناسياً - بأنك تتلقي من الاوامر مايتوجب عليك تنفيذه دون إبطاء . ولكنه اكثر ما كان يلجأ الي عبارات خلت من مثل هذه الايحاءات وصرف التعليمات ، لأن من مخاطباته المألوفة : اسمع يا محمد ( او عباس او محمود او احمد أيا كان الاسم ) ، يا محمد ياخي ، لياخي مش كده ، انت نسيت ولاشنو ؟ ثم يشرح لتلميذه ما استعصي عليه فهمه من مادة الدرس . فهو يناديك بأسلوب يوحي بالقرب ويدعو اليه ، فينسيك - وان كنت ذاكرأ منذ حين - انك في حضرة استاذ يمكنه ان أسأت الادب معه او تطاولت عليه ان يعرك أنفك في التراب . وحق لك أن تنسى وأن تسقط مايبينك وبينه من حواجز ، لأنه لا يروعك ابدأ ولايثنيك ، يتلقاك سهلاً في بساطة مجبولة فيها من اللطف مايفريك بمزيد من الدنو والاقتراب ، وعليها من الهيبة والاعتدال مايعصمك من ان تسئ معه الادب . فتري نفسك وكأنك مع شقيقك الاكبر ، تستحي من ان ترفع عنده الكفة لأنه أسن منك ، وتوشك ان تفعل في حضرته ما تشاء لأنك شقيقه الاصغر . فهو لايمنعك من هذه او تلك ، ولايزجرك ولا يعنفك ولكنه ينفث في روعك بابتسامة مرحبة وقورة متماسكة ان تلزم في القرب قواعد الظرف والادب .

كان الاستاذ محمد المأمون بسيطاً يحب البساطة . وعلي الرغم من انه يظهر أحياناً في البدلة الكاملة كما يفعل غيره من الاساتيد خاصة في اوقات البرد وعند المناسبات التي تقتضي مثل هذا التزيي إلا أنه في اغلب حالاته كان يكتفي بالقميص والبنطلون ، وهو زي يناسب بساطته السلوكية ويتسق معها احسن اتساق . وهو

استاذ نحيف لا يربوط طول قامته كثيراً عن بعض تلامذته ممن عرفوا بلقب الصقور . فاذا ألفتته بينهم في فناء المدرسة ابان فسحة الفطور كدت ان تجزم انه واحد منهم لولا انه لا يرتدي الجلابية كما يفعلون ولا يتناول فطوره عند طلبة عم محمدين كما هم يتناولون . غير انهم يأنسون به في مثل هذه الاوقات ويمطرونه بوابل من الاسئلة الحيري التي تزدهم بها اذهانهم الغضة وتتطلع للاجابة الشافية عنها نفوسهم المضطربة بالفضول وحب الاستنباء عن كل شئ يخطر علي البال والوقوف علي حقيقته . وهو يحاول جهده أن يجيب علي اسئلتهم لا ينتهرهم ولا يستخف بأحد منهم بل يلاطفهم هوناً ويسايرهم يسراً ويبسم في وجوههم ويدعوهم الي مزيد من القرب والتداني . ورغم حزمه الذي يبدية في الفصل طوال حصة التدريس فقد كان تلامذته يجلون به ويحبونه لأنهم علموا حقيقة أمره واطلعوا علي جوهره الذي يقوم علي التواضع وسهولة الطبع ونبل المقاصد . ولما كان عبد الكريم احمد حميدة من الذين لا يعجبهم العجب فقد وصفه لي مرة بأنه استاذ ماكروانه يملك اكثر من اذنين لأنه يستطيع ان يسمع همسك مع جارك وانت في الربيع الخراب وهو يقف أمام الفصل بالقرب من السبورة ومنضدة الاستاذ . وقال عبد الكريم إنه في مثل هذه الحالات يسدد اليك نظرات نافذات ذات معان وعيدية هي ابلغ في الردع والتحذير من كل عقاب بدني ، وادعي للكف عن العبث والي معاودة الانتباه من كل زجر او عتاب او تلويح بعنت الاقتصاص . ولقد وقفت بعد حين علي صدق قول عبد الكريم . وذلك ان الاستاذ محمد المأمون كان يقص علينا في ساعات الصفاء التي نلقاه خلالها في حوش المدرسة جميع ما دق وخفي علينا من همس البعض وهرجلتهم الخافتة اثناء حصته . ولقد ادركت وقتها ان هذا الاستاذ لم يؤت اكثر من اذنين فحسب وانما أوتي اكثر من عينين كذلك ! فهو يعلم - ويقص علينا هذا الذي يعلم - ان محموداً ناول عباساً استيكة او قلم رصاص وان مكى برعي قرب كراسته من نظر محجوب ، وان محمد الحسن الشايقي ابدى برماً ظاهراً بالحصه عبرت عنه صرة وجهه حتي التصق حاجباه التصاقاً ، وان محمد عبد الله الشيخ كان ساهماً مسرحاً

ينظر من خلال النافذة الجنوبية لا يلقي بالا الي شرح الاستاذ ، وان محمد العوض مصطفي كتم بين اشداقه ضحكة كادت أن تنفجر مجلجلة في الفصل لأنه ابصر في وجه هاشم الأطرش كل معاني الحيرة وهو يتابع رطانة الاستاذ بالانجليزية دون ان يفقه كل ما اشتملت عليه . فبان لي ولغيري جلياً ان الاستاذ محمد المؤمن علي قدر من المكر دون ريب ، وأيه ذلك انه دقيق الملاحظة ويستشعر كل همس وحركة في الفصل ويحسن قراءة المعاني التي يشتمل عليها مايرتسم علي الوجوه من تعابير لا يغادر من ذلك خطرة ولا يفوت عليه منه شيء . غير انه مكر لايتعدي نظرات الوعيد ، لأنه علم بالمراس انها كافية لاحداث الأثر المطلوب ومغنية عن اللجوء الي إنفاذ ذلك الوعيد . ولا يعني هذا ان عبد الكريم قد اقلع نهائياً عن احداث ما كان يحدث من هرجلة وموسيقى اذ لم يكن في مقدور احد ان يحول بين عبد الكريم وإمتاع نفسه وغيره بهذه التجاوزات العبثية البريئة لأنها أصيلة في نفسه محببة الي اقرانه ذائع امرها بين اساتذته ، يغضون الطرف والسمع عنها في اكثر احيانهم ، ويواخذونه عليها في بعضها اذا سرت موجتها وعمت واصبحت اكثر مثاراً لاهتمام التلاميذ من شروح الاستاذ . وقد كان عبد الكريم من الحصافة بحيث يراعي الخطوط الحمراء فلا يتعداها إلا في حالات البرم الحقيقي والضحج البالغ ، ويجعل لنفسه خطوطاً صفراء يترك لها الخيار في تجاوزها ان أراد او في البقاء ضمن حدودها اذا كان راضياً عن الاستاذ . ولما كان الاستاذ محمد المؤمن من الاساتذة الذين رضي عنهم عبد الكريم فان حصصه لم تكن تشهد من نشاط عبد الكريم العبثي الا الحد الأدنى الذي لا يسلبه حرية ممارسة هذه المواهب ولا يحرم زملاءه من متعة شهود هذه الممارسات والاستماع اليها ولا يشعر استاذه بأنه مستهدف للسخرية وشق عصا الطاعة عليه . وقد ادرك الاستاذ محمد المؤمن كل هذا وتعايش معه في اناة وارخاء واكتفي بتذكيرنا في الاوقات التي نلم به خلالها في فناء المدرسة انه عالم بكل مايجري في الفصل اثناء الحصة وانه لا ينوي ان يضع سوطه حيث يكفي لسانه إلا اذا ايقن ان النطق وحده لا يستوفي ما أريد به من

مقاصد . وكذلك ادرك عبد الكريم ورفاق عبثه البرئ كل هذا فامتازت فترة الاستاذ محمد المأمون معنا بهذا التعايش السلمي المتفرد وهذا الاحترام المتبادل الموسوم بالاخلاص والتقارب .

ولقد تميز الاستاذ محمد المأمون من بين أقرانه الاساتذة بأنه رياضي مولع بالرياضة يمارسها مع تلاميذه وكأنه واحد منهم . فكنا نلقاه في العصريات في ميادين جامع الخليفة وهو يرتدي القميص والشورت او سراويل الكاكي القصيرة ، وينتعل الجزمة الباتا . يلعب معنا كرة القدم طوال الشوطين حتي نكاد ان ننسي - من فرط تواضعه وبساطته - ان بين ظهرانينا استاذ من اساتذة المدرسة . ولكنه في ذات الوقت يحرص علي تعليمنا فنون المزاوغة بالكرة والانفلات بها من محاصرة الخصم ، والقدرة علي ارسال « الباصات » الرابحة الي الامكنة المواتية والاقدام الطليقة الخالية من الرقابة ، وعلي التصويب القوي الهادف في المرمى في الوقت المناسب دون ابطاء . وهو لا يكتفي بمشاركته ايانا لعب كرة القدم لأنه كان مولعاً بثتي فنون الرياضة وكانت بنية جسمه القوية رغم نحافته تنطق بذلك . كان محباً لرياضة الجري والسباق ، يدعونا اليها ، في كثير من الاحيان ، فتصطف مجموعة منا في خط افقي واحد وهو من بيننا ، ثم يصدر هو النداء وينطلق وننتقل نحن معه راكضين سراعاً بكل ما اوتينا من قوة حتي اذا انتهينا الي الغاية القصوي كان هو في المقدمة لم يسبقه منا احد . فنضحك نحن من هزيمته لنا وعجزنا عن اللحاق به ، ويفرح هو بطلبنا لاعادة الكرة وبتأسينا به . فاذا اعدنا الكرة سبقنا الي « الميس » كما فعل من قبل ، والهيب بذلك فينا الحماس لهذا الضرب من ضروب الرياضة وشوقنا الي تجديد العزائم وحببنا فيه . وكانت رياضة الركض والسباق في تلك الازمنة مما لا يعيب بأمره كثيراً اذ كانت كرة القدم - وهي لا تزال - سيدة النشاط الرياضي . وتلك محمداً واحدة من محامد الاستاذ محمد المأمون الكثر ، ان حجب الي انفسنا رياضة الجري او الركض او السباق في شكلها التنافسي المنتظم . فقد كان يفرد في بعض الاحيان جوائز نقدية متواضعة - ولكنها

مغرية - للفائزين في منافسات السباق التي ينظمها التلاميذ . ولست اذكر اني حظيت مرة واحدة بجائزة من هذه الجوائز رغم شغفي بهذه الرياضة الجديدة واشتراكي في اغلب منافساتها . وعندما شكوت ذلك لمحمد العوض ضحك علي وسخر من تطلعاتي التي لايسندها منطق في رأيه وابان لي في بساطة - وهو محق - ان من يراكض ابراهيم الامين صاحب القدمين الفولاذيتين ، وزين العابدين الشفيح ذا الساقين الفلكابيتين الطويلتين ، والصقور العتاة نوي البأس والأذرع التي تقوي علي التجديف المؤثر في الهواء فتستدفع الريح التي تزيد من السرعة ، عليه ان يتذكر ان الغلبة رهينة بتوفر هذه الاسباب ، وان يقنع بما دون النصر واحراز قصب السبق . واكد لي محمد العوض الا امل للمثلي في الفوز علي هؤلاء ، إلا ان اراكض الهاشميين فتقعد بأحدهما محبته للضحك وتمتمته حتي في الجري عن ان يسبقني ، ويقصر بثانيتها قصر قامته وقلة حجمه ورقة قدميه عن ان يبلغ هدف المراكضة قبلي او يقترب من ذلك اي نوع من القرب المناسب . ومحمد العوض كما قد علمت شديد السخرية من الهاشميين كثير التندر عليهما وانما عني بتنبئه وثقته بفوزي عليهما اذا نحن تراكضنا ان يمد لي لسانه في معرض سخريته العابثة معلنا ان مثل هذا الفوز مما لايعتد به ولا يصلح ان يكون مدعاة لمكرمة رياضية . وعندما دعوته هو نفسه لمسابقتي اغرق في الضحك و اشار الي الاستاذ محمد المأمون مؤكداً انه لن يدخل في منافسة فردية مع احد إلا بأمره واذنه ، وان الاستاذ يعلم مقدراته علي الجري والسبق وانما يدخره للمنافسات الكبرى مع بقية الفصول . وانا اعلم ان ذلك ليس صحيحاً ولكن محمد العوض كاد يقنع جميع من حولنا من التلاميذ بصدق دعواه ، وكاد و هو يشير الي الاستاذ ويسخر مني ان يعلن علي الملأ - ويقيني انه لو علم لفعل - مقولة أبي الطيب في سيف الدولة وعن نفسه :

إذا شاء أن يلهو بلحية احمق # أراه غباري ثم قال له الحق

ولله الحمد والمنة ان محمد العوض لم يكن أبا الطيب وان الاستاذ محمد المأمون لم يكن سيف الدولة ، وان كاتب هذا السطور لم يكن صاحب لحية حتي يمكن ان يرمي

بالحمق او الحماقة ، وان « غبار » محمد العوض لم يكن سوي « مثار النقع » الذي تحركه دعاياته العابثة في نفوس اترابه ولكن سرعان مايستيقنون انها بعض طرائفه التي لاغبار عليها . ولو انك اخذت كل ضحكة من ضحكات محمد العوض عليك مأخذ الجد من اول وهلة دون ان تنفذ الي مقاصدها الدعايية العابثة البريئة لأشقيت نفسك شقاء ولتعذر عليك التعامل معه ببسر وبساطة ولحزمت روحك من اغني كنز من كنوز المرح عرفته ام درمان الاميرية في تلك العهود . وذلك ان محمداً كان زهرة مجتمعنا المدرسي يضوع بالعطر والشذي . وقد عرف فيه الاستاذ محمد المأمون هذه الغلاء فاكبره وعاملة باللطف واللين ، ولم يكرهه علي السباق وكان يكرمه احياناً بمهمة التحكيم وينفذ احكامه وأقضيته . ورغم ان محمداً يستحق هذا الاكرام إلا ان الاستاذ محمد المأمون لم يكن يجهل سلطة لسان محمد العوض ولا مقدرته الخارقة علي التأثير في المجتمع المدرسي بأسره وخاصة حينما يكون موضوع الحديث متعلقاً بسيرة احد الاساتيد . فكان من ذكاء الاستاذ محمد المأمون ان حفظ لمحمد العوض مكانته التي هو أهل لها وكفي نفسه في ذات الوقت شر ذلك اللسان الذي يمكن - إن اراد صاحبه وفي خفاء تام - أن يحيل بقاء الاستاذ إلي جحيم لايطاق . ولقد عجبنا في أول أمرنا للمعاملة الكريمة التي تلقاها محمد العوض من الاستاذ محمد المأمون من أول وهلة . ولكن ذلك العجب زال عنا بعد حين عندما علمنا أن أستاذنا كان علي قدر طيب من الإلمام بسيرة أولاد الفصل ، وقد بلغته عن محمد العوض انباء افاد منها في بناء الاسس التي قام عليها تعامله معه ومع بقية التلاميذ . فهو قد سمع بقصة التلميذ الذي اخذ من محمد العوض قطعة من الطعمية فجعل منه محمد بنكل ( PINKLE ) الذي يسرق كل شئ واوسعه هزأً وسخرية . وسمع بقصة « دمشق نمرة اثنين » التي كادت ان تزهد علي محمود طه في المدرسة . وبلغته الانباء عن مقدرات محمد العوض الهائلة علي ابتداع الالقاب والاسماء والكنيات التي تلتصق بمن يطلقها عليه التصاقاً وربما صارت بالنسبة له مصدر شقاء وحر ج . علم كل ذلك عن

محمد ولكنه علم ايضاً انه تلميذ نكي لبق حاضر البديهة دافق الحيوية فصار يحترمه احتراماً واضحاً ويوليه عناية زائدة . ولقد افلح الاستاذ محمد المأمون في انتهاجه لهذه السياسة الرشيدة في تعامله مع محمد العوض اعظم فلاح وكف عن نفسه « بوائق » لسانه بأيسر السبل ، ولولا ذلك لخلد الاستاذ محمد المأمون في اذهان تلامذة تلك الازمان بلقب او اسم قد لايرضيه وقد يغضبه . وكان من الاساتذة القلائل الذين رضي عنهم محمد تمام الرضا ولم يجعلهم هدفاً لسخريته في اي وقت من الاوقات .

لقد تفرد الاستاذ محمد المأمون من بين زملائه بشيئين كانا مثار اهتمام التلاميذ ومبعث دهشتهم وتعجبهم في ذات الوقت . اولهما هو ولعه الظاهر بالرياضة واقباله علي ممارستها مع تلامذته جنباً الي جنب . وهذا امر لم يكن يحفل به اكثر الاساتذة الآخرين ، وقد كان ذا اثر بالغ في التقريب بين هذا الاستاذ وتلاميذه . وهو يتماشي تماشياً منطقياً مع روح التواضع التي تميز بها والتي وسمت تعامله معهم فكان اذا لقيهم في فناء المدرسة التقوا من حوله التفاف قرب وإعجاب وطفقوا يناقشونه في مختلف القضايا التي تتسع لها أفهامهم وهو يبادلهم ضاحكاً مرحاً ألوان الحديث .

وإذا كانت مثل هذه اللقاءات العابرة لا تكلفه شططاً يذكر ولا تأخذ من وقته إلا بضع لحظات قصار فان مجيئه الي جامع الخليفة في « العصاري » خصيصاً ليلعب معهم كرة القدم او كرة الشراپ ويديريهم علي السباق ورياضة الجري ويشاركهم في ذلك مشاركة حقيقية قد كان امراً جديداً بالنسبة لهم ربما لم يحدثه في الماضي استاذ غيره او انه كان نادر الحدوث . فالاستاذ في نظرهم كان صاحب هيبة تمنعه من مثل هذا القرب اللصيق . ولقد ابان لهم الاستاذ محمد المأمون غير ذلك ، واقنعهم بالممارسة الفعلية ان هيبة الاستاذ ليست رهناً بابتعاده عن تلامذته ، بل ان هذا الابتعاد لايرث إلا هيبة زائفة ، ولا يكون الامتثال للهيبة الزائفة الانفاقاً ومداهنة ومداجاة . ولقد كسب الاستاذ محمد المأمون بسلوكة الموفق مع تلامذته مرتين : فهو قد اقترب من وجدانهم وألم بحقيقة مشاعرهم فأحبوه ، وفرض هيئته عليهم دون إكراه فوقروه وعلا ذكره في



السنتهم . ومن يدري ، ربما كان غيره من الاساتذة « الناشفين » - كما يسمي التلاميذ بعضهم - يحملون في دخالهم مثل هذا الصفاء والنقاء ولكنهم بابتعادهم عن تلامذتهم صاروا كأسفار مغلقة عجز الصغار عن الاطلاع علي ما بين دفتها وان كان كله خيراً عميماً . فاذا كان من بعض هموم الاستاذ ومقاصده ان يتفهم نفسية تلميذه فان هذا يقتضي القرب ويفرضه . واذا كان حسن التلقي عند التلميذ لا يتصور الا بوجود الثقة في الاستاذ فان هذه الثقة لا يمكن ان تتأني إلا عن قرب يصرف الخوف ويبدله بالامان . وان تكمل ثقة التلميذ بنفسه ليبيدي عن مقدراته الحقيقية إلا في جو تتكامل فيه هذه العناصر وتتحد وتتناسق . فالقرب الهادف بين الاستاذ والتلميذ هو الذي يثمر المعرفة ، وهو التعامل المبتغي الذي يصنع اجيال المستقبل المقتدرين ويكمل رسالة اساتذتهم علي خير الوجوه . ولقد كان الاستاذ محمد المأمون واحداً من الاساتذة الذين ادركوا ذلك فأعطوا عطاء حق لهم ان يفاخروا به ويباهوا .

اما الشئ الثاني الذي كان مثار اهتمام تلامذة هذا الاستاذ المحبوب ومبعث دهشتهم فقد كان هو عجزهم عن تحديد لونه الكروي . فقد تضاربت الآراء حول انتمائه الكروي تضارباً شديداً . فقال قوم انه هلالبي وهم الاكثريه . وقال آخرون إنه موردابي وقد ساعدهم علي هذا التصنيف ما كان يوليه محمد العوض من معاملة كريمة وصفت بانها خاصة . وقد فات عليهم انها لم تكن خاصة بالمعني الذي يتبادر إلي الذهن وان كانت كريمة بالفعل وان اسبابها الحقيقية انما تكمن في مواهب محمد العوض الكثر وليس من بينها انتماء محمد الكروي . وأرجف فريق ثالث - وعلي رأسه الهاشمان - ان الاستاذ مريخابي . وكان هذا الارجاف وليد تخلف الهاشمين عن مباريات السباق اثر اخفاقهما في بعضها وطعنهما في تحكيم محمد العوض الامر الذي لم يحفل به الاستاذ محمد المأمون ولم يلق له بالأ . فكان هذا الاتهام بالمريخابية من باب التعريض بالاستاذ ولذلك اعرض عنه الكثيرون ولم يقيموا له وزناً يذكر . وعلي الرغم من ذلك فقد ظلت الحيرة مسيطرة علي اذهان التلاميذ ، فهو مع كلفه بالرياضة

عموماً ومشاركته لهم لعبة كرة القدم الا انه لايفصح عن هويته الكروية ولا يبدو علي ملامحه حزن عميق او فرح غامر اذا انهزم هذا الفريق او انتصر ذلك . وهذا امر محير بالفعل فقد قل في تلك الازمنة من لم تحركه الانتصارات او الهزائم التي يحرزها او يمني بها هذا الفريق او ذاك من الفرق الكروية الرياضية الكبرى في البلاد ، وندر من لم يكن حزنه عميقاً او سروره بالغاً حسب نتيجة المباراة المعينة وحقيقة انتمائه الكروي . ومن العجب ان الذي أراحنا من هذه الحيرة وحل طلاسمها لنا حلاً مقنعاً لم يكن سوي عبد الكريم . واعجب من ذلك انه استند في ابتداعه لهذا الحل - فيما يقول - علي القاعدة الرياضية ( او الحسابية ) المعروفة : « نفي النفي إثبات » . فطلع بذلك علي أذهانتنا بحيرة جديدة ! فهو الذي بلغ من برمه بدروس الرياضيات ( أو الحساب ) انه كان يستخدم ادواتها في كل انماط هرجلته الموسيقية مما يبين عن استخفافه بها او بما صنعت من اجله . ثم هو بعد كل ذلك يحاول ان يقنعنا بأنه قد هدي الي حل ألغاز الانتماء الكروي لاستاذ من الاساتذة عن طريق استخدام هذه القاعدة الرياضية الحسابية ، قاعدة نفي النفي اثبات ! ولكن حيرتنا معه لم تطل ، فقد وضح الامر توضيحاً حين قال في تطبيقه لهذه القاعدة ان المريخاب عموماً يسكنون حي ود نوباوي والاستاذ محمد المأمون لايقطن هناك ، وان المورداب عموماً هم اهل حي الموردة والاستاذ ليس من ذلك الحي ، وان غالبية الناس في حي أبي روف وبيت المال هلالاب والاستاذ محمد المأمون يقيم في حي أبي روف . وبهذه البساطة افتي عبد الكريم بهلالابية الاستاذ محمد المأمون . ولقد أثارت هذه الواقعة سخرية محمد العوض فأشاع في الناس - وبالطبع من وراء ظهر عبد الكريم - ان عبد الكريم سيطلع علينا باكتشاف رياضي جديد يدور حول قاعدة جديدة سوف يعلن عبد الكريم أنها : إثبات الاثبات نفي ! فالذي طبق تلك القاعدة بهذه الصورة قادر علي ابتداع قاعدة جديدة لن يجرؤ احد منا علي ردها عليه . ولكن اعجب من كل ذلك ان التلاميذ اكتشفوا في نهاية الامر ان الاستاذ محمد المأمون هلالابي بالفعل لأن جميع اهله هلالاب . ولقد صدق

عبد الكريم وبرهن برهاناً قاطعاً علي ذكاء فطري يبلغ به النتائج الصائبة وان استصحب في سبيل ذلك منهاجاً يجانب الصواب . الم اقل لك ان عبد الكريم كان فيلسوفاً حكيماً ؟

فانظر معي بعد كل هذا الذي ذكرنا عن مدني قرب الاستاذ محمد المأمون من تلامذته كيف ان هذا الاستاذ قد ملأ ذكره الافاق وشغل الناس . ولولا هذا القرب وهذا النهج الصائب الذي انتهجه في تعامله مع تلامذته لما انشغلوا به الي هذا الحد ولما كانت كل هذه السطور التي تحدثت عن سيرته بين يديك ، ولما اجهد عبد الكريم نفسه هذا الإجهاد ليخرج علينا باكتشافه البارع الذي بناه علي قاعدة حسابية متينة وصحيحة . وهي في حقيقتها تذكر بتلك المعادلة التي تعلمناها فيما بعد في المدرسة الثانوية وتمكنا استناداً عليها ان نبرهن برهاناً قاطعاً ان واحداً يساوي اثنين . وانت اذا لم تصدقني فاستدع مابقي في نفسك من اثار علم الحساب او الرياضيات وانظر ماذا تري في هذا المنطق الرياضي :

لنفترض ان  $a = b$

إذا  $a = 2a$

إذا  $a - 2a = 2b - 2a = 2(b - a)$

ومعلوم ان  $a - 2a = (a - a) \times (a + a)$

إذا  $(a - a) \times (a + a) = 2(b - a)$

فاذا اسقطت  $(a - a)$  من جانبي المعادلة بقي معك :

$a + b = b$

ولما كانت  $a = b$  من افتراضنا الاول

إذا  $2b = b$

إذا  $2 = 1$

فأنت تري بعيني رأسك وبالبرهان القاطع الذي امامك ان واحداً يساوي اثنين .

فكيف تأخذ علي عبد الكريم لجوءه الي قاعدة ثابتة ومعروفة في علم الرياضيات - وهي ان نفي النفي اثبات - استطاع بها ان يكشف لك عن حقيقة الانتماء الكروي للاستاذ محمد المأمون الريح ؟ وهو لم يكتف بهذا البرهان العلمي الساطع بل انه اشار الي اهم القرائن وهو صلة الود التي كانت قائمة بين هذا الاستاذ واحد العاملين في المدرسة وهو عم عوض سالم . وكان عم عوض سالم رجلاً طويل القامة فارع الطول ابيض لون البشرة كأنه خواجة ، غير انه لايرطن الانجليزية كما علمنا . وهو اهم العاملين في المدرسة علي الاطلاق في نظر التلاميذ وذلك لسببين رئيسيين . الاول انه كان في المدرسة مسئولاً عن تجهيز كل ادوات لعبة كرة القدم وتهيتها للمباريات التنافسية بين فرق الفصول والمنازل او بين التيم الاول والفرق التي تأتي من خارج المدرسة لمنازلته . وعلي رأس هذه الادوات نفخ الكرة بالمنفاخ والتأكد من سلامتها وجودتها ومقدرتها علي الصمود طوال « الماتش » . ومن بين هذه الادوات ايضاً « الفنايل » والفاولات وأحياناً « الكدارات » حينما يكون الامر متعلقاً بالتيم الاول الذي هو وجه المدرسة المشرق . واما السبب الثاني - وربما كان هو الاهم وان لم تكن له علاقة مباشرة بالمدرسة - فهو ان عوض سالم كان يطلع بذات هذا الدور في نادي الهلال . فكنا كثيراً ما نلقاه في نادي الهلال مع عم صباحي الذي كان بمثابة امين النادي ، وخاصة ابان الفترة التي كان نادي الهلال الرياضي طوالها في شارع العرضة الحالي ، قريباً من التخوم الغربية القصوي لام درمان تلك الحقب . من هذا يتبين لك ان عم عوض سالم كان رجلاً ذا خطر شديد وأهمية بالغة بالنسبة للتلاميذ وهو بالقطع روح فريق الهلال لأنه هو الذي ينفخ الكور ويعدّها للمباريات فهو الخبير بأمرها العليم بأسرارها . واذا كانت اواصر الود الحميم قائمة بين الاستاذ محمد المأمون الريح وعم عوض سالم - وهذا امر تأكد منه عبد الكريم وكان ظاهراً أمام اعين التلاميذ جميعاً - فان ذلك دليل قاطع ، او قل قرينة حالية قوية لا يمكن أن يتطرق اليها الشك - ان الاستاذ محمد المأمون هلالابي ممعن في الهلالية موغل فيها . لقد استعان عبد الكريم بهذه القرينة المفحمة ليعزز بها

نتائج نظريته الحسابية التي افضت به الي تحديد الانتماء - او قل العشق - الكروي  
 للاستاذ محمد المأمون بصورة تقطع الشك باليقين . وهكذا فقد اجتمع لهذا الاستاذ -  
 في نظر اغلب اولاد فصلنا علي الاقل - جميع الفضائل : فهو هلاابي من اود  
 اصدقائه عم عوض سالم نافخ الكور الاول لنادي الهلال ، وهو بسيط لايلبس البدلة إلا  
 فيما ندر ، وهو صاحب روح اجتماعية نادرة المثال لأنه « يتونس » مع تلامذته اثناء  
 فسحة الفطور وفي العصريات في جامع الخليفة ، وهو متواضع يلعب معهم بكرة  
 الشراب او الكفر حسبما يتفق له ، ويلبس اثناء ذلك الجزمة الباتا والشورط ويجري  
 معهم جميع أشواط السباق ، ولم يبق له من أن يصير واحداً منهم بالفعل إلا أن يرتاد  
 معهم سوق الزلعة او « يتشعبط » معهم حيطة دار الرياضة الشمالية او يتزاوغ معهم  
 من كمساري الطرماج ومفتشه حتي يضطر للنزول اثناء الكشة عديل او عكس مع كل  
 ما يمكن ان يترتب علي النزول العكس من بهدلة وكشف حال . وهو فوق كل هذه  
 المواهب استاذ مقتدر يدرس الانجليزية بكفاءة عالية فلا يلحن ولا تختلط عليه الفاظ  
 هذه الرطانة ولا تستعصي عليه ألغازها . ولذلك فكلهم أحبوه واقتربوا منه ونعموا  
 دهرأ بذلك القرب والاقتراب .

كشف الغطاء له فكل عبارة # في طيها «للسامعين» ضمير

لم يعيه لفظ ولا معني ولا # غرض ، ولا نظم ولا منشور

## الغول وعم حسين .. وا لخل الوفي :

كان الاستاذ حسين الغول ربعة ممتلئ الجسم في قوة ظاهرة تنتظم الاعضاء فلسنت  
 تري فيه - علي امتلاء جسمه - أدني أثر للترهل أو السمنة أو الوهن . وهو ذو صوت  
 جهوري أمر فيه شئ من الجبروت يشد الانتباه اليه شداً اذا تحدث ، ورغم ذلك فهو  
 صوت هادئ مستقيم النبرات مرسل الموجات ، لايرعبك ولايخيفك اذا وجه اليك ولكنه  
 يجتذ بك اجتذاباً ويستحوذ علي احترامك ويدعوك الي الامتثال وأنت راض بما يقضي  
 به او يشير اليه . فهو لايشبه صوت الاستاذ محمود بلال رزق الا من حيث وفرة سمكه ان

صح لنا ان نصف طبقات الاصوات بالسلك ، ولا يهبط الي انخفاض صوت الاستاذ محمود الضرير إلا من حيث استقامة موجاته علي نسق واحد حتي ليكاد الصدي الذي يتبعه لصيقاً به ان يرسم علي صفحات الأثير خطأ مستقيماً خالياً من التعرج والذبذبة ليس فيه عوج ولا أمت . هذا الاعتدال هو خاصية تميز بها صوت الاستاذ حسين الغول. فهو نسق واحد في ارتفاعه ونسق واحد في انخفاضه وان كانت اغلب حالاته الارتفاع . وما كان ذلك الارتفاع يحدث نتيجة غضب او انفعال ولكنه بعض طبيعته التي فطره الله عليها « مفترعاً من فمه سر البيان فنطق » كما قال التجاني يرحمه الله . ولعله الصوت الوحيد من بين الاساتذة الذي لا يتغير بتغير المزاج إلا فيما يختص بالعلو والانخفاض ، وهما أمران يتحكم فيهما الاستاذ حسين احسن تحكم ، وذلك دون جهد أو عناية خاصة تذكر . وليس معني ذلك انه لا يغضب . فهو يغضب كما يغضب الناس ويرضي كما يرضون . ولكنه اذا غضب فان عجيبرته لارتفع عن المؤلف وانما ينم عن غضبه طيات نواطق علي جبينه وبعض احمرار في عينيه اذا خلع عنهما المنظار. أما اذا رضي فانه لا يدل علي رضاه انخفاض صوته أو ارتفاعه أو استقامته علي ما كان عليه قبلاً ، وانما يدل عليه انطلاق ظاهر في وجهه واقترار بين عن ثغره وبسمة قصيرة المدى تتناهي الي ضحكة خافتة عجلي سرعان ما يلملمها ويخفيها في غضون وجه لا يبقي فيه من اثرها الا مثلما يبقي من اختصاب الافق بذلك اللون القرمزي الممتع في أوقات الغروب .

والاستاذ حسين الغول يختلف عن زملائه الاساتذة من وجوه أخرى أيضاً . فلست أذكر أنني رأيته يرتدي البدلة الكاملة في وقت من الاوقات ، وانما تغلب علي ملبسه البساطة التي هي من شيمه وبعض شؤونه التي يعبأ بها ويحرص عليها تمام الحرص . فأكثر ظهوره في البنطلون الازرق أو الاسود او الرمادي - فهو قليل الاحتفاء بالألوان الفاتحة - والقميص الابيض ذي الاكمام القصيرة او الطويلة . وهي بساطة يلمحها التلاميذ في هندامه ولكنها لانمتد الي رفع الحجب والاستار بينه وبينهم إلا في حدود

معلومة لا تتعدها ، وهم قد ابصروا هذه البساطة في اروع صورها واقرب معانيها الي مشاعرهم عندما يكون الاستاذ حسين الغول مع زملائه المدرسين ، وذلك انهم يسترقون السمع في بعض الاحايين بغية الامام بعوالم الونسة التي تجري بين الاساتذة وقد خفيت عليهم مادتها واسرار حيويتها التي كانت تثير في بعضهم شيئاً من الغيرة وكثيراً من الفضول ، اما الفضول فانه من خصائص الطفولة التي فطرت علي حب الاستطلاع والسعي الي ادراك كل ما خفي وانبهم ومحاولة فك الطلاسم وفتح رتاج المجهول ، واما الغيرة فقد كان مبعثها الاعجاب بتلك الاسرة المتحابية من الاساتذة التي بلغ التجانس بين افرادها درجة عالية لم نسمع معها ابداً بشجار او عراك نشب بينهم كما كان يحدث بين التلاميذ ، ومن عجب ذلك في نظر التلاميذ الصغار ، لأن مجتمع الاساتذة كان فيه ايضاً المريخاب والهلالاب والمورداب ، ورغم ارتفاع راية التعايش السلمي بين التلاميذ علي اختلاف انتماء اتهم الكروية عموماً إلا ان المنازعات والمناكفات والشجارات فيما بينهم لم تكن نادرة الحدوث ، اما بين الاساتذة فانها لاتحدث ابداً لا في السرولا في العلن ، ولو ان شيئاً من ذلك وقع لتناقلته الألسن ولسار بحديثه وخبره الركبان ، وقد لاحظ التلاميذ ان الاستاذ حسين الغول محبوب بين زملائه المدرسين اثير عندهم ، ويبدو انه صاحب ملح وطرائف ، لأنه كلما اجتمع بهم وتحديث اليهم تعالت ضحكاتهم من كل جانب وغمزهم المرح وعلت وجوههم علامات الارتياح ، وبان جلياً وهم يستمعون إليه انه هو منبع النوادر التي يسعدون بها ويمرحون ويضحكون حتي تبلغ نبراتهم درجات الصخب والضجيج . ولقد حيرنا هذا الامر كثيراً ، لأن الاستاذ حسين الغول لا « ينكت » في الفصل ولا يروي لنا من هذه الملح والطرائف شيئاً ، ولا يعبأ بطرائفنا وملحننا ولا يبدي استعداداً لسماع شئ منها . ولكنه يصير مع زملائه الاساتذة شخصاً آخر غير الذي نعرفه في الفصل ، فيرسل نفسه علي سجيتها ويقص عليهم مايسرهم وينتزع منهم الضحك والاعجاب ، فهو بينهم مثل محمد العوض بيننا حكيم عراف بصير بانتقاء الطرفة والدعابة التي تستجلب المرح

وتخفف من ثقل هموم الحياة وتخلع علي الامور كلها معان قشيبية تسمو بالروح وألواناً زاهية تسر الناظرين . ولكن الشئ الذي كان يحيرنا هو ان الاستاذ حسين الغول الذي تمتد حصته الواحدة معنا الي قرابة ساعة من الزمان لا يجد وقتاً ليطلعنا اطلاقاً مباشراً علي ذلك الجانب المرح من شخصيته وانما يضمن به علينا ضمناً ويخفيه عنا إخفاءً حتي إذا لقي زملاءه فاجتمعوا من حوله وهم يتطلعون اليه افضي بهم في دقائق معدودات الي حالة من الفرح والحبور تنبئ عنها ضحكاتهم المرححة التي لا ينفكون عنها حتي يغادروهم الاستاذ حسين او يباغتهم الاستاذ محمود بلبل رزق او تأذن هي بأنحسار اسيان اذا صلصل جرس عم مبارك وأذن بالانتقال من حال الي حال . فاذا انفض السامر اثر هذه الصلصلة ظلت اصدااء ذلك المرح قريبة من الاسماع وبقيت ملامح اثاره عالقة بالوجوه . ولقد زاد من حيرة التلاميذ ان الاستاذ حسين الغول بسيط في مظهره كما قدمنا وان هذه البساطة مغروسة فيه وطبع من طباعه وليست مظهراً من المظاهر المصطنعة ، ولكنها رغم ذلك لا تطوي المسافات التي تمتد بينه وبينهم بما يكفي ، ولاتدفعهم الي الدنو منه اكثر مما يجب . غير أنهم يحترمونها ويجلونها ويعجبون بها ، ويتمنون لو أنها ترامت بظلالها لتلقاهم أكثر مما هي عليه . ولربما كان بعض اسباب ذلك انهم تلقوا بواكير معارفهم في لغة بني السكسون علي يديه وحملها الي اذانهم وعقولهم منه ذلك الصوت الجهوري الامر المستقيم . ففي تلك الازمان الغابرة كان دخولك المدرسة الوسطي يعني نقلة كبري من دنيا الكتاب - أو المدرسة الأولية - الي عوالم الابتدائي أو المدرسة الوسطي حيث دروس اللغة الانجليزية التي يمكنك اذا اتقنت من اولياتها شيئاً ان تطلع بأولاد حارتك الجووان تصبح في نظرهم « خواجه عدیل » إلا من البدة و« الكرفته » والكوس . واني لانكر جيداً كيف سألتني شقيقتي وهي بعد في المدرسة الاولية ان كان حقاً اننا نتعلم في مدرستنا الانجليزي . فلما أكدت لها ذلك قرأت في عينيها الريبة في قلبي ، وطفقت تمطرني بوابل من الاسئلة الساذجة : طيب انا اسمي بالانجليزي شنو ؟ وانت اسمك



بالانجليزي شنو؟ وهل ممكن تضحك لينا بالانجليزي؟ وهي لم تشعرني انها مصدقة لكلامي تماماً حتي بعد ان اريتها ريدرون . ( Reader One ) والكومبانيون التابع له . تلك هي سداجة الطفولة وذلك هو حب الاستطلاع البرئ المقترن بها اوثق الاقتران . ولما قلت لها ان استاذنا الذي يعلمنا اللغة الانجليزية اسمه حسين الغول ضحكت ضحكة مشوبة بالخوف وتساعلت بما يشبه الاستنكار : كمان بيدرسكم الغول؟ ولست ارتاب في ان الغول الوحيد في عالمها لم يكن سوي ذلك الذي كثيراً ما نامت علي اقصيصه ترويها عليها « حبوبتها » تحت ضوء القمر البلوري السائل من سماء صافية كأنها لم تعرف في حياتها الغيوم . وحق لها ان تستغرب هذا الاسم فقد استغر بناه قبلها ولكننا ابصرنا بأعين رؤسنا - ولأول مرة - شخصاً يحمل اسم الغول . فالغول لا يدرس الناس ولكنه يأكلهم اذا عثر بهم . وهو يرعبهم علي اقل تقدير وهم يصطرخون ويفزعون لمجرد سماع اسمه لأنه مرتبط دائماً بتهديد بقائهم علي ظهر البسيطة . فالغول عند الصغار مخلوق ضخم يلتهم البشر التهاماً ولا يمكن وصفه بأي نوع من الدقة لأن من يراه لا يمكن ان ينجو منه فكيف يمكن ان يقف علي اوصافه الحقيقية انسان؟ واما عند الكبار الراشدين العقلاء فهو اول المستحيلات الثلاث . ألم تسمع قول الشاعر:

ولقد علمت المستحيل ثلاثة # الغول والعنقاء والخل الوفي؟

ولكن هذه الثلاثة ليست مستحيلة عند الصغار . فنحن قد رأينا الغول وهو استاذ محترم يدرس اللغة الانجليزية ولو لم يكن غولاً لما تسني له ذلك . وتعبير « الخل الوفي » ربما كان لغة ليست سهلة الفهم علي عقول الاطفال ولكنهم يعيشون معناه فيما بينهم ويطبقونه أروع تطبيق . وأما العنقاء فلا يشتغلون بها أصلاً لأنها لم ترد ابداً بين احاجي الحبوبيات . ومجمل القول ان الاستاذ حسين هو اول غول بشر مسالم حقيقي نلتقي به في حياتنا . ولذلك كان للاستاذ حسين الغول في نفوسنا منزلة خاصة . فهو اول من علمنا حرفاً باللغة الانجليزية منذ ان وطئت اقدامنا اليافعة الغضة أرض فصل

التواني ومنذ ان كان ذلك الفصل في بدء امره - ولم يتجاوز الاشهر القلائل - في ذلك  
الموضع القريب من حي بيت المال . وهو مدرسة لاتزال قائمة حتي اليوم لم تمسسها يد  
التغيير طوال هذه الأزمنة المتعاقبة بشئ يذكر سوي مئذنة قصيرة لا تبعد عن مسجد  
الحي الرسمي إلا بخطوات قلائل وأنها صارت مدرسة من مدارس الاساس يؤمها  
اطفال في السادسة من اعمارهم بعد ان كانت مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي «  
التواني» . وفي هذا ما يذكر بمعنى التقدم والتطور عندنا في السودان ! غير ان هذا  
امر آخر لسنا بصدد الحديث عنه في هذه الصفحات<sup>1</sup> . فالذي يهمننا هنا هو استاذنا  
حسين الغول ، الذي كنا نباهي به في احيائنا السكنية بين الاولاد الاخرين ونروي عنه  
العجائب والخورق .

ومن عجب اننا تعرفنا في ود نوباوي علي عم حسين الغوال في استراحة الدائرة .  
وقد أطلق عليه اهل الحي اسماً عرف به بين الناس ويمنعني الحياء من ان أصرح به  
علي هذه الصفحات . ولكن الناس لا يعرفونه اذا لم يقترن هذا الاسم الغريب باسمه  
الاول ولست ارتاب في انه هو نفسه لم يسمع بهذا الاسم الذي اشتهر به شهرة ليس  
عليها من مزيد لأنه لا يجرو احد ان يناديه بهذا الاسم في وجهه . فهو عم حسين . وهو  
رجل قصير ضخم البنية سهل الطبع بشوش ضحوك له وجه طفل ومشية طفل وبرائة  
طفل . فاعجب لرجل عرف باسم يعلمه جميع الناس إلا هو نفسه ! ورغم انه لم تكن  
هناك مقارنة تذكر بينه وبين الاستاذ حسين الغول إلا ان عبث الطفولة كان يحبب الينا  
اختلاق هذه المقارنات وان كانت في حقيقتها مفارقات .

فعم حسين لا يدرس الانجليزي ولا العربي واغلب الظن أنه لا يفك الخط ولكنه  
صاحب « قدرة » فول يتحلق من حولها في الامسيات خلق كثير . فاذا افتخر ابن  
الحجام وهو يباهي بصنعة ابيه ليجعل لها شأناً بين الناس فانك تسمعه ينشد في زهو  
واعتماد :

انا ابن من دانت الرقاب له # ما بين مخزومها وماشمها  
تأتي اليه الرقاب صاغرة # فيأخذ من مالها ومن دمها

ومثل هذا القول يثير الغيرة في نفس ابن الفوال لأنه يعتبر أن صنعة الحجابة لا تساوي شيئاً بالنسبة لصنعة أبيه . ولذلك فهو يرفع رأسه عالياً وينشد في وجهه رداً عليه :

أنا ابن الذي لا ينزل الدهر قدره # وإن نزلت يوماً فسوف تعود

تري الناس أفواجاً إلي ضوء ناره # فمنهم قيام حولها وقعود

فالناس أفواج حول ضوء نار عم حسين ، منهم قيام حولها وقعود وذلك ان صحن الفول عنده يشبع الفيل ، ليس كصحن فول هذه الايام الذي لايشبع فأراً وتبلغ تكلفته قرابة ألفي ضعف لما كان يتقاضاه عم حسين عن صحن فول « زي الفرصة » مترع بزيت السمسم وليس بزيت « الغلغل » الذي يتجرعه اطفالنا اليوم مع حبات الحصي التي صارت تسمى فولاً مجازاً أو « موية » مايشبه الفول حقاً وصدقاً . وعم حسين رجل كريم لا يبخل عليك « بوصلة » ان طلبتها منه في ادب ولباقة ، والفول عنده دائماً « مصلح » وأحياناً بالسمنة لبعض الاثيرين عنده من اولاد الحي . واطباقة دائماً نظيفة وهي « صحانة الطلس » الانيقة التي ليست كمثل « صحانة » هذا الزمان القلق البئيس « المطرقة » التي تسمى « ألمونيا » وهي ليست من « الألومينا » الحقيقية في شئ . ليت شعري متى يرحل عنا الي غير رجعة هذا الجذب والقحط والمحل الذي صارت فيه رغبة العيش التي تشبه ذنب السحلية امنية عزيزة المنال بالنسبة لخلق الله الجياع .

ولقد كان عم حسين رجلاً ظريفاً بحق فهو دائم الابتسام كثير الضحك والقهقهة ولا يغضب أبداً من احد واذا كنت مفلساً وتتوق نفسك الي صحن الفول فهو لايردك أبداً بل يسلفك ولا يلاحقك وان كثر تردك عليه . فهو يجلس علي عنقريه لا يتحرك منه الا نادراً لأن جسمه الضخم لا يواتيه في الحركة . ومن ذلك العنقريب يدير مؤسسة كاملة ابرع ادارة . فهو قد اتخذ كاتباً يجلس علي « بمبر » بمقربة منه لا يغادر تعريفه علي احد إلا وسجلها في دفتره قبالة اسم صاحبها . فاذا طلع الشهر الجديد هرع الجميع بسداد ما عليهم من ديون لاتتعدى في اغلب حالات السرف بضع ريات . ونحن لم

نسمع ابدأ بأحد فر بدينه من وجه عم حسين . ولم يكن ذلك ابدأ لان عم حسين صاحب يد لاحقة كما يقولون وانما كان ذلك لأمرين لا ثالث لهما : اول هذين الامرين واكثرهما اهمية هو ان الفرار بالدين من وجه الدائن كان في تلك الازمنة سبة ولذلك فهو عنقاء الصغار وثاني المستحيلات في خلائقهم وان صار هذا الفرار في هذه الازمنة « اللعك » الغبراء التي نعيشها مسلماً موسوماً بالشطارة والذكاء لأنه جلوب لصاحبه الثراء العريض من معادنه حتي بعد وقوعه في يد السلطان واجراءات التسوية المعروفة . وذلك ان قاعدة « المال تلتو ولا كتلتو » اصبحت من من قواعد المجتمع المتعارف عليها والتي تطبق في كل صباح . فاصبح صاحب الحق مثل المذكور في سنة الوصية له « الثلث والثلث كثير » ! واما الثلثان فانهما - بعد اجراء التسويات بزمان قصير - ينبتان العمارات الشاهقة ويستوردان السيارات الفارحة شبحاً كانت أو أوتومبيلات نوات أصلاب ضخام لأقوام عرفوا كيف يتحايلون علي الناس والتقاليد والقانون . واما الامر الثاني الذي كان يجعل الناس يسارعون بسداد ديونهم لعم حسين فهو ان عم حسين كان رجلاً مهذباً مرحاً محبوباً بين الناس وكان له من خلائقه العذبة وقاء من أن يظلم أو « يؤكل » او يجهل عليه . ومن ذكاء عم حسين انه لم يكتف بقصور الفول الراسيات بكرة وعشياً وانما امتد نشاطه التجاري الي صناعة لقيمات الشاي في الصباح الباكر . ويمكن ان تباكره من صبح الرحمن بتعريفه واحدة تعود منها الي دارك بقرطاسة ضخمة من قطع الزلابية الصغيرة لتتناول شاي الصباح « وتتك الريق » ثم تمضي الي مدرستك في نشاط وغبطة لا تعوزك الطاقة والقوة علي السير بقدميك او المخاطرة بركوب الطرماج مع كل ما يمكن ان يترتب علي ذلك من زوغان من الكمساري والمفتش او نزول مفاجئ الي الارض والمركبة تكاد ان تطير في الهواء من فرط السرعة وانتهاج القضبان .

ورغم أن عم حسين كان يعلم أن له بعض المنافسين في صنع « اللقيمات » في الحي إلا انه لم يكن يخشاهم او يعبأ بأمرهم كثيراً . فعنده ان لقيماتهم مثل « الحمبك »

ويعتبر ذلك تطفيفاً صريحاً في الكيل ، وذلك لانه رجل يخاف الله ولا يخاف الناس .  
غير انه كان يحترم واحدةً من منافسيه ويصفها بالأمانة ، وهي « امي التقييل » يرحمها  
الله . فهذه سيدة مسنة تبيع اللقيمات في حوش السيد على المهدي . وهي امرأة مرحة  
ضحوكة جذابة ، تزيدك على بيعك ثلاث أو أربع حبات لوجه الله . وأنت عادة تجدها في  
الصباح الباكر وقد تجمهر حول كانونها خلق كثير من الأولاد وناره الهادئة تنضج  
أجيالاً متعاقبة من اللقيمات بأحجام صغيرة متساوية ، ويدها المعروقة السمراء تقطف  
سرباً منها وتحشد من خلفه سرباً آخر تقلبه لينضج في سرعة وخفة ومهارة فائقة  
تماماً كخباز ابن الرومي الذي انشد في حقه :

إن أنس لا أنس خبازاً مررت به # يدحو الرقاقة مثل الملح بالبصر  
مابين رؤيتها في كفة كرة # ويبن رؤيتها حوراء كالقمر  
الا بمقدار ماتنداح دائسرة # في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

فانظر الي هذا الوصف الرائع البديع . لو أن ابن الرمي بصر بهذه السيدة الماهرة  
لما بخل عليها بمثل هذا القول المحكم البليغ . فهي مع كل هذا الاقتدار والانتقان لاتفتأ  
تقص علي زبائنها الاقاصيص والنوادر وتتحفهم مما تختزن من الملح والطرائف بكل  
محدث وتليد وتضحك مثل الطفلة الغريرة ملء الروح والاشداق . وقد عرفت في الحي  
بأنها امرأة نكية ومحسنة ، ولذلك كان عم حسين ينعتها - دون غيرها من منافسيه  
الآخرين - بالأمانة والنزاهة وحسن الاحدوثة . فكنا اذا تحول منتدي سمرنا في بعض  
الامسيات من كبري ود نوباوي الي نار عم حسين نلقاه يذكرها بالخير ويصف غيرها  
بالتطفيف وعدم الحياء .

بعد كل هذا الاستطراد قد يبدو من حق سائل ان يسأل عن علاقة كل هذا الذي

ذهبنا اليه باستاذنا حسين الغول . وهو سؤال نقول في الاجابة عليه ان عم حسين يشبه استاذنا حسين الغول ليس في الاسم الاول فحسب وانما في الاخلاق والاستقامة والامانة ايضاً . وهذه هي ملاحظة الفاضل شريف الذي ذهب في المقارنات الي ان الشبه بينهما من وجوه . فكلاهما ضحوك ممراح مع المجموعة التي تناسبه وتلتف من حوله . وكلاهما صارم في غير ماسرف تجاه زبائنه او تلامذته الصغار . وكلاهما يود ان يغادروه وهم عنه راضون سعداء بما نالوا عنده من القربي للجسم او العقول . وليس تناول الغول مساء او ابتياح قرطاس اللقيمات في الصباح الباكر من عم حسين دون عناء بأقل أهمية من متابعة حصة الاستاذ حسين الغول وهو يرطن بالعجمية الفصيحة دون مشقة تعتريه ، فيشد الانتباه إليه شداً بذلك الصوت الجهوري المستقيم . أما ديار عم حسين التي شهدت في ذات حين قدراً لا تنزل الدهر عن أثنائها فقد درست وطال عليها سالف الأمد . ثم تحولت من بعد ذلك الي مساكن ربما لم يسمع اهلها الحاليون ابدأ بخبر عم حسين . فالأرض لله يورثها من عباده من يشاء . واغلب ظني ان عم حسين قد توفاه الله فقد كان في تلك السنوات رجلاً لا أحد يستطيع ان يخبر عن عمره الحقيقي . وذلك ان وجهه كوجه الطفل براءة ونقاء وصفاءً ، فهو « أمرد » لا أثر لشعرة واحدة علي وجهه المتهلل الضحوك . واما الاستاذ حسين الغول فقد علمت من قريب إنه علي قيد الحياة اطال الله في ايامه ومتعه بالصحة والسعادة . فقد كان والله امة من المعرفة والاحاطة بمادته التي يدرسها ، عليمأ بأسرارها ، بصيراً بأسباب نقلها هونا الي ادمغة تلامذته الصغار في كفاءة وصبر وأناة ، وفي يسر وسهولة وعمق نفاذ . ولقد استن فيما بيننا وبينه سنة حسنة لا زلنا نذكرها بالعرفان والتقدير . وذلك انه اوجب علي تلامذة الفصل التحدث باللغة الانجليزية طوال الحصة وأفرد جائزة نقدية تشجيعية لمن يتفوق علي زملائه التزاماً بهذا الشرط حتي نهاية الحصة . وكان ذلك بالطبع بعد ان ابحرنا معه قليلاً علي زورق اللغة الساحرة الجديدة . وما اكثر ما كنا نمزق لغة الخواجات ونمثل بها ونستبيح حرمانها . ولكنه صبر علينا صبراً جميلاً وطفق يرقع

عنا ما تخرقه منها ألسنتنا وجهالاتنا حتي لانت لكثير منا قناة مبادئها الاولي وارעות  
وذلت لمنطقنا كلماتها وتعابيرها واحرفها وحبب اليها التحدث بها في غير اوقات  
الدروس . فتلك محمده من محامد الاستاذ حسين الغول التي لاتنسي وتلك ثمرة من  
ثمار جهده المثابر الذي لم يكن يعرف الكلال . وذلك جيل من الاساتذة ما كان لهم من  
هم سوي تنشئة تلامذتهم علي اقوي وأمتن اسس المعارف . فكانوا يعطونهم كل ما  
يملكون ويحملونهم - رغياً غالباً ورهباً نادراً - علي بلوغ اعلي المستويات . فلا جرم  
كان تلاميذ المدارس الوسطي في تلك الازمنة يخوضون تجربة امتحان « السي اس »  
( C . S ) - وهو امتحان للتأهيل للخدمة المدنية - بنجاح منقطع النظير . بل منهم  
كثيرون قد نالوا شهادة كمبرديج من منازلهم بعد سنوات من إكمال المرحلة الوسطي  
نون تلقي تعليم نظامي في مدرسة ثانوية . وقد كانت اللغة الانجليزية حجر الزاوية في  
كل تلك الامتحانات وكان النجاح فيها هو الذي يحدد النجاح ونيل الشهادة المعينة  
بصورة قاطعة . ورغم اني سعدت كثيراً اذ علمت ان استاذنا حسين الغول بصحة  
وعافية إلا اني حزنت كثيراً ايضاً لما بلغني انه قد كف بصره فتملكني الاسي علي ذلك  
البصر الحديد الذي طالما كان يري كل عيوب ما نكتب فيصلح منها ويقومها حتي صنع  
من تلامذة « ريدر ون » في تلك الحقب رجالاً تمكنوا بعد سنوات معدودة من قراءة  
واستيعاب « تنسون » « وشلي » « وقولسويرذي » « وبرتار دشو » « وشكسبير »  
واقاثة كريستي « وألفن توفلر » وغيرهم . وحق للاستاذ حسين - اطال الله بقاءه  
ومتعه بالعافية - ان ينشد معترزاً مفاخرأ ومن ورائه كل هذا العطاء الهائل الذي قدمه  
للأجيال المتعاقبة :

تعجبت در من شيببي فقلت لها # لاتعجبي فطلوع البدر في السدف  
وزادها عجباً أن رحت في سمل # ومادرت در أن الدر في الصدف

## الشيخ الذي ملأ الدنيا وشغل الناس :

إذا تم اجراء استفتاء في مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي بين تلامذة تلك العهد

حول اكثر الاساتذة شعبية واحبهم الي نفوس تلامذته واقربهم الي وجدانهم فلست ارتاب لحظة في ان الشيخ ابا بكر عبد الله - يكون هو ذلك الاستاذ . وهذا امر قد يكون مثار استغراب وحيرة عند بعض الناس الذين عرفوه في تلك العهود . فهؤلاء يعلمون ان الشيخ لم يكن شعبياً في أي من مظهره العام ومكانته الاجتماعية . اما في مظهره العام فقد كان يتخير ملابسه تخيراً فيرتدي ماغلا ثمنه ودق نسيجه وحسنت هيئته ونعم ورق ملمسه . قفطانه ناصع وجميل محكم التطريز انيق القيطان وفرجيته منمقة لمساء يومض و« يتلاصف » في لحمها وسداها حرير موزون . وحذاؤه البني او الأسود الطري اللامع مصنوع من الجلد الخالص وهو دون ريب مستورد من خارج البلاد ولا بد ان يكون غالي الثمن اذا ما قيس ذلك بأسعار الاحذية التي تنتج محلياً حتي لو كانت هذه من النوع « الوصاية » . وعلي رأسه عمامة قصيرة ولكنها ناصعة البياض ولعلها سويسرية الصنع ، تلتف في نسق واضح حول طربوش ناعم احمر قان مزركش القرص والنؤابات . واما مكانته الاجتماعية فهي تعلن عن نفسها بجلاء في رقة الملابس واناقة النعل وجمال الهيئة وتنبت عنها وظيفته الراقية كاستاذ للدين الاسلامي والقرآن واللغة العربية في مدرسة ام درمان الاميرية الوسطي التي ذاع صيتها وطبق الأفاق وكانت بحق وحقيق « حاضرة » المدارس الوسطي في البلاد علي قلة تلك المدارس ، وانتقلت بشقيها علي أيامنا الي قلب مدينة ام درمان التي هي قلب السودان بأكمله . فتلك مكانة اجتماعية مرموقة « حسن في مثلها الحسد » .

لقد تعرضنا للشيخ ابي بكر في غير ما سياق خلال صفحات هذا الكتاب . وما ذاك إلا لأنه كان في دنيا تلامذته الكثر بحراً زاخراً مليئاً بالأصداف واليواقيت وكان بين زملائه الاساتذة قمرأ منيراً في صفحة سماء صافية . صح ان يقال عنه انه ملأ الدنيا وشغل الناس ، وترك اثراً في اذهان تلامذته علي وجه الخصوص هي اشبه بذلك الدوي الذي اشار اليه ابو الطيب المتنبي اذ يقول :

وتركك في الدنيا دويأ كأنما # تداول سمع المرء أنمله العشر



فهذا دوي وذاك دوي ، وشتان ما بين دوي ينتجه العنف والاحتراب فينجلي غباره عن نقص في الأموال والأنفس والثمرات ، وبين دوي مبعثه الحيوية والفتنة وذراية اللسان فيثمر قطوفاً من المعارف واشتاتاً من الذكريات المرحه المستظرفة التي ماتزال باقية في الأذهان منذ تلك العهود . حقاً لقد ملأ الشيخ أبو بكر دنيانا الزاهية التي عشناها بين رحاب ام درمان الاميرية الوسطي وشغلنا فيمن شغل من الناس . وليس أدل علي ذلك من انه الاستاذ الوحيد الذي حاول التلاميذ ان يقفوا علي ما كل ما جل ودق من خبره حتي بلغ بهم الفضول ان يبحثوا بكل ما اتيح لهم من مقدرات علي التقصي والاستنباء عن أصوله القبلية ومنابته العرقية . فذهب بعضهم الي انه شايقي وقال آخرون انه رباطابي ، وظن فريق ثالث انه جعلي وانما نشأ وتربي في بيئة شايقية الملامح وطرائق الحديث . ولم يجرؤ احد ان يسأله عن أصله او قبيلته ولو فعل ذلك احد لجعل منه الشيخ اضحوكة بين الناس ومادة خصبة للتندر والهزء والسخرية بين الالسن . وما كان لهم ان يستبينوا عن جذوره القبلية من زملائه الاساتذة فتلك جسارة لم يكن يطيقها احد وهي ربما عادت علي السائل بما لا يحب ولا يرضي لأنها في نظر قيم الحياة السائدة في تلك الازمان قد تعتبر في حق السائل فضولاً ليس له من مبرر وحشراً لأنفه في ما لا يعنيه من الامور . غير ان اولاد الرباطاب في المدرسة كانوا يجزمون بأن الشيخ رباطابي وان لهجة الرباطاب قريبة من لهجة الشايقية ، او ان الشيخ عاش سني حياته الاولى في وسط شايقي ، ومن عجب ان التلاميذ لم يحفلوا ابدأ بتصنيف الشيخ علي اساس انتمائه او عواطفه الكروية علي الرغم من ان مثل هذا التصنيف كان بالنسبة لهم غاية في حد ذاته اذ علي اساسه كانت تصدر الاحكام بالرضا والقبول او تنفسح المسافات بالقلي والنفور . فعقيدة الاستاذ الكروية كانت تدنيه من مشاعر التلاميذ وان اختلفت عن عقائد بعضهم وذلك لأنها تشعرهم بأن الانتماء الكروي ليس عبث صغار وانما هو عشق مشروع يتقلب في نيران جواه حتي الكبار . وعندهم أن الذي يخلو من عقيدة كروية معينة - حتي وإن كانت تشيعاً لأحد

فرق كرة القدم الصغيرة - انما هو كالماء الذي ليس له لون ولا طعم ولا رائحة . ومثل هذا الماء في نظرهم لا يروي الغلة وان كان ضرورة لا تقوم من غيره الحياة . وذلك انه يحلو عندهم ويغدو مستساغاً ان كان له لون مميز ، فاللون عندهم هو الذي يعذب معه المذاق وهو الذي ينشر الشذي وطيب الرائحة . فلا بد للماء من اناء يلونه . وتلك حكمة من حكم الصغار تجد مصداقاً في اقوال الفلاسفة . الم تسمع قول المعري يرحمه الله  
ولا لون للماء فيما يقال # ولكن تلونه الأواني

ولكن الاواني قوالب لا تلون الماء حتي تحبسه وتعتقل انسيابه كما تحبس القيعان والأخايد فضول هوامي الغيوث . اما العقائد الكروية فهي ليست بالأواني الساكنة الصماء نوات الجدر والحدود ، ولا هي بالقيعان المنحفرة ، وانما هي عوالم شفيفة رحبة طليقة في وديان الحرية وسهولها لا تعترف بالحدود ولا بالأركان ، يسيل الماء فيها سيلاً فينقي ويطيب . وذلك قول الشافعي يرحمه الله :

إني رأيت وقوف الماء يفسده # إن سال طاب وان لم يجر لم يطب  
فالماء الطيب عموماً يضيق بالانحباس فيأسن لأنه مثل العطر التميم اذا ارتهنته بين ارجائها القارورة حبست شذاه وضنت به ان يضيع ، او مثل شراب فردوسي الطعم واللون لم يسكب بعد في أنية او ماعون ، فهو بعض ما اشار اليه ابو الطيب المبدع اذ يقول :

لها ثمر تشير اليك منه # بأشربة وقفن بلا أواني  
فانظر اليه كيف اخترق بخياله الخصب النفاذ أحشاء الاماد والعصور المقبلة حتي اوشك ان يقف علي ما يمكن ان يجعل منه العلم الحديث حقيقة جديدة ملموسة !  
ونحن رغم اخفاقنا في العثور علي أسس يمكن استناداً عليها تحديد انتماء الشيخ الكروي الا اننا ألفينا فيه سحراً أغنانا عن مثل هذه التصنيفات . فهو علي الرغم من انه قد ادار ظهره الي عوالم كرة القدم ومغزي التحزب لأي فريق من فرقها الا ان ذلك لم يزدنا إلا محبة فيه وتعلقاً به وشدة شوق الي « حصصه » وليس لهذا من سبب

سوي طلاقة روحه الاسرة وخفة دمه الشربات . ذلك قول ما هو من التندر في شئ  
انما هو الحق الأبلج الصراح . فالشيخ محبوب بين كل التلاميذ لا أستثنى منهم احداً ،  
علي الرغم من تجاوزه التي تعرضنا لأمثلة منها فيما تقدم من صفحات . وهي  
تجاوزات لو لم تكن صادرة من ذات صاحب هذه الخفة وهذه الجاذبية المحيطة لما  
تقبلها الناس ولجرت علي صاحبها من المتاعب ما لا يحصي . فهو يستطيع ان يشتمك  
ويشتم اباك وامك ومن في الارض جميعاً من اقاربك ، وان يضريك حتي تعيا كفه  
وتضوي ، فلا تجد في نفسك أثراً لحنق عليه أو نفور منه ، ولا تملك الا ان تضحك  
مرحاً وتتقبل جميع تصرفاته بالرضا والامتنال . بل ان التلاميذ كانوا يتطلعون لحصته  
رغبة في التلذذ بمثل هذه التصرفات التي تشكل مادة « ونستهم » العظمي وتثري  
اسباب عبثهم وديناوات ملحهم وطرائفهم بأفانين من النوادر والمتع . وأية ذلك أننا لم  
نسمع بتلميذ واحد ابلغ اباه او ولي امره بأي طرف من أطراف تجاوزات الشيخ ، ولم  
نعلم أحداً جأ بالشكوي منها لادارة المدرسة . وحقيقة الامر هي ان الشيخ استاذ حلو  
الحديث بارع في الوصف موفور الذخيرة اللغوية التي تواتيه دائماً طيبة سلسلة منقادة  
في اي افق من الآفاق التي يريد ان يحلق بك فيها ، وفي سهولة ويسر وتام توفيق .  
وهو كذلك مر شديد المرارة في ذات الوقت سواء كانت هذه المرارة صادرة تلقاءك من  
لسانه او يده . فقد أوتي أيضاً ذخيرة هائلة من قوارص الكلم تواتيه طوائع متتابعات  
دون مشقة او عناء ، وأوتي كفاً لم تغادر صفحة من وجوه اولاد فصلنا - علي اقل  
تقدير - إلا وأنزلت بها صفعات تلهب الخد وتشعل في العين البريق . اما حديثه الحلو  
الذي يواتيه فانه ينفذ الي القلوب وينزل عليها برداً وسلاماً . واما كلماته القوارص  
المتتابعات فمن عجب انها لا تفسد هذه الحلاوة إلا بمقدار ما تلهيك غصة « الشحمولة  
» الصغيرة عن متابعة اغنية هادئة رقيقة شجية اللحن موضونة المعاني والكلمات ، والا  
بمثل ما يعود به عليك حكك جلدك موضع قرصة النملة بذلك الاحساس الغامض اللذيذ  
. فالشيخ بهذه المعاني عذب واجاج ولكن في خليط سائغ لذة للشاريين . وهو حلو ومر

ولكن في مزيج مرئى فريد هو « الحلومر » العذب الناقع المسكر المصفي بذاته في نهاية المطاف . فمن ظن ان ما روينا عن الشيخ علي متن بعض الصفحات في هذا الكتاب هو من قبيل التعريض به والتعرض لرصد عيوبه فقد أخطأ قراءة المعني وجهل مدلول الاشارة . وذلك انها احداث رويناها كما وقعت بالفعل وصور استعرضناها كما ارتسمت بالعمل والقول ، ومبلغ علمنا اننا نقلناها لك عن صحائف دفتر الذاكرة كما انطبعت عليها في تلك الأحياء الغابرة . واني لعلي ثقة ويقين بأن التلاميذ كانوا يتلقونها بالفرح والغبطة والحبور وبالقبول الذي حاولت ان ابين لك دواعيه منذ حين . ولقد كان مبعث هذه الصور والمعاني واثرها في اذهان التلاميذ هو هذه العذوبة التي نعتوه بها صادقين ، والتي ظل هو متحلياً بها مشتتماً عليها في جميع احواله . فكنا نضحك لمجرد ان نراه وما كان ذلك بدافع الاستخفاف به او السخرية منه ولكنه علي النقيض من ذلك كان تعبيراً صادقاً عن الفرح به والاعجاب الشديد وعن المحبة الصرفة له والاحتفال بأمره اعظم احتفال . وذلك ان الشيخ ابابكر قد اوتي من دون ريب مقدرات فريدة ميزته عن جميع الاساتذة الاخرين ومواهب نادرة لم توهب لغيره منهم . فاجتمع له من اسباب الجاذبية الحقيقية والقبول ما جعله في نظر التلاميذ اعجوبة الاعاجيب وما جعل تعلقهم به وتحرقهم لشهود حصصه التي جمعت بين العلم الرصين الباقي والفكاهة الممتعة المرسله ابرز معلم من معالم ذلك المجتمع المدرسي السعيد . وآية ذلك انك ان لاقيت احد زملاء تلك الازمان بعد طول فراق فان اول ما تتنا ولانه من ذكريات ذلك الماضي بالمرح والضحك والحنين هو سيرة الشيخ ابي بكر الثرة العطرة دون سواها ، وهو نوادره الكثر اللبقة الذكية الخالدة .

لقد كان الشيخ ابو بكر حجة بالغة في علمه وبحراً زاخراً في الفقه واصول الدين . وقد كان واضحاً جلياً انه يحفظ القرآن عن ظهر قلب ، فاذا تلا علينا منه شيئاً رأيتة وهو اقرب للبكاء منه لأي شئٍ آخر ، وذلك من فرط تأثره بما يتلو من محكم القول وأصدق الحديث . وأبصرت بعيني رأسك وأنت الصغير الغر جلالاً يحف به ورونقاً

يشتمل عليه ويعلي من قدره في اعين الناس . ولا مست احاسيسك منه صفاء ونقاء  
كما لو عارض كفاك سلسلاً من الماء ناقعاً بلوري الاديم . فهو يسبح بك في تلك  
العوالم القدسية سباحة مقتدر بصير بكنوز الثبج واللجة والاعماق . فيقرب الي ههناك  
بتلاوته الفصيحة الحنونة روائع امهات المعاني ويوقد في روعك ووجدانك وسائر حواسك  
ومشاعرك أضواً سرج التلقي والاذعان لهدي القرآن الكريم . فاذا فرغ من تلاوته التي  
تأخذ بمجامع القلوب وتنغذ بالأمن والطمأنينة والسلام الي اعماق النفوس فانه يصمت  
هنيهة وكأنه يستمع في رهبة وخشية واخبات الي اصداء ما كان يرتل علينا منذ حين .  
فتلك هنيهة من الهدوء لا يفسد روعتها وجلالها همس ولا قيل ولا حراك . حتي اذا ادكر  
بعد امة طفق يشرح ما استعصي علي الفهوم الصغيرة من المعاني والمفردات . فهو  
عالم بليغ لم يغرر المعاني ودرر الالفاظ أحسن إلمام . ومن عجب انه لا يكتب علي  
السيبورة ابدأ ، ولا يستصحب في حصته كتاباً من الكتب او مرجعاً من المراجع .  
يحمل علومه في خزائن رأسه حيثما ما مضى ، ويطلعك من كنوزها علي النسق والقدر  
الذي يطيقه فهمك وتلين له اعضاؤك وتتسع له مداركك وترقي به معارفك وتتنامي من  
فيضه قدراتك ومواهبك . وهو استاذ ذكي شديد الذكاء لا يفوت عليه أبداً شئ من عبث  
العابثين أو مثابرة المثابرين . ولكنه يتغافل احياناً عن هذا وذاك . وما تغافله عن عبث  
الثالوث الذي حبب اليه في فصلنا في اول امره بغائب عن احد ولكنهم اخلدوا الي  
سراب الاصطفاء البشري الذي لا يدوم واذلهم نوم الغفلة عن اليقظة والرؤية ، وفات  
عليهم ان الشيخ - مع وقاره واخباته وتقواه - يستبطن مكرراً وانه واسع الحيلة والدهاء  
. فهو مازال بهم يمد لهم مدأ حتي اذا أمنوا واستعاض كل مهم عن حفظ سور القرآن  
بما ظنه مكانة عالية له في نفس الشيخ ، اتاه الشيخ من حيث لا يحتسب ، فانزلهم  
جميعاً - في تتابع درامي غير مسبوق - من صياصيههم ، وقذف في قلوبهم الرعب -  
وان كان رعباً مسلياً ومحبباً كما قدمت لك - مثني منهم بقي في المدرسة يلعن الغفلة  
وينال من الشيخ بما لا يؤذي ولا يستنكر والتلاميذ من حولهما يضحكون ملء الاشدق

لأنهم به معجبون ، وثالث الاثنين قد غادر المدرسة نهائياً بلا رجعة . اما الاثنان فهما  
عكود والدريديري . وقد صار سقوطهما من تلك الاعالي واحدة من أخلد قصص ام  
درمان الاميرية التي تبعث علي الضحك واجتلاء احلي الذكريات كلما التقي رهط من  
ابناء تلك الايام فطاروا بأخيلتهم الي تلك المراتع الحبية . واما ثالثهما الذي غادر  
المدرسة إثر تلك السقطة التي مازالت حدثاً منقوشاً في ذاكرة كل من عايش تلك الايام  
الرغدة الرخاء فهو الحبيب . ولم تكن تلك السقطة التي مني بها من نظر الشيخ إلا  
عاملاً مساعداً لوضع حد لأيامه ويقائه في ام درمان الاميرية ، ولعلها لم تكن إلا  
مصادفة لا علاقة لها اصلاً بأسباب زهده في المدرسة ومفارقتها لها في تلك السن  
المبكرة . وقد كان لسان حاله في تلك اللحظات يخاطب الشيخ منشداً من وراء احزانه  
الكثر وبثوته التي لا يفصح عنها لأحد ولا يبوح بها إلا لخالقه :

أذهب يوم واحد إن أسأته # بصالح أيامي وحسن بلائيا ؟

ولقد ادرکنا جميعاً بعد تلك السقطات المتتابة المدوية التي مني بها ثالث  
الاصطفاء والاجتباء بعد ان قلب له الشيخ ظهر المجن ان الخير كل الخير في  
الاستعداد قبل الفوات ، وانك ان أردت الأمن الحقيقي فاحرص علي ان تلقي الشيخ  
وقد احطت بمالم يحط به غيرك خبيراً ، والا تغادر شيئاً مما يتحتم علي مثلك معرفته  
والا تيان به علي احسن الوجوه التي ترضي الشيخ إلا وبذلت فيه من الجهد والمثابرة  
بغية الاستيعاب الكامل ما إن أثقاله لتتوء بغيرك من العصبية أولي القوة علي الاستذكار  
وحفظ سور القرآن وأحياناً نصوص الاحاديث وشرحها وما يستنبط منها . فانك لا  
تدري ما ينطوي عليه الشيخ وما يمكن ان يباغتك به من سؤال . فهو كالصبح وضوحاً  
وكالليل خفاءً وانبهاماً :

فبين اختلاف الليل والصبح معرك # يكر علينا جيشه بالعجائب

لقد كان الشيخ أبو بكر - كما قدمنا - يدرس في فصلنا القرآن . وهو اساس  
الدين كما تعلم . غير اننا كنا نتلقي دروساً أخرى تسمى حصص الدين تشمل الفقه

والاحاديث النبوية وشرحها وما يستفاد منها من حكم ومواعظ وهدى مستقيم ، ورغم ان حصص الدين كان يضطلع بها غيره من الاساتذة إلا أنه كان يتحفنا ببعضها احياناً علي غير دوام او انتظام . فكان يحلو له اذا فعل ذلك ان يخلق بنا في عوالم ما يستنبط من الحديث . واذا بنا ونحن نستمع اليه امام بحر زاخر من العلم لا ساحل له ولا شيطان ، وأمام محيط هائل من لغة العرب وأدائها كم تمنينا ان نسبح فيه ونفرق في ثبجه راضين مأخوذين مبهورين . فقد جمع الشيخ بين رخامة الصوت في التلاوة وعمق المعرفة باللغة واصول الدين واللباقة وحضور البديهة والمقدرة الخارقة علي حسن الاستشهاد . وعلي الرغم من انه لم يكن يتعمد رواية النكات والملح والطرائف علي اسماعنا إلا أنها كانت دائماً تأتي عفوية مرسلة في متون وحواشي حديثه العذب الجذاب دون جهد او تعمل او اصطناع . فكنا نتابع مقولاته الذرية المحلاة بفضوص الحكم ولطائف الفكاهة فلا نمل وان طال حديثه وهو عادة لا يطول ، ولا نستتكف وان اصلينا من سخريته اللاذمة ناراً وهي عادة لا تخبو حتي يتصاعد منها اللهب . فالظرف والطفرة والبلاغة هي بعض مواهبه ، والسخرية الحارقة اللبقة التي تبعث علي الضحك والمرح واحدة من أحلي خصائصه ، والدقة واليقظة وتمام الحيلة في متابعة العبث الطفولي المستتر في مظاهره التي هي مظاهره دلائل صفاء حواسه الست المتساوية المقدرات . فاذا عثر بك وانت مقارف لجرم الشوشرة والهرجلة والاخلال بقواعد السكينة والهدوء خلال شروحه المقتضية الحاوية فالخير لك في ان تعترف ولا تجادل فانك ان فعلت ذلك دون لجابة او مشاحة أعجبتك فيك شجاعتك وربما عفا عنك وصفح ، وان جادلت عن نفسك فلن ينفعك الجدل . ولهذا الذي ذهبنا اليه من طرائق تعامل الشيخ مع تلامذته أمثلة عديدة تضيق صفحات هذه الذكريات عن بسطها وسرد احداثها وتفصيلها ، ولكننا نشير إلي بعضها اشارات عابرة في هذا السياق . فهو قد ضبط عبد الكريم احمد حميدة مراراً وهو يحاول اخفاء ادواته الهرجلية الشغبية . غير انه كان في بعض الاحيان يتغافل عنه ويمهله ويمد له مدأ ، حتي اذا ضاق به ذرعاً

اذاقه صنوفاً من كرب يده ولسانه . وكثيراً ما كان يهتف : اوقف انت يا مكي يرعي ( بياء قبل الرء ) ويرى في ذلك زراية موجعة له لقاء ما ظن او استيقن انه قارف من تجاوز لحسن الأدب . واذا برم بمشاغبة محمد العوض لم يجد - بعد ان اعيتته العقوبات التي انزلها بمحمد وهو « يكتكت » بالضحك - غير انه يقول له في هدوء تام ونبرة توحى بالوعيد : « أحسن تنظم انت يا عبد السوء قبالي ما اكسر سنيناتك المتل سنينات الفار ديل » . ولكن محمداً « لا ينظم » وهو يعلم ان وعيد الشيخ بتكسير السنينات ليس اصدق من تهديده بكسر الرؤوس . وما اكثر ما كان يروي تلاميذ الفصول الأخرى من نوادر الشيخ معهم ! ففي ذات مرة سأل التلميذ عبد المحمود ابو شامة الشيخ عن تحريف الانجيل وسلامة القرآن من التبديل . فاستعظم الشيخ مثل هذا السؤال من تلميذ في السنة الاولى ، وطفق يحاكيه في طريقة كلامه حتي اثار عليه الضحك من بقية زملائه . ولما بلغ به من التندر عليه حد « التدويخ » ختم نكيره عليه بصفعة مباغته علي خده أو مضت لها عين الفتى ببريق كتطاير الشرر . ولكن عبد المحمود اسرها في نفسه ولم يبدها لأبيه . وغلب عليه فضوله فوجه ذات السؤال لأبيه ، وهو الشيخ ابو شامة العالم الديني المعروف والمفتي والقاضي الشرعي الشهير وأحد الرواد القلائل الذين قام علي اكتافهم معهد ام درمان العلمي . ولم يضق الشيخ ابو شامة ذرعاً بسؤال ابنه فهو يعلم انه تلميذ ذكي سأل لحوح فما زاد علي ان ابان له الحقيقة واحضر له في اليوم التالي نسخة من الانجيل العرب المتداول بين ايدي الناس . فحمله عبد المحمود معه الي الفصل . فلما ابصره الشيخ ابو بكر عنده سألته : ما هذا الكتاب ؟ فقال : هو الانجيل الذي سألتك عنه ، وقد احضره الي ابي . فتعجب الشيخ من « ملاوة » عبد المحمود واصراراه في هذه السن المبكرة علي الوقوف علي مالا طائل له من ورائه . ولكنه امسك عنه يده ولسانه هذه المرة واكتفي باحالة الامر برمته الي الاستاذ يوسف زمرابي ناظر المدرسة . ولما كان الاستاذ يوسف زمرابي رجلاً « حبوباً » متسامحاً وهو يعرف الشيخ أبا شامة حق المعرفة فانه لم يأخذ علي



تلميذه الصغير شيئاً من ذلك وإنما ارسله راضياً موفوراً . ولقد عجبنا في بادئ الامر من تصرف الشيخ ابي بكر ازاء هذه القضية ولكننا ادركنا بأخرة انه كان حريصاً علي ان لا يخوض تلامذته الصغار في مثل هذه الشؤون التي ربما كانت ما تزال بعيدة عن حسن ادراكهم وربما اقتتنوا بالخوض فيها عن دينهم وتفرقت بهم السبل . وفي هذا من الفطنة والحذر ما فيه . غير ان الشيخ ظل يردد من حين لآخر مقولات عبد المحمود ويحاكيه ويتندر عليه حتي شغل عبد المحمود بنفسه وألهاه وزهده في مثل هذه اللجاجات بما أثاره فيه وفي زملائه من الضحك وابدال الجد الذي لايجدي بالفكاهة التي تحلو بها الأوقات وتزدان بها الايام وتزدهي وتطيب .

لقد فارقت عبد المحمود بعد تلك الايام الهائلة الضاحكة رداً من الزمان . ثم التقينا بعد طول فراق علي غير موعد وبدون سابق تدبير . فعرفني وأناله منكر . غير ان عذري انني كنت اسير بعض همومي التي حملتني الي حيث لقيته مصادفة دون قصد ولذلك لم انظر الي وجهه بأي نوع من التدقيق ولو فعلت لعرفته ولما خفي علي امره . فان التلاميذ الذين عرفتهم عن قرب في تلك العهود الخالية ماتزال صورهم ووجوههم محفورة في ذاكرتي منقوشة في مخيلتي لا اجد مشقة تذكر في التعرف علي اي منهم ان بصرت به عن جنب او لاقيته وجهاً لوجه . ولقد زاد من خفاء وجه عبد المحمود عني انه كان في تلك اللحظة التي لقيته فيها يحجب عينيه من وراء نظارة سوداء . ولكنه كان سباقاً الي المكرمات كدأبه فخاطبني باسمي كاملاً وهو يبتسم في بشر وترحاب ويميط عن وجهه المناظير ، ويذكرني باسمه كاملاً في ادب جم وذوق رفيع ويضيف في دقته المعهودة : ام درمان الاميرية الوسطي ! وذلك حرصاً منه دون ريب علي الا استشعر حرجاً ان انا نسيت شيئاً مما ذكر واوضح . ولقد تعرفت عليه تماماً في اللحظة التي خلعت فيها النظارة عن عينيه وطالعني ذات الوجه الذي عرفته منذ ازمان ، وذات الانف العربي الموفور الذي طالما كان موضع تعليقاتنا العابثة اللاهية نبادره بها فيضحك هازناً من ضحكنا ونضحك من ضحكك علي ضحكنا حتي نقضي وطراً من لحظات

مرح لنخوض في لحظات غيرها عامرة بالمرح الذي يسعد النفوس ويجلو الصدأ عن القلوب . وطالعتني العينان اللتان عرفت منذ ازمان بعيدة يشع منهما ذلك الذكاء الذي استوقد في احشائه ناراً من العزائم والطموح افضت به الي اعرق وأرقى معاقل العلم والمعرفة فنهل منها ما جعل منه اعلامياً فذاً لا يشق له غبار ومؤرخاً عليماً بأسرار ما انطوي من الازمنة في بلاده وغيرها قل ان تجد له - في عمق ثقافته وسعة اطلاعه وصدق إنبائه - شبيهاً او مساوياً او رصيفاً . انهما ذات العينين اللتين كان يومض فيهما ومنهما ذلك المكر الطفولي الساذج الذي اثمر مع طول الدهر وتقادم العهود درجة فريدة محيطة بشتي فنون الصنائع والمهارات ، ومعرفة دقيقة بشؤون الدنيا وطبائع الناس ، وتواضعاً اصيلاً أسراً يوطئ له حيثما توجه اكناف القبول والاعجاب . لقد تعانقنا طويلاً عند ذلك اللقاء ورحنا نذكر ايام ام درمان الاميرية الوسطي وتلامذتها واساتذتها وفي طليعتهم الشيخ أبا بكر استاذ القرآن والدين واللغة العربية وقطب الرحي في كل ما عطر تلك الاجواء الفرحة الجذلانة من فكاهات واحداث مفعمة بالطرائف واللمع والرقائق . ومنذ ذلك الحين الذي تجدد بيننا فيه اللقاء لم تنقطع صلات الوداد والوفاء بين اسرتينا . تعرفت علي زوجه العالمة المثقفة المتواضعة السيدة الفضلي « ان ابو شامة » وعلي وحيدته الطيبية الذكية النابهة المقتدرة السيدة الدكتورة ماندي عبد المحمود ابو شامة فغدونا بهم جميعاً اكثر جنداً واعز نفراً . ولولا ام درمان الاميرية ، ولولا تلك المادة الغزيرة من الفكاهة ولطائف الحكايا التي وفرتها لخياتنا المشبوية حيوية الشيخ ابي بكر ولوافت خالدة من سير غيره من الاساتذة لما بقيت هذه المودات بين ابناء ذلك الجيل علي غضارتها ونضارتها وطلاوتها التي حفلت بها واشربتها منذ نصف قرن من الزمان ، ولما صح ان ينشد في حق ايامها منشد :

وما تفضل الايام اخري بذاتها # ولكن ايام الملاح ملاح

ولما قارب الحقيقة او اصابها من تحمله اطياف الذكريات الي ذلك الندي العامر وذلك السامر اللامي البرئ فيرده بخيال مشوق ويصدر عنه بقلب ملتان وهو يتغني من

## حسرة الفراق والحنين :

وكيف التذاذي بالأصائل والضحي # اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبسا  
ذكرت به وصلاً كأن لم أفز به # وعيشاً كأنني كنت أقطعه وثبسا  
ومن طرائف الشيخ التي ما زلنا نذكرها ماجري بينه وبين تلميذ فصل الاوائل محمد  
ياسين عبد العال . فقد انشب الشيخ أظفار هزئه وسخريته في لحم ياسين وشحمة  
كبريائه رغم انه كان تلميذاً علي درجة عالية من الذكاء والنباهة وعلي قدر وفير من  
الاعتداد بالنفس . وذلك انه تلميذ مجد طيب السمعة بين اقرانه حسن الهيئة والخلقة  
والاخلاق . ولكن الشيخ مولع - كما قد علمت - بالدعابة يبتدع اسبابها ابتداءً  
ويجتلي بواعثها اجتلاء . اذا اثارك حديثه كان ذلك عين المراد لأنه يتخذ من رد الفعل  
الذي تبوء به مبرراً موالياً ليعتريك ويشتمت شملك . اما اذا لم تغضب لحديثه فربما  
تغافل عنك وصفح ، وفي نفسه ترة من غيظ ويقية من حنق وشئ من الاكبار الخفي  
قلما يبوح به اللهم إلا اذا اراد ان يهجو غيرك بمدحك . فهو كلف بعقد المقارنات التي  
ترفع اقواماً وتخفض اخرين . ولذلك كان كلما شتم عبد الكريم او مكي او محمد الحسن  
الشايقي ختم بالثناء علي الحبيب او عكود او الدرديري او ثلاثتهم جميعاً . غير ان  
ياسين عبد العال كان من البراءة بحيث لم يدرك هذه المرتكزات المفتاحية لفهمك الشيخ  
وتهية نفسك للتعامل مع تقلبات مزاجه . فلما تناوله الشيخ بما ألفه الناس في مثل هذه  
الحالات كبر ذلك علي نفسه الأبية وهاله أن يجهل عليه في ملأ من الناس فصاح  
بالشيخ محتجاً : « يافندي ماتسينني » . وما دري أن ذلك هو عين مبتغي الشيخ وأنه  
جالب له من البلاء مالا يطيقه . فأظهر الشيخ التعجب من وراء بسمته الماكرة ، ومد  
عنقه وفارق بين يديه ، وسار تلقاه وقد انفرج قفطانه لنصفين كجناحي عقاب يوشك ان  
يقلع من وجه الارض ، واخذ يهتف به في سخرية بلغت اقصاها في تموجات صوته  
خفضاً ذا معان وعيدية وارتفاعاً ذا دلالات إنفاذية : « فندي ماتسينني » . « فندي  
ماتسينني » اوقف يا ... « فندي ماتسينني » . ثم كان منه من الزاوية بياسين والتندر

عليه والاشتفاء بالكف ما صار حديث مجالس التلاميذ آنذاك وما ظل عالقاً بذاكرة الكثيرين ممن بقي منهم حتي يومنا هذا . فهذا هو بعض إباء ياسين الذي اشقاه ، وتلك هي بعض مخاشنات الشيخ التي لونت ظرفه ودعابته وطرائفه حتي ملأ الدنيا وشغل الناس .

وفي ذات مرة نفح الشيخ احد التلاميذ مكافأة نقدية لأنه اماط عن طريقه الاذي فسره ذلك واعجبه . ولكن تلميذاً آخر من زملاء هذا التلميذ - وهما في فصل يتقدمنا بمرحلتين دراسيتين - طالب الشيخ بنفس المكافأة زاعماً انه لم يكن اقل بلاء من زميله في ازالة الاذي عن الطريق . فصار هذا المسكين هدف تندر الشيخ وسخريته ومحاكاته التي لا تغادر دقيقة من دقائق الحدث والحركة والقول لإامتته ابرع تمثيل والا أخرجته اروع اخراج وإلا أضافت عليه من الرتوش والنقوش والتداعيات ما يجعله طرفة الموسم وحديث الناس ومجتلي أنس مجالسهم ودعاباتهم الي امد بعيد . لقد صار حسان المسكين - علي اثر مقولته البريئة وطلبه للمكافأة التي زعم انه يستحقها - مادة غنية مواتية لبراعة الشيخ وهزئه السافر المحب الي النفوس ومقدرته الفائقة علي المحاكاة واتقان الرواية علي اكمل الوجوه وأبلغها في إثارة الضحك واشاعة الجذل والفرح والغبطة في الانفس والصدور . وظل الشيخ يروي علي تلامذة ذلك الفصل كيف التقى بالتلميذ الذي فاز برضائه وجائزته وكيف جاء اليه حسان بدافع الغيرة وابتغاء الحظوة ينسب الي نفسه ما لم يفعل من حسنة ويزعم انه اهل بذلك للاحسان . وهو يروي ذلك الحديث في صوت متميز النبرات متخير الموجات ظاهره البراءة والرحمة وباطنه من قبله السخرية والعذاب : شفتو اخوكم حسان الكلب شافني اديت رفيقو قال لي : حتي انا يافندي ادني ... حتي انا يافندي ادني ... حتي انا يافندي ادني ... وطفق يردد هذا التعبير الاخير - رواية عن حسان وزاوية به وتندراً عليه - بلهجة الغريبة المعبرة التي جمعت بين اللسان الرباطابي والنغمة الشايقية في نسيج بديع نادر المثال ، وفي حركات مسرحية « منلوجية » يتطلب أدائها بتلك الدرجة من الاتقان والتأثير مقدرات

بهلوان هبط علي هذه الارض من السماء السابعة ، او قدم اليها - وهو يحتقب الخوارق والمعجزات - من قلب وادي عبقر ! واستمر الشيخ يقرض « حسان » بلسانه الذرب البليغ ، ويستعين علي محاكاته بيديه ورجليه ورأسه وعينه وسائر حواسه وجوارحه حتي « مسخ » الدنيا علي حسان وحتى تقطعت مصارين الاولاد من الضحك « والقرقراب » والعجب . وخنس حسان المسكين وهو يضحك ايضاً ولكن في حزن وأسي ، حتي اذا اوسعه الشيخ شماتة واشبعه تندرأً ومحاكاةً وتقريعاً بآء بندامة وأسف وانتفخت أشداقه من « الغلب » والغيظ فهو كظيم . ولم يتركه الشيخ الا بعد ان أصلاه سعيراً من البهدلة « وشيل الحس » حتي احمرت عيناه وتراخت شفثاه واطبقت علي وجهه « التلاليش » واوشك الامر ان يفضي به الي البكاء الصراح والنشيج والنحيب . فعند ذلك امسك الشيخ عنه وكف عنه اذاه فقد رزق الشيخ - كما اوضحت لك من قبل - حاسة سادسة شديدة الصفاء تشير اليه في الوقت المناسب وقبل فوات الاوان بأن ينتقل من حال الي حال ، « يفلق ويداوي » ، ويتحول الي موضوع آخر بسرعة وحكمة ولباقة ، ومن خلاله يذم اقواما ويمدح آخرين ثم لا ينسي ان يختم ذلك المنلوج الدرامي برشاش من الفاظ احسن انتقاءها ينثرها علي من يريد وكيف يشتهي ، فلا يغادر عبد الوهاب سنادة إلا ونعته بقوله « سنادة الدني » دون جريرة معلومة الا ان تكون مكرأً سنادياً خفي علي الناس واطلع الله عليه الشيخ من وراء الغيوب والحجب والاستار . وذلك ان عبد الوهاب سنادة - علي ما اشتهر به من ذكاء حاد وذهن وقاد - قد عرف بميله الشديد الي الهدوء والسكينة وتفضيله الواضح للصمت علي الكلام ، حتي صار يدعي « أبا الهول » بين زملائه فيما تلتك الازمنة من عهود . فاذا كان « أبو الهول » مظنة الهرجلة بين اولاد الفصل في نظر الشيخ ، وهي التي تشير حفيظته وتغريه باطلاق لسانه علي من يتهم - فما ظنك بأهل الهرجلة الحقيقيين الذين لا يمكن ان يخفي امرهم علي الشيخ ؟ فهو الذي رزق من فوق حواسه الخمسة « راداراً » مقتدرأً علي التقاط جميع الانفاس والحركات والسكنات . وانت اذا وقعت في

دائرة غضب الشيخ - سواء كان ذلك زوراً أو نوراً - فاعلم أنك مهما تحايلت واتخذت من وسائل النجاة من مثلة لسانه بك فلن تعجزه هرباً . فقد قل أو ندر من بيننا من لم يقع في القبضه ، وانه ليكاد من فرط احساسه بالوقوع الوشيك ان يتمثل - وهو ينظر الي الشيخ - قولة النابغة في بعض اعتذار ياته :

فانك كالليل الذي هو مدركي # وان خلت أن المنتأي عنك واسع

وعلي الرغم من ان هذا الادراك في حالة الشيخ قد يكون ادراكاً باللسان دون السوط ، وهو دائماً يشتمل علي كل ما يبهج ويسلي من الطرائف ، الا انه يمكن ان يخالف ذلك في بعض احايينه ويستحيل الي زراية موجعة أليمة ، يزيد من شدة وقعها علي نفسك واذاها سرعة انتشارها بين الناس ومدى تداولها وتناقلها فيما يشبه اشتعال النار في الهشيم .

غير ان التلاميذ - كما ذكرنا - كانوا يستملحون كلام الشيخ استملاحاً ويتلقون شتائمهم في اغلب احيايهم بنفوس راضية وصدور رحبة تكاد ان تكون مثلجة ايضاً ، حتي اذا انتهى بهم الأمر الي الصفعات واللبعات والكفوف . ولقد كان كاتب هذه السطور من التلاميذ المعجبين بالشيخ ابي بكر اشد اعجاب ، وليته عرف ذلك عني فأخرجني من دائرة ريبه وشكوكه . غير انه - والحق يقال - كان كثيراً ما يتغاضي عن هرجلتي وذلك قبل حادثة « ويل للمطففين » التي قصصتها عليك من قبل ، ايام كنت في نظره « الشريف » الذي يحفظ القرآن ، والذي هو ولد مؤدب ومرأة البيت وغير ذلك من النوع الزاهية التي اسكرتني حتي دارت علي الدوائر ، وأسكرت غيري حتي ظهر أمر الله وهم كارهون . واني لأذكر ان الشيخ استدعاني في ذات صباح الي فصل السنة الرابعة « الثواني » وكنت في ذلك الحين في السنة الثانية . ولما مثلت بين يديه اعطاني ورقة كبيرة ودعاني الي الاشتراك مع اولاد ذلك الفصل في كتابة مقطوعة انشائية كان موضوعها كتابة خطاب الي ناظر المدرسة يشتمل علي المطالبة بتخفيض المصروفات الدراسية ويبين الاسباب الداعية الي ذلك . ولقد دهشت كثيراً لهذا الامر الذي كان

مفاجئاً بالنسبة لي وذهبت في تفسير مغزاه مذاهب شتي لم يكن من بينها أنه يحسن الظن بي الي هذه الدرجة . فهو لا يمتك أبداً باطالة حسن ظنه فيك الا ريثما ينقلب عليك من حيث لا تحتسب فتغرم أضعاف ما اعطاك . ولذلك فاني ظننت ان الشيخ اراد ان يوقع بي الأمر في نفسه لست اعلم له مبرراً يمكن ان اركن الي عدالته . غير انه قد ظهر لي جلياً بعد حين انه كان صادقاً فيما نوي وانما اراد ان يسخر من اولاد السنة الرابعة لبعض قصور لمسه فيهم او تصرفات منهم اغضبته عليهم فالتمس تلميذاً في السنة الثانية كان يحسب انه يمكن ان يتفوق عليهم في اجادة كتابة الانشاء . وهو عندي كان يريد من وراء ذلك ان يستثير الحمية والغيرة فيهم وان يفهم دفعاً بهذا الاختبار الصعب الي اظهار احسن ما عندهم من مقدرات حتي لا يتيحوا الفرصة لتلميذ صغير « هايف » من اولاد سنة ثانية ليمرغ انوفهم في التراب . ولكن التجربة كانت بالنسبة الي بالغة القسوة وكان عنصر المفاجأة فيها يكاد ان يكون مثبطاً ان لم نقل مدمراً . ولقد ظننت - ثم تبين لي صدق ظني بعد ان قطعت الشك باليقين - ان الاستاذ منصور حسن امين كان أيضاً من وراء ذلك التدبير . وذلك انه اخذ اوراقى - بعد تلك التجربة المريعة التي لا احسب اني اجتزتها بنجاح يذكر - يطوف بها علي الفصول فيما يشبه المباهاة بانجاز واحد من تلامذته الذين احسن تدريسهم وتدريبهم وتعهد مقدراتهم بالرعاية الصادقة والعناية القصوي . واني لا نكر ذلك الفزع الذي اصابني في اول امري فارتج علي قلبي حتي كاد ان يسقط من يدي وذلك علي اثر نظرات مستنكرة حانقة ملاي بالوعيد ونذر الشر والثور كان يحد جنني بها لفيق من اولاد ذلك الفصل يكادون يسطون بي ليحيلوني مزقاً منثوراً . ولست علي ذلك بلانم أحداً منهم وليست علي الجهر بلوم الشيخ علي ما أدخلني فيه من زعر وجرح بقادر . ولولا ان شقيقي الفاتح كان واحداً من اولاد ذلك الفصل لتدافعت إلي في فسحة الفطور لا كمات الايدي وراكلات الارجل ونواطح الرؤوس ، ولتناوشتني الانياب والاضفار والأسنة الحداد من كل صوب ، ولأصبحت عبرة لمن يعتبر وكان أمري فوطاً .

ومن عجب ان الشيخ لم يجزني علي مادفعني الي المنافسة غير المتكافئة في حلبته ، ولم يعصمني حسن بلائي النسبي من سوء ظن الشيخ الذي صيرني الي درك « صفر من اطناشر » فيما بعد فلم يشفع لي عنده حين ذاك أني كنت لديه فيما مضى من المقربين . غير أنه تكرم فأبقي لقب « الشريف » الذي كان قد خلعه علي منذ يومه الاول ، وان كاد في احدي سورات غضبه اللاحقة ان ينزعه عني نزعاً وان يجردني منه تجريداً ، وان يهدر من بعد ذلك دمي حتي يتفرق بين القبائل .

ولقد كان مما حيرني واشكل علي فهمه بعد تلك التجربة المريرة التي دفع بي الي رحاها دفعاً وأنا كاره مرتاب ان الشيخ لم يبد اي نوع من الاهتمام الحقيقي بما اسفرت عنه المنافسة او المشاركة في كتابة الانشاء او المناطحة او سمها ما شئت . ولعل ادائي كان دون المستوي الذي يريده فلم يعجبه ولم يستهويه . او لعله خشي ان هو عبر عن شيء من الرضا عنه والاحتفال به ان يثير ذلك حفيظة اقوام فتشتعل نار الفتنة الهوجاء من جراء ذلك تضرمها شماتة الشامتين وتعلي من ألسنة لهيبتها مجانات العابثين فيضيق علي الناقمون الخناق ويفجعونني بضرب البنان وشد الوثاق ، ويذيفونني ضروباً من كل ما هو مر المذاق من نكيرهم وبأسهم الذي ليس عليه من مزيد وهم قد قدموا الي من نظراتهم الساحقة الماحقة بالوعيد . فأبوء بالخسران والحسرة وسوء المنقلب والعذاب الشديد ، جزاء وفاقاً علي تقحمي المصاعب واستهانتي بالعواقب والشر قدام عيني باسط ذراعيه بالوصيد ! او لعل مبتغي الشيخ اصلاً لم يكن ليتعدي اقامة ذلك المشهد الدرامي المثير اشباعاً لرغائبه في براعة الاخراج ، وتعبيراً «مفتشراً» عن نقمته علي اولاد الفصل وفق المزاج ، وإنذاراً صريحاً لكل من تحدثه نفسه بالبرم والاحتجاج . او لعله اراد ان يلهو بعض اللهو ، والفصل في سكونه مثل بحر موسي رهو ، ليهيئ لسخريته المحببة الي نفسه مادة حية جزيلة ، فلم تبلغه مرتجاه مقدراتي الضامرة الكليية ، ولم تمكنه من تحقيق ما عزم عليه وانتواه ، ولم تساعده علي ادراك ما أحبه وابتغاه ، من مكر بغتية ذلك الفصل ، وتقليل لشأنهم



بالفعل . علي ان يكون ذلك الحدث علي رؤوس الاشهاد ، وتجري فصوله امام نظر كل الخلق والعباد . ويبدو لي أن ما قام به الاستاذ منصور ، من اذاعة حثيثة للنبا المثبور ، حتي فشا وشاع بين الناس ، وأفرخ في صدورنا الوسواس ، لم يكن وليد نقمة علي اولاد ذلك الفصل ، وما كان في حقيقته ويواعته بالهزل ، بقدر ما كان حماية منه لواحد من تلامذته الصغار ، وتشجيعاً له علي تقحم الأهوال والأخطار ، كلاءة له ورفعاً لروحه المعنوية ، في وجه صمت الشيخ عن نتيجة القضية . وذلك لما كاد تلميذه الصغير ان « يتلجلج » ، ووجه الشيخ من فرحته يتبلج ، لأنه قد اجاد صنع المقلب ودفن بالغرير في المطب . فأصبح المسكين رهن القيد ، في لعبة المناطحة والتحدي . يخوض معركة عديمة التكافؤ مع فتية قد اضمروا التواطؤ . فغاية مايرتجي من مثله الصمود في غابة الصقور والنمور والفهود . الي ان يهيا الله له كريم المخرج من ربقة الاسار والخرج .

علي ان الشيخ ابا بكر لم يكفه تقديراً علي انه ما ذكر جهدي بخير ، وانما اباح لنفسه ان يجعل مني ايضاً هدفاً لسخريته ، فراح ينسج حول ذلك المشهد الاقاصيص . ومن أعجب الأشياء أنه علي الرغم من أنه بليغ يمتلك ناصية اللغة العربية أحسن امتلاك ، ومقتدر علي الفتوي في كافة شؤونها وفنونها اعظم اقتدار إلا اني لم اسمعه ابدأ يتمثل بالشعر او يتغني به ، مع أنه قد اوتي كل الخصائص التي تمكنه من نظمه أروايطه علي اقل تقدير . فهو لايستدل بأي نوع من الشعر علي ما يريد ايضاحه وتبيينه لنا من شروح وعلوم . ولعله كان يصول بمثل هذه المقدرات التي خفيت علينا في الفصول الأخرى التي يقوم فيها بتدريس اللغة العربية كمادة قائمة بذاتها . ولكني رأيت سجعاً مولعاً بالسجع كلفاً بهذا الفن من فنون البلاغة حتي في حديثه باللغة الدارجة . وما إتياني بهذه السجعات المملة التي تقدمت الا محاولة للتحليق في ذات الأجواء التي كثيراً ما كان الشيخ يطير بنا اليها ويحلق بنا في رحابها . وهو قد اوسعني زراية وتندراً اثر تلك الحادثة التي رسم معالمها بنفسه وحاك خيوطها بيده وأدار فصولها بدهائه من بعد وكأنه لا يعلم . فكانت زرايته بي سجعاً خالصاً : « الشريف خاف قبال

ما اندق القراف « ( وفي المثل السوداني السائر : دق القراف خلي الجمل يخاف ! ) . وكان الشيخ ينطق كلمة « خاف » هذه بطريقة هي غاية في الغرابة ويردها بنبرات متباينة ويأتي مع كل نبرة منها بحركة من جسمه ويديه تختلف عن الأخرى . « الشريف رجف ، وقدر ما قتلوا قياف ما وقف » . « الشريف كان يرجف في الكتابة تقول ايديها فيها ربابة » . « الشريف تاريخه خويوي ، لكنو برضو ولد ظريف » . وهذا هو معني ما ذكرته لك من قبل ان من مواهب الشيخ انه « يفلق ويداوي » في ذات اللحظة ان اراد . وكثيراً ما « يفلق » دون ان يعبأ بالمداواة . وهكذا استطاع الشيخ ان يصنع مني - بعد تلك التجربة التي ادخلني فيها - مادة طيبة سائغة لسخريته ومضغة هينة في الافواه ليس له من هدف وراء ذلك إلا ان يتسلي ويسلي غيره وإلا ان يضحك ويضحك الناس . واني لا علم انه لولا الاستاذ منصور ومنافحته الصادقة عما اسماه بحسن ادائي في تلك المعركة غير المتكافئة لصرت « ملطشة » في عيون اولاد فصلي التواني وافواهم . ولولا تقيير الشيخ ابي بكر وحبسه عني اي نوع من الاطراء او الثناء علي ما يمكن ان تكون قد احزرتة مقدراتي القاصرة في منازلة غير عادلة لما سلمت من بطش اولاد ذلك الفصل الذين ما ان ادخلت عليهم حتي قرأت في وجه كل منهم آيات النذر والوعيد . فاعجب لمسلكين متناقضين من استاذين متوافقين جنيت من تعارضهما الامن والامان وظفرت من تباينهما بالعافية والسلامة . الم اقل لك ان الشيخ ابابكر كان دنيا من المباحج نسيج وحده وان الاستاذ منصور كان حقانياً عدلاً قسط الموازين ؟

لقد قلت لك إن الشيخ أبا بكر كان أمره كله عجباً . ويمكن القول بأنه قد تفرد وامتان علي جميع اقرانه الاساتذة بقدرات ومواهب لم يضارعه او يدانيه في أي منها أحد . فأول هذه القدرات والمواهب التي انفرد بها هو ذلك الصوت الرخيم العذب الشجي الذي يرتل القران ترتيلاً تقشعر منه الجلود ( ثم تلين جلودهم وقلوبهم الي ذكر الله ) وتتقطع علي اثره نياط القلوب ، وتشرئب تلقاء جلاله وصفائه الاعناق والحواس ،

وتتوقد في النفوس من نوره مصابيح الهدى والايمان والاذعان والتقني والانقياد ،  
وتتهامي من فرط التأثر به وهيبة اشاراته ومعانيه المدامع علي الخدود . وثانيها هو تلك  
المعرفة الجامعة المحيطة بأسرار اللغة ومقاصد الحديث النبوي الشريف ومثونه ، الفاظاً  
درراً غوالي هاديات ، ومعاني ذهباً صرفاً مسبوكةً موضوعاً ، ودلالات نواصب وافيات  
تستقر تبعاً في الفهوم والوجدان . أما ثالثة مواهبه فهي خفة دمه وروحه علي السواء ،  
وذلك الظرف الذي هو ملازمه حيثما كان ، والذي هو بعض اسباب سلطانه علي  
المشاعر والاحاسيس . اما خفة دمه فهي التي هيأت له القبول عند التلاميذ ووطأت له  
في قلوبهم أكناف المحبة وقاربت بينه وبين مشاعرهم قريباً جعلهم يتشوقون الي  
حصصه علي ما كان يشتمل عليه بعضها من وكزات حسية ومعنوية بالغة الايذاء . فاذا  
غاب عنهم افتقدوه وسألوا عنه وألحفوا في السؤال ، واذا ألم بهم بعد غيبة فرحوا  
وأقبلوا عليه واحتفلوا بأمره أعظم احتفال . ففي روجه وداعة ورقة وخفة وشفافية ، وان  
كان في بعض تعابيره التي يطلقها مرسلته شوارد بعض غلظة وجفاف ، ومع ذلك فهي  
تشكل مادة ممتعة لونسثهم في شتى المجالس . ولو كان الشيخ ممن يحفلون بالشعر  
لحق له ان يتمثل قول أبي الطيب دون حرج يذكر أو لوم عليه من أحد :

أنا م ملء جفوني عن شواردها # ويسهر الخلق جراها ويختصم

وأما ظرفه فانه لم يقتصر علي الدعابات الذكية البارعة وانما عبر عن بعض جوانبه  
باهتمامه العميق بقضايا التلاميذ ومشاكلهم الخاصة اذ كان يسعى بها الي ادارة  
المدرسة ابتغاء مساعدتهم وانصافهم وان كان ممن لا يحتفظون بأسرار الناس وانما  
يفشيها إفشاءً ويشيعها علي الملأ ويتعقبها بسخريته المعتادة ولكن بعد ان ينتصف  
لأهلها ويقضي عنهم حوائجهم لا يبقي منها شيئاً . فهو امرؤ تلذ له السخرية «  
والمطاعنة » ولا يري في ذلك ضيراً علي احد . وأما رابعة مواهبه فهي تلك الجاذبية  
الأسرة التي حباه الله بها فضلاً من عنده ويسر له بها عند تلامذته هذه المحبة الفريدة  
وذلك الاعجاب البالغ ، وذلك كيفما كان مزاجه ومهما بلغت مرارة سخريته وحرارة

صفعاته وغرابة تعابيره ومفرداتها التي لا يجد حرجاً في صبها علي المسامع صباً ،  
ولا تفتناً تسيل في عفويتها وارسالها سيلاً دون جهد أو عنق أو تصنع ، فتنساب هينة  
لا تؤذي الا بمقدار ما تؤذيك حقنة الدواء تراء به العافية ، ولا تثير في النفوس من أثر  
يبقي سوي المرح والحبور وداوعي الاعجاب ، ولا يعلق من اثارها بالذاكرة إلا ما يلهم  
الخيال بنوادير القصص ومستظرف التصاوير . لقد اجتمعت هذه الخصال الأربع في  
الشيخ لتجعل منه في نظر تلامذته ياقوته ليس لها من ضريب . ولو علموا لأشددوا في  
حقه وهم يتعجبون من روعة اجتماع المفارقات في شخصه الفريد :

ترمي بطرفك في الجامع لاتري # غير التعانق واشتباك السراح  
سحبت علي الاحقاد اذيال الهوي # ومشى علي الضغن الوداد الماحي  
وجرت أحاديث العتاب كأنها # سمر علي الأوتار والأقـداح  
حلـو السجية في قناة مرة # ثمل الشمائل في وقار صاح

## الخاتمة

وبعد كل هذا الذى قلت فانى أعلم أنى لم أت بجديد . وما كان مرمأى أن أتى بجديد . ولكنى استشعرت وفاء يشدنى إلى هذا القديم ويوجب ذكراه إلى نفسى ، فما أحلى الرجوع إليه ! تدافعت إلى مخيلتى تصاوير أيامه التى انطوت فى حنايا الدهور ، وتنادت إلى مسامعى أسراب من أصدائه وقد تفلقت من وراء جدران الغيوب . ولو أنى أطلت الإصغاء لكل مقطع من مقاطعها ولكل رعشة من رعشاتها لما اتسع لفصولها هذا الكتاب ، ولعجزت عن أن تحتويها وتحيط بها هذه الأسطر والصفحات . وذلك لأنها غنية بالمرائى والطرائف والمعانى الشرد السائرات ، « لا يختصن من الأرض داراً » . فقد جمعت مدرسة ام درمان الأميرية الوسطى فى تلك الأيام الزاهية نسيجاً زاهى الألوان من أسانذتها وتلامذتها وسائر أفراد أسرته يمثل روعة التنوع فى رحاب نسق الائتلاف ... ثم جاءت خور طفت الثانوية لتضفى على هذه الصورة البديعة مزيداً من البهاء وقوة التأثير . وهذه بعض مواهب مدينة ام درمان الخالدة التى صنعت من الفرقة اجتماعاً ومن القطيعة اتصالاً ، ومن التباين رونقاً واتساقاً . ولكننا نعيش اليوم فى زمن لا تعدل ساعاته الطوال بضع ثوان من لحظات تلك الأيام الغالية ولا تساوى شهوره المظلمة وسنيه الكبيسة مقدار هنيهات قصار من تلك الأويقات الضاحية الرخاء . ولقد أثبت فى هذه الصفحات ما شاء الله لى من صور وأحداث تراعت جليات صافيات أمام عيني وهما تجولان فى « سراديب الصدى » وتحققان فى غيابات دروب المدى ، وما قرع أذنى من رجعه المسعد طوراً خطاباً جهيراً وطوراً نداءً خفياً . فتباينت الصور التى ارتسمت كلمات على هذه الصفحات بتباين درجات الظهور والخفاء . فهى حيناً كواسٍ وحيناً حاسرات ... بعض سواطع وبعض غائمات . وفى جوف هذا المدى ما هو منها قوام بين ذلك ، لا يتوارى ولا يستبين !

حقاً لقد كانت تلك العهود أوقاتاً هائلة . ومن عجب أننا لم ندرك ذلك فى حينه ، أو

أنتنا أدركنا فيه معنى غامضاً فلم نحفل به ، لأننا كنا نحلم بما هو أبهى وأطيب وأزهى . وربما تحقق بعض هذا الحلم لطائفة من فتية تلك الأزمان . ولكنى رأيت أكثرهم « وجهشون » بالحنين إلى تلك الصباحات والأصائل ، فأيقنت أنى إنما أعبر بهذه الصفحات عن مشاعرهم وأنقل على متنها صوراً من صوادق أحاسيسهم . فتلك أيام تستحق أن نذكرها بالشوق والحنين لأنها أهدت الينا - ونحن فى تلك السنوات الغضة المبكرة - طوائف من خيرات ونعمى ما تزال تبعث فى الأنفس مشاعر الإكبار والعرفان

أعطتني أيامى أشهى . . مامر على خاطر نعمه

ومساحب أيامى فى الترب . . حديث العطر إلى النسمه

بغى منى الأ أرعى . . لعطايا أيامى حرمه

تلك أيام لعطاياها حرمة فى الأفئدة والأعناق . . ورعاية هذه الحرمة من بعض قيم الوفاء ومن صميم خلائق العرفان . ولذلك أجهدت نفسى لكى أبعث نكراها رطبة ندية فى أذهان وخيالات من يطلعون على هذا السفر وهم من أقاصيصه بمكان ، سواء وردت أسماؤهم بين دفتيه أو لم ترد فليس بمقدورى أن أقف عند كل أحد وأن أحيط بكل شئ . وليت غيرى يصدع بمثل ما به صدعت فيأتى بما توارى عن جنانى واستقر فى ذا كرتة . فلست أزعم أنى أشد وفاءً وحنيناً لتلك السنوات الخضر المونقة من غيرى ، ولا أقدر منهم على نقل صورها عوارى ومؤتزازات عبر كل تلك المفاوز الزمانية السحيقة ، لتمثل أمام الأعين تارة أخرى وتضج وتضطرم بالحياة والحيوية من جديد . قال أحد الشعراء يعلل نفسه بحلاوة الأسى على ما فات :

أمنياتى ذهب الماضى بها . . وخيالاتى طواها العدمُ

ويقايا ذكرياتى تعبت . . فهى لا تبكى ولا تبتم

وهو قد يكون صادقاً فيما ذهب اليه لأن كثيراً من الناس يشبه حالهم حاله . غير أن هذه الذكريات التى نجتلى من وراء الحقب والآماد لم تعرف فى أى من أطوار حياتها التعب ولا البكاء ... وانما جيلت وشبت على النشاط الدؤوب الموسوم بأفانين »

الشيطنة » ، وازينت بالابتسام الملازم الذى لا يعجز أن يبلغ بها مراقى الضحك الهائى الصراح . وذلك لأن أحداثها نبتت فى عافية كفلتها لها براءة الطفولة وخصوبة الأزمنة ونقاء الهواء . فمثلها لا يذهب به الماضى وانما يبقى ، ومثل خيالاتها لا يطويها العدم وانما تتوهج من وراء ظلماته .

هذه ذكرى «أجيال» من رفقة الحداثة والأساتذة والعاملين ... نعمت بالعيش بين ظهرانيهم عدد سنين . التقينا على المودة ، واقترقنا على الوفاء . تعرفت عليهم جميعاً عن قرب ... فما ألفت إلا بدوراً سواطع وأنجماً لآلى فى صفحة سماء صافية الأديم . تشابهت منهم النفوس فى خلائق الخير ، وبرئت الصدور من بوائق الغل . سمقت المقاصد والأمانى إلى منازل الثريا ، والتصقت الأرجل بتراب الأرض . فاجتمعت الملائكية بالترايبية لتجعل منهم أناساً متفردين نسيج وحدهم ... فى زمان متفرد نشر عليهم رواق الأمان . كان صغارهم كباراً مدركين ، وكان كبارهم هداة مبصرين . مشاعرهم ريانة بالمراح والضحك والعبث البرئ ، وقلوبهم معلقة بالطهارة والأمانة وحب الوطن والآخرين . ( فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ) . فيارحمة ربي انسكبي على من سبق منهم إلى دار الكرامة ، وياخير مسؤول جد على من بقى منهم بولايتك الخاصة التى وعدتها عبادك الصالحين . فقد كانوا جميعاً أهل صدق وإخلاص وحب للصالحين . لست بهذا أزكيهم على أحد ، فان الله يزكى من يشاء . ولكنى رأيت أن الطيب من الناس يتقاضى حقه فى الطيب من القول والإنصاف وإن جرده عليه من جحد . ولا يظنن أحد أنى أفضل من ذكرت على من لم أنكر من أهل تلك الديار والأزمنة ، أو أن من أطلت الحديث عنه يفضل من اقتضبت مثل هذا السرد فى حقه . فما كان ذلك مبتغى . وانماهم فى نظرى متساوون ومتشابهون ... هذا يقوم مقام ذاك ... وذاك هو رديف هذا .... فى نقاء الطوية وحسن الخلق وسائر المكرمات . واذا كانت بلادنا لم تحفل بهم كما يجب أن يكون - وكلهم قدم لها أعلى ما يملك إنسان - فهذه سنة الكون الذى نعيش فيه ، ويقينى أنهم فى رضا منها وقبول .

ولئن جاز لي أن اعبر عن مشاعرهم دون استئذان لأنشدت مع عمر الشاعر قوله :  
فكم جبل يغفو على النجم خـده . . وأذيقـاله للسائمات ملاعب  
نظرت إلى الدنيا فلم الف عندها . . كبيراً ادارى أو صغيراً اعاتب  
وما هان لي في موقف العز موقف . . ولا لان لي في جانب الحق جانب  
فيا غربة الأحرار ما أطول السرى . . وملء غيابات السدروب غياهب .



## فهرس الكتاب

من هذه العناوين الجانبية ما يختلف بعض  
اختلاف طفيف عما هي عليه في متن الكتاب ..  
فهي اشارات مقتضبة لا تسع المحتوي وانما تعبر  
عن جانب منه يسير .

الصفحة	
١	المقدمة
	□ الباب الأول
١٣	مقبل مدبر معاً
٢١	محمد العوض .. الدرة الغالية
٣٢	سورة المطففين .. وهاشم الأطرش
٤٠	مكي يرعي .. وسقوط العمامة
٤٧	الكاويوي المسالم
٥٣	عبد الكريم .. والموسيقي
٦١	الراعي واعى
٦٨	الرجل .. وتمباك الدمار
٧٦	مصطفى .. والمحابر .. والأقلام
٨٣	عكود .. ثالث الثلاثة
٩٠	الصبي .. وجمل العصارة
٩٨	عبد الحميد الدكشنري
١٠٧	الحبيب .. ونكبة البرامكة
١١٦	المسكين ضقل
١٢٧	الفنان الموهوب
١٣٤	عباس صالح .. والانعتاق
١٤٣	الشايقي .. ما عندو أمان
١٤٩	هاشم .. ومكر القردة
١٥٧	إحسان .. والأمير أبو قرجة
١٦٤	المسكنة .. ليها حوية
١٧٢	دوز .. ومد البوز
١٧٧	أحمراني ياكل .. أزرقاني جلي

الصفحة	
١٨٥	فتحي وسرعة الرضا
١٩٣	«الحمرة» المفترى عليها
٢٠٠	محمود .. وحجارة من سجيل
٢٠٧	عبد الرحيم .. واللبخ
٢١٤	إبراهيم .. والشيخ الضعيف
	□ الباب الثاني
٢٢٢	قلي .. ما بتقدر تخلي
٢٢٧	خالد .. والغول .. ومنكر ونكير
٢٣٣	عاكف .. والدبابة .. والديمقراطية المركزية
٢٣٩	عوض الكريم .. وحصاة الدين
٢٤٨	الحوزي والهورس .. وجهان
٢٥٤	دمشق نمرة اتنين
٢٦٠	إبراهيم .. وزير الحديد
٢٦٦	عزالدين .. وأناقة المظهر والمحتوي
٢٧٦	توتي .. وجزائر الأشراف
٢٨٣	محمد .. والخيار الصعب
٢٨٩	أحمد .. وتعاليم كبس الجبة
٢٩٥	أبو السباع .. والصداع والمغص
٣٠٢	الكبتل وأبو العلاء .. في سوق الزلعة
٣١٠	عبد الرحمن .. بقرنين وذئب
٣١٨	بايكر .. واللايظمان .. ومحمد بلة
٣٢٥	مصباح .. والطرماج والبسكليت
٣٤٢	وآخرون منهم لما يلحقوا بهم
٣٤٧	منعم .. وعوض .. ورجب .. والقيتارة

الصفحة

٣٥٦	دفع الله .. ليالي القبة .. وكتبليات
٣٧٧	الهادي .. والداندرمة .. والشعر والغناء
٣٨٦	مصطفى .. والزروقان .. وقائمة الأشراف
٤٠٤	قرشلي .. وبخيت .. وثلة من الآخرين

□ الباب الثالث

٤٢٢	اسرة التدريس
٤٢٤	جيل من العمالقة
٤٤٢	تذكرهم بعرفان
٤٥٤	الضابط الذي علمنا الشعر
٤٦٠	البكري .. عراب لغة الأعاجم
٤٦٨	العشق في عالم الرياضيات
٤٧٤	الضيرير الذي يري
٤٨١	الفحة .. قصمت البشمة
٤٩٤	سامي .. وأشعار الفحول
٥٠٢	القواعد .. وينود الغازية
٥١٥	أبو الفصل الذي أحببناه
٥٢٥	استاذ علي .. والصخرة الملساء
٥٣٩	منصور .. والعدالة الناجزة
٥٤٩	محمد المأمون .. والقاعدة السحرية
٥٦١	الغول .. وعم حسين .. والخل الوفي
٥٧١	الشيخ الذي ملأ الدنيا
٥٩٢	خاتمة



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو العالی (المحوزة) الخیرة - ت/ لاکس ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهامع من ش الو قاریون ( خلفه قاعة سید درویش ) الهرم - حیزة  
تلیفون و لاکس ٥٦٣٤٦٩٩